

الرائد افرير جان

موريتانيا

1911 – 1903

قصص مغامرات وجولات وحروب في بلاد البيضان



تقديم وتعليق جنفييف ديزيري فييمن

الترجمة والنشر

حقوق النشر والطباعة محفوظة للناشر

موريتانيا 1903 – 1911

الرائد افيرير جان

موريتانيا

1911 – 1903

قصص مغامرات وجولات وحروب في بلاد البيضان

تقديم وتعليق جنفييف ديزيري فييمن

الترجمة والنشر

حقوق النشر والطباعة محفوظة للناشر



الرائد افرير جان 1869 - 1917

مقدمة المترجم والناشر

بين يدي هذا الكتاب،

لقد أردنا أن نشركك أيها القارئ العربي في التعرف على النظرة التي كان رواد الجيش الاستعماري يرون بها مجتمع البيضان خاصة، وذلك من خلال ترجمة كتاب ذائع الصيت يعتبر من أكثر الكتب الاستعمارية تفصيلاً هو مذكرات الرائد افرير جان المعنونة "قصص جولات وحروب في بلاد البيضان"

سنتركك تحكم أنت من خلال قراءتك لتعلم كم كان هؤلاء متحاملين مستهترين مستهزئين بغيرهم وكم كانوا يجهلون من يتعاملون معهم وبحاكمونهم تبعاً لأمزجتهم. وسترى كم يقعون في الأغلط والأخطاء الفادحة، ونحن حرصاً على الأمانة العلمية في النقل لم نتدخل في عملية الترجمة رغم مضمض تجرع بعض ما يكتب هؤلاء عنا وصعوبة التجرد فيه.

كنا نحسب الأنفاس حتى نظل في حدود الأمانة العلمية ونتجاوز، على أننا إذا لاحظنا خطأ قد يكون مرده إلى الطبع أو جهل المؤلف بالموضوع نعلق تعليقا مختصراً مثبتين الخطأ في المتن ومصلحين في الهامش إذا كان الخطأ قد فات على المعلقة التي تحاول أن تلتطف أحياناً من عبارات الرائد وتجد لها مسوغات.

على كل حال ستري أيها القارئ ذلك وتحكم بنفسك، ورغم ما ستلاحظه فإنك لن تعدم أن تجد ما يفيد أحياناً كثيرة في هذه المذكرات والأمر أصبح من التاريخ فيجب أن يتعامل معه بذلك المفهوم.

وقد كان من بين الدوافع التي دفعت إلى ترجمة هذا الكتاب ونشره غياب المراجع التاريخية المحايدة ولو جزئياً في التاريخ الموريتاني وعزوف أغلب الباحثين والمهتمين بهذا الشأن عن الحديث بشكل موضوعي عن تاريخ هذه الحقبة بالذات

الناشر والمترجم

تقديم

إن ملامح شخصية افيرير جان تتشكل من خلال ظلال الوجوه ذوي الشعبية الكبار في تاريخ استعمار موريتانيا كبولاني رجل السلم و"غورو" رجل الغزو، إن سحنة هذه الجندي التي هي من أكثر السحنات أصالة وأشدّها شراسة وفضاظة حرية بأن تسلط عليها الأضواء.

إن كاتب هذه المذكرات المعنوية في بلاد البيضان قصص مغامرات وجولات وحروب 1903 - 1912 كان في الحقيقة جنديا محترفا أو بالأحرى موهوبا وكان كل همه تقديم الخدمة على حد المثل السائر "أن تعطي خير من أن تأخذ، خاصة إذا تعلق الأمر بالعصا والجزرة" الخير والشر: لم يرد أن يكون إلا ضابطا مستعمرا فالجندي في الحامية تبدوا له خالية من أي فائدة بينما توفر البلاد المستكشفة حديثا حقلا واسعا ومهما للنشاط.

لقد كان يبدو لمعاصريه مفارقة تاريخية، جنديا مأجورا أو ناقما متذمرا تأتها في القرن العشرين وأحيانا رأسا محترفا ومقاتلا وعسكريا متبجحا، ولكن آخرين كانوا ينظرون إليه إنسانا طيبا ورجلا باسلا جسورا ذا نفس أبية وصديقا مخلصا مستقيما كالسيف قلبه في يده سريع الضرب بيد ممدودة لا تنفك قابضة على العصا.

إن هذه الشخصية الخارقة للعادة والتي تسخط وترغب تتحدر من أسرة صناعية. فعائلة افيريرجان المهندسون وصناع الحديد خلفا عن سلف¹ كانوا أصحاب ابتكارات ومقاولات ويملكون مناجم من الحديد لتغذية مصاهرهم ومسابكهم.

وعندما كان الفتى استانيسلاس افيريرجانه يقوم بتفتيش مناجم الحديد في مناطق "ابيرني" الشرقية لصالح أبيه رئيس مصانع الحديد، قرب Annecy التقى الفتى بفتاة اسبانية غاية في الحسن والجمال إنها "الويس ددسكالار" الملقبة في عموم البلاد بالربيع الجميل. وكانت تلك صعقة الحب للفتى "استانيسلاس" الذي شغفته الفتاة حبا وانتصر الحب على كل المثبطات وخاصة قلب الفاتنة "الويس" التي اختارته من بين العديد من العشاق.

¹ بدأت ثروة افيريرجانه في القرن الثامن عشر الميلادي مع اختراع طريقة تصنيع السفن بأوراق نحاسية لهيكل السفينة حتى خط الغاطس هذا الاكتشاف الذي مكن من الحيلولة دون ترسب الطحلب والمحار على الخشب ليحد من العطب ويزيد مدة الاستخدام للسفن وسرعتها. وإبان الثورة صنعت عائلة افيريرجان الأسلحة لمدافع ذات علامة صناعية "مصاهر جسور الرياح" يوجد اثنان من هذه المدافع في ساحة العجزة Les Invalides ويوجد ثلاثة في انكلترا غنيمة أخذت من مقر ST jeand 'acre... خلال حملة نابليون بونابرت على مصر 1798-1799م.

ولكن سرعان ما أصبحت الفتاة المتروجة سيدة قوية الإرادة متسلطة ذكية نشطة بطاقة رجولية فكانت طيلة حياتها تحكم الزوج والطفل والمحيط بل كانت هي في الحقيقة سيد الأسرة، ولد لها ولدها البكر الويس يوم في 3 ابريل 1862 ب"ابريناه" وقد ظل صفيها ربما لأنه ورث عنها طباعها كاملة وإلا فجمالها الخارق للعادة.

وقد ظل "الويس افرير جان" طيلة حياته محتفظا ببصمات من التربية الأمومية، التربية القاسية الخالية من فيض الحنان والإهمال ولكنها تربية فيها نقشف تدعمه محبة عميقة وثقة مطلقة فقد نذر عبادة لهذه الأم التي لولاها - كما يقول - لكنت وغدا بأنا².

هنالك بصمة أخرى تطبع هذا الفتى المراهق وهي العوز. ذلك أنه لما كان في الخامسة عشرة من عمره أرغمت الأزمة الصناعية والده على مغادرة فندقه الجميل في "آنسي" ليعود إلى دار العائلة القديمة الموجودة على ضفاف نهر "الساؤون" وسط بستان جميل من الكرم يمكنه أن يحقق مداخل معتبرة لكن آفة القمل النباتي سرعان ما اجتاحت كروم المنطقة فتبدلت الحياة عوزا بعدما كانت سهلة براقية.

وعاشت العائلة على متاع وجهاز المرأة.

وكابد الولد البكر أكثر من إخوته لأنه فهم أكثر وأصبح الولد رجلا محافظا على متانة الخلق لا يسأل أحدا شيئا ولا يلتزم لأحد بشيء.

وقد كان دائما يحب أن يكن جنديا حيث التحق بكلية اليسوعيين في "مورنتغري" في "فيل افرانش" على نهر "الساؤون" ثم التحق بتلك التي توجد على شارع البريد في "باريز" تمهيدا للكلية العسكرية ب"سانسير" وقد نجح في مسابقة الدخول ولكن بدون حماس. ويعترف لاحقا بأنه كان خلال أيام عطله يحضر غداءه من قمع أوراق البطاطس ولم يكن لديه أي نقد في الجيب ويتردد كثيرا في سؤال عائلته التي يعلم عوزها وفي قبول أي شيء من صديق.

وعندما تخرج من "سانسير" قضى سنتين طويلتين في "برست" ضمن مشاة البحرية وكان يكتفم غيظه في الثكنة وللتخلص من حياة المسكنة في الحامية أبحر إلى بلاد "كوشينشن" حيث أطلق أولى طلاقاته ثم جاء إلى "تونكه" حيث حصل على رتبة العسكرية وشهادة في اللغة الأنامية.

² كلام منقول عن أخت العقيد افريرجان السيد "كونشيتا افرير جان"

كان ذلك بالنسبة لهذا الضابط الفتى مجالا للنشاط والعمل وكانت فرحته بالمشاركة في عمل عظيم ذي فائدة ومشرف لوطنه ومريح لأولئك البشر الذين يتم تحريرهم من نير العبودية المزمّن.

هكذا كان الخطاب السياسي في عهد "جول فري" يصف ما يجب أن يكون عليه الاستعمار، بينما يراه الآخرون أضرار متعددة مخيفة وبخاصة زيادة في الضرائب، وبالنسبة لمن كان في الميدان فإن الأمر يتعلق باكتشاف عالم خارق للعادة من الأشخاص والعادات المختلفة جذريا والحضارات التي يختلط فيها التهذيب واللطافة بالقسوة والشناعة والرفاه والبؤس الشديد والسماحة والخشونة والفظاظة ولكن الإنسان فيها لا يمثل إلا قيمة نسبية جدا³.

يمكن أن نفهم أن فتى حدثا يتأثر بما يصدم حساسيته العميقة ويناقض القيم التي ظل متعلقا بها: الاستهتار بالحياة والاستخفاف بمعاناة الإنسان والإخلال بالواجب... ومع ذلك مضت ست سنوات في ذلك المناخ الحار الرطب لتتهك صحة كانت جيدة ويغادر الويس افيريجان مؤقتا الهند الصينية.

لكن حياة جنود الحامية في فرنسا غير مقبولة في نظره فطالب فور عودته الذهاب إلى مستعمرة أخرى حيث تم ابتعائه إلى إفريقيا الغربية الفرنسية ليصل في الوقت الكافي فقط ليشارك في الحرب مع ساموري ويؤسس مع "جوفر" في بلاد "التارقي" ويدخل تومبكتو التي لا تزال يحيط بها البؤس.

وخلال بقية سنة 1894 تبادل طلقات نارية مع الطوارق والبيضان، إنه لا ينسى أبدا ذكرياته عن بلاد صحراوية ذات مناخ جاف وسكان محاربين أحرار ذلك البلد الذي يرغب بشغف في العودة إليه بعد إقامته الأخيرة في الهند الصينية التي أضناه مناخها حتى وصل إلى بلاد مسقط رأسه شبه ميت (نهاية اغسطس 1902) لكنه ما إن تعافى قليلا حتى بدأ يحلم بالمغادرة ثانيا إلى ما وراء البحار لكنه يحتاج مناخا جافا. وعندما دخل فصل الشتاء في فرنسا كان

³ هناك ضابط استعماري آخر هو العقيد جورج كوسبي من جيل أصغر من جيل افيريجان حدثني أنه خلال إقامته في "تونكين" دعي ذات مرة من قبل أحد الموظفين الكبار وبعد وجبة شهية تحت أنغام الموسيقى الهادئة دعاه مضيفه إلى مصاحبته في جولة قصيرة إلى ساحة لمشاهدة قطع رؤوس اللصوص وقد لاحظ كوسبي أنه قيل التنفيذ يقوم مجموعات من المحزومين بتقديم هؤلاء إلى الجلاذ وعلم حينئذ أن عائلات وأصدقاء المدانين الذين يقدمون الهدايا يستفيدون من إحسان القتل بمهارة بينما لا يستفيد غيرهم من ذلك.

قد كان كوسبي يحاول أن يحافظ على التمسك بالبرودة وعدم الانفعال المناسبين ويتبادل في ذات الوقت الهزل والمزاح مع مضيفه لكنه اعترف بعد ذلك بأنه اعتقد أنه فقد قلبه أمام هذا النوع من المرطبات.

افيريجان يستعيد ذكرياته عن مقامه الأول في إفريقيا الغربية في المناطق الساخنة ولكنها صحية من صحراء البيضان والطوارق ... أصبح يقلب السماء والأرض ليعجل ذهابه، يقرع كافة الأبواب، يزجج أصدقاءه والأشخاص الذين يعرفهم: اللواء "ديروكاجو"، واللواء "آرشارد"، والعقيد "مارشاند" (وقد كان هذا الأخير صديقه وبلديه) والعقيد "روبيلو" واللواء "هوري" والعقيد "بينو" ... وأشعر كافة أفراد الجيش الاستعماري الفرنسي برغبته في التبادل لتعجيل دوره في الذهاب حيث وصلته برقية من ضابط مرتبك بسبب مشاكل عائلية يعرض عليه الذهاب محله إلى السينغال ولم يكن الأمر يعدو قفزة إلى أقرب مكتب للبريد لتوزيع البرقيات.

ومن خلال إقامته في موريتانيا (1903 - 1911) ظل افيريجان محافظا على شوق للحياة القاسية الحرة الرائعة المليئة بالمغامرات التي كان مشغوبا بها، ولتنشيت هذه الذكريات قام بتحرير مذكراته من دفاتره اليومية "كناشه" والتي سماها قصص مغامرات وجولات وحروب في بلاد البيضان من أجل نشرها في دورية لجنة إفريقيا الفرنسية⁴.

يتجلى الرجل العملي من خلال هذا القصص الحر الملون المفعم بالحياة المليء بالأخذ والرد وبالتفاصيل الدقيقة من كل نوع يتذكر هذا البدوي الجديد بكل عجب ورضى بالذات ضربات قاسية وغارات وليالي ثلجية بعد أيام قيظ شديد وحظوظ مشهودة، شق خروف مشوي بعد جوع وعطش قاتلين.

إن التلميذ السابق للمدرسة اليسوعية لا يخلوا أبدا من أسلوب مستعار من الصيغة اللاتينية المصبوغة غالبا بالطرفة والدعابة، إنه كاتب انفعالي ومثير ويعرف كيف يؤثر كيف يرى وكيف يري.

إن أحكامه الحادة والعنيفة غالبا لا يمكن أن توخذ بدون تحفظ لاشك، ذلك أنه كان منحاذا إلا أن مذكراته في الجملة تبقى وثيقة هامة جدا ومصدرا أوليا للمعلومات عن الناس والأشياء في غرب الصحراء خلال بداية القرن وأكثر من ذلك فإنها تعيد عبق تلك الحقبة بما تحمله من أفكار وحساسيات لزمان ولي.

⁴ حصل تأخير ونسيان للمشروع بسبب موت افيريجان 1917 وسبب قيام الحرب العالمية الأولى

عند وصوله إلى "سانلويس" التي كانت عاصمة السينغال⁵ وقتها علم النقيب "افيرير جان" أن رئيسه في الخدمة سيكون "كزافيي كبولاني"، كبولاني كان معروفا في الأوساط الاستعمارية وفي بلاد البيضان من خلال نجاحاته في جولاته في الحوض 1898 وفي طوارق تومبكتو 1899 وأخيرا في اترارزة ولبراكنة.

لقد حصل على اعتماد مخطط عام لتنظيم قبائل البيضان لدى وزارة المستعمرات ومنحه رئيس المجلس "والدك روسو" البطاقة البيضاء بينما أولاه الحاكم "روم" كامل العطف. إلا أنه يعلم أنه يجب أن لا يحلم بالحصول على اعتمادات مالية لتشكيلة استثنائية ولكن يجب أن يتدبر أمره بالوسائل المتاحة والقليلة فعلا وينجح دون مشكلة كبيرة. إنه بالاعتماد على طالعاه وعلى نفسه كثيرا استطاع كبولاني أن ينضج مشروع مهمته في تكانت وأدرار.

ذلك أنه بفضل قامته العملاقة ووقاره المهيب ودرايته الفائقة باللغة العربية ومعرفته بعقليات المسلمين عرف كيف يستميل عطف محاوريه فكان يتبادل الرسائل العطرة وهدايا الصداقة مع اثنين من كبار الشيوخ في الصحراء الغربية الشيخ سعد بوه والشيخ سيديا الذين أصدرتا فتوى بالثناء على رجل السلم. حضر افيريرجان لدى الحاكم العام لبلاد البيضان الذي عرض عليه الخطوط العريضة لمشروعه في التوغل إلى موريتانيا التي تعيش في الفوضى: سوف نعتمد على القبائل المرابطية بحمايتهم من غارات القبائل المحاربة وسنتسلل إلى البلاد سلميا، سننشئ مراكز في النقاط الإستراتيجية من أجل المراقبة وتوقي ضربات الأعداء وسيكسب السلم الفرنسي تدريجيا بلاد اترارزة ولبراكنة المحاذيتين للسينغال ثم تكانت وأدرار وهكذا إلى جنوب المغرب ... فمزيا السلم ستدفع القبائل كافة في النهاية إلى الموالاة.

إن هذا البرنامج الطموح المقدم في شكل جمل متحفظة مصحوبة باستشارات مختصرة بدا للنقيب افيريرجان في أول الأمر غامضا شيئا ما لكنه أصبح أكثر وضوحا ودقة عندما حدد له دوره.

وضع افيريرجان خارج الإطار وتم تكليفه بمركز يجمع فيه المهام السياسية والإدارية جنبا إلى جنب وتم تعيينه فورا قائدا لدائرة اترارزة الغربية وتم تكليفه بإنشاء مركزا وبناء قلعة في

⁵ سانلويس ظلت عاصمة السينغال إلى 1960 حيث انتزعت داكار عاصمة الفدرالية الافريقية الغربية الفرنسية منها هذا الدور وقد كانت سانلويس عاصمة مشتركة للسينغال وموريتانيا إلى أن أنشأت موريتانيا بدورها عاصمتها الخاصة نواكشوط في نفس السنة

نواكشوط⁶ وتأمين أمن المنطقة حسب الجهد والمستطاع وجمع المعلومات عن آدرار البعيد الذي يزعم كوبولاني الذهاب إليه خلال السنة المقبلة.

وقبل ذهابه كان افيرجان يشغل أوقات فراغه المفروضة بسانلويس بالتدرب على التخاطب بلهجة البيضان (ذلك أنه كان لا يثق بالمتترجمين) ومراجعة قيادة العمليات والتعرف على المشاكل المطروحة.

وفي نهاية 1903 بدأت المهمة فعلا

فإنشاء مركز في نواكشوط لن يمر بدون مشاكل، فالمواد المنقولة بالباخرة غير كافية ولا يمكن تفريغها لصعوبة الرسو وتكاد تكون غير قابلة للنقل عبر الجمال والضباط الآخرون الذين تعودوا على الترف حسب قائدهم الجديد يعترضون ويحتجون ضد الريح الثلجية والشمس الحارقة والأطعمة المليئة بالحصى والماء المنغنيزي المسهل...

مصائب كثيرة والجمال تسقط مرضى وتموت لأننا لا نعرف كيف نعالجها، ويفضل تغلبه على هذه العقليات استطاع افيرجان بناء مركز قادر على صد هجمات الناهيين ويحلم بالسعي في أثر الناهيين ومطاردتهم حتى معاقلهم في تكانت وآدرار المجهولين، كل ذلك تطبيقا لتعليمات كوبولاني الذي أوصاه بأن يحاول أن يجعل من المحاربين الأشد إقداما وشجاعة "رجاله المخلصين" لضبط الأمن.

وأخيرا ها هو يكلف بمعاينة "المنافق" أحمد سالم الذي بعد أن أعيد إليه اعتباره وصلاحياته كأمر اترازة بفضل سماحة كوبولاني وقهر الرائد "دلابلان" ها هو يذهب منشقا للحاق بأتباعه المشاغبيين وفور ذلك ارتدى ابن عمه الطامح للإمارة محمد فال ولد سيدي السروال الأبيض⁷ وأعلن الخضوع لكوبولاني.

استقبل افيرجان انفتاح هذا الأمير الذي حضر مصحوبا بمناصرين: فرقة من السفهاء الذين لا تبعت مظاهرهم على الاطمئنان، وكان من بين هؤلاء مجموعة أولاد بوسباع المناصرين الذين التقى بهم افير جان وكان يصطفيهم لأنهم كانوا أشداء وأقوياء ومناوئين للترازة

⁶ أنشأ افيرجان هذا المركز قريبا من شاطئ المحيط في موضع يدعى طرفاية منصور (أئل المنتصر) على بعد 5 كيلومترا من العاصمة الحالية حيث يتم التزود بالماء عن طريق محاور وطرق وعرة في بداية القرن.

⁷ السروال الأبيض بزة أمراء اترازة.

وللناهبين في الشمال وخاصة أهل آدرار فهؤلاء لم يصرحوا قط بأنهم معارضون للوجود الفرنسي.

فيما يخص مصير أحمد سالم فقد حسم الأمر فهو إن يفلت من عدالة قوم أولاد باسباع التابعين لافيريجان فإنه سيفقد شرفه وقطيعة مناصريه ولكنه سيكسب الاحترام الهام والمؤثر من نبلاء "سان الويس" المؤثرين الدائبين.

إن هذه المهام الإدارية جعلت من قائد دائرة اترارزة الغربية حكما في الخلاف الحاد والمزمن بين البيضان البدو أصحاب الدعوى الاقطاعية والسود القرويين الذين لا يعرفون الخضوع بخصوص حقوق الملكية على الأرض في الضفة اليمنى لنهر السينغال، هذه الحقوق المشوشة وغير المحفوظة.

ثم عمل بعد ذلك على تأسيس دور الضريبة في اترارزة والتعرف على المشاكل التي تعترض كوبولاني في موامة اقتصاد إقطاعي مع تصور اقتصادي عصري، على أن يواصل كوبولاني وحرصه المسير إلى تجكجة.

أذن لفرير جانه في مطاردة إدوعيش وقتالهم بالمناسبة ذلك أنهم لا يهينون القبائل المجاورة لهم من خلال السلب والنهب فقط ولكن أيضا لأن أميرهم الشيخ بكار كان قد أذر الفرنسيين بإخلاء تكانت وأقسم بناته على إنضاج أي فرنسي أو مناصر يتم إلقاء القبض عليه على نار هادئة حاليا م. مير الذي يتعرض لخطر كبير.

وهذا صيد سانح على رغبة افيريجان الذي يعمق ويدفع العدو ويزيله من مواقعه ويطارده ويلحق به ويغزوه.

ولكن الأمير يفلت لا لفترة طويلة: لدى بوقادوم وبعد قتال شرس وسط الصراخ والعويل وحممة الخيل وتلاحم الأجساد وضربات المدافع مات الأمير الذي قارب المائة عام. وسقطت خيمته وأوراقه وخزائنه وأسرته في أيدي المنتصر الذي يحاول بلباقة الحصول على موالاة مستقبلية مع المغلوب بتجنيب عائلته وبناته من بطش القوم.

وقد رفع الانتصار على إدوعيش كثيرا من معنويات افيريجان اتجاه البيضان ولكن المتاعب لم تنته بعد فالطريق من بوقادوم إلى تجكجة طويل والماء نادر لا يوجد أكل ما عدى الأغنام المصادرة.

وبعد مسيرة منهكة أوصل افيريجان رث الثياب ممتطيا صهوة فرس جميلة غنمها من أولاد بكار أوصل فرسانه وأعوانه في حالة تعب شديد إلى ظلال النخيل وهم مع ذلك في فرح غامر وإعجاب وإكبار للقائد النقيب.

في تجكجة إنه النصر الحقيقي ويرقى كوبولاني قائد الفرسان إلى رتبة قائد كتيبة ويطلب أربعة أوسمة حرب من نظام أوسمة الشرف لمكافأة هذه النتائج التي لم تكن مرتقبة. ولكنه يحس بأن البطء والروتين الذين يشلان الإدارة المترددة يعودان أساسا للنيات السيئة لمكاتب سانلويس حيث التسلطية المحلية مألوفة، إنه يكره تصفح الوثائق والأوراق في الوقت الذي يرى أن الأنفع والأشهى من ذلك الهجوم على المنشقين المزعجين الذين يشجعهم كسل الفرنسيين وفضاظتهم والأسوأ من ذلك هو هذه الرعونات العجيبة التي تثبط العزائم الجيدة ولد سيدي الذي سئم الاستهزاء به ذهب منشقا نحو الشمال بينما يحاول أحمد سالم استئناف المفاوضات بصورة تلاحقية.

في تلك الأثناء انتهى كل شيء حتى الرغبات التي لا تتحمل الصبر والانتظار يغادر افيريجان يوم الميلاد 1904 نواكشوط نشوان من الفرع ليلتحق بـ"كوبولاني" وبعثته المتجهة إلى تكانت، فكوبولاني مثل افيريجان كان قد قرر أنه يجب احتلال جبال تكانت وآدرار⁸ لأنه كان ملجأ ومخزنا لأصحاب النهب والغارات على القبائل الخاضعة ومن شأن ذلك التأثير على وفائهم.

تقدما إلى تكانت على رأس بعثة مدنية مدعومة بقوة شرطية من الرماة السينغاليين، ومناصرين من البيضان يؤطّروهم ضباط فرنسيون ولم تكن البعثة في حاجة إلى استعراض قوتها بل يكفي الشعور بها.

وفي البعثة كل يحاول أن يلعب دورا يتناسب مع قدراته وطموحاته وخلال أيام تحدد دور افيريجان في إنارة طريق البعثة والقيام بكل ما ليس سلميا من عمل هذه البعثة السلمية وهذا الأمر وإن لم يكن منطقيا فإنه لا يزعج افيريجان ذلك أن نوقه وسلوكه يدفعانه أكثر إلى الحرب بدل المفاوضات الدبلوماسية.

⁸ تكانت وآدرار اسمان من أصل صنهاجي تعني كتلا صخرية قليلة الارتفاع (ما بين 300 - 500) مترا يحدها من المغرب اظهر كلمة آدرار تعني الجبل وكلمة تكانت تعني الغابات.

بعثه أول الأمر كوبولاني في فرقة من 169 مدفعا ورشاشا لمساعدة "م. م. دري" و "دمير" المحاصرين في بدر من قبل ادوعيش الأشداء، وبعد ذلك بأربعة أسابيع أصبحت مشاريعه محل إعادة النظر بسبب موت كوبولاني (12 مايو 1905).

والهجوم على تجكجة لم يكن إلا مناوشة حقيقية وضربة بيد ناحجة فقد كانت البعثة مستقرة في النخيل قريبا من "لكصر" حيث استيقظت أول الليل على طلقات نارية وصراخات وكان إعلان مقتل كوبولاني أصاب المحيطين به بالذهول لكن افريرجان الأقدم في الرتبة والأحسن تدريباً أخذ القيادة وفرض نفسه من خلال اتخاذ القرار بصد العدو الذي يختبئ في النخيل وفي لكصر وينظم أمور جنازة قائد البعثة ثم يكتب للقبائل التي تتشد السلم بأنه سيتصرف اتجاهها كما كان يفعل كوبولاني وأخيرا ينظم الدفاع عن ثكنة الحامية لمواجهة الهجومات التي لن يتأخر أمير آدرار وأنصاره عن القيام بها قبل وصول قافلة الإمدادات التي تم استدعاؤها بسرعة من سان لويس.

إن التحقيقات التي قام بها أظهرت دون استغراب منه أن مقتل كوبولاني (القتيل الأوروبي الوحيد خلال العملية) على يد مجموعة من الغطف (يسمون أنفسهم أولاد النور) كان نتيجة للتحريضات ضد الفرنسيين والتي يقودها مرابط الساقية الحمراء الشيخ ماء العينين فقائد المجموعة كان أحد أتباعه.

يقلق ماء العينين في المغرب ويجتهد في اقتطاع امبراطورية في شمال البلاد لأنه بدون شك في الجنوب هنالك التأثير المتزايد للشيخ سيديا صديق كوبولاني الذي يحد من أعداء مريديه ومن أهمية ممتلكاته -هدايا المخلصين- بسبب ذلك.

خلال سنة 1902 نحج الشيخ ماء العينين في القيام بعمل رائع بجعله أحد أبنائه الشيخ حسنه وصيا على عرش أمير آدرار الذي لا يزال طفلا ولد عيده الذي يبلغ من العمر زهاء العشر سنوات ويستخدم هو نفسه تأثيره وشرفه لدى سلطان المغرب الشاب الضعيف عبد العزيز حيث تتحرك الأطماع في هذا المجال من قبل قوى أوربية عديدة.

هل كان يأمل ماء العينين بأنه بمقتل كوبولاني سيوقف التوغل الفرنسي في موريتانيا؟ لا نعرف ولكن مريده سيدي ولد مولاي الزين الذي قاد الغطف إلى تجكجة كان يعتقد ذلك، وكما يحصل في العمل السحري فقد دفع بنفسه في مقابل نفس "الساحر" اللقب الذي منحه البيضان لكوبولاني

وفي "سان الويس" يأسف بعض النبلاء لهذه البعثات المزعومة أنها سلمية والتي ضربت التجارة المحلية ويطالبون عند أول سماعهم بمقتل كوبولاني بسحب الفرق حتى الشرطة البسيطة إلى حدود النهر.

خلال هذا الهيجان كان افيرجان ينشط من أجل جعل حامية تجكجة حصنا منيعا وفي 18 يونيو هاجم محاربوا أمير آدرار ومناصروهم الحامية لكنهم انكسروا. هذه النجاحات تتسي أحيانا ما يعانيه هؤلاء من الجوع الذي يخيم على تجكجة المحاصرة منذ شهر.

أما افيرجان فيحلم بأن يجمع غالبية عناصره في وثبة نحو آدرار في أثر المنهزمين الجبناء ليأخذهم على غرة ويرفع علمه في شنقيط وأطار لكن طائفة من الضباط رفضوا مطاوعته في مغامرة كهذه دون أوامر عليا ... وبقي في تجكجة حيث كان يتم شد الأحزمة بعد أن التهم كل ما يمكن أن تطحنه أضراس الغرثي، واستقبل قائد البعثة الجديد المقدم "مونتاني كابدبوسك" الذي وصل أخيرا ومعه فرق نشطة وأغذية.

وكانت أول كلمة يقولها افيرجان هي سؤال متى تستأنف الحملة، فإنه كانت لديه خطط جاهزة فرد عليه "مونتاني كابدبوسك" بعنف بأن أوامر سان الويس صارمة: يجب أن تتوقف المغامرات الحربية والارساليات فتجارة سان الويس متضررة والمطلوب الآن هو السلم والسلم بكل ثمن!

يطلق افيرجان سورة غضبه وسخطه ليتخلص من وجوده الذي يمثل رفضا يتقاسمه معه "مونتاني كابدبوسك" في قرارة نفسه فتم إرساله بشيء من بالتملق المقنن إلى السودان لاكتتاب قناصة في انتظار أن يذهب على فرنسا ليأخذ عطلة مستحقة فعلا.

وبمجرد ذهابه بدأت الأحقاد القديمة ضد كوبولاني ومخلصيه تطفح وخاصة ضد افيرجان صاحب الرأي الصلب والعنيد، وتدخلت الصحافة في الأمر.

في فرنسا نشرت بعض الصحف مقالات مهيجة واستعرض بعضها بشيء من الطرفة والخيال الهجوم على تجكجة ومقتل وكوبولاني وعقوبة القتلة ووصول قافلة الإغاثة.

وبعضها يهتم أساسا بالأخبار "المثيرة" بل والفاضحة في وصف "مشاهد القتل والتعذيب" التي يعتبر افيرجان بطلها الخفي، كما يرتعد معتادو مسرح "اكران كينول"⁹.

خلال عطلته لم يكن افيرجان يقرأ إلا الصحف الاستعمارية (التي تتحدث عن المستعمرات) أو المقالات التي تتناول هذه المستعمرات. كانت الأخطاء تزعجه والسخريات تغيظه والشايات تجرحه حتى الموت وتطلب من أجل تبرئته أمام الجمهور تقديمه لمجلس حرب. وبعد ثلاثة أشهر من المحاولات لم يحصل إلا على مجلس تحقيق، فاختصر عطلته وسافر جوا إلى دكار للرد على كل التهم الموجهة إليه.

برأه مجلس التحقيق من كل التهم التي وجهها إليه خصومه وأودع وزير الحرب مذكرة بالثناء عليه في ملفه، بيد أن الاقتراحات التي تقدم بها كويولاني لصالحه ظلت دون متابعة ووسام ضابط من أوسمة الشرف لم تكف لتضميد الجراح الجسدية وجراح الكبرياء وحب الذات الأشد إحراقا.

كان يخيل إليه أنه لا يعترف له بأي فضل في قهر بكار وإنفاذ تجكجة وتعلن تسلطية الأثرياء في سان لويس بأن طموح العسكريين يمارس إكراها على الحكومة إذا تم التمسك بالعلم والشرف الفرنسي في تكانت وعليه فالمطلوب هو سحب الفرق لغاية النهر. وخلال الخمسة عشر شهرا التي قضاها في فرنسا كان افيرجان يرى بخجل ما يؤكد توقعاته المتشائمة جدا، فتوقف التقدم الفرنسي نتيجته هي نمو جراءة القبائل المناوئة والمدعومة بشدة من قبل الشيخ ماء العينين.

ويصل آدرار مولاي ادريس ابن عم السلطان بينما تمر شحنة من المدافع والذخيرة عبر "رأس جبيي" على أعين مغمضة من السلطات الاسبانية.

ويعتقد بشدة أن الشيخ ماء العينين هو من أشار بهذا الدعم اللوجستيكي ودفع ثمنه. والدليل على ذلك أنه في أكتوبر 1906 عندما هجم محاربو آدرار بقيادة مولاي ادريس ومريدي "الشيخ ماء العينين" على تكانت وهددوا تجكجة، تمت إبادة القسمين الذين أرسلهما النقيب "تيسوت" لصد هذه الهجمات والإغاثة التي جاء بها المقدم "ميشارد" لم تنفذ إلا المدافعين عن الحصين والذين كان مصيرهم مقلقا بسبب المجاعة القاتلة.

⁹ مسرح كان معروفا بالخدع التمثيلية والصددمات الانفعالية لجمهوره ولكن السينما نافسته بغلبة فاخفتى.

عند وصول هذه المعلومات لم يعد افيريجان بمقدوره البقاء في فرنسا وتحرك ليذهب ثانية إلى فرنسا.

وعند وصوله (أغسطس 1907) بدأ في التدريب على اللهجة الحسانية ويتابع الأحداث عن كثب فالاستقرار النسبي الذي يخيم منذ أشهر في موريتانيا لا يحدده فقبائل آدرار تنتظر رد سلطان المغرب على سفيره لتستأنف نشاطها. مولاي احيظ ببعث بالتشجيع والذخيرة في نفس الوقت الذي يطمئن قنصل فرنسا بأن "أي أحد لا يمكنه أن يحلم بالجهاد المقدس الذي هو ضرب من الجنون".

وفي تلك الأثناء تتضاعف الهجومات على المراكز والمفارز الفرنسية وكذلك عمليات السطو والنهب التي تتضرر منها القبائل الصديقة.

وأخيرا يعلن الشيخ حسنه وصي أمير آدرار الجهاد المقدس (مايو 1908) وبعد ذلك بقليل يقوم محاربوه بتقتيل مفرزة فرنسية بكاملها في بلدة المينان وبيعثون إلى تجكجة رأس النقيب "مانجيه" على هامة القناص الوحيد الذي استحيوه لهذا الغرض 14 يونيو 1908، ثم إنهم لاعتزازهم بهذا النجاح يحاولون في يوليو حصار المركز الجديد في اكجوجت والذي أنشئ لحماية اترارزة ضد هجمات أهل الشمال.

يلوك افيريجان لجامه ويكظم غيظه ويجول في البلاد المحاذية لضفة النهر، فهو متأكد أن القتال المستمر في طلائع المراكز في الساحل لا يمكن إلا أن يكون مجديا.

يصله الأمر بالإلتحاق بالمقدم "غورو"، إنه يعرفه ويقدره، فغورو سبق أن غلب ساموري الذي لا يقهر (1879) ويخبره قائده بأن مهمته المسندة إليه هي فك الحصار عن مركز أكجوجت المحاصر من قبل محاربي أمير آدرار. ومولاي ادريس ثم استعادة الحامية، كل ذلك بوسائل محدودة لكنها تمثل الحد الأعلى المتاح للحكومة، ويجب أن يحصل ذلك وبأي ثمن، وإلا فسيتم إخلاء موريتانيا والعودة إلى النهر وما يتبع ذلك.

ولكن مكافأة النجاح التي كان غورو يجعل منها أمرا سريا هي موافقة وزير المستعمرات على وضع اليد على آدرار دون تردد، يتوغل افيريجان في رمال اترارزة، يخطو نحو الخطر والمغامرة.

وعند وصوله إلى أكجوجت وجد هنالك حامية رجالها مصابون بداء الحفر وضباطها يستعجلون العودة إلى الجنوب لأن أخبارا تصلهم تفيد بأن "شيئا ما يخطط له في آدرار".

ولكن لكي يعتقد رجال الشيخ حسنه بأن إخلاء أكجوجت يعني إخلاء موريتانيا يقوم افيريجان لدى مغادرته المركز بزرع لافتة كتب عليها عبارات استفزازية وعلقت على غصن طويل. وكانت مجموعة تضم أمير آدرار والشيخ حسنه تراقب عن بعد مركز اكجوجت وارتمت على القافلة الفرنسية المثقلة كليا بالمشاكل والهموم، ولكن افيريجان الذي كان يتوقع الضربة أعاد تنظيم واصطفاف مقاتليه بمهارة وتلذذ بنشوة النصر والغلبة بعد التحام واقتتال بالحراب. وهنا! كان يؤخذ عليه هذا الاستفزاز المكتوب على اللافتة والذي اعتبر عملا خشنا وغير لائق برجل نبيل.

بدأ يحس بعدم الثقة فيمن حوله..

وعند برجيمات التي وصلها بعد أن وجه مرضاه إلى انواكشوط انتبه افيريجان من خلال قراءة الأوامر التي وصلته إلى الريبة التي اعتبرها أضحوكة، أن يعمل في آدرار وحده كأنه قائد عصابة، ولم يكن ذلك ليزعجه، لكن على أي حال هو يعرف مهمته. انصاع افيريجان دون تردد للتعليمات التي تأمره بأن يعبر هو والفرقة الصغيرة من القناصة والمحاربين معه منطقة رملية لا ماء فيها وتمتد على طول 93 كلم من بين برجيمات وأكلال فاي.

الحر شديد يكابده البشر والدواب والعطش المهلك، يعلن افيريجان لمن يستمع إليه، عند وصوله إلى أكلال فاي بأن هذه مفخرة يجب أن لا تحاول ثانية، ثم تعرف على الأوامر الجديدة، وبعد استراحة قصيرة غادرت فرقة اينشيري¹⁰ أكلال فاي للوصول إلى: أعكليت النعجة" قريبا من مرتفعات آدرار يجب إذن أن نعبر منطقة لا ماء فيها مرة أخرى وفي اتجاه منحرف أي أن نقطع 135 كلم بدل 93 ذلك هو ثمن المشاركة في غزو آدرار.

انطلق افيريجان والموت يعصر قلبه مكتئبا مصابا بداء المفاصل هو وقافلة الحمير فالجمال مخصصة لقافلة "غورو" التي تتقدم من خلال مرتفعات تكانت وآدرار.

فرقة اينشيري تتقدم خلال المناطق الرملية لمغالطة العدو وتلحق بالقافلة الأساسية لتتعمقا نحو معقل قوة الأمير إذا سلمت القافلة من بطش هذا الأخير، ذلك أن دور قافلة الحمير هو لفت أنظار القوة الأساسية للعدو وتضليله.

¹⁰ تلقب هذه الغزوة بـ غز لحمير أو ركب الحمير لأنهم لم يكن لديهم من المطايا غير صغار الحمير الشهب المعهودة في البلاد.

ويعلن افيريجان منتشيا متفائلا بأن قوة في إفريقيا قوامها 200 مدفع ورشاشتان تعتبر كافية¹¹. وبعد ذلك بدأت السماء تمطر أمطارا سنوية¹² فامتألت القيعان ماء واختمى العطش ولكن الروماتيزم يخيم ويشل حركة افيريجان الذي يشارك وهو ملتصق بالأرض في معارك شديدة في مرتفعات إبي.

في ممر إبي الإلزامي يعرس افيريجان في آزوكي مهيبا حصنا صغيرا يمكن من مقاومة العدو في انتظار وصول القافلة التي يقودها غوروا وفي 1 يناير 1909 يتمنى للعقيد سنة طيبة مع إعلان النصر وهو في إبي والنقيب بابلون في أماطيل.

ذهب افيريجان مع قافلة آدرار إلى أطار وشنقيط المدينة المقدسة، وداعا رفقائي الأعراء من "أولاد بالسباع" المندمجين في مجموعة لا تحمل اسما معيناً، كان يقود يوما قافلة المير ويوما كتائب المعركة.

يرى افيريجان في المنام تسابقا وقصفا حول نار العسس صحبة جنوده الذين يقدرونه ويأسفونه عليه، وفي يوم 8 يناير يقاثل بشراسة ويستولي على حمى حمدون.

ويأتي الخبر السيئ الذي يقطع فجأة أحلام المقاتل:

النقيب "تابليون"، صديق "غورو"، بابلون الشديد بوغت ليلا وقتل في غسرم.

ويعين افيريجان بصورة استعجالية ليحل محله ويدرس خط سير بين غسرم وآكلال فاي ليحدد من أي نقطة تنطلق فرقه قادمة من آكلال فاي لمرافقة قافلة التموين المنطلقة من بوتلميت، حيث يجب عليه إذن أن يعبر للمرة الثالثة -في أوسع أبعادها وفي أشد الأوقات حرا- المنطقة الرملية التي لا ماء فيها "يعرض حياته وسمعته بسبب خطأ في التنظيم"

الأفكار السوداء تلاحقه: يريدون التخلص منه واستخدامه حتى يندثر كلية.

وينطلق هو في بداية مايو 1909 مغادرا الجزء الأكبر من القافلة التي تتابع بنجاح تقدمها نحو الشمال يقول في نفسه إنه ذاهب إلى التضحية هو واثنان وعشرون أوريبا معه ومائتان وثمان وأربعون قنصا سودا وثمانية وسبعون من القوم والمحاربين من البيضان.

تعطى الدراسة الدقيقة حول إمكانية الحصول على مسارب سهلة العبور والرعى على طول خط السير من خلال الرمال انطبعا بوجود مشاكل لا يمكن حلها: النقص في جمال الحمل

¹¹ قافلة الحمير هذه لم يتطرق إليها غورو في مذكراته حول غرو وآدرار ولا أحد من مؤرخي هذه المرحلة تقريبا

¹² هذه الأمطار تدعى النكطة (الأمطار الشتوية)

وقرب الماء، بيد أن براميل الماء الحديدية الصغيرة الحجم والثقيلة الوزن لا تمسك الماء جيدا مع وجود احتمال ملاقات غارة مغربية يشار إليها بين إبي ورمال أمطليش.
أن أوامر غوروا صارمة: الأمر الأساسي هو تمكين قافلة التموين القادمة من بوتلميت نحو آدرار من العبور.

وللتعامل مع وضعية صعبة كهذه يبعث افيرجان ثلاثة من المناصرين البيضان إلى آكلال فاي طالبا من الملازم "أوبير" بأن يبعث أمام فرقته مسخرين يحملون الماء، إنه لم يخف عنه خشيته ولكن "حياة مجموعته هي الفداء لقافلة آدرار".

لم يكن بالإمكان إكمال المراحل في الرمال لهؤلاء الرجال المنهكين لا يمكن السير إلا قليلا والتوقف أصبح ضرورة والماء ينفذ ولدى السود الذين هم أشد حساسية من البيض للجفاف الصحراوي هناك الهول والرعب والهلوسة والجنون بسبب العطش ينحر القناصة الجمال لشرب دماءها أو الماء الذي في أجوافها.

يظل افيرجان رابط الجأش قامعا للثورة مسفوعا محرقا الجلد ينتظر قافلة الماء التي أخبره "أوبير" بأنها غادرت آكلال فاي في مجموعة من القوم العدائين.

ويقوم الملازم "أوبير" ورجاله بتموين القافلة العطشى مدة يومين دون هواده.

وفي يوم 15 مايو تنتهي المغامرة لدى بئر آكلال فاي بإنقاذ معظم القافلة وقد فقدت 40 قناصا من أصل 248 ولكنها كانت معرضة كلها للخطر لولا الحيطة والقوة التي يتمتع بها قائدها الذي يتلقى بالمناسبة رسالة تهنئة من "غورو".

كانت تلك آخر مغامرات هذا المحنك الخبير الذي عاد إلى فرنسا في صيف 1909 ليتقلد وسام ضابط من نظام الشرف.

وعندما عاد الرائد افيرجان في السنة الموالية إلى موريتانيا كان عهد الحروب قد ولى فلم يعد يقود بعثات مغامرة بل دوريات بسيطة للأمن ولم يعد يتلذذ بأن يفسد "خلية النحلة" الأمير السابق لآدرار وأعوانه المعسكرين في تيشيت.

فمنذ قافلة "غورو" خيم السلم في تكانت وآدرار وفر المتمردون.

وخلال إقامته في فرنسا كذلك لم يكن لدى افريرجان إلا حكايات المطاردة يقصها على أبناء إخوته. أحد هؤلاء¹³ يذكر هنا عمه الذي يعجبه كثيرا ويخافه كثيرا مع ذلك، ذلك أنه لم يكن يترك عصاه التي يعاقب بها أهل الطيش! أذكر جيدا: "لقد كان ذا قامة متوسطة ومزاج دموي وشعر أصفر فاتح مقصوص قصير واقف وعينين في لون الكستناء (حماوين داكنتين) ذات نظرات قاسية ساخرة من وراء نظارته، شخصية حركية رأيه ثابت ومستبد ولكن بدون زهو، أحيانا يكون ممثلا ويكون أحيانا ضامرا حسب النظام الغذائي الذي كان يتبعه في المستعمرة التي يعود منها، إنه لم يكن جميلا ولا قبيحا.

كان كلامه مختصرا ونهائيا وغالبا ما يكون بذيئا ومخالفا أو متناقضا إلا أنه مع ذلك لا يخلو من أهمية.

إن قصصه في المطاردة والحملات كانت تأخذني فقد كان حقا أصيلا وذكيا وكان طفلا كبيرا، كان أيضا لا يتحدث إلا عن نفسه وكان يخيل إلي أنه لم يكن يحب أحدا غير أمه. لم تكن النساء فيما يبدو تشغل باله كثيرا، على كل حال، لم يكن يتحدث عنهن ولم يكن يمازح بفجور ووقاحة كما كان يفعل كثير من المستعمرين، لقد كان شديد الزهد وقليل الشرب، فيما يعني ذوقه، كان يدخن الغليون ولم يكن يمارس الرياضة ولم يكن يهتم إلا بأمور المستعمرات، وكان لدى موته يتعلم العربية بعمق حيث لم يكن يعرفها جيدا كما يقول. لقد كان روحانيا وعضوضا وصنع كثيرا من العداوة وكان ذلك بدون شك السبب في أنه لم يحصل على التقدّمات التي يستحق بسبب حملاته.

ومهما يكن من أمر فقد كان وجها عظيما وقائدا غير منازع.

إن هذه الصورة التي رسمها من ذاكرته أحد أبناء إخوته (1946) ينبغي أن تعرض مع أخرى رسمها الملازم "أرسنت ابسيشاري" في رسالة وجهها إلى أمه عن المرحوم¹⁴.

"إنه كان ابن خمسة وعشرين ربيعا في سلوكه كان رجلا خارقا للعادة، لم أر في حياتي رجلا مسلوب العقلانية" لهذا الحد ومع ذلك غنى الطباع جسورا نشطا، إنه كان جنديا إنها المرة الأولى في حياتي التي أسير فيها مع جندي، إنه الجندي كما يجب أن يكون جنود الامبراطورية ...

¹³ السيد الويس افريرجان ابنه بالمعمودية الذي يحمل نفس اللقب

¹⁴ "رسائل قائد المائة" رسالة بتاريخ 23 ابريل 1910

قائد وصديق، رجل كريم ودود سالم من كل نزق وثابت المزاج...
والآن لدي قناعة: إذا لم يكن يعمل شيئاً مهماً خلال هذه السنوات في موريتانيا، فإنه الذي سيعمله، وإذا لم يكن ينظر إليه بعين الرضا في الجهات العليا بسبب تطرفه في الكلام وأفكاره المخالفة والعنيفة ضد أسلوب الإدارة المتزن، فإنه لا يمكن الاستغناء عنه، إنه الرجل الوحيد الذي يعرف البلاد جيداً والذي يخافه البيضان والذي يمكنه أن يتصرف بجدارة قبلهم، ثم إنه الذي يملك الشجاعة والقوة الضرورية، وبكلمة واحدة الحيوية والنشاط وفوق ذلك كما يقال في الجيش الرغبة والإرادة في التصرف.

إن ما كتبه "ابسيشاري" في رسالة مهمة خاصة يعززه ما كتبه كاتب آخر شارك في مهمة كوبولاني في تكانت ولكن بأسلوب مختلف: إنه "روبير راندو" (تصحيف لاسمه الحقيقي "أرنو") صديق كوبولاني في قصصه "المستكشفون" قصة البداوة الكبرى.
والذي ضمنه كثيراً من الروايات التاريخية في كثير من الجوانب.¹⁵
يذكر "راندو" صوراً بهية مفعمة بالحياة لعناصر البعثة الأساسيين ورسوماً حية عن المشاهد والأحداث.

إن الطبعة الصادرة سنة 1929 والتي أعقبت وفاة أفيريجان كتب عليها هذا الإهداء: "إلى روح العقيد أفيريجان بطل الجيش الاستعماري، القوي بين الأقوياء، صديقي" (شهادة مودة صادقة).
لقد أنهى أفيريجان كتابه "قصص مغامرات وجولات وحروب في بلاد البيضان بهذا النداء الذي يحمل تنبؤاً "أعتقد أن مرحلة الغزو قد ولت في موريتانيا والبيضان أذكاء جداً ويهمهم جداً ألا يفهموا أننا "لا نزال قريباً من المقبض" ولكن في كل احتلال استعماري هناك مرحلة ثورة محتملة ولناخذ الحيطة حتى لا تكون هذه الثورة مرابطية.
فمن الحكمة أن نرتبط أكثر فأكثر بالقبائل المحاربة والخطر الأشد هو أن نبقي تحت رحمة المرابطين، ذلك أنهم سوف يدفعوننا نحو الباب".

¹⁵ ذلك أنه يعطي وصفاً أميناً للسباق الجغرافي وللأحداث ولوضعية بعثة تكانت وأردار والتي كان من بين أصحاب الأدوار الأساسية فيها أصحاب الأسماء المستعارة (كوبولاني الذي أصبح "انديوتي" وكتبه المنحدر من جزيرة كورسيكا "كولومباني" واسمه المستعار "بالومبو" وأفيريجان المسمى كذلك "سور بيير" وفي المقابل لم يتم تكرر أسماء الأفرقة ولكن موهبة الكاتب تعيدك إلى الجو الذي كانت تعيشه البعثة فتسترجع لك الطرف والحوارات المنبثقة عن أفكار وشعور وأذواق أهل ذلك الزمان الشيء الذي لا يوجد في الوثائق إلا نادراً.
وسأضيف أنا كذلك شهادة شخصية: إن أبي "برنارد فيمين" الذي شارك في البعثة بوصفه قريباً في المدفعية والخيالة متوضعا كان هو الآخر مسحوراً بأفيريغان كان يقص غالباً في جو عائلي مقاطع مما كان يعده مغامرة كبرى في حياته فقصصه تعزز بالضبط ما يذكره "ر. وندوا" في كتابه الذي لم يقرأه قط وكذلك مذكراته أفيريغان التي كان يجهلها تماماً.

لقد فاجأته الحرب سنة 1914 جدا ودفعته إلى جبهة القتال في منطقة "افلاندر" ومعه قناصة سينغاليون وشارك في الدفاع عن "ديسكمد" مع رماة بحارة أضناهم البرد فتم توزيع البائسين الأفارقة على مستشفيات الوسط والجنوب (Midi).

ذهب افيرجان المجروح مرتين لزيارتهم وتفقد حال كل واحد منهم ومعرفة منطلقه وحاله في الخدمة وأسلوبه في القتال فأتلقت قلوب الجنود بقلب القائد في ذكرى إفريقيا... وبمجرد تعافيه يعود ثانية إلى الجبهة للمشاركة في غزوة "دردنيل" لقي هناك الأنكى والأمر حيث اخترقت رصاصة فحذه دون أن تصيب عظم الفخذ لكنه مكث بعض الوقت مقعدا فنقل إلى تونس وعولج في مستشفى الصادقي وذاق طعم المكافأة التي جاءت متأخرة عندما استلم رتبة عنق قائد نظام الشرف ومرتبة العقيد.

بمجرد ما بدأ يخطو حرص على أن يخدم مرة أخرى وعاد إلى إفريقيا الغربية لتكوين القناصة السينغاليين بوصفه قائدا لأول فيلق من الرماة السينغاليين (إفريقيا الغربية الفرنسية) مكث صيف 1912 في فرنسا، وبما أنه كان يعاني ألم الرقبة وضغط الدم ذهب للتداوي. في "أملي لبينه"

وهنا فاجأه الموت في نوبة خلال أقل من 48 ساعة (7 دجمبر 1917) وكان على طاولته رسالة يوجهها إلى أمه: فمنذ أن كان في سان لويس كان دائما يكتب لها كل أسبوع بانتظام حيثما كان.

وووري جثمانه في مقابر قريبة من دار العائلة حيث كان يحب أن يعود بين كل حملتين في بلاد بعيدة¹⁶.

إن مذكرات افيرجان تمت كتابتها حقيقة من خلال دفتره اليومي (كناشه) (بيد أن فيها دقة في التفاصيل والأرقام والاستشهادات والتقارير) وهذا الدفتر اليومي موجود في شكل سجل تم حبكه بقماش أسود.

والمخطوط ذو الكتابة الرقيقة المائلة بالحبر البنفسجي بدقة ودون أي كشط مفصل إلى فقرات مع قائمة الموضوعات وخارطة تم إعدادها بمعرفة الكاتب ملحفة به.

¹⁶ عن عائلته وصباه وشبابه وسنوات افيرجان الأخيرة شهادات مؤدات من قبل السيدة كويشتا افيرجان أخته والسيد الويس افيرجان ابن أخته وابنه بالتبني والسيد "ألزي ميني" ابن عمه الجرمانتي.

وحسب الويس افيريجان ابنه بالتبني الذي تفضل بتقديمه إلي خلال سنة 1946 - 1947 لاستنسخ منه نسخة، فإنه كان بالإمكان إنهاؤه قبل وفاة العقيد بقليل إذ كان ينوي نشره في دورية أفريقيا الفرنسية تلبية لطلب من اللواء "دريكاجي". ولكن الاضطرابات خلال الحرب العالمية الأولى ووفاة المؤلف المفاجئة حال كذلك دون ظهور عمل يعتبر معلما في تاريخ التعرف على إفريقيا الغربية. إن الأسباب التي جعلت افيريجان يصر على أن يكتب وينشر مذكراته في بلاد البيضان فيما يبدو مزدوجة.

قبل كل شيء هي شهادة على التعلق الخاص ببلد وبشعب حصل بينه وبينه شعور متبادل بالإعجاب والتبني، إنه أحب لدرجة الافتتان موريتانيا ورجالها الأشداء والأحرار جدا مع ذلك والذين كان يتبادل معهم اللغة وكثيرا من الأدواق والعواطف، لقد وجد لديهم الصداقات الأكيدة وأثار لديهم الإعجاب، وقد ظلت ذكراه حية تحت الخيام، حتى بعد وفاته بنصف قرن، خلال السهرات التي تقص فيها الحكايات ويغني فيها بالأشعار عنه وتنظم فيها أشعار الهجاء مرة ويوصف كذلك بأنه من المحاربين والغزاة ذائعي الصيت¹⁷.

ثم إن مذكراته تعتبر طعنا أمام محكمة التاريخ فافيريجان يعتبر إنه بعد مقتل رئيس بعثة تكانت آدرار لم تعترف له السلطات العليا بأنه حافظ على المكاسب التي حققها كوبولاني في الدفاع عن تجكجة ولاحظ في ذلك التأثير القوي المشؤوم لبعض عناصر عائلات "سان الويس" التي كانت مصالحتها تتفق مع النظام القديم لتجارة السود مع المغرب أكثر منها مع التجارة العصرية فالتسلطية المحلية تعارض بشدة التدخل الفرنسي في مناطق الضفة اليمنى لنهر السينغال لأن استمرار الاضطرابات المهيجة كان في مصلحتهم. لقد كان يشكو من أنه يجد نفسه مجررا في الوحل في مقالات في الصحافة من قبل من يعادونه ومن يغبطونه¹⁸.

إنه يخبر عن الثمن الباهظ الذي دفعه في مشاركته في "قافلة آدرار" هذه القافلة التي عرفت في فرنسا تباطئا والتي أسند الفضل فيها لقائدها وحده، العقيد غورو: عبور إينشيري ثلاث

¹⁷ "ريني كبي" (تحت اسم ولد كيجة) وكوبولاني (كبلاني) كانا أيضا يشكلان جزءا من الأسطورة لدى البيضان، من جهته اهتم افيريجان بتاريخ القبائل وعلاقتها مع الإدارة الفرنسية، وتحفظ الوثائق بأعداد كثيرة من أعماله.

¹⁸ مقالات ظهرت في صحيفة ميدي هي أقرب إلى الإثارة والفضائح منها إلى الأخبار وفي ظروف أخرى تنشر بعض الصحف مقالات أخرى في نفس الاتجاه ويجهل تماما كتاب هذه المقالات البلاد التي يزعمون أنهم يقدمون أخبارها.

مرات، هذه المنطقة الرملية القاسية حيث ينعدم الماء، وبوسائل غير كافية، في شكل طعم مع المخاطرة بالحياة والسمعة! يعترف بأنه اعتقد أن في قيادة العمليات مع غورو أعضاء في مقصورة القائد يبحثون عن سبيل للتخلص منه لأنه يقلقهم بسبب صعوده وسمعته لدى البيضان... حيث كان يتمثل بموشح شعري بيضاني:

" رب لا تترك حقي يضيع واغفر لي خطيئتي! "

يمكن أن نعتقد أنه كان غالباً يتمتم بهذا الدعاء نعم صحيح، إنه وإن كان يتمتع بفكر مستقل، لكنه يظل رجلاً من تلك الحقبة التي يحب مبادئها المثالية، لقد كان منضماً إلى "جول فيري" في إعلانه عن أن الاستعمار خير وتبني القيم التي غنى بها "كبلينغ". إنه كان مقتنعاً بأهمية دوره: فبالنسبة له أن يكون ضابطاً وضابطاً في الفرق الاستعمارية يعني مهمة كرس لها نفسه كلية¹⁹.

إنه كان مثل -كوبولاني وآخرين- يعتقد أنه يؤدي مهمة حضارية لتفادي -ولو بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك- كل ما من شأنه أن يحطم أو يذل الإنسان: العبودية، التسلطية، القسوة، والوسيلة الأولى للوصول إلى ذلك هي ضمان السلم ولو بالوسائل الحربية. ولم يكن اختياره للجيش الاستعماري²⁰ بسبب حبه للمغامرات فقط بل يجب أن نفكر في سياقه التاريخي.

وبعد هزيمة سدان Sedan وسقوط الإمبراطورية الثانية وخسارة "آلراك لورين" تربي الجيل الجديد في أمل الانتقام من ألمانيا "بسمارك"، ولكن شيئاً فشيئاً ومع مرور السنين أصبح البعض يرى أن الانتقام يمكن أن يتم عبر نمو القوة والمكانة لفرنسا من خلال التوسع الاستعماري، وأكثر من ذلك عانت الحكومة الفرنسية خلال سنوات 1880-1887 اضطرابات خطيرة، أزمة اقتصادية عميقة 1882-1896 جراء خراب مزارع الكرم بسبب القمل الزراعي مما سبب الهجرة الريفية وتنامي البطالة في المدن.

¹⁹ حسب أخته السيدة كوشيتا افيريجان، افيريجان لم يتزوج بيد أنه لم يجد الإمكانية الكافية نظراً لعمله كضابط استعماري ولم يكن يرغب في أن يعرض عائلته لامتحان الفرق.

²⁰ لقد تم عزل الجيش الاستعماري عن الفرق البحرية سنة 1883 وتم تنظيمه سنة 1885 وإتباعه للجيش البرية سنة 1900. وفي العهد الذي كانت فيه الفرق البحرية تابعة للجوية كانت تعتبر بمثابة "القریب الفقير" (أوسمة أقل وتقدمات أبداً للضابط) وابتداءً من إنشاء وزارة للمستعمرات وإلحاق الفرق الاستعمارية بوزارة الحرب، حصل ما يشبه الاستدراك وحينئذ طالبت مجموعة يسيرة من الضباط الطموحين الذين كانوا يعملون في الفرق الوطنية بالتحويل إلى الفرق الاستعمارية.

والى جانب الأزمة الاقتصادية هنالك أزمة سياسية وأخلاقية فإرساء نظام الجمهورية الثالثة متعذر يرفضه المناوعون للنظام (الملكيون خاصة) والسخط من كل أنواعه: بول من "رابطة الوطنيين" لصاحبها "بول ديروليد" (1882) وأنصار اللواء "بلانجي" (1889-1987) فوضويون مضوا في المحاولات إلى حد قتل رئيس الجمهورية "سادي كانوت" 1894 والمعادون للسامية أصحاب الصحفى "دريمون" الذي يعتبر اليهودية كبش الفداء والمسؤول عن كل الآلام 1892. في هذا الجو المشحون أصلا تأتي الفضائح في المال والأعمال لتتزع الثقة من بعض رجال السياسة قضية "ويلسون"²¹ في (1887) سببت استقالة رئيس الجمهورية جول كريفي Jules Grevy وفضيحة اباناما 1883-1892 تلطخ²² البرلمانين. وأخيرا انقسم الجيش الذي كان محل إجلال كبير (وهو أداه للانتقام) وانقسم معه البلد بسبب قضية "أدري فيس"²³ سنة 1897-99 التي لم تعرف النهاية إلا في سنة 1906 وكان هذا لم يكن كافيا، ازداد السخط بسبب قضية البطاقات ، وفي سنة 1905 وفي أعقاب صدور القوانين القاضية بالفصل بين الكنيسة والدولة والتي تجسدت في إخراج المتدينين من أديرتهم وجرد الكنائس²⁴.

²¹ ويلسون صهر الرئيس المشمول في قضايا استخدام النفوذ.

²² "فير دناند دي لسبس" الذي أنجز قناة "السويس"، أسس سنة 1880 - 81 شركة لإنشاء قناة في مضيق أباناما ثم أفلس بسبب سوء التسيير ومشاكل محلية غير متوقعة خلال سنتي 1888 - 1889 وأذاع الوطنيون بأن الشركة قدمت رشاًوى كثيرة للصحف من أجل جذب رؤوس الأموال والتصويت على إجراءات مناسبة (وقد تجدد هذا فيما بعد ذلك بسنوات في قروض مشروع السكة الحديدية في روسيا) وشراء ذمم بعض النواب "ليشاكارد".

²³ في سنة 1894 اتهم النقيب "ألفريد أري فيس" الإسرائيلي دون دلائل قوية بالتجسس لصالح ألمانيا وأدين ونفي إلى جزيرة الجن، ولكن العقيد "بيكار" وجد دلائل على براءته وطالب أصدقاؤه مراجعة الحكم ونشر "أميل زولا" سنة 1898 الرسالة المقترحة المشهورة في صحيفة "لورور" أنا أنهم وأخذت القضية منعطفاً عاطفياً مع النداء الموجه للرأي العام فعفي عنه سنة 1899 وأعيد إليه الاعتبار وتمت إعادة دمجها سنة 1905.

²⁴ قضية البطاقات، اللواء "الويس اندري" وزير الحرب (1901-1905) في حكومة راديكالية ومناهضة بشدة للكهنوتية يريد أن ينزع "الصبغة الكنيسية" عن الجيش حسب تعبير أحد أتباعه اللواء "بيني" وقام بوضع بطاقات سرية حول أفكار الضباط بالتعاون مع بعض الماسونيين ومن الطبيعي أن يستفيد الضباط الجمهوريون بمعنى غير المعنيين بالأمر الدينية والإخوان الماسونيون من ترفقات سريعة وأوسمة جميلة، وكانت بطاقات هؤلاء مصنفة في سجل يدعى "كورينث" بينما بطاقات الكهنوتيين مصنفة في سجل يسمى "كرتاج" وأثناء ذلك أثارت بعض الصحف مثل "الالمانية" و"الفيغارو" زوبعة حول القضية وقام النائب "كيوت" عن "فيلنيف" باستجواب الوزير وقرأ هو نفسه بعض هذه البطاقات التي أبلغ عنها بعض "الخونة" فآثار الحادث زوبعة أدت إلى استقالة وزير الحرب.

في الفصل بين الكنيسة والدولة الذي تم التصويت عليه في عهد الوزير "روفني" في ديسمبر 1905 أدى إلى إخراج المتدينين من أديرتهم والقيام بجرد الكنائس التي تم إعلان تأميمها من قبل الدولة

وفي بعض الحالات قام بعض المخلصين بالاعتراض على هذه الإجراءات، ولإعطاء القانون قوته بعث الحكام قوات مسلحة إلى عين المكان مما سبب استقالة الضباط المتأثرين في قناعاتهم العميقة لهذا الموضوع ينظر "ب شفالبي" تاريخ الماسونية الفرنسية الجزء الثالث 1877-1944 ميارد 1975.

إن السياسة المناهضة للكهنوت إلى درجة اضطهاد المتدينين التي تتبناها الحكومة خلال السنوات الأولى من القرن حفزت كثيرا من الضباط الذين لم يكن لهم الحق في التصويت حينئذ على الثورة ودفعت بعضهم إلى الاستقالة والرأي العام العمومي مصدوم هو الآخر. وعلاوة على ذلك يتم استتفار الجيش من قبل الحكام لقمع الاضطرابات الاجتماعية التي يسببها البؤس وتفريق المظاهرات، عند الاقتضاء. والخيالة تحمل على الناس وتطلق النار في الهواء، ولكن بعض الطلقات تصيب فتحصد أرواحا خطأ أو رعونة كما حصل في "فورمي" سنة 1891 أو في "ليموج" سنة 1905 وخلال سنوات 1905-1908 تمردت الفرقة المؤلفة من المجندين واستسلمت أمام مزارعي الكروم الثائرين في الجنوب (Midi).

في مذكراته يشير افيريجان إلى هذه الأحداث التي سببت أزمات ضمير للعديد من الضباط. إن البعض يرى أن الخدمة في المستعمرات هي خدمة فرنسا فرنسا المثالية الجميلة مثل اللوحة المرسومة وقد كانت موضحة في ذلك العهد، ولكن دون تلوث بالحكومة المزدراة بعض عبارات افيريجان يفهم منها أنه كان من بين هؤلاء.

هنالك مظهر واضح في هذه المذكرات هو الصراحة المذهلة لصاحبها إنه يقدم أفكاره بإخلاص وتصرفاته الأولية حتى لو اقتضى الأمر التشكيك فيها دون أن نلاحظ ارتياحا في تقديمه للوقائع والأقوال ولا ينكر أخطاءه وأحكامه المسبقة، ولا يعطي لنفسه دائما الدور الأفضل، لكن هذا الرجل الصادق مع نفسه صادق مع غيره ويرفض أن يمارس ولو لمناسبة ما أي تصنع ديبلوماسي بإغفال أو تورية.

إنه يعرف قيمته وأي هجوم عليه يعني رد فعل عضوض مما يسبب له عداوة شديدة وحسدا كثيرا، إنه يكاد يكون متأكدا من أن صراحته الفظة مضافة إلى طبعه المتصلب وازدراءه بالنفاق الاجتماعي كل ذلك أضر بالتقدمات التي يستحقها بفضل شجاعته ومعرفته بالناس والبلاد ونجاحاته.

إن كبولاني وغورو عرفا المشاكل المطروحة في موريتانيا وقدا حلولا شاملة لكنهما غالبا كانا يجهلان أو يهملان تفاصيل التنفيذ التي هي عمليا أسباب النجاح أو الإخفاق للمشروع إجماليا، كبولاني كان يقدر مبادرات افيريجان ولرهافة حسه النفسي عرف كيف يجد الكلمات التي تسحر جنديه وتحتوي هياجه وكان يريد أن يكافئه على نجاحاته وكان غورو يسند إليه

المهات الصعبة القاسية التي يراد منها وجود حل أخير لإصلاح أخطاء في التنظيم أو أغلاط المقربين.

إن حب افيرجان لبيضان موريتانيا خاص ومنحاز مثله مثل أي حب عاطفي، إن لديه أحيانا كلمات وأحكاما في السود نصفها اليوم بأنها عنصرية (هذا الوصف الذ لم يكن إذ ذاك معروفا) فكان لا يتحاشى في تقاريره العبارات الأشد مدحا في تفاصيل شجاعة هؤلاء وتضحياتهم، ولكنه بانتظام كان يقوم بمهمة إعداد الطعام بإنسانية ومهمة إعداد الراحة وجميع المهام التي يمكن أن تطلب من رجاله هؤلاء الرجال الذين يعترفون له بالجميل.

لقد كان يجهل حضارات الشعوب السوداء -مثله في ذلك مثل سائر معاصريه تقريبا- ولم يكن يعرف عنها سوى المظاهر السطحية: ممارسات تعتبر غريبة وصيبانية، سلطات إلهية أو تعسفية للقواد عبودية²⁵.

يجب أن نضيف أن هذه الحضارات التي عرفت فترات مشعة كانت حينئذ عمليا مطمورة، وكم غارة حصلت من مصطادي العبيد سلاطين إفريقيا الشرقية مثل رياح وملوك داھمي مثل بهانزين ومغامرين مثل الساموري وناهيين صغار مثل بعض الطوارق والبيضان الذين خربوا بلاد السودان حيث يخيم الرعب والبؤس.

والاستعمار الذي يضمن السلم والحرية الفردية التي هي الشرط الأساسي لتحسين الحياة المادية بالنسبة له هي السبيل الأوحد للخلاص ومن السهل اليوم أن تحاكم رؤاه هذه ولو كانت قصيرة.

وفي المقابل فإن حبه للبيضان وخاصة المحاربين منهم الذين يعتبر نفسه أقرب إليهم مكنه بجدارة من فهمهم وتحديد صورتهم، إن هذا لشيء ثمين بالنسبة لنا نحن بيد أن الاضطرابات الأخيرة في الاقتصاد الصحراوي زعزعت مجتمعا مؤسسا على هرمية وقيما تعتبر اليوم محل تشكيك فماذا تقدم مذكرات افيرجان إلى معارف الصحراء الغربية وتاريخها؟.

²⁵ إن عادات البيضان ونفاليدهم المطبوعة بالإسلام تدخل في إطار منطق قريب من منطقنا نحن، وليس الأمر كذلك بالنسبة للشعوب السوداء فمثلا تداول السلطة لدى البيضان يأخذ خطأ ذكوريا فوريت القائد هو ابنه أو أخوه أو ابن أخيه وفي بعض لبقوميات السوداء وريث الملك لا يكون أبدا ابنه ولكنه ابن أخته الكبرى وتتبع حقوق وراثته العرش الدماء الملكية التي تنتقل فقط عن طريق الأميرات كما هو الحال في مصر الفرعونية. ولدى موميات أخرى يتقاسم السلطة الملكية ملك وملكة غير زوجين (فالملك يكون شابا أو في عمر القوة والملكة سيدة متقدمة في العمر) ويتم اختيارهما حسب معايير محددة من قبل مجمع الحكماء. بالنسبة للأوربيين فليس من السهل إدراك تصور ومنطق الشعوب السوداء.

إنها لا تغطي إلا حقبة زمنية قصيرة (1903-1912) لكنها حقبة حازمة في تطوير المناطق المعنية، إنها لا تذكر إلا أحداثا عاشها مؤلفها في قطاع ضيق نوعا ما: حوض نهر السينغال، اترارزة، البراكنة، تكانت، وجزء من آدرار، افيرجان لم يطرق بلاد البدو الكبار، ارقبيات، وأولاد أدليم.

يمكن أن نؤكد أن هذه المذكرات تحتل مكانة مركزية ضمن قصص المستكشفين الآخرين القليلين نسبيا للصحراء الغربية خلال القرن الثامن عشر والعشرين.

إن ميزة افيرجان هي أنه لا يتحدث إلا عن ما شاهد إنه ملاحظ بامتياز سواء للأشخاص وللأشياء، كان هذا جزءا من مهمته إذ كان مكلفا مثل أمثاله بالقيام برفع خطوط السير الأكثر دقة ممكنة من أجل وضع الخرائط الأولية للبلاد.

من خلال نظراته نتأمل نحن مناظر تشبه كثيرا ما وصفه "لا كورب" ووصفه "م. دبريسون" وما جابه "رني سكيل" و"كاميل دولس"، "ليبول بانن"، و"فينسينت"، و"ابلانشى"، ولكنها تختلف عنها اليوم في الكثير.

لقد جاب افيرجان غابات أشجار الصمغ واستظل بظل الخشب المقدس وشرب من آبار هي الآن ناضبة بفعل الجفاف فالصحراء تتأخم منذ عدة سنوات نهر السينغال بينما لم تكن مطاردة الأسد على ضفته منذ ثمانين سنة تبجحا وحذقة في المنطقة الساحلية (مائة إلى مائة وخمسين كيلومترا شمال النهر) كانت أنواع كثيرة من الحيوانات ترتع: السباع، الطباء، الخنازير البرية، الأرناب، الدببة²⁶ النعام، والحبش، والحبار، وأمير تكانت يملك أثنى ما يمكنه قائد حرب أفراسا جيادا جميلة.

وأثناء وصف الطريق وسرد قصص المعارك يسترسل افيرجان أحيانا في ذكر الانفعالات أثناء اصطياد الخنزير البري أو أثناء طلق المدافع السريعة والدقيقة التي تلقي أرضا حبارى من الجو، مما يمنح الصياد اعتبارا وإطراء من قبل المحيطين به باعتباره خبيرا في الميدان ويسمح بتطوير من كان عاديا جدا.

²⁶ الأرناب والدببة تعتبر أبظالا من الدرجة الأولى في كثير من الحكايات وقصص الحيوانات في إفريقيا الغربية فالأرناب هي المرافق المرح الذي يخلص نفسه من الوضعيات الصعبة بفضل فكره الخلاق وكثيرا ما يخدع الدب الذي يمثل النمط الأكل الشره الأرعن الغبي.

ولاشك أن الافتراضات حول أصل النمط الصحراوي هي من قبيل الصدفة قبل كل شيء "تيدور مونود" الذي أصبح أستاذا فيما بعد ولد لتوه يوم كان افيرجان يصعد جبال تكانت ولكن وصفه للنباتات وأشكال التضاريس كانت صحيحة ودقيقة.

إنه يلاحظ الأشياء بتمعن، وهو كذلك بالنسبة للأشخاص إنه في رسم حي وصادق يقدم الشخصية الفارضة نفسها والوجه المغلق لكبولاني وكذلك لقواد البيضان والسينغاليين بصورة مثيرة جدا وهم يلبسون برانسهم ساعة الاستعراض ومن هؤلاء صورة أخيارهم المشهور والملقب مع شيء من الغموض "للحية الزرقاء" لأن هذه الشخصية الخارقة للعادة سبق أن زارت باريز في عهد نابليون الثالث والذي كان يولي ويعزل الأمراء في لبراكه²⁷ مناصرا ومعاديا بازدرء قاتل، والذي لا يخاف شيئا ولا أحدا ويؤمن باغتصاب السلطة تبعا للنظام الاجتماعي للبيضان والذي كان حينئذ معمولا به، ويصبغ لحيته البيضاء بالأزرق بإحكام للتأكيد على علو مكانته وثروته من خلال لبس الأثواب النبيلة الجديدة فقط ويغيرها متى أراد.

وأكثر من ذلك يضيف افيرجان في وصفه للأشخاص الذين يلتقيهم أسماءهم وأنسابهم وألقابهم والعلامات المميزة والقبيلة والأخلاق وغالبات يشير حتى إلى رغباتهم وأذواقهم وثوراتهم! إن القراءة المتأنية لهذه المذكرات تمكن من وضع ماذا عن ماذا عن تلك الحقبة في اترارزة لبراكه تكانت وأدرار.

إنه يعرفنا كذلك بشيوخ الدين الأساسيين الشيخ سيديا باب والشيخ سعد بوه ليس في أشكالهم الرسمية ولكن كما يبدو له في جلالتهم وبشريتهم ومرابطون آخرون أقل شهرة، والأمراء المتقلدون لمناصبهم ومعارضوهم، وإخوتهم وأعمامهم وبنو إخوتهم وبنو عمومتهم والمحاربون الأكثر شرفا ومستخدموهم وطبعا ومناوؤوهم وأسباب تلك النزاعات وأطرافها فكل هؤلاء الأشخاص تحدد مواقعهم في السباق من خلال عملهم.

والوثائقي الأهم في الملاحظة قد يكون قصة الدخول العلني لولد محمد فال ولد سيدي إلى سان الويس الطامح لإمارة اترارزة.

يصف افيرجان ويعلق على المواقف، البذلة وبذلات المخلصين له وجمهور سان الويس.

²⁷ هذا في الأصل ولعل المقصود اترارزه ويتكرر مثل هذه الأخطاء من المؤلف ولم تنتبه المعلقة لذلك. المترجم

وبالرغم من أنه كان يسهر على إحكام تنظيم هذه المناسبة التي يجب ألا تخل بالأمن فإن افيرجان لم يكن يفتخر بأنه يعلم كل شيء بل يعترف ببساطة بأنه كان يجهل مغزى كثير من التفاصيل والتصرفات، وفي الحقيقة فإن نظراته الثاقبة وصراحته مكنتنا من مشاهدة طقوس قديمة تمارس في القرن العشرين للمرة الأخيرة²⁸.

إن صراحته في القول تصرف النظر عن الصمت المعهود عما لا يقال، مما يجعلنا نفترض أنه كان ينتظر تقاعده كضابط لنشر مذكراته بيد أنه يدعو القارئ إلى جولات في المطبخ ويجعله يتابع الحلاقات والمؤامرات وتأثيرات المشايخ التي تحرك عالم الضباط الاستعماريين إنه لا يظهر هؤلاء على أنهم أبطال أسطوريون ولا على أنهم نصابون ولكنهم في الغالب أشخاص ذوو طاقة وإخلاص فوق المتوسط، إن لدى افيرجان كلمات لاذعة لأولئك الذين يعتبرهم عاجزين وهو قاس وصارم اتجاه الآخرين كما هو أشد صرامة اتجاه نفسه.

وفي المقابل يرتاح بأن يحيى المجاهيل وعديمي الرتب وضباط الصف القناصة السود والمناصرين البيضان الذين يصفهم بحماسة بروعة العمليات وحسن الطباع.

لقد كان له طبع كامل فهو أحيانا نفور ثابت في صداقته سريع إلى التحمس وكذلك إلى الغضب كريم ومتصلب صريح إلى حد الخشونة إنه فاعل ملتزم في نشاط وليس مشاهدا متفرجا من بعد على الأحداث محايدا ويعترف بأنه لم يجعل الدبلوماسية قط في قام الفضيلة العسكرية وأنه إذا كان يتصرف غالبا بالحيوانية فإنه لم يدع قط الملائكة.

إن مذكراته لا تدع القارئ محايدا، فالمؤرخ ميدن له بشهادته الدقيقة والأمانة عن الأشخاص والبلاد التي أحبها بكل عاطفة.

إن نشر مذكراته حول الجولات والحروب في بلاد البيضان بعد موته بثلاثة أرباع القرن يمنع الأثر من النسيان ويبعيد ذكرياته وذكريات زملائه من البيضان و يعتبر تجاوبا مع مدى صدر الموشح الذي كان يحب إنشاده ; رب لا تترك حقي يضيع وارحمني نذكر نحن صرخة افيسوا فيلون ولكن أدعو الله أن يغفر لنا جميعا

²⁸ طقوس حقيقة تعود إلى أصل بربري أي قبل الإسلام وأيضا فقد شاهد افيرجان خلال معركة داخل تجكجة محاربين بيضان يمارسون الفارون الرقص الحربي إنه يذكر أن هذه الممارسة القديمة جدا لم تعد تمارس في المناسبات الكبرى ينظر في هذا الموضوع مقال كتبه "ه.كتنير" أغاني حربية توكلورية نشر في حوليات ومذكرات CE.HS لإفريقيا الغربية الفرنسية سنة 1916، صفحة 349.

جنفيف ذيرفيمن

موريتانيا

سنة 1903 – 1911

تمهيد

إن بعض البلدان تنغرس في الذاكرة إنها غالبا تلك التي يعاني فيها المرء أكثر، لا يمكننا أن ننسى شيئا من تلك المناظر وأولئك الأشخاص سنظل مشبعين بالأخلاق التي عودنا عليها وحتى اللهجة التي أصبحت عائلية والتي لا يمكننا التحرر منها كلية. عندما نغادر بلادا نخشى ألا نعود إليها أبدا وأقل الناس عاطفية يحس بالتأسف، أنه من الشاق أن نفارق أجواء قاسية استطاع المرء في النهاية التأقلم معها، سكان أصليون ولو كانوا غير محبين تعودنا عليهم فما بالك بأولئك الذين أحببناهم، وأشد مرارة من ذلك أن نترك للنسيان وإلى الأبد غالبا تلك السمعة الصغيرة المحلية التي صنعناها لأنفسنا، ذلك الزهو الذي يمجد اسمك تحت الخيام²⁹ من أين أتى هذا الإغواء التي تمارسه موريتانيا علي؟ قد يجد القارئ تفسير ذلك من خلال قراءة هذه المذكرات فلست الوحيد الذي تعرض لهذه الفتنة إن

²⁹ إشارة إلى تفاصيل نمطية من الحياة الاجتماعية في موريتانيا: تحت الخيام خلال السهرات يقص البداة حكايات ، يعددون مفاخر هذا البطل أوذاك و تنتهكم بنقائض هذا المناوى أو ذاك أو ببساطة يمازحون بعضهم بعضا عن ميول وعبوب الممازح الذي لا يعدم أن يلقي الكرة في فرح عارم في مشهد حساس بسحر الكلمة ولطافة الفكرة ويوجد غالبا من بين القصاصين شاعر يعطي للكلمات مداها من خلال تناغمها مع الأبيات الشعرية المتعنى بها.

إن نجاح الأغنية وسمعة صاحبها وبالتالي خلود البطل مضمون إذا كانت الأغنية تنقل من مخيم إلى مخيم وإذا كان المستمعون يحفظونها عن ظهر غيب.

افريرجان وكوبولاني بعد رني كبي (ولد كيج كما يسميه إخوته بالتبني في لبراكنه) كانوا أبطالا حقيقيين في ملاحم غنائية. بخصوص دور الموسيقى والشعر في المجتمع الموريتاني ينظر "ميشل كنيار" الموسيقى شرف و متعة في الصحراء (مطبعة "كيتير" 1975) والوسيط الجدول الموريتاني في بداية القرن العشرين مقدم من قبل أحمد بابيه مسكة "اكتينيكسيك" 1970

خمسة أسداس أولئك الذين عاشوا في هذه الأصقاع الفريدة وقعوا في نفس الشرك إنه بلد يهز المشاعر، لماذا هذا؟ إنه لا توجد هنا الراحة ولا يوجد الترف الذي يوجد في أوروبا وليست المناظر الطبيعية هي مصدر هذا بلا شك ولو أن طلوع وغروب الشمس في موريتانيا بألوانها الزاهية البهية مشاهد لا تنسى. لا بد أن هناك شيئاً آخر لكي نتأسف على موريتانيا سأعود إلى ذلك لاحقاً، أنا أحتاج أولاً إلى أن أفتح قوساً³⁰.

إنه ليس من غير المفيد أن نؤكد خلافاً لما عليه غالبية الرأي العام، أعني من عديمي الكفاءة أن مظهر هذه البلاد دائماً قاس ومتوحش إنه ليس عديم التنوع ولا أجرد بالكامل كما يظهر في عهود الموائيق الجغرافية ونحن الفرنسيين نستند في أحكامنا المسبقة إلى صور تعود إلى ما قبل التاريخ³¹.

حقاً أن الغرب الموريتاني لا يحتوي إلا على نسيج أو شبكة من السهب والرمال ولكن المنظر ليس مقفراً موحشاً، هنالك بعيداً من الرمال الميتة للعقل والترازة ما يشبه السكين المغطى بالشجيرات الصغيرة إلى جانب رمال بيضاء متحركة على شاطئ البحر.

في كل مكان، في الجنوب وفي الشمال وفي الغرب من بلاد البيضان يكون المشهد متنوعاً نوعاً ما، مرتفعات من الأرض الصلبة مرصعة بالحجارة، غابات غير كثيفة شيئاً ما وشائكة وغالبا عطرة بأريج الأشجار والأعشاب.

والحجارة الرملية في تكانت وأقله حيث الأجراف في قمم الجبال تتملى بشدة في أحواض المياه الداكنة في "الكلتة" والغابات النائمة من الأشجار. تظلل الشجيرات الراكدة المائلة إلى الصفرة في التامورت وسلاسل وعرة سوداء وحمراء اللون في آدرار تتسلقها من مكان إلى مكان ربوات

³⁰ ليس هذا مغالاة من قبل افيريجانه، فبعد أمطار غزيرة (أمطار الخريف، في يونيو وأغسطس وسبتمبر) يتدفق الماء على هضاب تكانت وتوحي صور ملتقطة ببراعة بأن هذه المشاهد مشاهد نورفيجية ولكن ذلك لن يدوم إلا ساعات.

ونذكر هنا أن واحة في تكانت تسمى المجرية أي المصمر تستفيد من مورد مائي حي يمكن من غراسة النخيل وزراعة الحبوب والخضروات وحياء بعض التماسيح المتحررة من أعظم الحقب الرطبة حيث يقوم بيطريون بعلاج قطعان كثيرة من الأبقار في الصحراء.

³¹ يتظاهر افيريجان بالصرامة اتجاه الموائيق الجغرافية لكنه يعني أساسا الكتب المدرسية التي هي بحق فيما يتعلق بإفريقيا تعتبر فقيرة في تلك الحقبة، بيد أن شركات الجغرافيا في المدن الكبرى لعبت دوراً حيوياً في اكتشاف البلاد المجهولة أو شبه المجهولة ونشر المعلومات الحديثة التي تم الحصول عليها فيما بين السنوات 1880 - 1900 سنوات التوسع الأوربي فشركات مثل لجنة آسيا الفرنسية ولجنة إفريقيا الفرنسية (التي تأسست حوالي 1890 نشرت معلومات كثيرة من خلال مجلتها ورسائل ومقالات لمستكشفين، ضباط وأصحاب مهام من الذين كان لهم الفضل في المشاهدة الميدانية.

إن أعضاء هذه الجمعيات ظلوا محدودين (لجنة إفريقيا الفرنسية لم يتحاور المنتمون لها 5000 عضواً) ولكن هؤلاء الأعضاء هم غالباً شخصيات من المستوى الأعلى بمعنى أن الجمهور العريض ظل غير مهتم إلى حد ما فيما يتعلق بالبلاد البعيدة.

مذهبة عالية، وواحات رائعة في أعماق الشعاب المتوحشة أو ممتدة على طول الوديان الرملية، وفي كل مكان هناك زراعات مخضرة أحيانا وأحيانا مصفرة، كل هذا يمكن من النظر والاستمتاع بخلفية متغيرة وليست دائما رملية.

وفي أيام المطر، حتى في الغرب تتكون برك مؤقتة بين الريفات وفي أحواض السهب، وخلال الصخور يجرى الماء صامتا في خطوط حية ومن الأعلى تتساقط شلالات فوارة، أصوات سقوط الماء تعج بها تكانت . وهذا لا يطول طبعاً، فمن الحق أن العشب يخضر بسرعة والزهور تعبق ويكون من المستحيل أن يدعي المتشائم أنه في صحراء.

في كل سنة مع تقدم السلم الفرنسي تتزايد مساحة الأراضي المزروعة ولكن ذلك ليس إلا استثناء فالقاعدة هي الأراضي غير المزروعة، ولكن وحتى هنا فغالبا توجد القطعان بكثرة ومضارب الخيام تزين المناظر وفي الغروب تشاهد الخيام المضروبة على غير هدي في ظلال أشجار الميموزا توطر مشهدا تراثيا في هذه الأصقاع الأشد تصحرا لا يعدم المسافر رؤية الظباء وهي تقفز هنا وهناك والأرانب والحبار وهي تطير أمامه كل لحظة.³²

وفي الخلاصة فإن موريتانيا بعيدة من أن تكون هي تلك البلاد البشعة التي توصف في التاريخ وفي اعتقاد بعض الكتاب المعينين للدفاع عن الإخلاء للجمهور البريء الأوربي، ومع ذلك توجد بعض المناطق المحرومة من الماء التي لا يتمنى عبورها.³³

وحتى هذه فإنها لا تخلو من مراعي وهي في الغالب رمال ومرتفعات تتخللها شجيرات، وتجعلها سالكة لا ينقصها إلا بعض الآبار، وفي انتظار ذلك فإن كل عبور تكتفه مخاطر الموت، ولحسن الحظ فإن هذه المناطق المتصحرة هي الاستثناء وتوجد مثيلاتها في البلاد، في الولايات المتحدة حيث قوافل كثيرة من المهاجرين قضاوا في صحراء المكسيك الجديدة والآريزونا، ومع ذلك لم يقل أحد إن تلك المناطق غير قابلة للسكن بل أكثر من ذلك حاليا هناك خطة "دري فارمينك" التي تمكن من استغلال هذه الصحراء التي لا ماء فيها.³⁴

³² هذا صحيح في زمن افيريجان بيدأن الصيد الذي كان يمارس بشطط ومغالة أصبح أقل من ذي قبل بكثير وأعداد الظباء اختفت بالكامل والسباع التي كانت تزجر على ضفاف النهر السينغالي والخلجان كذلك.

³³ صحيح كما سنرى لاحقا لقد خاطر افيريجان بحياته خلال عمليات العبور الصعبة إن هذا الوصف يخص موريتانيا الساحلية التي جابها افيريجان من النهر إلى تكانت وإلى آدرار مرورا بانشيرى، لأنه لم ير المناطق الأشد صحراوية تلك التي تمتد إلى الشمال من سيخة الجل والمناطق الشرقية امقطير بنظر لهذا الموضوع المجابات الكبرى "لتيدور مونود" (IFAN).

³⁴ "دري فارمينك" يبدو الكاتب هنا أكثر تفاؤلا منه مطلقا على ظروف "دري فارمينك" التي لم تنتج سوى الخيبة والإخفاق خلال عشرات السنين. المترجم: "دري فارمينك": تعني طريقة للزراعة المتلائمة مع المناطق الصحراوية

إن الاستطراد السالف يمكن من أن تعرف أن موريتانيا بلد لا يمكن أن نتعود عليه فقط بل نرتاح فيه كذلك وفي الحقيقة فإن الجاذبية التي يمارسها بلد مماثل على الذاكرة ينبع من طريقة الحياة التي نتبع، حياة المعاصرة بامتياز وسط فضاءات واسعة جدا وأمام آفاق رحبة في جو صاف وصحي مما يعطي الشعور بالحرية بدون حدود.

على مرتفعات آسيا الوسطى عاش أجدادنا هنالك فقط لم يكن لديهم الشعور بالحرية فقط بل كانت واقعا. اعترف بضعفي أمام وجود مماثل، إن الحرية وحدها تكفي لجذبي في الصحراء البشعة.

أحاول اليوم أن أقص قصة حياتي التي عشت في موريتانيا إن قصتي مصدرها الحركة والحركة يمكن أن تقص وترسم وتوضع في إطارها ولكن القارئ لا يرى هذا الوسط إلا من خلال العمل لقد أمعنت النظر في هذه البلاد التي أحبها لأراها بنفسها وأضع لها تصميمها في الذاكرة أمل أن أعمل من أجل أن يقدر ذلك.

إن قصة حياتي الموريتانية ستكون مساهمة في تاريخ بداية الحضور الفرنسي في هذه الأصقاع، إن تاريخ موريتانيا الفرنسية لا يزال في بدايته ونحن ساهمنا في ولادته ولا يمكننا أن ننسى المهاترات والسخرية والهيجانات التي سببتها هذه البدايات في عالم الاستعمار ذلك كان هو ائتلاف جهات النفوذ الخفية والحقيرة والجديرة بالاحتقار، كان يسمع النباح في الظلام بهائم ذوات زغب مختلف البعض منها لما يؤس من اختطاف القطعان التي تم تحصينها من عادة النهب المزمن لديهم يحالون التهام الراعي كل هذا لم يحصل به الشعور في فرنسا.

وفي المقابل وخلال الصمت النسبي لذئاب إفريقيا الغربية، يحدث في بعض الأحيان أن نستمتع إلى شكوى مفاجئة لأحد الضباع المهمة يندب من حين لآخر قتلى عهود الغزو.

كل هذه الأصوات لم تعد تهز أحدا

إن الأحقاد الضمأى هي من صنيع أقلية ذات عقلية خاصة، وعموما في فرنسا فإن هناك عدم مبالاة تامة اتجاهنا: فلا يهتم أحد بموريتانيا فالفرنسي لا يسمع حديثا عن المستعمرات إلا إذا

كان هناك معرض استعماري.³⁵

³⁵ هذا صحيح فخارجا عن بعض الدوائر النشطة جدا والضيقة (المفاوضون، العسكريون، المبعوثون، بعض ممثلي المهن الحرة والتعليم) فالجمهور العريض لا يهتم إطلاقا بالقضايا الاستعمارية إنه مشغول بالمشاكل الداخلية، الانتخابات (المعادة دائما، دائما) ثم بقضايا "ادرفيز" (1894-1906) وآثارها وقضية البطاقات (1904) والتي تنتج عنها قضية "سيفرتون" وقضية الرهبانية التي نتج عنها فصل الكنيسة عن الدولة (1905) والإضرابات العامة، كنا نقلق من الأحداث الخارجية في حالة ما إذا كانت تهدد السلم "قأشودا" (1898 - 1899) وضربة طنجة (1905) في موضوع هذه

قبل رتل أطار الذي أثار بعض الكلام لم يكدمسوخو موريتانيا يبلغون الرأي العام الوطني، فأغلبية الفرنسيين لم يحصل لهم العلم بهذا البلد وتدخلنا في بلاد البيضان إلا في سنة 1908 والكوارث ذات الثقل مثل مقتل كويلاني ومذبحة انيملان سنة 1906 تم كل ذلك دون شعور أحد، فالفرنسيون لا يهتمون إلا بالسياسة الأوربية وهم مأخوذون بإعلان النفير الكبير أواخر سنة 1905.³⁶

خلال سنة 1908 حصلت سلسلة من الإخفاقات الدامية في موريتانيا الحصى المتساقط بغير انقطاع في بحيرة الضفادع حتى أصبحت راكدة وتكرر هذه الإخفاقات أدى إلى تزعزع هذا الخمود أحيانا لكن ذلك لم يحرك المياه الراكدة حتى تتمتع ضفادعنا بالإيغال³⁷ بعض الموجات السطحية المتحركة نحو المركز ولكن بدون تأثير على الأعماق حيث القبور واللامبالاة لدى الجميع ومع ذلك فهذه الإخفاقات الدامية جعلت السلطات تتخذ قرارا بإعطاء العقيد غورو وسائل استئناف رتل آدرار.

ثم جاء الصمت مما مكن العقيد من إمكانية العمل بدون كبير عوائق وإنجاز مهمة ممتازة وحينئذ استطاع أن يتوج عمل أولئك الذين أسسوا موريتانيا الفرنسية بالنجاح، لكنه في نظر الرأي العام الوطني لم يتم القيام بأي شيء مهم قبل هذا الرتل المتألق في آدرار. وفيما عدا الكتاب الاستعماري جدا قصة "البداءة الكبرى"³⁸ ومقال أو اثنين عسكريين نشرا في دورية ليست غير عسكرية بتاريخ بداية الاحتلال الفرنسي في بلاد البيضان لم يثر اهتمام أي كاتب، مع أنه يستحق ذلك.

القضايا جميعا وخاصة قضية "سيفرتون" التي آلت إلى انتحار غير مألوف، ينظر في هذا الموضوع: "ب شفالي" تاريخ الماسونية الفرنسية الجزء الثالث (قايارد 1975).

³⁶ الزيارة المرتجلة للامبراطور "كيوم" إلى طنجة والخطاب العنيف الذي ألقاه وازدادت الأزمة خلال مؤتمر الجزيرة 1906.

³⁷ هذه الصور الوقحة نوعا ما في حق النواب البرلمانيين يبدو أنها مستوحاة من "بير بينارد" (النشر الفوضوي) وافريرجان الذي لم يكن لديه أي عاطفة اتجاه الفوضويين يستفيد من بعض مفرداتهم فهم يسمون غرفة النواب حوض البرمائيات ويتوسعون في المقارنات مع حياة المستنقعات.

³⁸ كتاب ريبير راندو المنشور 1907 لدى سانسوت تحت عنوان "المستكشفون، قصة البداءة الكبرى" في سنة 1920 ظهرت منه طبعة لدى "ألين ميشل" تحت عنوان "المستكشفون" وقد تم إهداؤها إلى روح العقيد افريرجان بطل الحربية الاستعمارية الأشجع من بين الشجعان صديقي افريرجان المتوفى سنة 1917 هذا الكتاب الذي لم يعرف إلا طبعة واحدة هو في الحقيقة قصة بعثة تجكجة إلى تكانت وآدرار والتي شارك فيها الكاتب الصديق القديم لكويلاني وأميين سره، فقد ولد الاثنان في الجزائر وتعلما العربية وقد رافق راندو كويلاني في جولاته الأولى في مناطق أعلى النهر والمسماة بعد ذلك بالسودان ويتعلق الأمر بالحوض الذي استطاع كويلاني فيه أن يحصل على صداقة قبائل علوش ومشظوف ينظر لهذا الموضوع روبرير راندو "فرنسي جزائري في بلاد الرجال الزرق اكزافيي كويلاني رجل السلم (الجزائر "إيمبر" 1939، في هذا الكتاب المشفر المستكشفون نتعرف بسهولة على الأسماء المستعارة لأبطال القصة الأساسيين كويلاني أصبح يدعى آندر يوتي افريرجان سير ابيير والعقيد مونتاني كابدبوسك

إن أولئك الذين يريدون أن يظل الصمت المطبق صمت الموتى مخيما إلى الأبد على هذا العمل هم أولئك الذين لو قدروا كانوا ينفذون كوبولاني والذين وصفوه بعد موته بالمأسوف عليه.

إن هؤلاء لا يريدون أن يرتفع صوت لنشر جهوده وجهودنا³⁹، لقد نشر العقيد غورو كتابا حول "نشر السلم في موريتانيا"⁴⁰ نسخة نصية تقريبا من يومية المسيرة "رتل آدرار" وفي المقابل يظل تاريخ بداية التدخل الفرنسي في موريتانيا غير مذكور وستكمل مذكراتي هذه هذا النقص.

لقد وصلت إلى بلاد البيضان في نهاية سنة 1903 حيث انقلب التدخل الذي بدأ سلميا تماما بفعل قوة الاستياء لدى غورو إلى غزو لا يمكن وصفه، وبعد أن شاركت في هذا الغزو خلال إقامتي الأولى كان لي الشرف بعد ذلك أن أجد نفسي في خضم العملية خلال المرحلة الأساسية تحت قيادة العقيد غورو بعد هذه الحملة المثمرة عدت هاويا تقريبا أجني ثمرة عملي .. ولكن هذه قصة أخرى، إجمالاً أقيمت في موريتانيا سبع سنوات تقريبا سافرت خلالها كثيرا وتصرفت كثيرا ورأيت كثيرا.

يمكن إذن أن أوصف بأني كنت فاعلا وشاهدا، وقبل 1908 قمت بأعمال كثيرة في هذه الأصقاع، وخلال هذه الفترة المجهولة من قبل الكثيرين لم تكن المخاطر والأتعاب والجهود والمسؤوليات التي نضطلع بها أقل مما نعد.

وبوسائل قليلة جدا واجهنا حينئذ عقبات كانت من القساوة بمكان وكذلك كانت قوة العدو. ومن جانبنا فقد كانت المشاكل لا تتصور في بلد مجهول تماما. إن هذه المآسي والمعارك مكنت خلفاءنا من الاستفادة من تجربتنا. إن هذه الرحلة من تاريخ موريتانيا تستحق أن يتحدث عنها. خلال هذه الذكريات سوف أعيد إلى المسرح رفقاء كثيرا، أغلبهم لم يتحدث عنه بما يستحق. أمل أن أخدم قضيتهم.

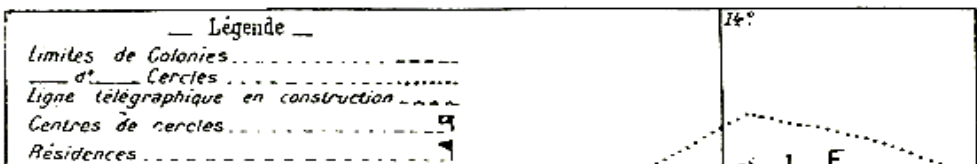
هل يهتم القارئ بكل هذا؟، تلك هي المسألة، ومهما يكن، ها أنذا أبدأ، وكلي أمل في أن أثبت عبر هذه القصص أن الشعار الأبوي "لا نحتاج توقع النجاح لنبدأ، ولا حصوله لنواصل" هو بالذات الشعار الجدير بأن يكتب على الراية التي رفعها رواد موريتانيا الأوائل، إذا لم نفضل

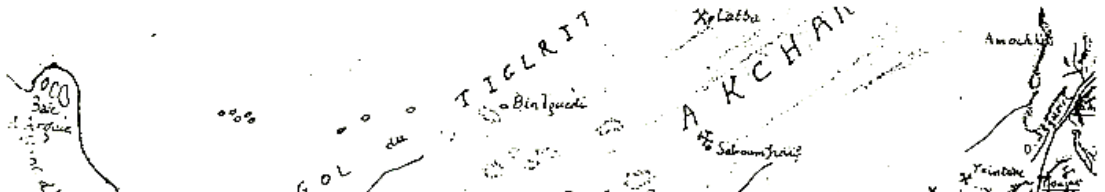
³⁹ إن هذه الجملة تعني أساسا المجلس البلدي في سان لويس بالسينغال.

⁴⁰ العقيد غورو "نشر السلم في موريتانيا" لاروس 1910 وموريتانيا ذكريات إفريقي مطبعة 1945 "ابلون"

عليه قولة "فرجيل" المتبرمة "مئلك تماما أيها النحل، تصنع العسل وتوثر به غيرك" التي قد تنطبق أكثر على حالي أنا شخصيا.

الجزء الأول
في "تاريخه"





تصغير جزء من خارطة أعدها
الرائد افير جان لتوضيح روايته

تحت قيادة كوبولاني

بعد عودتي من الهند الصينية إلى فرنسا في نهاية سنة 1902 مكثت ستة أشهر بين عائلتي بعد مرض مضمّن للنقاهاة وفي ربيع السنة التي تلت تلك عدت إلى فيلبي في "تولون" حيث عينت نقيب مدفعية.

ثم قمت بدراسات حول المدفع الرشاش "هوتشكيس" مع مجموعة صغيرة من الضباط ورجال الفرق من القسم الاستعماري الثاني تحت رعاية هيئتنا الجديدة ومنذ ذلك الحين أفادني هذا المدفع كثيرا في الحرب، ونتج عن تلك الدراسات تجارب حول نظام تشغيل هذا الجهاز والرمي نشرها العقيد "مارشانه"⁴¹ في الصحافة العسكرية لقد مكنتني ذلك من القيام بمهام ذات فائدة كبيرة بيد أنني خارج فترات الرماية الحربية كانت وظيفتي لا تستوعب كثيرا من وقتي.

وعلى قدر ما أستعيد صحتي شيئا فشيئا تعاودني الرغبة في الذهاب مرة أخرى إلى ما وراء البحار، بعض أصدقائي الذين اشتهروا في الاستكشافات يعودون من إفريقيا وكانت حكاياتهم تزيد من رغبتني في العودة إلى تلك البلاد القاسية التي سبق أن عرفتتها مقاتلا.

لقد كانت أحلام الذهاب بصورة تناوبية لدى كافة الاستعماريين تزعجني إلى الحد الذي أصبح البوح بها لا يخلو من إساءة في حق العقيد "مارشانه" بل أصبحت مريرة.

ثم حدثت المغامرة التي جعلتني أقرر أن استعجل الحركة للانتقال من الحلم إلى الواقع، لقد زعزع الإحساس بعدم التأكد من الذهاب صحتي إنه يلزمني مناخ جاف وحار. ذلك أنني كنت في فرنسا في بداية الشتاء وأصبحت أتذكر إقامتي الأولى في إفريقيا الغربية عشر سنوات قبل ذلك في المناطق الساخنة والصحية من صحراء البيضان والطوارق ثم تصرفت مباشرة.

تقدمت أولا إلى اللواء "دريكا جي" في ذات الوقت مع أحد كتابنا العسكريين التقليديين، اللواء كان أحد أعضاء جوقة المسرح في "لجنة إفريقيا الفرنسية" يجب أن أحصل على تعيين في الجيش الاستعماري خارج نطاق الدور.

⁴¹ العقيد مارشانه جانه بابليس 1863-1934 هو بطل البعثة الأطلسية. _ البحر الأحمر (المرسلة من قبل الحكومة الفرنسية مع قليل من الإعداد) والذي قابل في فاشودا فرق سير دار لورد ليتشنز سنة 1898 إنه كان من قريه "تواسي" (عين) المتجاورة مع قريه "كرينه" حيث منزل أسرة افيريجان وقد كان الرجلان مرتبطين بصداقة تقليدية في البحرية الاستعمارية وهي صداقة المنشأ صداقة الكورسكيين والبروتون هي الأكثر شهرة ولكنها ليست الوحيدة.

كنت أهدف أساسا أقاليم اتشاد التي أتصورها أفضل، واستقبلني بعطف ودعمي لدى مدير المستعمرات للحصول على وظائف سياسية وإدارية إذ لا يمكنني الحصول على غيرها خارج إطار الدور وفي نفس الوقت حصل اللواء "أرشينارد"⁴² الذي كان قائدا في رتل السودان من "م. روم" الحاكم العام لإفريقيا الغربية على أن يطلبني شخصيا للوظائف المذكورة سابقا.

لكن فرصة الذهاب تخلفت أيضا، قمت بإشعار كافة الفيالق الاستعمارية في فرنسا برغبتي في تقديم دوري في الذهاب وفي رد على إحدى رسائلي، استلمت برقية وفرت لي الفرصة المطلوبة ضابط عائد من كوشينشن مع زوجته وطفله مرضى، كان عليه أن يعود دون بطء إلى المستعمرات، سمح لي أن آخذ دوره.

قطعت المسافة بين منزلي والتلغراف قفزا خشية عدم الوصول بسرعة. كنت أعرف الشخص المؤثر إنه "ضابط قديم" مع اللواء "أندري" لقد وفر التعيين حسب الرغبة ونصحتني باختيار موريتانيا هذا الإقليم الجديد الذي يوجد في حوض نهر السينغال، قبلت بشدة وكان الرد بأنه يلزم أن أبحر إلى بوردو يوم 30 أكتوبر 1903 وكان ذلك يوم 19 من نفس الشهر كان أمامي قليل من الوقت لرؤية عائلتي والقيام بالتحضيرات، كانت لدي تجربة سابقة في بلاد البيضان والطوارق (1893-1894) مكنتني من التفاهم مع هؤلاء.

وفي يوم 30 أكتوبر ركبت من "بولياك" سفينة نقل تدعى "شيلي" مخصصة للمراسلات البحرية، وجدتها محملة بالعديد من حكام المستعمرات الإفريقية الغربية وأعداد كثيرة من الأمريكان الجنوبيين وبعض التجار المفاوضين السينغاليين والسودانيين.

وعلى متن السفينة بعد الركوب مباشرة وعند بدء التعارف أثار تعييني في موريتانيا الذي أعلنته من قبل الموظفين والاستعماريين في السينغال بعض الابتسامات الخفيفة، لاحظت ذلك دون أن أتفهمه ومع ذلك تذكرت أن نفس الابتسامة كانت قد صدمتني ذات مرة. لاحظتها لدى جماعة سان لويس الذين قلت لهم إنني ذاهب إلى أعلى النهر سنة 1892 فقد كان يدعى حينئذ "السودان"⁴³ وأحد الضباط الذين يسافرون معي في السفينة "شيلي" قدمني لزوجة الحاكم بأني مصاب "بكبولانية حادة".

⁴² اللواء ارشناد (1850-1932) الذي اشتهر بالحملة التي قضت على امبراطورية أحمد بن الحاج عمر الحملة التي توجت بالاستيلاء على سيكو ودوسيبوكو كونيا كيري انيورو ثم في سنة 1893 الجنة، موبت وباندياكرافي وفي فبراير 1894 دخل النقيب جوفر Joffre إلى تومبكتو.

⁴³ يذكر افريجان هنا الجو الخاص جدا في السفن حيث مجتمع صغير بأحاديته وثقافته ومؤامراته وسلمه يقضي في قدر مغلق مدة أسبوع الرحلة، الأجيال الحديثة المتعودة على الطائرة قد لا تتصور ذلك بسهولة.

إنها دعابة دون شك من صديق مرح لقد احتفظت بها على كل حال وبعد ذلك ودون أن أفكر في الأحداث التي تحصل أتذكر تلك الانطباعات الأولى التي حصلت أثناء الرحلة وأن مصدرها هو أنماط من التفكير سأتناولها غالبا خلال هذا القصص ذلك التفكير الذي جعلني فيما بعد أعاني كثيرا.

وفيما عدا ذلك فقد كانت الرحلة عذبة نوعا ما لقد رأيت "بورتو" و"لشبونه" و"مرسيلية" الأشد وسخا. كدنا نصبح أشباحا غامضة في خليج "غاسكون" وفي يوم 28 نوفمبر 1903 هبطنا إلى داكار ولم أستلم تعييني إلا في اليوم الثاني بـ"سان الويس" لقد عينت في القيادة العليا خارج الإطار تحت تصرف مندوب الحكومة العام في موريتانيا السيد كوبولاني لقد بلغت إذن غايتي، لطالما ضغطت من أجل هذه الغاية.

لم تكن موريتانيا شيئا جديدا بالنسبة لي، لقد تعاملت مع البيضان عشر سنوات خلت في مناطق الساحل السوداني ثم شاركت في رتل "جوفر" وفي الحملات القوية ضد الطوارق إلى الشرق من تومبكتو، وخلال تلك المعارك كان لنا أن نتشابك مع البيضان المتخالفين معنا. خلال تلك الإقامة الأولى في إفريقيا لم يكن لي أن أعاشر قبائل البدو الذين نلتقي بهم، بل إن التواصل عبر طلقات المدافع فقط هو الذي حصل إن مهماتي الجديدة تقتضي مني القيام بدراسة البيضان بشكل أكثر أهمية، فنحن نتحدث عن توغل سلمي⁴⁴ بطريقة هادئة وكان يتخيل إلي أن المرحلة لم تعد تسمح بمغامرات حربية....

سنرى ذلك:

لقد كان سان الويس مقر الحكومة العامة لإفريقيا الغربية الفرنسية، ولكن يجب بسرعة أن نمنح هذه المكانة لداكار وأول مسؤول رأيتُه هو اللواء "هوري" الذي نزل من القطار ببطء وهو القائد الأعلى للفرق وفي نهاية الإقامة تم استبداله باللواء "ابيرو" واللواء هوري كان قائد هيتتين

⁴⁴ "التوغل السلمي" العبارة وجدها كوبولاني، ويتعلق الأمر بطمأنة رجال السياسة، "والدك روسو" في البداية الذي كان يخشى انزعاج الرأي العام المعارض دائما للمصادقة على تمويل المغامرات البعيدة و"جول فيري" الذي قام بالتجربة الممضة في تونس و"تونكين" واستعملت هذه العبارة في موريتانيا في اللعب بالكلمات بصورة مناسبة.

مرتين في كوشينشين ثم في السودان وأعلمني بأنه قد حجز لي قيادة مركز سيتم إنشاؤه هنالك في الشمال في موريتانيا مركز انواكشوط لقد كان ذلك التحديد عاما فعلا!
وفورا وبعد يوم واحد من وصولي إلى سان الويس تقدمت إلى رئيسي في الخدمة السيد كوبولاني.

إن مكتبه كان إذ ذاك قريبا من الفرع الكبير للنهر في سان الويس الشمالي في الطابق الأرضي من بناية بسيطة إنه كان يشبه مستودعا للبضائع، ممر مظلم نوعا ما مقطوع بحصائر وطنافس وغرف غير متساوية تأوي العاملين ووثائق المندوبية في موريتانيا.
ودخلت لمقابلة السيد كوبولاني مبهورا بالمرور المفاجئ لضوء الشمس المشع في الليل الذي يخيم على هذه المكاتب لقد كان كوبولاني رجلا كبيرا وجميلا يفرض نفسه، شخصيته منفتحة واحتفالية بملامح امبراطور روماني في جلد كامد محمي وقد كانت الأريحية العميقة في هذا الوجه الهادئ.

أولا كان اللقاء بالنسبة لي باردا نوعا ما وبشيء بشيء من عدم الاهتمام فالنبرة يخيل لي أنها مقصودة وطبعا لم أكن من أهل المنزل، لقد كنت لا أزال أجنبيا كنت أعتقد ذلك أكثر من كونه حقيقة بيد أنه وبدون تأخر قام السيد كوبولاني بإعلامي بالتدخلات التي حصلت لديه لصالحه من قبل اثنين من مواطنيه الكورسيين وحسب كوبولاني كنت أنا وهو فقط الاثنين الذين لديهم علم بهذه التدخلات وبالنسبة لكل أولئك الذين يحيطون به كنت الدخيل الذي يندس تقريبا في مقصورة القائد دون أن يكون وراءه جهة قوية.

وفي الحقيقة لم أتعجب كثيرا من أن الأقي مرة أخرى في بداياتي يدا حامية كورسيكية لقد كنت دائما أحب هذا العنصر من الناس الذين ملئوا حيوية واستقامة مع عدم مبالاة ظاهرة على الطريقة الإفريقية تقريبا.

ولكن أعود إلى الانطباع الأولي الذي حصل عندي من كوبولاني هذا الرجل الذي ظل لوقت طويل على صلة بالمسلمين كان قد أعطى لحديثه هذه الرصانة وهذه التؤدة التي تعبر عن اللباقة لدى أبناء الإسلام، ولكنه بالنسبة للأوروبيين الذين لم يكن يعرفهم كثيرا لم يكن يتصرف بهذه الطريقة وهذا الأسلوب الخاص في الحديث، فلدى اللقاء الأول كانت أبهته وحكمته ودبلوماسيته التي يتعاطى بها مع الجمل وموقفه الحذر مني، أنا الذي لم أكن إلا شخصا ثانويا، كل ذلك لم يرق لي تماما، فطبيعتي مختلفة تماما.

لقد كنت أعزوا هذه البرودة إلى أن كوبولاني لم يطلبني شخصيا كما هو حال كل أولئك المحيطين به كما أعزوه إلى أنني غير معزز من وراء ظهري بشخصية سياسية مؤثرة لقد كنت شخصا قليل الأهمية جدا.

لقد كانت تعابير كوبولاني غامضة شيئا ما لأنه اعتقد أنني جديد بالكامل على هذه القضايا التي يناقش معي ولم يكن لديه علم، وثانيا بسبب طبيعته الخاصة، لقد كان هذا الرجل يعيش في حلم من الفخامة مع شيء من الغموض بالسيطرة على هؤلاء البداة المسلمين في بلاد البيضان اعتمادا فقط على الانتفاع والمصالح⁴⁵.

ولكن وبعد أقل من سنة، كان عليه أن يعلم أن المصالح أشد وقعا وتأثيرا على القبائل الغنية منها على تلك المعدمة وأن القناعات كانت تصنع كثيرا بالقوة.

ومنذ الآن يمكنني أن أقول بأني لما استدعيت بعد ذلك في الأيام الأولى من سنة 1905 لأرى واستمع كثيرا إلى كوبولاني الذي أصبح يعرفني أكثر اقتنعت بأن الصيغة الغامضة التي كان يرسم بها عن قصد وجهة نظره أصبحت شيئا فشيئا أكثر حدة وأشد حسما، لقد كان يعرف وينظر من أقرب؛ ومن جهة أخرى كنت أنا أفهمه أكثر.

وكلما كان يتقدم في العمل كلما كانت أفكاره تتطور وتلامس الحقائق أكثر، لم يكن صاحب انحياز، كان ينحاز إلى من يراه على الطريق المستقيم وكان يخضع للضرورة الملحة الوقتية ولقد كنت متأكدا تقريبا من أن الغيوم التي كانت في البداية تشوش أفكاره قد انقشعت وكان من وقت لآخر يعطينا نظرتة للحالة الراهنة ومشاريعه.

على كل حال في ذلك اليوم من نوفمبر 1903 قابلني كوبولاني لحظات وكان يختار كلماته ويختصر تصرفاته فأعطاني انطباعا أنه يحاول أن ينجح عن طريق التؤدة المقصودة في الخطاب لدراسة مخاطبيه وكان ينظر إلي وأنا أستمع إليه، لقد كنت بالنسبة له المجهول وكان يحذر مني أحسست بذلك وانزعجت.

ومهما يكن فلقد شرح لي في خطوط عريضة ما يلزمي القيام به في الحال وما سيكون دوري في المستقبل.

⁴⁵ هذا الحكم عن كوبولاني يجب وضعه بالموازرة مع ما كتبه روبر راندو في كتابه "المستكشفون" وكتابه أكرافيني كوبولاني رجل السلم

أولا يجب أن نقيم أياما في سان لويس، ذلك أنه هو سيرافق م. روم إلى بودور الذي عليه من هنالك أن ينطلق متوغلا إلى الشرق في إمبراطوريته وخلال غياب السيد كوبولاني كان علي أن أقوم بتسيير شؤون مكتبه وكالة لوقت جد قصير حقيقة، ولكنه مكنتني من أن أكون على علم بكثير من الأمور، وعند عودته رافقته لننشئ معا مركز انواكشوط على شاطئ المحيط إلى الجنوب قريبا من أبور تانديك.

وانتقالا مما يعنيني إلى مشاريعه هو أطلعني كوبولاني على ما يريد القيام به خلال سنة 1904، إن لديه تجمعا من الفرق نظاميين وغير نظاميين رماة، فرسانا، جمالة، بيضا سودا عليه أن يدخلهم هذه السنة إلى موريتانيا عبر لبراكنة إلى الشمال من ابودور ثم عليه أن يتقدم تحت حماية هذه القوى شيئا فشيئا منشئا مراكز في طريقه بصورة تحفظ المكتسبات.

وسيكون التوجه العام من ابودور في اتجاه تكانت إنه يخطط لرحلة لمدة 6 شهور ويأمل أن ينجح في التوغل في تكانت خلال سنة 1904 وفي سنة 1905 وفي نفس الفترة إذا تم تنفيذ برنامج سنة 1904 سيكون التوغل إلى آدرار وهنا ألمح إلي بأن هذا التحرك الأخير سيكون من انواكشوط وأنه سيعتمد علي أنا في هذا المسير إلى آدرار.

وهأنذا أتحدد تقريبا فلن أكون ضمن البعثة التي تسمى في سان لويس "بعثة تكانت".
وفعلا ورغم جولاتي الإفريقية القديمة منذ عشر سنوات فإني لا أزال جديدا في قضايا البيضان الحالية لأكون مهما في هذا الوقت ومن جهة أخرى فإن كون كوبولاني يجعلني آمل دورا في المسير إلى آدرار سنة 1905 يشجع عزمي ومشروعي الممكنون

ومن الدراسات الأولية التي قمت بها من هنا وهناك حول بلاد البيضان فقد كان آدرار هو ما أهمني كثيرا فأنا أحفظ تقريبا قصة سفر النقيب "فنانسان".⁴⁶

لقد كنت أعلم فيما سبق أن في آدرار سيكون العمل أكثر وخاصة من الناحية العسكرية وذلك هو الأمر الأساسي عندي أنا وزيادة على ذلك فإن إمكانية الربط بيننا وبين زملائنا في الجزائر أمر مرغوب بكل بساطة وبراعة، مع أنني لم أتساءل عن مدى رغبة هؤلاء في هذا

⁴⁶ النقيب "فنانسان" نشر يوميات سفرته تحت عنوان: رحلات واستكشافات في السينغال والبلاد المجاورة" رحلات في آدرار والعودة إلى سان لويس في رحلة حول العالم 1861 هذه القصص تعتبر نقاطا مهمة لقد تم استخدامها من قبل العقيد "غورو" لقد كانت في تلك الفترة أفضل الوثائق.

الجوار فأنا لا أعرف إلا شيئاً واحداً وهو أن آدرار على الخط الذي يربط سان لويس ببني عباس.⁴⁷

علي إذن أن أظل مستسلماً منبهرًا خلال سنة 1904 أمام آدرار، سوف أستلم مهامى كقائد في دائرة كل شيء فيها يجب فعله، سيكون مركزي في انواكشوط⁴⁸ المركز الذي سيأتي السيد "كوبولاني" لإرساله معي أنا.

لقد كان حدد مكانه العام في مايو 1903 وهنا فيما يبدو سأكون في جو جيد وفضاء صحي، المساكن وحتى الحصن القابل للتفكيك جاهزة في دكار يجب أن أذهب إلى هنالك لأقوم بشحن كل ذلك ونقل الحامية وأما فيما يخص تموين المركز فإننا نفكر في تموينه مرة كل شهر عبر البحر.

فالترازة التي نعتبر جزءاً منها تمتد شمال النهر إلى خط ابودور الزوالي حالياً أي في نهاية سنة 1903 يوجد هنالك مركزان فرنسيان: في الغرب مركز خروفة الذي تمسكه كتيبة من الفرسان، وكتيبة من الرماة قسم منها جمالة وفي الشرق مركز سهوت الماء⁴⁹ الذي يشرف عليه قسم من الرماة، هذا المركز الأخير يوجد على ضفة بحيرة كايور التي يسميها البيضان "أركيز".

لقد تم إشعاري كذلك في البداية بأني بعد إنشاء مركز انواكشوط سأتكلف بمهمة مقتضاها أن أجوب البلاد لبسط الأمن وجمع المعلومات عن آدرار وفوق ذلك يمكنني أن أتلهى بالصيد فالبلد غني بالطرائد لقد اصطحبت معي كلبى من فرنسا إنه ضبوط أصهب لا بد أنه سيكون مفيداً لقد راق لي كل ذلك وغادرت السيد كوبولاني مسروراً.

لدى قيادة الأركان استقبلت بحفاوة، ووجدت هناك بعض الأفكار التي لاحظتها على متن الباخرة "تشيلي". موريتانيا لا ينظر إليها بعين الرضا هنا والأمر بعيد من تفاؤل كوبولاني هذا المدني الذي يقود الفرق....! هذا ما صدم حقيقة كل الأفكار التي تلقيتها . أشير علي بأن

⁴⁷ سان لويس بني عباس لا يبدو أن افيريجان يقدر الصعوبات التي تفصل بين الجنوب الجزائري وآدرار ويمكن أن نذكر أن الصورة التي رسمها "أجن أئين" لإمبراطورية واسعة تحت سلطة فرنسا تمتد إلى الشمال وإلى الغرب وإلى الوسط الإفريقي إمبراطورية تنتعش ببناء سكة حديدية عابرة للصحراء تعبر عن شيء.

⁴⁸ انواكشوط العاصمة الحالية لموريتانيا توجد على بعد 5 كيلو متر تقريباً من المركز القديم الذي لا تزال توجد بعض أطلاله إنها ليست على شاطئ المحيط لكنها تتمتع بمناخ صحي وبحيرة جوفية هائلة.

⁴⁹ يجب أن نكتب سهوت الماء أي تقريباً شاطئ الماء وهو ما يؤكد وصف افيريجان شاطئ بحيرة كايور المسمى اركيز عند البيضان الذي يتمدد بصورة متغيرة، إنه يتشكل من فيضانات مياه بواسطة خلجان في حالة المد وينضب جزئياً عند ما يبدأ منسوب المياه العالي ينخفض.

أتعامل بكثير من اللباقة والدبلوماسية مع قائدي ورئيسي في الخدمة وزملائي العسكريين كلا ليس ذلك هو قوتي! كفى! الطريق المستقيم إلى الهدف يمكنني دائما من الخروج من الوضعيات الغامضة.

اتخذت قرارا بأن لا آخذ بعين الاعتبار الدسائس وأن أعمق في المشكلات دون رجوع. كان هذا هو الموقف المعاكس للمواقف التي تبناها بعض الضباط الذين عرفوا كيف يؤمنون مصالحتهم الشخصية، ورغم كل الأكدار والهموم العائدة إلى إصراري على أن أبقى مستقيما فأنا مرتاح لأنني تصرفت هكذا فالخنزير يثقب حيث يوجد الثعلب، لم أتصور في يوم من الأيام أن المشكلة الدبلوماسية تعد فضيلة عسكرية.

إن الوثائق التي حصلت عليها لدى القيادة العليا أقتعتني بأن العمل سيكون مهما لقد استخلصت منها دفترا من المعلومات وأركز أساسا على القضايا المتعلقة بإنشاء وحدات من القوم والجمالة وجمعت كل ما كان قد كتب حينئذ عن الموضوع.

وكتبت إلى اثنين من الضباط المعروفين في الجنوب الجزائري، أدري من أعرفهم بهذا الموضوعات الخاصة: الرائد "دي سيسبيل" بطل "التاقيت" زميلي القديم في المدرسة الخاصة العسكرية والعقيد "لابرين" الذي جبت معه بوادي تومبكتو قبل 10 سنوات في مطاردة الطوارق⁵⁰ لأطلب منهم موافاتي بتجاربهم في الميدان وقد مكنتي مروري بالقيادة العليا أيضا من الاطلاع على العمليات التي تجري هذه السنة: أولى المعارك التي تدور في موريتانيا منذ عهد افيدرب.

في يوم 16 يونيو 1903 قامت عصابة من أولاد الفاغ وأولاد دمان بإرهاق بعض المرابطين المناصرين للفرنسيين فقام الملازم "أوبير" المقيم بسهوت الماء والذي أخبر بأن المهاجمين سيمرون ليلا ببئر "سشول شو" الذي يبعد أربع ساعات سيرا على الأقدام من المركز في اتجاه ابودور بمطاردتهم، كان يتمتع بمفرزة قوامها 10 فرسان بقيادة رقيب المدفعية "شارتسون" واثنان من الرماة، عند وصول المفزة إلى المخيم الذي نام فيه العدو قام الملازم بإثارة الرماة، يدفعهم

⁵⁰ لقد فهم افيريجان الذي كان يجوب البوادي وراء الطوارق أنه لنتكافأ مع البداة يجب أن نأخذ منهم حركيتهم أي وسائل ركوبهم الجمال. فإلى تلك الحقبة كانت الفرق الراكبة فرسانا، الفرسان السينغاليين الذين شكلهم فيدروب ولكن خارج ضفاف النهر فاستخدام الخيل لا يخلو من مخاطرة (بالرغم من أن بعض شيوخ البيضان يتكلف في صيانة بعض الخيول لتأكيد الشرف والمكانة) وبالنظر إلى البيضان والطوارق سيعلم الفرنسيون أن الجمال ليس فقط حيوانا ولودا ولكنه كذلك مركب في الحرب لائق للمطاردة الطويلة. سيكون النقيب "تقنيو" هو الذي سيشكل أولى وحدات الجمالة في موريتانيا.

الحماس إلى البحث في اتجاه المخيم عن موقع إطلاق النار حيث أصيب "شارتشون" بسبع قذائف ومات فقام العريف التكروري باب با بتغطية جسد قائده وقتل ثلاثة من البيضان كانوا يريدون أن يذبحوه.

وسقط العدو الذي يحاول الهرب تحت ضربات الرماة فأصيب اثنان من الفرسان بجروح خلال هذه المعركة.

كانت تلك أول معركة مع البيضان حيث نصطدم هنا بمحاربين يختلفون عن السود فالشجاعة العمياء لم تعد تكفي لمواجهة عدو ماكر محتال يجب أن نكون حذرين وأن نتصرف بحكمة. منطقة الضعف لدى البيضان هي الدفاع وعملية تكند تؤكد ذلك.

في نهاية سنة 1902 كان أمير اترارزة أحمد سالم ولد أعل قد تنازل عن كامل حقوقه لصالح الحكومة الفرنسية ممثلة في كوبولاني.⁵¹

أحمد سالم: هو ابن أعل جمبت وهذا الأخير هو الابن الثاني لأمير اترارزة محمد لحبيب من زوجته جمبت أميرة والو⁵²، وكان المقيم بأخروفة قد أمره بالبقاء جنوب المحلة وقد كان مخيمه محاطا بأشد المحاربين في البلاد ضراوة ابن عمه سيدي ولد محمد فال ولد سيدي الذي يدعونه ولد سيدي⁵³ الطامح للإمارة. فأقام أحمد سالم بموجب هذه الأوامر ولتجنب المصادمات في شمال اترارزة، ثم لما أن انضم إليه مناصرون كثر صعد أحمد سالم بلباقة إلى الشمال لملاقاة "ولد سيدي" للشجار معه⁵⁴ وفي أكتوبر 1903 جانب مركز اخروفة من الغرب ليلتقي مع أولاد أحمد امن دمان لدى تكند ومع لعلب الذين يعتبرون أهم مقاتلي اترارزة وفصائل من أولاد بسباع الجنوب والحماس يوما بعد يوم يغمرهم.

⁵¹ أحمد سالم ولد اعل أمير اترارزة (1891 - 1905) والمعترف به من قبل الحكومة الفرنسية بموجب اتفاقية 8 أكتوبر 1891 وقع تحت الرعاية الفرنسية اتفاقيات عديدة مع أمير والو "براك" ابن خاله في 25 مايو 1892 - 10 سبتمبر 1894 و 29 يوليو 1895 وفي حالة النزاع سيكون الحكم هو الإداري في دكانة.

⁵² جمبت التي تدعى أيضا كمبت حسب تقاليد الوالو فإن ابنها يمكن أن يكون ملكا كما يمكن أن يطمح إلى أمير اترارزة من جهة أبيه الذي ينتمي إلى الفرع الأصغر من أبناء الأمير أعل شنظورة، قتل اعل هذا سنة 1896 فقتله محمد فال ولد سيدي أمبيريك الابن البكر لمحمد لحبيب. هذا القتل بين الإخوة وأبناء العمومة الطامحين كلهم إلى دور في الإمارة كان شيئا عاديا في المجتمعات التي لم تتخذ فيها قوانين تداول السلطة مما سبب تآرا وانتقاما لا ينتهي.

⁵³ سيدي ولد محمد فال ولد سيدي يمثل هو وأخوه الأصغر أحمد ولد اديد الفرع البكر لأسرة أعل شنظورة وبعد ذلك نازح ولد سيدي أحمد سالم ⁵⁴ في الحقيقة لقد انفصلت عن أحمد سالم فصائل من قبائل قيادية في اترارزة مثل أولاد أحمد امن دمان وأولاد دمان بسبب أخلاقه وكذلك الناشط الخطير صانع الأمراء أختيارهم وانضموا إلى جناح ولد سيدي.

بأمر ملازم الفرسان "سيكولي" المقيم حينئذ بأخروفة ولد سيدي بالانسحاب إلى الشمال و"أحمد سالم" بالنزول إلى الجنوب واستجاب ولد سيدي وبقي أحمد سالم في محله مفتخرا بأنه سيتغلب على مركز أخروفة وفي يوم 7 أكتوبر مساء قام الملازم سيكولي بتكوين رتل صغير من 17 من الرماة يقودهم الرقيب "لامير" و30 من الفرسان يقودهم رقباء المدفعية "تيفنو" و"سيرزن" وفي يوم 8 أكتوبر عند الفجر بعد مسيرة 25 كيلو مترا وصل الرتل إلى تكند برئاسة الحسن ولد الطالب المحمل برسالة إلى الأمير السابق تنذره بضرورة الخضوع ولكن أحمد سالم الذي علم بقدوم الملازم لم ينتظر وغادر مع أغلب رجاله حوالي 600 مقاتل تاركين خيمهم مضرورية ومؤخرة تثبط المفرزة.

أطلق الرماة النار دفعة على هذه المؤخرة التي هربت عند وصول الرماة فاستولى سيكولي على المخيم والجمال ثم عاد إلى أخروفة بغنائمه 12 مدفعا و12 مسدسا وأربعة براميل من الطحين واتجه أحمد سالم إلى الشمال بعد أن خسر خمسة من رجاله. كانت تلك هي الوضعية التي ورثت في اترارزة فالمكانة العسكرية لا غبار عليها لكن أحمد سالم ظل غير خاضع كل ذلك يهيئ للقيام بعمل.

وأخذت الوقت للتوثق عن هذا المجال الذي سأعمل فيه مستقلا وعن سكانه لأن الحاكم العام آخر زيارته التفتيشية في الداخل والسيد كوبولاني لا يزال في سان الويس وتأخر السفر إلى انواكشوط. هناك مترجمان عسكريان ومفرزة من الضباط العرب مبعثون من الجزائر لتأطير القوم ذهبوا كلهم إلى بودور.

وفي يوم 16 نوفمبر غادرت بعثة تنظيم تكانت سان الويس على متن القارب البخاري النهري مصحوبة بجوقة البواقين والنقيب شوفو يقود فرق البعثة.

وفي يوم 17 نوفمبر كان هناك استقبال كبير لدى الحاكم العام وذهبت إليه فتحلقنا حول المقصف حكاما وكتابا عامين وموظفين وضباطا وسكانا ونرى هناك حتى بعض الكهنة.

الأوروستنقراطية المختلطة لمدينة سان الويس تلتقي مع بعض الشيوخ السود في الأثواب الفضفاضة ذات الألوان الحادة، في السنة الماضية وفي نفس الفترة جاء أحمد سالم⁵⁵ في استعراض حيث كان أمير اترارزة وهو الآن منشق.

⁵⁵ بتزويجه فاطم بنت سيدي أعل اخت أمير ليراكنه ألب أحمد سالم ضده أسرة زوجته السابقة مريم بنت ابراهيم خليل من أولاد أحمد من دمان هذه الفصيلة النبيلة المحاربة المهمة أصبحت في صالح ولد سيدي.

وبفضل تحضيره من قبل السيد كوبولاني وتوصية سابقة من اللواء "آرشينارد" استبقاني "السيد روم" لدقائق معه.

وبعد ذلك وبصورة صامتة سوف أكتشف العالم الاستعماري الرسمي وأتصور العالم المختلط وفي هذا أو ذلك سوف أجد ذلك الانطباع غير الجيد الذي كنت قد وجدته في المركب واستخلصت من هنا أيضا أن موريتانيا والسيد كوبولاني لديهم من الأعداء بقدر ما حضر هذا الاستقبال.

هذا الحقد الدفين لا يخلو من أمور شخصية من قبل أولئك الذين تركوه يظهر. إنها إذن المصالح الشخصية وراء ذلك.

انتهت دراساتي للأخلاق وسأسرع على الطريقة الإنجليزية مع برد الليل.

وبما أن ذهابي إلى المركز قد تأخر فسأشغل أوقات الفراغ في تعلم اللغة العربية تطبيقا مع أحمد ولد أعمر فإني أعتقد أن النظرة لبلد ما ستكون سيئة إذا كنا لا نعرف لغته إنها نقطة الضعف في ما كتب من قبل غير المستعمرين عن بلاد ما وراء البحار إنهم ينسبون إلى الأجناس الغريبة الانطباعات الخاصة وذلك خطأ.

أتصور المركز الذي سينشأ في انواكشوط بمظهر طيب فالشاطئ غني بالأسماك وستأتي بعثة فرنسا لدراسة المصائد⁵⁶ التي يمكن إنشاؤها هنا فهل أنا ظفرت ببلاد النعيم⁵⁷؟ لقد رافق السيد كوبولاني الحاكم العام إلى بودور حيث حصل نقاش كبير ثم استمرت البعثة في طريقها إلى بوقي حيث تم استعراض الفرق المصاحبة وواصل السيد روم طريقه إلى خاي وتعمق السيد كوبولاني في لبراكنة على رأس فرقة.

وفي يوم 12 دجمبر كانت سان الويس كلها في فرح عارم، ولذلك ما يبهره: يقال أن بعثة لبراكنة تعرضت لإخفاقات وخسائر جسيمة من قبل البيضان وحتى أنه ينتظر الإعلان عن الرجوع في عملية التوغل إلى موريتانيا، الجميع في الخلف يجري الآخريين والاستياء ضد كوبولاني يتسع ويعم ونقاط التضخم المفرط هي الجنوب الفرنسي والشمال السينغالي.

⁵⁶ بلاد النعيم: الشواطئ الموريتانية غنية بالأسماك والرخويات ففي سنة 1908 كان الصيادون يراقون يستغلون وسائل بدائية جدا الموارد البحرية الكثيرة جدا ثم جاء الصيادون الإسبان لاصطياد الجراد البحري ثم أنشئت المصائد في ميناء "اتين" الذي أصبح انواذيبو التي تحاول الصيد والمعالجة بطريقة صناعية للأسماك الكثيرة جدا أزل خاصة.

⁵⁷ بلاد النعيم الشاطئ الموريتاني غنية بالأسماك والرخويات. في حدود 1900 كان صيادوا إيمراغن يستخدمون وسائل بدائية هذه الموارد الكبيرة ثم جاء الصيادون الإسبان لاصطياد الجراد البحري وتمت محاولات من مصائد انواذيبو للقيام بمعالجة صناعية للأسماك للكثيرة وخاصة سمك أزل.

وأخيرا وفي يوم 15 دجمبر وصل المركب الذي يحمل رئيس الخدمة ومعه كتابه الخاصون وضابط مترجم، السيد كوبولاني الذي كان يقول أصحاب النيات السيئة أنه جرح ها هو ينزل من المركب في صحة جيدة وكان قد اسمر قليلا مقارنة بيوم ذهابه.

وغدوت أبحث عما حصل حقيقة مما يتحاكاه الناس في المدينة وهذا ما حصلت عليه. في ليلة الثامن إلى التاسع دجمبر في حدود الساعة الرابعة صباحا كانت بعثة المخيم قد تمت مهاجمتها من قبل عصابة يقودها أمير لبراكنه أحمد ولد سيد أعل وولد أمير إدوعيش بكار ولد اسويد أحمد، كانت الفرقة النظامية تستقر على أكبر الهضبتين الصخريتين في الأاك والمدعوة "كويبين" الدبية.

في حمى جدار صغير من الصخور الجافة، والجمالة والمناصرون التكروريون ينامون عند قاعدة الهضبة متفرقين في الدغل بدون حارس، هؤلاء هم الذين تعرضوا للضربة وفقدوا كثيرا من خيولهم وعند الفجر الأول قام الفرسان المجندلون وأربعون من الرماة في أثر هؤلاء البيضان فلاحقوا بالمتأخرين منهم وجأؤوا بهم أسرى ومن خلال استجواب هؤلاء تبين أن الأمير يفكر في إعادة الهجوم قريبا، وفعلا كانت خسائر العدو قليلة وهو ما يفسر هجومهم هذا. كان كوبولاني في بداية المعركة نائما تحت خيمته التي كانت مضروبة قد اخترقتها رصاصات والتي أخلاها بسرعة بدون أن يجد وقتا للبس ثيابه، خلال مقامي في سودان الطوارق لم نكن قط نضرب الخيام ولم نكن ننام فيها لعلمنا بأنها أهداف سهلة، صحيح أنه لم يكن بالنسبة للبعثة يتوقع هجوم ليلي من البيضان ثم إن كثيرا من الناس يتصورون أن غض الطرف يعني التظاهر بالشجاعة.

هذه هي قضية آلاك ملخصة والتي أبهجت أهل سان الويس إذ كانوا يعتقدون أنها كارثة وأن السيد كوبولاني جرح وهم أشد سرورا لو كان قتل.

وفي انتظار الغزو السلمي الذي أتصور أنه تم تشويبه لم يقم كوبولاني بأي هجوم، وكان يعتقد أنه على تفاهم مع الزوايا وقبل ذلك بعث نذيرين هما الحسن ولد الطالب ومحمد ولد اللب إلى أمير لبراكنه الذي طردهما مجردين كالديدان المعوية محملين بكثير من التبجح اتجاهنا، وأكثر من ذلك نحن من شأننا أن نتدخل لصالح قبائل الزوايا المستنزفة من قبل المحاربين، ذلك أن زوايا أجيح في الأاك يتظاهرون بأنهم الأشد حماسا للانقضاض علينا وحقيقة إذا كان بعض هؤلاء القبائل طلب منا التدخل لصالحه فنحن سوف نعم دون حذر

إنها المرة الأولى التي يختبر فيها كوبولاني خيبة أمل من هذا النوع، إذا كانت ثقته القوية على الأقل في إرادة الزوايا قد تزعزعت.

منذ تكانت ونحن نواجه أمير اترارزة ومنذ ألاك ونحن نواجه أمير لبراكه في حرب مفتوحة ومع إدوعيش، لقد تم تجاوز الحد، والنظريات السلمية كما هو ديدنها أشعلت الناس في العموم، يجب تغيير الخطة.

لقد غادر كوبولاني مؤقتا البعثة ليرافقني إلى انواكشوط، جاءت السفينة الحربية ذات العجلات المملوكة للدولة والمسماة "جيولاند" إلى سان الويس لتحملنا، وكان على متنها أربعون من الرماة والخمسة عشر الآخرون سوف يأتون برا من أخروفة لتقوية هذا العدد.

وإذا كان كوبولاني لا يزال واثقا من الزوايا فإنه لم يعد يعتقد أنه سوف يغزو موريتانيا بصورة سلمية، إنه مقتنع بأننا سوف نهاجم إذ رحنا لنؤسس مركز انواكشوط.

وبما أنه لا يوجد أشجار شائكة صالحة لتكوين زريبة قريبة والغطاء النباتي الموجود يتكون أساسا من جنس الفرونويات والمسمى محليا بـ"الفرنان" أو الأثل المسمى محليا بـ"الطرفاء" لقد أوردت ألفي متر من الأسلاك الشائكة.

وقد تم الاتفاق على أنه ما دامت السفينة الحربية راسية سوف نخيم في العراء تحت حماية نيران القطع وسوف أبنى مصدا أو مترسا مؤقتا من مواد البناء المخصصة لبناء المركز وأكياس التموين التي نجلبها .. فإذا كانت ستحصل هجومات فستكون لاشك في وقت النزول من السفينة وهناك إشاعات مفادها أن أحمد سالم سوف يسم الآبار ولكن بما أن المياه الجوفية على عمق أمتار قليلة من السطح فبإمكاننا بسهولة القيام بحفر آبار أخرى وهناك وقت آخر ربما يكون خطيرا وهو وقت ذهاب السفينة الحربية ولكننا سنكون حينئذ جاثمين على الأرض ولدينا من العدد مما يمكننا من المقاومة.

يتخلص مني السيد كوبولاني بتعيين أحد أتباعه كان يزعجه مساعدا لي فاطلعت بسرعة على عدم كفاءته.

في سنة 1903 كان ضمن بعثة في لبراكه وكان دوره مقتصر على تصفية مياه الطبخ وقد حاول أن يستقل عني فرجعتني إلى السيد كوبولاني الذي أعاده إلى الحاكم العام الذي حوله إلى دكار، ولكن جرح كبريائه سبب سيلا من الكلام الجارح وشهر بسمعتي لدى السيد روم مدعوما ببعض الحسدة ولم يفاجئني ذلك كثيرا.

وأبدلته برقيب مدفعية مشرف عرفته عشر سنوات قبل في منطقة تومبكتو حيث كان جنديا في المدفعية وانتقل الشجاع "رافينه" من المدفعية إلى الخيالة وبهذه الصفة جاب بوادي الطوارق من كوندام إلى تمبكتو وخدم بعد ذلك في الجنوب الجزائري بين الفرسان الصحراويين وأخيرا قام بمهمة فورو لامي⁵⁸ بوصفه جمالا.ممتلئا شرفا ومثخنا جروحا، لقد كان في دم "رافينه" حب المغامرة وبعد عدة أشهر أصبح مساعدا مدرعا في باريز ولكنه لم يطق البقاء هناك فانتقل من رتبته وعاد إلى افريقيا رقيب مدفعية من الخيالة السينغاليين، إنه مجندا آخر يختلف عن صاحب الماء المصفى!.

سيكون الجو في العراء باردا على شاطئ انواكشوط وفي سان الويس لدي أغطية ممتازة وبفرنسا وكلبي يجعلني دائما ساخنا.

وصلت السفينة البحرية أخيرا، ولم أكن أتصورها بهذا القدم وهذه العتاقة مملوءة من كل أنواع التموينات خارجا عن أجزاء كبيرة من تجهيزات المركز مفككة.

سنترك بعد لحظات تسامح السينغال وعطفه إلى كل ما يتصل بموريتانيا لقد أشعرنا بأننا لا يمكننا أن نحمل معنا أمتعتنا الشخصية ولا الأغذية الخاصة لأن السفينة (جيو لاند) سوف تحمل من سان الويس أطنانا من تبين الفستق⁵⁹، بينما يقول السيد كوبولاني وكل أولئك الذين يرافقونه إلى انواكشوط بأن هناك يوجد البقل والحشائش بكثرة.

وبعد مفاوضات شديدة يحصل السيد "كوبولاني" على تفريغ السفينة من التبين وأمكننا في النهاية حمل الأمتعة والتموينات وبعد ذلك بشهور سوف أتعرض لشراك ممتد بهذا الخصوص.

غادرت يوم 21 دجمبر وألقت السفينة القلوس وغادرت الرصيف في سان الويس وعبرت حاجز مصب النهر تمور وتمخر بصعوبة سالكة الشاطئ الواطيء الموريتاني وكعادته كان البحر هائجا وأقل عمقا.

وفي يوم 23 فجرا رست السفينة على تسعة أمتار في العمق وعلى بعد 120 مترا من الشاطئ وتحول بيننا وبين الشاطئ ثلاث حلزونيات بيض كما أن رمال الحصباء البيض المشعة

⁵⁸ قام بمهمة حراسة مرافقه لقافلة التمور لدى عين الزاوية شمال العبر حيث قام قائد البعثة بالإبقاء عليهم بدل تركهم يعودون إلى الشمال الصفحة 34 من يومية عريف في المدفعية في البعثة الصحراوية "شارل كيبو" "بلفور" "اشميت" 1904.

⁵⁹ تبين الفستق لتغذية حيوانات الحمل مثل الجمال والحمير.

تخفي عنا ما وراء ذلك من اليابسة وبعض الربوات في هذا الشاطئ تتوجها أشجار الأثل الداكنة تشكل معالم للاهتداء عند النزول.

كان على متن السفينة فضلا عن السيد كوبولاني وكتابه الخاصين ومسؤول شؤون السكان السيد "ميشل ءانجلي" وأنا وأربعون من الرماة يقودهم الملازم "أبقرال" القادم من كازاماس والمترجم واثنان من البيضان أولاد بالسباع⁶⁰ وحرطاني⁶¹ واحد من آدرار.

لا تبصر إنسانا على هذا الشاطئ، أحمد سالم لا يوجد هنا فيما يبدو، والحاجز يمكن الولوج منه فيما يبدو كذلك وبدأ التفريغ في ساعة متأخرة من المساء، وكنا قد اصطحبنا معنا قوارب وصيادين من سان الويس⁶² ووضعت في الماء وتكدسنا بعض على بعض تتقاذفنا الأمواج، نغوص تارة في عمق الأمواج إلى الحد الذي لم نعد نبصر فيه اليابسة وتارة أخرى نعلو سطح الأمواج ونمر بالموازاة مع حلزونيات الحاجز والمجاديف تجرف الماء بكثرة وتأتي إحدى الموجات لتمسك بالقارب وتطرحة رملا حيث يتمدد محدثا صوتا كصوت فقاعة الصابون، القارب الجانح تتجاوزه الأمواج ونخرج نحن مبللين حتى العظام.

الشاطئ والرمال التي تشرف عليه قاحلة، لن نكون بحاجة قطعا إلى حماية مدافع السفينة وقبل أن تهبط المفرزة أرسلت امحمد ولد أعمر ومولاه همر فال ولد موى للتعرف على النواحي امحمد ولد أعمر هو حفيد محمد الحبيب الحليف الأول لفيديرب في حربه مع أمير اترارزة. من فضيلة أهل ميننحنا التي يقودها رجال يخضعون لسلطاتنا لدى سان الويس، وقد تعرفت على هؤلاء الأشخاص من خلال الأحاديث، وكانت لدي ثقة تامة برجلي أولاد بالسباع.

بعث كوبولاني المولى محمود المنتمي لآدرار أصالة في مهمة تعرف إلى الشمال الشرقي عميقا داخل البلاد.

تم التفريغ بسرعة تحت غطاء هؤلاء المستطلعين، يعود المستطلعان من أولاد بالسباع بسرعة ومعهم بعض المعلومات، لقد جاءوا بقافلة من الزوايا⁶³ التي أعلنت أنه عندما أبصر الناس السفينة هذا الصباح هربت المخيمات المجاورة للشاطئ بعيدا والأمير السابق لم يعد في هذه

⁶⁰ أولاد بالسباع قبيلة من أصل شريفي ينتجع أولاد بالسباع في الجنوب الغربي الموريتاني وهم محاربون شجعان.

⁶¹ عيد: خادم ذو بشرة سوداء

⁶² أصحاب القوارب في سان الويس متعددون على اجتياز الحاجز ولديهم مهارات خارقة للعادة.

⁶³ الزوايا رجال أحرار يكرسون أنفسهم للمهام السلمية (التنمية والتجارة) ودراسة النصوص المقدسة ويرفضون حمل السلاح.

النواحي، أصبح من الواضح أن الأمير لن يزعج عملية النزول، وإذا كانت لديه النية فإنه قد فقد الفرصة في مهاجمتنا إذ كنا في المراكب نعبر الحاجز موزعين إلى عناصر معزولة بعضها عن بعض.

غادر رجال أولاد بالسباع في الاستطلاع ثانية إنهم يعرفون البلد جيدا ويبحثون عن صيادي الشاطئ إيمراكن الذين هم من أتباعهم، وبالاتفاق مع ربان السفينة تم اختيار مكان مناسب للدفاع على ربوة متوجة بأشجار الأثل، وبدأت أمد الأسلاك الشائكة وأبني سورا من الأكياس من مواد البناء التي يتم تفريغها أولا بأول.

لقد وقف أصحابنا من أولاد بالسباع بفضل عزميتهم، فقد عادوا قبل حلول الظلام بقافلة صغيرة من زوايا تندغه الذين كانوا في سان الويس يسيرون مع السفوح غير المائية من رمال الشاطئ إنهم كانوا يحملون في أمتعتهم ذخائر الحرب المشتراة من تجار السينغال⁶⁴ وهكذا فإن تجارتنا تغذي هؤلاء الذين يعيدون إلينا عبر فوهات المدافع هذه السلع السلمية للغاية! ويحصل ذلك في تونكين بالسودان وبصورة عامة في كافة المستعمرات الفرنسية.

لقد قام السيد كوبولاني بتقديم قائد القافلة على متن السفينة وبعد ذلك قدم إلى المحاكمة بغير فائدة وفي الشهر الموالي رأبته يعود بإذن مرور مستوف الشروط يطالبني ببضاعته المسجونة مجانا والموضوعة تحت الحراسة القضائية بأمر من المندوب العام للحكومة في بلاد البيضان.

تم تنظيم المخيم الدفاعي في وقت قصير وتم وضع المحرز في غابة الأثل الكثيفة التي تتوج وتشرف على الكثيب الأبيض ومنذ أول مساء أصبح بإمكاننا أن ننام مطمئنين فكل أصحاب الرتب الأوروبيين يأخذ وردية في الحراسة مما يتعجب منه كوادر الرماة الذين لم يتعودوا على هذا النوع من الحراسة في بلاد الزوج وكإعطاء المثل الأحسن فرضت على نفسي أن أبيت قرابة الخمس ساعات يقظا.

والغابة الصغيرة من الأثل التي تحيط بموقعنا تعرف في البلاد باسم طرفاء المنصور وتيامنت بهذا الاسم في أول خطوة لي في موريتانيا.

⁶⁴ تجارة السلاح نشطة جدا وكما يرى افيريجان يغذيها تجار سان الويس الذين ينظرون بعين السخط كل نشاط يهدف إلى بسط الأمن في بلاد البيضان التي يوجد بهاز بناؤهم المفضلون.

ومن موقعنا يمكننا أن نبصر إلى خمسة كيلومترات نحو الشرق وبعد هذا السهل المنخفض توجد ريوات⁶⁵ رملية ثابتة حيث يجب أن نشيد المركز المستقبلي لاناكشوط وباشرت العمل ميدانيا فيما سيكون مفخرة لي في المستقبل.

تأسيس اناكشوط

استغرق تفريغ التموينات ومواد البناء المحملة على متن السفينة "جيولاند" اربعة ايام كاملة إذ كان اجتياز الحاجز سببا في تأخر العمليات. وحسب ريان السفينة البحرية، فإن مرفأ بطول مائة متر سيكون كافيا حتى لا نكون مرغمين للتعرض لهذه المشكلة إذا كان اناكشوط من الأهمية بحيث يسوغ مصروفا كهذا. غالبا ما يأتي السيد "كوبولاني" ليرى تقدم الأعمال لكنه يعود على متن السفينة كل مساء هو وأعوانه ولا يزال حلم الألك المزعج يؤرقه، وبمجرد ما تغيب الشمس نحس بالبرد في ملجننا

⁶⁵ كثنان مينة ذات حصباء مذهبة.

الصغير المتعرض لرياح الشمال⁶⁶ التي تهب عند غروب الشمس، كل الأوربيين أصيبوا بالزكام، والشفاه متشققة والأنوف مرضوضة والأيدي مشقوقة.

وفي يوم 27 دجمبر عاد المولى محمود من استكشافاته ليقودنا إلى انواكشوط فذهبت أنا وكوبولاني للتعرف على موقع المركز في حراسة خمسة عشر من الرماة ويصبحنا ربان السفينة يمارس الصيد وقتل بعض الأرناب.

عبرنا سهلا منخفضا طوله خمسة كيلومترات تغطيه نباتات ضامرة من نوع السرو القصير⁶⁷ ووصلنا بصعوبة جاثمين على الركب وارتقينا مرتفعا رمليا ثابتا من الحصباء المحمرة ثم نزلنا إلى واد ذي قعر مبيض حيث حفرت آبار انواكشوط، إنها حفر بدائية من المياه الراكدة بكميات قليلة على عمق ثلاثة أمتار أو أربعة وتوجد هذه الآبار في ظل غابة من الإثل⁶⁸ وفي الشرق تسد الأفق كثبان رملية ميته.

وسط هذه الرتابة ينمو اليتوع وبعض شجيرات من السرح ذات الأغصان البيضاء العجرا والمتداخلة مغطاة بأوراق صغيرة خضراء. في دجمبر يكون المشهد الطبيعي جاف الطقس. وبما أن السيد كوبولاني يصر على أن يكون المركز الجديد على مرأى من البحر وطرفاء المنصور، تم اختيار الموقع على ذروة الكثيب على بعد ثمانمائة متر إلى الشمال الغربي من موقع الآبار.

في حالة الانسحاب يمكن أن يكون هذا الاختيار سلبيا ولكن هذا الخطر فيما يبدو ضعيف الاحتمال.

وعند عودتنا إلى طرفاء المنصور وجدنا هناك اثنين من أولاد الشيخ سعد بوه⁶⁹ الذي هو أكبر شيوخ المنطقة، فقبل الذهاب من سان الويس استدعاهما كوبولاني لآتعراف عليهما وأكد سلطتي الزمنية.

⁶⁶ رياح الشمال هي الصبا التي تهب من الشمال الشرقي في اتجاه الجنوب الغربي باردة وجافة وتعطي في فصل الشتاء مناخا منشطا ولكنه أحيانا يسبب برودة معتبرة قد تصل بعض الأحيان درجات الحرارة إلى ما فوق الصفر قليلا.

⁶⁷ السرو القصير: الأمر يتعلق بما يبدو بنبات أسكاف المؤلف للأملاح والمفضل جدا عند الجمال.

⁶⁸ هذه الآبار البدائية تسمى العقل والطرفاء هي الإثل والفرنان نوع من جنس الفريون وءاتيل نبات شائك (وهو السرح) المترجم كل هذه النباتات المتعددة تشكل مرعى عاديا للجمال.

⁶⁹ الشيخ سعد بوه: ابن الشيخ المشهور محمد فاضل وأخو الشيخ ماء العينين وهذا الأخير مستقر الآن في الساقية الحمراء رسميا يعارض الشيخ سعد بوه أخاه الذي يناوئ الفرنسيين لأنهم يناقضون طموحاته السياسية، فالشيخ في الحقيقة عليهم أن يحصلوا على إذن من حاكم السينغال للقيام بزيارة تلاميذهم في الضفة اليسرى.

عاد رجالنا من أولاد بالسباع ببعض صيادي إيمراغن⁷⁰ ليلتزموا بتزويدنا بالأسماك الطازجة عندما يتم بناء المركز، في المساء نتذوق أسماك المورة الطازجة والبورين أو أزول الذي يقدمه لنا هؤلاء الصيادون.

يصل الدعم المنتظر من أربعة وعشرين من الفرسان وخمسة عشر من الرماة يوم 28 جمبر قادمين من اخروفة إنهم يرافقون بالحراسة عشرة من القوم البيضان القادمين بثمانية وعشرين من الجمال، وتتازع الملازمان من الفرسان اللذان قدما مع المفزة القيادة: الملازم "سيكولي" المقيم والمخول للسلطة السياسية والإقليمية، وزميله الأقدم رتبة من حيث الأقدمية وقد رفض هذا الأخير دعوة إلى العشاء مع السيد كوبولاني وليس ذلك آخر مشهد من هذا النوع سأكون شاهدا عليه في موريتانيا.

والقوم البيضان القادمون من اخروفة كانوا من أهل عبد الوهاب قوم المسن أختيارهم ولد سيدي⁷¹ الذي يلقبه الأوروبيين بصاحب اللحية الزرقاء بسبب لحيته البيضاء التي تصطبغ بالزرقة بفعل الرداء الأزرق من القماش النيلي الجديد الذي يغطي به فمه ولحيته دائما. وإذا لم يكن قد قتل زوجاته على التوالي فإنه اشتهر بلقب "وارويك" اترارزة (رجل الدسائس) خلال ما يقارب نصف قرن ظل يصنع نظام التداول على الإمارة في هذه البلاد بواسطة الاغتيال وسأعود في هذه المذكرات إلى هذا الشخص مرات عديدة.

في بداية جمبر ذهب أختيارهم مع السيد كوبولاني إلى البراكنه، وفي معركة ألاك كان له دور مريب ووصل إليه الأمر بأن يذهب إلى انواكشوط ليكون تحت تصرفي إنه الشخص محل الثقة الذي سعدت به.

⁷⁰ إيمراغن: قبيلة من الصيادين (حالة وحيدة في موريتانيا) إنهم غارمون لأولاد بالسباع ويزودون سوقا مهما نسيبا بالأسماك الجافة وكذلك فهم مزودون نوعا ما من قبل القبائل الأخرى وقد تعود أصولهم إلى بافور الذين تغلبت عليهم صنهاجة.

⁷¹ أختيارهم ولد سيدي هذا الشخص خارق للعادة ساهم فعلا في صنع التداول للإمارة في اترارزة، كذلك بصورة راديكالية ودائما لصالحه هو، ففي سنة 1860 قتل محمد لحبيب الذي تولى الإمارة سنة 1827 لصالح أعل ولد أعل خلمس الذي قتل في معركة مع ابن الأمير المقتول وقتل هذا الأخير سنة 1871 بتحريض من أخيه غير الشقيق أحمد سالم الذي عورض من قبل أخيه غير الشقيق أعل جمبت (1873 - 1886) الذي قتل من قبل ابن أخيه محمد فال الذي لم يتمتع أكثر من ثلاثة أشهر وخلفه أعل سالم الذي نجاه بدوره أخوه أحمد سالم (الصحيح ابن أخيه) (المترجم) الذي أقال أختيارهم الذي ظل وزير للأمرء طويلا 1898 ولذلك السبب غادر أختيارهم جناح احمد سالم إلى جناح مناوئه ولد سيدي وهذه التفاصيل التي ذكرها افيريجان: أختيارهم يغطي فمه برداء وهي عادة صنهاجية أو بريرية إن شئت ولا يزال الطوارق يمارسونها بانتظام.

* فيما يخص أختيار ينظر في ابول مارتي إمارة اترارزة طبعة لاروز مما يؤكد ما ذكره افيريجان.

وبعد وصول التعزيزات غادر السيد كوبولاني إلى سان الويس ليذهب ثانية إلى البراكنة وقبل أن يذهب: حدد لي مهام، إنه سيعينني مقيماً في اترارزة الغربية، في بلاد صحراوية من ستمائة كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب وثلاثمائة كيلومتراً من الشرق إلى الغرب وأوصاني بأن أعتد على رجال قبيلة يستحسن أن تكون من المحاربين غير ذات علاقة باترارزة وأن أجعل منهم رجالي المخلصين⁷² ووعدني بتعزيزات وطلب مني ضبط الأمن في المنطقة.

وهناك في الأسفل تنزل السفينة بعجلاتها البحر تمخر لتختفي إلى الجنوب الغربي وعلى متنها كوبولاني ومعه الملازم سيكولي وقد كان كوبولاني بتفاؤله وخطابه الخيالي اختطفني إلى مناطق الأحلام الروحية، وبعد مغادرته وجدت نفسي أمام حقائق عديمة الإشراق جعلتني أنزل إلى الأرض بشدة ثم إنه بعد ذهاب السفينة البحرية سوف تبقى خمسة عشر يوماً على الأقل بدون لحم طري والماء الصالح للشرب الأقرب إلينا هو ماء طرفاء المنصور الموجودة على بعد أكثر من سبعة كيلومترات وبدون مبالغة كنا مثل أطفال ضائعين في هذا الشاطئ.

أولاً يجب أن نقرب من الماء الصالح للشرب وأن نحمل أطنانا من أدوات البناء إلى انواكشوط ولهذا الغرض نحن نملك ثمانية وعشرين جملاً وبعض الحمير، معنا عشرة حمالين سود جننا بهم من سان الويس ووزعت مفرزتي إلى قسمين واحتفظت معي بالرقيب "فينويل" مع عشرين من الرماة وأخيارهم وقومه العشرة لدى طرفاء المنصور لتعزير المحرز.

وفي 29 دجمبر بعثت القسم الثاني من المفرزة أي 59 مقاتلاً تحت أوامر ملازم الفرسان للاستقرار في محل المركز المستقبلي لانواكشوط، هذه المفرزة عليها أن تبني المصدالمربع بالأدوات المحملة.

هذا ما كنت أزمع القيام به وفيما يبدو لن تكون هناك مشكلة لو أنني على علاقة مع أصحاب نيات سليمة ليس ذلك للأسف هو الواقع. فملازم الفرسان رفض المشاركة في البناء واكتفى بضمان الحراسة واستقر على ريوه تبعد مائة متر من المركز بينما يستقر ملازم الرماة في المحل الذي حدده كوبولاني هذا ما أضعف الجميع وأبطأ بالأعمال، كلفت الفرسان بمهمة الحماية والنقل والتموين بالماء الصالح للشرب من طرفاء المنصور.

⁷² تعبير إقطاعي يعبر عن الخضوع المطلق ويتفق مع معطيات المرحلة.

فمياه آبار انواكشوط ليست ذات مظهر مغر إنها أصبحت مالحة قليلا ولكنها مع ذلك صحية ولا توجد مياه أخرى قريبة، وقد صرح الملازمان بأن المياه غير صالحة للشرب، وتحدثا عن ضرورة إخلاء المركز والعودة إلى السينغال، لم ألق بالآلا لهذه الاحتجاجات وقد كنت وفقت، فاتخاذ قرار سلطوي لن يفيد شيئاً فهذه الأحداث في حق العسكريين خارج الإطار كانت تحدث كثيرا وتجد لها أصولا في بعض التعميمات الصادرة في سان الويس فقواعد الخضوع والتبعية لم تكن دقيقة يجب أن أتأقلم لئلا أتحمّل النتائج.

هناك مشاكل أخرى، إنها مادية تأتي لتضاف، فوسائل النقل كانت غير كافية فالجمال التي كانت تأتي محملة خلال سبعة عشر يوما تعبت⁷³ والحمير الأحد عشر من بينها حمارة حامل وجحش.

وأما الحمالة العشرة المكتتبون صدفة صبيحة اليوم الأول بعد نهاية رمضان من حثالة سان الويس فاثنتان منهما كانا عاجزين عن أي خدمة والجمال رفضت حمل القطع الخشبية الطويلة لأنها تفزعها يجب إذن أن نحمل هذه القطع للجمالين القادرين ولتسريع وتيرة العمل لجأت إلى اليد العاملة العسكرية مقابل مكافأة متجاهلا احتجاجات الملازمين الذين يريدان أن يقتصر دورهما على الحماية.

ورغم كل هذه العراقيل ففي اليوم الثالث من يناير لم يبق لدي طرفاء المنصور إلا ألواح الهياكل الساندة للأكواخ والتحقت بانواكشوط أنا ومفرزتي وأصبحت من جديد على استعداد لصد أي هجوم، كان البرد قاسيا بحيث اضطررت إلى المسامحة في إشعال النار في العراء وبما أن الرماة جاءوا بعائلاتهم وليس هناك أي وسيلة للحصول على الأكل في هذا المحل فإن جناية رب العائلة أو الزوج هي التي تتغذى عليها العائلة مما سبب بعض الاختلاسات من حقائب الأرز الاحتياطية التي كانت تشكل حاجزا يخبئ وراءه الرجال في مواقعهم الحربية.

وفي اليوم التاسع من يناير عادت السفينة جيولاند محملة بحمولة جديدة من خشب البناء والأغذية الاحتياطية وتطلب تفريغ الحمولة يومين مع تعزيزات من ثلاثين من الرماة ليكون

⁷³ الجمال حيوان صعب إنه يمكنه بذل مجهود مكثف إذا كان في وضع جيد ولكنه يجب أن يعوض ذلك بأوقات من الراحة وقد مكث الفرنسيون زمنا طويلا قبل أن يصبحوا منمين للجمال بصورة جيدة.

عدد رجال المركز مائة وعشرين مقاتلا وليس هذا كثيرا بيد أي حصلت للتو على معلومات عن أحمد سالم.

لقد علم القوم عن طريق رجلين يحترفان اللصوصية من قبيلة لبيدات هما عبد الله ولد كمبه ومولاه امبارك العيد بأن الأمير المخلوع قد اقترب من انواكشوط، وبعث أختيارهم أحد الزوايا لاستطلاع الأخبار وعند عودته أكد وجود تجمعات كبيرة معادية، وقد مكنت التعزيزات من تسريع وتيرة بناء الحصن وليس هناك ما ينذر عدى هذه الأصوات المهددة.

منذ وصولنا، لم نفقد اللحم الطري الطازج إلا ستة أيام ففي اليوم السادس من يناير جاعني الولي ولد الشيخ سعد بوه بأربعة ثيران هبة من والده وعجلين للبيع دفعت له في ثمن هذين العجلين ثمنا جيدا فانقلب راضيا بنقوده وبعض الهدايا من التحف ومنذ ذلك الحين بدأ بعض الزوايا يأتون لبيع ثيرانهم وكباشهم، وصيادوا إيمارغن يأتوننا بما يزيد على ثمانين سمكة بحرية كبيرة امتثالا لأوامر سيدهم القائد الشاب محمد ولد أعمر، وددت لو أن ذلك استمر.

وجاءت السفينة البحرية "جيولاند" بما يكفي لستة شهور من الأغذية محسوبا على أساس سبعين جرابية يوميا بينما نحن نتجاوز المائة والخمسين حتى يتم بناء المراكز بمن فينا الحمالون والمهرة المدنيون والمرافقون المجندون الذين جاءوا على متن السفينة خلال رحلتها الثانية فلم يؤخذ في الحساب العائلات التي قررت إعادتهم إلى السينغال، فالرماة لا يحتاجون ولكن زوجاتهم أثرن ضجة عندما كان رقيب المدفعية من الفرسان يحملهن على ظهر السفينة، وبوصولهن إلى دكار ثار غضب عام، وصفت بأني بربري وقامت زوجات ضباط الحامية بجمع مبالغ لمساعدة هؤلاء البائسات، من هذا اللامسؤول الذي اتخذ مبادرة بإرسال النساء والأطفال بدون أغذية في بلاد لا يوجد فيها ما يغذي.⁷⁴

قام المتدرب على المدفعية "كرينه" الذي وصل على متن السفينة بمسؤولية إكمال بناء القلعة وأبدى كفاءة خاصة وذلك من حظي لأنني منذ السابع من يناير وأنا مقعد بسبب الروماتيزم.

وفي الثالث والعشرين من يناير انتهت أعمال سور المركز، إنه متراس حصني مسنن ومحزز سمكه ثلاثون سانتمترا وارتفاعه متران فوق السطح، ومنذ الخامس عشر من يناير أصبح مسكن الضباط جاهزا وغرفتي أنا عبارة عن علبة من صنوبر المناقع الأبيض نظيفة ومريحة

⁷⁴ في بلاد السودان كان الرماة غالبا مصحوبين بعائلاتهم ويحصل في كثير من الأحوال أن يشارك النساء في الحروب بحمل الذخائر للمحاربين.

وضابط الفرسان الذي كان يعيش منعزلاً في مخيمه المنفصل الذي كان لا يهدأ غضبه تحت زوابع الرياح الشمالية التي ترفع مزنا من الأتربة يلحق بالمركز حيث حجت له الزاوية الجنوبية.

وفي الواحد والعشرين من يناير كنا في انتظار هجوم ليلي من أحمد سالم، ولكن من العبث أن نقضي الليل في مركز المعارك وكنت أقدر نهاية الأعمال مع مطلع مارس. الماء في الآبار كثير وصالح للشرب، أجل! إنه ليس ماء نهر "سين" ولكننا لا نأتي إلى إفريقيا لنتظاهر بالصعوبة حول جودة الماء.⁷⁵

لدينا من اللحم الكمية الكافية فمخيمات الزوايا الذين اكتسبنا ثقتهم اقتربوا من المركز وبيعونا الذبائح، فليست لدينا مصلحة في اقتناء القطعان فالسرقة أمر جارٍ سواء من قبل القبائل المحاربة أو من قبل الزوايا، لقد سرق منا ستة ثيران وجدت في مخيمات زاوية أهل أعمر أكد بيجه جيراننا الأقربين ولكي أستعيدها بعثت اثنين من الفرسان للاتصال بابني شيخ هذه الفصيلة عبد الرحمن ولد متال فأعادوا إلينا الثيران الستة ولكن السارق كان قد ابتعد.

بدأ العشب الذي تتغذى منه الخيول ينفد وأصبح المعلفون مضطرين إلى المضي عدة كيلومترات من المركز لجمع الحشائش والأعشاب⁷⁶ ولا يكفينا البدء في زراعة الحدائق إلا في بداية فصل الخريف. إن المسوخ لوجودنا في انواكشوط هو أن يكون ذلك بداية مرحلة المسير إلى آدرار. لقد وعدني كويولاني ونحن على متن السفينة بأنه لن يتركني انتظر عبثاً أكثر من سنة في اترارزة الغربية وألح علي في ضرورة استطلاع أخبار آدرار بصورة مستمرة.

فانواكشوط القريب من البحر يمكننا من تجميع المؤن والذخائر في طرف الخط المائي لإينشيري، الطريق الطبيعي نحو آدرار الذي سلكته بعثة "ابلانشي"⁷⁷ والمسير عبر إينشيري

⁷⁵ بدون شك ولكن الماء غالباً يسبب كثير من الأمراض الخطيرة، الديزانتيريا، دودة غينيا... إلخ، في ذلك العهد كانت تتم تصفية الماء وتطهيره بواسطة حمض ابرمنغيات البوتاسيوم إذا كان لدينا الوقت وتذكرنا ذلك ويمكن القول بأن الرجال الذين ابتعثوا إلى موريتانيا محظوظون من حيث الصحة بالنسبة للأوروبيين فالمناخ صحي بقيهم الحميات الملاريا لا توجد إلا في الواحات وفي ضفاف النهر وأغلب الالتهابات وأمراض الأرق، الحمى الصفراء والصفراء غير معروفة هنا تقريباً.

⁷⁶ للخيول التي لا تتغذى غذاء الجمال.

⁷⁷ بعثة ابلانشي (مارس 1900) تضم علماء من بينهم درينه واجونوت كامبتا، وزهاء العشرين من الرماة السينغاليين كان مترجمهم ابن المقداد الذي ترك تقريراً مهماً جداً عن تلك المقامرة التي أسر فيها ابلانشي ورفقاؤه مدة شهرين في أطار وتدخل الشيخ سعد بوه لتحرير الرهائن عند أمير آدرار وقد أكدت صحيفة "لماتيه" بأن أحد أهداف هذه البعثة هو دراسة سكة حديدية عابرة للصحراء للربط بين الجزائر ومنعطف النيجر وستكون منها توصلة إلى السينغال وأصبحت النتيجة الأخيرة من هذا المشروع هو السكة الحديدية التي تنقل خام الحديد من كدية الجل إلى انوايبيو نشر تقرير ابن المقداد في دورية تاريخ المستعمرات. الجزء من قبل ج، م، دبزيرب فيلمين.

يمكن من تجنب المنطقة المعطشة التي تفصل آدرار عن اترارزة الشرقية إنه طريق معروف، لهذا الغرض بدون شك كان الاستقرار في انواكشوط.

وقد أشعرت بأنه سوف يتم توفير سنة من المؤن هنا وفي اخروفة إنها طريق غير معلنة للحصول على تموينات كافية للمسير السريع إلى آدرار في رتل خفيف.

والأكثر دلالة من ذلك هو إرسال قسم الرماة ركوبا على الجمال من اخروفة يوم 20 يناير وجعلهم تحت أوامري، ليس ذلك طبعا لضبط الأمن في هذه البلاد فقط فلدي الفرسان لهذه المهمة للأسف هذا القسم يراد لأ بعد من ذلك، لمهمة تنظيم تكانت لقد غادر السيد كوبولاني مع هذه البعثة وفهمت منه أنه عند وصوله إلى نقطة ما لم يحددها لي سبيعت إلي ليدعوني لملاقاته ومعني الرجال الذين وضعوا تحت أوامري وأوصاني بالاتصال بالمحاربين البيضان قدر الإمكان لترتيب هذا المسير المحتمل وفعلا أدركت إذا كنت أستطيع استنهاض القوم⁷⁸ فبإمكاني أن أحسب مائة من النظاميين تحت أوامري المباشرة من كل حذب للقيام بدعم القوم وتاركا ثلاثين مقاتلا في كل من المركزين.

ولكن للحصول على هؤلاء يجب أن أتصل بالقبائل.

قائد الدائرة:

إلى جانب إنشاء المركز كنت أهتم بسياسة البلاد ولم يكن لدي مترجم. لقد كان محمد ولد أعمار هو الذي يقوم بتلك المهمة، إنه تلميذ سابق في مدرسة أبناء الشيوخ⁷⁹، ولكن كوبولاني طلب مني أن أبعثه إليه لتسوية قضايا في قبيلته وغادر يوم 4 يناير مع مولاه همد فال ولد موي وبقي معي أختيارهم الرجل المسن صاحب اللحية الزرقاء يتكلم الفرنسية جيدا نوعا ما،

⁷⁸ الجملة فيها تكرار مقصود ذلك أن كلمة قوم بالعربية تفيد معنى قم والقوم مجموعة من الرجال

⁷⁹ مدرسة أبناء الشيوخ: لقد أنشأها فيدربر تحت اسم غير محبب مدرسة للرهبان وعنوانها يوحي بالتمييز بين الزبناء .. طلابها يدرسون الفرنسية ومبادئ من التعليم الابتدائي والمدرسون مجمعون على الانفتاح الفكري للشباب البيضان مدرسة أبناء الشيوخ تم توزيعها بين مدرسة "ابلانشو دي فيري" بـ"سان الويس" الأخت الفقيرة نسبيا لثانوية "فيدرب" وهاتان المؤسسات تم إبدالهما بثانوية "شارل دي كول"

لقد درسها في السينغال وكذلك في باريس الذي أوصله إليه الأميرال "أبروتي" في عهد الإمبراطورية الثانية . كان عمره إذ ذاك عشرون سنة وأقام سنة في فرنسا ويتذكر أنه رأى مسيرة النصر للفرق راجعة من "اكربي" في استعراض أمام نابليون الثالث تهتف به ويحكي أنه في أبودور بمناسبة عرض عسكري كان أختيارهم مع قومه يهتف بالحاكم العام السيد روم بصوت كصوت الرعد "عاش الامبراطور".

أختيارهم موهوب في اللغات الأجنبية، ففي عودته إلى السينغال مر بليفيربول وعندما يحضر يلقي بصوت جهوري "ماذا تفعل" ثم يضيف في اندفاعه "جيد جدا"، ويفضل أختيارهم استطعت أن أفتح نافذة إلى عالم البيضان من محبسي في انواكشوط . إنه يعلم ويعرف كل شيء، إنه يريد أن يجعلني أنظر بعينه ولكنه من الصعب أن أفعل غير ذلك لأنني ليس لدي أي علم بالبلد وسكانه. ولكن على الأقل أتجنب ارتكاب الأخطاء الكبيرة التي يصعب تداركها، ويبدو حقيقة أن أختيارهم بعد أحداث ألاك من مصلحته أن يلتزم مربعنا ويلعب لعبتنا.

وأختيارهم الذي هو خال امحمد ولد أعمر هو أيضا من أولاد بالسباع، كان أبوه الوزير الأول لأمير اترارزة وكان هو كذلك وزيرا بعد أبيه لعدة أمراء آخرين متتاليين وليس ذلك من حظ هؤلاء الأخيرين، بيد أنه كان يسقط الواحد منهم تلو الآخر السابق باللاحق: وليتأكد من أنه لن يراهم يعودون، كان دائما يتصرف للتخلص منهم، ظل هكذا زمنا طويلا محظوظا، وقد انفصل عن سيده الأخير الأمير أحمد سالم قليلا لأنه أحس أن ذلك يضر علاقته مع الفرنسيين ولأن الأمير كان يخصص حظوته وهداياه لأحد الصناع من أولا الرقيق.

ولم تعد السماء تمطر ذهباً في جيبه، بل كان أكثر من ذلك محتفظا بعلاقة مع طرفي الإمارة، فابن أخي الأمير أحمد سالم ولد إبراهيم السالم مناصر للأمير السابق "أحمد سالم" وابن عمه سيد ولد سيد أحمد متحزب مع ولد سيدي، كل هذه التفاصيل التي أتعلمها شيئاً فشيئاً تمكنني من أن أفهم بوضوح اللعبة على مستوى الشكل، أختيارهم ذو قامة متوسطة متماسك قوي وفارس رغم السبعين ربيعا شديد سمرة اللون، متميز النمط محدب أطراف الأنف أسود العينين سريع اللحظ تحت حاجبين أسودين كثيفين قصير الشعر مع لحية كثة ممتدة في شكل حلقي إلى الصدر مبيض شعر الرأس واللحية ولكنه دائما مصبوغ بصبغ قماش النيلة الذي يجعل منه رداءه مما منحه لدى الأوروبيين هذا اللقب اللحية الزرقاء، وهذه الصبغة

الزرقاء تؤشر لدى البيضان على سعة اليد أنه لا يلبس فعلا إلا القماش النيلي الجديد، والأغنياء وحدهم هم الذين يلبسون الجديد دائما.

وإذا لم تكن لدينا لحية نصبغها زرقاء نحاول أن نعرق ونذلك مع العرق القماش النيلي بدقة على الجلد وبفضل طلاء القماش النيلي المبلل ولون السمرة في جلود البيضان تنتج طبقة زرقاء إلى الاخضرار تصبغ الوجه كاملا إن لم يكن الجسد كله وذلك الأفضل.

إن هذا الطلاء النيلي الذي يدعى النيلة تتبعث منه رائحة خليط من الصباغة النيلية والعرق، إنه ليس من الذوق السليم إزالة هذه الصباغة التي هي رمز التميز والثروة بغسيل غير ضروري، والنساء الموريتانيات خاصة فخورات بأن يكن زرقاوات إنها الموضات والألوان والأذواق في موريتانيا كما هو في غيرها ليست موضوع بحث ولا نقاش.

لقد عين السيد كوبولاني أختيارهم قائدا للقوم وأعطاه رمزا على رتبته برنسا سماوي اللون داكنا مزينا بالفضة لا يفارقه أبدا إنه يعرف كيف يحي منحنيا بصورة ممتازة مما يعطيه مظهر مطران "كنيسة بارتيليس".

وبالرغم من تقدمه في السن فهو يحافظ على مرونة ورشاقة بفضل الحركات التي يمارسها أثناء صلاة المسلمين⁸⁰ إنه لا يشبهه أحد في اللجاجة والإلاح ولا يعدم أن يحصل على "ساق" من السكر وحفنة من الشاي الأخضر ورأس من التبغ⁸¹ وحتى لا يزعجنا هو نفسه فهو ينيب عنه ولده الصغير يحظيه ولد ضخم في الثامنة شيرير ذو عينين مختلفتي اللون لكنه خبير وحاذق في الطرق التي يسلبنا بها الأشياء التي يريدها أبوه.

وتظل خيمة أختيارهم مضروبة إلى الجانب سواء عند طرفاء المنصور أو في انواكشوط حيث يستدرج لها البيضان كلما أمكن ذلك ليستطلع منهم الأخبار إنه هو الذي عرفنا على العصابة عبد الله ولد كمب وامبارك العيد يوم 6 يناير، وهو الذي امتحن أقوالهم يعرضها على أحد الزوايا، إنه هو أيضا الذي يتلقي في كل لحظة رسلا ولم يبق لي إلا أن أدفع أنا.

إنه يشعرنا بالوقائع والتصرفات التي يقوم بها الأمير السابق أحمد سالم الذي ذهب إلى الشمال بعد عملية تكند، حاليا يوجد مع أحمد سالم قرابة الالف من المناصرين المسلحين بالمدافع: أولاد أحمد امن دمان، أولاد الركيك، لعلب أهل أكمطار، أولاد بوعلي وأربع فصائل

⁸⁰ وبفضل الحياة الصحية كذلك لأغلب المحاربين البيضان الزهد في الأكل والنشاط

⁸¹ رأس التبغ كيس من 6 أوراق من التبغ

من أولاد بالسباع أهل سيدي عبد الله، أولاد الحاج عبد الله، وأولاد عزوز، وأدميسات، هذه الفصائل لديها خمسة وسبعون مدفعا من مدافع الطلق السريع.

عندما علم أحمد سالم بوصولنا إلى طرفاء المنصور ضرب طبل الحرب وجمع قواه في أكريديد شمال شرق انواكشوط على بعد يوم من المسير كان ينوي الهجوم علينا منتهزا فرصة تفرقنا إلى عنصرين ولكن هذا الهجوم تم تأجيله بسبب خلاف داخلي حصل.

رفض أولاد بالسباع ولعب الانقياد وانسحب هو إلى الشرق محاولا اجتذاب مناصري ولد سيدي الذي كان يجمع الكثير من المناصرين إلى جانبه وأخيرا اتجه إلى الجنوب للالتحاق بصهره أمير البراكنة وادوعيش الذين كانوا معنا على حرب.

ثم جاء شيخ لعلم مولاي ولد احمياد ليعلن عن نفسه ولعله جاء به أختيارهم عن طريق مبعوثه، إنه هو الذي اتهم بحق أو باطل بقطع أرجل الجمال في بعثة ابلانشي سنة 1900 بضربة من سكين لمنعه من الوصول إلى آدرار وإبقائه تحت رحمته إنه ذو ملامح عربية واضحة، بل هو محارب شجاع يعرف المكائد وصاحب تجربة وانتصاراته على أولاد الدليم في تيرس⁸² أعطته سمعة لدى قبائل اترارزة وخاصة بعد قيامه بقتل رئيس الفصيلة الأساسية من هذه القبيلة الرموكة (الأخنس) بيده.

مولاي يطلب جواز أمان إنه لا يريد أن يظل محسوبا كمناصر لأحمد سالم إنه يظهر رغبته في موالة الفرنسيين، وليس أحدا غيرهم وفي انتظار الضمان الذي لا يمكنني أن أمنحه له علمت أن مولاي جاء في سرية تامة للنقاش مع أختيارهم وراء الربوة المجاورة للمركز.

لم أستغرب إذن عندما أحضره لدي أختيارهم يوم 13 يناير عند حلول الظلام، مولاي إنسان عظيم، ضامر وقوي أسمر اللون رأسه كرأس الكواسر ذو نظرات حية ولكن مع الحذر فهو متملص وحركي وباختصار إنه نمط جيد للقائد المحارب.

فيما يخصني أنا فقد كنت مستلقيا على كرسي الطويل في عنفوان أزمة الروماتيزم، لقد كنت شيئا تافها في وجه هذا الشخص الضخم الذي يتزعم لصوص الصحراء وكان الوقت متأخرا فصرفته إلى الغد ولم أرغب في الاستماع إليه.

⁸² لعلم وأولاد الدليم طرفان متناوءان تقليديا

ولكن أختيارهم رجع على عجل ليعطيني المعلومات التي استقاها من مولاي: أحمد سالم يعود فعلا إلى آكرديد ولكن عصاباته تقلصت كثيرا بسبب انفصال العلب عنه وأغلبية أولاد بالسباع تقريبا وكثيرا من أولاد أحمد امن دمان، ولم يبق مع الأمير السابق إلا مجموعات قليلة غير ذات أهمية من اترارزة وفصيطة أهل سيد عبد الله من أولاد بالسباع مع قائدهم على ولد المراكشي وبعض البراكنة وناس من آدرار، وفيما يخص الحلف بين أحمد سالم والبراكنة وإيدوعيش فإنه لا يوجد حاليا إلا في الخيال⁸³.

في يوم 14 يناير جاء أختيارهم ومعه مولاي إنه الشخص الذي كنت أتصوره وبدأ حديثه قائلا إنه أول محارب في المنطقة جاء لملاقاتي وإنه يريد أن يكون إلى جانبنا هو وقبيلته ولكن حسب المستطاع فيما يمكن أن يقام به في تيرس وآدرار ذلك أنه لا يرغب في اللحاق بكوبولاني في الجنوب الشرقي إنه يريد أن يعمل لنفسه وهذا أمر طبيعي.

إنه يفتخر أيضا بأنه قد خان أحمد سالم مرات قبل أن يقرر الالتحاق بنا وقد علمت من مولاي، وقد كان أختيارهم خبا عني هذه المعلومة_ أن ولد سيدي منع أحمد سالم من اللحاق بالأميرين المنشقين من لبراكنة وإيدوعيش.

وأخيرا يبدو أن جزءا كبيرا من ثروة أحمد سالم صار تحت رحمتنا قريبا عند آكرديد وذلك حقيقة هو ما يشغل بال مولاي فهو إذا كان مدعوما من قبلنا يمكنه أن يستولي على نهب كبير يكون له ولذويه منه نصيب جيد.

فأجبتة متملصا: إن المركز لم تنته الأشغال فيه بعد، وفي الأيام التي تلت ذلك أعاد الكرة ووعد بأنه سوف يأتيني بشيوخ أولاد بالسباع هؤلاء أعداء آدرار إنهم الذين مكنوا حكومة السينغال من الثأر لفشل مهمة ابلانشي إنهم مسلحون من قبلنا بمدافع كبيرة، وهم الذين خربوا آدرار وقتلوا أحمد ولد المختار ولد أحمد ولد عيده أمير تلك البلاد ثم تراجعوا تحت ضغط الأعداء إلى آدرار سطف واطرارزة ولكنهم احتفظوا بأسلحتهم التي أعطاهم إياها الفرنسيون وسوف نلاحظ ذلك لاحقا.

⁸³ في حالة الحروب التقليدية أولاد بالسباع (قبيلة ذات أصل شريف) مقابل قبائل آدرار: أولاد الجعفرية (أولاد عمي وأولاد أكشار) أولاد غيلان وإيدشلي هؤلاء من أصل عربي وأولئك من أصل صنهاجي
بخصوص القبائل الصحراوية ينظر جورج بولي بيطان إفريقيا الغربية الفرنسية باريس شا لامال 1904 وكتابات أبول مارتى المطبوعة لدى لاروز.

وأخيرا خاطبني مولاي حول مصالحه الشخصية، إنه يرغب في أن يعامله كويولاني معاملة قائد قوم كما يفعل مع أختيارهم وطلب مني أن أقترح ذلك كتابة وبتعهد في المقابل تحت مراقبتنا، وبالتشاور معنا عند الاقتضاء بحماية القبائل الزاوية الضعيفة والتي لا تملك السلاح وفضلا عن ذلك سيضطلع بمهمة البريد النصف شهري بين سان الويس واناكشوط. لخصت كل ذلك في شكل مشروع اتفاقية وبعثت به إلى كويولاني فرد علي بأنه وحده المخول للمفاوضات.

في يوم 21 يناير جاء مولاي مضطربا ليعلمني بأن الرسل أخبروا بأن أحمد سالم مدعوما بجيش من آدرار وصل إلى إينشيري حلف أن يهاجمنا هنا في المركز.

وجاء بعض أولاد بالسباع الذين غادروا حزب الأمير السابق ليؤكدوا لنا أن أيا من أولاد بالسباع لن يكون ضدنا. لقد اتخذت الاحتياطات ولم أكن أرى شيئا قادما مثل "القديسة آن". ومن الغد علمت أن أحمد سالم ترك مشروعه بسبب تخلي أولاد بالسباع وغادر نحو آكلال فاي في محاولة للتحالف مع ولد سيدي وطلب منه أن يلتحق به في الحرب ضد فرنسا وأرسل مجموعات صغيرة لنهب قطعان القبائل الزاوية بهدف قطع إمداداتنا الغذائية.

وفي تلك الأثناء عاد ولد سيدي إلى الجنوب ليضع الغرامة على لبيدات⁸⁴ الذين هم من أنصاره وأدينوا بعمليات سرقة ضد قبائل زاوية وأنضم إلى ولد سيدي فصائل من أولاد بالسباع؛ أولاد البكار وأولاد احميد وأهل سيد السيد وقام الزعيم المطاع في الديميسات وجمع أولاد بالسباع الذين كانوا مع أحمد سالم عند رأس تميريس وقد كان السبب الحقيقي لتخليهم عن أحمد سالم هو انضمام أهل آدرار أعدائهم إليه مما جعلهم لا يرغبون في معارضتنا ثم إن قطعان لبراكنة وإدوعيش ستصبح غنائم سهلة لأنهم يحاربوننا.

وفي 1 فبراير وصل إلى اناكشوط أحد أصدقائي القدماء في تومبكتو الشريف عبد الرحمن الياس لحريطاني ولد سيدي عمار لقد كان يزودنا منذ مدة قبل عشر سنوات بالثيران وهو الآن صاحب دكان بسان الويس⁸⁵ إنه هو الذي عرف كيف يفصل أولاد بالسباع عن أحمد سالم

⁸⁴ لبيدات فصيلة من لعلم القبيلة المحاربة في اترارزة في منطقة المذرذرة. هذا التعليق غير دقيق فاللبيدات قبيلة من الترارزة مستقلة ولعلم قبيلة برونزية مستقلة المترجم

⁸⁵ أولاد بالسباع محاربون وتجار في ذات الوقت وجمال عبد الرحمن في كثير من البلدان والمراكز القريبة من السينغال حيث يمارس البيضان التجارة وعندما يحصلون على ثروات يعودون إلى الخيام في موريتانيا "مقاعدين" لكن هذا قد لا يتكرر بعد أحداث وفتن 1990 (هذا التعليق فيه تحامل على البيضان وعدم إنصاف) المترجم.

وحمل إلي رسالة من زعماء أولاد بالسباع يقولون فيها إنهم يرغبون في البقاء على صداقة مع فرنسا وأنهم لما رأوا ما يقوم به الأعداء ضدنا أهل آدرار انسحبوا كلهم تقريبا إلى الغرب تاركين أعداءنا يتجمعون إلى الشرق وأن أهل آدرار بعثوا إليهم عرفاء ولكن شيخ أدميسات رفض استقبالهم مما أبهج مجموعات أولاد بالسباع الأساسية وجعلهم يمنحونه الزعامة العليا التي تهرب منها.

وقد كان الشريف عبد الرحمن عائدا من غارة على إدوعيش في الشرق واستولى على بعض الغنائم على رأس مجموعة من المراهقين من قبيلته⁸⁶ وكان قد وقع في نزاع مع أولاد امحمد لدى تملحس والتحق بكوبولاني للاعتذار عن ذلك.

ينحدر أولاد بالسباع من المرتفعات الواقعة شمال واد نون بالمغرب محاربون وتجار، إنهم يأتون إلى "سان الويس" للترزود وأعدائهم الرئيسيون هم ارقبيات وأولاد الدليم وقبائل آدرار. نحن لا نعلم الكثير عن ارقبيات إن مجالهم الجغرافي يقع في شمال موريتانيا.

وأولاد الدليم حلفاء الأسبان وامبراطور الصحراء "جاك لبودي" "السكري الصغير"⁸⁷ ومركز تعلقهم هو "فيلا سيسنروس" أو الداخلة كما يسمونها وفصيلة أولاد اللب متخالفة مع أهل آدرار وعدو أساسي لأولاد بالسباع و لعلب وعندما جاء العرفاء من قبائل آدرار يقترحون السلم على ادميسات اشترط هؤلاء المفاصلة مع أولاد اللب فرفض أهل آدرار طبعاً ليلا يفقدوا حلفاءهم. وفي 15 فبراير نهبت غارة من أولاد الدليم قافلة لأولاد بالسباع بين انواكشوط وسان الويس.

وقبائل آدرار: إيديشلي وأولاد غيلان وأولاد عمني وأولاد أكشار يتجمعون حالياً في إينشيري قريبا من أولاد بالسباع ولعلب الذين يجولون في تيرس تحاول هذه القبائل أن تكون ائتلافا لمحاربتنا، ذلك أنهم يعلمون أن إنشاء مركز انواكشوط يعتبر خطوة في سبيل المسير على آدرار وكذلك اقترحوا على أحمد سالم أن يلجأ إليهم ولكن امرأته الثانية أخت أمير لبراكنة أحمد لا تريد مغادرة أكلال فاي وهو يرغب في الالتحاق بولد سيدي لاستنهاض اترارزة لمحاربتنا.

⁸⁶ إن المشاركة في عمليات كهذه كانت تدخل في إطار إعداد المحاربين المستقبليين وكانت تلك صورة من الأعمال الجارية.

⁸⁷ قبل هذا بسنوات نزل جاك لبودي (حفيد "الويس أو كوست سي" الذي كان يدير مصفاة للسكر في نانت) في جنوب المغرب وأعلن نفسه امبراطور الصحراء فجاه التدخل الدبلوماسي السري ليضع حدا لهذه النزوة من هذا الولد المدلل الذي يسميه أصدقاؤه السكري الصغير في إشارة إلى مصدر ثروته.

وفي الأيام الأولى من شهر فبراير جاء ثلاثة من مناصري ولد سيدي إلينا هنا في انواكشوط ركوبا مطاياهم وهم البارك شيخ تجمانت⁸⁸ وسيد أحمد ولد الحسن أخو شيخ أهل التونسي إحدى فصائل أولاد أحمد امن دمان وسيدي ولد سيد أحمد ابن عم أخيارهم، جاء هؤلاء ليعرفوا مواقفنا من ولد سيدي فمنحتهم إفادات بعضوية الجماعة الكبرى في اترارزة حسبما عهد إلي كوبولاني وأعددت إفادة أخرى باسم ولد سيدي وأعطيتها لهم وصرفتهم ومعهم بعض الهدايا والكلام الحسن.

لقد كلفهم ولد سيدي بإبلاغنا برغبته في موالاته الفرنسيين بكل ثقة إنه شاب حيي⁸⁹ ربما لأن كوبولاني في بداية الأمر كان قد عنفه، إنه يتمتع الآن بشعبية كبيرة، فقبائل الزوايا ونساء اترارزة لا يقسمون إلا باسمه! إنه فيما يبدو الآن يرغب في السير بالتوازي معنا ضد "أحمد سالم" ولكن ذلك بهدف أن يتم تعيينه أميرا على البلاد في محله، إنه سوف يحول هذه الموازاة بسهولة إلى عمل تنسيقي دون أن يصل الأمر على ما اعتقد إلى عقد تحالف، وفي هذه اللعبة يفقد كثيرا من أنصاره.

أحسست بأن المسن صاحب اللحية الزرقاء الذي يضع رجلا في كل اتجاه لا ينضم إلينا إلا من أجل هدف: إنه يخشى أن يرانا نعين ولد سيدي أميرا بدل أحمد سالم مما يعني أن نفوذه الذي مضى عليه نصف قرن انتهى...

إنه يصطاد دائما في المياه العكرة

وفي يوم 5 فبراير قام ركب⁹⁰ من محاربي آدرار بنهب فصيلة مولاي فطلب مني الثأر مدعيا أن صداقته مع الفرنسيين هي السبب وراء هذا النهب.

وفي الحقيقة وبعد أن حصلت على المعلومات تبين أن الأمر يتعلق بثأر شخصي قديم وبعد ذلك بعشرة أيام قام مولاي ومحاربو قومه بالهجوم على قبائل آدرار.

وبعد ذهاب مولاي جاعني أخيارهم في غموض شديد ليعلمني أننا سوف نهاجم خلال خمسة أيام وبدأت أعرف قيمة هذا النوع من المعلومات وأشرت إليه بالخروج وفي نفس اليوم بالمساء جاعني يطلب الإذن للذهاب إلى أخروفة لتمرير زوجته المريضة وبما أن لدي مترجما

⁸⁸ تجمانت قبيلة من أصل تندوف طردت من هذه المدينة خلال خرابها في نهاية القرن التاسع عشر وتوزعوا بين اترارزة ولبراكنه وتكانت وفي لعصابه إنهم تجار (هكذا في الأصل ولكن فيما يبدوحصل خلط بين تجمانت وتغرجنت والأخير هو الصحيح وقد فات على المعلقة) المترجم.

⁸⁹ شاب حيي: افريرجان ليس خبيرا في تقاليد البيضان، فالأدب يقتضي من الصغار مواقف متحفظة أمام الكبار وقد كان ولد سيدي مهذبا جدا

⁹⁰ مجبور مجموعة صغيرة مسلحة تنفذ غارات صباحية.

اعبيدي فال فقد أذنت له ولكنني احتفظت بقومه لأن لدي حاجة فيهم لإرسالهم حرسا للمتدرب في المدفعية "كرينه" الذي عليه أن يذهب إلى دكانه عن طريق البر خلال أيام. والتحق رقيب المدفعية "رافيه" بمركز "أخروفه" مقره ومعه 15 من رماة الحامية وبعث إلي قافلة من المواد الغذائية يحرسها قوم أختيارهم فسألتهم عن أخبار صحة زوجة قائدهم فذكروا أنها لم تكن مريضة⁹¹ إن صاحب اللحية الزرقاء قطعاً ذهب للقيام بدسياسة هنالك، أنا أعلم أن هنالك جناحا يقوده ابن أخته ولد ابراهيم السالم وأعمر ولد أعل الملقب أعمر بنكال أخو "أحمد سالم" يجول في المنطقة وقد مر "ولد سيدي" بمنتصف الطريق بين انواكشوط وأخروفه واتجه نحو مخيم الأمير السابق فهل ذلك من أجل خنقه أو إرباكه؟ يمكن أن يكون هذا أو ذلك ولكن أختيارهم لم يغب عن ذلك فهل يلعب دور المصلح بين الجناحين المتناوئين؟ قد يكون، إنه من غير المتوقع أن يخوننا ولكن هنالك احتمالات عديدة تجعله يطمح للعب دور أكثر أهمية.

سأفرض عليه إقامة في أخروفه، وسوف أكلفه بمهام غير هذه المؤامرات: سوف أصطحبه معي وسأكلفه بمهمة تنظيف البلاد من هؤلاء الناهبين من كل فريق وسأجعله يسير إلى الأمام مستقيماً.

القبائل الزاوية تقترب من انواكشوط حالياً لتحتمي بنا فالآبار مزدحمة بالليل جدا وتوجد نية الآن في وضع الضرائب. يجب أن تتجذر.

بعثت امحمد ولد أعمر للتعرف على خط سير للبريد مسامت للشاطئ في اتجاه "سان الويس" فقبيلته تجوب آفطوط الساحلي إلى مركز التعلق بانجاكو، لقد وفرت الدعم لفيديرب والأدلاء لمهمات أباني، واقابير وابلانشي⁹²، ومن بينهم يختار تجار سان الويس معلمي اللغة⁹³ لقد بعث إلي كويولاني عن هذا الطريق بريدا سريعا وصل إلى انواكشوط خلال عشرة أيام وفي

⁹¹ مرة أخرى عادة تغيب عن افيريجان فإن أختيارهم يريد أن يبتعد ولكنه من اللباقة أن يكون ذلك غصبا عن إرادته فالأدب يقتضي أن الإنسان ولو لم يكن هناك ما يكرهه على أمر فإنه يتظاهر بحصول الإكراه.

⁹² "ليبول باني" كان مكلفا باستكشاف إمكانية ربط سان الويس بالجزائر ومحاولته الأولى سنة 1850 لم يتعد بوتلميت وفي السنة الموالية وصل إلى شنقيط ومن هناك نجح في اللحاق بالجزائر.

⁹³ معلموا اللغة هم المترجمون في ميدان تجارة الصمغ خاصة التي تتم ما بين القرنين 17 و18 في مرفئ النهر السينغالي وأغلبهم من قبيلة أولاد بنوك المحصون في الترارزة.

بداية فبراير وصلت إلى القافلة من ستة عشر جملا محملة بالأرز يحرسها زهاء العشرة من قوم أولاد بالسباع جماعة محمد ولد أعمر .

في نهاية يناير تم إجراء تعديل في التنظيم الإداري للترارزة، أصبحت سهوت الماء مركزا للترارزة الشرقية يوجد فيه نقيب مقيم وبلادي أنا اترارزة الغربية مركزها انواكشوط يمتد شمالا إلى وادي الذهب وشرقا إلى الخط الرابط بين آدرار والسينغال في منتصف ما بين سان الويس ودكانه .

لدي مركزان ثابتان: انواكشوط وفيه حامية من 55 من الرماة وأخروفة وفيها ثلاثون من الرماة. ولدي قوة للتدخل مؤلفة من 25 من الرماة ركوبا على الإبل و 26 فارسا ومقرها انواكشوط. رقيب المدفعية الجمال المتمرس "رافينه" في أخروفة يشكل فيلقا مؤلفا من أربعة فرسان وقوى واحد وخمسين من القوم السود المكتتبين من الجنود القداماء من التوكولور والحراطين البيضان ركوبا على الخيل والجمال ويؤطّهم ثلاثة فرسان جزائريون .

وأخيرا لدى قوم شيوخ البيضان ومن بينهم قوم أخيارهم والجميع قيادته من انواكشوط وتثبيت القوم مشروط بوجود المركز وفيما يعني الفيلق أنتظر أوامر مفصلة من كوبولاني . وعند وصوله إلى أخروفة بعث إلي "كرينه" بالجديد من أخباره فخط السير الذي اتبعه مريح وأقل صحرا من نواحي انواكشوط فحول آبار إيزاكن والمعزل حيث الماء الكثير والعذب وجد قطعانا كثيرة وقدم له البيضان الحليب الجيد بصورة خفية وقريبا من انواكشوط مر "كرينه" بمخيم مولاي الذي يغص بالرجال المسلحين والذين هربوا أمام قوم أخيارهم الذين انتزعوا من أخي مولاي ناقة قوية مع رحلها لضمان رد الجمال التي تعهد مولاي بإرجاعها تعويضا لما سرقه أصحابه منا، اللحم أصبح مضمونا .

أفكر في أن أكلف أولاد بالسباع محمد ولد أعمر الذي ليس فقط قويا ولكنه مع ذلك متكبر بضمان أمن هذه القبائل وسأوسع دائرة نشاطه إلى آكنيثير .

في كل يوم أستقبل مجموعة من البيضان فصيلة أهل بوحبين يضربون خيامهم بين المركز والبحر وقائدهم الشيخ عبد الله المنتفع اللجوح⁹⁴ لا يوحى بالثقة فيه .

⁹⁴ المنتفع اللجوح: هذا صحيح وخطأ في ذات الوقت فكون بعض الشخصيات المهمة تطلب هدايا يصدم افيريجان (مثله مثل كثير من مواطنيه) الذي تأسست تربيتهم على تصور للشرف مختلف تماما فلدى الشيوخ الأفارقة لا تؤثر الهدية على الشرف بالعكس فالهدية في تقاليدهم تعني تكريما لهم ودلالته على أريحية الطرف الآخر هذا التكريم الذي يعتبرونه واجبا ورمزا للأدب والإجلال ولا يجدون حرجا في التذكير به عند من نسيه في هذا الموضوع المثل الفلاني (السؤال تشریف والعتاء حب)

وتبينت أن البيضان متسامحون اتجاهنا ويطبقون شريعة النبي (صلى الله عليه وسلم) بصورتها القديمة المتسامحة اتجاه المسيحيين أهل الكتاب وعلى العكس فهم يكرهون السود الوثنيين وخاصة المدمنين الخمر وينقمون علينا أن اتخذنا منهم جنودا.

وبمقارنة هؤلاء البيضان مع أولئك الذين هم في الساحل السوداني في منطقة الحوض فبيضاننا هؤلاء أقل توحشا وأقل اختلاطا مع السود فقبايل الزوايا هنا ليسوا مسلحين ويدعون أن قبائل حسان وخاصة أتباعهم لصوص حقيقيون.

بعض شيوخ حسان والزوايا فيما يبدو متعلمون إنهم يحفظون بشغف أشعار العرب قبل الإسلام ولديهم فكرة عن كل شيء ومرونة في توجيه الأفكار فالشيخ سعد بوه الذي تربطني به علاقات مستمرة شكرني بحرارة على مقتطفات تتضمن مقاطع من قصة عنتر وأهديت له كذلك أدوات صنع الأتاي ومن جهته أهدى إلي حصيرا وثيرانا إنه يسكن في منزل من دور أرضي وطابق قريبا من بئر اتويركت في إينشيري.

وقبل إيجاد أي قرار إداري كنت أبحث عن صداقة البيضان سواء كانوا محاربين أو زوايا فترجماني اعبيد ترجم إسمي إلى الحسانية بهذه الكلمة أخو الناس وهي تورية سهلة⁹⁵ ومنذ ذلك الحين أصبحت أفهم اللغة المحلية وأميز اسمي إذا ذكر في الحديث. تم إنجاز المركز وسأحفر آبارا.

ذهب اعبيد إلى سان الويس لتسوية مسائل شخصية وبعثت محمد ولد أعمر لتسوية حسابيه لدى البراني فهناك لص مهني من قبيلة لبيدات يساعده عبد الله ولد كنبه ومولاه امبارك العيد يقطعون الطريق شمال سان الويس قريبا من رمال الزيره، وبعد ذلك بقليل سرقوا أكثر من مائتي جمل لبعض الزوايا ولكن النقيب "مروا" رئيس مكتب "كوبولاني" (وقد كان ضابط أوامر للواء "هورى" القائد الأعلى للفرق في إفريقيا الغربية) خلال مروره بـ"سان الويس" منع الهجوم على لبيدات للأسف لأنهم كانوا على صلة بتجار سان الويس الذين يؤجرون لهم الجمال لنقل الفستق، كذلك كان البيضان يلقبونها بـ بوكرت أبو الفستق.

ووصلتني رسالة تتضمن إعطاء صلاحيات واسعة من نقيب القيادة العليا، وليست هذه هي المرة الأخيرة التي يتخذ فيها مكتب المندوبية قرارات غير ملائمة ذات نتائج وخيمة.

⁹⁵ هو تفضيل دقيق يوحي بطبيعة البيضان وذوقهم في اللعب بالألفاظ والمعاني وتفاؤلهم بالأسماء.

وبما أن لعلب أعداء لبيدات كنت أبعث البريد مع أولاد بالسباع مما يحرمني من بعض أفضل عناصري، والمركز انتهى فعلا إلا أنه ليس فردوسا ولكن يمكن أن نأخذ قسطا من الحياة فيه فالماء لا يزال مملحا قليلا والرياح تهب من الشمال الشرقي عاصفة.

والملازمان لا يرضيان وخاصة ملازم الخيالة، ومن أجل شغله والتخلص منه مؤقتا بعثته إلى سان الويس ليعد عدته وشراء طواقم الألبسة لمفرزته ولدى عودته لم يخف عني أنه استدان كثيرا على حسابي وحساب كوبولاني ليحملنا مسؤولية مآسيه وملازم الرماة قام بعرقلة العمل بتطبيقه حرفيا الأوامر الأخيرة التي وصلتنا من سان الويس والتي تحدد حقوق وصلاحيات الضباط خارج الإطار⁹⁶ مثلي أنا.

ومنذ ذهاب مولاي إلى الحرب لم يأت بأي بريد وأول بريد جاء به يتطلب تسعة أيام للذهاب إلى سان الويس وعشرة أيام للعودة صحيح أنه أودي ونهب من قبل بعض الأمراء من جناح أحمد سالم ومن جهة أخرى فخط السير بين انواكشوط وسان الويس يعبر مجالات لبيدات الأعداء الألداء للعلب

فالأفضل إذن لحمل البريد في هذه الطريق هو استخدام أولاد بالسباع لأنهم سينتهزون فرصة الرحلة للقاء إخوانهم في انجاكو.

يجب أن لا ننثق كثيرا بحسن نية الزوايا الذين يدعون أنهم أصدقاء يجب أن نخضع للعرف السائد: نصادر أولا ثم ندفع الثمن وهذا أمر جديد على الزوايا.

⁹⁶ يتم وضع الضباط في وضعية خارج الإطار إذا تم جعله تحت تصرف وزارة أخرى غير وزارة الحرب مؤقتا وهنا فإن افيريجان جعل تحت تصرف وزارة المستعمرات ليتمكن من أداء المهمات الإدارية.

العملية الأولى في اترارزة:

ليس لدي الكثير من الجمال لضمان توصيل البريد وحمل القوم، ففي يوم 22 فبراير بعثت مترجمي اعبيدي ومعه اثنا عشر من أولاد بالسباع لمصادرة جمال بعض الزوايا أشير إلي بوجودهم لدى بئر مجاور ومكنني ذلك من إرسال البريد إلى سان الويس.

إن الجمل حيوان صعب يجب أن يرتع عشر ساعات في اليوم وليست كل الأعشاب تلائمه إنه لا بد له من الأوراق الناعمة والأعشاب الشائكة ليطيب له ذلك، وكل ذلك بمقادير متناسبة مع حجمه ويلزم أن يكون وقت راحته ضعف وقت عمله، وفي موسم الأمطار يمكن أن يتعرض لأمراض قاتلة ينقلها الذباب له وإذا كان راكبه في وضعية غير سليمة يمكن أن يسبب له ذلك جروحا. فصيانة الجمال أصبحت حقيقة أمرا مزعجا ومع ذلك لا مناص منها،

فخيول الفرسان⁹⁷ تأكل الأعشاب فعلا، ولكن يلزم الحصول على الجمال لنقل الحبوب والخيول تأتي من الجزائر وعندها نهم شديد.

والقناص السينغالي يجرح الجمل ولا يعرف كيف يعالجه بل ذلك أضعف اهتماماته والعربي البيطاني يعرف الجمل لكنه ما لم يكن جملة فلا يهتم به فإذا كان مشجعا فيإمكانه استخدامه والاستفادة منه بأكثر ما يمكن.

والاتجاه السائد الآن هو تجنب استخدام القوم البيضان إلا إذا كان معهم عدد متناسب من الرماة، وسيأتي فعلا ذلك اليوم الذي سوف نستغني فيه عن هؤلاء الأخيرين.

سوف لن نكون ملزمين بأن نزدحم في القوافل ولكن يجب الحصول على الجمال الجيدة الحيوية والقوية، إنه من الصعب الحصول عليها، إنه يلزمنا مائة من الجمال وليس لدينا منها إلا الثلث من الفئة المتوسطة وبما أننا نحملها ما لا تطيق من العمل فقد أصبحت متعبة.

يأتينا بريد الشيخ سعد بوه بأخبار بعثة تنظيم تكانت وإلى حد الآن يدعي البيضان أن البعثة هزمت على يد الأمير بكار ولد اسويد أحمد أمير إدوعيش والحقيقة غير ذلك فالنقيب "شوفو" من الخيالة طرد مخيم أمير البراكنة من شكار ومخيم إدوعيش في مال، وبعد أن تجمع هؤلاء هاجمت فرق البعثة وهزمت إدوعيش في أكماط أحد آبار هضبة لعصابة لكن هذا النصر لم يعمق لأوامر كوبولاني بذلك وغنمت آلافا من الجمال وجمعت وبعثت لتباع عند النهر وقد كان يمكن أن يبعث إلي منها مائتان.

وحسب ما نقل إلي بعض الأصدقاء الحاضرين في كيهيدي فإنهم كانوا يدعون أن دوري يقتصر على البقاء في الظل حتى لا يتحدث عني وأن أوامري كانت بالخلود إلى الغطيط.

ومع ذلك فالترارزة بدأت تتحرك من كل حدب وصوب تأتي معلومات مفزعة وقبائل الزوايا تنهب بتحريض من "أحمد سالم" الأمير السابق للترارزة يهاجم القبائل المصادقة لفرنسا ويستخدم لذلك أساسا أولاد بالسباع بقيادة علي بن المراكشي ومن هذا الطريق يحاول المحاربون في اترارزة أن يفصلونا عن أولاد بالسباع ويسعون من أجل أن يكون هؤلاء أعداء للفرنسيين وأنهم يجب أن يعيدوا أسلحتهم ذات الطلق السريع التي تستخدم ضدنا.

⁹⁷ العكس أيضا صحيح فالفرس والجمل لا يمكن مقارنتهما فالفرس يموت جوعا في مواقع الجمال وافريرجان في بداية ممارسته مع الجمال شأنه شأن سائر مواطنيه يعتقدون أن الجمل يمكن أن يعالج كما يعالج الفرس وأنه يمكن تسريعه عند الاقتضاء فمطاردات الغارات والجولات الطويلة ليست ممكنة إلا إذا تعلم الفرنسيون كيف ينمون ويعالجون الجمال وليس فقط ركوب الجمال فذلك سهل وهذا فن وفي بعض المناطق المحاذية للنهر بعض البعوض ينقل بعض الأمراض القاتلة للجمال لذلك ففي الفصول الرطبة يحافظ المنمون على عدم إرسال جمالهم إلى الجنوب.

ويلاحظ النقيب المقيم في انرارزة الشرقية وجود مركز المحاربين الرحاحلة واولاد اللب وإلى الشرق من سهوت الماء وطلب تعزيزات من أجل أن يتمكن من تشكيل فرق متنقلة للتدخل فالأعداد لا تتجاوز قدر الحاجة لضمان حماية المراكز وليست لدينا وسائل للنقل وهذا بدون شك أمر مقصود وعلى صلة بما كان يقال في كيهيدي أنه من الواضح أننا إذا كنا مستمرين في عدم التدخل لحماية القبائل الخاضعة لنا فإننا سنكون نحن عرضة للهجوم سريعا في مراكزنا.

الخمول يتقل كاهلي وبالصدفة قد اشترتت قريبا⁹⁸ من لعلب ومجموعتي من الرماة على الجمال لن يعودوا من مال إلا في حدود 10 مارس وأنا أعول عليهم في تعزيز القوم في الغارات الممنهجة ضد القبائل الناهية، هذه الغارات التي ستمكنني من الحصول على الجمال الضرورية مجانا والتي عليها سأحمل القوم وسأكون قوافل الحبوب الضرورية للخيل؟ سوف تكفي أربعون جملا وبعد ذلك سأشرع في ضبط الأمن في البلاد فبإمكاني الحصول على ثمانين مقاتلا مكونا من القوم والفرسان والرماة ممتطين وعند الحاجة سوف أستخدم محاربي أولاد بالسباع تاركا حراسة المراكز للرماة.

وسوف يكون بإمكانني أن أجوب البلاد وأطارد الناهيين أيا كان موطنهم وكذلك عندما يطلب مني كوبولاني المسير سوف تكون لدي فرقة مدربة.

عاد المقدم⁹⁹ محمد عبد الوهاب ولد الحضرامي من زاوية¹⁰⁰ محمد فاضل من قبيلة أهل الطالب مختار في ولاته والذي سبق أن أعطاني بعض المعلومات عن البعثة ذهب إلي ابن عمه (عمه) الشيخ سعد بوه وعاد إلي بعد أيام ليبلغني برغبة أحمد سالم في موالاتنا ففكرت في الأمر مليا، هل يريد سبر نيتي أم أنه ببساطة يريد ولد سيدي أن يعرف هل سيكون محل ثقتنا؟

في النهاية بعثت المقدم لتوصيل الاقتراح إلى كوبولاني الطرفان المتنازعان يمكن أن يصطلحا للإطاحة بنا ولن يكون ذلك شيئا فشيئا، ستكون الوضعية أوضح ولن نحتاج إلى أن نفرق بدقة بين صديق وعدو.

⁹⁸ القرب: سقاء من جلود الماعز

⁹⁹ المقدم: ممثل لشخصية دينية مهمة (غالبا مكلف بجمع الهدايا لصالح الشيخ)

¹⁰⁰ الزاوية: مجموعة من المدرسين والطلبة في مدرسة (زاوية محمد فاضل المرابط المشهور مؤسس الطريقة القادرية الفاضلية مركز عالي للتعليم)

ليس لدي حتى الآن فرس، فكيف يطلب مني أن أفرض نفسي في بلد لا يتصور فيه القائد إلا راكبا؟ إنها مسألة شرف، أظل معزولا في مركزي أحاول تفهم نفسية البيضان من أجل التمكن من السيطرة عليهم يوما ما وليس ذلك اليوم قريبا.

وفي رسالة مؤرخة بتاريخ 3 يونيو كتب إلي المقيم بسهوت الماء بأن أولاد عايد لن يخضعوا أبدا للفرنسيين وسيهاجمون القبائل التي تزودنا، ويطلب الإذن بمهاجمتهم ويشير في الرسالة إلى حضور ولد ابراهيم السالم ابن عم الأمير السابق ومعه حركة¹⁰¹ من المحاربين لدى بير أولاد عايد على بعد أربع ساعات من المسير إلى الشرق من سهوت الماء. الوضعية غير جيدة، فلسنا على استعداد ولا يمكن أن نكون كذلك قبل نهاية ابريل وهل سنجد ما يكفي من التموينات قبل ذلك؟ لقد انتهى العمل في مركز انواكشوط وأعطيت الأوامر لتعزيز مركز اخروفة بحائط الدفاع يجب أن يقلص ويجب إقامة متاريس مجنزرة خلف الزريبة.

لقد كنت واثقا من المركزين وعند اقتراب العاصفة أعلم أنهما سيقاومان فالسيد كوبولاني سبق أن بعث إلي بأوامره بواسطة المقدم وكتب إلي بالحرف بأن أحمد سالم إذا استمر في النهب يجب أن نعتبره عدوا وأن نطرده من البلاد لا يمكنه أن يكون أوضح من هذا. وكانت العاصفة في الأيام الأولى من شهر مارس وفي اليوم الرابع منه جاء رسولان من عند الشيخ سعد بوه¹⁰² ومن بينهم الولي قادمين من لمهيريدي يطلبان النجدة. أحمد سالم ومعه أولاد أحمد امن دمان وأولاد الرقيق من عصابته هاجموا هذه البئر نفسها وأولاد عائد إلى الجنوب الغربي لدى أجريدي وأهل أكمطار وأولاد عائد على بعد سبعة كيلومترات إلى الغرب لدى تكنت.

هذا العالم كله ينهب ويسب بوقاحة هذا المرابط الكبير أعل ولد أحمد شنان رئيس أولاد بوعلي وأخوه يتميزان بفضاظتهما ويعاملان أصحاب الشيخ واصفانهم بأنهم "الزوايا المسيحيون"، لم أكن في تلك اللحظة جاهزا نظرا لغيبة بعض رجالي ومع ذلك فلا يمكنني أن أترك من يعاملون هذا المرابط الذي أبدى لنا الصداقة منذ وصولنا والذي حاول نجدة "قايير" وأنقذ

¹⁰¹ مجموعة كبيرة من المحاربين تستهدف عملا عسكريا بينما الغارة تستهدف عملا مدنيا نهب ممتلكات وغالبا قطعانا من الحيوان
¹⁰² الشيخ سعد بوه شيخ القادرية الفاضلية أحد أبناء الشيخ محمد فاضل ظل دائما مواليا للفرنسيين بعكس إخوته خاصة الشيخ ماء العينين ويملك نفوذا لدى سكان ضفة النهر خاصة و كل ما كتبه افريرجان حول علاقاته مع الفرنسيين صحيح.

"أبلانشى" بدون عقاب كنت أعتبره مخلصا للقضية الفرنسية، إنه نفوذ يجب أن ينمي فأخوه في المغرب ماء العينين على صلة بالمغرب وأهل الطالب مختار في ولاته وتومبوكتو وأعلم نفوذه في بلاد السينغال والسودان.

وبالتشاور مع رسله بدأت أعد خطة للقيام بحملة خلال أربعة أيام استقبلت قطيعا من الثيران للبيع وقد كان الشيخ معروفا بأنه موردنا الأساسي للحوم فالأمر فيما يبدو طبيعي وعادي إذا كان القطيع غير منهوب في الطريق فسأشتريه بصورة واضحة وإذا كان مأخوذا على الأعداء فإن صاحبه هرب إلى انواكشوط وفي الحالتين فإن هذا الشخص سيكون لنا دليلا.

إنه يفترض أن يكون قادرا على أن يقودنا إلى لمهيريدي مع تجنب تام للآبار لكي نتمكن من الحصول على أكبر قدر من الحظ في أن نفاجئ رجال أحمد سالم.

لدي حتى الآن ثلاثون قرية أي ما يقارب ألف لتر من الماء محمولة وسأشتري القرب أيضا كل يوم فالعملية إذن قابلة للإنجاز.

وفي يوم 9 مارس لم يعد الراعي وقطيعه وفي المقابل عاد فرساننا من "سان الويس" مجهزين معبئين من جديد وجاءوا بمعلومات مقلقة أربعة فرسان يقودهم العريف بابابا هاجمتهم عصابة من البيضان لدى بئر المعزل بين أخروفة وانواكشوط وكانوا في طريق العودة بعد أن رافقوا المتدرب في المدفعية "قرينه" فعاد الفرسان إلى أخروفة حيث وجدهم الملازم في طريقه وبعد يومين وصلتني رسالة تتضمن تفسيراً واعتذاراً فالمهاجمون كانوا من فصيلة أولاد احميده أتباع¹⁰³ أولاد بالسباع حلفائنا إنه الانفعال حتى لا نقول الرعب هو الذي دفع بأحدهم لا يزال شابا إلى أن يشعل الفتيل، أطلق النار في الهواء من مدفعه ذي المكبس من أجل لفت نظر الفرسان كما يصنع البيضان غالبا عندما يلاقون أصدقاءهم الذين لا يخشون منهم شيئا فظن الفرسان أنهم هوجموا وحدث الاقتتال، ولكن هذا الاعتذار فيما يبدو متعسف¹⁰⁴ أجلت النظر في هذه القضية، ذلك أنني كنت أنتظر بكل تعجل دليل الشيخ سعد بوه.

وفي يوم 16 مارس منتصف النهار وصلني بريد خاص من أخروفة يحمل معلومات عن الرماة الركبان العائدين من مال عن طريق سهوت الماء، ففي سوم 13 سقطوا في شرك وفي

¹⁰³ في الأصل كلمة آزناكه وهي كلمة بربرية وأولاد بالسباع عرب شرفاء وهي الفصيلة لهذه القبيلة النبيلة بمثابة الأقرباء الفقراء هكذا في الأصل

وهو غير صحيح طبعا المترجم

¹⁰⁴ نحن بالعكس يبدو لنا هذا العذر حقيقيا

غياب الملازم الذي استدعى إلى دكار لتسوية المحاسبة المتعثرة كان يقود القسم الرقيب فيليب، قضي ليلته تلك بالتاكالات إلى الشمال الشرقي من سهوت الماء قريبا من مخيم زوايا أولاد ديمان لقد غادرت المفزة قبل طلوع الفجر وكان الرجال يمسون بأعنة جمالهم (أرزم)¹⁰⁵ وبمجرد ما يخطون خطوات ينهال عليهم الرصاص رشقا متتاليا فيسقط الراميان المكلفان بالحراسة الصدر مخترق بالرصاص وأربعة من الجمال تسقط وتجمع الأحياء حول رقيبهم وأطلقوا النار مرات عديدة دفعة توفقت نيران العدو والصرخات الحادة للبيضان تحولت إلى أنين وشكوى ثم سمعت أصوات إلى اليسار فاتجه الرقيب صوب الصوت وأطلق طلقات نار دفعة على التخمين وعاد الصمت وعند الفجر تم النداء فوجد اثنان من الرماة المكلفين بالحراسة قتلى وآخر مجروح في الفخذ وجرحه ينزف.

فقام فيليب بنقل الجثتين والجريح مستعينا بأولاد ديمان ثم أخذ طريقه إلى اخروفة وقد استغرب البيضان ذلك إذ كانوا ينتظرون أن تعود المفزة إلى سهوت الماء وعند وصول المفزة إلى بئر أيدرات أبدى البدو من مخيم آخر لأولاد ديمان الاستعداد للتأوب في الحمل مع هؤلاء المتعبين وعند العاشرة مساء وصلت المفزة إلى اخروفة سالمة دون أن تفقد أي طلقة، حاملة معها قتلاها وجرحاها.

إنهم مناصروا أحمد سالم الذين نصبوا هذا الكمين عصابة بزعامة أعمر لبنكل مكونة من ارحالة وأولاد بالسباع أصحاب اعلي ولد المراكشي وأعل ولد أحمد شنان ورئيس أولاد بوعلي الذي كان يقوم بدور التجار، ففي مساء تلك الليلة استأذن في أن ينام لدى الملحقين البيضان حتى لا تسوء معاملته في المخيم فطرده الرقيب وعندما هب القوم من النوم وجدوه مكتوفا مربوط الرجل باليد في العراء لقد قيد نفسه بنفسه وبعد الهجوم تم البحث عنه بدون طائل.

اختفى النصاب المسن

إنها فرصته بيد أنه بدون شك لن يفلت من يد "فيليب".

عزم أحمد سالم على الهجوم وزيادة على ذلك يهدد أعمر لمبكل بالهجوم على مركز أخروفة وعندما وصل الرقيب "فيليب" إلى اخروفة وجد الحامية في مركز المعركة منذ خمسة أيام، اختفت المخيمات المجاورة ولم يعد يوجد اللحم الطازج. بعث إلى "رافينه" بريدا ليشعرنى بأن

¹⁰⁵ مكبح وعقود الجمل إنه جبل من الجلود موصول بإحدى مناخر الجمل غالبا إلى اليمين.

الأرز نفد وأن أي أحد لم يعد يرغب في أن يبيع له الذبائح لعدم وجود النقود إنه يلزم بأي ثمن تفكيك مركز اخروفة.

وتشعرنى الرسالة كذلك بأن ولد سيدي حضر بنفسه إلى مركز اخروفة وصرح بولائه الحقيقي للفرنسيين إنه كان ينوي القطيعة مع أحمد سالم ومن أجل إظهار هذه النية لبس سراويله الأبيض¹⁰⁶ وفي الإمارة لدى أمراء اترارزة وإلى ذلك الحين كان "أحمد سالم" وحده الذي يلبس السروال الأبيض وبما أنه ليس معه من المناصرين إلا القليل يجب أن نعترف بجسارة هذا الموقف. يجب أن نقدم الدعم بأي ثمن. وهناك أسباب تدعو إلى الذهاب إلى أخروفة أكثر إلى المهيريد ذلك أن لدينا دليلا يمكنه أن يوصلنا إليها وأخيارهم بدوره لما رأى أن الوضع في أخروفة أصبح ساخنا عاد إلى انواكشوط ومعه قومه وسخرت الجمال.

وفي يوم 17 مارس صباحا ذهبت إلى اخروفة وكان معي ثلاثون من الرماة ومعهم ملازمهم وثلاثة عشر من الفرسان بقيادة رقيب المدفعية "تفنسو" وأخيارهم معه قومه.

وأخذت معنا قافلة من الأغذية وثلاثة أكياس من الطلقات وعند الثالثة بعد الظهر وصلت على ربوة أدبونو وكانت الآبار شبه جافة ثم ذهبت بالصباح الباكر يوم 18 ووصلت عند العاشرة إلى بئر اتويرس ويلزم تنظيف الآبار التي هي لحسن الحظ غير عميقة¹⁰⁷ وفي يوم 19 وصلنا إلى المعزل حيث حصلت مناوشات يوم 4 مارس بين خيالتنا وأولاد أحمد وذلك بعد أن عبرنا رمالا سهلة مغطاة بنباتات قصيرة.

غذاء الخيول موجود هنا والبئر توجد في منخفض والماء فيها ممتاز والقطعان كثيرة وصريف البكرات. سأخيم في العراء هنا متحصنا بزريبة على ربوة تطل على النواحي. في المساء جاءني الشيخ بابا أخو الشيخ سعد بوه إنه متسول حقيقي وتخلصت منه بعدما أصيب بضراوة لحم الضأن السمين، أخذ يدعي بأننا غلبنا في الشرق من قبل إدوعيش وأن كوبولاني جرح ويتعالج في مستشفى سان الويس. أنا أعرف كيف أتعامل مع نثرثة البيضان.

قريبا من مركز اخروفة وجدت قطعانا كثيرة إنها مفاجأة سارة، ذلك أنني كنت أعتقد أن كل المنمين البداية قد غادروا وقمت بتسخير بعض الذبائح المملوكة للزوايا لتموين المركز على أمل أن أسدد لهم لاحقا وانتهزت الفرصة لأجدد قافلتى من الجمال فقد تعبت الجمال القديمة.

¹⁰⁶ السراويل الأبيض رمز أمير اترارزة منذ عهد أعل شنظورى في القرن 18م

¹⁰⁷ يتعلق الأمر بالعقل التي تردمها الرياح ولكن يسهل تنظيفها للحصول على الماء الموجود على السطح

وفي يوم 20 مارس عند الساعة الحادية عشرة في الصباح دخلت المركز ممتطيا حصاني الأسود الذي جاءني به الفرسان من سان الويس إنه مطية قائد فعلا كل شيء تم على ما كان يتوقع.

وعند وصولي إلى المركز علمت أن شيئا جديدا يحدث في اترارزة الشرقية ففي يوم 15 مارس هاجم أخوا أحمد سالم أعمار لمبكل وسيدي سهوت الماء عاصمة اترارزة الشرقية حيث الحامية لا يتجاوز عدد أفرادها خمسة وعشرين رجلا وكان معها مائتا رجل محارب من بينهم مجموعة كبيرة مسلحون بالمدافع ذات الطلق السريع.

ثم نهب مخيم الزوايا المجاور للمركز وحاول النقيب المقيم أن يخرج في عشرين رجلا فقتل ثلاثة من الرماة وجرح اثنان، وبعد ما استنفذ ذخيره عاد أدراجه تاركا في يد العدو جثتين ومدفعين من نوع كبل وتمادى البيضان في نهب القبائل المجاورة ولكنهم لا يهاجمون المركز واستطاع النقيب إشعار اخروفة ولكنه لم يستطع نقل الجرحى إلى بودور، ولد إبراهيم السالم ابن أخت أخيارهم الذي ينحاز إلى أحمد سالم يهدد بالهجوم على مركز سهوت الماء لدى تويدرمي قام ولد إبراهيم السالم بالاستيلاء على جمال بعض الزوايا الذين طلبوا منه أن يعيد إليهم بعضها فرفض حتى يصعد بها على الشمال ويلتحق بأحمد سالم.

طلب الزوايا من المقيم السماح لهم بعبور النهر مع قطعانهم دون أن يكون مفروضا عليهم أن يدفعوا الضرائب المستحقة في الضفة اليسرى¹⁰⁸.

وفي يوم 18 وبعد أن أصبحت طريق ابودور حرة تم توجيه الجرحى نحو النهر محروسين من قبل ثمانية أفراد وبقي مركز سهوت الماء برجاله الأربعة عشر فقط تحت رحمة المهاجمين.

هذه العملية المؤسفة سببت لنا ضررا كبيرا في هذه البلاد إذ يجوب اترارزة محاربون كثر مناصرون لأحمد سالم يقنعون الناس بأننا لن نتأخر في مغادرة البلاد ويرغمون الزوايا على الابتعاد عن مجاورة المراكز ويحظرون عليهم تزويدنا وليس من المستحيل أنهم يتلقون تشجيعات على ذلك من سان الويس فجماعة الفرنسيين لا توافق على مؤسسة كوبولاني، وبالرغم من الإخفاق الذي حصل في سهوت الماء فقد ظل ولد سيدي محتفظا بموقفه بإخلاص، ومنذ العملية التي علم بها البيضان عن طريق وسائلهم السرية بأسرع مما تم

¹⁰⁸ تقتطع حكومة السينغال ضريبة على القطعان التي تعبر النهر غالبا للبيع فالبيضان هم المزودون الأساسيون للتجمعات المحاذية للنهر بمادة اللحم وأهم هذه التجمعات سان الويس.

إعلامنا به عن طريق التلغرام، تقدم ولد سيدي إلى رافينه وصرح بأنه ذاهب إلى الحرب ضد أحمد سالم "جميل جدا" أجابه رافينه "Ravin" "ولكنك سترى أننا سنثأرلقتلانا" بعد ذلك بثلاثة أيام وصلت أنا إلى أخروفة وقد انبهر البيضان بسرعة ردة الفعل فقد أدهشهم عملنا الإستخباراتي وذلك لعلمهم بأننا لا نملك بريدا سريعا.

والثقة التي منحنا إياها ولد سيدي كان من آثارها بقاء المخيمات الكثيرة حول أخروفة. فإذا كان أحمد سالم مرفوضا فإن ولد سيدي فيما يبدو أكثر شعبية والزوايا متأكدون من أننا إذا دعمناه فإنه سيستقطب من المناصرين أكثر من الأمير السابق ومع ذلك فأنا غير مرتاح لأن أراه يسبقنا ويحرمنا من مزية الاستيلاء على أحمد سالم، وعندما كنت أبث هذه الشجون إلي المترجم اعبيدي انفجر ضاحكا قائلا: "أطمئن ستصل أنت قبله بكثير" ولم يكن خاطئا فقد أثبتت الأيام قوله.

أسندت قيادة مركز انواكشوط لملازم الخيالة ومعه حامية من 40 فردا وتركت في أخروفة ثلاثين من الرماة وعريفين أوربيين مع تموينات كافية من الأغذية لمدة خمسة عشر يوما. من جهتي أنا سوف أهاجم أحمد سالم الذي يقود الحركة ضد الفرنسيين: لقد ظهر ذلك من خلال هجومي 12 و 15 مارس.

وبما أن زميلي في اترارزة الشرقية ليست لديه الوسائل للقيام بذلك كونت رتلي الصغير يوم 21 مارس إنه مؤلف من ملازم وعريفين أوربيين وثمانية وأربعين من الرماة من بينهم ثمانية عشر ركوبا على الجمال ورقيب مدفعية وخدم وعمال، الكل مسلح بالمدافع، الجميع خمسة وتسعون رجلا من بينهم 68 نظاميا وليس لدى من مدافع الطلق السريع إلا 70 مدفعا فمكتب المندوبية لم يعط القوم البؤساء إلا مدافع بمكابح، قيمتها في المتوسط 40 افرنكا ولا تطلق في أحسن الحالات إلا طلقة واحدة.

ومطايا القافلة كانت متوسطة النوعية وتحمل ثمانية أيام من الأرز وأكياسا من الذخيرة وقربا مليئة بالماء إنها كانت مصادرة في معظمها.

كانت تلك هي الفرقة التي استطعت أن أجهزها في تلك الحقبة فقوم أولاد بالسباع عند ذهابي من انواكشوط كانوا عائدين لتوهم من سان الويس، لقد كنت طلبت من سان اتين لحسابي الخاص 35 بنديّة كبيرة لإعطاء هؤلاء القوم قيمة عسكرية فعادوا إلي بمدافع بمكابس نصفها خارج الخدمة.

لقد كان لدى "أحمد سالم" 175 مدفعا للطلق السريع وزهاء الألف من المدافع التقليدية ومن جهتي أنا لدي 120 وأعول على دعم من مناصري ولد سيدي لإعادة التوازن وقد خذلني قوم أولاد بالسباع بمرارة.

ألقي خطام السير وغادرت يوم 22 مارس متوجها إلى أجريريد، فالمعلومات التي وصلتني مساء أمس تشير إلى أن إخوة أحمد سالم استولوا على هذه البئر بعد عملية سهوت الماء، للأسف أختيارهم وحده الذي يمكنه أن يقودنا إلى هذه البئر ولكني لا أثق بصاحب اللحية الزرقاء.

فترددت قليلا هل من الحزم الذهاب في مثل هذه الظروف؟ ثم تذكرت أنه بالإمكان الحصول على أدلاء في الطريق.

فالبقاء على هزيمة زميلنا في اترارزة الشرقية وخسائرنا في التاكلالت بينما يصرح "ولد سيدي" بولائه لنا يعد دليلا على الخوف في عموم البلاد إن ذلك أضر بنا من الناحية المعنوية وكانت له نتائج مادية.

لقد اتخذت القرار بالذهاب وتغيير الأدلاء من مخيم إلى مخيم.

في يوم 22 مارس توقفت في النمجاط قريبا من مخيم من زوايا أهل المبارك ويبدو أنهم مناصرون لقضيتنا، أكملت إركاب القوم على الجمال من خلال المصادرة والاستيلاء وتطوع شاب من زوايا تاكلالت ليكون دليلا لنا فقد سرق رجال أحمد سالم جماله وعلمت منه أنه قبل ذلك بأيام كان مناصروا الأمير السابق قد اقتربوا منا وأنهم كانوا يوجدون إلى الشمال من العقل قريبا من بئر اندومري وأولاد بوعلي كانوا عند انواتكي وفي الساعة الواحدة والنصف بدأت المسير عبرنا إيکید المنطقة المفضلة في اترارزة والتي تشبه البلاد التي رأيناها بين المعزل واخروفة.

ويسير الرتل والقافلة وسطه والرماة الممتطون يسهرون على الأمن في الأجنحة والمؤخرة والفرسان يؤدون نفس المهمة في المقدمة والقوم يستخدم بعضهم جمالة في القافلة وبعضهم لترويض الجمال المصادرة المخصصة لتكون جمالا للركوب والخيالة تكرر هنا وهناك على أجنحة الرتل لتعزيز نظامه الأمني بسبب مظهرها النافذ، وكان المسن أختيارهم يمشي بجنبي أنا متأملا ومهموما إنه يفكر لأشك في الصورة التي يمكنه أن ينسحب بها من هذه المغامرة التي قنيد إليها رغما عنه.

وعند غروب الشمس وصلنا إلى بئر إديسات ومررنا بمخيم من زوايا إداب لحسن حيث لاحظت موقفهم المتحفظ وعلى اختيارهم أن يستدعي الزعماء نصبت مخيمي في العراء على روبة تهيمن على البلد وماء الأبار متوفر وممتاز، لقد علمت من هؤلاء النبلاء أن اثنين عدائين من رجال أحمد سالم باتا عند هذا المخيم وغادرا عند الساعة الثانية بعد الظهر نحو الشمال إنهما لا يعلمان شيئا عن مسيرنا ويعتقدان أننا في أخروفة.

وعند الفجر الأول أخلينا المكان، المناظر تتغير فقد دخلنا في العقل التلال المرتفعة نسبيا تتوالى كالأموج المنتظمة تغطيها الأشجار الكبيرة نسبيا إنها أنواع أخرى غير تلك التي في إكيد، هنا يسود شجر البشام (آدرس) شجر طيب الرائحة قد يكون هو شجر الصبر المذكور في التوراة، شكله العام كروي وقشرته رمادية اللون وأغصانه كثيفة وملتفة تجعله يشبه من بعيد أشجار التفاح عندنا إلى الحد الذي تبدو فيه الحدائق كأنها تمتد على منحدرات التلال ومجاري السيل في هذه المنحدرات تكشف عن تربة حمراء اللون تشكل كتلة هذه التلال التي يثبتها الغطاء النباتي وتتجه كلها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وتفتح وديان عميقة ذات سباخ في "التحلويق" وحوافر الخيل تحدث أصواتا كما لو كنا نمشي على العجلات ووراء الرتل يرتفع غبار رقيق رمادي اللون يعفر وجه الشمس.

في الأعماق توجد عقل (آبار قليلة العمق) ومنها اشتق اسم العقل¹⁰⁹ الاسم الذي أعطي لهذه المنطقة الماء غالبا ممتاز وهنا منطقة اترارزة الوسطى.

وعند الساعة الحادية عشرة مررنا أيضا بمخيم آخر من إداب لحسن نازلين في المنحدر الجنوبي لأحد التلال ونزلنا في المنحدر المقابل للاستراحة الكبرى، الحر شديد ولجأت إلى خيمتي لأستظل وأتناول الفطور وأخذ قسطا من الراحة.

أخبرني للتو دليلي الشاب من تاكنانت بأنه لم يعد يعرف الطريق لقد كان يقص أثر جماله وقربته على ظهره لكنه لم يتبع خط الآبار، فلم يعد يعرف نقاط الماء ولا يمكن أن يتحمل مسؤولية دلالة الرتل لكنه يعرف تماما النواحي المباشرة لبئر اندومري ومخيم أحمد سالم، وبما أنه يصر على استعادة جماله فسوف يبقى معنا.

¹⁰⁹ العقل منطقة في جنوب غرب موريتانيا بلاد الآبار المحفورة في السطح إنها منطقة رطبة غالبا.

إنه يلزمنا الحصول على دليل آخر، بيد أن هؤلاء الحسنيين أشد تحفظاً من قوم الأمس، لم يتطوع أحد للدلالة.

إنه القرب من حي الأمير والخشية التي يوحى بها ذلك القرب هي لاشك أسباب مثل هذا الموقف، فتساءلت أي موقف سأأخذ فعزمت على إرسال الترجمان لتسخير أحد الأدلاء فإذا بأسودين عتيقين¹¹⁰ من إداب لحسن، إنهما في الحقيقة عبدان للقبيلة يقتربان ويستجلبان الحديث مع الرماة، ثم جاءا يقترحان مقابل تعويض جيد أن يدلانا على اندومري. أعلم أن عبيد الزوايا لديهم غالباً أحقاد على أسيادهم الذين يعاملونهم بسوء وليس الأمر كذلك بالنسبة للقبائل المحاربة حيث يحمل العبيد السلاح ويرافقون أسيادهم في الحرب. فاستجوبتهما وبدون أن يقدمنا شكوى من إداب لحسن ذكرنا أن اندومري ليس بعيداً وأن المحاربين تجمعوا حول هذه البئر ينهبون جيئةً وذهاباً كنت أعتقد أنهم على حق في الحقد على أسيادهم فقبلت عرضهم الذي لم يكن منتظراً ونظراً لعدم الثقة في معلوماتهم قررت المغادرة في نفس الليلة والأساسي هو أن نصل إلى اندومري وعندها لدي الشاب القناني.

وعند طي المخيم افتقدت الدليلين وبحثت عنهما دون جدوى، علمت أنها خطوة مدبرة من قبل إداب لحسن خاصة أن أختيارهم قال لي إن هؤلاء الزوايا من بين أولئك الأكثر تعلقاً بالأمير السابق فبعثت الترجمان للبحث عنهما فوجدتهما مختبئين في خيمة سيدهما وبما أنهما لم يبديا أي مقاومة اكتشفت أنهما احتجزا غصبا عنهما.

وبدأ الرحيل فور وصول الدليلين والرتل في ضوء القمر يلتزم صمتاً كمالياً وأقل القمر عند الساعة الحادية عشرة وأعطيت الأمر بالتوقف وأقام كل واحد في مكانه حسب نظام المسير مزملاً في غطاءه أو معطفه فقد كانت الليلة باردة مثل سا بقنتها ونمنا قليلاً.

وفي 24 مارس قبل الفجر كونت الرتل في نسقين ففي الأمام فرقة المعارك بمن فيها كل النظاميين وأحد الأدلاء وفي المؤخرة قسم القافلة ومعهم قوم أختيارهم والرماة المتعبون جداً والدليل الثاني والشاب القناني وكان القسم الثاني تحت أوامر رقيب المدفعية "رافينه" الذي أمنحه ثقتي الكاملة.

¹¹⁰ عتيق: مبدئياً يحتل مكانة أعلى من مكانة العبيد.

ويؤكد لي دليلي أن اندومري ليس بعيدا وأنا آمل أن أفجأ مخيم الأمير مع طلوع الفجر مما من شأنه أن يعوض القلة العددية وليس هناك جديد عن أخبار ولد سيدي.

استعجلت سير فرقة المعركة والليل لا يزال يرخي سدوله. حاول أختيارهم ليلا أن يتجاوز الرتل بدل أن يظل في القافلة وكاد يحدث خطأ داميا فحلفت له ولحيته في يدي مغاضبا جدا ومقبض مسدسي في نحره أنه إنما يلعب بحياته إذا خالف أوامري فارتعد خوفا وانداهش معتذرا وعاد إلى قافلته ولم يغادرها قط، أخذ هذا الحادث منا وقتا وارتفع النهار ولدي انطباع بأن الدليل كان متفائلا في توقعاته، لا يهم يجب أن نسير إلى الهدف.

واستأنفنا المسير نعبر أتلال لعكل واحدا بعد واحد وننزل في الأعماق في المساري السريعة نصعد ببطء ونتنفس على كل قمة من قمم هذه الأرض كان كل ذلك متعبا لم ننم إلا يسيرا بدأ الحر يشتد ويعطش الرماة ونفذ ماء القرب ولحسن الحظ فالسود ليسوا على علم أن الدليل قال إن اندومري قريب جدا فأملهم في أن يفاجئوا أحمد سالم كان يعزز حماسهم الملحوظ، وكأنهم لا ينتبهون إلى أننا نسير منذ خمس ساعات. كتمت الشكوك التي بدأت تساورني مع إحساسي العميق بالضجر الشديد في قرارة نفسي.

وفي حدود الساعة التاسعة والنصف، وبينما كان الفرسان يعبرون دروة أحد التلال إذا بهم وجها لوجه مع فارسين يعودان أدراجهما مع مهبط الحقف في وثبات مضاعفة بعيدا عن مرمى النيران. فاستخلصت أننا قد اقتربنا من الهدف واستجوبت الدليل الذي أجابني: فعلا ينبغي أن تسرع أحمد سالم لاشك أنه علم وهناك مسافة طويلة بينك وبينه سمع الرماة إجابته ولاحظوا نبرة الاستهزاء ومن يفهمون لهجة البيضان نقلوها لغيرهم فانتشرت المعلومة في الصفوف محدثة في نفوس هؤلاء الزوج العصبين البسطاء أثرا عميقا من الإحباط فتبادل الرماة المخنقون بسبب جهودهم الضائعة وآلامهم بعض الأفكار غير المطمئنة في حق هذا الدليل وجهت للدليل إنذارا بأن حياته في خطر إن كان قد خاننا واستأنفت المسير بعد أن تأكدت من الاتجاه باستخدام بوصلتي فتبينت بسرعة بأن الدليل كان أدارنا المرة بعد المرة ذلك أنه من المعروف أن البيضان إذا كانوا يخطئون في تقدير المسافات فإنهم لا يخطئون في الاتجاه إلا نادرا.

لقد كان دليلي سيئ النية فعلا إنهم أسياده من إداب لحسن المناصرون لأحمد سالم الذين أثروا فيه ووجهوه لاشك وإن لم يوجد اندومري فإنه يجب أن نصل إلى نقطة ماء بأي ثمن فحياة رجالنا في خطر، لقد كان يوجد الماء في القافلة لكننا لم نكن نعرف أين هي.

والدليل الذي يرافق "رافيه" يتعمد الغباوة منذ الصباح ويتظاهر بأنه لم يعد يستطيع أكثر من متابعة خطواتنا وبالرغم من أقوال الدليل فإني لم أعد أعتقد أن اندومري بعيد جدا وأستمر في التقدم ولكن الوضعية أصبحت كارثية.

وفجأة يأتي الفرسان بشيخ من الزوايا ضبطوه ومعه خادمه السوداء وبعض الحمير المحملة بقرب الماء لابد أن هناك إذن آبارا في هذه الناحية واطمأنت لذلك ثم سألت الشيخ المسن عن المسافة التي تفصلنا عن اندومري قال إنه إذا كان السير حديثا يمكن أن نصل إلى اندومري في حدود الثانية بعد الظهر فانفجر دليلنا ضاحكا إنه لا يعلم ما يثيره من غضب لدينا وخاصة لدى هؤلاء السود. والآن وبما أن المفاجأة لم تعد في محلها سيكون الهدف أن نتجنب أن نموت عطشا.

فسألت الشيخ أين الماء؟ فأشار إلى الاتجاه الجنوبي الغربي تقريبا إلى الجهة التي جئنا منها. قبل ذلك بساعة كنا قد مررنا فيما يبدو قريبا من بئر بركيزات والدليل الذي لا يمكنه أن يجهل وجود هذه البئر والذي يرى رجالنا عطاشا لاشك أنه تعمد ألا يعلمنا بوجودها فهذا السلوك إجرامي في مثل هذه الظروف وزيادة على ذلك إنه مستمر في ازدرائنا إنه يدعي أن كوبولاني يحمي الزوايا حتى من الأوروبيين وأنا لا نملك شيئا ضده ويقتررب الرماة والعصا مرفوعة جاهزة للقضاء عليه وتدخلت للحيلولة بينهم وبينه فتمادى الدليل في الاستهتار بنا، وجاء قوم أخيارهم عندئذ ضاحكين هازئين خفية وعلى كل حال هذا البائس الذي يشكل خطرا متعمدا على حياة زهاء المائة فرد ليس هناك من يستحييه.

كنت إذا لم أقدم نموذجا فلن أستطيع أن أعول على دليل أبدا في المستقبل، يجب أن يعلم الناس أنه لا يمكن أن نلعب بحياة رجالنا بدون عقاب وبموافقة الجميع قمت بقتل الدليل رميا بالرصاص وصدر الأمر للبيضان الآخرين والمستهزئين الآخرين بدفنه¹¹¹، الجميع الآن أصبح تحت اليد.

¹¹¹ هذا الدليل يعتبر أحد شهداء الجهاد والمقاومة لكنه لم ينل حظه من الذكر وعليه فيجب نفض الغبار عن مثل هؤلاء الجنود المجهولين والمجاهدين المغمورين. المترجم

المرابط المسن يرتعد خوفا والقائد يهزه بلحيته الرمادية يتطوع بأن يوصلنا إلى مخيم أحمد سالم مباشرة وهو مع ذلك من إداب لحسن كان رجالي بحاجة إلى استراحة وكانوا قد عطشوا فتوقفت في منحدر غابوي ووزع المسن ماء القرب على الرماة الذين لجأوا إلى الظلال في انتظار التزويد بماء القافلة. ذهب الفرسان ومعهم المرابط المسن مردفين للتعرف على بئر بركيزات للارتواء وسقى الأفراس وفي حدود الساعة الثامنة عشرة وصلت القافلة أخيرا والماء الاحتياطي يكفي فقط لإرواء عطش الرماة وتحضير الغذاء وبعد ذلك سقيت الجمال وتركتها ترعى.

استأنف فريق المعركة السير عند الثانية ظهرا والمرابط المسن في مقدمتهم ممتطيا حصانا من أفراس القوم. أخذت معي رفييه وأخيارهم ومعه أجود قومه وخلال المقليل بعثت بعض الأشخاص من هؤلاء للاستكشافات وكان قد أخبرهم بعض الزوايا أن أحمد سالم يوجد لدى انواتك ومعه أعل وأحمد شنان رئيس أولاد بوعلي الجاسوس بعملية التاكالات يمكن أن يكون هنا أيضا؟ وبالوصول إلى انواتك وجدت إداب لحسن ولديهم المئات من الأبقار والنعاج وعندما سألتهم علمت منهم مع أنهم متحفظون أن إدوعل¹¹² كانوا قد تم استتفارهم من قبل الفارسين الذين رأونا هذا الصباح عند العاشرة هربوا إلى الشرق ونظرا لتقدمهم قررت أنه من غير المفيد مطاردتهم بيد أنه لا يزال لدينا أمل في اللحاق بأحمد سالم باندومري.

وقد كانت قطعان إداب لحسن مختلطة مع قطعان أولاد بوعلي أعدائنا فصادرتها وكان ذلك مسموحا به عرفيا وبعثت قوما مستطلعين نحو اندومري وعند الخامسة والنصف مساء عادوا ومعهم المسمى باب أحمد من زوايا أولاد ديمان وعرفت منه أن أحمد سالم الذي تم إشعاره من قبل إداب لحسن في بئر إدييسات بالأمس بوصولنا أرسل قطعانه نحو الشمال وأن أولاد بالسباع انفصلوا عنه مؤقتا وأنه فر هو ورجاله في نفس اليوم في اتجاه أجريرد على بعد يوم من المسير إلى الشمال من اندومري في منطقة لا ماء فيها وجزء كبير من قطعانه مات بسبب العطش خلال الهرب ونظرا إلى حالة التعب التي يعيشها الرتل قررت أنه ليس من الحزم متابعة المطاردة.

¹¹² هكذا في النص وهو غلط تكرر كثيرا ولعل المقصود "أولاد بوأعلي" المترجم

غادرت الشجرة الكبيرة التي تظلل بئر انواتك ورجعت إلى قافلتني أدفع أمامي هذه الغوغاء الصاخبة بثغائها ورغائها من القطعان المستولى عليها في ضوء القمر ووجدت الحامية التي كانت تسهر وسط الجمال والجمال بروك حولها.

وفي صباح يوم الخامس والعشرين من مارس قدم بعض أولاد ديمان يقصون آثار قطعان لهم اختلطت مع القطعان المستولى عليها أمس وعلمت منهم أن سيدي ميله أخا بوبكر سيده منتهزا هذه الضباطية أغرى كل مناصريه تقريبا وصرفهم إلى الرجوع إلى الجنوب الشرقي والأمير السابق ترك وحده مخذولا وهرب وغور جميع الآبار التي خلفه حتى لا يطارد.

وفي ذات الصباح وصلتني رسالة من ولد سيدي يحدد لي فيها موقعه ويطلب مني أن أعفو عن اترارزة المتذمرين وأتركهم ينضمون إليه، فعرفت أن سيدي ميله انضم إليه، كانت تلك هي المساعدة الوحيدة التي قدم لي معنوبا وسياسيا، وسيستفيد منها هو أكثر مني.

وفي الساعة العاشرة صباحا قدم مرابط من بني يعقوب من مخيم أحمد سالم النازل ما بين اندومري وأجريريد بعد أن قطع ثلاثة ارباع المسافة بينهما يؤكد هذا المرابط خيانة سيدي ميله ويؤكد كذلك أن الأمير السابق لم يبق معه إلا أقاربه وخيام علي ولد المراكشي الثلاث، وأخبرني من جهة أخرى أن الرحالة غادروا أحمد سالم وأنهم ربما كانوا إلى الجنوب بيننا وبين ولد سيدي لدى بئر شوبك في العقل فصيلتان منهم هما أولاد عمران وإيديسات¹¹³ هم الذين هجموا علينا في التاكلالت وسهوت الماء.

وبما أننا لم تعد لدينا إمكانية لمطاردة أحمد سالم قررت الهجوم على الرحالة الذين يستحقون العقاب على مواقفهم المعادية هذه الأيام الأخيرة، إنهم يوجدون على خط الآبار التي توصل إلى ولد سيدي الذي يلزم أن نلتقي معه والزاد بدأ ينفد فعلي أن ألتحق بأخروفة بسرعة.

أوجزت راحة الرجال وعند الساعة الرابعة والنصف مساء رحلنا ودليلنا بعض اولاد ديمان وعند انسداد الظلام خيمنا لدى بئر تنعبور وقضيت تلك الليلة فيما يشبه الحفرة على قمة أحد التلال وكان الانتقال منها صعبا فالقطعان المستولى عليها كانت في الحظائر في مجاري السيول وهناك فرقتان من القوم ركوبا لحراستها.

¹¹³ هذا في النص المطبوع وهو غلط طبعا وربما يكون الصحيح هو إحدى فصائل الرحالة الأخرى

في ذلك المساء سمحت بإيقاد النيران حتى العاشرة ليلا كل واحد من رجالي لديه نصف خروف يأكله "رتلك جيد" قال لي أحد الفرسان من السودان.

في ليلة مضيئة قمراء جميلة كانت نيران الخشب تبهج مشهدا خليقا بالسرايا الكبرى والمرترقة. والبرانش الحمراء التي يلبسها الفرسان تزيد المنظر بهجة وقطع لحم الخراف السمان المشوية التي لم يدفع في ثمنها إلا التعب تضي سرورا كبيرا على رجالي الذين لا يبغون منها أي فضلة¹¹⁴.

وفي يوم 26 مارس عند الفجر ارتحلنا وآثار القطعان الكثيرة من الجمال تشير إلى أن الآلاف من هذه الحيوانات تتجه إلى الجنوب وفي ذلك ما يثير شهوة من يرغب في أن يركب. وكانت في تلك اللحظة آثار الجمال جديدة بحيث يمكن للفرسان الستة عشر قصها حتى وصلت إلى بئر "اعكيت حبيب" فالأماكن التي بالت فيها الجمال لا تزال رطبة .. من المؤكد أنها قريبة وعند الساعة الحادية عشرة لحقت بالرتل عند شوبك وكان الرحالة قد غادروا هذه البئر في اتجاه تتمحمد فأعطيت الأوامر بالتوقف وعند الساعة الثالثة استأنفت المسير وأثناء الطريق صادرت قطيعا من النوق جعلت الفرسان يعدون خلفها حتى أمسكوها وعندما جمعنا القطيع جاء عبد العزيز حليفنا من إداب لحسن ليتعرف على جماله المستولى عليهم من قبل الرحالة وأعدنا إليه الجمال وضرينا المخيم ليلا في واد تتمحمد قرب مقبرة للبيضان في كنف أشجار ظليلة.

وفي السابع والعشرين من مارس رحلنا عند الفجر ونحن نتبع بعض الآثار من نفس الليلة وفي حدود الساعة العاشرة وصلني بريد مستعجل من رقيب المدفعية "رافينه" الذي يقود القوم ليشعرنى بأن الرحالة يوجدون أمامنا عند بئر لعوينات فجعلت الفرسان في حال معركة وإذا بنا نعدو وهنا أخبرني حامل البريد أن البئر على مقربة كان الجميع يجري مستعدين للضرب والهجوم.

وبعد ذلك بقليل وخلال ضباب الغبار الذي نرفعه وتدفعه الرياح أمامنا أبصرت رقيب المدفعية وقومه أرجلهم في الأرض يطوقون قطيعا من الخراف السوداء وبعض البيضان ويبلغني "رافيه" بالأمر.

¹¹⁴ من المؤلف أن نلاحظ أن افيرجان يتصرف كزعيم من زعماء غزاة البيضان وسنعرف لاحقا أن مساعده يستخدم نفس التكتيكات التي يستخدمها البيضان.

وبعد مسير للاقتراب تحت غطاء منحدرات التلال المجاورة يرد القوم البئر على الطريقة البيضاوية وينفذون بدون سابق إنذار إلى كل النواحي في ذات الوقت ويطوقون قطعانا كانت تعرس وامسكوا بيد عسا من البيضان الرحالة الذين وجدوا الفرصة لاختفاء أسلحتهم تحت الأشجار الشائكة للزريبة المجاورة إنهم رعاة أولاد ديمان الذين كانوا يزعجونهم ويبلغون عنهم أنهم كانوا من فصيلة أولاد عمران وقد وجد "رافينه" اثنين من ارحالة مختبئين في قطعان نعاجهم كانا يحاولان الهرب.

وبينما كنت أستقبل تقرير "رافينه" وكان الرماة الممتظون يطوقون البئر وقائدهم الرقيب فليب يجيئ إلى بعدما أناخ جملة ليأخذ الأوامر وكان يمسك ببندقيته بيده والقوم يمرون خلال قطع الخراف إذ يقفز رجل إنه أخو ولد اديك يصرخ المرابطون الحضور تم التأكد منه إنه يفصل ويهرب يطلق افليب الذي يضم له أنه كان أحد المهاجمين في التاكلات النار عليه فيرديه قتيلا، إنه كان رئيس العسس وأخوه ولد اديك قاطع الطرق المشهور والمعروف في حوض المذرذرة فقام أولاد ديمان المبتهجون بموته يغمرونني بالدعاء.

وفي أثناء ذلك وصلت بقية الرتل والقافلة، وليس لدينا وقت نضيعه فأولاد ديمان يشيرون إلى تجمع من الرحالة إلى الشرق.

وأخذت عسس الرحالة الرهائن لدينا كأدلاء .رجل شاب وآخر مسن قالوا لنا إننا سنكون وجها لوجه مع ألف مقاتل ولكن من الواضح أن ذلك كان من أجل التخويف، ولما رأونا نجتمع الخيول عدلوا عن قولهم وأنهم لم يكونوا يريدون إثارتنا فركب الفرسان والرماة واعتلوا القوم على الجمال بحماس ويحيط برجلي الرحالة عشرة من خيرة مشاة الرماة والرجلان مقيدان مقودان.

ولم تمض ساعة تقريبا حتى أبصرت إلى يساري شبح جمل عليه رحله بدون راكب فأمرت دون أن أتوقف أحد القوم كان يمشي في الخلف بأن يتجه يسارا ليعرف ماذا يجري هنالك ومما فاجأني أنني رأيت أختيارهم الأشد حزما يقفزوا بالبندقية على فخذة على رأس القوم .حقيقة لا ينبغي أن يكون هناك شيء خطير في هذا الاتجاه. وفي نفس الوقت يعترض أمام طليعتنا رجل جاثم على جمل يصعد ريوه ويشير ' من سيكون هذا ترى؟

يعود القوم ومعهم عشرة من البيضان أولاد اللب من فصيلة أولاد امحمد الذين انضموا إلى حزب ولد سيدي.وعندما رأونا تخفوا ولكنهم لم يجدوا الوقت لإناخة جمالهم فاستجوبتهم كلا

دون أن أتوقف عن السير إلى الأمام ومن خلال الكلمات الأولى عرفت أن أدلاءنا من الرحالة يقودوننا ببساطة للمواجهة مع جناح ولد سيدي.

سوف يكون من المثير للسخرية لو أنني كنت قد سقطت في الفخ ومع ذلك أسفت لأنني لم أنتهز الفرصة لألقن أورشنقراطية اترارزة درسا مفيدا. يجب أن أكون أمينا وأن أعود أدراجي وذلك ما فعلت.

وفي تلك الليلة بعث إلى ولد سيدي اثنين من زعماء أولاد أحمد امن دمان يطلب مني ألا أطارد الرحالة في إطار سعيه لتسهيل الدور السلمي الذي يريد أن يضطلع به ولإرضاء حليفي قررت بأنه يجب أن أعود بإلحاح إلى أخروفة لأعطي الأرز لرجالي الذين لم يعد لديهم ما يأكلون غير لحم الضأن.

تركت أولاد أحمد امن دمان النبلاء يذهبون¹¹⁵ دون أن أشك لحظة في نياتهم الحقيقية ومن الغد علمت أن شيخ أولا اللب مولاي الذي ينصب نفسه شيخ كافة أولاد اللب مع أحقية تاريخية حانق على ما صنع قومنا من اختطاف رجاله ومواطنيه واقترح على أولاد أحمد امن دمان مهاجمتنا بالليل ولكن ولد سيدي الذي شعر بالأمر أوقفه.

على كل حال كنت جاهزا ومستعدا ولعلمي بأني موجود إلى جنب مخيم من البيضان المحاربين أخذت احتياطاتي وقد كان من الأحسن أنني لم أشعر إذا لكنت سبقتهم إلى الهجوم أولا وفي الصباح جاء أختيارهم يبوح إلي بأن مولاي يريد أن يذبحه. صاحب اللحية الزرقاء البائس في وضع قلق.

فاتجهت إلى "أخروفة" حيث استدعيت ولد سيدي ومررت بتتخلف حيث رأيت قبر المرابط الكبير الديماني الشيخ سيدي محمد ولد اسليمان والتحق بي هناك أحد عشر مناصرا من قبيلة أختيارهم كانوا مع ولد سيدي وانضموا إلى قومنا مما يعني -وهذا أمر نادر- أن نعود إلى "أخروفة" ونحن أكثر عددا منا يوم غادرنا.

لدى بيير خيل رفض زوايا إدوداي أن يعطوني دليلا يقودني إلى اخروفة فعاقبت نياتهم السيئة بغرامة عشرة أبقار وبعد ذلك مباشرة حضر الدليل المطلوب إنه يعرف الطريق جيدا! في يوم 29 مارس عند الحادية العشرة صباحا وصلت إلى "أخروفة" ومعني غنائمي ورتلي مكتملا.

¹¹⁵ أولاد أحمد امن دمان مثل أولاد دمان قبائل أساسية في اترارزة نبيلة من أصل عربي ومحاربون.

حضر ولد سيدي إلى المركز يدعي السيد كوبولاني أنه لديه شخصية فتاة صغيرة رأته يتقدم إلي رجل كبير وجريئ نحيف يميل إلى السمرة أفنى العرنين صاحب عين سوداء نجلاء ورأس كرأس المسيح الشاب ولحيته قصيرة مجعدة وسوداء جدا في شكل قلادة وفي الجملة رجل طيب فطن صريح العبارة إنه ليس لديه هذا التملص وهذا التوحش الملاحظ لدى كثير من البداية عندما يلتقون أوروبا للمرة الأولى يده اليمنى مصابة وكذلك عضده وبقي أثر الجرح بعد الاندمال، إنه يدعي أنه بقايا إطلاق نار من قبل رجال أحمد سالم ولكن الشائعات تقول بأن العيب خلقي ويبدو أن ولد سيدي فارس متعب، وقد تقوست قوائمه القصيرة نسبيا وتلك إحدى خصائص بعض الأجناس كما يقال.

إنه يلبس كسائر البيضان غشابة دراعة ذات أكمام عريضة وسروالا قصيرا يصل إلى الفخذ وكلاهما أبيض اللون في الأصل ويبدو أنه قليل الاهتمام بالنظافة، صحيح أن هذه البدلة الرمادية اللون هي بلدة الحرب قليلا ماتجدها كما هو الحال مع اللون الأزرق النيلي اللون المعهود للباس البيضان وحتى قماش الكاكي الأصفر الذي نستخدمه نحن.

كم هو وسح فيما هو واضح هذا اليوم إنه لا يشم رائحة الشحوم ولا رائحة العرق ولا رائحة السمن الزنخ¹¹⁶ ولا رائحة التبغ شأنه شأن سائر رجاله وأتباعه إنهم يرسلون الروائح الكريهة مثل التيوس المسنة.

إن هذا الزعيم لم يفتأ يضطرب علانية طوال مدة هذا اللقاء ولم تزل عينه الواسعة السوداء ترمقني فماذا يخشى يا ترى؟. غير الشياطين، أنا ليس لدي الرعب إلى هذا الحد، ولجعله يطمئن أعطيته الإذن بالاحتفاظ ببندقته أمامي، بندقية طويلة محززة ذات طلقتين من صنع أمريكي سلاح فردي وقديم وبالمقابل فقد قمت بتجريد كل المحيطين به من أسلحتهم بإحكام. إنه يضطرب ربما عندما يفكر فيما سيوجه له أتباعه من لوم وعتب.

عند أول لقاء معه بدا لي ولد سيدي ضعيف الذكاء، إنه فعلا حيي، يعود ذلك دون شك لتربيته.

فبما أن أباه قتل سنة 1886 فإن أمه هي التي ربته ثم بعد ذلك أصبح من أتباع المرابط الكبير الشيخ سيدي المعروف بشدة القسوة اتجاه تلامذته¹¹⁷.

¹¹⁶ يستخدم البدو الزبد وشحوم الضأن ضد جفاف البشرة والشعر بسبب الهواء الجاف لتلميع الشعر وض التشقق بما يسبب إزعاجا للاوروربيين.

لقد جاء ولد سيدي ليؤكد لي نيته الحسنة اتجاه فرنسا، وهي ديباجة لازمة في كل حديث بين قائد من البيضان وقائد فرنسي إنه يعرف كيف يشكرني بأفضل العبارات على الخدمة التي قدمها الرتل لصالحه الشخصي في تلك الأيام.

وحسب رأيه فإن مناوئته أحمد سالم سيظل قبضة اليد دائما وصرح لي بأنه لم يكن يتصور أن الفرنسيين قادرون بمثل هذه السرعة في التحضير والمسير متحدين الليل والحر الشديد إنه كان يعتقد مثل كل البيضان أننا لا نستغني عن المتكئات والاستراحة الطويلة، إنهم فعلا يقيسوننا بالأثرياء الكبار في سان الويس¹¹⁸.

إن هذه الديباجة كانت بدون شك لتهيئتي نفسيا ثم يعبر بعد ذلك إلى المسائل الجادة. لقد طلب مني أن أستقبل مولاي الذي يرغب في أن يقدم اعتذارا مشرفا أمام الجمهور ويحصل على الأمان¹¹⁹ وأن اسامح الرحاحلة ربما أعلن ذلك من أجل الجمهور المتفرج. إنهم الآن حائرون في توقعاتهم ولا يدرون إلى من ينضمون إلى ولد سيدي أم إلى أحمد سالم -لاشك أن هذا الأخير سيرحب بهم ويحتضنهم ليقوى بهم أعداده وأكد لي بأنه لو منح لهم الأمان فإنه متأكد من أنهم سوف ينضمون إليه هو صديق الفرنسيين وذكرت له بأني التزمت له منذ ثلاثة أيام بأني متعهد بالسير في الاتجاه الذي يريد.

صمت لمدة قصير، ويبدو ولد سيدي مذهولا، فأجبت به بأن هذا الأخير (مولاي) أخطأ كثيرا في حقي أنا الذي لم أفعل له شيئا قط، بيد أنني ومن أجل إرضاء ولد سيدي وافقت على أن أقابله بعد غد، إنه يجب أن يطلب مني علانية المسامحة في خطئه ثلاث مرات، أولا لنياته المناوئة لنا لدى لعوينات ولسرقة الجمال التي قام بها في انواكشوط أتباعه من لمزركه ضدنا وعليه كذلك أن يعطيني تسعة جمال غرامة، وأن يتنازل لي عن ملكية ما صادرتة للتعويض عن السرقة.

¹¹⁷ إن التربية الجيدة لدى البيضان تقتضي من الأصغر (وولد سيدي أصغر من افرير جان وكوبولاني) أن يبدو أكثر تحفظا أمام الذين يكبرونه ولكن ذلك لا يعني الانكساف.

لقد تتلمذ ولد سيدي على الشيخ سيديا بابا الذي يتمتع بسمعة هائلة في العلم والقداسة وهو يفرض نفسه بصفاته الشخصية وليس "بالقساوة".
¹¹⁸ عبارة أخرى تعطي هذا القاموس الذي يحرض على الفوضى وافريرجان لا يستطيع أن يقاوم الرغبة في موسم كاريكاتيري شديد لأعدائه مفاوضي سان الويس أصحاب الخلود إلى المذات والذين يتهمهم بالعمل على جعله يفشل بكل ماأوتوا من وسائل.

¹¹⁹ الأمان: الغفران والسلام

حضر مولاي من الغد متصاعرا علانية ولكنه ادعى أنه لا يملك الجمال التسعة الآن، فقلت له: أعط هذه الجمال لحليفنا ولد سيدي الذي أقدم له هدية الآن وبما أن ولد سيدي تنقصه الجمال فأنا متأكد من أنه سيطلبه به فور خروجهم من عندي.

وسألته عما كان يصنع في آدرار فصرح بأنه كان يثار لهجوم أولاد الحطاب الذين نهبوا قطعانا من النعاج لبعض زوايا هذا البلد وبما أن رجال آدرار أعداء له وأصدقاء لأحمد سالم فإنه قرر الانضمام لولد سيدي.

يجب أن أحترس من مولاي فمنذ كنت متوجها إلى اندومري، كان هو يقترح على زعماء من البيضان الاستيلاء على اخروفة، إنه كان يتصور أننا نخوض المعارك كما يصنع البيضان وننقل كل قوانا إلى نقطة الهجوم إنه التكتيك المفضل للقراصنة التونكينيين إنهم كانوا يقومون باستعراض كبير في نقطة للفت أنظار قواتنا ثم يهاجمون المراكز المنزوعة السلاح¹²⁰.

قررت أن أعتمد على صدقية مولاي وولد سيدي متعهد بأن يراقبه من جهته فملاي أخطر صديقا منه عدوا، فإذا كان السيد كوبولاني يريد شراء ولائه فأنا متأكد من أنه سيكون أفضل من أختيارهم.

وفي الحقيقة فمصلحته الحقيقية ومصلحة قومه لعلب هي البقاء على الحياد بين "ولد سيدي" و"أحمد سالم" والاستناد إلينا مع الجميع وضد الجميع، ولكن مولاي لن يخدمنا ما لم يأخذ مكافأته مسبقا إنه شديد الغبطة للوضعية التي فيها أختيارهم الذي يتقاضى ثلاث مائة أفرنك شهريا مقابل شغل زهيد.

بعد مولاي قدم إلى ولد سيدي أولاد احمد من دامن، هؤلاء هم الذين يمثلون القبيلة الحاكمة في اترارزة والتي تنتمي إليها أسرة الأمراء الحاليين إنهم عصابة من الأسياد اللصوص الحقيرين البائسين طويلي الشعور¹²¹ إنهم يمثلون مفارقة تاريخية وحتى في مجتمع البيضان الذي تطور قليلا بسبب الاحتكاك بنا إنهم يذكرونني بهؤلاء الناس الذين لم يقرأوا شيئا ولم ينسوا شيئا بعد 1815 وموقفهم المفرط.

¹²⁰ لقد خاض افريرجان المعارك مع القراصنة التونكينيين بوصفه ملازما.

¹²¹ هؤلاء الأمراء بالنسبة لأولاد أحمد امن دمان يمنع عليهم شرفهم المحاربي أن يطأطأوا الرؤوس أمام أي كان إنهم يحملون شعورهم الطويلة جدا والتي هي في الغالب مضفرة حول الرأس مما يزيد من حدة وحشيتهم أما الزوايا فهم يلبسون الرداء وبعض منهم اللثام مثل الشيخ سيديا بابا.

إنهم يأتون ليتحدثوا عن حقوقهم لم أكن وقتها على صلة بعادات البيضان فأنا أتصور - وهذا هو تصور كل أوروبي يصل إلى هذه البلاد- أن هذه الحقوق تتلخص في حق النهب والزوايا يعملون من أجل الاستفادة من عدم تجربة الفرنسيين ويتظاهرون بأنهم ضحايا وفي الحقيقة لا يبحثون إلا عن التخلص من نير أسيادهم الذين لا يطلبون أكثر من مكافأة على الحماية التي يقومون بها منذ قرون¹²² وكذلك الأمر بالنسبة للغارمين.

هذا هو الذي لم يفهم أحد منا نحن كلنا على الأقل في بداية الأمر، ذلك الحال بالنسبة لي أنا أمام مطالبات أولاد أحمد امن دمان هذه المشاكل المتعلقة بالاسياد والأتباع أصبحت حبرا على ورق بالنسبة لنا¹²³.

إن النبوة المتعالية لنبلأ اترارزة لا تسمح بالمفاوضة فحقهم في فرض غراماتهم التي نخلط نحن بينها وبين حق النهب يظهر لنا أنه غير مقبول لقد كنا على خطأ وقد اعترفنا بذلك ومن هذا الخطأ الأساسي كان عدم التفاهم مع محاربي البيضان، وأكثر من ذلك أنهم مطالبون بالسيطرة على كل قبائل أرض اترارزة، بيد أن كثيرا من هؤلاء لا يعترفون بأنهم خاضعون مقطعون ولا حتى أولئك الدونيون بالولاءة.

واستسلاما للانطباع الأولي عن مناوئة هؤلاء عنفت هؤلاء الأدياء بقوة، ثم تفاجأت عندما وجدتهم مطأطي الرؤوس مدهوشين مشوشين وعلى رأسهم ولد سيدي، فحصل لدي شعور غامض بأني أسأت فهم وضعية هؤلاء النبلاء وأغضبتهم مجانا ... إنهم لا يمكنهم أن يشكوا في أن أخلاقهم وعاداتهم جديدة بالنسبة لنا، في هذه الحالات نحن لا نملك أي فكرة.

فالعديد من هؤلاء المزهوين المقرمين من أولاد أحمد امن دمان لن يغفروا لنا ذلك وسيحاسبوننا عليه عند القدرة، يجب أن نعترف الآن بأننا كنا على خطأ، ولكن ذلك لن يكون ممكنا في سنة 1904. فأولئك الذين سيكررون الخطأ الآن بعد أن استفادوا من تجربتنا لن يكونوا جديرين بالمسامحة.

¹²² منذ نهاية حرب بيه (معركة تينينظاظ 1674 آخر مواجهة بين قبائل الزوايا والقبائل المحاربة والتي انتهت بغلبة الزوايا مع الحفاظ على حريتهم ولكنهم منزوعوا السلاح وخاضعون للالتزامات الضيافة وفي مقابل ذلك تقوم كل قبيلة بحماية قبيلة أو قبائل زاوية، هذه الالتزامات التي تشبه كثيرا حقوق الإقطاع عندنا والتي يطالب بها المحاربون ولكن كما يشير إلى ذلك افريرجان فإن هذا النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي تم منذ قرنين ونصف تجوز فالحاربون في دعاويهم هذه إنما يغالطون.

¹²³ هذا صحيح في أغلبه وسيأتي عدم مفاهمة أخرى بخصوص العبودية غير المقبولة في النظرة الفرنسية ولكن المجتمعات الإفريقية تعتبرها طبيعية جدا.

وفيما يتعلق بأولاد أحمد امن دمان فإنهم يمثلون الوردة الأزهر في النبل الحساني إنها قبيلة الإمارة في اترارزة.

يكتفي أولاد أحمد امن دمان الآن بكل تواضع بالرسم المسمى أباخ على اراضيهم المزروعة من قبل السود في الضفة اليمنى للنهر وهنا أيضا تبدو لي هذه الحقوق الشرعية دعاوي مبررة نوعا ما ولكن بالنظر إلى موقف ولد سيدي المحزن لا يمكنني إلا أن أشجعهم ووعدهم بأنني سأحل المشكلة خلال رحلة إلى دكانه بالاتفاق مع إدارة تلك الدائرة فبحسب هؤلاء فإن المزارعين السود اغتصبوا أرضهم.

افترقنا ونحن أفضل صديقين في العالم

وبعد النبل يأتي القضاء ورجال الدين! ففي 31 مارس مساء استقبلت في خيمتي الشيخ بابا أبا الشيخ سعد بوه المثير للضوضاء المقلقة ... إنه الآن محتفل ومهذب وبعد المجاملة المعتادة تحدثنا عن التجارة خاصة فلدي نية في شراء بعض الجمال.

وخلال لقائنا حضر الشريف عبد الرحمن قادما من مال وقد عينه السيد كويولاني رئيس قوم لمكافحة خدماته السابقة لاشك ... جاء ليطلب من الشيخ بابه أن يسوي خلافا بينه وبين مولاي فهذا الأخير مطالب ببعض النقود من قبل الآخر والمرابط يضخم الأمر ويحكم على مولاي بأن يدفع ولكن مولاي أسفا يمر بوضعية صعبة حضرت الجلسة بكل دقة وبكل سرعة ونطق العالم القاضي المسلم بالحكم وقبل الطرفان الحكم بكل خضوع ولكن مولاي نظر إلى الشريف عبد الرحمن شزرا عند الخروج.

لن أسمح بالمساس بهذا الأخير إذا كان مولاي يريد به شرا إذا لقيه غير مسلح في بعض الأماكن.

والآن نظرة إلى الوراء:

وفي الخلاصة فإن الشهر الذي بدأ بالأسوء لنا كانت نهايته أحسن فأحمد سالم الهارب انسحب بعيدا نحو الشمال مع مناصريه وبقي ولد سيدي حليفنا تحت وصايتنا وبالجملة فالكل الآن خاضع لنا.

وللأسف فالمعارضة المناوئة لنا بسان الويس والتي أثارته انتصاراتنا على أحمد سالم انتبهت فالأمير السابق كان مدينا بمبالغ هائلة للمفاوضين في السينغال¹²⁴ ومن جهة أخرى فالظروف

¹²⁴ في كل الظروف فالمدينون يكونون مدعومين من قبل دائيتهم.

التي جعلتني نجما أكثر مما كنت من قبل والتي ظلت مجهولة هيجت غيرة الزملاء. ومع ذلك فإن الأمور لم تتم تسويتها كاملة في اترارزة والنقطة السوداء الأعظم كانت هي الخلافات العقارية بيننا وبين المحاربين والمتعلقة بالرسوم التي يفرضونها.

فعندما كان المقطعون من قبل هؤلاء الأسياد يغالطوننا ليرسخوا عندنا هذه الفكرة الخاصة، كان الأسياد محرضين في المقاومة وساخطين على موقفنا، وكان العنف المدفوع إلي أقصاه يغذيه الهيجان ويتحول إلى لصوصية مستمرة في البلاد ويجب أن نقمعه عاجلا أو آجلا، وإلا فقد ظل معتما ونتجنب الخطر المباشر فقط، ستكون هناك معارك وبالرغم من العمليات التي حصلت في الشمال فإن الوضعية في اترارزة الشرقية مقلقة.

فبعد عملية سهوت الماء تم ابتعاث الملازم "روسفلدير" في تعزيزات قوامها 70 قناصا. النقيب المقيم أصبح إذن لديه 90 مدفعا، وهناك قبائل مغاضبة تجوب البلاد وأعداؤنا يحاولون وضع خطط ليسلبوا منا ولاء القبائل التي حالفتنا وإرغامهم على الابتعاد عنا وإخلاء البلاد من حولنا، وهناك شائعات تتردد بأن الجماعة الكبرى للفرنسيين (البرلمان) سوف تعطي الأوامر بأن نخلي موريتانيا ونعود.

في موريتانيا الشرقية لم يعد هناك الحديث عن أحمد سالم وجيشه فهناك آخرون من البيضان هم وراء هذه الاضطرابات لقد حاول رجال الأمير السابق التأثير على الحياة السياسية للبلاد بعد ذلك، بسبب عدم نشاطنا وجمودنا المفروض بفعل الأوامر الصادرة من الرؤساء. ولكن سوف نأتي إلى ذلك.

في السياسة مع "البيضان"

جولة في الجنوب

فتحت لي مطالب "أولاد أحمد من دمان" آفاقا جديدة حول عقلية هؤلاء "الأمراء" كما يسمون أنفسهم.

إن استعملنا للدبلوماسية والحنكة اتجاه "البيضان" يقابله هؤلاء دائما بما يفوقه من الدبلوماسية والحنكة والمكر، وحدها المعاملة بالقوة تؤثر فيهم ولا بد أن تلحق بهم هذه القوة ضررا مباشرا وإلا أنكروها، فلا بد أن نثبت لهم أننا مسيطرون عليهم.

ولا بد أيضا من معاملتهم بالعدل وحتى أخذهم بالحسنى، ولكن المقصود هو تفهم عقلياتهم وقبول ومراعاة تقاليدهم وأعرافهم بدل التصرف على طريقة دعاة الإنسانية منا حين يريدون منهم، خلاف رغبتهم، أن يصبحوا مثلنا تماما: مستخدمين اللين في معاملتهم والتغاضي عن تمردهم وفي نفس الوقت ينتهكون أعرافهم وحتى نظام حياتهم.

يبدو لي من الآن أن من الأفضل التحلي بالقسوة معهم السعي بأقصى ما يمكن إلى الاندماج في حياتهم بدل معاملتهم باللين والبقاء في عزلة عنهم.

ألم يقل لي العجوز ذو اللحية الزرقاء في أحد الأيام عبارته البليغة؟: (أقتل عجوز "البيضان" ولكنك لن تغير طبعه)، أحسست بروح "عجوز البيضان" أثناء مباحثاتي مع جماعة "الأمراء" فقد ترسخ في عقلية هؤلاء النبلاء أو القادة عنصر لن يتسنى لنا القضاء عليه أبدا، ولو بإجراء المصلحة، إنه اعتزازهم بحقوقهم وأصلهم ودينهم.

فهم ينتسبون للعرب وقد كان ذلك صحيحا بالنسبة لأوائلهم، ولكنه أصبح الآن محل شك بعد قرون من التزاوج¹²⁵، وهم بتلك الصفة فاتحون وأصحاب نفوذ حتى تحت حكمنا نحن، ولن يقبلوا أبدا بالتخلي عن الهيمنة ولو تحت طائلة قتلهم جميعا.

قد نتنازل لهم عن بعض هذه الحقوق، ولكننا بالتأكيد لن نسمح لهم بالاستمرار في سلوك العنف الحالي والسطو الدائم بذريعة المطالبة بما يستحقون...

سيكون من الصعب علينا حمل "العرب" على العمل... فالعمل¹²⁶ عند البداية فعل مشين، فلا بد من إخضاع هؤلاء الاستوراطيين المتحجرين لمعانة الحاجة القاسية لكي تدفعهم مصالحهم إلى التعامل معنا¹²⁷.

فالحقوق التي يحصلون عليها من الأراضي المزروعة على الضفة اليمنى لنهر السينغال هي الوسيلة الوحيدة لتحكمنا فيهم فهي رابطتهم الوحيدة بالأملاك غير المنقولة، ومهما بلغ بهم التطاول فلا بد من منحهم هذا الامتياز، كما أنني سأقدمهم للإداري الحاكم في "دكانه" وسأعرض أمامه مطالبهم.

وما يسعون له من وراء كل هذا هو منع السينغاليين من زراعة الأراضي التابعة لأولاد أحمد امن دمان دون مقابل، وحتى وإن اعتبرنا هذا المطلب مبالغا فيه، فإن من الضروري أن أتدارس النظم المتعين وضعها مع نظيري على الضفة اليسرى.

بدأت وأنا في "أخروفه" أكون فكرة عن الموضوع، دخلت في نقاشات مع جماعة "الأمراء" حول كل شيء فاسمعوني أكاذيب وترهات أخنى عليها الزمن، لم أتبين فيها شيئا.

¹²⁵ التزاوج: يقصد "أفريرجان" أن الفاتحين العرب -ركلهم رجال وعددهم قليل- قد تزوجوا نساء قبائل "صنهاجة" وذلك منذ قرون، ولكن يبدو أن "أفريرجان" يجهل أن قبائل "صنهاجة" كانت حتى "شريبه" هي المسيطرة بثروتها وثقافتها "قبائل الزوايا" في حين تلعب قبائل العرب غالبا دور المرتزقة "مغافره" في خدمة القبائل السابقة ولم تفرض قبائل العرب "حسان" نظاما اجتماعيا جديدا إلا في آخر القرن السابع عشر الميلادي بعد انتصار عسكري ساحق ولابد أن ننكر أن هذا النظام مقتصر على "اترارزة" و"البراكه" فقد عرفت "تكانت" هيمنة "ادوعيش" "صنهاجة" و"ركيبات" المسيطرون على الشمال هم من أصل "صنهاجة" ولم يحل ذلك دون انتسابهم للشرف.

وفي مجتمع "البيطان" يستمد الولد دائما نبلة من أبيه مهما كانت أم الولد، من الناحية النظرية على الأقل، هذا المبدأ الوراثي الذكوري المستند إلى القرآن يقابله مبدأ تقاليد ملوك إفريقيا السوداء (مثل مملكة "الو" على الضفة اليمنى لنهر السينغال) حيث ينتقل النسب الملكي عن طريق النساء فلا بد لمن يتقدم لمنصب الملك أن تكون أمه أميرة، تماما كما جرت عليه العادة في السابق لدى الفراعنة.

¹²⁶ العمل المقصود هو العمل البيدي (وخاصة زراعة الأرض) فهو، في أغلب المجتمعات الإفريقية من اختصاص "الخدم" في حين لا يجد البيدي النبيل غضاضة في ممارسة التجارة ولا في رعاية المواشي

¹²⁷ يبدو "أفريرجان" لا يدرك أن نظام مجتمع "البيطان" قد اختل فعلا: ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى دخول النقود الفرنسية فيها تدفع أثمان الصمغ واللحم ومختلف الخدمات وهي فوق ذلك ضرورية لاقتناء الشاي والسكر والأقمشة وما هو أهم: الأسلحة والذخيرة.

ومع ذلك وعدت جماعة "الأمراء" بأن أكون مدافعا عنهم في "دكانه" فهم رغم كل شيء من رعيتي طوعا أو كرها.

كنت أثناء النقاشات أراقب "ولد سيدي"، فإذا هو في الواقع يلعب دورا ثانويا، فهو كوزير خارجية في حكومة تديرها جماعة "أولاد أحمد من دمان"، ألم يقل لي "أخيارهم" إن حلف "ولد سيدي" خليط متتافر في فوضى يدلي كل عضو فيه برأيه وهو فيه مجبر على التذبذب والمداهنة حتى لا يغضب إلا أقل عدد ممكن، حقا، إن الملوك في الهم سواء¹²⁸.

صحيح أن "أخيارهم" يتمنى زوال "ولد سيدي" ومن معه من النبلاء فالجميع يقيم في مخيمه الآن ويعيش البذخ على نفقته دون حساب، لا غرو إذن إن امتلأ نقمة على "ولد سيدي"¹²⁹ يبدو أن هذا الأخير قد تخلص بعض الشيء من عقدة الخجل، فهو يبدو مرتاحا بصحبتني.

ومن بينهم "محمد بونه" وهو طموح عديم الذمة لا أعرف أية تعابير شيطانية توحى بها سحنته، قريب في النسب لولد سيدي ويمكن أن يكون منافسا خطيرا عليه¹³⁰ لأنه المفضل لدى تجمع قطاع الطرق الذي يسمى "جماعة أولاد أحمد من دمان" هناك أيضا "محمد ولد لداره" وهو كذلك قريب في النسب "ولد سيدي" ومستشاره السري، وبما أنه أكثرهم قبولا عندي فهو ممثل "ولد سيدي" المعتمد لدي، وهو قصير القامة نحيف ذو دهاء ولباقة وفطنة يعرف الفرنسيين مثل "أخيارهم" فقد سبق له أن أقام في "سانلويس" عند مدير شؤون السكان المحليين.

"محمد ولد لداره" هو الأخ غير الشقيق لعثمان ولد إبراهيم اخليل الذي حدثني عنه "كبولاني" والذي قدم مؤخرا من البعثة حيث كان دوره مقتصرًا على التبجح ضمن جماعة "الأمراء" وهو يحتل مكانة مهمة، يوجد تشابه في المظهر الجسمي بين "ولد لداره" و"عثمان" ولكنه شبه الثعلب للذئب.

¹²⁸ لم يعرف عن أي واحد من أمراء "البيضان" أنه يشبه "لويس الرابع عشر" والوصف الذي ورد بأن "ولد سيدي" وزير خارجية في حكومة تديرها الجماعة وصف صحيح ونضيف له فقط الوظيفة الأساسية لقائد الحرب.

¹²⁹ يمارس "ولد سيدي" حقه في الضيافة ولكن من السهل تجاوز الحد المعروف إلى الإفراط وبالأخص في هذه الحالة المشوبة بعدم الموضوعية، يمكن أن نقارن حق الضيافة هنا بما ادعاه في "الأوديسه" المتقدمون لخطبة "ابنولوب" فقد شغلوا وقت الانتظار بالإقبال على اللواتم وبذلك التهموا ثروة "يوليس" وتركة "تيليماك" فدفعوا أرواحهم ثمنا لإفراطهم في التعدي

¹³⁰ نظام انتقال "الإمارة" بين أمراء "البيضان" غامض بعض الشيء: فليس فيه ما يوجب أن تتوالى الإمارة إلى الابن الأكبر سنا أو إلى الأقرب نسبا بل تكون من نصيب الأكثر "جدارة" أو "كفاءة" وكثيرا ما يكون انتقال الإمارة مناسبة للصدمات والاعتيالات.

نعرف عن عثمان شجاعته الفائقة وهو يبدو متكبرا ومن جانب آخر لم أرى في حياتي شخصا في مثل غموض وهروب نظرتة.

كان "كوبولاني" قد عينه قائد فرقة جمالة براتب 250 فرنكا في الشهر، وقد فكرت في أنهم أرسلوه إلي بعد أن أصبح مزعجا على مستوى البعثة بسبب تبججه، قدم لي نفسه كمنظير لولد سيدي مبالغا في شعبيته بين "اترارزه" ومفتخرا دون انقطاع بأسلحته وخيوله ولم يمنعه ذلك من أن يحاول أن يغشني بواحد منها .. وبعد ذلك بأيام طرأت علي حاجة فيه وفي جمالته، فلم أعر عليه، بل أرسل من يخبرني أنه مصاب بالحمى.

كان "كوبولاني" قد أخبرني بقدم عثمان بواسطة رسالة بعثها إلي من "مال" مع "الشريف عبد الرحمن"، يقول لي كوبولاني في هذه الرسالة القديمة إلى حد ما، إن عثمان سيستخدم نفوذه للقبض على جماعة "ارحاحله" وتسليمها إلى القضاء الإسلامي لتتال عقاب ما اقترفته من إثارة الاضطرابات (المقصود من قاموا بهجومي "اتاكلالت" و"سهوت الماء"). أن توصف فظائع بهذا الحجم بأنها مجرد اضطرابات فذلك أمر مضحك، ولكن من المضحك المبكي أكثر أن يقدم هؤلاء المسلمون المؤمنون للمحاكمة أمام قضاة مسلمين ومؤمنين أكثر ليعاقبوهم على فعل نبيل هو قتل بعض الزوج والمحاربين من كلاب النصارى!.

وأخيرا هناك جانب من عدم التوفيق، فقد وصلت الرسالة متأخرة بعض الشيء، ووجدت "ارحاحله" قد نالوا "عقابهم" بالقوة والتمسوا الصفح وحصلوا عليه بوساطة، ليست من عثمان، وإنما من "ولد سيدي" وكانوا قد سلكوا سبيل الندامة والإذعان لدرجة أن "ولد سيدي" شخصيا جاءني في اليوم الأول من إبريل برئيس، "أولاد عمران" خاضعا مقهورا يعرض علي تسليم ديات الرماة الخمسة المقتولين في الوقعتين بالثمن الذي أحده أنا، وهكذا استلم "ولد سيدي" مائتين من الإبل عن ديات القتلى، ومن شأن هذا أن يعزز نفوذه كما أنه عقاب فعال لجماعة "ارحاحله"، كما أن من شأنه إفشال مخططات "أخيارهم" الذي يدبر دسيسة ما مع "أولاد عمران" لضمهم إلى حلفه، لقد تم كل هذا في الواقع دون أي تدخل من عثمان، فامتلاً غيظا وهو ما لن يغفره لي أبدا تماما، كما لن أنسى أنا تذرعه الواهي بالحمى في وجه أول خدمة أطلبها منه، والواقع أن سبب كل هذا هو تأخر رسالة "كوبولاني" عن إشعاري في الوقت المناسب.

وصلني من انواكشوط خطاب من ملازم فرقة الخيالة أرسله مع أحد رجالي من "أولاد بالسباع" من فرقة الجمالة، أخبرني فيه أن الأمن والاستقرار يسودان المنطقة. ولكن "أحمد سالم ولد أعمر" وفرقة الجمالة الذين ذهبوا في جولة داخل "أفطوط" لم يعودوا حتى الآن.

لدي من أخبارهم أكثر مما عند الملازم، فجمالتي من "أولاد بالسباع" قد قدموا إلي في "أخروفه" خوفا من البقاء في انواكشوط مع هذا الضابط الذي يكرههم ويخافونه، وأنا مرتاح لوجودهم معي فسيمكنني ذلك من استئناف مفاوضاتي مع "أولاد بالسباع" الجنوب بعد توقفها فجأة يوم 4 مارس بسبب مشاجرة "المعزل" فإذا قدمت إليهم صحبة بني عمومته، فسيكون من السهل تسوية كل شيء بالتراضي بين طرفين من "أولاد بالسباع"، فمن مصلحتي أن أضم إلي قوما مسلحين قد أحتاج إلى الاستعانة بهم في أي وقت، بدل التظاهر بالصرامة معهم في وقت افتقر فيه إلى الوقت والوسيلة لتنفيذ تهديداتي.

قررت إذن، من حيث المبدأ، قبول فكرة اعتبار حادثة 4 مارس سوء تفاهم مؤسف مضى جل شهر ابريل والأمور تبدو أفضل منها في شهر مارس ... وكان من الواضح أن هجومي السابق في منطقة "لعكل" قد أثر على الوضعية السياسية في "اترارزه".

لابد الآن من العودة إلى حالة الاستقرار السابقة وإكمال الأعداد في الحاميات على مستوى المراكز، أعدت إلى انواكشوط يوم فاتح ابريل فرقة الرماة التي كنت قد حولتها منه منذ 17 مارس، ثم بادرت إلى إرسال المؤن الغذائية إلى "أخروفه" التي تشكو المجاعة رغم كونها المركز العسكري الرئيسي في "اترارزه". أرسلت من فوري فرقة الخيالة الجزائريين إلى "دكانه" صحبة الرقيب الدركي "تفارانو" ليشحنوا الشعير فوق ظهور الحمير التي يكونون قد جمعوها أثناء الطريق في منطقة "لعكل".

كان "ولد سيدي" يتردد علي كل يوم، لقد توطدت الصداقة بيننا، كما كنت أعمل على تسديد الديون المستحقة بموجب مصادراتي أثناء سير القافلة، رغم أنني لم أتلق من "سانلويس" أي فلس، فاقترعت في هذه المرحلة على التفاوض مع أصحاب الديون من الزوايا وبعد الاتفاق على السعر أسلم كل واحد وصلا سيمكنه في ما بعد من تقاضي مبلغه في "أخروفه" أو "انواكشوط" أو "سانلويس": قد أكون بذلك أحد رواد إدخال نظام القرض إلى منطقة "اترارزه" كان من الأفضل لسمعتنا أن نسدد نقدا، ولكن من المسؤول عن عدم إمكانية القيام بذلك؟.

لاحظت أثناء إقامتي غير الاختيارية أن "البيضان" بدؤوا يحيكون بعض المكائد: "ولد لداره" يدبر ليجعلني من حيث لا أشعر أداة لتحقيق مئارب رهطه، جماعة "الأمرء" وهو يسعى كذلك على الطريقة الآتية:

بينما كنت في أحد الأيام في حديث مع "ولد سيدي" بحضرته، أخبرني بنبرة من يكشف سرا خطيرا، أن "أحمد سالم" قبل توجهه نحو الشمال في اكتوبر الماضي، قد أودع لدى بعض قبائل الجنوب جزء من ثروته، خيولا، جمالا، وعبيدا، وكلها غنائم ثمينة على حساب العدو. أصغيت لكلامه، وحين لاحظ أنه قد حك لي على جرب، وذلك هو قصده في الوقت الراهن، غير مجرى الحديث، واختلق ذريعة لإقحام "ولد سيدي"، فتملكتني الرغبة في معرفة أين كانت توجد بالضبط هذه الثروة التي ستكون، لو استوليت عليها، غنيمة وثمره أخرى لانتصارات قافلتني، ولكني أدركت بحدسي أن "ولد لداره" يسعى لخديعتي.

وفي مساء الغد حضر الاثنان مجددا، فأثار "ولد لداره" النقاش بطريقة ستقضي بي أنا إلى الحديث عن مسألة أملاك "أحمد سالم" وما كدت انهي كلامي حتى قاطعني "ولد لداره" قائلا: "أوه من السهل علي أن أقودك مباشرة إلى الأشخاص الذين يخفون هذه الممتلكات" ثم صمت فجأة كأنما فطن إلى أنه قد أفشى سرا خطيرا، في حين وقف "ولد سيدي" وخاطبني، وقد عمت محياه سحابة حزن: "أما أنا فقد أمعنت التفكير في الأمر، وطبعا إذا استوليت على هذه الثروة، فسيكون لي نصيب منها، لأنك ستصرف معنا كمسلمين حسب أحكام الشريعة، ولكن من يخفون هذه الأملاك هم من "اترارزه" ومن غير المقبول أن أشارك في ما يلحق بهم الضرر، فلن أساعدك إذن في هذه العملية، وبالمقابل أتنازل عن نصيبي من هذه الثروة فلن آخذ منها شيئا".

أذهلني كلامه، فهذا الزهد من أحد "البيضان" في ممتلكات عدوه اللدود يحيرني، لم يكن الأمر طبيعيا، تبدو معلوماتي محدودة عن ذكاء "ولد سيدي" ولكن الشك اجتاح ذهني فجأة، فقد يكون "ولد سيدي" قد أبرم اتفاقا سريا مع من توجد عندهم الممتلكات لكي تبقى من نصيبه وحده، كما خطرت لي فكرة أخرى، فقد كشف لي "أخيارهم" من قبل أن الأموال مودعة لدى "بابه ولد حمدي" وهو رجل زوايا له نفوذ في قبيلة "أولاد بنيوك" وطبعا سبب تقاعس الجبان "ولد سيدي" هو الخوف من الاصطدام بأولاد بنيوك، ما قيمتنا نحن إذن بالنسبة لجماعة هذا الحليف، إذا لم يكن دعمنا يطمئنه؟ بدأت استشيط غضبا.

صرخت في وجه "ولد سيدي" قائلاً "هكذا أرى كم أنت جبان! هل هذا تصرف لائق بين الحلفاء؟ أنا أثق بك ولكن من جانبك يمكن أن تعول على كوني مقاتلاً مغواراً لا يخشى "أولاد بنيوك" ولا غيرهم من أنصار الأمير السابق.

أنا الذي قدمت لك كل شيء حتى الآن بناء على التحالف القائم بيننا، أما أنت فلم يكن لك من فائدة سوى تسليم إبل الزوايا إليهم بعد استرجاعها من العدو، استرجاعها؟ من يدريني؟ لاشك أن الغدار "سيدي ميله" هو الذي أحضرها لك، فهو مستشارك.

ألا تذكر أن قدومي إلى "اندومري" حين كنت أقرب منك إلى العدو، هو الذي مكن هذا الماكر المحترف من أن يأتيك بأنصار "أحمد سالم" بعد أن أغواهم، تاركاً سيده شبه وحيد، ماذا فعلت أنت؟ فبينما كنت أنا أزحف ضد غريمك، كنت أنت منهمكا في تعزيز موقعك من أجل التصالح مع من طالما تعلقت بهم من جماعة "الأمرء"، والآن تريد تعميم هذه الطريقة، على جميع "اترارزه"! عليك أن تعرف قومك جيداً وتتذكر أنه بالصرامة معهم والجرأة على العدو نستطيع السيطرة على أعدائنا أو من نشك في ولائهم وليس باللين والتملق".

كنت مصمماً على مواصلة الكلام... ولكن ما من أحد يستمع إلي، ف"ولد سيدي" الذي أذهلته حدتي التي لم يكن يتوقعها قد عاد القهقري شاحب الوجه حتى وصل الباب وابتعد أثناء، فورتني فلم أفطن له وأنا أتكلم بصوت عال.

بقيت وحدي مع "ولد لداره" صامتاً يبتسم، ثم هز منكبيه وقال: "لا داعي لسخطك، إنه طفل" فنظرت إليه فإذا بالفرحة تجتاح أسارير محياه الدبلوماسي، فأمرته بالانطلاق وراء "ولد سيدي" وبدأت أفكر في الطريقة التي سأستولي بها على ممتلكات "أحمد سالم".

وفي المساء جاءني "أخيارهم" يصطحب "ولد سيدي" مرتبكا فزعا فخاطبني بصوت خافت لا يكاد يبين: "هل أنت غاضب علي؟ سأنفذ كل ما تريده"، فلم أجد بداً من الإمساك بيده الممدودة نحوي، لقد صدق "كوبولاني" حين قال لي مرة إن "ولد سيدي" على الصعيد المعنوي كالفتاة الصغيرة.

ثم عاد بنا الحديث إلى موضوع ممتلكات الأمير السابق وعادت المياه بيننا إلى مجراها الطبيعي، واتفقنا على أن نستغل الذهاب إلى "دكانه" بحثاً عن المؤن الغذائية والنقود لممارسة الضغط على "أولاد بنيوك" وعلى "بابه ولد حمدي"، دخل "ولد لداره" أثناء ذلك مبتهجاً، ولم

أكن أظنه على هذه الدرجة من الجشع، وسأدرك بعد ذلك سبب فرحته: فقد وقعت في ما يريد وكل ما جرى من تدبيره، أما "ولد سيدي" فغريبة عليه هذه المكائد.

أما قضية أراضي "شمامه"¹³¹ فقد انتهى بي الأمر إلى توضيحها، فبسبب حالة الحرب الدائمة أثناء القرن الماضي وربما الذي قبله، فقد بقيت "شمامه"، التي استولى عليها "حسان" في القرن السابع عشر، أرضا بورا بدون زراعة فبعض الأراضي لم تزرع قط رغم كون تربتها الخصبة أفضل بكثير من تربة الضفة اليسرى لنهر السينغال وكقبيلة قيادية في "اترارزه" يطالب "أولاد أحمد من دمان" بملكية الأراضي التي استولى عليها أسلافهم وبالتالي يعتبرون أن لهم الحق إما في أن يعهدوا بزراعتها إلى من شاءوا وإما أن يحصلوا على الأقل على نصيب من محصولها.

والحال أن الزوج المقيمين على الضفة اليسرى قد اجتازوا النهر بأعداد كبيرة منذ أن قطعتة قواتنا نحو موريتانيا وشرعوا ينافسون المزارعين من "الحراطين" أو من عبيد "أمراء" "اترارزه" في استغلال هذه الأراضي الخصبة ذات التربة الغرينية، وبما أن هؤلاء السينغاليين لم يستشيروا أحدا عند قدومهم، فلم يكونوا يعيرون أدنا صاغية لهؤلاء "الأمراء" حين يحضرون مطالبين بحصتهم من الحصاد كما هي محددة عرفيا ويدفعها غيرهم من المزارعين¹³² فيغتاظ أصحاب الأرض وسرعان ما يقودهم ذلك إلى ارتكاب أعمال عنف متكررة لطرد السينغاليين بقوة السلاح، فتكون النتيجة أن المطالب تكتسي صبغة استبدادية من جهة، ويجتاز السينغاليون الضفة اليسرى حاملين الأسلحة، وهم أقل خضوعا من "الحراطين" فتتكرر الاشتباكات بالسلاح الناري بينهم وبين أصحاب الأرض.

وشيئا فشيئا يتحول هؤلاء الزوج الذين تعودوا منذ قدومنا على التفاهم بالتالي هي أحسن مع "الأمراء" إلى رفض كل الإتاوات وتأسيسا على تقديرينا "للصلات" العرفية¹³³ التي لا تشترك

¹³¹ "شمامه" أو أرض "الكبله" منطقة أراضي تغمرها مياه النهر على الضفة اليمنى للنهر، بمحاذاة "اترارزه" و"البركانه" وهي ذات تربة خصبة جدا تزرعها الجماعات المتقرية من الزوج الذين يدعي بعض قبائل "البيضان" حق مطالبتهم بحقوق ذات طابع اقطاعي.

¹³² لا تخضع الأرض حسب التقاليد الإفريقية للملكية الخاصة بل هي أرض الله ولكن من زرعها يستفيد من خيراتها وحسب الشريعة الإسلامية التي يتبعها "البيضان" (المذهب المالكي) تخضع الأرض للملكية الفردية والجماعية. وتنتصر الصعوبات التي تبرز بسبب تباين هذين الرأيين المتعارضين وقد مر بعض الوقت على الفرنسيين المشبعين بالقانون الروماني قبل أن يستوعبوا المبدأ التقليدي الإفريقي وجاء أول تصرفاتهم متبنيا لموقف الشريعة الإسلامية القريب مما تعودوه.

¹³³ "الصلة العربية" أو إتاوة تدفع في الغالب عينيا (قماش، سلاح، مجوهرات، وأواني معدنية... إلخ) يمنحها حكام السينغال لأمراء "اترارزه" و"البركانه" لتسهيل تجارة الصمغ في المحطات الواقعة على نهر السينغال وقد استمر دفع هذه الامتيازات من أواخر القرن السابع عشر حتى آخر القرن التاسع

في شيء مع هذه المسألة، كانوا يتقدمون أمام قاضي¹³⁴ "دكانه" الزنجي بشكوى في غير محلها ضد "البيضان" مطالبينهم بإعادة ما قد دفعوه لهم من قبل على قلته، بطبيعة الحال، كان القاضي يحكم لصالح بني جلدته، والحق أن الصدق لا يوجد في هذا الطرف ولا في ذلك.

طلب "الأمراء" مرافقتي إلى "دكانه" ولم ألبث أن أدركت أن قضية الأراضي الزراعية ليست الدافع الوحيد وراء حرصهم على التوجه معي إلى الجنوب. عادت فرقة الخيالة يوم 10 أبريل ومعهم قافلة الشعير وتوجهت يوم 12 منه إلى "دكانه" صحبة سبعين مسلحا من بينهم أربعة وأربعون نظاميون ولديهم 15 جملا للحمل و60 حمارا ليأتوا بقافلة المؤن والنقود وهذه الأخيرة تتطلب حراسة مشددة وأنا أنوي بالفعل الاستيلاء ولو بالقوة على ممتلكات "أحمد سالم" ولهذا الغرض تمكني الاستعانة بأهل "اترارزه" الشرقية علمت عند وصولي "انبيكه" أولى المراحل جنوب "أخروفه" بنشوب نزاع بين حلفائي.

فبسبب خصومة لا أعرف طبيعتها قام أولاد بالسباع الجنوب المتحالفين مع ولد سيدي بنهب 60 جملا على زوايا تاشدبيت فذهب هؤلاء يشكونهم لدى "ولد سيدي" فدفعته جماعة "الأمراء" إلى إبراز سلطته الجديدة بمطاردة "أولاد بالسباع"، فجاء مسرعا إلى مخيمي عند "انبيكه" يريد أن أرافقه في هذه المهمة ولم يكن بوسعي دعم طرف من حلفائي ضد طرف آخر ومن جهة أخرى إذا لم أقم بأي شيء لصالح الزوايا الذين أخذت ممتلكاتهم فسينتأثر دوري كحكم في منطقة اترارزه ويتقوض ما حققته من سمعة بعد عملية "العك".

فأحسست بالفخ الذي وضعه لي مستشارو "ولد سيدي" وهذا الأخير رجل بسيط ومجرد دمية في أيدي هؤلاء الخبثاء فأخذته جانبا وشرحت له خطورة الموقف مفسرا له عدم قدرتي على الذهاب معه ضد جماعة من حلفائي مثله تماما وربما أقدم منه في محالفتي وأفهمته أنه إذا واجه "أولاد بالسباع" بدون دعمي فسيسحقونه بأسلحتهم ذات الطلقات السريعة وهو لا يتوفر على مثلها كما أنه سيجعلهم ينضمون إلى حلف "أحمد سالم" وكانوا من مناصريه وكنت

عشر الميلادي وقد استفاد منها أمراء "اترارزه" و"البراكه" الذين اعتبروها دليلا على ولاء الفرنسيين لهم، في حين كان الفرنسيون يعتبرونها مجرد هدايا دبلوماسية ولا توجد طبعاً أية علاقة بينها وبين نظام استغلال أراضي "شمامه" ولكن المزارعين السنغاليين قد أدركوا إمكانية التشكيك في السلطة التقديرية لأمراء البيضان

¹³⁴ القاضي: الحكم في الشريعة الإسلامية

متأكدًا من قوة هذه الحجة الأخيرة فول سيدي صاحب عقلية منتخب "بفتح التاء" ويحرص دائما على المحافظة على الأغلبية في جانبه.

ومع ذلك طلب مني قبل أن يتخذ قراره عقد اجتماع مع جماعة "الأمراء" التي لا تفارقه ومثله تماما أظهر هؤلاء تقاعسا عن مواجهة "أولاد بالسباع" بأسلحة لا تكافئ عتادهم فقد كانوا يعولون على أسلحتي لمهاجمة هؤلاء، وقد بدا ذلك واضحا من تقطيب وجوههم حين رفضت الموافقة على الذهاب معهم.

فاغتمت إذن هذه الحالة النفسية وعرضت وساطتي في الخلاف وعلى الفور قبلوها وفي نفس الوقت كتبت إلى "أولاد بالسباع" فأنا حليفهم وفي نفس الوقت أسيطر دون منازع على المنطقة فضربت لهم موعدا ليعيدوا بأنفسهم الجمال التي أخذوها إلى "تاشديت" وليس إلى "ولد سيدي" كما تريد "جماعة الأمراء" ثم انهيت رسالتي بالوعيد في حالة عدم الانصياع لأوامري.

وقد تمت تسوية كل شيء وأصبحت متأكدًا من أن الجميع أصبح يحترم قراري فهذه الفروع من "أولاد بالسباع" لديها الكثير من المصالح التي تدفعها إلى إظهار حسن النية في تعاملها معي من أجل محو الآثار التي خلفتها حادثة "المعزل" يوم 04 مارس والتي كادت أو تفسد علاقتي بهم رغم ما قدموه من تبريرات.

وهكذا استطعت في النهاية أن ألعب دور الحكم بين حلفائي معززا بذلك مكانتي كما أنني في حالة حدوث الأسوأ قادر على الانضمام إلى "ولد سيدي" عند عودتي من "دكانه" لأجبر "أولاد بالسباع" على الانصياع لأوامري وكنت متأكدًا من أنني لن أصل أبدا إلى هذه النقطة.

كنت يوم 14 ابريل في المذرزرة على الحدود الجنوبية لمنطقة إيكيدى في وديان واسعة طويلة تشبه وديان "لعل" ولكن لا تفصل بينها التلال كما هناك بل سهول وعرة.

أقمت على الحافة الجنوبية للوادي الكبير فوق قمة المنحدر وكنت أرى في الأسفل في الناحية الشمالية الغربية في المنخفض الرمادي مواقع الآبار و"مقبرة البيضان" تحت الأشجار الكبيرة ذات الأشواك الحادة¹³⁵، وقد أصبحت هذه المنطقة الهادئة وكرا لاثنين من قطاع الطرق هما: "ولد أحويد" و"ولد الديك" وقد كانا قائدين لأحد فروع "ارحاحله" الذين عاقبتهم عند "اعوينات" وكانوا جميعا من حلف "ولد سيدي".

¹³⁵ هذا وصف دقيق لمظاهر الطبيعة في المنطقة.

نحن الآن في اترارة الشرقية وقد بدت تضاريس المنطقة مختلفة تماما، فبدلا من التلال المترابطة في منطقة "إيكيدى" بدأنا نرى سلاسل الكثبان الطويلة الناعمة يغطيها بساط من الأعشاب الرفيعة المصفرة.

وحين ابتعدنا وجدنا سهلا مغطى بالأعشاب في جانبه الأيمن واحة نخيل مهجورة وأبعد من ذلك مررنا على بطن اثنتين أو ثلاث من البحيرات الجافة تغطيها أعشاب ما زالت خضراء وبعيدا من ذلك حقول واسعة من الذرة تمتد إلى سفح الجبل الذي تبدو فيه أطلال مركز "خيو" رغم أنه يعود فقط إلى سنة¹³⁶ 1902.

أقمنا مساء 15 ابريل عند "خيو" في مصب مجرى مائي¹³⁷ صغير تغطيه الأعشاب الخضراء وهو أحد مجاري فيضان نهر السينغال وقد التهمنا البعوض في هذا الموقع ولحسن الحظ هبت عاصفة وسط الليل خلصتنا منه.

وفي الصباح لم يعد يفصلنا عن "دكانه" سوى 12 كلم، كان الكثير من الحبش البري يتواثب أمامنا عن قرب تحت أقدام الخيول فاصطدنا منه الكثير ثم رأينا قوافل من الزنوج كل واحد يمسك بمقبض بندقيته على الكتف¹³⁸ متوجهين إلى الحقول تتبعهم الحسناوات الزنجيات وقد وضعن المحراث على العنق، تبادل هذا الجمع عبارات المزاج مع الخيالة المرافقين لي صاحبتها قهقهات متواصلة.

وعند الساعة السابعة شاهدنا في ناحية الجنوب دورا عالية رمادية اللون تحت الأشجار الكبيرة الظليلة ذات الخضرة الداكنة إنها "دكانه" وبعد ذلك بنصف ساعة عسكرنا على الضفة اليمنى حول منزل محصل الضرائب وهو من "البيضان" وكنا قرب حافة النهر فنقلنا مركب كبير يقوده اثنان من الرماة إلى الضفة اليسرى بينما ذهبت مواشينا إلى المرعى تحت حراسة فرقة الجمالة.

قائد المركز العسكري في "دكانه" في الوقت الراهن عريف من الوحدة الأولى من الرماة السينغاليين.

¹³⁶ هذا ما يحدث لبنايات الطين والخزف المجفف إذا فقدت الصيانة بعد تعاقب الأمطار.

¹³⁷ هو بالفعل أحد مجاري فيضان النهر وليس فرعا منه ففي فترة ارتفاع المياه تسير في المنبسطات غير العميقة وعند تراجع المياه تبقى محصورة في المنخفضات مشكلة ما يشبه البحيرة.س

¹³⁸ البندقية على الكتف: من أجل الدفاع عن النفس ضد غارات البيضان المحتملة، ولكن النساء هن من يقوم بحراثة الأرض فهن يحملن الأدوات.

وما كدت أبدأ إصلاح شأني بسرعة حتى رأيت صاحب المخازن المنحدر من الجزر الفرنسية وكنت قد عرفته منذ ثلاث سنوات في الصين عند "اكوانك اتشو وان" قادما يجري نحوي وقد دعاني هذا الرجل الشجاع بكل ود إلى مرافقته وقدمني إلى زوجته الجورانية.

لاحظت أن من استضافوني مذهبولين من مظهري بسبب لحيتي المهملة منذ 15 يوما وبشرتي الملفوحة بالشمس وثوبي من "الكاكي" الرمادي الوسخ ويدي اليمنى المعلقة بوشاح رمادي اللون وما أسرده من قصص اللصوصية كل ذلك يجعلني لا أوحى بالاطمئنان لجلسائي، وقد بدا ذلك بصفة خاصة على ملامح زوجة الرقيب، وعندما رأيت وجوه البيضان المرافقين لي ولحاهم وشعر رؤوسهم الأشعث، وسمعت أصواتهم المبحوحة حتى الحلق فاتحتني بصراحة بما يساورها من فرق وخوف جراء وجودنا.

أنا إذن أثير الفرع! ليكن، فسأحضر بهيأتي كما هي أمام الإداري الحاكم. فتم استقبالي بلباقة ودعاني لتناول الغداء في اليوم الموالي واتفقنا بأن أحضر مع رؤساء البيضان المرافقين لي جلسة نقاش بصفة رسمية لا تخلو من أبهة.

وفي المساء وجهت الدعوات إلى قبائل الجنوب العشرين¹³⁹ "أهل القبلة" المرافقين لي ومن بينهم "أولاد بنيوك" الذين تم إخباري بوجود ممتلكات "أحمد سالم" بحوزتهم وضربت لهم موعدا عند مقري على الضفة اليمنى. استيقظت متأخرا صباح يوم 17 أبريل فقد استحلّيت النوم على السرير الذي طال عهدي به.

وكانت جماعة "الأمرأ" قد تجمهرت حول نوافذي ومن بينهم "عثمان ولد إبراهيم اخليل" الذي لم يعد مريضا وهو يتشدد بثرثرتة. لا بد من أن أتهيا من حيث المظهر لمقابلة هذه الجموع وهو ما ليس بمقدوري فأنا ألبس ثوبا من كاكي باليا فوق جزميتين روسيتين ولكنني أحمل فوق صدري كافة الأوسمة ومن أجل اللياقة حلقت شعري ثم رغم الحر الشديد التحفت برنوسين معا أحدهما أحمر والآخر أبيض هذا كل ما بوسعي أن أفعله من التحضيرات.

¹³⁹ "الكبله" التفسير الذي أعطاه افرير جان للكبله باعتبارها قبائل الجنوب غير شامل فالكبله هي التسمية الذي يطلقها البيضان على المناطق الخصبة التي تغمرها مياه النهر سنويا على الضفة اليمنى وتسمى أيضا "شمامه" وكذا الحال على الضفة اليسرى ويزرعها الزنوج ولكن الأراضي في الغالب من ممتلكات البيضان وخاصة كبار القادة الدينيين فالشيخ سيديا بابا والشيخ سعد بوه يمتلكان أراضي واسعة في هذه المنطقة يشرف عليها مسيرون. وقد توسع افرير جان في دلالة الكبله فأطلقها على القبائل المنحدرة من هذه المنطقة وهي قبائل إما ذات بشرة سوداء أو يكثر فيها التمازج مع ذوي البشرة السوداء ومنها "أولاد بنيوك" القبيلة التي ينتمي إليها أكثر المترجمين والوسطاء الضروريين لتجارة الصمغ. (أنظر دراسة حول شجرة الصمغ العربي وتجارته في محطات النهر 1900 - 1946، ج. دزيري فيول مين: أطروحة ثانوية مرونة)

نزلت مشيرا إلى جماعة "الأمراء" وأوصيتهم بأن يلتزموا السلوك الحسن في حضور الحاكم الإداري وخاصة أمام القادة السود القادمين من الضفة اليسرى.

وبعد ذلك تقدمت نحو الإقامة ومن خلفي المترجم "اعبيدي" يطوقه الماكران: "اخيارهم" بلحيته الزرقاء بأقصى ما يكون و"عثمان" في ذروة كبريائه وهما يسيران بخطى متتدة ثابتة كأنهما كاهنان وهما يرتديان "برنوسي" قيادة الجمالة بلونهما الأزرق السماوي وشارتهما الفضية في حين كانت بقية جماعة "الأمراء" تتزاحم في الخلف شعثا غبرا كل واحد منهم منتفخ الصدر غرورا يريد أن يتقدم على مرافقه.

استقبلني عند مدخل حديقة الإقامة حرسيان أنيقان من حرس الدائرة ولم يسمحا بالدخول لغير القادة الذين كنت أعينهم بإشارة من يدي إذ ليس في هيئتهم ما يميزهم من الغوغاء المرافقة لي، في حين تجمع الباقون أمام الباب جالسين ومناكبهم محصورة بين ركبهم.

دلفت بصفة رسمية داخل مكتب الحاكم الإداري متقدما رفقتي من "النساء" كم هو الفرق شاسع بيني ومستقبلي وبين "أمرائ" ونظرائهم من زعماء الزوج من حوله، فهو رجل أنيق من صنف "الجندي ذي السمات الحسن" في هيئة العسكري الذي يرتدي لباس أحد الزواوي، قد حلق منذ وقت قريب وقد ارتدى بزة رائعة ناصعة البياض مرصعة بالزركشات الفضية والأوسمة الجديدة ذات الألوان البراقة، أما أنا فأقصر قامة قد لفحتني الشمس على من الثياب ما وصفته سابقا أحمل أوسمة ذابلة الألوان شاحبة بالية، وقادة الزوج مثل "امبكيو" و"امباريان" فهئتهم حسنة وقاماتهم سامقة عليهم ثياب فاخرة خضرا تتأثرت عليها شارات الذهب أما "أمرائ" فذوو قامات قصيرة وأجسام نحيفة جافة وبشرة مدبوغة تحت أشعة الشمس لهم وجوه كوجوه الطيور الجارحة وأحسنهم كسوة من يحمل فوق كتفيه برنسا حائل اللون كان من قبل أزرق بلون السماء فقد صباغته الأصلية تحت الأمطار المتعاقبة علقت به بقع بلون كل تربة تمرغ فيها لابسها في حله وترحاله وتعلوه شارات وأوسمة مطموسة اللون مثل شارة رتبتي المثبة على طرفي بزتي.

أنا أمام مواجهة بين عالمين متتافرين: أهل الحضر في مواجهة أهل البادية: من هنا ذوو البشرة السوداء ومن هناك ذوو البشرة البيضاء، بدأ اللقاء جافا بين عدوين تاريخيين، اليوم يتفوق الزنجي المقيم في الحضر صاحب اللباس الحسن والغذاء الجيد على البدوي الأبيض الفقير النحيف ذي الثياب البالية، ولكن أحفاد "الولوف" الذين طردهم "البيضان" منذ القدم من

الضفة الشمالية للنهر، مسكونون دائما بالخوف من أبناء قاهري أجدادهم، فجماعتي من "أولاد أحمد من دمان" تبدو في حضرة هؤلاء العلوج السود، كزمرة من الديكة الهزيلة القاعدة على شوكات أعقابها رافعة رؤوسها تحت الريح العابثة بأعرافها: إخوة "كاسكون الصغار".¹⁴⁰

تبادلت مع الإداري العام ادبيات التحية المعهودة في حين كان المعسكران يتواجهان بالنظرات في صمت مطبق ... ثم حانت لحظة التعارف .. وهنا تحلى "البيضان" بقدر أكبر من المرونة فقابلوا الطرف الآخر أثناء التعارف بالابتسامات والإطراء والانحناء وبدوا طبيعيين أكثر من الزوج.

ألقى الإداري خطابا مقتضبا رقت كلماته للسينغاليين¹⁴¹ حيا فيه نبلاء "أولاد أحمد من دمان" ورحب بهم وشكرني على إحضارهم، وختم كلامه طالبا منهم تقديم الشكاوى التي جاءت بهم إلى "دكانه" لقد لمس لب الموضوع وكانت أعصاب الجميع متوترة.

كانت المناسبة رائقة لدى البيضان المولعين بالخطب، أحيل الكلام إلى أكبرهم سنا "أخيارهم" فوقف على الهيئة المطلوبة ولف جسمه بالبرنس كحلة الأباطرة يخاله الرائي أسقفا، وكانت لحيته أشد زرقة من العادي، فلا بد أنه قضى الليلة السابقة بحكها بقوة على قماش "النيلة".

وبما أنه حافظ أكثر من غيره على اللباس الجديد الذي قدمته له، فقد حاز مكانة العميد وبدا الأكثر ثراء من أفراد الجماعة، وبالفعل تكلم بأسلوب رأسمالي، لقد كان خطابه بليغا ووثقا وطويلا كما يتناسب مع رجل طاعن في السن مثله، لقد كان خطيبا من "يمين الوسط".

حاول "أخيارهم" في مستهل خطابه أن يتكلم باسم الجميع ويدافع عن قضايا "البيضان" وحثهم ضد استيلاء الزوج على أراضيهم في الضفة اليسرى للنهر ثم ما فتى أن حصر كلامه على مصالحة الشخصية والمطالبة بإعادة النظر في قضايا المعروضة أمام القضاء، والتي صدرت بشأنها أحكام قضائية لدرجة أنه في نهاية خطابه ركز بإفراط على قضايا ومصالحه الذاتية، وطالب بصورة خاصة بإعادة النظر لصالحه في الأحكام التي صدرت في غير صالحه عن قاضي "دكانه" الزنجي، ثم طعن في نزاهة القاضي طالبا من قادة الزوج أن يشهدوا له وأشدت حماسه أمام وفود الزوج غير المتحمسين لخطابه، ليس حبا للقاضي وإنما

¹⁴⁰ إشارة من "افريجان" ربما دون أن يشعر، إلى قصة "سيرانو دوبرجيراك" لمؤلفها "دموند روستاند" التي لاقت سنة 1897 نجاحا كبيرا.

¹⁴¹ خطاب رقت كلماته للسينغاليين: لدى السينغاليين ولع بالعبارات الرنانة ولكن ليس هذا خلاصا بهم فكافة الشعوب الإفريقية تستحسن هذا الأسلوب.

كرها لرجل "البيضان" وانفعل لدرجة الغضب ولحيته الزرقاء ترتجف وعيناه تلمعان تحت حاجبيه الكثيفين وهو يتفوه بكلمات في إيقاع منتظم وفجأة هدأت ثورته وختم خطابه بنداء من أجل عدل فرنسا وقوتها ثم صمت وجلس.

على الفور وقف عثمان، إنه المتحدث الرسمي باسم جماعة "الأمرء" وهو أقل فصاحة وأقل بلاغة ولكنه أكثر هدوء وأقل مشاكسة وكان خطابه تأكديا وثوقيا كخطاب أحد الأعضاء المتطرفين في "الغرفة المفقودة" لقد كان خطابه دعائيا يفوح برائحة وضعه السابق وبشي بنواياه في النزوح إلى طرف آخر.

كان عثمان يلفظ الكلمات بأسلوب احتقاري متعالى يرصعها بالأقوال الحسانية المأثورة ولم يكن يقدم طلبات وإنما يطالب بحقوق، وأضافت مبالغاته نوعا من الإفراط على الحقوق التي تطالب بها جماعته، وكانت مطالبه ولهجته الازدرائية الحادة تثير إعجاب جماعة "الأمرء" فتصدر عنها إشارات بالأيدي وحركة الرأس تتخللها عبارة "هح" "هح" تعبيراً عن الموافقة والإعجاب بما يقوله تماما كما يفعلون مع المطربين أو من ينشدون شعرا في تمجيدهم.

لم يكن خطابا بل كان بيانا استفزازيا لدرجة الوقاحة وازدرائيا اتجاه قادة الزنوج الحاضرين الذين قابلوه تمتمات التذمر ونظرات البغض وقبضات أيديهم تتقبض بعصبية ممسكة بمقابض سيوفهم، كنا نشعر بوشوك انطلاق العاصفة والمترجم "عبيدي" ينقل الكلام جملة تلو الأخرى بأسلوب رتيب، وأنا وزميلي نصغي ونراقب في هدوء متدخلين من حين لآخر بكلمة إلى هذا الطرف أو ذاك.

وأنهى عثمان خطابه معيدا بصوت عالي قضية الأراضي الزراعية وكأنه لم يكن يتكلم إلا عن تسويتها، فوقف الجميع وارتفعت أصوات كل طرف بالتحدي والشتائم اتجاه الطرف الآخر. كان كل حلف متحفزا ضد الآخر ولب المسألة يدور كله حول قرارات القاضي كغيره من القضاة في ذلك الوقت ولكن الزنوج كانوا يدافعون عن قضيتهم بصفتهم من ذوي البشرية السوداء في مواجهة "البيضان".

انهينا الجلسة وكانت كلمة الختام مع الإداري الذي أعلن ببرودة أن جميع القضايا المثارة من اختصاص القضاء ولا هو ولا أنا نستطيع البت فيها لأن صلاحياتنا تقتصر على حفظ النظام، لقد كنت أتوقع منذ انطلاقنا من "أخروفه" أن يقع مثل هذا الرد في مسامع "الأمرء" ليكفوا، ولو مؤقتا، عن عرض مطالبهم. كانت النقاشات قد دامت طيلة ثلاث ساعات، لم يجد

"أولاد أحمد من دمان" ما يلاحظونه علي، فتعهدت لهم بعرض مطالبهم، المسببة وغير المسببة، أمام الحاكم العام عن طريق "كوبولاني"، ثم صرفتهم عني.

لم تحصل جماعة "الأمرء" على ما كانت تريده من التسوية النهائية بقرار لصالحها بشأن المسألة، إلا أن قضية الأراضي الزراعية على الضفة اليمنى قد أخذت طريق المعالجة المنصفة بقرار سيخذه "كوبولاني" الذي يدرس حقوق "الأمرء" بعناية بهدف الاعتراف بها من جهة، ومن جهة لم يصدر قاضي "دكانه" منذ ذلك الوقت، حسب علمي، أي حكم في هذه المسألة .. وذلك ما يريده "البيضان" في نهاية المطاف، ولكنهم كانوا يتوقعون أن يكون انتصارهم مدويا صاخبا، ولذا لم يكونوا مرتاحين بسبب إفراط مطالبهم فرغم كون ما حصل يحفظ مصالحهم، فقد غادر الكثيرون منهم غاضبين لأن الأمور لم تتم بالصورة التي تمنوها.

قضينا الليلة الموالية في أحاديث متشعبة مع البيضان أمام بوابة المركز العسكري على حافة النهر تحت أشجار القابوق¹⁴² الضخمة .. وكانت أفواج المتسولين الملحاحين تترى دون انقطاع كل لحظة حتى انهكني التعب وبح صوتي من فرط الكلام ولا بد من الانتظار وكسب الوقت فليس بوسعي غير ذلك ، لقد اقتنع الجميع بحسن نيتي وهدأت النفوس بعض الشيء.. علمت يوم 18 ابريل أن وفود "أهل الكبله" قد حضرت عند معسكري على الضفة اليمنى، وقد وصل ممثلون عن قبائلهم الرئيسية: "أولاد بنيوك"، "أولاد بوعلي"، "أولاد اخليفه"، "زيلوفه"، "زمبوتي"، فعبرت النهر لاستقبالهم، وهي المرة الأولى التي ألتقي فيها قبائل جنوب "اترارزه" أو "أهل الكبله" وهم أكثر وضوحا في تصرفاتهم وأكثر صراحة وتحضرا من قبائل شمال "اترارزه" وهم بالطبع أكثر خبرة في التعامل مع الفرنسيين¹⁴³، ولكنهم مع الأسف أكثر منهم تأثرا ببعض المواقف السائدة في "سانلويس" ولكن مصالحهم على العموم متشابكة مع مصالحنا: فجميعهم تقريبا يعملون في تجارة الفول السوداني وحراسة القوافل والترجمة بين المتعاملين¹⁴⁴،

¹⁴² أشجار ذات جذوع طويلة وقشرة سوداء لها أشواك حادة تعطي أغصانها الملفة ظلا كثيفا يجتمع تحتها الناس يتجادلون أطراف الأحاديث ساعات طوال حتى قيل "شجرة الجدل" تحتوي ثمرتها على كتلة قطنية.

¹⁴³ هذا صحيح فعلاقات الفرنسيين بالبيضان كانت، حتى قوم كوبولاني، محدودة جدا، وحتى قبل "فدرب" فالامتيازات العرفية التي كانت تمنح لأمير "البراكته" كانت تدفع لرئيس "أولاد السيد" الفرع الأصغر من الأسرة الأميرية بدل "أولاد نغماش" وطبعا كان المستفيدون من الخطأ حريصين على عدم توضيح ذلك للحكام في السنغال الذين رجحوا من حيث لا يدرون كفة الفرع الأصغر أما "بيضان الشمال" فالمقصود هو بيضان شمال "اترارزه".

¹⁴⁴ لقد احتفظت التجارة داخل البلاد بطابع قديم جدا حيث كانت في مطلع القرن العشرين ما زالت مشابهة تماما لما كانت عليه في القرن الثامن عشر، ف كبار التجار من أهل "سانلويس" يسلمون بضائعهم لمسوقين من أهل المنطقة يقومون ببيعها أو مقايضتها مقابل نصيب من الريح ثم يشتري كبار التجار من هؤلاء المسوقين ما لديهم من سلع محلية (صمغ عربي، فول سوداني... إلخ) ويدفعون لهم الثمن نقدا أو من البضائع، فمصالح

ويمارسون في منطقتهم تربية الأبقار والخيول والضأن ولكنهم لا يهتمون بالإبل، ويشتهر "أهل الكبله" بالبسالة في الحرب وتبدو الميزة هذه صحيحة بدليل الأدوار الحاسمة التي لعبوها في الصراعات التي عرفتها منطقة "اترارزه" في الفترات الأخيرة، فهم يمثلون الذراع القوية لدى أمراء "اترارزه". وعلى كل حال بقيت حائرا أمام سلاسة وسهولة تعاملهم معي على النقيض من خجل "ولد سيدي" وتوحش "مولاي". هؤلاء هم قاداتهم: أولاد "المختار ولد محمد علي" رئيس وفد "أولاد بنيوك" وقد عايش الفرنسيين كثيرا فقد تعامل مع "فدرب" حين كان هذا الأخير ما زال برتبة نقيب.

وربما يكون الآن في الثمانين من عمره، هذا الرجل الغريب ذو القامة القصيرة يبدو نشطا صلبا ونحيفا يتحرك شعره الأبيض المائل باتجاه الريح عندما يتكلم وهو يصلح لتمثيل دور النقيب "لاربيت" بدون عينه المحقونة بالدم، تتم نظرتة عن صرامة وهو خلاسي من أب أبيض وأم سوداء.

لقد ارتحت له منذ الوهلة الأولى، وكانت جماعة "الأمراء" حاضرة وقد لاحظوا الأثر الذي أحدثه عندي حضور قائد "أولاد بنيوك" ولم يفت عليهم الانطباع الحسن الذي أصبح يتمتع به عندي، فقد تأكدت من أن "المختار" هذا لن يكون فريسة سهلة أمام هؤلاء، أما قادة وفود أهل "الكبله" الآخرين فقد بدوا أشخاصا عاديين.

وبعد المقدمات المعهودة ومراسم التعارف بدأ الحديث وقد استهله "الأمراء" بنبرة التعاضم المعهودة لدى من هم في هذا المستوى من العراقة. ولكن هدوء الجلسة لم يلبث أن تبدد حين حاول "الأمراء" التلميح إلى أن "أولاد بنيوك" يتبعون لهم، فقد ادعى كل من "عثمان" و"ولد لداره" أنهم من أتباعهم مثل "آزناكه"¹⁴⁵ وما كاد عثمان ينطق لفظ "آزناكه" حتى انتصب العجوز "مختار" واقفا كأنما تحته قوة رافعة ولحيته تهتز تحت الريح واضعا أصبعه في عصبية تحت أنف "عثمان" وهو يقول بلغة فرنسية جيدة "لا لا يا صديقي! كنا فقط مع

صغار الباعة شديدة الارتباط إذن بمصالح تجار "سانلويس" ومن هنا حرص أصحاب التجارة على التأثير على مجرى الأمور السياسية، وتجار "سانلويس" لا ينسون أن تعيين النقيب "فدرب" حاكما عاما للسينغال قد تم إثر عريضة وجهوها إلى وزير البحرية ...
¹⁴⁵ "آزناكه": أتباع من أصل "صنهاجه" أي من البرير، وفي هذه الواقعة بالذات تريد جماعة "الأمراء" أن يقولوا إن قبائل "الكبله" من ضمن القبائل المهزومة في حرب "شريبه" فرد المختار في محله حين قال: "نحن من أبناء العرب مثلكم" وهو يذكر بأن أبناء العرب حتى وإن كانت أمهاتهم من الزنوج (فهم يحتفظون دائما بالنسب النبيل لأبائهم) وأن قبائل "الكبله" هي من "حسان" لم ينتبه "افريرجان" لهذه النزعة "العنصرية" القائمة، ليس على اللون وإنما على الأصل البعيد

الأمير، ولسنا معكم أنتم، نحن أبناء العرب مثلكم، ونحن الآن تحت سلطة الفرنسيين ولا نتبع لأحد غيرهم، "طبعاً كان العجوز على حق" فضحك عثمان ضحكة صفراء ... فأدركت أن من الخطير ترك الحديث يتواصل فتناولت الكلام بصرامة وذكرت جماعة "الأمراء" بأن الموضوع لا يمكن أن يكرس لمطالبهم الطموحة.

عدت إلى "دكانه" واستدعيت وفود أهل "الكبله" لمعرفة مكان ممتلكات "أحمد سالم" التي حدثني "ولد لداره" عن أمرها ونحن في "أخروفه" ولتوضيح هذه النقطة بالذات كنت قد استدعيت "أولاد بنيوك".

وبناء على طبيعتهم الاندفاعية ككل "البيضان" كان "أولاد أحمد من دمان" يعتقدون أن الأمور ستجري حسب ما أرادوه، فقد كانوا متأكدين من أنني، لن أطلب أي توضيح وأوجه إلى أهل "الكبله" أوامر صارمة، لن يستطيعوا تنفيذها لأنها تتعلق بأشياء لا وجود لها أصلاً.

لقد احتسبوا الأمر قد انتهى ولم يبق إلا أن يتفرجوا علي وأنا أتصرف لصالحهم ضد قبائل هي الوحيدة من بين "اترارزه" التي تربطها المصالح بنا منذ تاريخ أصبح قديماً جداً إنها حالة تذكر بحكاية "برتراند" و"راتون".

قوس "المختار" حاجبي عينيه كهلالين وهو يصغي لما أقوله بشأن ممتلكات "أحمد سالم"، وفور اللحظة الأولى أحس بالفخ، وقبل أن أنهى كلامي، قفز وجلس القرفصاء أمامي وأخذ يصغي غير مكترث بالحاضرين ثم أمسك بأصابعي وضمها في يده ثم أخذ يعدد براهينه على طريقة "البيضان" وهو يمد مع كل برهان أحد أصابع يده الأخرى كما لو كان يريدني أن أضبط عددها، فتركته حتى انتهى وأدركت انه محق فيما يقوله.

ولم يمض وقت طويل حتى اتضح لي بما لا يدع مجالاً للشك أن ممتلكات "أحمد سالم" المزعومة التي أخبرتني جماعة "الأمراء" أنه أودعها لدى "أولاد بنيوك" ليست سوى ما تبقى من هدايا كان "أحمد سالم" قد أهداها في السابق للمخلصين له من أهل "الكبله" في وقت كان فيه "أولاد أحمد من دمان" يعادونه.

والآن يفتقر "أولاد أحمد من دمان" إلى القوة والجرأة على المغامرة بأنفسهم لمحاولة انتزاع هذه الهدايا من أهل "الكبله" ولهذا حاولوا دفعي لأنوب عنهم في مواجهة خصومهم القديماً لانتزاع هذه الممتلكات أو على الأقل أكون في صفهم.

لقد قدم "أحمد سالم" هذه الهدايا لأهل "الكبله" منذ سنوات عديدة وكانوا قد انفصلوا عنه منذ زمن طويل بعد ذلك حين اختلف معنا، فذهابي إذن في اتجاه ما دبرته جماعة "الأمرء" سيكون ظلما بل وأخطر من ذلك سينم عن عدم حنكة سياسية.

ولحسن الحظ كشفت بلاغة كلام العجوز "المختار" حقيقة هذه المكيدة المدبرة بإحكام، وبذلك تفاديت الوقوع في غلطة لا تغتفر، سأبقى ممتنا لأهل "الكبله" على صراحتهم وعلى العكس من ذلك اشتد غضبي على جماعة "الأمرء" الذين منذ عرفتهم يدفعونني من عقبة إلى أخرى، انتقلت بعد الزوال إلى الضفة اليمنى لاستقبال وفود "زمبوتي" و"أولاد اخليفه"، والآن قد أصبح كل شيء على ما يرام، فعلاقتنا مع هؤلاء الشجعان "أهل الكبله" سنتسم من الآن فصاعدا بالمسالمة والصدائة، وقبل حلول الليل انتقلت إلى المركز العسكري.

حرص "الأمرء" رغم فشل مساعيهم، على عدم إظهار الانزعاج فتحملوا الهزيمة في صمت وانضموا إلى موكبي من النهر حتى المركز حيث رافقني ثلاث مائة من "البيضان" على الأقل. تلقيت بريدا يوم 19 ابريل من "سان لويس" فقد قرروا أخيرا الاستجابة لاثنتين من طلباتي هما تزويد أنواكشوط بمخزن للمؤن الغذائية أكثر اتساعا والإسراع بإرسال باخرة مؤن إلى المركز (في نهاية مايو) وأخيرا أرسلوا لي النقود 10 آلاف فرنك (مبلغ لا يسمن ولا يغني من جوع فنحن مدينون بكل هذه النقود).

كانت قافلتني جاهزة يوم 20 إبريل وعند الساعة الثانية بعد الزوال اتجهت نحو "أخروفة" مرورا "بخيو" توقفنا للمقيل يوم 21 إبريل عند "بوطريفيه" في الطرف الشمالي لمنطقة "شمامه" وجدنا آثار أسد¹⁴⁶ في المنطقة وفي المساء تلقيت رسالة من النقيب المقيم في "أترارزه الشرقية" الذي ينتظرنني في "المذرره". وما زالت "أترارزه" الشرقية تعيش الاضطرابات ففي يوم 13 إبريل قام 40 من "أولاد الفاعي" من أتباع "أولاد دمان" بهجوم في "شمامه" على قرية "ناولي" وقد صدهم أهل القرية من "البولار" فذهبوا للهجوم على قرية "دار السلام" وسقط أثناء المعركة قتيل من كل جانب. قدم النقيب المقيم في "سهوة الماء" إلى "المذرره" بأكثر من 100 مسلح أي 70 من الرماة وفرقة الجمالة بقيادة الرجل المعروف "المختار ولد

146 - بعد هذا التاريخ بأقل من خمسين سنة انقرضت الأسود تماما من إقليم ضفة نهر السنغال بسبب الإفراط في الصيد

امبارك" من " أولاد دمان". وأخيرا بعث "كبولاني" أوامره إلى زميلي وفي الخلاصة يعطي التعليمات بأن نتفق على كيفية حفظ الأمن في مناطقنا وهذا سهل من الناحية النظرية ولكنه صعب عند التطبيق، فلا بد أن يسمح كل واحد منا للآخر بملاحقة العدو داخل منطقتة كما فعلت أنا في شهر مارس الماضي. بينما كان زميلي متوجها إلى الجنوب الشرقي يوم 23 إبريل زحفت أنا باتجاه " أنبيكه" حيث كان " ولد سيدي" قد وصل صحبة حارس واحد من مخيمه الموجود في ذلك الوقت عند " أحسي معروف" لقد أصبح إذن مطمئنا تماما ورغم قلة ذكائه فقد كنت مرتاحا للتعارض بين سذاجته وأوهامه الطفولية في بعض الأحيان بإيعاز من جماعة "الأمراء" وعلى كل حال يبدو أنه يبادلني مشاعر الصداقة التي أكنها له. استدعيت عند نفس البئر " سيد ميله" الرجل الذي خان " أحمد سالم" في منطقة " لعقل" وأنا أعرف أنه منذ اضطرابات 1902 قد شارك في الكثير من الدسائس في منطقة " أترارزه" وسأنذره بضرورة تغيير سلوكه على الأقل اتجاهي أنا وحلفائي. وجدت فيه شخصا مغلقا ساخرا مستعدا حسب رأيي لبيع " ولد سيدي" كما سبق وأن باع " الأمير السابق". و"سيد ميله" هو أخ "بوبر" سيره" و " سيد أحمد ولد الحسن" من أسرة " أهل التونسي" وهذا هو مصدر غروره لأن لهم مكانة هامة في " الترارزه". لدى "سيد ميله" عينان تترقبان في ترصد دائم فإذا كان عثمان يمثل الذئب و"ولد لداره" يمثل الثعلب فإن " سيد ميله" المعروف بالغدر يمثل "الضبع"¹⁴⁷ وهو شخص يثير النفور بالنسبة لي.

يبدو أن "أخيارهم" قد عقد اجتماعا ما مع " سيد ميله" قبل مقابلتي لهذا الأخير فحين غادرني " سيد ميله"، تردد " أخيارهم" بعض الوقت قبل أن يطلب مني الإذن بالتغيب على أن يلتحق بي في " أخروفه" وبالتأكيد لا بد أنه ذاهب لتدبير الدسائس مع " سيد ميله" فتركته يذهب ولكنني قررت التزام الحذر من هذه الناحية. طبعا أكد لي " سيد ميله" أنه لا يحرص إطلاقا على " ولد سيدي" (الذي من أجله خان " أحمد سالم") كما أنه لا يحرص على أي قائد آخر من "البيضان" وإنما هو حسب قوله حليف حقيقي للفرنسيين ولهم وحدهم... وحقيقة الأمر أنه لا يحالف سوى ذاته، فليغرب عني بوجه الخيانة الذي يحمله، إنني أبغض هذا الرجل.

¹⁴⁷ - تماما مثل " البيضان" الساخرين المولعين بإطلاق الألقاب الحيوانية، لدى " أفريجان" سجله الحيواني الخاص لغرض الاستخدام الداخلي، ولكن إذا كان الثعلب في الأساطير الفرنسية يمثل الخبث فإن صديقه الإفريقي "ابن آوى" هو الأبله الشره الجبان المخدوع دائما، ولكن من يخدعه؟ إنه الأرنب الذي يمثل في حكايات الساحل الاحتياطي والمكر. أما الضبع فيمثل الغدر والشره .

وصلت " أخروفه" يوم 24 إبريل وجدت أضرحة مناسبة قد أقيمت لقتلى " لتاكالات" فطفت حولها بجميع من معي تكريما للقتلى وكان لهذا الاحتفال اثر جيد على جميع الحاضرين بيضا وسودا. وجدت في المركز إخوة "ولد بويدف" قادة " أولاد أحميده" أحد فروع " أولاد بسبع" الجنوب أخبروني أنهم فور استلام رسالتي قد أعادوا العشرين جملا المسروقة إلى " تاشدبيت" وقالوا لي إنهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك أبدا لو تطلب الأمر تسليم الجمال إلى " ولد سيد" كما كانت تسعى له جماعة "الأمراء" وأخبرني " أولاد بسبع" إنهم حرصوا على إرضائي شخصيا ويسعون كذلك إلى جعلي استمع إلى حجتهم بشأن حادثة 4 مارس عند "المعزل" وأخبروني إنهم قد قاموا بالتضحيات فقد جمعوا في ما بينهم الأموال الضرورية لدفع ديات القائدين القتيلين إلى أهلهم وبما أنهم ينتسبون إلى " الشرفاء"¹⁴⁸ فدية الواحد مئة جمل وبما أنهم قد دفعوا الديتين المستحقتين فلم تعد توجد مطالبة تتعلق بالدم بيننا وبين " أولاد بسبع" الجنوب وبالتالي لا وجود لحقد ولا انتقام بيننا.

لقد قرر " أولاد بسبع" بسبب قتل " كنته"¹⁴⁹ لأفراد من شبابهم عند " شكار" (لبراكنه) أن يتوجهوا إلى الشرق للهجوم على "كنته" ليقينهم أنهم يتبعون للأمير " أحمدو"، المعادي لنا والذي يوجد في حالة حرب مع " كبولاني".

سيمر " أولاد بسبع" عبر " اترارزه" إذا لم أمنعهم ليواصلوا السير ضد أعدائهم التاريخيين ولا أرى ضيرا في ذلك فهذه الرحلة ستمثل انشغالا لهؤلاء الحلفاء المشاغبين كما أنهم بسلاحهم المتطور سيهاجمون أعداء "كبولاني" دون أن يكلفنا ذلك شيئا فكتبت إذن إلى "ولد سيدي" أمره بتقديم الدعم " لأولاد بسبع" الجنوب بشرط أن يعبروا المنطقة دون القيام بأي نهب. ومن الغد حل 150 من " أولاد بسبع" ضيوفا على " ولد سيدي" وصرحوا بأنهم تفاقدا لإحراجي لن يأخذوا جديا واحدا من مخيمات " اترارزه" وحين تأكد " ولد سيدي" من ذلك أمر الزوايا بإمدادهم بالأغذية والمطايا عند الحاجة كنت مستريحا يوم 25 إبريل عند " أخروفة" معنى ذلك أنني كنت أسدد الديون لأصحابها من الأموال التي قدمت من " دكانه" ومن الغد حضر

¹⁴⁸ - الشرفاء (مفردا شريف) المنحدرين من النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة. وتختلف قيمة الدية حسب المكانة الاجتماعية للقتيل وفي الحالة التي يتحدث عنها "أفريرجان"، القتيلان شريفان وقد قتلها " أولاد بالسباع" أي شرفاء مثلهم و" أولاد بالسباع" رغم أنهم شرفاء هم كذلك مقاتلون أشداء كل هذا يدل على أن إرادتهم الحسنة قد وجدت صدق لدى أولياء دم القتيلين.

¹⁴⁹ - " كنته": قبيلة كبيرة أو بالأحرى مجموعة قبائل تتوزع على طول الصحراء الغربية ولكن أعضائها يحتفظون بروابط قوية وهم من أصل عربي وينسبون أنفسهم إلى " عقبة بن نافع" كما اختلطوا على مر القرون بقيادة قبائل " البربره" عن طريق التزاوج وهم متدينون وأهل ثقافة (زوايا)

أمامي قادة " غزي"¹⁵⁰ "أولاد بسبع" يشكروني على الدعم الذي قدمته عن طريق " ولد سيدي" وأخبروني أنهم إذا تطلب منهم الانتقام التوغل داخل " تكانت" وحتى داخل " الحوض" فسيفعلون ذلك إذ يوجد بعض " كنته" هناك.

و " أولاد بسبع" من محترفي السير في القوافل ورحلات التجارة فهم لا يملكون إذن من الإبل سوى ما يلزم لحملهم وبضائعهم فقط أثناء الرحلة لأنهم عند الوصول يبيعون البضائع والإبل فهم لا يمتلكون الحيوانات باستثناء بعض قطعان الضأن ولكنهم ملزمون اتجاه إخوتهم الذين قتلهم " كنته" بأن يسيروا لأخذ ثأرهم. إلا أنهم لا يمتلكون المصادر الضرورية لهذه الرحلة الطويلة فيتوجهون إذن إلى أغنياء الزوايا ليتحملوا عنهم هذا الجانب وما داموا في " اترارزه" مع الزوايا الممثلين لأوامر " ولد سيدي" فالأمور على ما يرام ولكن ما ذا سيحدث بعد ذلك؟¹⁵¹ فلن يجدوا بدا من النهب خاصة وأن الزوايا وبالذات الأثرياء منهم لا يعطون عن طيب خاطر ولدي تجربة في ذلك.

من أين لي تسوية هذه القضية؟ فرغم أنني لا يمكن أن أرخص لحلفائي في ارتكاب النهب فليس بوسعي كذلك أن أعطيهم الأغذية ووسائل النقل من أين لي ذلك؟ على كل حال، لهم أن يتدبروا أمرهم ماداموا سيمتتون عن النهب طيلة وجودهم في المنطقة الخاضعة لنا نحن الفرنسيين، ولا يهمنا إن هم عاثوا فسادا في " تكانت" التي لم ندخلها بعد. لقد أرسل إلي "أهل الكبله" بدورهم وفودهم ليس من أجل الانضمام إلى حلف "ولد سيدي" ولكن ليتصالحوا رسميا معه عبر وساطتي فقد ساروا منذ زمن طويل مع " أحمد سالم". فطلبوا قدوم "ولد سيدي" وقدمت له هؤلاء الوفود. صرحوا بأنهم مخلصون للفرنسيين وهدمهم حيث توجد جميع مصالحهم وبما أن الفرنسيين هم الآن أصدقاء " لولد سيدي " فأهل الكبله" بدورهم يفتنون فرصة المصالحة مع هذا الأخير إذا كان يريد ذلك.

لقد فاجأني أن "ولد سيدي" رغم خطاب " أهل الكبله" المسالم وما أبدوه من رغبة في المصالحة، فقد استقبلهم ببرودة وأدركت أنه إنما تصنع الهدوء بسبب حضوري فلا شك أن جماعة "الأمراء" قد أفسدته فحرص على عدم مخاطبة قائد الوفد " المختار ولد محمد علي" فلم يقل لا ولا نعم.

¹⁵⁰ " غزي" فرقة صغيرة من الرجال المسلحين أثناء السفر أو البحث أو السطو ويستخدم اللفظ غالبا للسطو .

¹⁵¹ - كل هذا المقطع ترجمة دقيقة لدفاع " أولاد بالسباع" عن قضيتهم لدى " افريرجان" .

كنت قد أبعدت " أولاد أحمد من دمان" عن هذه المقابلة لأن أهل " الكبله" يريدون مقابلة " ولد سيدي" وحده وهذا هو سبب انزعاجه ولكن باتخاذي لمثل هذا الإجراء الاحترازي تقاديت حدوث مواجهة مؤكدة كان "الأمراء" يعولون عليها. ومن جهة أخرى يبدو " ولد سيدي" مقتنعا "بحقه" لدرجة أنه لم يستوعب لماذا لم أعتبر " أهل الكبله" خاضعين لسلطته كما هي الحال بالنسبة لجميع " أهل اترارزه" .

أحسست بأن هناك من يدبر لتقويض التفاهم القائم بيننا فقد علمت في " دكانه" أن " أولاد أحمد من دمان" وعلى رأسهم " عثمان" يسعون لفصل " ولد سيدي" عنا بحجة أنهم لا يستطيعون العيش مع الفرنسيين فلا بد إذن من أن أكثف العمل لاسترجاع ثقة " ولد سيدي" هذا أيضا أحد مآخذي على جماعة " الأمراء" ولن تتقصني المآخذ عليهم.

وفور اكتمال تموين "أخروفه" لم يعد عندي ما أعمله هناك فأوصيت الرقيب الدرقي " رافين" على الاعتناء " بولد سيدي" الذي يشعر بالارتياح معه لإعجابه الشديد بسلوكه لأن " رافين" رجل مهذب وهذا النوع محبوب لدى " البيضان"¹⁵² كما أن انضمام " ولد سيدي" إلى حلفنا من إنجازنا فأننا متأكد إذن من أنه سينجح في كسب ثقته.

أما أنا فسأتوجه إلى أنواكشوط لتحضير مغادرة فرقة الخيالة ومن أجل إعداد تموينات المركز عن طريق البحر فقد علمت بأن المركب في الطريق وفيه مجموعة من الرماة التابعين لمركز أنواكشوط ، حيث سيرسل "الشيخ سعد بوه" 50 جملا التي طلبها " كبولاني" في شهر مارس. وفي طريقي إلى أنواكشوط سأمر بـ " النمجاط" فقد ذكر لي "أعمر الأعرج" هناك مع 30 من المسلحين عند " بير إديسات" فلا بد من إبعاد خطره فمجرد حضوري يكفي لتحقيق ذلك، كما أن "الشيخ سعد بوه" قد استقر بمخيمه في هذه الناحية منذ فترة قصيرة فلا بد إذن من زيارة "الأسقف" فلا يمكن أن يقيم بالقرب من " أخروفه" دون أن أذهب للتعرف عليه كما أن لدي مسائل أخرى سأناقشها معه توجهت إلى " النمجاط" وفي الطريق التقيت ابن أخ الشيخ كان هذا الأخير قد أرسله في استقبالي من أجل التحية (ومن أجل الاضطلاع على حجم الوفد المرافق لي) وبعد قليل وصلنا. وبعد أن حددت مكان النزول سارعوا بتقديم الخيام الشهباء من وبر الضأن بالعدد الكافي لي أنا ومن معي كما بعثوا بهدية من ثلاثة ثيران. وتم نصب الخيام

¹⁵² - رغم الاختلاف في بعض التفاصيل توجد لدى "البيضان" قواعد للأداب وحسن المعاملة لا تقل لباقة عن ما عندنا.

بسرعة وأرسل الشيخ يسألني هل ينتقل لزيارتي أم أتوجه إليه في مقره فأعدت له الجواب بأني أنتظره بعد الزوال تحت الخيمة التي تفضل بإرسالها إلي. وعند الساعة الخامسة مساء طلع الشيخ من بين الأشجار يتقدم بأبهة وخلفه نحو الخمسين من "اتلاميذ".¹⁵³ وقد نزل من فوق جملة بطريقة خاصة فلم يحتج إلى أن يبرك¹⁵⁴ الجمل فقد تقدم نحوه العشرة من ذوي القامات والعضلات القوية ومدوا أذرعهم وهكذا أنزلوه واقفا على قدميه بسهولة. ولا تتسوا أنه بدين ولا شك أن له وزنا ثقيلًا. وبهيئته المهيبة تقدم إلى خيمتي فخرجت في استقباله بعد أن أعددت المقاعد أخبرني أنه كان يستعد لزياتي في "أخروفه" ولكنني سبقته. كان رجلا متوسط القامة ضخم البطن ثيابه بسيطة ونظيفة مثل الموسرين من "البيضان" ليس في لباسه ما يلفت النظر سوى "شاشية" فوق رأسه يحيط بها لثام أبيض وقد رأيت هذا النوع من العمام من قبل في "أنواكشوط" عند "الشيخ عبد الله" والفرق الوحيد هو أن "شاشية" الشيخ سعد بوه "نظيفة وهو يخفي نصف وجهه تحت اللثام"¹⁵⁵ ويبدو على ملامحه أن أمه سوداء البشرة. وما أن استقر "الشيخ" في مكان جلوسه وسط مرافقيه ومن حولهم جماعتي حتى بدأ الجميع يتزاحم على تقبيل يده وبعد قليل أتعبته هذه الحركات فطلب مني إبعاد الجميع فأشرت على اثنين من الرماة تمكنا بمشقة من إبعاد المتزاحمين. ألاحظ أولا أن الشيخ يبدي نحوي كثيرا من الود وكان معنا أثناء الحديث الملازم القائد الجديد لفرقة الرماة المحمولة والمترجم. وبعد أن تم إبعاد من كانوا يتزاحمون حولنا استأنف الشيخ من جديد سرد كلمات التحية المعهودة التي قالها لي منذ بداية اللقاء وبعد هذه المقدمة اللازمة في كل حديث لدى "البيضان" والتي تدوم نحو دقيقتين أنهى كلامه بعبارة "الحمد لله" منهيًا هذه الافتتاحية ثم بدأ خطابه ولا شك أنه قد حضره: فمنذ 30 عاما و"الشيخ سعد بوه" يقدم الخدمات للفرنسيين فكبار المستكشفين الذين زاروا المنطقة مدينون له بنجاح مهماتهم: مثل "صولي" الذي دافع عنه بقوة السلاح وخلصه من قبضة "أولاد أدليم" و"فابير" (ويسميه "سيدي فابير") الذي استضافه في منزله عند

153- "اتلاميذ" (مفردها تلميذي) تلميذ المعلم أو الشيخ.

154- يستخدم المؤلف نفس اللفظة بالفرنسية للدلالة على نفس المعنى.

155- الثياب التي وصفها "أفريجان" هي ثياب شيوخ الدين (لباس بسيط وعمامة تحتها شاشية) ووضع اللثام عادة بربرية (تشبه ما يوجد عند الطوارق) وقد احتفظت بها قبائل الزوايا المنحدرة في أغلبها من أصل بربري).

أتويزكت" و " أبلانشي"¹⁵⁶ الذي فداه من عند أهل " آدرار" يشهدون على إخلاصه. طبعاً ولكن له أيضاً علاقات وطيدة مع " أهل سين لوي": فقد سرد لي أسماء جميع الوجهاء من " البيض" ومن الخلاسيين الذين يعرفهم في هذه المدينة حتى أنه ذكر بعض الزنوج أصحاب النفوذ وبعد أن تأكد من تأثير خطابه علي توقف وتركنا نفكر في قوته ونتدبر الدعم الذي يعول عليه وأهمية الخدمات التي أسداها لنا.

" والآن يضيف، هاهو أحد نبلاء " أترارزه" من أتباع صديقك " ولد سيدي" قد نهب ممتلكاتي و كأنني لست مخلصاً ! نعم، أشكو من " ولد ابراهيم عيشه" هذا الرجل رغم معرفته ليس مسلماً حقيقياً فقد انتزع مني، "أنا مسكين مولان"¹⁵⁷ 28 ثورا ونفس العدد من الحمير أطلب منك أن تسترجعها لي فما ذا ستفعل؟ أنت قوي!" عرضت عليه أن استخدم لتسوية هذه القضية إما " أخيارهم" وإما " ولد سيدي" نفسه ولكن من سوء الحظ أن الاثنين من أتباع "الشيخ سيديا" المنافس في النفوذ للشيخ سعد بوه.

" لا ! قال بصوت مرتفع وقد ضرب حرقفته بيده، أنا أتوجه إليك أنت، كيف يحدث هذا لقد فعلت ما لا يليق من أجل الفرنسيين وقدمت لهم كل شيء والناس في المنطقة يسمونني "أمربط أنصاره" فأقل شيء هو أن يدافع الفرنسيون اليوم بصفة مباشرة عن مصالحهم فممتلكاتي قد تم نهبها بغضا لكم وقد تم طردني من المناطق التي أحب الإقامة فيها، لذا أتوجه إليكم وإليك أنت بالأخص لأن الله قد منحك قوته وأريد أن تأخذ لي ممتلكاتي من هذا المنبوذ "ولد إبراهيم عيشه".

وزاد على ذلك بأن أعلن بأنه إذا لم أفعل ما يريد فسيكون مجبراً على مغادرة المنطقة نهائياً فسيصبح العيش فيها مستحيلاً بالنسبة له لقد بدا الرجل الضخم منفعلًا جداً ويتكلم بنبرة الواثق وفي النهاية سأفعل ما يريد: وعدته بأن أكلف الرقيب الدركي " رافين" بتسوية المسألة وأعطيت للمعني الأوامر بذلك. كان ذلك كافياً لأن يتهلل وجهه ويمطرنى بوابل من عبارات الشكر والمدح. وبعد تسوية هذه النقطة اعتقد أنه أصبح بإمكانني أن أوجه له بعض الأسئلة:

¹⁵⁶ - "صولي" قام بمحاولة استكشافية في " آدرار" من أواخر 1879 إلى مايو 1880 وقد فشل رغم المساعدة التي قدمها له أحد أعوان "غليبي" سيكون فيما بعد القائد " مونتي". "ليون فابير": قام بخمس رحلات إلى " أترارزه" من 1891 إلى 1894. بعثة " أبلانشي" تم احتجازها في " آدرار" لمدة 78 يوماً سنة 1900 وقد فاوض " الشيخ سعد بوه" من أجل تحريرها.

¹⁵⁷ - عبارة عند المسلمين تعني العبد المتواضع لربه.

أين هي الجمال الخمسون التي كان "كبولاني" قد طلبها منه في شهر مارس؟ انقطع نفسه بسبب هذا السؤال البسيط ثم كح وبيصق وقال "لا إله إلا الله" مكررة بسبب الإحراج ثم ذكرني بأن "أحمد سالم" قد أخذ كل ما لديه (لا شك أنه يبالغ) ولكنه من أجل إثبات حسن نيته سيعطيني كتابا لثلاث من قبائله¹⁵⁸: "تدغه"، "وتاكنانت" وأهل باركلله" على أن تأتيني كل واحدة في أنواكشوط بـ 17 جملا. وبما أن الشيخ كان قد تلقى هذا الطلب منذ شهر فقد كان من الممكن أن يأخذ بنفسه الجمال المطلوبة ويقدمها.

"قلت له أسرع، فبدون الجمال لا يمكن أن أحميك بصفة فعالة إذ لا استطيع بدونها التنقل بكل حرية" لا تكلفه هذه الوعود شيئا ويمكن أن يصدقها علي إلى ما لا نهاية... وبما أنه لاحظ استعدادنا لتناول الطعام فقد وقف مودعا وقال لي إنه بانتظاري في مخيمه بعد العشاء¹⁵⁹. تناولنا عشاءنا وتحت ضوء القمر المنير توجهت صحبة 4 من "أولاد بسبع" من الجمالة إلى مخيم "الشيخ" يرافقتي المترجم. وحين وصلت قدم إلي أحد الزوج طبلا لأتخذه مقعدا ثم بسط على الأرض "إلويش" (جلد كبش ابيض كثير الوبر) ليجلس عليه الشيخ كانت خيمة الشيخ الكبير بيضاء ناصعة اللون وسط 30 من الخيام الشهباء لتلاميذه فكان مظهرها بارزا في هذا المشهد تحت ضوء القمر في إحدى الليالي البيض. وما كدنا ننهي عبارات التحية المعهودة حتى خرجت من الخيمة البيضاء كتلة ضخمة بشعة تتدرج نحونا فالتفت فقال لي المترجم، وله دراية بعادات الفرنسيين، "مادام الشيخ سعد بوه" والواقع أنها إحدى نساء الشيخ وهي أحبهم لديه ويقدمها للأوربيين دون أن يستثني "كبولاني" وهي امرأة من النمط المفضل لدى "البيضان": وحش ضخم الخلقه سمين¹⁶⁰. وبما أنها غير منقبة خلافا لما تمليه الشريعة الإسلامية فلا بد أنها أمة، تهاوت هذه الكتلة مستقرة إلى جانب الشيخ فوجهت له عبارات

158- "قبائله" أي القبائل التي تعترف به تماما كقائد ديني أو يعتبر أفرادها من تلاميذه المتحمسين وبالتالي سيستجيبون عن طيب نفس لكل ما يطلبه.

159- تقتضي الآداب عند "البيضان" أن لا ينظر الشخص إلى الناس وهم يأكلون فمن غير اللائق أن يتناول "أفريجان" طعامه بحضرة شخصية كبيرة وخاصة من الزوايا وإذا كان "أفريجان" هو المدعو لتناول العشاء فسيقدم له وحده ولن تجري المحادثات إلا قبل أو بعد تناول الطعام ولكن لا يحدث ذلك أبدا أثناء تناول الطعام فكل ما يمكن أن يتقاسمه الطرفان كدليل على الصداقة هو الشاي.

160- خلافا لما يعتقد "أفريجان" ليس وضع النقاب لدى النساء فرضا قرآنيا فالقرآن يأمر فقط بالثوب الساتر (الذي لا يحدد أعضاء الجسم...) ونساء "البيضان" غير منقبات ولكنهن بحضرة الأجنبي تضعن طرف الملحفة فوق الرأس وعلى بعض الوجه ومن المفضل لدى أهل البادية أن تكون المرأة سميئة أي بدينة حسب معاييرنا نحن ولذلك يتم تسمين الفتيات وهو قائم على نوع من التفاخر لأنه يدل على ثراء الزوج. أما الآن فدليل الثراء عندنا في فرنسا هو السيارة القوية الفاخرة.

التهنئة على براعته في "التتمية". ثم بدأ حديث متشعب بيني وبين الشيخ وامرأته ونجله " ملعينين"¹⁶¹ بحضرة مترجمي ثم قدموا إلي 4 نوق جميلات إحداها رائعة هذه هدية الشيخ الكبير ردا على الهدايا التي كنت قد قدمتها له في أنواكشوط وقد أحضرها أمامي مهرج الشيخ. غادرت عند منتصف الليل لأقطع أزيد من كلمتر إلى مخيمي وأثناء الطريق لاحظت شبح شخص مسلح يحاول الاختباء فأخرجت مسدسي وقفزت فوقه ممسكا بسلاحه بيدي اليسرى ثم وضعت فوهة المسدس بينماني على صدره وصحت فيه وأنا ألتقط أنفاسي " من تكون؟" كان الشخص أقرب إلى الموت منه إلى الحياة فلم يقو على الجواب وكان بإمكانه أن يوجه لي نفس السؤال لأنني لست أقل غرابة منه في هذا المكان وحين سقط شعاع القمر على وجهه عرفته فإذا به " سيد أحمد " أحد الجمالة كان قد تسلل ليحوم حول خيام النساء في مخيم " الشيخ سعد بوه"...

كان مهرج الشيخ وهو درويش يسمى "سيد محمد" يسوق النوق المهداة خلفي وعند وصولنا إلى المخيم قدم لي نموذجا من مهاراته التهرجية فبدأ يطمط رقبتة في جهة اليمين واليسار وشعره الطويل الأملس يسقط يمنا ويسرة ويغطي وجهه في بعض الأحيان. و أثناء هذه التمارين كان يردد " الله الله الله" ويبدو أنه يمكن أن يستمر على هذه الحالة طيلة يوم كامل وكان أثناء مرافقته للشيخ إلى " سين لوي" لجمع الهدايا يضيف عبارة أخرى إلى " الله الله" هي " الله الله أعطيني سفاهيه". ويعتبر هذا المهرج مجنوننا ولذا فهو شخص محترم¹⁶² ولكنني تأكدت بعد ذلك من أنه عاقل تماما. أخبرني المترجم أثناء الليل أن عصابة من " أولاد أدليم" و "أولاد بسبع" المتحالفين مع " أحمد سالم " قد مرت بالأمس قرب " أندومري" متوجهة إلى الجنوب. حاولت يوم 28 إبريل أن أحول بين هذه العصابة وبين خط تراجعها فتوجهت من "النمجاط" إلى أندومري" وهناك علمنا أن هؤلاء اللصوص قد سطوا بالأمس على " آرويجات" وهم من أتباع " ولد سيدي" وانتزعوا منهم 60 ناقة ثم انطلقوا خوفا من قدومي مسرعين نحو الشمال لينضموا أثناء الطريق إلى " أعر الأعرج" وعصابته.

تحتم علي عند " المعزل" أن أترك 111 من الكباش المأخوذة يوم 27 مارس من " أرحاحله" ،أتركها مع المساعد فهي تعاني الإنهاك وأمرته بأن يتركها تستريح قبل أن يسوقها إلى

¹⁶¹ - نلاحظ هنا بشكل عابر أن " الشيخ سعد بوه" قد سمي أحد أبنائه باسم أخيه "ملعينين" الذي سيصبح فيما بعد من ألد أعداء الفرنسيين.

¹⁶² - يعتبر المجنون عند المسلمين في حماية الله وسيدخل الجنة بعد موته. وقد عرفت أوربا في العصور الوسطى موقفا مماثلا.

أنواكشوط. وحين علمت يوم 27 إبريل أن آبار " أتويريس " مردومة بالتراب توقفت عند بير " لعوينات ". قضيت ليلة 30 إبريل عند " أدبونو " وعند الساعة 10 صباحا في اليوم الأول من مايو دخلت أنواكشوط بعد غياب دام شهرا ونصف كان حافلا بالأحداث. وهناك وجدت بعض الأخبار، ففي طرف " أترارزه الآخر " قامت عصابة من " أولاد غيلان " من آدرار بالسطو يوم 27 إبريل على مخيم من " أولاد دمان " من حلف " أحمد سالم " فقتلوا رجلا وجرحوا آخرين واستولوا على قطعان وخيام وعبيد وفي عملية أخرى حاولت هذه المجموعة التي تقوم كذلك بنهب جماعة الأمير وجماعة " ولد سيدي "، أن تهاجم " لعلب " فرع " أولاد أحمد " ومعهم بعض " أرويجات " التابعين " لولد سيدي " فقاومهم " لعلب " وقتلوا منهم عشرة وجرحوا آخرين وأخذوا 60 جملا. ومن الغريب أن أهل آدرار قد سطوا على جماعة " أحمد سالم " وهذا الأخير يتفاوض مع أمير آدرار لتكوين حلف مشترك ويجب التذكير بأن " أولاد غيلان " لا يعترفون بسلطة الأمير إلا قليلا فهم في الواقع مستقلون جدا. وعلى العموم مر شهر إبريل هادئا ويمكن أن نلاحظ أنني قد حاولت أمام السلوك غير الودي الذي صدر من " ولد سيدي "، أن أشكل حلفا آخر من المخلصين لفرنسا ومع أنني قد وجدت جميع عناصره: " أهل الكبله " و " أولاد بسبع " ولكن دمج هؤلاء يتطلب العمل على مراحل طويلة. " أما أحمد سالم " فقد انسحب مبتعدا إلى الشمال قرب بئر " أعكليت هوك " في منطقة " إيفو زويتن " وشيئا فشيئا دخل " آدرار " في الوقت الذي كان أخوه " أعمار الأعرج " يحاول بخجل استئناف الهجمات في " أترارزه ". كان الأمير السابق على وشك الاتفاق مع أمير آدرار على الحصول على الملجأ وبعض الفرق. يثير " ولد سيدي " قلقي فلم يكن قائدا وإنما كان فقط عنصرا ضمن جماعة " أولاد أحمد مندمان " وبالتوازي مع زميلي في " سهوة الماء " كنت أراقبه عن بعد.

أما " أخروفه " فقد تركت فيها ما يكفي من المؤن الغذائية ولكنني في نفس الوقت طلبت إلغاء هذا المركز فما هي قيمته الحقيقية كمركز عسكري في " أترارزه " فنظرا لبعده عن البحر وضعف حراسته كنت مجبرا على الدوام قبل القيام بأي شيء بأن أو من تموينه وإغاثنه فلا بد إذن من إلغائه نهائيا أو تحويله إلى مركز حقيقي وفي هذه الحالة الأخيرة لن تكون في أنواكشوط سوى فرقة أمن لحماية المعسكر والتموينات وسيكون على " أخروفه " أن ترسل لأخذها. لا بد من اتخاذ قرار بأحد هذين الحلين وبدون ذلك سنبقى دائما مكتوفي الأيدي نجر ثقلا ولسوء الحظ كنت اقترح فقط أما التطبيق فليس من اختصاصي. كان المناخ في

أنواكشوط باردا كثير العواصف كالعادة وقد استقبلني كلبى " توم" بفرح وتعرف علي رغم الغياب الطويل ولكنني وجدت غرفتي مدفونة تحت الرمال التي دخلت في كل شيء حتى بين الأغطية فتحتم علي نفس كل شيء بدأت من جديد اسمع سيل الشكاوي المفرطة من الرمل والريح و" البيضان" والشمس والبرد والحر والماء والتغذية كان كل ضابط يتحدث عن نفسه وضد الآخرين. " لا بد لنا جميعا من شيء من الرفاهية مهما كان مكانها في العالم" يبدو أن ذلك هو شعار هؤلاء السادة في أنواكشوط. كان التحريض منصبا على الجمالة والرماة من خارج الإطار باعتبارهم جهلة ضمن هذه الدائرة المحدودة، أية عقلية هذه! سننجح رغم هؤلاء الشاكين والصارخين وذلك هو ما يشجعني.

وفي انتظار ذلك لا اشك في حجم العمل الذي ينتظرني على الأوراق فقد تغيبت أجوب الفيافي شهرا ونصف فلا شك أن كل شيء يتطلب الاستئناف ولا ننسى أن البيروقراطيين أصبحوا يتحكمون فينا شيئا فشيئا. تلقيت خبرا سارا يوم 4 مايو فسيتقلص عدد العاملين معي وأستفيد قدرا من الهدوء من هذه الناحية لست موافقا على الشكاوي ولكن الحقيقة هي أن تغذيتنا ليست متنوعة. لفت انتباهي عدم رؤية صيادي " إيمراكن" في المركز وقد كانوا يبيعون لنا سمكا جيدا وفسر لي جمالتي من " أولاد بسبع" غياب " إيمراكن" بأن قائد المركز قد تركهم أثناء غيابي يتعرضون لسطو " أولاد أكشار آدرار". فقد قدم 18 من هؤلاء وأندروا " إيمراكن" بمغادرة منطقة المركز والكف عن بيع السمك له وقد جاء " إيمراكن" إلى أنواكشوط ناقلين الخبر وقد صادف ذلك قدوم " أمحمد ولد أعمر" قادما من " سين لوي" ومعه 12 مسلحا من الجمالة وحين علم قائد المركز بما حدث لم يكثرث بالمسألة وانقطاع التمويل عن أنواكشوط سيكون عاملا لمغادرته وهذا ما يرمي إليه القائد دائما وحين عرض عليه " محمد ولد أعمر" أن يسير برجاله الإثني عشر لحماية أتباعه من " إيمراكن"، رفض قائد المركز بشدة.

الخلاصة: تعرض " إيمراكن" يوم 12 إبريل الماضي للسطو والنهب من العدو بالقرب من المركز والذين قاموا بالاعتداء يسرحون ويمرحون في المنطقة ولم يعد يوجد سمك في المركز وهذا هو الجانب الأسوأ في المسألة.

ستغادرني فرقة الخيالة بناء على التعليمات الواردة يوم 4 مايو وقد نالوا إعجابي ولكن لم يعد عندي من الشعير ما أوزعه عليهم¹⁶³ وهكذا غادرت الفرقة يوم 6 مايو لتعيش حياة الحامية في " دكانه" وهي عاصمة بالمقارنة مع "أنواكشوط".

لقد كانت إيل القافلة سواء منها ما يخص الجمالة أو الرماة تموت كالذباب حول أنواكشوط أولاً بسبب وجودها في مناخ المركز وثانياً بسبب الإنهاك والسبب الأساسي هو المجاعة فالمنطقة جافة كقطعة القطن عند وصولنا. ليس الهدوء شاملاً في المنطقة حتى الآن فهناك حراك مستمر حول " ولد سيدي" الذي لم يعد يقيم عند " أحسي معروف" وإنما انتقل إلى " بئر البركة" حيث يتجمع أنصاره في أربعة مخيمات متقاربة وجاهزة للاندماج في بعضها البعض، ضد من تتوجه هذه التدابير الدفاعية؟ استمرت حملة التشهير بيني أنا و "ولد سيدي" والواقع أن " ولد سيدي" محاط الآن بجماعة " الأمراء" وكان " اعبيدي" مترجمي وهو صديق سابق " لأحمد سالم" يطلعني على كل صغيرة وكبيرة من هفوات " ولد سيدي"، وهكذا استطاع شيئاً فشيئاً أن يجعلني غاضباً جداً على هذا الأخير ولا أفهم حقيقة ما يدبره.

يبدو أن جماعة " الشيخ سعد بوه" تبحث عن الجمال التي تعهد بها الشيخ فقد ذهب أحدهم يحمل طلب الشيخ إلى " تندغه" فرع "أهل فوديه" فوقع أثناء الطريق في يد رجل من "أولاد أمحمد" (لعلب) فشتمه ووصفه بالمسيحي عبد الفرنسيين ووضع حبلاً في رقبته وربطه في ذيل جملة وظل يسحبه يوماً كاملاً حتى وصل مخيماً " لمدلش" من الزوايا... لان صديقي " شوفي" التاجر الوجيه من " أهل المبارك" قد أخبرني أن رجل " أولاد أمحمد" المعني من حلف "ولد سيدي". لقد أصبح الزوايا يعانون يوماً من سطو القبائل المسلحة من كل الأحلاف لأن كثيراً من الزوايا قد عولوا بسرعة على دعمنا دون أن يسألوا أنفسهم هل نحن قادرون على ذلك أم لا، وامتنعوا عن إعطاء ما تطلبه القبائل المسلحة وهو في بعض الأحيان مستحق حسب الأعراف التقليدية وهكذا ثارت نائرة الجماعات المسلحة واستخدمت العنف لأخذ ما تريد وخاصة ضد الزوايا الذين يتقربون منا. كان المبعوثون يتوافدون علي كل يوم بالوشاية ضد " ولد سيدي" ويقولون إن أنصاره لا ينتظرون سوى تهطل الأمطار الأولى لكي يقوموا بعمليات

¹⁶³ - يوزع الشعير لتغذية الخيول التي لا تجد المرعى في ضواحي المركز فلا بد إذن من استجلاب الحبوب الضرورية كعلف للحيوانات.

سطو واسع ضد الزوايا وإجبارهم على مغادرة المنطقة معهم ولا أعرف من هي الجهة التي ترسل هؤلاء النمامين.

وكما لو كان يريد أن يثبت لي ما يقوله هؤلاء، فقد استدعى " ولد سيدي" مخيمات " إكودي" و "تاكنانت" من ضواحي " أخروفه" لتستقر قرب مخيمه وهناك حدث آخر أوضح دلالة فقبل أن يرتحل هؤلاء للاستقرار قرب " ولد سيدي"، قاموا بإفساد آبار " أتويرجات" على بعد 6 كلم من " أخروفه". وكما حصل في شهر مارس لاحظنا عملية إخلاء منظم للمناطق المحيطة بـ " أخروفه". لقد ازدادت الأخبار سوءا فقد وصلت عصابة من " أهل آدرار" إلى بئر "المعزل" على الطريق بين أنواكشوط و"أخروفه" حيث نتلقى استقبال حارا في العادة فقامت العصابة بنهب مخيم الزوايا المجاور للبئر عقابا على حسن استقبالهم لنا ولحسن الحظ أن قطيع الكباش كان قد غادر المكان متوجها إلى " أنواكشوط". وحاول قطاع الطرق إفساد البئر فسدوها بجذع شجرة كبيرة ولكن الزوايا أصلحوها بعد مغادرتهم ولكنهم بقوا مذعورين ولم يعد لديهم شيء.

إلا أن " ولد إبراهيم عيشه" قام بناء على تدخلنا بإعادة ممتلكات "الشيخ سعد بوه" وقد انتهزت فرصة فرحة الشيخ بهذه المناسبة لأسأله عن قطيع الثيران المخصص للذبح... لقد اعترف " ولد سيدي" في النهاية بخطأ " ولد إبراهيم عيشه" بعد أن سأنده في البداية فقام بزيارة اعتذار إلى " الشيخ سعد بوه" ودعاه لزيارته وهذا ما يعقد الأمور فهل أصبح حلف " ولد سيدي" مشكلا من العناصر المتنافرة؟ لقد بدأت أعتقد ذلك.

تدور معارك في منطقة " أترارزه الشرقية".

لقد توجه الملازم " أوبير" يوم 20 إبريل من " سهوة الماء" مع 50 من الرماة السنغاليين يطارد جماعة " الرحاحله" التي قامت بالسطو في منطقة " بوتلميت" ولسوء الحظ لم يستطع اللحاق إلا بمؤخرة الجماعة.

كان " كبولاني" عند " ابدور" يوم 9 مايو عائدا من مهمته ووصلت من " سهوة الماء" أخبار مضخمة بعضها صحيح عن ظهور " أولاد بسبع" قرب غابة " غانا".

لقد أرسل الحاكم المقيم في " اترارزه" يوم 10 مايو بأمر من " كبولاني" إلى الملازم " روس فلدير" الذي بقي في " سهوة الماء" يأمره بمهاجمة " أولاد بسبع" ويتعلق الأمر بجماعتي " من أولاد بسبع الجنوب".

هذا أسوأ ما يمكن أن يحصل¹⁶⁴! وأخيرا وبعد أن تأخروا شهرا كاملا وصل مبعوثو " الشيخ سعد بوه" ومعهم عشر العدد المطلوب أي خمسة جمال فقط.

لقد أصبح كل ما يحكونه لي حول " ولد سيدي" وحول " أولاد أمحمد" غامضا لا بد من أن أعود إلى " أخروفه" لأرى ميدانيا ما يجري هناك وهكذا هيأت يوم 25 مايو عريفا ومعه 30 من الرماة وعشرة من جمالة " أولاد بسبع" ولكن من جهة أخرى يصادف هذا موعد قدوم إحدى البواخر التي تحمل لنا شحنة من المؤن الغذائية إلى " طرفاية المنصور" .

انتظرت طول اليوم دون أن أرى شيئا، هل سابقى أم لا؟

¹⁶⁴ - يعود حصول الأسوأ في جزء كبير منه إلى جهل " أفريرجان" بشأن دور " كنته" خصوم " أولاد بالسباع".

في الطريق إلى "سان الويس"

ما فتئت المسألة ان وجدت تسوية،

وصلني بالبريد يوم 25 مايو أمر بالتوجه إلى سينلوي للتباحث هناك مع "كبولاني"، فأخذت الطريق من الغد متوجها إلى "أخروفه" وكانت أولى المراحل شاقة علي، فسوء الغذاء في مركز نواكشوط كان قد قطع أمعاء فرقة الرماة السنغاليين، كما أن الحر شديد جدا في شهر مايو حيث يبلغ اشتداد الحر أوجه في هذه المنطقة من أفريقيا العربية.

لم يجد الرماة سوى المياه المالحة في كافة الآبار التي مررنا بها أثناء الطريق فأجبرني ذلك على التوقف المرة تلو الأخرى تفاديا لإنهاك رجالي فقد كان نصفهم يعاني الإسهال والنصف الآخر مصاب بالقيء، كانت لدي علبة من عقار "باريكوريك"، وأنا أعرف سرعة استجابة أبدان هؤلاء الأفارقة لأدويتنا خاصة إذا تضمنت نسبة من الأفيون، فقامت بعملية توزيع شاملة ويسرعة تحسنت أحوال المرضى واستسلم أغلبهم للنوم ليستيقظوا بعد حين وهم يطرون هذا "الترياق السحري" حسب تعبيرهم، وفي المساء تناولوا طعامهم بشهية كاملة، وكان "الشيخ سعدبوه" قد أرسل لي في الزوال خمسة جمال أخرى، فأصبحت بحوزتي أحد عشر جملا وقدم لي "شوفاي" تكملة العدد الضروري لقافلتي.

كان الطقس باردا مع حلول الليل، فجمعت رجالي وأخبرتهم أننا سنواصل المسير ليلا على ضوء القمر لتفادي السير من الغد تحت الحر فأنا أعرف أن الرماة السنغاليين يستطيعون مواصلة السير لمسافة أطول في الجو البارد، وعند الساعة الحادية عشر ليلا توقفنا عند "أتويريس" وهكذا تمكنت من قطع 45 كيلومتر وهي مرحلة مهمة بالنسبة لأشخاص متوعكين، انطلقت مرة أخرى في الصباح الباكر وقطعت 6 كيلومترات قبل الحر الشديد ثم توقفت للمقيل عند "لعوينات". وعند الثامنة مساء وصلنا بئر "المعزل" فعسكرت في نفس الموقع الذي نزلت فيه في شهر مارس حيث قضينا ليلة جميلة وكان الرجال قد قطعوا في اليوم السابق 30 كيلومتر، وانطلقنا من الغد فكان الحر شديدا والسير شاقا... ولكن الرجال كانوا يحسون قرب وصولنا إلى "أخروفه" فقطعوا مسافة 25 كيلومتر دون عناء.

وعند وصولي "أخروفة" وجدت أمامي "اليدالي" رجل "كبولاني" الخاص بكل المهام وقد جاء هذا "السمسار المحتال" محملا بالبريد ولكني أعرف أنه يؤدي عمل الشرطي فلا شك أنه جاء مخابرا وربما يحيك بعض الدسائس، وقد حمل إلي أمرا باصطحاب "ولد سيدي" وأن أجعل حاشيته بجم معقول تتبعه، فأرسلت "يدالي" إلى "ولد سيدي" أدعوه للحضور في المذرزة حيث سيجدني من الغد يوم 31 مايو ووجهت له أمرا صارما بعدم اصطحاب جماعة "الأمراء" إلى "سينلوي" وحددت له حاشية عادية من عشرة رجال وختمت بعبارة شديدة اللهجة ثم سلمت الرسالة إلى اليدالي. وبعد مغادرة رسولي علمت أن "الشيخ سعديوه" مدعو هو الآخر بصفة مباشرة من "كبولاني"، ستنشهد "سينلوي" ما يشبه المؤتمر. جمعت رماتي السنغاليين القادمين من نواكشوط وكان عليهم أن يناموا وأخبرتهم أنني متوجه إلى "سنلوي" مرورا "بدكانه" ولا أستطيع حرمانهم من الاستراحة أياما في السنغال مكافأة على الجهود التي بذلوها أثناء المسير وأخبرتهم في نفس الوقت بضرورة الإسراع أثناء السير إلى "دكانه" وطلبت من الذين أنهكهم التعب أن يعلنوا عن أنفسهم من الآن فسأمنحهم الراحة غدا وبعد غد وسيعود بهم العريف إلى نواكشوط فأنا لا أحتاج لأكثر من 15 رجلا لمرافقتي وسنغادر نفس هذه الليلة، فرفع 15 متطوعا أيديهم قبل أن أكمل عبارتي. غادرت "أخروفة" عند الساعة 3 بعد منتصف الليل وكل ما معي 27 مسلحا أي 15 من الرماة و10 من جمالة "أولاد بالسباع" بالإضافة إلى المترجم. وصلت "أنبيكه" عند الساعة 7 صباحا وتوقفت للمقيل واشترت ثورا ووزعت على رجالي حصصا كبيرا من اللحم وأمرت الرماة بقضاء وجه النهار متمددين نياما. أما أنا فقد قضيت الوقت أتجاذب أطراف الحديث مع جماعة الزوايا الذين تعمدوا هدم بئر "اتويرجات" فوبختهم وعنفتهم فوعدوني بإصلاح البئر في أقل من شهر. وعند الخامسة مساء امتطيت الفرس وسرنا حتى منتصف الليل فدخلنا "المذرزة" كنت أفكر في منح يوم من الراحة لرجالي أنتظارا لقدم "ولد سيدي" ولكنه قدم عند الساعة 8 صباحا. أبدت لود سيدي علامة الثقة حيث لم أحط نفسي بالحراس وأنا بين أنصاره وخلافا لما قيل لي عنه، فقد بدأ أكثر استعدادا من أي وقت آخر وذهب لنصب خيمته على بعد 100 متر من خيمتي وعلى الفور بعث لي بهدية من خمسة كباش سمان فقبلتها من أجل رجالي ثم بعث يسأل عن وقت استقبالي له، فأجبت "متى شئت". لقد كان ولد سيدي متعبا فقد بدأ السير من الساعة 5 مساء أمس وكان يعتقد اللحاق بي عند "أنبيكه" وحين وصلها فاجأه كوني غادرت في اتجاه المذرزة. وبعد نوم

قصير عند "أنبيكه" قضى ولد سيدي نصف الليل الأخير سائرا حتى وصل في الصباح. وكما أمرته لم يصطحب سوى 10 رجال من حاشيته أو خدمه ومن بين العشرة صهره "ولد لداره" الذي لا يفارقه. بادر ولد سيدي بالحضور إلى خيمتي وقد تملكه القلق فهو لا يدري طبيعة المآخذ عليه في "سنلوي"، فاضطرت من شدة قلقه إلى التأكيد بأنني لن أتركهم يلحقون به أي ضرر. فقال لي عندها وهو يحدق في مترجمي "أعبيدي": أعرف أنهم قالوا لك الكثير من الأخبار السيئة عني في الآونة الأخيرة؛ لقد بذلوا جهودهم لزرع الخلاف بيننا، لقد استغلوا ضدي كل ما جرى في البلاد ومع ذلك لا دخل لي في شيء مما حصل فمثلا "إيجكودي" و"تاكوانانت" قد تركوا بئر "اتويرجات" تنهار لكي يغادروا بحثا عن المراعي فوصلوا إلى حيث يوجد مخيمي ولم أعط أبدا أمرا بإخلاء المنطقة حول "أخروفه" ولا بهدم البئر فذلك فعل محرم شرعا. وكنت في اليوم السابق قد كونت فكرة حول موقف ولد سيدي أثناء مساءلتي لجماعات الزوايا عند "أنبيكه"، فأجبتة: "حسنا، معك الحق في قول ذلك فقد حصلت على المعلومات الصحيحة ولست طفلا ولا مجنونا وأنا أعرف الآن حقيقة ما جرى، وحين كنت في نواكشوط خطر لي أنهم قد يريدون زرع الخلاف بيننا. ولكن الآن خذ يدي ولنكن أصدقاء من جديد" فشد ولد سيدي على يدي دون أن يتكلم، ودون مقدمات استأذنتني في المغادرة لينام في خيمته وبمجرد سماع "نعم" غادر مبتعدا، كأنه مازال طفلا بالفعل.

كان بفرقتة "أخيارهم" فتركه يغادر وليث واقفا أمام خيمتي. ثم قال "هل تدري، لقد تملكه الخوف، وكما ترى فولد سيدي لا يسعى لفعل عمل سيئ، يجب أن نخاطبه تماما بمثل هذه الطريقة فسيرضى ويمكن أن تعول عليه". عند الساعة الواحدة بعد الزوال عاد إلى خيمتي بذريعة السؤال عن ما إذا كنت راضيا عن الكباش التي بعثها إلي ولد سيدي وفجأة غير مجرى الحديث قائلا "لماذا لم تخبرني بما تتويبه ضد أولاد أحمد؟" فأجبتة "أخيارهم أنت تذكر صباح يوم "أندموري"، لقد قيل إنك أخبرت "أحمد سالم" ذلك اليوم ولم أعد أثق بك" فقفز العجوز ذو اللحية الزرقاء وأمسك لحيته بيمناه وبصوت قد عقده الانفعال قال: "هل لديك مصحف؟ هل هنا مصحف أريد أن أقسم بأن ما سمعته كذب".

"لا فائدة من ذلك، فلن أصدق قسمك، أثبت لي فقط ما تدعيه فذلك أبسط" فبدأ يتكلم بسرعة وهو وافق وسرد لي سيرة حياته بكاملها بالتواريخ والتفاصيل في دقة متناهية لقد كان شديد الانفعال لدرجة حالت دون تحضير خطابه ومع ذلك بدا ممثلا بارعا وفي النهاية بدأ

يسوق الحجج أن "إدبلحسن" هم الذين أخروني عن اللحاق "بأحمد سالم" أما هو فلا دخل له في ذلك. وبما أن "أخيارهم" يتكلم الفرنسية بطلاقة فقد جرى كل هذا الحديث دون مترجم. وفي الأخير قدم "أعبيدي" فطلبت من "أخيارهم" أن يعيد أمامه ما قاله سابقا بالحسانية وأمرت "أعبيدي" بترجمته جملة تلو الأخرى ثم قلت لصاحب اللحية الزرقاء "اذهب الآن" وعندها سألت المترجم "ما رأيك في هذا؟ فبدا "أعبيدي" محرجا جدا ثم أجابني "لقد قال لك عين الحقيقة على خلاف عادته، وبكل صراحة لم أكن أبدا لأصدقته"

"إذن قل الحقيقة أنت الآخر، لقد أدركت الآن أنك تأمرت في "دكانه" مع أنصار أحمد سالم وأنت صديقهم لقد كنت تسعى لزرع الخلاف بيني أنا و "أخيارهم" و"ولد سيدي".

أجاب: "لا كنت أعتقد حتى الآن أن "أخيارهم" كان يحضر طريق العودة للالتحاق بأحمد سالم ولكن كلامه هذا الصباح بشأن ولد سيدي جعلني أعتقد أنه يفضل هذا الأخير ومن جانب آخر لقد غادرت ولد سيدي لتوي وصرح لي بأنه سيبقى حليفا للفرنسيين ما دمت أنت داخل البلاد وأنا متأسف جدا على ما حصل من سوء فهمي لموقف "أخيارهم" لأنني كما تعرف بقيت صديقا لأحمد سالم وكنت أعول عليه في مساعدتي في إعادة صداقتي مع الأمير السابق. وبالنسبة "لأخيارهم" فقد اختلط عليك الأمر فأنا لم أكن أسعى لزرع الخلاف بينكما بل العكس هو الصحيح.

أما ولد سيدي فلم أكن أظنه صادقا في موقفه مع الفرنسيين، وقد أدركت خطئي الآن وسأتوجه من فوري أطلب منه المسامحة فقد أسأت التصرف اتجاهه لأنني حسبته عبدا في قبضة "أولاد أحمد بندمان" ومازلت أعتقد ذلك وإذا كنت قد دفعتك ضده فغايتي من وراء ذلك هي الإضرار بهم وبمحاولتي تلك كدت أقع في الظلم، سامحني وأود مع ذلك أن أقول لك إنني رغم كل شيء، سأبقى صديقا لأحمد سالم. لم أكن أبدا أظن "أعبيدي" سريع الانفعال لهذه الدرجة، فبدا أنني لم تكتمل بعد معرفتي لطبائع البيضان، فلئن كانوا شديدي التعلق بأصدقائهم، فهم في المقابل ماهرون في المراوغة من أجل التخلص من أعدائهم. إنهم قوم تجري الدسياسة في دمائهم ولا يجدون حرجا في تغيير مواقفهم إلى العكس فذلك لا يضر مصداقيتهم لا اتجاه أنفسهم ولا اتجاه غيرهم من البيضان لأنهم في قرارات أنفسهم يبقون مخلصين للسلوك الذي يمليه عليهم القرآن أي قانون القصاص: الإساءة مقابل الإساءة وجزاء

الإحسان هو الإحسان⁽¹⁶⁵⁾. وبعد هذا الحوار بلحظات شاهدت "أعبيدي" يتجاذب أطراف الحديث مع "ولد سيدي" كواحد من أقدم أصدقائه... في حين بقي "أخيارهم"، الذي ظهر للتو، مشدوها... مع أنه يعرف جيدا تغيير المواقف وهو في قرارة نفسه، على العكس من ذلك، شديد الانسجام مع ذاته لأنه لم يكن يهتم إلا بمصلحته الخاصة. انطلقت عند الساعة 4 مساء متوجها إلى "بو اطريفه" حيث توقفت عند الساعة العاشرة وكان "أعبيدي" يسير بفرسه إلى جانبي رفقة المترجم و "أخيارهم".

امتطينا الخيول قبل طلوع شمس اليوم الأول من يونيو وكان "أخيارهم" يثرثر أكثر من المعتاد واقترب بفرسه بمحاذاتي ولا أدري لماذا بدأ يسرد لي حياته السياسية منذ أن عمدت قبيلته "أولاد بالسباع" إلى طرده صحبة والده بأمر من جد "أحمد ولد أعمر" حتى اليوم الذي يقول إنه فهم أن مصلحة "اترارزة" الذين أقام فيهم هي أن يتوقفوا عن الفوضى وينتظموا تحت الإدارة الفرنسية.

إنها بحق حياة متشعبة تلك التي قصها علي وكثيرة هي الاغتيالات التي شارك في تدبيرها بمستويات متفاوتة مع أن البعض قد نسب إليه وهو لم يشارك فيه فقط لمجرد ما يحيط به نفسه من أبهة خاصة في أوساط "سينلوي" ومع ذلك أنا متأكد من أن العجوز ذو اللحية الزرقاء ليس شر من يحيطون بي من "اترارزة" ومع ذلك لا بد من الاعتراف بذكائه الحاد ولا شك أن ذلك هو السبب في تبوءه مكانة الوزير الأول لدى الكثير من الأمراء⁽¹⁶⁶⁾ الذين كثيرا ما انتهى به الأمر إلى استخدام ذكائه ضدهم. ما زال "أخيارهم" متماسك البنية من الناحية الجسمية. وعند الساعة 8 صباحا بينما كان ينظر إلى فرسي الأسود وهو يقفز خطرت له إحدى أفكار الشباب فخاطبني قائلاً: "هل ترغب في جولة سباق؟" فأطلقت العنان لفرسي معتقدا أنني سأترك العجوز بعيدا خلفي ولكن فرسه الكميت انطلق كالكرة وحك علي عن قرب، فاضطرت إلى استخدام الهراوة لدفع فرسي وكانت خطوة واحدة له تعادل اثنتين لفرس "أخيارهم"، فتجاوزته.

165- هنا أيضا يظهر المستوى السطحي لمعرفة "فرير جان" بالقرآن. فقط، تطبيق الأحكام القرآنية يختلف أحيانا حسب الفئات وتبعاً لبعض الأعراف التي قد تبدو غير مقبولة في حالات أخرى.

166- كثير من الأمراء ماتوا غيلة بينما كان "أخيارهم" يحتل منصب الوزير الأول أو بصفة أبسط المستشار.

صحيح أن سرج فرسي يضربني في الظهر ويؤلمني بشدة، في حين يبدو العجوز ذو اللحية الزرقاء مرتاحا فوق فرسه، وبعد ذلك بربع ساعة كنا نجتاز مخيم "زمبوتي"، فقدم رئيسهم "سويدهن" لحيتي وكفارس زنجي⁽¹⁶⁷⁾ حقيقي، هاج فرسي مذعورا حين دخلنا وسط المخيم... فاجتزت الميدان وفرسي يتلاعب قفزا، وهو أمر مقبول في مثل هذه الحالات... ثم وصلنا حقول الذرة ولم يبق فيها سوى جذوع النبات المصفرة وكان الدرب مغبرا يمتد على منتهى البصر وسط التربة المتشققة التي كدمتها أقدام المارة... لقد دخلنا الآن منطقة آمنة.

في حدود الساعة 9 و 30 دقيقة كنا جميعا مصطفىين على ضفة نهر السنغال قبالة "دكانه". وكنت قد غادرت نواكشوط منذ ستة أيام فقط. ولم يكن من الممكن السير بسرعة أكثر من سير رماتنا السنغاليين الخمسة عشرة. ذلك ما يستطيع انجازه من جمع بين معرفة المنطقة التي يسير فيها ومعرفة التعامل مع الرجال العاملين معه، ثم نقلنا إلى ضفة النهر الأخرى بواسطة زورق المركز، وسيقم "ولد سيدي" عند التاجر "عبد الله سك" الذي يستضيفه وحاشيته بالإضافة إلى "أخيارهم" وفرقة الجمالة البيضان مقابل تعويض مالي. استقبلني النقيب "بك" عند الرصيف واصطحبني للإقامة معه. ومن أجل إضفاء أبهة أكثر على قدوم "ولد سيدي" تلقيت أمرا بإدخاله مدينة "سينلوي" عبر الضفة اليسرى للنهر ولكنه هو وحاشيته ومرافقيه من الجمالة البيضان يلبسون أسمالا بالية، وأعتقد أن "المكتب" لن يعارضني إذا حرصت على أن تتم الأمور حسب قواعد اللياقة ولهذا الغرض اتفقت مع التاجر "عبد الله سك" على تقديم ملابس جديدة بعدد مضاعف لولد سيدي وحاشيته وفرقة الجمالة البيضان.

ومن المفهوم أن رماتي السنغاليين الخمسة عشر سيخلدون للراحة في "دكانه" طيلة إقامتي في "سينلوي" أما أنا سأغادر يوم 3 يونيو برفقة فرقة حراسة من ستة خيالة جزائريين يقودهم الرقيب الدرقي "تفانو".

ولا مبرر وجود الخيالة سوى أنه يضيفي مزيدا من الأبهة على دخول "ولد سيدي" عبر مظهر خيولهم وأسلحتهم ولباسهم الأحمر، ولا دور لهم غير هذا لأننا لا نخشى شيئا أثناء رحلتنا على الضفة اليسرى للنهر بين "دكانه" و"سينلوي". غادرنا "دكانه" في شكل موكب من

¹⁶⁷ - من عادة الأفارقة إظهارا للمكانة أن يستقبلوا الزائر على الخيل باعتبار الفرس مؤشرا على الترف في السنغال (وكذا في جنوب موريتانيا) لأن علفه يكون من الحبوب، ومن المراسم المطلوبة أن يخرج الرئيس على فرس جموح (يتزكع يتلاعب رقصا عند مدخل القرية..).

نحو خمسة عشر فارس يطل عليها جملان أو ثلاثة فوق كل واحد منها رجلان من البيضان، كان طريقنا بمحاذاة الضفة اليسرى على بعد كيلومتر واحد تقريبا.

كانت الثقة بادية على وجوه رجالنا، استقبلتنا النساء في ثلاث قرى بأواني الكرنيب مملوءة بماء الشرب فالجميع يعرف "ولد سيدي" ويتطلعون إلى رؤيته صحبة أحد الضباط. وفي حدود الساعة الرابعة مساء استقبلتنا فرقة من المغنين "الفلان" واستوقفنا لسماع أغنية لمدة ربع ساعة قدمتها الفرقة بألحان حادة الصوت تنقطعها كلمات المديح اتجاهي أنا وولد سيدي فأشرنا على الفرقة معبرين عن الرضى ثم ابتعدنا⁽¹⁶⁸⁾. وبعد قليل بدا منظر لم نكن نتوقعه فقد ظهرت قرية وسط الأشجار الكبيرة الخضراء، إنها مدينة "ريشارد تول"⁽¹⁶⁹⁾ ويعمل على حافة البحيرة المجاورة لها عمال يدويون يشتغلون بإقامة سياج حديدي، فكرت في أن أتوقف ولكننا تجاوزنا المعبر في الاتجاه الآخر، كنا نشاهد على الضفة اليسرى للبحيرة بعض الخيالة الجزائريين يتحركون جيئة وإيابا بثيابهم الحمراء وسط قنطرة غطتها الأعشاب الخضراء. وحين وصلناهم، وجدت طعام العشاء جاهزا بفضل الرقيب الدركي "تافرنو" وكانت سفرة الأكل مبسطة على الأرض واستخدمناها بعد ذلك بقليل فراشا لأحد رجالنا. استأنفنا المسير ليلا وكان القمر يلقي نوره على خط التلغراف الممتد أمامنا ونحن نتخذ منه دليلا. اجتزنا سهلا واسعا تغطيه مروج خضراء تتناثر فوقها كتل متباعدة من الشجر. رأينا من بعيد مخيمات لبعض "البيضان" تلوح في الأفق بألوانها المائلة إلى الصفرة وهي لقبيلة تقيم هنا يزعمون أنها تتحدر من المسيحيين القادمين من الأندلس وتسمى "إكميلين" نزلنا في حدود الزوال عند قرية كبيرة من الولوف تسمى "روس" وهي عاصمة مطنقة "امبكيو" وتقع القرية على سهل مستدير تظله أشجار ضخمة وتظهر في القرية بقايا قلعة من الحجارة الحمراء كانت تعرف بقلعة "افدريب" ولم يبق اليوم منها سوى بعض الأطلال وتعود هذه القلعة إلى عهد الحروب بين "افدريب" و"محمد لحبيب" أمير أترارزه في نحو سنة 1855 ويوجد بعض هذه القلاع في منطقة "الو" وهي اليوم مجرد آثار فرنسية⁽¹⁷⁰⁾.

168- هنا أيضا يخالف "افرير جان" العادات المحلية فمن واجب الممدوح في هذه الحالة وكذا الرئيس أن يقدم هدايا للمدحيين.

169- تعني "ريشارتول" بالولفية حدائق ريشارد وهو اسم المهندس الزراعي الذي أقام حقلا تجريبيا قرب النهر لزراعة نباتات جديدة فهذه الأشجار التي أعجبت "افرير جان" هي محاولة كانت قد فشلت.

170- تتهدم المباني الحجرية وكذا الطرق بسهولة بفعل تعاقب الحرارة والبرودة بين موسم الأمطار الغزيرة وفترة الجفاف الطويلة.

أسكنني رئيس قرية "روس" في كوخ جديد من الحشيش المزخرف وهو محل إقامة الإداري أثناء جولاته. أخذ رجالنا من البيضان إلى لنوم طيلة اليوم ومنعهم النوم من الذهاب لارتكاب بعض الممارسات غير المقبولة. وفي المساء قدمت لود سيدي 5 كباش ردا على هديته في المذرة.

كانت المغادرة صباح يوم 5 يونيو وقد تملك الفرخ الخيالة البيضان وأخذوا يتجادبون أطراف الحديث بأصوات عالية ويجولون بخيولهم من مكان لآخر، وعند الساعة 11 صباحا كنا عند "لمبار". ويوم 6 يونيو كنا فوق طريق حقيقي وانطلق "ولد لداره" يتقدمنا إلى سينلوي لجلب ثياب ولد سيدي الخاصة بالعرض على أن يلبسها المعني عند وصول الموكب إلى الأكواخ الأولى من القرية أما أنا فقد أرسلت من يشعر "مكتب" المندوبية بقدمنا. وصلنا أطراف المنازل في قرية "سور"⁽¹⁷¹⁾ عند الساعة 6 حيث توقفنا وارتدى ولد سيدي الملابس التي جاء بها "ولد لداره". ظهر ولد سيدي بثيابه البيضاء الفضفاضة يلتحف فوقها "البرنوس" الأبيض من الصوف الناعم وقد امتطى فرسه ذي اللون الفضي والذيل الأحمر من الحناء⁽¹⁷²⁾.

لبست حاشية "ولد سيدي" الثياب الجميلة التي قدمها "عبد الله سك"، أما "أخيارهم" فلا شك أنه وجد طريقة جديدة لصبغ لحيته باللون الأزرق الداكن، فهو يمتطي فرسه الجموح ويراقصه إلى جانب ولد "سيدي" ويبدو التناقض بارزا بين لونه الداكن وبياض ثياب ولد "سيدي"، الناصع كما تبدو تجاعيد وجهه.

مر الموكب أمام دار القادة حيث ينتظر أن يقيم هذا الجمع وها هي محطة المسافرين، وهذا بالضبط وقت انطلاق القطار. فرفعت خيولنا رؤوسها مذعورة، وما كادت الفوضى التي أحدثها انطلاق القطار تنتهي حتى عادت من جديد بسبب قدوم موجة من "البيضان" بعضهم على الأقدام وبعضهم فوق الخيول أو الجمال وكلهم جاؤوا للانضمام إلى حاشية "ولد سيدي"

¹⁷¹ - قرية تقع على الضفة الجنوبية لنهر السنغال على بعد 5 كيلومترات من سينلوي. والمحطة الطرقية (وهي الأولى من نوعها في أفريقيا الغربية لربط عاصمة السنغال بأعالي النهر مرورا بخاي ثم باماكو) وتقع قبالة النهر الذي يحيط ذراعه الجزيرة التي تقع فوقها المدينة ويتم الوصول إليها عبر جسر "افردب" فوق روافد من الحديد تقطع الذراع الجنوبية أو الذراع الكبير في حين يقع الذراع الصغير في الشمال بمحاذاة جسر "سرفاتيوس" الذي يربطه بالمدينة عند لسان "برباري".

¹⁷² - من عادة الرؤساء الأفارقة وضع خضاب الحناء على ذيل وأحيانا على عرف الفرس المخصص للاستعراض. وتستخدم النساء الحناء كخضاب للأظافر وحتى راحة اليد ولونه الأحمر يستخدم للتزيين والعلاج.

هذا تدبير جماعة "الأمرء" الذين أقصيتهم من الرحلة فاستتهضوا أنصارهم من البيضان وحتى من الزنوج فقدموا يصرخون في عصبية ويضربون الدفوف ويغنون في نشاز مصطحبين آلاتهم، كل هذا الخليط يتدافع في هدير وتزاحم تزداد حدتها مع اقتراب الموكب. وصعدت جسر "أفدرب" ومن خلفي الموكب الهائج وأمامي الرقيب الدركي "تافرنو" يشق لنا الطريق ويتحسس طبيعته تحت أقدامنا وكانوا قد فرغوا للتو من رش الجسر بالماء فأصبحت الخيول تتزلق فوقه وكذا العربات التي تعدو بها الأحصنة قادمة من محطة المسافرين محدثة ضوضاء إضافية بحركاتها فوق قضبان الحديد، دام هذا العذاب على امتداد خمس مئة متر (173) وعلى رصيفي الجسر تنتظر جموع أخرى من البيضان تتعالى ضوضاؤها في صخب، وفور بلوغي طرف الجسر بدأت أحاول تنظيم الشتات المرافق لي وصادف ذلك ساعة تدفق العمال إلى أماكن العمل، فلا بد من الظهور، أمرت الخيالة الجزائريين الخمسة بالاصطفاف والسيوف تلمع بأيديهم يتقدمهم الرقيب الدركي ثم سرت خلفهم بخطى منتظمة وكنت الوحيد الذي يلبس ثوبا موحدا من "الكاكي" فوق جزميتين روسيتين وكان فرسي الأسود يشعر بالزهو ويتحرك متراقصا من حين لآخر، وكان السرج "التكواسي" المرصع بالمسامير الفضية يلمع في تناغم مع لون الفرس الأسود الداكن وكنت متخففا من السلاح لا أحمل سوى سيف السرج والمسدس في الجنب المقابل ورباط الذقن ومن باب التحضر واللياقة وضعت القفازات فلا بد من إكمال عدتي ومن ورائي يسير رهطي من "أولاد بالسباع" على الخيول ورجال "أخيارهم" فوق الجمال وبعض أولئك قد خضبوا ذيول خيولهم بثمالة التين الهندي وقد أعطى ذلك لونا متميزا. وعلى بعد عشر خطوات خلف جمالتي البيضان هاهو "ولد سيدي" يسير في اعتزاز كأنه لا يرى شيئا مما حوله وقد أحاط به المغنون "إكاون" (174) وقد أمسك اثنان منهم بزمام فرسه ثم يأتي جمع من الخيالة يتوسطه خمسة أو ستة جمال محملة بالرجال وعلى الأطراف يتزاحم الجمهور مشيا على الأقدام في هيجان وصخب، كان الزنوج ينظرون مشدوهين إلى أمواج البيضان.

173- هو طول جسر "أفدرب".

174- "إيكيو": عازف ومغني وأحيانا شاعر (مثل المنشدين الإغريق قديما) يرافق القادة والوجهاء ويتغنى بانجازهم وبطولات أسرهم، وما وصفه "أفريرجان" هنا هو مشهد الدخول الرسمي لأحد الأمرء الأفارقة في انسجام تام مع التقاليد.

استدرت إلى الخلف من فوق راحلتي فإذا "ولد سيدي" وكل من حوله من الجمالة والخيالة ملتقون في الثياب وملثمون لا تبدو سوى عبونهم تماما على هيئة المرابطين يوم قدومهم⁽¹⁷⁵⁾ وقد توارت لحية "أخيارهم" تحت اللثام كغيرها. إنه مشهد رسمي أو أحد استعراضات السرك، وأنا أحتل فيه مكانة المدير، "المسير لوايا".

كان أفراد "المارسوين"⁽¹⁷⁶⁾ ينظرون إلينا عبر نوافذ ثكنات "راكينون" وقد بهرهم المشهد، وكان تمثال "ادرب" الواقف متعلا جزمته الكبيرتين ورأسه العاري يلمع تحت شمس أفريقيا ينظر إلينا من أعلى قاعدته الحجرية، فماذا كان سيقول لو كان حيا يشاهد الموكب؟ هنا شعرت بحرج كبير، فلم أر أحدا قدم من "المكتب" ليدلنا على الطريق وأنا أجهل مكان مبنى المندوبية. فكرت في سؤال أصحاب المحلات التجارية من السوريين المنتشرين حول ميدان الحكومة، كما تذكرت ما سمعته في "دكانه" من أن "المكتب" يقع في حي "اندرتوت"⁽¹⁷⁷⁾ فلا بد لنا أيضا من عبور جسر "سرفاتيوس" الواقع فوق إحدى شعاب النهر وبعد ذلك لا يخلو الطريق من "الكاتي"⁽¹⁷⁸⁾ سيقودني إلى المكان.

إلى الأمام إن، فما كدت أتوسط الجسر حتى تقدم إلي ملازم فخم القامة من الجيش الاستعماري أشقر البشرة كث اللحية وقدم لي نفسه بأنه ملحق بجناب "المكتب" وتطوع بمرافقتي إلى هناك. إنه الخلاص يا إلهي! توقفت لحظة للحديث مع الضابط، وفي هذه الأثناء حاصرنا القافلة واقتربت فحول الخيل من إنائها وبدأ الصهيل يتعالى خلفي، ما سيجري هناك؟ سيكون العراك خطيرا فوق الجسر. لقد جاء الاندفاع من الخلف، فشعرت وكأنني سأسقط ولكن خطرت لي فكرة، فاستدرت إلى الخلف، من فوق راحلتي فإذا أحد "البيضان" الذين يزاحمونني فسددت له لكمة في الجبهة بقبضة يدي وبالصدفة كان أحد "الأمرء".

وبهذا التصرف البسيط أنقذت الموقف.. فتقهقر الجميع إلى الوراء بمن فيهم "ولد سيدي" فرغ المغنون المحصورون أصواتهم وانهالوا على الدفوف يضربونها بانفعال هستيري، فابتعدت صحبة الجزائريين.

175- هذا صحيح فاللثام من تقاليد صنهاجة، وهو هنا يستخدم كرمز للأبهة والمكانة لدى بني حسان.

176- "مارسوين" يطلق على جنود مشاة البحرية ويشير "افير جان" في الجملة الموالية إلى تمثال "ادرب" المنصوب وسط ميدان الحكومة.

177- قرية صيادين قديمة أصبح اسمها يطلق على كل التجمع السكاني داخل لسان "برباري" وهي إحدى نواحي "سينلوي".

178- "الكاتي": وكيل شرطة (بالبرتغالية: الداد).

كان شارع "دود" غاصا بالبشر ومن تركوا أعمالهم⁽¹⁷⁹⁾ وجاؤوا يتدافعون على طريق "ولد سيدي"، انطلقت صحبة الخيالية لنسبق هذا الأخير إلى "المكتب".
وما كادت قدمي تلمس الأرض عند النزول من فوق الفرس، حتى تلقاني ثلاثة نقباء ظرفاء، وعرضوا علي الإقامة وتناول الوجبات معهم، فقبلت ومما شجعني على ذلك كون منزلهم يقابل باب "المكتب".
نزل "كبولاني" إلى الطابق الأرضي للبنائية، وبعد التحية، أخبرني بأن إقامتي في "سينلوي" ستستمر أسبوعاً أو أسبوعين ونصف وربما أسبوعين.
أما ولد "سيدي" فقد أمره بالجلوس بعض الوقت ثم أخبروه أن "كبولاني" سيستقبله من الغد. وتوجهوا به إلى إقامة القادة حيث هيئوا له مسكناً مؤثناً. لكي يستريح ويتكيف مع مدينة "سينلوي" حيث يشعر بالغرابة لأنه لم يزرها قط.

¹⁷⁹ - بالفعل يقام سوق صباح كل يوم تحت ظلال النخيل على حافتي الشارع توجد فيه الخضروات واللحم والسّمك والقشريات تأتي بها زوارق "اندرتوت" الجميلة.

في سان الويس

عشت حياة البيروقراطية طيلة أحد عشر يوما وهو أمر لم يكن قط يليق بي، كما أنني في نفس الوقت آخذ "ولد سيدي" في جولاته أدله على الطريق فأذهب كل صباح لأخذه من إقامة القادة لأذهب بته إلى "المكتب" من أجل التباحث مع "كبولاني" وأحضر محادثتهما، وأبدي رأيي عند طلب ذلك كما أن حضوري يطمئن "ولد سيدي" ويبدد خجله وآخذه أحيانا للنزهة على الخيل أو في عربة وأذهب به إلى الموسيقى في ميدان الحكومة حتى أنني أقدم له المشروب في النادي العسكري لقد كنت أرافقه كظله إلا أنه يفلت مني أحيانا ويذهب إلى حيث يقع ضحية أصدقائه القدماء من المولدين وخارجا عن ذلك، أحضر سجل ضرائب قبائل "اترارزة" الغربية مثل "إكميلن" الذين تجاوزوا إلى الضفة اليسرى تهريا من دفع الضرائب المفروضة في موريتاني. ومتى تم إعلام الإداريين المعنيين بمكان وجود هذه القبائل، فإنها تدفع ضريبة الرؤوس في السنغال ولهذا السبب ما تلبث هذه القبائل أن يعود إلى الضفة اليمنى.

كان "كبولاني" يستدعيني من حين لآخر لتوضيح بعض المسائل وخاصة من أجل تشنيف مسامعي بعرضه المبهم دائما والمتفائل حول مشاريعه.

كانت جماعات من البيضان تتبعني في كل مكان، في الشارع وفي المكتب وفي مكان إقامتي بعضهم يعرفني ويبدو معتزا بذلك والبعض الآخر يرغب في التعارف معي. وكانت النساء من البيضان تتدافعن في الزحام من أجل رؤية و"لد سيدي" ويتجاسر بعضهن على اختلاس نظرة من تحت الملحفة. جددت العهد بالحياة الحضارية ولكنني كنت أزور جماعات البيضان كثيرا وقد اتصل بي تاجر ثري من أولاد بالسباع يسمى "محمد سالم" كان منذ أربعة أشهر قد ذهب إلى بني عمومته موفدا من طرف كبلاني فاستدعاني عدة مرات في منزله حيث تلتقي جماعة أولاد بالسباع وقد أغتنم هؤلاء فرصة لقائي في سينلوي ليدافعوا عن أصدقائهم الذين أسبئ استقبالهم في "سهوة الماء" عند عودتهم من مناطق "كنته" وكان كبلاني يعطف على "كنته" وهذا جديد بالنسبة لي وبالنسبة لأصدقائي من أورد بأسبع وكنت أخشى أن يشكل ذلك حجر عثرة حقيقي في وجه دخولي المنظمة. ما السبب في تعلق كبلاني بجماعة

"كنته"؟ ماذا قدموا لنا أكثر من غيرهم من البيضان؟ ذلك لغز محير⁽¹⁸⁰⁾ كنت أذهب عدة مرات في الأسبوع لتناول الشاي المنع في منزل "محمد سالم" حيث توجد قاعة مطلية بالكلس الأبيض ومؤتة بحشايا مغربية على هيئة الأريكة وكانت أحاديث "الجماعة" تدور دائما حول أعدائهم التاريخيين "كنته" أو حول أهل آدرار الذين يكن لهم أولاد بالسباع نفس الشعور الذي يكونه "لكنته". كنت أجد ضمن هذه الجماعة ممثلين لجميع فروع القبيلة تقريبا ومن ضمنهم صديقي القديم الشريف عبد الرحمن وكان شديد الارتباط بي شخصيا وقد كتب بذلك إلى نجله "بالتبني" الدماني محمد وأمره بالذهاب معي إلى نواكشوط حين أسافر إلى هناك. لا أعرف حتى الآن طبيعة القرار الذي سيتخذه كبلاني بشأن أولاد بالسباع وخلافهم مع أصدقائه الجدد "كنته". والمؤكد هو أن جماعة أولاد بالسباع نفسها التي قامت بالهجوم على الملازم "دوفور" عند بلدة "مال" والملازم "روس فلدير" عند بلدة "كيم" كانت مستعدة في شهر أبريل للانضمام إلى حلف الفرنسيين، أما "كنته" فيتساءل المرء عن ما سنستفيد منهم في سبيل قضيتنا ولا أجد تفسيراً لتقريبهم سوى محاولة إرضاء الشيخ سيديا تلميذ "كنته" عبر الطريقة "البكاية"⁽¹⁸¹⁾ أما افتراض صدور أمر حكومي بالاهتمام بهم من أجل الاستفادة منهم في "تنبكتو" في مجال العلاقات التي يمكن أن تربطها مع موريتانيا، فلا أعتقد ذلك لأنني متأكد من أن الحكومة العامة تدرك بالفعل عدم وجود أية علاقة بين "كنته" الشرق و"كنته" الغرب اللهم إلا اشتراكهم في بغض المسيحيين والاتصاف بالخيانة والخديعة⁽¹⁸²⁾. لا بد من استدراج أولاد بالسباع إلى صفنا رغم ما لحق بهم من شبهة اتجاها في فترة 1900 إلى 1902 لقد أصبحت جماعة محمد ولد أعرم مخصصة لنا من بينهم وتقدم لنا خدمات عظيمة ومن السهل الوصول عن طريقها إلى كسب ثقة أفراد القبيلة الآخرين. أعتقد أن هذه المسألة سنتال حظها من الدراسة لأن دعم أولاد بالسباع لنا سيكون حاسما في السيطرة على آدرار. وعلى كل حال أستطعت شخصيا أن أربط علاقات جيدة مع قادة أولاد بالسباع وأصبحت

180- هنا يظهر جهل كبلاني بالدور الحاسم الذي لعبه "كنته" وما زالوا يلعبونه بوصفهم أقوى قبائل الصحراء الغربية سواء على الصعيد الروحي أو على الصعيد الاقتصادي وهو ينتقد على "ولد سيدي" وقوعه تحت تأثير "أصدقائه" ولكن ألا يقع هو نفسه تحت تأثير علاقته بأصدقائه من أولاد بالسباع؟

181- يحاول أفيرير جان تصور الأسباب التي حملت كبلاني على اتخاذ هذا الموقف.

182- لقد أعماه الجهل والأحكام المسبقة عن إدراك دور "كنته" فهم الذين ساعدوا "ريني كايي" على إكمال رحلته إلى تنبكتو مع أنهم أدركوا أنه كان يخفي مسيحيتيه.

مطمئنا ومتأكدًا من الحصول على دعمهم حين أطلب ذلك باسمي شخصيا الذي أصبح معروفا لديهم⁽¹⁸³⁾.

كل الفرق بين الماضي والحاضر هو أننا الآن سنعرف ما يستحقه كل واحد وأن علينا أن نراقب الأمور تقاديا لحدوث تجاوزات فكل مزارع يتعرض للاستغلال المجحف سيكون له حق الاتصال بنا ولكننا في المقابل سنتدخل بقوة ضد من يرفضون أداء ما عليهم من مستحقات لقبائل "حسان" وستحدد وتنظم هذه الحقوق وبذلك سنقضي على التعسف ولا يمكن تحقيق ذلك في الواقع إلا في مرحلة لاحقة لأن عملنا الحالي أصبح بالفعل ثقيلًا. كل هذا يوضح بالنسبة لي قضية "أولاد أحمد بندمان" ويغير أفكارى المعارضة للأساس الذي تقوم عليه إدعاءات جماعة "الأمرء" ويبقى الشكل الذي تمارس فيه الأمور، فهو غير مقبول. استقبلت في "المكتب" تصريحات هؤلاء النبلاء وأكثرهم فقراء إلى حد ما ولكن بعضهم مثل "عثمان" يمتلك أقطاعات واسعة وخلاصة الأمر أننا سنعمل أوراق إضافية ونثير استياء من اعترفنا بحقوقهم وسجلناها دون أن نستطيع في الوقت الحالي دعمهم أو القضاء على التعسف. ولكن الاعتراف بالحقوق كان كافيا في الوقت الحالي ومن السابق لأوانه حسب رأيي الانتقال إلى العمل بهذه الحقوق بل يتعين عمل ذلك في وقت لاحق وسيكون إجراء جيدا كما يبدو لي أن العمل الذي فرضه علينا السيد "كبولاني" ليس سوى خدعة ليوهم النبلاء أننا قد شرعنا في التحرك منذ الآن إلا أن الاعتراف بحقوق "حسان"، وهو حاصل من حيث المبدأ، يفرض علينا مزيدا من اليقظة في حماية الزوايا والأتباع وكثيرا ما يأتي الأتباع يشتكون عندنا مما يزعمون أنه عمليات نهب وعنف يتعرضون لها وقد لا تعدو كونها طريقة غير مقبولة لتحصيل الحقوق يظهر من الفحص الموضوعي أنها حقوق مستحقة فهناك بعض المدنيين الذين يشكون العنف بمجرد حضور من يطالبهم بما هو عليهم فيحاولون التخلص من دائنيهم بالشكوى من السرقة. لقد أصبح دورنا معقدا جدا ومن غير اللازم الدخول في عمليات التحصيل تحت الرقابة فيما يتعلق بالحقوق المعترف بها لحسان فقد يحين وقت ذلك عندما تتم السيطرة الكاملة على البلد وهو أمر لم يتحقق بعد مع الأسف. بفضل دعوات "كبولاني" كنت أغتتم فرصة وجودي في "سينلوي" للتعرف على أغلبية رؤساء القبائل الذين لم تتح لي فرصة

¹⁸³ - من السهل أن يتعارف الصعاليك، ففرير جان يقدر في أولاد بالسباع قدراتهم الحربية وما لديهم من حب المغامرة ولكن ما يقومون به من غارات قد لا يكون مناسباً لما نريده من دخول المنطقة وقد ينفّر المجتمع ويخل بميزان القوى لأغراض عقيمة.

مقابلتهم في أترارزة فمعرفة خصائص كل واحد من رؤساء القبائل أمر مفيد لأنني أعتقد الآن أن من يتحكم في رؤساء القبائل يتحكم في قبائلهم أيضا ومن يعرف هؤلاء الرؤساء سيعرف كيفية التعامل معهم. كان "كبولاني" يصف مبدأ الجماعة بالمبدأ "الخصب" وكان متأكدا من وجهة نظر الغازي أن هذا التنظيم المهيمن هو مصدر تشتت السكان المحليين⁽¹⁸⁴⁾. ويسبب هذا التشتت لا تكتسي الجماعة أهمية في منظور قيادة المنطقة كما أن غياب إرادة وحيدة وقوية لرئيس محترم يكون وسيطا بين سلطتنا وبين القبيلة فلن نجد من ينفذ قراراتنا سوى المتطفلين على الجماعة وهم قادة بدون سلطة تم تعيينهم لأنهم لا يكمن أن يحصلوا على قوة السلطة وهم يقودون السكان المحليين تماما مثل ما يفعل رئيس مجلس غرفة لا يتأكد من ولائها أو سنجد أنفسنا أمام هذه الجماعات مجتمعة في شكل جمعيات مداولة من الوجهاء الذين يناقشون أوامرنا ولا ينفذونها إلا إذا اقتنعوا بأنها تناسبهم وفي الحالة العامة هناك مسؤول وحيد أمام السلطة الفرنسية التي هو مكلف بتنفيذ قراراتها وفي هذه الحالة الأخيرة لا بد إما من معاقبة جميع المتمردين وهو ما فيه تجاوز للهدف وهو في الغالب مستحيل التحقيق عندما يكون الكل متمردا، وإما ترك الأمور تجري وهو ما يقوض سلطتنا وهناك خطر آخر يتمثل في التدخل في التفاصيل التاريخية للقبيلة وعندها سنضيع في متاهات لا نستطيع الخروج منها. أحد هذه البدائل الثلاثة يلخص الوضعية التي نواجهها خاصة في قبائل الزوايا: فالقادة الكبار لا يقودون القبائل إلا من الناحية الروحية⁽¹⁸⁵⁾ في حين أن الجماعة تمارس سياستها الحقيقية بالطريقة المقبولة لديها تلك هي أوضح نتائج "مبدأ خصوبة" الجماعة. توجد لدى حسان أحلاف كما لدى الزوايا ولكن القادة في حسان يتمتعون في الغالب بنفوذ متوارث أو مكتسب من حياة الحرب أو بسبب الدهاء وأحيانا الكفاءة لذا يمكن التعويل عليهم فهم وكلاء حقيقيون للحكومة. ويكفي من أجل الاستخدام المناسب أن نتعرف عليهم بصفة فردية وتدرس مداخل ومخارج شؤونهم وقد مكنتي المقام في "سينلوي" من إجراء هذه الدراسة لنحو عشرين من القادة البارزين لمنطقتي لأنهم قدموا جميعا بدعوة من "كبولاني" وكانت هذه فرصة لا تعوض بالنسبة لي. ما فرغت من قوله للتو يفسر لماذا نعتبر نظام الجماعة عامل تقسيم

184- لا يبدو ذلك، فالمحافظة على الجماعة مبدأ تقليدي يتمسك به مجتمع "البيضان" ولا نعرف من الناحية العملية ماذا نجعل مكان الجماعة.

185- يبدو أن "أفيري جان" غير مضطلع على النفوذ السياسي والوزن الاقتصادي لكبار القادة الدينيين، "الشيخ سيديا" و"الشيخ سعدوه" وأخيرا "الشيخ ماء العينين".

للكتلة المحلية وبالتالي عامل تسهيل لغزوها كما أن نفس النظام يجعل المناطق المغزوة أسهل حكما مما عليه الحال في نظام القادة المسؤولين. ولهذا السبب تعتبر قبائل حسان رغم شغبها المتواصل، أسهل على الحكم من قبائل الزوايا. وبطبيعة الحال يحظى العسكريون بالتقدير لدى قبائل حسان التي تعتبرهم أقرب إلى عقليتها⁽¹⁸⁶⁾ ولكنها إذا كانت تتصاع للأوامر بصفة أفضل فإن ذلك يعود إلى بساطة جهازها التنظيمي القائم على أساس قوي ولكنه بسيط. كان لدي موضوع دراسة آخر في "سينلوي" يتعلق بالعقلية السائدة لدى سكان هذه المدينة. وقد أدركت بالطبع شعور العداة الذي يكونه لموريتانيا وكنت متأكدا الآن أن العسكر ينظرون إلينا نظرة سيئة أكثر من مواطني السنغال الآخرين. ولكن كنت أحتاج للانغماس بعض الوقت في هذا المناخ الفاسد الذي يسعى للإضرار بموريتانيا دون أن أعرف لماذا. وقد كونت فكرة بناء على ما جمعته من مؤشرات أثناء النقاشات.

المؤشر الأول: اتصل بي في الشارع في اليوم الأول لقدمي صحبة "سيدي" أشخاص من البيض كنت أعتبرهم من تجار المدينة الوجهاء وقالوا لي: "حسنا سيدي النقيب لقد أمسكتم إذن "بولد سيدي"، ولا شك أنكم ستسجنونه هنا". وكان خبر بهذا الشأن قد شاع في "دكانه" مفاده أنني متوجه به إلى "سينلوي" لهذا الغرض وقد بلغه ذلك وبتذكر ما أبداه من مخاوف في هذه الناحية قبل ذهابه من "أترارزة" وتجدر الإشارة إلى أنني قد وعدته بعدم التخلي عنه وطمأنته على التزامي بذلك التعهد. وإذا كان البعض قد أطلق هذه الشائعات بغرض إفساد علاقتي مع "ولد سيدي" فأغلبية سكان سينلوي ليست لهم عقلية ميكافيلية لهذه الدرجة وإنما يعود موقفهم إلى تعلقهم بالأمير السابق أحمد سالم. فقد بقي الكثيرون أوفياء لأحمد سالم في السنغال في جميع الأوساط وحتى في دوائر الموظفين السامين. وهذا هو السبب حسب ما أعتقد في كونه فور ارتدائه "سرواله الأبيض"⁽¹⁸⁷⁾ الأول" نحو سنة 1893 قد حظي بتعاطف واسع داخل المستعمرة ويعود احتفاظه بهذا التقدير لعدة أسباب منها أولا كونه مولدا فأمه زنجية من إقليم "والو" ويحيط نفسه بالزواج وغيرهم من الأعراق المختلطة وبالمنحدرين من الفئات الاجتماعية السفلى: الصناع التقليديين والمغنين (لمعلمين وإيكاون)⁽¹⁸⁸⁾ الذين لا

¹⁸⁶ - يبدو في خالة "أفيري جان" أنه نال إعجاب قبائل حسان واعتبروه واحدا منهم يتصف بالشجاعة والعدل ولديه "بركة".

¹⁸⁷ - سرواله الأبيض: الرمز الخارجي للإمارة في أترارزة منذ عهد "أعلي شنظورة".

¹⁸⁸ - لمعلمين وإيكاون: من الطبقات السفلى في مجتمع البيطان ويتزوجون فيما بينهم ولا يمكن أن يتزوجوا خارج فئتهم (بالنسبة لرجالهم على الأقل).

ينفرون من الزنوج كما يفعل حسان البيضان. فطبقة المهريين المشبوهين التي تحيط به تشبه الخليط السكاني للسنتوي وخاصة جماعات التجار الزوج المحليين الذين يتفاهمون كثيرا مع الأمير المولد نفسه حول صفقات مشبوهة في كثير من الأحيان ولكنها مريحة. وقد شهد عهد أحمد سالم كسابقيه انتشار النهب الذي تباع غنائه بأثمان بخسة على ضفة النهر فالمواشي مثلا كانت تباع بأدنى ثمن للتجار الذين يعيدون بيعها في السنغال بالأسعار المعهودة في هذه المستعمرة وقد يجدون فيها فوق ذلك بكثير فقد كانت عمليات النهب مصدر أرباح وثناء لهؤلاء. منذ أن تجاوزنا النهر لم تنقلص عمليات النهب ولكنها لم تعد تباع علنا على ضفة النهر كما كانت عليه الحال في عهد أحمد سالم وهذا هو السبب في تدني أرباح التجار الذين أصبحوا يحنون إلى عهد الأمير السابق. كان هبوط شعبية أحمد سالم بين البيضان في أترارزة في بداية دخولنا إلى موريتانيا معروفا جدا لدى أهل سينلوي. وهذا بالضبط أحد أسباب تدخلنا فقد جئنا إلى أترارزة سنة 1902 من أجل مساندة ضد ولد "سيدي" وكل من معه ولم نستطع مع ذلك أن نفرضه عليهم ولكن لحد ذلك الوقت كان التدخل يحظى بدعم الشعب ولكن كان هناك استياء من تركيز فرقنا على وسط ما زال صالحا للصيد في المياه العكرة. ومع أن أعدنا أحمد سالم إلى الإمارة بقوة السلاح سنة 1902 إلا أن ضعفه أمام أترارزة قد أجبره في 15 ديسمبر من نفس السنة على اللجوء شبه وحيد في "دكانه" حيث سلم في معاهدة لممثنا كبولاني كافة الحقوق المتعلقة ببلده وتعهد بان يعيش تحت سلطتنا منذ ذلك الوقت ومن ذلك الحين انهارت شعبية التدخل وبدأ اسم موريتانيا وكبولاني يصبحان موضع مقت في أوساط سينلوي وستحدث وقائع كان من شأنها أن تؤجج هذا العداء، فعندما توجه كبولاني إلى فرنسا 1903 كان قد أمر أحمد سالم ببناء على معاهدة 15 ديسمبر 1902 أن يستقر في المكان الذي يوجد فيه مخيمه في ذلك الوقت.

وفي نفس الوقت ومن أجل تأمين استقرار المنطقة وإنهاء الخلافات الداخلية حاول الجانب الفرنسي مصالحة "أحمد سالم" مع "ولد سيدي" ومن ناحية أخرى كان البيضان من جانبهم يسعون لتحقيق نفس الهدف ولكن لأغراض أخرى. فقد كان عثمان ولد إبراهيم أخليل يسعى لجمع كافة أطراف أترارزة ولكن بغرض مواجهة الفرنسيين فأصبحنا إذن نعمل ضد مصلحتنا من حيث لا ندري.

وما فتئت جهود عثمان وغيره من أولاد أحمد بندمان، الذين يتحدث باسمهم، أن آتت أكلها وتحت ضغط الإلحاح الشديد تخلى ولد سيدي عن "السروال الأبيض" رمز طموحاته إلى منصب الأمير معلنا بذلك تحيه في وجه "أحمد سالم" في حين أحتفظ هذا الأخير "بسرواله" تحت تأثير الفرنسيين. كان الهدف الشخصي للأمير هو أن يجمع في حلفه المتنافسين الذين ما زالوا على طريقه أي "ولد سيدي" و"ولد إبراهيم السالم"، خدمة لمصلحته ويدخل هذا الهدف ضمن ما يريده "عثمان" الذي كان يدفع جميع أطراف أترارزة إلى الاتحاد تحت قيادة أحمد سالم...

ولكن لمواجهة من كانت تتوجه هذه القوة الآخذة في التشكل؟ لمواجهةنا نحن الفرنسيين وليس غيرنا؟ وفي غياب براهين أخرى كان من الواضح أن "أحمد سالم" كان في شهري أغسطس وسبتمبر 1903 يشكل خطرا على مركزنا عند "أخروفه" ولم يكن فشل تلك المحاولات العدائية راجعا إلا إلى عدم إقدام الأمير ومن المعروف أن الهجوم على مركز فرنسي سيكون بالنسبة للبيضان قضية خطيرة دائما فإخفاق المجموعات الكبرى للأمير "محمد لحبيب" أمام قلعة "لايبار" في عهد "فدرب" أمام حفنة من رجالنا ما زال ماثلا في جميع الأذهان. وفي النهاية كانت نتيجة كل هذه المساعي ومحاولة المصالحة، سلبية فولد سيدي، مع أنه لم يسترجع السروال الأبيض، انفصل عن "أحمد سالم" وتوجه إلى الشمال. وقد تحدثت فيما سبق عن كيفية انفراج هذه الوضعية الغريبة وكيف كان الملازم "سيكولي" قد وجد نفسه مجبرا في أكتوبر 1903 على استعمال القوة لدعم الإجراء المتخذ من أجل القضاء على احتمالات نشوب صراع بين البيضان ونجم عن ذلك أن الصراع قد وقع بالفعل ولكن بيننا نحن وأحمد سالم والحال أن حادثة "تيكنت" كانت في ذلك الوقت قد أخذت ضد "سيكولي" وسببت له عداة أهل "سينلوي" الذين كانوا يذمون هذا الضابط الشجاع لأنه حمل السلاح ضد "أحمد سالم". والأدهى من ذلك أن "أحمد سالم" رغم تمرده الصريح لم يتم خلعته على المستوى الرسمي! وفضلا عن أسباب شعبيته في "سينلوي" حسب ما ذكرناه سابقا هناك أيضا سبب آخر هو مداراته: بسبب ما له من ديون على تجار المدينة فهو يطالبهم على أقل تقدير بمبلغ 140000 فرنكا. فالحكومة إذن "المهتمة" قبل كل شيء بالتجارة المحلية أي بالمدينين لأحمد

سالم وهم جميعا ناخبون مؤثرون⁽¹⁸⁹⁾، ستفعل كل ما في وسعها من أجل المحافظة على وضعية تمكنها يوما ما من الحصول على المال للتأثير عليهم ولهذا السبب سيتغاضون عند الحاجة عن كل الأخطاء ولهذا السبب أيضا لاموني على إبراز التصرفات المعادية وعمليات النهب التي ارتكبتها "أحمد سالم" ولهذا السبب أخيرا أخذوا علي كوني ذكرت القتلى الذين سقطوا عند "اتاكلاتلت" كما فعل زميلي في أترارزة الشرقية حين ذكر من قتلوا عند "سهوة الماء" حتى أنهم قالوا إنه كان بإمكاننا أن نتجاهل أسماء القتلى أو نعزو سبب موتهم لشيء آخر غير الحقيقة⁽¹⁹⁰⁾ وكون "ولد سيدي" قد ارتدى من جديد "السروال الأبيض" أي أعلن عن ترشحه لمنصب الأمير اعتبره كثير من أهل "سينلوي" فعل تمرد ضد "أحمد سالم" المفضل لديهم والذي ما زال يحتفظ بمنصب الأمير رغم تمرده ضدنا وهذا هو سبب مطالبة هؤلاء بسجن "ولد سيدي" متتاسين أن هذا الفعل قد ارتكب في الوقت الذي كان فيه الأمير السابق يهاجمنا. وهم يعتبرون الموقف الموالي الذي اتخذه "ولد سيدي" عديم القيمة في حين أننا بسبب ضعفنا ونحن نوشك على الطرد نحو الضفة وهذا بالضبط ما يريده أهل سينلوي... أنا أدرك بالفعل أن في سينلوي تجارا صادقين ذوي تبصر كانوا قد بدلوا مواقفهم حين اطلعوا على الوضعية الحقيقية في أترارزة ولكن المدينين لأحمد سالم وكافة السكان المحليين تقريبا أي أغلبية المواطنين في السنغال ممن لهم شأن يعتبرون الأمير السابق عدوا صريحا لفرنسا مهما كانت الأخطاء التي ارتكبتها ضدنا. هناك سوابق في هذه الوضعية فهؤلاء الناس هم أنفسهم، حين كانوا يعارضون القوافل المتوجة إلى أعالي النهر، كانوا يدعمون "أحمد شيخو" وجماعة "الساموري" ضد الفرنسيين إن لم يتجاوز دعمهم إلى تقديم الأسلحة الأتوماتيكية. وحين علم "أحمد سالم" باستدعاء "ولد سيدي" إلى سنلوي من طرف كبولاني، أحرق آخر أوراقه الدبلوماسية حين قدم عرضا بالاستسلام يوم 7 يونيو في الوقت الذي كنت أصل فيه مكتب المندوبية. وليس هذا العرض في حقيقة الأمر سوى مناورة... ولم يحل ذلك دون، نقاديا لإغضاب عدونا الذي بالغ في التنازل من مواصلة محاربتنا لدرجة أنه قدم لنا العروض، منعنا حليفنا ولد سيدي من امتياز الأمير؟

189- بالفعل، سكان أربع بلديات من ضمنها سينلوي في ذلك الوقت مواطنين فرنسيين أي ناخبين.

190- ما ذكره "أفرير جان" تؤكد أرسيفات سنلوي وديكار: أرسيف دكار 221 D و 17 G أرسيف سينلوي السلسلة E و N 1902.

طبعاً أحسن استقباله وأغدقنا عليه الإطراء حتى أننا منحناه بندقية صيد جميلة وهدايا أخرى ولكننا جعلناه ينتظر وبدأنا نخادعه يوماً بعد يوم وفي النهاية، فبعد أن لاحظنا أن عروض "أحمد سالم" بالاستسلام لم تكن سوى سخريّة مريرة هدفها منع تنصيب خصمه "ولد سيدي"، عرضنا على هذا الأخير عشر الضريبة (التي لم تحصل ولن يتسنى تحصيلها في هذه السنة) لكي يقبل التوجه فوراً لقتال "أحمد سالم" على مشارف آدرار! فضلاً عن ذلك أشعر أنني قد أسأت إلى "ولد سيدي" حين حاولت حمايته ولم يخفي عني كبولاني ما كان لدي من سوء سمعة في دكار وقد رأينا ما كان يأخذه علي أهل سينلوي فكانوا يسعون إلى منعي من تنصيب "ولد سيدي" في مكان "أحمد سالم" المحبب لديهم مع أنني لا أهتم بما إذا كان "ولد سيدي" سيصبح أميراً أو لا يصبح كذلك، ولكنني أعتبر أننا إذا كنا نريد الاستقرار في أترارزة فلا بد لنا من معاملته بالإنصاف. في الوقت الذي جئنا فيه بولد سيدي إلى سينلوي كنا بذلك نبعده عن مركز نشاطه كما أننا اجتهدنا في غيابه على تفكيك حلفه. وكانت كل هذه الدسائس من عمل أهل سينلوي وكانت نتيجتها الأولى هي أن يواجه ولد سيدي الذي أرسله المكتب لمحاربة أحمد سالم، صعوبة كبيرة في تجميع رجاله... إلا أن هذه الطريقة لاسترجاع لقب الأمير لم تكن مصدر نفور لدى ولد سيدي، ولكنها كانت تفرض عليه الذهاب إلى أكجوجت بحثاً عن أحمد سالم على مسيرة خمسة أيام على الأقل شمال نواكشوط مع احتمال الاصطدام بجميع قوى آدرار مجتمعة فالمهمة إذن في غاية الصعوبة... وهكذا غادر ولد سيدي سينلوي غير مرتاح ولا يتبين طريقه بوضوح ولكنه مع ذلك كان سعيداً لأنه نجا من السجن الذي توعدوه به. وكان يعتبر أن الفضل يرجع إلي في تخليصه من ذلك حتى أن أسطورة قد حيكت حول الموضوع في أوساط البيضان مفادها أنني تنازلت عن أحد أوسمتي مقابل تجنيب "ولد سيدي" دخول السجن وهي الأسطورة التي حصلت بموجبها فيما بعد على امتيازات التقدير والشهرة في أوسط حسان بصفة خاصة. هكذا يكتبون التاريخ في بلاد البيضان تماماً كما نفعل نحن (191).

كان كبولاني يستدعيني أحياناً أثناء إقامتي في سينلوي ليحدثني عن نواياه فيما يتعلق بالاحتلال العسكري لمنطقة أترارزة.

191- تدل هذه الأسطورة على الأقل على مدى شعبية "أفرير جان" في أوساط حسان.

كان النقيب "سيكولي" قد غادر إلى فرنسا في مهمة ليطلب من وزير الحرب الترخيص في اكتتاب عدد من الخيالة والجمالة الجزائريين وخاصة من منطقة الصحراء ومن بين أسلاك الرتب المحلية ليتولوا تأطير فرق الجمالة⁽¹⁹²⁾ الذين يرى كبولاني أنهم فيما بعد سيخضعون للتنظيم وتمنح لهم الجمال والخيول وحتى ويعطون زيا خاصا ومن جهة أخرى سنجعل إلى جانب أفضل فرقنا الحالية من الجمالة المؤطرين والمدربين، وحدات مكونة من العسكريين الزنوج السابقين القادمين بوجه خاص من الساحل السوداني وتمبكتو.

وحينها سينتقل الرماة السنغاليون من جديد إلى جنوب النهر حيث سيعيشون كما يحبون دائما في مناطقهم، إلا أننا سوف نجمع عند "أخروفه" وحدة كاملة من 150 رجلا سنتولى عمليات المصادرة التي يقوم بها النقباء العاملون في "سهوة الماء" و"نواكشوط". سيكون فيلق الخيالة الجزائريين في نفس الظروف التي كان فيها عند "بودور" و"دكانه" فضلا عن ذلك ولغاية قدوم "سيكولي" ومن معه من الجزائريين سيبقى الجمالة الحاليون تحت قبضتنا.

ورغم أن من غير الواقعي جعل حاكمين مقيمين على رأس قوة واحدة دون توزيع واضح بينهما، فقد زاد هذا المشروع من قوتنا ولكن هل نستطيع العمل كما ينبغي في "أخروفه" بنفس الكتلة من الرجال؟ لست متأكدا من ذلك.

بدأت أشعر بالضجر في سينلوي وعاوندي الشوق إلى حياة الصحراء وفي إحدى الأماسي استدعاني كبولاني وكانت بين يديه رسالة من الجنرال مسيبة بتقرير من الملازم الذي يقود فرقة الجمالة السنغاليين المحمولة على الجمال المرابطة في نواكشوط... "لقد تبين، يقول كبولاني، من قصص قادة الفرق الذين يسعون إلى التأثير على النقباء المقيمين خارج الإطار أعتقد أن هؤلاء الناس يطعنونكم في الظهر، لا بد من وضع حد لهذا، سنتوجهون من جديد إلى نواكشوط، وهذه الأوامر".

سأستقل أول مركب بخاري متوجها إلى "دكانه".

¹⁹² - هكذا توجه العريف الدركي "افويل مان" إلى موريتانيا بعد تناوله الغداء على مائدة النقيب "سيكولي" في مارسيليا.

تطورات في موريتانيا

سافرت يوم 22 يونيو على متن المركب "بورونيس دبوردس"⁽¹⁹³⁾ رفقة السيد "آدم" الإداري رئيس مكتب المندوبية.

وغداة ذهابي من سينلوي أرسل كبولاني عن طريق البر فرقة الجمالة والخيالة التابعة لي وكانت مؤونة هؤلاء من الأغذية جاهزة عند المورد وكان العريف الدركي على علم بذلك وما عليه إلا أن يمر لتحميلها فوق أحد جمالنا. وفي صبيحة يوم 23 كان الرقيب الدركي والخيالة والجمالة وجمال حمل الأتقال، الجميع كان عند المورد فادعى لهم أنه أرسل المؤونة بالأمس في المركب الذي يقلني. فتوجه ضابط الصف إلى "المكتب" يطلب التعليمات، فأمره بعدم الذهاب حتى الغد وفي انتظار ذلك عليه أن يأخذ الأغذية سلفة على حساب موريتانيا. وفي الصباح الباكر يوم 24 حضر الجمالة والجمال لأخذ المؤن ولكن المورد كان قد وجد المؤن التي زعم بالأمس أنه أرسلها فقد بقيت داخل متجره ولكنه رفض تسليمها إلى الجمالة متذعرا بأن ضابط الصف قد يتكلف العودة لاستلامها بنفسه. وحول هذه المسألة جاء المترجم "أعبيدي" ليقدم تقريرا إلى الرقيب الدركي الذي استشاط غضبا وأمر بالانطلاق فورا دون أخذ المؤن. فقام الجمالة الذين لا يريدون السفر دون "بسكويت" وهم محقون في ذلك، عينوا ثلاثة منهم ليسوقوا جمال قافلتي أما الباقيون فبعد أن صرحوا بعدم رغبتهم في السفر بدون مؤن، فقد توجهوا إلى "المكتب" لتقديم تقرير حول الحادثة. وعند وصول الرقيب الدركي بلدة "لابسار" غير رأيه بعد أن فكر مليا أثناء الطريق وأرسل جملا إلى سينلوي مع أحد الجمالة ليأتي بزملائه ويحمل المؤن الغذائية ولسوء الحظ اعتمد ضابط الصف على خبرته الخاصة بدل أن يطلب رأي أحد المجربين من الجمالة اختار الجمل بنفسه فسقط اختياره على أسوأ الجمال حالا فمات الجمل أثناء الطريق قبل الوصول إلى سينلوي ومن جانب آخر اتخذ "المكتب" قرارا فأرسل الجمالة إلى "انجاكو" وأمرهم بالذهاب يوم 25 عن طريق الضفة الشمالية للنهر وأن يتوجهوا إلى "دكانه" مشيا على الأقدام ولكن دون مؤونة غذائية!. وحين علم الرقيب الدركي بكل هذا غادر بلدة "لابسار" هو الآخر ووصل "دكانه" صباح يوم 27 في حين لم يصل

¹⁹³ - "بورونيس دبوردس": مركب بمحرك يبحر على النهر حتى "بودور" في فترة انخفاض المياه وحتى "خاي" في أعالي المياه. ومن التقاليد أن يحمل المركب النهري اسم شخصية أشتهرت في السنغال فبعد "بورونيس دبوردس" جاء "بوفلير" ثم "بو المقدم".

الجمالة الذين يصحبهم "أعبيدي" إلى "دكانه" إلا يوم 29 وكان المساكين قد تغذوا أثناء الرحلة بالقليل الذي تزودوا به أثناء مرورهم بمخيمهم عند "انجاكو" فوصلوا جياعا ومنهكين. وكان أول ما قمت به هو إطعامهم ومنحهم يوما من الراحة. لقد سردت هنا تفاصيل هذه المغامرة لأنها تبرز العقلية المؤسفة لدى المدنيين وكذا العسكريين الذين لم يكونوا يسعون إلا لإثارة المتاعب ووضع العراقيل أمام "الموريتانيين" كما تبرز إهمال عمال "مكتب" المندوبية. انطلقت مساء يوم 30 يونيو بقافلتني حتى ابتعدت عن النهر مسافة 12 كيلومتر. وبصعوبة حصلت على 12 جملا وثمانية ثيران لحمل الأمتعة وكلها حيوانات منهكة. قطعت يوم 1 يوليو مرحلة قصيرة من "خيو" إلى "بوتريفيه" والتقيت أثناء الطريق بابن أخت "أخيارهم" يسمى "سيدي ولد إبراهيم" الملقب "كيطان" ومعه فرقة من قوم العجوز ذي اللحية الزرقاء فانضموا إلى جماعتي المؤلفة من 27 من الرماة السنغاليين و 10 من "أولاد بالسباع" وفي يوم 2 يوليو كنا نجتاز الكثبان الكبرى المغطاة بالأعشاب شمال غرب "بوتريفيه" ولم نصل المذرذرة إلا عند الزوال بسبب اشتداد الحر فعسكرنا على الطرف الشمالي للوادي الكبير تحت ظلال أشجار الصمغ الضخمة. ولم ألبث ساعة حتى رأيت "عثمان" قادما في هيئته الرسمية كالعادة يمتطي حصانا رمادي اللون مرقطا وخلفه 5 من الفرسان فترجل من فوق الفرس وأمسك يدي بين يديه الاثنتين ثم أخذ في الاعتذار وقدم لي قطع جمال سمان لأستخدمها مكان جمالي المنهكة ثم خاطبني قائلا: إن من غير اللائق لقائد كبير مثلك أن لا تكون عنده وسائل أخرى للنقل غير هذه. وتساءلت في نفسي عن السبب الكامن وراء كل هذه الديباجة. أريد أن أتخلص من عثمان بأي ثمن فبدأت أتناول طعام الغداء أمامه بصفة تلقائية وكأنه غير موجود وفي الأخير حين لاحظ عدم اهتمامي بثرثرتة، ألقى علي خبرا مثيرا: "هل تعلم أن "أحمد سالم" قد اختارته جميع قبائل آدرار قائدا عسكريا لها؟ وفي ثلاثة أشهر ستراه يزحف على أترارزة بجيش من الفرسان حتى يصل "شوبوك" لكي يغطي على انسحاب جميع الزوايا وسيكون هؤلاء قبل ذلك قد رفضوا أن يسددوا لكم الضريبة وسينسحبون إلى الشمال، وقد عرض على "أحمد سالم" قيادة 600 من الفرسان ما رأيك في هذا؟".

كان جوابي قهقهة كبيرة: "أوه! أوه! 600 فارس، هذا كثير! ولكن أليس هذا جيش كبير جدا بالنسبة لقائد مثلك أنت⁽¹⁹⁴⁾! ومع ذلك، لا شك أنك تتذكر أنك قلت لي في السابق إنك لا تحتاج للذهاب بحثا عن الرجال في آدرار لأنك رجل قوي وستجد ما تحتاجه منهم في أترارزة نفسها!" ثم شكرته على هذه المعلومات، ربما تلقى رسالة من أحمد سالم؟ ألزمته بإلحاح بأن يقدمها لكبولاني واعتقد أنه فهم أنني أسخر منه لأن هذا البالون المنتفخ غرورا قد انصرف في النهاية كالمطوم... أما أنا فقد غادرت قبل طلوع النهار وكان الحر خانقا ولم تعد ثيران حمل الأمتعة قادرة على الصمود فبدأت تتكئ على الأرض وبدأ الرجال يتزحون تحت الأشجار وبما أن المنطقة آمنة فيمكن إذن أن أتركهم هنا. أرسلت "كيطان" إلى "أخروفه" لإخبار خاله "أخيارهم" بوضعيتنا وفي يوم 4 يوليو عند الثامنة صباحا حضر العجوز ذو اللحية الزرقاء ودخل خيمتي وتجاوزنا أطراف الحديث بحرية فقد وضعه كبولاني تحت تصرفي بصفة خاصة. مكثت ليلة 4 إلى 5 يوليو عند "انبيكه" وفي حدود الساعة الثانية بعد منتصف الليل أرسلت فرقة أولى إلى "أخروفه" وعند الساعة العاشرة التحقت بها. وكان "المكتب" منذ 15 يوما قد أخبر الرقيب الدرقي "رافين" دون إشعاري أو استشارتي، بأن يتهيأ لإخلاء المركز ولكن لم يصل خبر عدم وجود "أخروفه" على لائحة المراكز التي سيتم إخلاؤها إلا بالأمس! وكان "رافين" الشجاع قد فقد الأمل فلم تعد عنده لقمة أرز واحدة لمن معه من الجمالة سأرسل له مؤنا غذائية من نواكشوط فذلك هو أقرب مكان لذلك. ورغم ما يعينه مركز "أخروفه" من نقص المؤن، كان الحر شديدا لدرجة أجبرتني يوم 6 يوليو على ترك رجالي يخلدون للراحة يوما كاملا وهنا وصلتني أخبار عن ولد "سيدي" فقد عاد من سينلوي تائها فقد وجد جماعته مشتتة إلى أربع فرق بفضل وجهود "المكتب". قدم إلي "ولد سيدي" عند "أخروفه" مساء 6 يوليو وقد بدا لي غير متحمس لأقصى درجة ولا أعرف ما يخبئه له المستقبل ولكن بالنسبة لي لقد أخطأنا التصرف حين لم نرد استخدام هذا الشاب الذي يمثل في المنطقة السلطة أولا وهي كبيرة فهو منحدر من "محمد لحبيب" لأنه من فرع الأبناء الكبار وليس خلاسيا ولديه فضلا عن ذلك شعبية لا جدال فيها بسبب ما يحظى به من احترام لدى الكثير من

194- من غير المعقول وجود 600 فرس في آدرار (من أين لها التغذية والعلاج؟) لقد حاول عثمان استغلال جهل "أفرير جان" الذي لم يكن قد سافر إلى آدرار.

الزوايا⁽¹⁹⁵⁾. ويتعلق الأمر هنا بولاء حقيقي مع أنه جديد وقد جاء في وقت حرج فهو لا يخلو من جرأة وحتى نوع من الجود وأخيرا هو الرجل الوحيد الذي يمكن أن يجلب اسمه عددا من المساندين يكفي لحصوله على منصب الأمير عندما نتخلى عن فكرة الإدارة المباشرة للبلد التي تكلفنا كثيرا لنعدل عنها إلى أشكال الحماية الأقل تكاليف والتي لا تعرضنا كثيرا للمشاكل مع السكان.

ولكن ما هي مواقفنا من "ولد سيدي"؟ وهل نعرف بالتحديد ما نريده منه؟ أعرف الآن مدى تعلق "أخيارهم" بولد سيدي، ولكن لأية مصلحة؟ أخبروني أنهم على مستوى المكتب يريدون استخدام "ولد سيدي" في مواجهة "أحمد سالم"، وسأستخدم "أخيارهم" لهذه المهمة. إن "أخيارهم" هذا ذكي جدا ويمسك دائما بخيوط ما يجري في المنطقة أما نحن فتمسكه هو، وكذلك عثمان عن طريق أراضيهم الواقعة تحت ضمانتنا، و"أخيارهم" رجل مجرب وواقعي ويعرف الفرنسيين أكثر من غيره من البيضان ويدرك أن دخول أترارزة في صراع مفتوح معنا ليس في صالحهم وهو رجل ثري عن طريق اشتراكه مع "عثمان" ولديه مواشي كثيرة مع أصدقائه من "أرحاحله أولاد عمران" ولديه ثروة تحت الشمس وهو متورط في خدمتنا ولا يمكن أن يتراجع عن هذا الخط ويسخر البيضان من موقفه الذي يعتبرونه خنوعا عبر المقطع الرباعي الآتي:

أَشِيْبَانِ	أَفْسَنْ أَكْبِرْتْ
كَبُولَانِي	تَفْرَحْ لَأَشْفَتْ

و"أخيارهم" محبوب لدى أتباعه بخلاف "عثمان" البخيل لدرجة تجعل مناصريه لا يلبثون طويلا معه ويستطيع "أخيارهم" تحت سلطتنا أن يستعيد النفوذ الحقيقي الذي كان يتمتع به سابقا بوصفه وزيرا أول لأمرأ أترارزة ونحو هذا الهدف تتجه آمالنا. أنوي الاستعانة "باخيارهم" (وهو تحت قبضتي وأنصاره من رجالي) من أجل التأثير على "ولد سيدي" وإقناعه

¹⁹⁵ - هذه بالضبط مواصفات الأمير ونذكر بالإضافة إلى ذلك أن "ولد سيدي" كان تلميذا لباب ولد الشيخ سيديا شيخ الطريقة القادرية البكائية ذي النفوذ الواسع.

بأن مصلحته هي دائماً أن يبقى بيننا نحن الاثنين حتى وإن اقتضى منه ذلك التخلي عن أصحابه وتركهم يتناحرون فيما بينهم مثل ما يفعل "العلب" و"البيدات". انطلقت يوم 7 يوليو وبعد رحلة شاقة في حر شديد وصلت أخيراً يوم 10 إلى نواكشوط في حدود الحادية عشرة صباحاً ولا أجد العبارة لوصف ارتياحنا بنهاية رحلة البؤس التي مررنا بها. خاصة وأن الأمور على ما يرام في نواكشوط باستثناء الوضعية الصحية العامة المعنوية والجسمية مع أن الصحة المعنوية تتوقف كثيراً على الجسمية ونحتاج جميعاً بعد هذا السفر المضني إلى قدر من الراحة والهدوء. قدمت إلينا فرقة المرافقة بقيادة المتدرب في سلاح المدفعية من "دكانه" حاملة إلينا بعض المؤن فنحن نعاني من نقص في كل شيء منذ شهرين وكنا نعيش فقط على الحبوب الغذائية وما نأخذه من الحديقة التي لم يبدأ إنتاجها بعد ولكن في هذا الحرمان جانباً إيجابياً فهو يقلل من حالات التسمم⁽¹⁹⁶⁾ وشرب الكحول كما أننا تجاوزنا محنة فقدان التدخين. وعلى العكس من ذلك واجهنا داخل المركز غزواً حقيقياً من جيوش العناكب التي تعيش في "الفرنان"⁽¹⁹⁷⁾ وهو شجر يغطي الكثبان المجاورة له عصارة كاللبن فيها نسبة من الكاوتشو فخيوط العناكب مطاطية (ربما يوجد لها استخدام مفيد في فترة لاحقة). ولكن العناكب مزعجة جداً فهي تدخل في كل مكان وتتعلق في السقوف عبر خيوطها المطاطية وتسقط في الأواني وعلى الفراش. هاهي الأمطار، تلقينا عاصفة ممطرة يوم 21 يوليو وعاصفة أقوى يوم 24 منه وكان الحر شديداً بين المطرين والمناخ ثقيل وليس المقام في نواكشوط مريحاً في كل الأوقات وخاصة في هذه الفترة لذا سميناه "جزيرة الشيطان"⁽¹⁹⁸⁾ فهناك مبعدون ليسوا أسوأ منا وبكثير. وليس الأمر مهماً إذا لم يكن ينقصنا سوى الرفاهية الجسمية ولكن الانشغالات السياسية قد لاحقنتني حتى في نواكشوط "فولد سيدي" مستاء ولذلك ما يبهره ولا بد من أن أفنعه بأن يبقى هادئاً حتى يعود كبولاني الذي تفيد الرسالة التي وصلت يوم 24 يوليو أنه قد يكون سافر إلى فرنسا حيث سيبقى حتى الخريف. ولتهدئة "ولد سيدي" إبعاده عن المشاغبين من جماعة "الأمرء" التي قد تدفعه بإيعاز من عثمان إلى تقليد سلوك

¹⁹⁶ - هذا صحيح جزئياً فالمعلبات والخمور المعالجة لمواجهة الحر والنقل تصبح ضارة في المناخ الأفريقي هذا بالإضافة إلى ضرر الكحول في حد ذاته (انظر "المستكشفون" تأليف "روبرت راندو" منشورات ألبين ميشل 1929 ص: 345 . 347).

¹⁹⁷ - الاسم المحلي للنباتة المعروفة في كثبان هذه المنطقة ومن صفاتها ما ذكره المؤلف.

¹⁹⁸ - جزيرة الشيطان إشارة إلى قضية "دريفيس" الذي أبعده إلى جزيرة الشيطان (اكويان) إثر محاكمته الأولى سنة 1894 وقد أظهرت محاكمته الثانية (1899) وقوع خطأ قضائي. وسيعاد الاعتبار له سنة 1906.

"أحمد سالم" سنة 1903 وسيكون ذلك بالنسبة لعثمان أسهل طريق لتتصيب نفسه أميراً. وبينما كنت أفكر في كل هذا معتبراً أن "أخروفه" في مأمن لفترة من الوقت فإذا بي أتلقى الصعقة: لقد انهار بئر "أخروفه"، فكيف سيعيش المركز؟ أعترف بأنني عانيت للحظات من الإحباط إنه حظ عاثر جداً ثم أخذت قراراً، فأرسلت بالبريد السريع أمراً إلى "أخروفه" أقول فيه للنقيب الدركي "رافين" بأن يتراجع في اتجاه نواكشوط وإن اقتضى منه ذلك المسير في دفعات متتالية حتى يتمكن بالتدرج من إخلاء المخزن الموجود في المركز ولحسن الحظ أنه لم يكن كبيراً ولكنني أوصيته مع ذلك بعدم تنفيذ الأمر إلا في لحظة القنوط الأخيرة حين يصبح من المستحيل بالتأكيد إصلاح البئر وفي انتظار إصلاحها لا يمكننا أن نحصل على الكافي من الماء من الآبار المجاورة لتغطية حاجة المركز. ومن حسن الحظ أن "إدكفودية" و"تاكونانت" قد أوفوا بوعدهم الذي تعهدوا لي به في شهر مايو حين التزموا بإصلاح بئر "اتويرجات" على بعد 6 كيلومتر من "أخروفه" ومن جانب آخر أبدا الرقيب الدركي "رافين" درجة مذهلة من رباطة الجأش والمهارة فقد جمع ما في ضواحي "أخروفه" من الحمير والجمال وسخر اثنين من مهرة العمال في جلب الماء بواسطة هذه الحيوانات أمن إمداد المركز بالماء بواسطة رحلات مكوكية بين "اتويرجات" و"أخروفه" وفي نفس الوقت كان الحفارون يعملون ليل نهار في بئر آخر قرب "أخروفه". إذن لا يحتاج الرقيب الدركي إلى تنفيذ الأمر الذي كنت قد أصدرته إليه بالانسحاب نحو نواكشوط. يا إلهي، لقد كان الرعب شديداً. ومع الأسف يبدو أن النحس يطاردني، ففرسي مصاب بالتهاب لينفاوي. لقد قامت 200 من أولاد بالسباع الغاضبين من معاملة رؤساء المركز الشرقي، بغارة جديدة خارقين بذلك ما أصدرته إليهم من أوامر صارمة فقد اختطفوا أثناء مرورهم قرب "سهوة الماء" قطيع الثيران والجمال الذي كان متوجهاً إلى الحاكم المقيم في أترارزة الشرقية من جباية الضريبة. لا يبدو الوضع شديد التعقيد: "قالمكتب" يريد تحصيل الضريبة وأنا أعتبر ذلك أمراً سابقاً لأوانه قبل جباية أي فلس لا بد أولاً أن نفرض وجودنا أو نقنع الناس به.

كنا نظن أن كبولاني قد سافر إلى فرنسا ولم يقع شيء من ذلك فقد علمنا فجأة أنه كان يوم 3 أغسطس في "دكانه" وكان معه المترجم الرئيس "بو المقداد" واثنان من الموظفين الفرنسيين و30 من المساعدين الزنوج تحت قيادة الرقيب الجزائري "ديبس" ومعهم بعض جمالتي من "أولاد بالسباع". وأولاً قرر كبولاني إرسال "ديبس" ومن معه من المساعدين الزنوج

لدعم الرقيب الدرقي "رافين" عند "أخروفه" ولكنه عدل عن رأيه وأرسل فرقة الخيالة إلى "سهوة الماء" بقيادة الملازم "ريبول".

الذي توجه من هذا المركز دون سابق إنذار مسافة 50 كيلومتر إلى الشمال واستولى على "زاوية بتلميت"⁽¹⁹⁹⁾ بطلب من الشيخ سيديا الذي تعرض قبل ذلك بقليل لغارة من "أولاد بالسباع" القادمين من الشمال في الوقت الذي كان هذا الشيخ قد ضرب المثل بدفع مجموع الضرائب عن كافة القبائل المنضوية تحت لوائه.

كان كبولاني مستاء من السيطرة المباشرة على مركز "بتلميت" فنقل إليه عاصمة أترارز الشرقية وجعل مكان إقامة النقيب الحاكم المقيم الجديد في "القصبه"⁽²⁰⁰⁾ التابعة للشيخ سيديا ثم توجه إلى "دكانه" ليسافر منها إلى فرنسا ليلتحق هناك بالحاكم العام الذي سافر قبله بفترة.

كأنما يدير الأمور في المنطقة شيطان مستتر: يبدو أنهم يبذلون كلما في وسعهم لإشاعة الفوضى عبر تفكيك الحلف الوحيد الذي يساندنا أعني حلف "ولد سيدي" من جهة أخرى يحرصون على بقاء في نفس المكان عبر إجراءات يتخذونها بشأن "أخروفه" وعبر ما يفرضونه علينا من نقص في المؤن. كنت سأعرف ما يراد مني: فقد أرسل إلي كبولاني من "دكانه" التعليمات التي يلزمني تطبيقها أثناء غيابه. وقد تجلى لي منها أمران بديهيان أولهما الخوف من أن أقوم بمبادرة شخصية وثانيهما عزمهم على تفكيك حلف "ولد سيدي". فكبولاني الذي يخشى مبادراتي الجسورة خلافا لإرادته يعيد لي التوصية بعدم تجاوز توجيه "ولد سيدي" والفرق الثلاثة التابعة لكل من "أخيارهم" و"عثمان" و"بويكر سيره" وحسب رأيه يجب أن يبقى "أخيارهم" في منتصف الطريق بين "أخروفه" ونواكشوط ويمكث هناك لتنفيذ ما أصدره إليه من أوامر أما "بويكر سيره" و"عثمان" فعليهما أن يتمركزا على جانبي "أخروفه" ويكونا تحت تصرف "رافين" وأخيرا جعل "ولد سيدي" بصفة خاصة تحت أوامري المباشرة. وكان "ولد سيدي" يشعر فعلا أن المآخذ موجهة ضده وحده بدليل استمرار الدعاية المناهضة له في "سينلوي" وكان أنصار "أحمد سالم" المخلصين هم من يخبره بذلك من أجل إغضابه ودفعه إلى الارتقاء في

199- الزاوية: مدرسة ومكان للتعليم والصلاة في هذه الحالة وزاوية الشيخ سيديا مركز إشعاع ديني وعلمي وأدبي العالي المستوى.

200- القصبه: التسمية غير مناسبة هنا لأن مخيم الشيخ سيديا ككل مخيمات شيوخ البادية لا يتضمن سورا ولا يمكن اعتبار "الزرائب" المشكلة من الأشجار الشائكة أسورا والزريبة لحماية المواشي من الضواري أثناء الليل وقد تمكن الشيخ سيديا من بناء بعض المخازن من الطين لحفظ الأغذية والكتب.

أحضان خصمه وفي نفس الوقت يقوم نفس الأشخاص بتمثيل "ولد سيدي" على مستوى "المكتب" كما لو كان على أتم الاستعداد للذهاب بكل من معه للالتحاق بجيش أهل آدرار وقد وصلتني كتابة رسمية من "المكتب" تقول إن "ولد سيدي" قد "انحرف" وكرد على ذلك كنت قد أرسلت إلى المندوبية رسائل "ولد سيدي وبوبكر سيره" الذي يتعهد بضمان إخلاص "ولد سيدي". إلا أن العمل كان يتقدم في آبار "أخروفه" ولكن بمشقة كبيرة واستطاع "رافين" أن يعلن لي نهايته في حدود 25 أغسطس فقط وسيواجه المركز مرة أخرى نقصا في المؤن الغذائية. والأدهى أن الملازم الأول الموجه لنواكشوط قدم إلى "أخروفه" يوم 11 أغسطس. فعمل "رافين" كل ما في وسعه لمرافقته لقافلة من الحمير والجمال وقدم إلي يوم 15 أغسطس وأخذ كمية من المؤن تكفي لشهر وأرسلها فورا إلى أخروفه كان ذلك أسرع وأفضل حل وهكذا تمكن للمرة الثانية بفضل نشاطه وما لديه من روح مبادرة من إنقاذ مركزه وكنت مسرورا بذلك. وصل "أخيارهم" يوم 25 أغسطس يريد راتبه المستحق منذ ثلاثة أشهر وكنت قد علمت للتو أن النقود توجد على مستوى "دكانه" منذ أربعة أيام ولكني لا أعرف متى وكيف نستطيع الذهاب لأخذها فما زلنا إذن نعيش البؤس! واجهنا نقصا في اللحم الطازج. واللحم المجفف غذاء رديء في هذا الحر الشديد خاصة بالنسبة للرجال المصابين بمرض البري بري⁽²⁰¹⁾.

أرسلت "أخيارهم" ورجاله إلى "الشيخ سعد بوه" العائد من سينلوي. لم نواجه نقصا في اللحم أثناء وجود الشيخ سعد بوه في أترارزه ولكننا كنا نحصل عليه بثمن باهظ. لم يتحسن الوضع الصحي "لرافين" المسكين أثناء إقامته في نواكشوط وأصبح من اللازم إرساله على الفوري إلى المستشفى ولكنه تلقى من كبولاني التعليمات الآتية: يجب أن يذهب للالتقاء بالمركز الجديد في بوتلميت على بعد 80 كيلو متر شمال شرق "أخروفه" ويقوم بدوريات متوغلا حتى مسافة 50 كيلو متر من مركزه لدعم التجمعات الجديدة من البيضان ويقوم بالتنسيق مع بوتلميت لمراقبة محور بوتلميت أخروفه نواكشوط حتى لا تقطع عصابات النهب القادمة من الشمال هذا الخط دون عقاب. وكان الرقيب الأوربي الذي يتولى القيادة بالنيابة في "أخروفه" في حالة من المرض مماثلة لحالة "رافين". تقع "أخروفه" في وسط أترارزه ومن حولها ثلاثة تجمعات من البيضان: "ولد سيدي" عند "بير البركه"، "بوبكر سيره"

²⁰¹ - البري بري: مرض ناجم عن نقص الفيتامينات الموجودة في اللحم والخضروات والفواكه الطازجة.

و"عثمان" غرب المذرذرة وأخيارهم عند "بادي". تستطيع نواكشوط المحصنة كعش الصقر المعلق، أن تقاوم فقد بقي فيها ضابط واثنان من ضباط الصف الأوروبيين ولا يحدق بها أي خطر فأخليت المكان إذن دون أن أخشى الخطر. ولكنني مع ذلك أمرت بتجديد دفاعات المركز وأوصيت "مولني" (الضابط الأوروبي الذي قدم أخيرا) بأن يشيد ما يشبه القلعة للحارس أثناء النهار.

وأخيرا تركت لهذا الضابط تعليمات دقيقة وتوجهت يوم 4 سبتمبر إلى "أخروفه" مصطحبا "رافين" مع فرقة حراسة من 15 من الرماة و17 من الجمالة. فمن "أخروفه" سأمارس قيادة مقر إقامتي بدل أن أقوم بذلك من نواكشوط. سأحل محل "رافين" طيلة إقامته في المستشفى متبعا نفس التعليمات التي وصلته وسأجد الوسائل للتحرك بدل البقاء منعزلا في برج العاجي كما يريدون لي.

في "أخروفه"

قطعنا المسافة المعهودة بين أنواكشوط و "أخروفه" بسهولة فقد وجدنا مياها كثيرة ولكنها رديئة في جميع الحالات، وصلنا بعد يومين من المسير إلى "أخروفه" كنا طيلة الوقت نسير فوق العشب الكثيف والنصر الذي يغطي وجه الأرض كالبساط الممتد كانت الأشجار والنباتات شديدة الاخضرار فالطلح²⁰² والتمات مزهرة تنفث عبيرها في الجو وكانت أشجار اللبلاب هي الأخرى في مرحلة الإزهار وكذا شجر الزمبق الأبيض كنا نرى حشرات عجيبة يذكرني بعضها بالجعران الذهبي الذي تحدث عنه "إدكار بو" وكانت الطيور تسبح في الجو من مكان لآخر وكان بعضها زاهي الألوان كأنما عليه حلى من المخمل الأسود كما شاهدنا أفاعي صفراء صغيرة براقاة اللون بين الأعشاب وكانت الأرناب تقفز من حين لآخر أمامنا من تحت الأشجار الملتفة. وعلى العكس من ذلك وكما هي الحال في منطقة أنواكشوط لم نشاهد حبارى ولا غزالا في طريقنا. كان رفاقنا من "البيضان" يلتقطون فاكهة تشبه "الخيار" تثبت على وجه الأرض ويتذوقونها وقد أعطوني منها شيئا فوجدت طعمها لذيذا وكانت تذوب في الفم كحبات الحلوى الممزوجة بالبندق هذه أيضا فاكهة نتناولها بعد الطعام.²⁰³ واجهت فور وصولي إلى "أخروفه" مشكلة اللحم وقد جاء "أخيارهم" ورجاله بثلاثة وعشرين ثورا فبادرت بإرسال خمسة عشر إلى أنواكشوط. وقد تطلبت عمليات نقل الماء وحفر بئر "أخروفه" تأجير العديد من الحمير وكان أصحابها يأتون جماعات مطالبين بثمان الكراء ولكن كل ما لدينا من نقود يوجد في أنواكشوط فيتحتم عليهم إذن الانتظار. فشح النقود الذي عودونا عليه يسبب لنا متاعب كبيرة ويؤثر سلبا على علاقاتي مع "الشيخ سعد بوه" الذي يرسل إلي أبناءه بالسلام والسؤال عن حالي وهو في الواقع إنما يرسلهم لأخذ ما يطالبني به من ديون الثيران التي صادرها "أخيارهم".

وبعد قدومي بيومين جاءني "أخيارهم" فقد أقترب من "أخروفه" وهو الآن يوجد عند "تنتاكنانت" على بعد 35 كلم جنوب غرب المركز فسلم إلي رسالة من "الشيخ سيديا باب" يطلب مني

²⁰² -الطلح: وهذا هو اسمه أيضا في اللهجة المحلية وهو من الأشجار المعمرة له أشواك طويلة صلبة وأزهاره جميلة وعيقة الرائحة وكذلك التمام وأشجار الصمغ وهي كذلك من فئة الأشجار المعمرة

²⁰³ -يصف "أفريجان" في بضع سطور جمال الطبيعة في هذه الفترة حين تزهر الأشجار بعد نزول المطر.

فيها أن اسمح "ولد سيدي" بالتوجه إلى "لعكل" في ناحية الشمال الشرقي حيث سيكون بجوار مخيم الشيخ الشهير²⁰⁴ وصديق الفرنسيين المعروف وهو يريد من "ولد سيدي" الحماية من قوم "أحمد سالم" وهذه حسب رأيي حيلة ذكية أراد بها الشيخ إيقاف الحملة الجارية ضد تلميذه وما أظنهم سيقولون في "سين لوي" "إن الشيخ سيديا" قد غير رأيه.

ولكي لا أثير على مبادرة الشيخ بدعمي لها فقد وجهت الرسالة دون تعليق إلى المندوبية من أجل "الموافقة أو الرفض". وفي الأخير أخرج لي "ولد سيد" رسالة أمير آدرار التي يدعوه فيها بصراحة إلى الانضمام إلى حلفه مع "أحمد سالم" من أجل محاربة الفرنسيين وهو يريد بهذا أن يثبت لي عدم نيته لتغيير موقفه من جهة أخرى أخبرته بما أعرفه عن مناورات أعدائه وتحركات "عثمان" خاصة وأدرك من ذلك أنني لست على درجة الغباء التي كان يظنها.

وفي النهاية ارتاح "ولد سيدي" حين تأكد من وقوفي دائماً إلى جانبه فاستبشر وجهه وغادر وقد بدا عليه من الابتهاج ما لم أراه عليه أبداً فهو ينصرف عادة كما قدم بخطى بطيئة معتمداً على واحد أو اثنين من مرافقيه كأنما يستند عليهما تفادياً للسقوط من التعب وهذا أحد مظاهر الترف لدى الشخصيات المهمة في مجتمع "البيضان". توافد علي في الأيام الموالية في "أخروفه" رؤساء تجمعات "البيضان" الجديدة وفي مقدمتهم "بوبكر سيره" وتلاه "عثمان" ورغم مكانته كان يحتاج إلى النقود وهو يستعد للذهاب من أجل الزواج في "أولاد دمان" وطلب مني أن استلفه مبلغ عدة آلاف من لفرنكات²⁰⁵. أخرجت جيوبي مقلوبة إشارة إلى عدم وجود أية نقود بحوزتي، ولكن سأحيل طلبه إلى "المكتب"، فإذا منحوه المبلغ المطلوب فسيثبت لي ذلك أنه مجرد جاسوس وقد كانت لدي شكوك بذلك منذ زمن طويل، أما "أخيارهم" فقد بقي في "أخروفه" ينتظر قدوم النقود ليستلم رواتبه المتأخرة. وهو لا يسيطر على أتباعه ويقلقه احتمال اطلاعي على ذلك.

كان مخيم "ولد سيدي" ينتقل على مهل من "تتاكانانت" إلى "تكنت" ثم إلى "اتيمش" ولم تتجرأ جماعة "البيدات" التي تسير خلفه على التوغل أبعد من هذا المكان خوفاً من ملاقاته "العلب". أما مخيم "بوبكر سيره" فقد لزم مكانه حيث يسقي مواشيه من "اتورجات" وقد وعدني بلاقتراب أكثر من "أخروفه". والحاصل أن مبادرة إقامة تجمعات ضخمة من "البيضان" بهدف خداع

²⁰⁴ - "ولد سيدي" من تلاميذ الشيخ سيديا ولذلك تربطهما علاقات وطيدة ولكن "المكتب" وكذلك "أفريجان" يجهلان هذا الجانب.

²⁰⁵ - يكون زواج الشخصية المهمة مناسبة للاحتفالات حيث يوزع الزوج الهدايا على المحيطين به وتتفاوت قيمة الهدية حسب مستوى الشخص.

وتضليل "ولد سيدي" بدأت تظهر علامات فشلها بعد اقل من شهر من تأسيسها وكان الهدف منها أيضا أن تلعب دور الشرطة بصفة متبادلة بين رؤساء القبائل ضد بعضهم البعض ولكنها لم تكن قابلة للاستمرار لعدم اعتمادها على حاجة القبائل التي كانت كل واحدة منها في هذه الفترة تريد الذهاب إلى مراعيها الخاصة وتتوجه إلى الشمال هروبا من الحمى والحشرات القاتلة للحيوانات.²⁰⁶ حسب تعليمات "كبولاني" ليس من صلاحياتي التدخل أثناء غيابه في آدرار بأية صفة وحتى بإرسال مبعوثين إلى هذه المنطقة ولكن ليس من الممنوع علي علي كل حال أن أتصنت لما يتناقله "البيضان" في أحاديثهم فأنشأت في "أترارزه" نفسها وكالة حقيقية للاستخبارات كان عنصرها الرئيسي "المامي" وهو تلميذ في بعض الأحيان للشيخ سعد بوه. فهذا الشخص يحقد علي "أحمد سالم" وعلى أمير آدرار لدرجة الموت لأن كل منهما قد أنقله مرة بالسلاسل عقابا على سرقات ضخمة ارتكبتها ضدهم فكان من المناسب إذا تكليفه بهذه المهمة خاصة وأنه رجل ليس لديه مبادئ مسبقة ولا يتردد أمام فعل أي شيء... وقد أخبرني أن "أحمد سالم" كان يوم 15 سبتمبر في المنطقة الجنوبية من آدرار بين "تونكاد" والمداح" أما جماعته من "أولاد بسبع" فكانت غرب آدرار في بئر "أقن" وكان قوم الأمير السابق من "أترارزه" يتمركزون في أكجوجت في إنشيري وتوجد معهم خيمة "أحمد سالم الشخصية" وكانت جميع قوات الأمير السابق تتمثل في 240 مسلحا من بينهم 165 يحملون بنادق ذات طلقات سريعة. وفي نفس الفترة كان أمير آدرار متمركزا شمال شرق أطار مع نحو 1000 من مقاتلي "أولاد عمن" وأولاد غيلان" وأولاد اللب²⁰⁷ وقد تجمع الفريق الآخر من أهل آدرار "إيديشلي وأولاد أكشار" في الجنوب في مكان يصله نداء "أحمد سالم". ومع هذه المجموعة ما يناهز 800 بندقية. كان أترارزه معبئين من طرف أهل آدرار الذين كتب أميرهم إلى جميع قادة القبائل يدعوهم إلى الانضمام له ضد الفرنسيين وقد سلمني "مولاي" وسيد" الرسائل التي وصلتتهما كما تلقى "ولد سيد" رسالة من عثمان²⁰⁸ نجل بكار" أمير إدوعيش" يحثه فيها على الانضمام إليه مع "أحمد سالم" وأمير "البراكنه" وأمير "آدرار" في حلف موجه ضدنا وقد سلمني "ولد سيدي" رسالته أيضا كان قوم الشيخ "سعد بوه" يتوافدون على مركز

²⁰⁶ - فكرة التجمعات الكبرى فكرة بيروقراطية لا يدرك أصحابها شيئا عن عادات وضرورات البدو. لم يكن من المنتظر من "أفريجان" باعتباره رجلا ميدانيا أن يأخذ مثل هذه المبادرة.

²⁰⁷ - هذه قبائل حسانية نبيلة وأولاد عمن وأولاد أكشار من قبائل الإمارة.

²⁰⁸ - يكتبونه في النص الفرنسي اسمان وأحيانا اسمان وهو نجل بكار المهيا لخلافته وهو مقاتل شرس يساعد والده وقد ناهز الثمانين من العمر

"أخروفه" كل يوم قلقين من تأخر قدوم النقود وكانت هذه الزيارات الانتفاعية تضايقتني خاصة وأن الشيخ "سعد بوه" قد تأثر موقفه بسلوك أهل "سين لوي" المعادي لنا فألمحت له بعدم رضاي و اتخذت منه موقفا متحفظا منذ ذلك الوقت. وأخيرا وصلت النقود المنتظرة يوم 21 سبتمبر ومن الغد اختفى جميع التماسيح التي كانت فاعرة الأفواه من حولنا فقد دفعت لهم ما يستحقونه واستعدنا مكانتنا بعد أن تصدعت. وقد أوصانا القائمون على المصالح الإدارية ووسطاء "المكتب" بخفض أسعار الشراء بنسب كبيرة. إن انخفاض ما ندفعه من أسعار والجشع الطبيعي لدى الزوايا وسوء النية المترسخ لدى أهل "سين لوي" عندما يقابلون أعدائنا تلك هي الأسباب الكامنة وراء تغير موقف الشيخ سعد بوه اتجاهنا.

ربما يكون لرسائل أخيه "ماء العينين" الذي يبغض النصارى مساهمة في ذلك ولكني لا أستطيع إيصال هذا الانطباع إلى "المكتب" خوفا من أن يعتبروني متشائما²⁰⁹ وصلتنا مع النقود التي جاء بها الرقيب الأوروبي إلى أنواكشوط جماعة العريف الجزائري "الجيلالي" من الخيالة ومعها 19 مساعدا من الزنوج دون سلاح ويرتدون خرقا بالية ولا شك أن هذه الجماعة الأخيرة جاءت استجابة لتعليماتي من أجل تنظيم دوريات بين أنواكشوط " وأخروفه" و "أبي تلميت" وتظهر حالة هؤلاء مدى سوء النية الذي يقابلون به طلباتي كأنهم لا يريدونني أن أنجز شيئا. فكان أول تصرفاتي بعد وصول المساعدين رفقة "الجيلالي"، هو إيجاد مأوى لهؤلاء فخصصت لهم معسكرا من الأكواخ قرب بئر " أخروفه" الثاني وأصبح بإمكانني أخيرا أن أرسل الرقيب الدركي "رفين" إلى المستشفى يوم 27 سبتمبر فلم يكن قابلا للنقل قبل ذلك الوقت. وقد تعكرت سعادتي في هذه الأيام الأخيرة من سبتمبر بضربة نحس فقد فقدت كلبي " توم" ولا شك أن أحد عبيد البيضان²¹⁰ قد قتله لأنه كان حارسا يقظا وكثيرا ما وقعت بين انيابه ريلات سيقان من يتسللون خفية إلى إقامتي والكلب صديق دائم ولكننا في الوحدة نشعر أكثر بخسارته. لقد بدأت التحركات المعادية في الحلفاء من أهل "آدرار" ومع ذلك فلحد الآن لم يبرز شيء على جبهة آدرار . ولكنهم وهم يروننا الآن مستقرين لا نتحرك بسبب الأوامر فسيشجعهم ذلك على العمل وهكذا قام "أهل سيد عبد الله" وأولاد غيلان" يوم 4 أكتوبر بهجوم مباغت على أولاد أحمد" شمال "لعكل" ونهبوا ما لديهم كما سطا فريق من نحو 50 من "

- متشائم ولكنه بالتأكيد حذر وستثبت الأحداث ذلك لاحقا. ²⁰⁹

- يعتبر الكلب عند المسلمين المتعصبين حيوانا نجسا يجب الحذر من لمسه. ²¹⁰

أولاد عزوز" وهم لصوص محترفون يوم 6 عند "تنتاكانانت" جنوب "أخروفة" على بعض الزوايا العزل من " أولاد ديمان وتاشدبيت" وسلبوا منهم 600 جملا ولكن "حراطين الدخن" من جماعة " ولد سيدي" قد عرقلوهم ومكن صمودهم " أرحاحله" أولا ثم "ولد سيدي" من مطاردتهم ولحقوا بهم يوم 8 أكتوبر صباحا عند "العركوب" وانتزعوا منهم 400 جملا عادوا بها بعد قتال قصير بينما تفرق الباقي في الخلاء أثناء المعركة.

أيه! أيه! "ولد سيدي" لم ينحرف كثيرا وفي نفس اليوم وصلني من "المكتب" إذن يسمح له بالتوجه إلى الشمال للاتحاق بالشيخ سيديا. ورغم ركودنا التام فقد كانت الأمور تسير بصفة سيئة بالنسبة لأعدائنا ولحد الآن، جميع التجمعات القبلية التي نظمها "المكتب" قد فشلت باستثناء واحد منها فقط وهو الذي كنا نسعى إلى تفكيكه وهو تجمع "ولد سيدي"، لقد كنت أضحك مما حصل خفية. أخبرني "المامي" بوجود خلاف بين "أحمد سالم" وأمير آدرار" فحين رأى هذا الأخير أن الأمور لا تسير في صالح "أحمد سالم" آدار له ظهره ومن قبيل الصدفة أنه انسحب مع قومه إلى المنطقة الشمالية الشرقية من آدرار وأعلن عدم رغبته في محاربة الفرنسيين وأهل "أترارزه" من جهة أخرى ولأول مرة نزلت قبائل الساقية الحمراء التي تحترف النهب إلى آدرار في نزوحها الذي بدأ منذ فترة ونهبت ممتلكات أمير آدرار نفسه في آخر سبتمبر قرب "أكرارت لفرس" وفي يوم 20 أكتوبر هاجم هؤلاء اللصوص من " أولاد أدليم وأركيبات"²¹¹ مجموعة "الطرش" من "أولاد غيلان" قرب شنقيط حيث كانت المجموعة متجهة من "آدرار" إلى "تكانت" بحثا عن المرعى وبعد قتال مرير كان إلى حد ما في صالح المهاجمين سقط 30 قتيلًا من الطرفين. وكان أمير إدوعيش "بكار ولد اسويد أحمد"²¹² في هذا الوقت بالذات قد استدعى أمير "آدرار" من أجل مقاومتنا في الشرق. لقد أدى تدخل عصابات النهب القادمة من الشمال بصفة مباغثة إلى بقاء أمير "آدرار" وسبق له أن امتعض من فشل تحالفاته مع "أترارزه" فانسحب من المنافسة وأعلن رفضه الصريح للتحالف مع العجوز "بكار" ضدنا وطلب من "أحمد سالم" أن لا يعول عليه في شيء من الآن فصاعدا فتوجه بقومه متوغلا كأبعد ما يكون في الناحية الشمالية الشرقية من "آدرار". ألم تكن هذه

²¹¹ -- "أركيبات" وأولاد أدليم" قبائل بدوية كبرى في شمال الصحراء الغربية وهم مقاتلون رهييون قد اعتادوا حياة الترحال ونزوحهم نحو الجنوب ليس فقط رغبة في النهب ولكن بسبب نقص المراعي الناجم عن نقص الأمطار في مناطق انتجاعهم التقليدية.

²¹² -- يتوفر أمير إدوعيش على اضخم قوة في جنوب موريتانيا ولو لم يتدخل الفرنسيون لكان مقاتلو صنهجه قد سيطروا على بني حسان وانتزعوا منهم الامتيازات التي كانت حرب شريبه قد مكنتها في القرن 17.

النتيجة حقا من إنجازات صديقي " ولد سيدي"²¹³ لقد تفككت جبهة آدرار بسبب انسحاب الرجل الذي أسسها أصلا. أما "أحمد سالم" فقد استطاع بعد أن تخلى عنه أهل آدرار أن يستعيد علاقته مع " أدميسات" المقيمين في " أنكيم" في منطقة " آكنيتير الشرقي" وفي الواقع لم يعد مع "أحمد سالم" فضلا عن 66 من المخلصين له من الترازه سوى رفاق الطريق من " أولاد بسبع" ولا أعرف الطريقة التي استطاع بها الأمير السابق استدراج هؤلاء الأجلاف ومن على شاكلتهم من شذاذ الآفاق حتى من أعدائهم التقليديين مثل " أولاد لكرع" وأولاد اللب" وينحدر " أولاد بسبع وأولاد ادليم" وأولاد "لكرع" ومن معهم من إقليم "واد الذهب" ومن حسن الحظ أن " أحمد سالم في ذلك الوقت لم تكن لديه فكرة عن الحدود المعترف بها بين فرنسا واسبانيا في الصحراء الغربية،²¹⁴ فلو كان قد علم بذلك لاستغل الظروف للاحتماء خلف الحدود الفرنسية الاسبانية حتى وإن كانت نظرية على أن يجتازها متى رغب في ذلك للغارة على الجنوب.

لقد أوفى "ولد سيد" إذن بتعهداته وقا تل أهل الشمال لحماية الزوايا العزل وهو الآن متوجه إلى الشيخ سيديا رجل الزوايا الأكثر إخلاصا للفرنسيين.

ولتسمحوا لي هنا بإبداء فكرة شخصية فأنا، بدون شك الذي "صنعت" ولد "سيدي" في نظر رفاقي من الفرنسيين لقد انتزعت من المجهول واستخدمته ولهذا السبب كنت موضع السخرية وحتى الحسد حتى استطيع في هذه المرحلة من سرد قصصي أن أتوقف لأطالب بجانب من المسؤولية عن بصيص الضوء الذي سطع في أكتوبر 1904 في سماء سياسة "الترارزه" الضبابية. ولو كان لدي الآن على الأقل ما ادعم به "ولد سيدي" لتمكنت من إعادة "الترارزه" إلى وضعها الجيد بصفة نهائية ولكن لا بد لي من الحصول على الإذن للقيام بعملية جادة والحال أن كل نجاح لا بد أن يثير اللغظ والمطلوب هو العمل في صمت. فلهذا السبب دون شك لم يمنحوني وسيلة القيام بأي عمل، طبعا تذكرت أن رئيس البعثة مسافر إلى فرنسا في

²¹³ - لا تمكن نسبة هذه النتيجة لولد سيدي بل السبب فيها سنة عفاء ضرب فيها الجفاف شمال غرب الصحراء وتعود كذلك إلى الرعب الذي يثيره ذكر اسم أركيبات

²¹⁴ - اتفاقية 29 يونيو 1900 بين فرنسا واسبانيا التي تمنح اسبانيا الإقليم من "إيفن" إلى "واد الذهب" الذي سيتم رسم حدوده بعد ذلك حسب خطوط العرض والطول دون الرجوع إلى الوقائع الجغرافية التي تم كانت مجهولة تماما إذ لا يوجد من قد جاب الإقليم. وقد تعودت القبائل بسرعة على هذه الحدود الوهمية ولكنها مناسبة.

الوقت الحالي حيث يوجد "كبولاني" وأن هذا الأخير سيقوم بالمناورة أمام الغرفة²¹⁵ ويخشى أن القيام بعمل في غيابه سيغير فجأة إما مسار العمل وإما عقلية خصومه الأوربيين ومع ذلك يبدو لي أن تحقيق انتصار بشأن نقطة ثانوية مثل ما حققته سياستي في "اترارزه" قد لا يضر بالعمل الأساسي الجاري في فرنسا وأن من المتعين أن يسمحوا لي بتقوية هذا النجاح ولا أفهم لماذا يتعمدون منعي من الحصول على ما يلزم لتنفيذ التعليمات: رجال وأسلحة ! وأكثر من ذلك يواصلون التأثير على "ولد سيدي" والكذب إذا قلت إنني في مكان العدو! لقد تمكنت من إكمال تحقيقي حول صدق ولاء " أولاد بسبع المقيمين في الجنوب" وقد تلقيت مفاجأة باستقبال صديقي القديم "الشريف عبد الرحمن" وأجريت معه حديثاً طويلاً فسر لي أثناءه سبب الخلافات بين "اترارزه" و"أولاد بسبع". فأولاد بسبع كانوا في البداية عند دخولهم المنطقة زوايا يمارسون التجارة²¹⁶، وتجارة القوافل منها بوجه خاص ولم يلعبوا دوراً سياسياً في "اترارزه" بصفتهم قبيلة إلا سنة 1902 فكانوا قبل ذلك يتاجرون بكل شيء حتى بالخيل المسروقة من جنوب المغرب منطقتهم الأصلية. وقد لجأ "أولاد بسبع" إلى "اترارزه" بعد أن سحقهم تحالف أهل "آدرار" مع "أولاد أدليم" سنة 1902 بسبب تفوقهم العددي.

وبصفتهم تجاراً كانت لهم ديون ضخمة على سكان المنطقة وخاصة "أرحاحله" فرع "لحسينات" ورئيسهم "أحمد جقه" الذي كان "الشريف عبد الرحمن" يتوفر على حكم يطالبه فيه بعشرين ألف فرنك تعويضاً عن القافلة التي نهبها "الرحاحله" سنة 1902 ولم يكن هذا الحكم سوى قرار من أحد قضاة "البيضان" لأن "الشريف عبد الرحمن" يزعم أنه لم يحصل على أخذ شكواه في الحساب لدى قضاة "سين لوي" إلا أن "اترارزه" في هذه الفترة لم تكن تابعة بصفة مباشرة للسنغال. ولدى تجار آخرين من "أولاد بسبع" حكايات من نفس النمط مع أهل "اترارزه" ولكن هؤلاء كانوا عموماً يسددون لهم بالتقسيط وحين أحسوا في شهر فبراير 1904 بأن السلطات الفرنسية مستعدة لمنحهم تنازلات، توقف أهل "اترارزه" فجأة عن الدفع حتى أنهم استقبلوا " أولاد بسبع" بطلاقات البنادق ولكن هؤلاء على قلة عددهم تمكنوا بفضل تسليحهم الجيد من الرد والتفوق.

²¹⁵ - المناورة بالتحديد أمام "ولدك روسو" رئيس المجلس الذي لديه مشاغل أخرى غير ما يجري في الصحراء الغربية البعيدة (قانون الجمعيات ومحاربة التجمعات 1901-1902). الكتلة الاستعمارية برئاسة "أجن اتين" وكانت مستعدة لتطبيق كبولاني ولكن بصفة خفية إذ لا شيء أسوأ بالنسبة للانتخابات من خشية الضرائب... يسمح بكل شيء إلا طلب الاعتمادات المالية
- أولاد السباع هم بالفعل شرفاء ينحدرون من جنوب المغرب ولكنهم يحسنون في نفس الوقت استخدام البندقية والسبحة. ²¹⁶

ويتعلق الأمر هنا بالقبائل الثلاث المقيمة في الجنوب: "أولاد البقار" و "أولاد أحميده" و "أولاد السيد" فهذه القبائل فور قدومها إلى "الترارزه" أعلنت انضمامها "لولد سيد" وتبادل معها الهدايا وزودها بالمؤونة والمطايا على حساب قبائل الزوايا. تعود "أولاد بسبع" الجنوب إثر هذه الأحداث، ليس فقط على المطالبة بحقوقهم بقوة السلاح، ولكن أيضا كانوا يجبرون الزوايا أن يمنحهم كل شيء أثناء مرورهم وهكذا فبعد أن كانوا في البداية يطالبون بشيء مستحق انتهى بهم الأمر في أعين الجميع إلى أن تحولوا إلى ممارسة النهب ولذلك أصبح الناس يعتبرونهم مثل أمثالهم القادمين من الشمال من قطاع الطرق الحقيقيين.

وقد لاحظ تجار "أولاد بسبع" المقيمون في "سين لوي" أن كل هذا يلحق بهم الضرر فقرروا بالتشاور معي على عقد اجتماع للقبائل وكتبوا جميع مآخذهم وسلموها لي لنقلها إلى الحكومة العامة يطلبون منها التدخل للتسوية العادلة للمشاكل العالقة وفي انتظار ذلك ينسحب "أولاد بسبع" إلى "الترارزه" ليستقروا تحت حماية مركز أنواكشوط على أن يقدموا لنا الدعم الحربي عندما نطلب ذلك. فصديقي "الشريف عبد الرحمن" ومن معه من أصدقائي من جماعته إنما جاؤوا ليحصلوا مني على عرض شكواهم على الحكومة العامة. ويدخل هذا التصرف ضمن خطة العمل التي رسمها لي "كبولاني" عندما أشرفنا معا على تأسيس مركز أنواكشوط فمن ضمنها العمل على استدراج "أولاد بسبع" فقامت إذن بتسليم شكواهم ومطالبهم المكتوبة إلى الحكومة فور تسلمي لها من موفديهم الثلاثة ولكنني في نفس الوقت كنت أثير ضد زبنائي جميع أعدائهم. علمت من أولاد بسبع أن الخلاف بين "أحد سالم" وأمير "آدرار" لم يكن جادا ورغم أن الأمير قد واجه عقبة بالفعل، فقد كان يرى أن من الأفضل الانسحاب دون مواجهة في الوقت الذي لا يتوفر فيه على كافة قواه ويعتقد أن حليفه يعاني ضعفا شديدا.

وفيما يخص دخول "آدرار" أخبرني موفدو "أولاد بسبع" أن الزحف على هذه المنطقة في أكتوبر أو نوفمبر يمكن من السيطرة عليها بنحو 100 مسلح فقط²¹⁷ وربما تكون هذه مبالغة فقد يكون هذا العدد ضعيفا وفي نفس الوقت لا بد من مشاغلة "أحمد سالم" وإلا تدخل ضدنا وزاد من صعوبة عملياتنا ضد الأمير في هذه المنطقة فوقت مثل هذه الحملة ربما يكون في الشتاء المقبل لأنه الفصل الأكثر ملائمة للغارات.

²¹⁷ - سنثبت الأحداث لاحقا خطأ هذه التقديرات

ولد إبراهيم السالم على مسرح الأحداث اضطرابات و مكائد و بؤس

تلقيت أخبارا جديدة يوم 17 أكتوبر من "اخيارهم" و"محمد مولود" الابن الأكبر "البوبكر سيره" ومن "الحرطاني" المفضل لدى هذا الأخير، مفادها أن واحدا من "تغرجنت" التقى عند "أولاد بالسباع" الجنوب بمبعوثين اثنين من الأمير قادمين إلى "اترارزة" لتجنيدهم لصالح "أحمد سالم" والأخطر من ذلك أن "ولد إبراهيم السالم" ابن عم الأمير السابق ربما يكون عند "غانجيليت" على مسافة تكاد لا تصل 12 كلومتر من انواكشوط صحبة مئتي مقاتل. وبما أنني قد تلقيت أسلحة وذخيرة المساعدين الزوج، فقد أرسلتهم إلى انواكشوط، وستكون هذه الفرقة الصغيرة المكونة من عشرين مقاتلا يقودهم العريف "الجيلالي"، قد أصبحت عند "أديبونو" قرب "رانكليت" سأحرص على إخبار "الجيلاني" بواسطة "الشريف عبد الرحمن".

قضيت يوم 18 أكتوبر في قلق تام: فمنذ مساء أمس لم ينقطع عن آذاننا زئير "الطبل"²¹⁸ القادم من جهة الشمال-الشرقي.

ويشير صوت "الطبل" إلى أن "ولد سيدي" وفصائله ومن الممكن أن يكون قد ذهب لاعتراض "ولد إبراهيم السالم" وسيلتقيان شمال "لعوينات". بالنسبة لنجاح رجالنا في مهمتهم فذلك يتوقف على موقف "أولاد بالسباع" الجنوب، فإذا قرروا السير ضد جماعة "ولد إبراهيم السالم" فستتلقى درسا قاسيا.

واستدعيت "المامي" وحررت له رسالتين: واحدة موجهة إلى "ولد سيدي" والأخرى إلى "أولاد بالسباع" الجنوب أطلب منهم، طبقا لعرض خدماتهم السابق، أن يهاجموا "ولد إبراهيم السالم" أينما وجدوه. وكلفتهم بإشعار الملازم "مولني" بما يدور قرب مركزه. ويتعين أن تصل رسالتي الأخرى إلى "ولد سيدي" في موقعه حيث أنه على بعد خمسين كلومتر شمال شرق "أخروفه" وقد أمرته في الرسالة بدعم "أولاد بالسباع" الجنوب وإطلاعي على تحركاته الخاصة.

²¹⁸ - الطبل أو "اطبل" طمبور الحرب وشعار السلطة، يمتلك القادة طوبولا لكل واحد منها تيرته" الخاصة ويلعب الطبل دور الهاتف فالضربات والإيقاع تعبر عن معاني مرموزة يدركها المتمرسون. وللطنبور دور مهم في إفريقيا. (انظر: غابرييل افرال: "طنبور الرمال").

وإذا اتصل "أولاد بالسباع" برسائلي في الوقت المناسب، فسيمتثلون، وإن هم فعلوا فستسير الأمور في صالحنا لأنهم مسلحون ببنادق ذات طلاقات سريعة.

ولكن من حسن الحظ أن "الجيلالي" الذي كنت أعتبره بعيداً، قد عاد بجميع من معه مساء يوم 19 أكتوبر. لقد انزاح ثقل عن صدري. وأخبرني ما يلي:

كان قد ابتعد عن فرقته وتركها تواصل الطريق. وكان على فرسه رفقة المدعو "محمد عبد الله" رجل ثقة "بوبر سيره". وفجأة تلقى الرجلان طلاقات نارية وشاهدنا ستة رجال يطلقون النار من مسافة يبدو منها أنهم يستخدمون بنادق ذات طلاقات سريعة.

لدى "الجيلالي" بندقية من نوع "اغراس" أما رفيقه فله واحدة تعمل بالمكبس تطلق رصاصتين. فحاول "الجيلالي" استدراجه لينطلق معه بالعدو السريع، ولكن الآخر صرح أنه لا يمتلك الشجاعة على ذلك ورفض مرافقة "الجيلالي" وانطلق الأخير بمفرده فتلقى عدة طلاقات نارية ولكن المهاجمين اختفوا خلف كثيب ما لبثوا أن ظهروا من خلفه في اللحظة التالية، وكل اثنين منهم على جمل. لاشك أنها دورية تابعة لـ "أحمد سالم" فانطلق الجمال الثلاثة وتبعهم "الجيلالي" يعدو بفرسه وحيداً ويطلق ما في شعبة بندقيته حتى أفرغها مرتين من فوق راحلته حتى توقف فرسه منهكا وامتنع عن الحركة. وكان "البيضان" الستة يلقون العنان فارين أمامه. فعاد "الجيلالي" أدراجه والتحق بمساعديه الذين وجهوا له اللوم محقين على المخاطرة بنفسه منفرداً، مع أنه حين التحق بهم كانوا سائرين باتجاه إطلاق النار، بدليل أن "البيضان" الستة قد تلقوا رشقات نارية.

كان "الجيلالي" عند مغادرته نواكشوط مساء يوم 16 أكتوبر، قد تأخر بعض الوقت، يا لها من صدفة سعيدة! ولكن لا بأس فالأمور بخواتمها.

ولحد الآن ورغم حالة الاستنفار القوية التي أثارها الظهور المفاجئ "لولد إبراهيم السالم"، فالتفوق من نصيب رجالنا و"ولد سيدي" يبدو أقوى الآن من أي وقت آخر.

كان مخيم "ولد سيدي" عند "تندكسمي" يوم 21 أكتوبر حيث يوجد أيضاً كل من "عثمان" و"سيدي ميله" وينشر هذان المرائيان النصائح السيئة، حسب ما بلغني ويعملان لفصل "ولد سيدي" عن "أولاد أحمد من دمان". هؤلاء "الأمرء" الذين يحرص عليهم والذين لن يقبلوا بملء إرادتهم السير ضد "ولد إبراهيم السالم" الذي اختفى تماماً. ومن جانب آخر

أصبحت الاتصالات مقطوعة بين "أخروفه" و"سهوت الماء". فلم يعد في إمكاني سوى التخمين.

خبر سار: لقد أغار "ادميسات"²¹⁹ على أمير "آدرار" ونهبوه مرة أخرى يوم 19 أكتوبر. علمت يوم 22 أكتوبر أن "أحمد سالم" يعيش حالاً أسوأ أيامه، فسيجد نفسه عن قريب مجبراً على الاستسلام إذا لم يكن يريد أن يقتله أعداؤه أو يغتاله أصدقاؤه.

طلبت من "المكتب" أن يكلفني جزافياً بإنهاء أمر الأمير السابق، رغم صوت "الطبل" وشدو المغنين وطلقات البنادق المتواصلة على مسامعنا طيلة النهار من معسكره، فقد صار من البديهي لدي أن "أخيارهم" يشعر بالخوف ويخشى بالدرجة الأولى أن يقع في الحرج أو يشتبه فيه بشأن ابن أخته "ولد إبراهيم السالم"، فهو لا يسعى بأية طريقة إلى مفارقتي، ولا شك أنه أصبح يفكر في أن من المزعج حقاً أن يكون ذوا الشخص يجرجونه بهذه الدرجة.

والآن لنقتف قليلاً خطى "أحمد ولد أعلي الكوري" و"سيدي ولد محمد الأمين". بعد أن طاردهما "الجيلالي"، قد يكونان افترقاً، فذهب الأخير منهما لتبنيه "ولد إبراهيم السالم" في حين اختبأ "أحمد ولد أعلي الكوري" وهو جريح في مخيم "ولد سيدي" يتعالج مدة يومين لدى "الأمراء" تحت حماية "عثمان"، طبعاً "أولاد أحمد من دمان" متفقون ضدنا.²²⁰ ولكن ماذا نقول في سلوك "عثمان" اتجاهنا واتجاه "ولد سيدي". أليست هذه خيانة. كما أن ما دبره في الخفاء بدأ يؤتي أكله: فجماعة "ولد سيدي" بدأت تتشرنم.

ويبدو أن "عثمان" نبه "ولد إبراهيم السالم" بدليل ظهوره المفاجئ محاولاً، بلا جدوى، ممارسة النهب هنا وهناك.

"ولد سيدي" يوغل متباطئاً باتجاه "العكل".

قامت جماعة "اترارزة" التابعة لـ"ولد إبراهيم السالم" بعمليات نهب في ضواحي "تن تغادش" يوم 28 أكتوبر شمال "النمجات". فأصطدموا بفرع "أولاد اشويخ" من "لييدات" وقائدهم الطاعن في السن "علي ولد سيدي"، ومن المنتظر أن يكون أصحاب "ولد إبراهيم السالم" قد تقهقروا الآن، والحال أن "علي ولد سيدي" متحالف مع "أولاد بالسباع" الجنوب كما أن "الشريف عبد الرحمن" يعمل الآن على فصل جماعته من "أولاد بالسباع" عن "ولد إبراهيم

²¹⁹ - "ادميسات" أحد فروع "يحيى بن عثمان" ويخضعون مبدئياً للأمير، ولكنهم متحررون من السلطة.

²²⁰ - يوجد بين أعضاء قبيلة الإمارة في "اترارزة" تضامن عائلي يعتبرونه مقدماً على المناورات السياسية.

السالم"، وقد كان تحقيق هدف المفاوضات سهلا بسبب انتصار "تن تاغديش"، فقد انشق "أولاد بالسباع" عن حلف "ولد إبراهيم السالم" وانسحبوا على مسافة منه ولم يعد يتوفر إلا على نحو أربعين مقاتلا، وللمرة الثانية جعلت الانتصار في متناول حليفنا "ولد سيدي" ولكن يبدو أنه محاط بطوق من محترفي الدسائس ويقف على أرضية ملغومة. يبدو أن "عثمان" لم يترك الوقت يذهب هدرا.

وبما أن "ولد سيدي" قد أخذ علما بهذه التحولات المفاجئة، فهو يسعى لاغتنام الفرصة السانحة. فلأول مرة ذهب دون إشعاري على رأس مأتي راكب واصطحب معه جميع "الأمراء" رفقة "عثمان" ومر شمال موقع "ولد إبراهيم السالم" الذي يربط في أسوأ أوضاعه عند "تيفورنوت" مقطوعا تماما عن خط تراجعته.

وقد صرح "أولاد بالسباع" برغبتهم بالبقاء متفرجين على المعركة وهكذا تتوفر أمام "ولد سيدي" بادرة لن تتكرر أبدا، فبإمكانه الآن أن يسحق خصمه، فأصدر أوامره ولكن "الأمراء" اعترضوا عليها وانضموا إلى حلف "اترارزة" الموجودين مع "ولد إبراهيم السالم" وأغلبيتهم من "أولاد دمان" وصبوا وابلا من الشتائم على "ولد سيدي" وهددوه ثم أجبروه على مرافقتهم وابتعدوا دون قتال.

تلك ثمرة تدبير "عثمان". لقد أصبح الآن بإمكان "ولد إبراهيم السالم" ورجال "اترارزة" الأربعين المساندين له أن يغادروا مطمئنين إلى الشمال بعد أن قدمتهم لقمة سائغة "ولد سيدي" فضيعها بسبب سلوك "الأمراء". حقا إن الذئب لا تأكل بعضها البعض. لو تذكر "ولد سيدي" هذا المثل لما حاول دفع أفراد قبيلة واحدة لهم نفس المصالح، إلى الاقتتال أمام أعين الغزباء المتفرجين دون اكرات.

لقد كان يوم 29 أكتوبر 1904 يوما ضيع فيه "ولد سيدي" فرصته وأخطأ طريق حظة، فلو كان قد اعتمد على مناصريه فقط وترك "الأمراء" جانبا لتغير كل شيء لصالحه وسحق "ولد إبراهيم السالم" واحتفظ بقوته اتجاه الأمير السابق الذي سيكون تحطم واتجاه "عثمان" الذي سيكون حينها قد أزاح القناع عن وجهه.

ذهب "ولد سيدي" ليلة 4 نوفمبر للمرة الثانية دون إشعاري بذلك وأعلن أنه يريد الهجوم على "أولاد بالسباع" المتحالفين سابقا مع "ولد إبراهيم السالم" والموجودين ذلك الوقت عند "بيله" على بعد اثني عشر كيلومتر شمال شرق نواكشوط، وهو يزعم أنهم عادوا للتحالف مع

"ولد إبراهيم السالم. والحقيقة هي أن "الأمرء" يحرصونه ضد "أولاد بالسباع". وقد أطلعني أحد "أولاد بالسباع" على فحوى مشاريع جماعة "اترارزة". فأولاد "أحمد من دمان" حاقدون على "أولاد بالسباع" لا على "ولد إبراهيم السالم".

كلفنا هذا الرجل بالإسراع إلى قومه وتبئيرهم ليأخذوا جانب الحذر فأكون مطمئنا بعد ذلك وأصدرت تعليماتي إلى "أولاد بالسباع" الجنوب بمهاجمة "ولد إبراهيم السالم" إن كان في وسعهم ذلك. فسوف يهب "أولاد أحمد من دمان" للتحالف معه ضد "أولاد بالسباع" وهو ما سيعترض عليه "ولد سيدي" بسبب حقه على غريمه وابن عمه. إن "اترارزة" برمتهم متحفزون ضد "أولاد بالسباع" وكان "اترارزة" الشرقيون هم من أطلقوا هذه الحركة. لقد كتب إلي الحاكم المقيم لهذا الإقليم يخبرني أن "الشيخ سيديا" ومختار امبارك" الرئيس العام "لأولاد دمان" متوجهون معا ومعهم مائتان من المسلحين ببنادق "اغراس" عرية من "كبولاني" ليهاجمون "أولاد بالسباع" المتحالفين مع "أحمد سالم" مع الحرص على استرجاع القطعان المسلوية هذا الصيف. لا أفضل من هذا، ولكن بينما يحقد "اترارزة" الشرقيون على "أولاد بالسباع" المساندون "لأحمد سالم" بسبب ما ارتكبه من نهب، فإن "أحمد سالم" حانق من جانبه على هؤلاء لأنهم خذلوه يوم 29 أكتوبر بتخليهم عن "ولد إبراهيم السالم". أما "ولد سيدي" فيحقد على "أولاد بالسباع" الجنوب بسبب سوء علاقتهم مع الشيخ سيديا منذ حادثة 12 مايو. ويسعى لمهاجمتهم رغم كونهم قد ناصروه في السابق ورغم كونهم من حلفائنا نحن في الوقت الراهن.

يريد "ولد سيدي" أن يثبت لي قدراته، ولكنه يعاني مع الأسف من سوء البطانة ومهما بلغت من الحرص على نجاحه، فلست ملزما مع ذلك بأن أفرض عليه ما يجب فعله بل أتركه يتصرف حسب قناعته، وبإمعان النظر يتضح أن جماعة "أحمد سالم" التي تناصبنا العداة علنا وجماعة "ولد سيدي" التي تعادينا في الخفاء سينتهي بهما الأمر إلى العناق أو إلى الاقتتال، يجب أن نتوقع هذا الاحتمال أو ذاك، ففي حالة العناق والمصالحة، سيخون "ولد سيدي"، وهذا محتمل، أو يتم اغتياله وهذا ممكن، وأتمنى في هذه الحالة الأخيرة أن أكون في موقع يسمح لي بمساندته.

بالنسبة "لأولاد بالسباع" الجنوب، فإذا بقوا أوفياء لنا فسيهاجمون جماعة "أحمد سالم" إما بمفردهم أو بالتنسيق مع "ولد سيدي". وإذا ما التحق هذا الأخير بغريمه فسأكلفهم بأن

يهاجموه ويلحقوا به من الضرر أكثر مما كان يريد إلحاقه بهم. وأنوي مساندهم إذا لم يكونوا قادرين تماما على هذه المهمة.

وإذا كانوا، وهذا احتمال مستبعد، يفكرون في خيانتنا، فمن الممكن أن ينضموا إلى "ولد إبراهيم السالم" ضد "ولد سيدي" وحينها سيعود إلينا هذا الأخير يطلب المساعدة.. ليس هذا كله على درجة كبيرة من الأهمية. والاحتمال الأسوأ تماما هو أن يخرج "ولد سيدي" منتصرا دون مساعدة... فسيكون من الضروري تعنيفه. وفي كل الأحوال، سيكون "ولد سيدي" بسعيه لمهاجمة "أولاد بالسباع" قد اندفع معصوب العينين إلى فشله الذريع. وليس ذلك بسبب تقصيرنا فقد حذرناه مرارا وتكرارا، هناك حل آخر يتمثل في قيام تحالف بين "أولاد بالسباع" و"ولد سيدي" و"احمد سالم" ومن على شاكلته لمحاربتنا، أقل ما يقال عن مثل هذا التحالف إنه ممكن ولكنه إن حصل فلن يعمر طويلا بسبب تباين مصالح أطرافه إن لم نقل تتافرها.

توجد إرهابيات اضطرابات غريبة، فقد كنت بعثت أربعة جمال من "أولاد بالسباع" لمصادرة مجموعة ثيران من زوايا "تكند" فاعترضهم بعض أتباع "أولاد أحمد من دمان" بأعداد كبيرة وانتزعوا أسلحتهم وأوسعوهم ضربا. فقررت فرض غرامة عشرين شاة من الضأن عن كل واحد من الجمالة الأربعة، وإذا لم تصلني الأكباش الثمانون مساء اليوم فسأرسل فرقة من الجمالة والأعوان لأخذ الغرامة قسرا وبعدد مضاعف.

شيء آخر، لقد التقى رجالي من "أولاد بالسباع" في فرقة الجمالة يوم 15 أكتوبر وهم عائدون عبر منطقة "ازبار" بفرقة من جماعة "ولد إبراهيم السالم" عند "اجويه" بمحاذاة شاطئ البحر، ودارت المعركة أثناء الليل وتمكن خلالها جمالتي من صد المهاجمين وكف شرهم عن مخيم "تندغة" الموجودة هناك بينما كنت منشغلا بهذه الهموم السياسية الجمة، وأنا ممتعض لعدم تمكني من الخروج، كان لدي عمل كثير في المركز، كما علي أن أشكل وأرسل قافلة تموينات كل شهر إلى نواكشوط.

كما كان علي أن أعد محاسبة الخدمة المحلية. قد تهت بين الأرقام بعض الشيء بسبب غيابي الطويل عن مراكزي التي لا يرغب الضباط الأوربيون عادة في إنجاز العمل فيها من أجل موريتانيا.

وبعد جهد تمكنت من ضبط الأرقام، إذ يجب أن لا يغيب عن الذهن أنني لم أكن أتوفر على مخازن مغلقة إلا في نواكشوط وذلك منذ ثمانية أيام فقط. ولا وجود لعمال تحت تصرفي.

وبعد أن رخصوا لنا في الحصص المعوضة كما فعلوا مع غيرنا، هاهم عادوا وسحبوا منا هذا الترخيص، فمثلا كان بإمكاننا كضباط أن نحصل على حصص مؤونة من فئة (أ) (حصّة الضابط) ولكن الحصّة لا تحتوي على كمية من سمن "السيندو"²²¹ ولا يمكن أن نحصل عليه محليا في المتاجر لأنها بكل بساطة غير موجودة أصلا. وليس لنا الحق في استقدامه من البقالات في السنغال لأن البواخر ترفض أن تحمل إلى موريتانيا أي شيء غير المؤن المأخوذة من المخازن الإدارية.

ويأتي بعد ذلك كون الضابط العامل خارج الإطار يعيش في بؤس تام، رغم ما يحصل عليه من علاوات، لسبب بسيط هو عدم وجود متاجر بالقرب منا وكون القوافل التجارية لم يرخص لها بعد، ولذا تبقى احتجاجاتنا دون جدوى. يبدو أنهم يفعلون كل شيء من أجل تجويعنا وجعل حياتنا في موريتانيا لا تطاق. أفكر مذعورا في الفقرة الأخيرة من قائمة التعليمات الواردة علي بشأن "الزكاة" وكيفية تسويتها حسب ما سيقوم به "كبولاني" عند رجوعه. هل هو مصر على جباية الضرائب في سنة 1904م؟ سيعني ذلك إشعال النار في المنطقة. يجب تأجيل الأمر إلى السنة المقبلة أو تخفيض المبالغ فسيكون ذلك إجراء شعبيا يؤمن المستقبل. أقصى ما نستطيعه هو مصادرة ممتلكات الجماعات التي تحاربنا. وهكذا نقادى مرور سنة غير منتجة. بودي لو قايضت إقامتي بعمل نشط آخر خاصة إذا كان في آدرار.

دب النشاط في كل شيء عند قدوم "كبولاني". سنوقف كل شيء بالقضاء على "أحمد سالم" لأنه هو مصدر الاضطرابات. فهل يريدون ذلك؟ لقد طلبت الإذن في المسير لمهاجمته، فلم أجد جوابا.

²²¹ - لا وجود لدهن "السيندو" لطهي الطعام وهو أسهل حملا وحفظا من الزبدة بسبب الظروف المناخية، ولكن يبدو أنهم لم يفكروا في أن طالسندو" (دهن الخنزير) يعتبر نجسا عند المسلمين وكان من المتعين استبداله بالزيت الذي يناسب المناخ الإفريقي أكثر ولا يعتبر نجسا عند الطباخين المسلمين. وتجدر الإشارة إلى أن الطبخ في هذه الفترة كان يعتمد أكثر على السمن الحيواني: الزبدة (وهي الأكثر شيوعا) ودهن الخنازير ودهن الأوز. وكانت منطقة "أبروفانس" هي وحدها التي تستخدم زيت الزيتون وهو ما يبدو في نظر "أهل الشمال" من قبيل الفولكلور (انظر "تومارومستان" لدودي) إن أنظمة التغذية والأدواق تتطور مع الزمن شأنها في ذلك شأن الآراء.

باختفاء أحمد سالم، وسيطرتنا على "تكانت"²²² دون تأخير، فسوف يضيق الخناق على مثيري الاضطرابات في الداخل ومن أجل إحكام الطوق عليهم لابد من تأمين جانب آدرار، وقد يحدث ذلك يوما ما بمساعدة "أولاد بالسباع".

إذا اكتفينا، كما هو محدد في الأوامر، بطرد مثيري الشغب فستكرر الغارات حتى وإن أبعدها كثيرا، بل يجب عكس اتجاه المطاردة بتطويقهم ودفعهم من الشمال نحو الجنوب أي في اتجاه "أهل الكبله" الذين يفوقونهم من حيث المهارة القتالية²²³ وسيواجهونهم بالسلاح.

هذه الخطة التي دعوت إلى إتباعها دون جدوى، هي التي طبقها الجنرال "ليوتي" في جنوب "وهران" حين زحف من الصحراء في اتجاه البحر يدفع المقاتلين البداة لحصرهم في منطقة يستحيل عليهم التراجع²²⁴ عندها فإما أن يستسلموا وإما أن يقتلوا عن آخرهم. فهل سيوافق أصحابي على ذلك؟

في ما يلي تصوري لطريقة العمل: لنفترض أننا أمام حظيرة مستطيلة الشكل هي موريتانيا. أنا لذي سبق الموقف دون منازع في جانبيها الملاصق للمحيط والمحاذي لنهر السنغال وأنا في طريقي إلى السيطرة على الجانب الثالث، ويبقى لي إذن أن أحتل الشمال للسيطرة على الجانب الرابع وعلى الباب المفتوح نحوه أي "آدرار" لكي أحشر جميع ما لدي من الضأن داخل الحظيرة وأحكم سيطرتي على ما بداخلها.²²⁵

عند ما نسيطر على هذا الجانب الرابع سنستعين "بأولاد بالسباع" ضد "اترارزة"، وإذا جمحوا ندفعهم إلى الجنوب وحين يجدون أنفسهم بين سنداننا ومطرقة "أهل الكبله" فسيذعنون، لا خوف علينا في الوقت الراهن من قيام حرب دينية "فالبيضان" غير متعصبين شأنهم في ذلك شأن كافة سكان البادية ولا يوجد من يدعو لمثل هذه الحرب فجميع وجهاء الزوايا يتفاضون معاشات لدى "كبولاني" وسيعتبرون من حماقة إثارة الحرب ضده.

222- سيطرتنا على "تكانت": من السهل قول ذلك: يبدو أن "افيرير جان" أساء تقدير قوة مقاتلي "إدوعيش" بقيادة الأمير "بكار ولد اسويد احمد".

223- ليس جميع "أهل الكبله" من ذوي التقاليد القتالية ولكن "السر بقوله" من بينهم يستطيعون صد "حسان".

224- تختلف الظروف كثيرا في جنوب المغرب عنها في المنطقة الساحلية.

225- نقطة ضعف هذه البرهنة ذات البساطة الجلية هي أنها مغلوطة تماما، إذ يبدو "افيرير جان" يعتبر آدرار بوابة شمالية لموريتانيا مع أنه يقع في امتداد "تكانت" من الشرف... وسيبقى الشمال مفتوحا على مصراعيه أمام توغل الجماعات الرجل مثل "ركيبات" ولكنه كان مجهولا في ذلك الوقت.

لا يوجد ما نحاربه الآن سوى نزعة النهب والكبرياء²²⁶ لدى نبلاء "اترارزة" وأتباعهم، يجب الكف عن فرض الضرائب في سنة 1904م وجعل ذلك تدريجيا. لدينا بداية مشجعة: "فالشيخ سيديا" قد دفع الضرائب عن قومه، كما أن القبائل التي اجتازت النهر قد سددت ضرائبها هي الأخرى، لنكتف بهذا القدر على أن نحسن الأمور في السنة المقبلة. قد يكون "ولد إبراهيم السالم" قد توجه إلى "بيله" فقد بلغني تأكيد توجه "ولد سيدي" ومخيمه إلى هذه الناحية، ماذا يفعل هناك؟ يحتمل حصول تحول مفاجئ... ف"ولد سيدي" المتذمر من الدسائس التي تحاك ضده في "سانلويس" والمدفوع من "الأمراء" لم يبق من روابطه بنا سوى علاقته "بالشيخ سيديا".

²²⁶ - "الغزى": الإغارة وهي في نفس الوقت رياضة ونهب مع ما فيه من مخاطر.

حصيلة "اترارزه" في 1904م

سأفحص هنا مختلف العناصر السكانية لمنطقتي بحيث أقدم شبه حصيلة لما هو في صالحنا وما هو ضدنا من القوى الاعتبارية والأعداد الحقيقية.

العرب هم بنو تروز بن حسان، وقد غزوا المنطقة التي أصبحت تسمى "اترارزه" منذ قدومهم في القرن السابع عشر الميلادي، حين وجدوها تحت سيطرة "آزناكه" وينحدر العرب و"آزناكه" من أصول حميرية وقد قدموا جميعا من بلاد اليمن التي خرجوا منها في حقبة مختلفة. والقبائل المعروفة بالعرب الآن منحدره من امتزاج "بني حسان" أو "حسان" القادمين في وقت متأخر إلى المنطقة مع "آزناكه" الذين استوطنوها قبل ذلك. لا توجد بين "البيضان" قبيلة عربية خالصة، والقبائل "النبيلة" أو "حسان" الحاليون هي التي كان رؤساء عائلاتها هم آخر من قدم من الجزيرة العربية عند ما غزوا المنطقة، علما أن أجدادهم قد خرجوا من الجزيرة قبل أكثر من خمسمائة سنة أما أجداد "آزناكه" فقد نزحوا منها في حقبة مختلفة قبل ذلك بكثير²²⁷ وقد تكون جميع قبائل البيضان في الواقع من العرب لأنها جميعا قد قدمت منذ عهد بعيد نسبيا، من جنوب الجزيرة العربية، ولكن القبائل العربية وبالأخص الحجازية منها وقبائل ما بين النهر وسوريا أي تلك التي تأسس عليها الإسلام ونشرت دعوته في عهد الخلفاء الرشديين، هذه القبائل بالذات لم تصل إلى مناطقنا. إذن أصل حميري عام مع قليل من الدم العربي القح تلك هي خصائص أصول "البيضان" القاطنين في "اترارزه"، ومن المتفق عليه أن "آزناكه" الحميريين الذين استقروا قديما في إفريقيا الغربية هم من البربر وقبائل "الأمراء" التي تدعى قبائل العرب أي أن مؤسسي الأسر التي تتكون منها هذه القبائل ينحدرون من أصل حسان الذين خرجوا متأخرين من اليمن، ولكن منذ قدومهم إلى البلد امتزج هؤلاء كثيرا مع "آزناكه" والبربر والزنوج.

227- يروي "افيرير جان" هنا الأساطير التي يتناقلها "البيضان": باعتبار الأصل اليمني "لآزناكه"، فيما يبدو، قصة مختلفة ترمي إلى إيجاد أصول "عربية" للجمع (الخلط في الحدث العرقي والحدث الثقافي) هذا الولع بالانتساب للأصل العربي نجده أيضا عند أمراء "كاوه"! "آزناكه" من البربر، ولكن الباحثين يقولون إن البربر، الذين لديهم بالفعل نماذج متعددة من المظاهر الجسمية والسحنات، هم أنفسهم خليط من الأعراق. وما هو مؤكد هو أن لتقاليد البربر نقاط تشابه كثيرة مع التقاليد المتوسطية والهندية-الأوروبية.

وخلاصة الأمر أن القبائل التي تصف نفسها بالعربية وتتكلم العربية فقط وتحمل ضمن تركيبتها ومميزاتها السمة العربية، أي حسان بكلمة واحدة، ليسوا أقوى انتسابا إلى العرب من انتسابنا نحن إلى الأصل اللاتيني²²⁸

تتفاوت درجة التمازج مع الزنوج حسب القرب من تجمعاتهم ومستوى الثراء ودرجة النبل، ويمكن القول أن "الأمراء" ذو الأصل الرفيع أسهل امتزاجا مع الزنوج باعتبار ذلك نوعا من الترف بالنسبة لهم كما أن القبائل التي قدمت متأخرة من الجزيرة العربية تكون أقل ازدياء للزنوج من قبائل "آزناكه" التي جاورتهم منذ زمن طويل. لقد أصبح أفراد بعض قبائل حسان ذوي بشرة سوداء تماما ولكن يتعلق الأمر بتلك التي لها اتصال دائم بالسكان السود في "السنغال" مثل أهل "الكبلة" ولكن هذه حالة خاصة.

تسود الهجنة بين قائل حسان بصفة شبه عامة ونجد فيها خلاسين كثر وتعتبر مسألة الأصل عقلية راسخة بين هذه القبائل، حيث يسود نوع من الشعور المشترك بين السود المسلمين في جنوب السنغال وبالأخص بين "البولار".

ويمتاز فرد البيضان المنتسب إلى العرب بالزهو والتباهي والاعتزاز بأصله، ومهما كانت درجة اختلاطه مع الأعراق الأخرى فإنه يعتبر الزنوج "خنازير بريّة" (ذلك بالضبط هو تعبيره) ويسمح بقتلهم كحيوانات الصيد.

ومع ذلك يعيش هذا الفرد نفسه منسجما مع "حراطينه" وعبيده وتسود بينهم محبة متبادلة رغم أنه يترفع عليهم باعتبارهم ناقصي العقل ومن مستوى أدنى، إلا أنه يعاملهم معاملة الأمير الشهم وقد ينمي قدراتهم القتالية ويشركهم في غاراته بحثا عن الغنائم ونفس الفرد البيطاني يحرص على جباية امتيازاته المتوارثة وخاصة على أتباعه من "آزناكه" و"لحراطين" كما يحرص على الحصول من الزوايا على مقابل لما يوفره لهم من حماية. ويعتبر نفسه معفيا من الضرائب التي يفرضها على الطبقات السفلى ولا يقبل الاختلاط بهم حتى أثناء الغارات إلا إذا كان في موقع القيادة وتسود بين حسان وكذا بين "آزناكه" أيضا خلافات وصراعات تشتت الأسر بسبب الثأر، فاغتيالات أبناء العم والخصومات لا تنتهي.

²²⁸ - هذا صحيح إلى حد ما لأن رجال حسان قد تزوجوا كثيرا من نساء قبائل صنهاجه وبالمقابل الثقافة وحتى اللسان -"الحسانية"- هي عربية. إلا أن الزوايا هم الذين يكتبون العربية الفصحاء، وينحدرون جميعا تقريبا من أصل صنهاجي.

كما أن العلاقات بين النبلاء وأتباعهم من "آزناكه" ليست ودية دائما وكثيرا ما يحمل الأتباع السلاح في وجه أسيادهم وهو أمر نادر مع "الحراطين" الذين هم من النبلاء ولكنهم تكونوا على مرافقة أسيادهم أثناء الحرب وزراعة الأراضي لحسابهم. ومع ذلك يوجد بعض النبلاء الذين يحظون بالحب والتقدير من أتباعهم من "آزناكه" و"لحراطين" و"العبيد" وهم عادة الأكثر شجاعة والأوفر غنائم مما يجعلهم أكثر سخاء وأقل صرامة مع خدمهم وأتباعهم من أي مستوى كانوا لأنهم منشغلون بالعدو الذي هو مصدر عيشهم.²²⁹

يزعم أمراء "اترارزه" أنهم لن يمتثلوا أوامرنا أبدا ويتبجحون بذلك؟ ومن جهة أخرى يبدو اعترافا غامضا بقوتنا وينكرون رغبتهم في محاربتنا، ويقولون إنهم إذا لم يستطيعوا العيش معنا محتفظين بامتيازاتهم فسيجمعون ممتلكاتهم ويذهبون والحال أن "ممتلكاتهم" هي ممتلكات "أتباعهم" بما في ذلك الأتباع أنفسهم أي كل ما يعيش على أرض "اترارزه" أي كلما يمكن أن يفيدنا نحن في هذه المنطقة ولا يمكن أن نسمح لهم باصطحاب كل هذا في حال مغادرتهم.²³⁰

وفي حالة الاعتراض سنحصل على تواطؤ خفي من جميع من يستغلهم النبلاء كما أن "الأمراء" لا يشكون في أنهم أينما ذهبوا فسوف تتبعهم كما اقتفينا آثار كثيرين غيرهم وككل أهل البدو، رجل حسان البيطاني يعاني الفقر بصفة عامة ولذلك تترسخ لديه عادة التسول لدرجة متدنية. فبالنسبة له كل من يملك شيئا عليه أن يعطي منه لمن لا شيء عنده وهو في المقابل متوسط السخاء خلافا للزاوي.²³¹

وهو رث الثياب بسبب حياة التشرد التي يعيشها وعن قصد كذلك لأن ثيابه تتخذ ألوانا غامضة تختلط مع ألوان المحيط الطبيعي الذي يتحرك فيه، ولكن لا يمكن أن يقابل شخصية من مستوى عالي كالأمير مثلا إلا إذا تنظف إن وجد الماء الكافي لذلك ولبس كسوة جديدة

²²⁹ - لقد انتبه "افيرير جان" فعلا إلى غموض العلاقات السائدة بين مختلف الفئات الاجتماعية والعرقية في موريتانيا الساحلية.

²³⁰ - هذا التهديد بالذهاب صحبة الممتلكات عديم القيمة، لأن البداية (وكذا سكان القرى) لا يمكن أن يصطحبوا معهم المراعي التي تعيش عليها قطعانهم كما لا يمكن أن يصطحبوا واحات النخيل وكانت موريتانيا في هذه الفترة قد أصبحت أهلة بالسكان نسبيا رغم أن الكثافة السكانية تقل عن ساكن واحد في الكلومتر المربع.

²³¹ - لنقل إن حسان أسخياء بدرجة الغرور (تماما على شاكلة السلاطين الغربيين في العصر المتوسط حيث يسود بينهم السخاء) أما الزوايا الذين يتهمهم "افيرير جان" بالبخل تحتم عليهم الظروف التسيير الرشيد لأنهم يؤمنون المساعدة للمساكين وطلاب العلم (إلى حد ما مثل رجال الدين في العصور الوسطى الذين كثيرا ما اتهموا بعبادة متاع الدنيا) فيما يخص طلبات "الهدايا" انظر ما قلناه عنها سابقا.

ولسوء الحظ قماش "النيلة" هو السائد لديهم ويفقد لونه بسرعة ومن علامات الثراء أن يكون جلد الشخص مصبوغا بلون هذا القماش وحتى وإن اغتسل فسيبقى وسخا في أعيننا. يتخذ الرجل النبيل من "اترارزة" سمًا مزهوا خاصة إذا كان فوق مطيته وهو لا يملك سوى الخيل والإبل المخصصة للركوب لأن الأتباع يؤمنون له ما يحتاجه من النوق الحلوب وجمال الركوب عند الحاجة كما يأخذ من الأتباع الكباش التي يستعملها من حين لآخر لصنع المشوي.

أما الزوايا فيوفرون له لبن البقر ولكن حين يزورهم لتأمين الحماية، فإنه يأخذ منهم ما يريده دون دفع أي ثمن طبعًا وبهذه الطلبات يتقدم إلينا الزوايا بشكاوي مبالغ فيها غالبًا باعتبارها نوعًا من النهب يقوم به حسان. ونفس الشيء يقوم به "آزناكه" و"لحراطين" في بعض الأحيان فالجميع يستغل جهلنا بهذه الأعراف السائدة منذ قرون طويلة.

"أولاد أحمد من دمان" و"أولاد دمان" هما قبيلتا حسان القياديتان في اترارزة ولكن الإمارة توجد في الأولى فقط أي تكون منها عائلة الأمراء ومحيطهم المعروف. توجد كذلك في "اترارزة" إحدى قبائل الزوايا تنتسب إلى العرب وهم "أولاد ديمان". وسبب ذلك دون شك هو كونهم قد قاوموا أكثر من قبائل "آزناكه" الأخرى ولذا حصلوا على نصيب أكبر من الاعتبار لدى الفاتحين من حسان وكذلك بسبب تحالفها القوي معهم عبر الزيجات لأن هذه القبيلة التي كانت في الواقع تسمى "إيديمان"²³² كانت قبيلة خالصة من "آزناكه" وقد ارتبطوا اليوم بأسر "الأمراء" عبر الزيجات وأواصر النسب والطموحات الأخرى.

كان رئيسهم العام "الشيخ سيد محمد ولد سليمان" زعيمًا بارزًا تميز بالأناقة كما أنه دبلوماسي متمرس²³³. و"أولاد ديمان" هم الزوايا الأصليون في "اترارزة" أما "أولاد ابيري" فقد طردوا من "البراكه" وقبائل الزوايا القاطنة غربًا والمرتبطة إلى حد ما بالشيخ سعد بوه وهو زاوي ينحدر من الحوض هم من أصل "آزناكه" وقد حافظوا على لهجتهم البربرية إلى جانب العربية باعتبار الأخيرة لغة رسمية.

²³² - تعتبر تعليقات "افير جان" هنا وفي كثير من الفقرات السابقة مرتجلة. أولاد "ديمان" عرب بنفس الدرجة مثل "كنته" وإن تسموا من قبل "إيديمان" فذلك دليل أنهم كانوا ضمن المنضوين تحت "إدوعلي" الذين ينتسبون إلى أصول عربية وحتى شريفة (ينحدرون من علي صهر النبي صلى الله عليه وسلم وزوجته الحنفية)، وقد عرف "إدوعلي" أوج مجدهم في آخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر وهم من أتباع الطريقة "التيجانية".

²³³ - ومع ذلك فنفوذ الشيخ سيد محمد ولد سليمان أقل بكثير من نفوذ الشيخ سيديا أو الشيخ سعد بوه.

نادرا ما يتزوج أفراد "آزناكه" من خارج فنتهم، فنادرة هي حالات اختلاطهم بالعرب أو الزوج. لا يقبل الزوايا بأن تطلق عليهم تسمية "آزناكه"، والأخرون أتباع لحسان وهم أنفسهم حسان ويعتزون باستقلاليتهم. ولم ييأسوا رغم قرون طويلة من الخضوع، من الحصول عليها. توجد في "اترارزة" قبائل من أصل بربري غير "آزناكه" ينتسب بعضها مثل "أولاد بالسباع" إلى الشرف وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لبعض أسرهم على الأقل. ولكن الغالبية بربرية من أصل "الحوز المغربي" وأما القبائل الأخرى مثل "البيدات" و"تغرجنت" و"أولاد اركيك" فجاءوا من المغرب في القرن السابع عشر الميلادي بعثهم السلطان مولاي إسماعيل ضمن "لمحله"²³⁴ وتتضوي هذه القبائل عادة في كنف الأمراء، وتساندهم في مقاومة أعدائهم. قبائل الزوايا قليلة الاختلاط بالزوج وأغلبيتها منزوعة السلاح وهم منمون مسالمون. وقد حملت بعض القبائل السلاح لغرض الدفاع عن النفس مثل: "أولاد اببيري" و"إدوعللي" و"تجكانت" وهم جميعا من إقليم "اترارزه" الشرقي، كما حملته قبائل أخرى لأغراض أخرى مشبوهة....

يشكل أهل "الكبلة" في الوقت الراهن جنسا متميزا من "البيضان" ببشرتهم السوداء سواء كانوا من أصل "حسان" أو "آزناكه" وهم من سكان القرى غالبا، ويجمع حملة السلاح منهم بين اللباقة والذكاء والدقة في تسديد الرماية كما يجمعون بين بسالة "البيضان" وتهور الزوج، وهم الذين صمدوا سابقا في وجه "افديرب" أما اليوم فهم يزرعون أراضيهم على ضفتي النهر وتتشرك مصالحهم مع مصالحننا وهم مسلمون وأقل تعصبا من زوج الضفة اليسرى. ما هي القوى التي بإمكان "الأمراء"، وهم يناوئوننا الآن وحدهم، أن يحشدوها ضدنا؟ فهم أنفسهم، أي "أولاد احمد من دمان" قد تضرروا كثيرا من معارك نصف القرن الأخير: حيث مات منهم 159 في وقعة واحدة ولم يعد عددهم اليوم يتجاوز 66 ولكن مصدر قوتهم هم "الحراطين":

- "الدخن" و"أهل المختار" ولد الشرقي": نحو 150 مسلح؛
- "أهل آكمتار" و"أهل عبد الله" و"أولاد السيد" و"أولاد اركيك" الجميع 100 مسلح؛

²³⁴- "لمحله" كتيبة الحراسة: ما يتعلق بأصول القبائل مرتجل إلى حد ما: أولاد بالسباع من الشرفاء فعلا أما "لمحله" الذي أرسلهم مولاي إسماعيل فعددهم قليل وهم حسب الروايات التقليدية لدى زوايا اترارزة بعض الأتباع الفاسدين أراد السلطان التخلص منهم معتبرا أنهم لن يرجعوا من رحلتهم إلى الصحراء.

- يجب أن نحسب أيضا على سبعين من "اترارزة" من جماعة الأمير السابق إذن يتوفر "الأمراء" على زهاء 400 مسلح.

المجموعات المستقلة التي تتخذ موقفا متحفظا هي:

- "مولاي" صحبة "لعلب لكوافيف" و"لمزازكه" 150 مسلح؛
- "أولاد امحمد" 100 مسلح؛
- "لعلب الكحل" 60 مسلح؛
- "أولاد بوعلي" 70 مسلح؛
- "أولاد دمان" اترارزة الشرقية وأتبعاهم من "أولاد الفاغي" و"أولاد عايد" يمكن أن يحشدوا 300 مسلح؛

- "أهل التونسي" أحد فروع "أولاد احمد من دمان" مع "حراطينهم" لديهم نحو 50 مسلح.²³⁵ يجب أن نأخذ في الحسبان بالنسبة لهذه القوى أن "مولاي" سوف يتردد كما أن "لعلب الكحل" ونصف "أولاد امحمد" لن يتحركوا وكذا "أهل الكبله" و"لبيدات" يلاحظ أنني لم أعول في حساباتي الحالية على "ولد سيدي" الذي قد سيطر عليه "الأمراء" حسب ظني، كنت أود أن يكون حلفه مواليا للفرنسيين ولكن لا هو وجماعته ولا "الأمراء" أرادوا ذلك لابد من البحث عن شيء آخر لأن وسائلنا لا تمكننا من العمل منفردين كما أننا لا نريد ذلك لأن دخولنا إلى البلاد سلمي من الناحية النظرية على الأقل.

لقد رأينا أن "الأمراء" يتوفرون على 400 مسلح مخلصين لهم ولكن الكتلة العائمة بيننا وإياهم ستكون مجموعات "أزناكه" وخاصة "ارحاطه" الذين لديهم ما يقارب 200 مسلح والحرب التي يمكن أن تتدلع من حين لآخر بيننا وبين "الأمراء" ستوفر فرصا مغرية جدا لميولهم نحو النهب ولكن أيضا لتطلعهم للاستقلال. سيستدرج الأمراء بعض الفروع طبعاً بالاعتماد على هذه الميول في حين لا نستطيع نحن، ربما من باب التبصر، أن نشجع هذه التطلعات. كما سيتبع "الأمراء" على الأقل 400 مسلح قادمين من "آدرار" و"وادي الذهب" ولديهم بنادق ذات طلقات سريعة.

²³⁵- يمكن أن نقارن هذه الاحتمالات مع تلك التي أوردها "جورج بولي" في نفس الفترة في كتابه "بيضان إفريقيا الغربية الفرنسية"، مصدر سابق.

أما "الزوايا" فالسائد عموما في الأوساط الفرنسية هو أنهم يتطلعون إلى استقرارنا في البلد لكي يستفيدوا من الاستقرار وهو أمر لم يعرفوه حتى الآن. وهذه مجرد فكرة مسبقة ... فالزوايا و"آزناكه" يخافون جميعا من "حسان" وإذا لم تكن ننوي البقاء في البلد فلا بد من تفكيك التنظيم السائد فيه ودعم "آزناكه" خاصة ضد حسان ولكن سيترب على ذلك وضع من الاضطراب المستدام، ليس في مصلحتنا الإقدام على خلقه.

وفيما يخص الزوايا مع افتراض أنهم إلى جانبها كما هو سائد في الأوساط العليا لا يمكن أن نستجيب لرغبتهم في جعل حسان تحت أقدامهم أو تحت أقدامنا تماما فنكون بذلك قد عملنا لصالح الإسلام ومهدنا لوحدة المؤمنين ضدنا في المستقبل ولن يكون ذلك مناسبا لنا. سيمثل "الزوايا" و"آزناكه" الكتلة المترددة التي يمكن أن تكون مع هذا الطرف أو ذاك حسب الظروف. وعليه فمن ماذا يتكون حلف الفرنسيين في "اترازة"؟

- تحدثنا سابقا عن "أهل التونسي" و"أولاد دمان" أي 350 مقاتل، لدينا كذلك جماعة "أخيارهم" من "أهل عبد الوهاب" (آزناكه من أولاد بالسبع 50 مسلح)؛

- "أهل الكبله" يتوفرون فعلا على 200 من المقاتلين الأشداء ولكن لا تمكنهم السيطرة إلا على الضفة اليسرى للنهر؛

- يبقى "أولاد بالسباع" ولم آخذ في الحسبان "أهل مينالما"، جماعة "امحمد ولد أعمر" الذين يشكلون جمالتنا المعتمدين. لنلقي نظرة على "أولاد بالسباع" الجنوب، وهم في حالة حرب مع "أهل آدرار" منذ 1902م، فقد قتل "أولاد احميده" أمير هذه المنطقة "أحمد ولد المختار" انتقاما لبعثة "ابلانشي" وقتلوا خاله، وندرك أن ردة فعل ستطرد "أولاد بالسباع" من "آدرار" لقد قتل "أمير آدرار" الجديد الذي كان قبله "الأمير الشاب" الحالي، "السيد" والد الرئيس الحالي "لأولاد البكار" وأغار على هؤلاء وعلى "أولاد احميده" وطاردهم حتى "تيرس" ونجا من هذه الهزيمة "لحريطاني" رئيس "ادميسات" وحده. كان "أولاد بالسباع" في نوفمبر 1903م منقسمين إلى فئتين:

- عند "اتويدرميت" في "ازيار" جنوب غرب "اخروفه" يقيم "أولاد البكار" و"أولاد احميده" وفرع من "ادميسات" وبعض "أهل سيدي عبد الله" و"أهل سيد السيد" وكانوا جميعا في ذلك الوقت متعاطفين مع "ولد سيدي"؛

- القسم الأكبر من "أهل سيدي عبد الله" بقيادة رئيسهم "علي ولد مراكشي" و"السيد ولد باب ولد لحريطاني" كانوا قد ساندوا الأمير السابق "أحمد سالم" الذي كان "علي" صديقه الشخصي. وشكلوا مع "أولاد الحاج عبد الله" و"أولاد عزوز" وهما فرعان من "أولاد بالسباع" "وادي اذهب"، جناحا قويا من عصابات "أحمد سالم".

ما زال زعيم "ادميسات" يعيش معزولا عند "أكنتير" وقد منحه "أولاد بالسباع" من الطرفين القيادة العامة وقد أرسل لي ابن أخيه "عبد الله" يعلن رغبته في البقاء صديقا للفرنسيين. وقد أنعشت لدي رسالته الأمل في استدراج الفرقة المكونة من "أولاد البكار" و"أولاد احميده" و"ادميسات" ولكن الفرعين الأولين من هذه كانوا قد أثاروا غضب "كبولاني" بسبب ما يقومون به من نهب وبسبب غاراتهم على "كنته" وقد أقنعهم الشريف "عبد الرحمن" بمغادرة المنطقة الجنوبية الغربية من "اترارزة" كما تمكن من إقناع جماعة ولد إبراهيم السالم من "أولاد بالسباع" بالتخلي عن "أحمد سالم" خصم "ولد سيدي" وهو ما مهد للمصالحة التي كنت أخشاها بين المتعاضدين بإيعاز من "الأمرأ". ولم يتطلب منهم ذلك جهدا كبيرا لتوحيد صفهما ضد "أولاد بالسباع" إذ لم يكن أي منهما يكن لهم الود. لقد أصبح "أولاد بالسباع" الجنوب في صف "أحمد سالم" برمتهم تقريبا بسبب الموقف العدائي الذي اتخذته "ولد سيدي" و"الأمرأ" اتجاههم. كان "أولاد بالسباع" أثرياء في السابق أما الآن فقد افتقروا بسبب حربهم مع "آدرار" سنة 1902م فلم يبق لديهم سوى أسلحتهم ونخيرتهم وليس لديهم من الجمال ولا الخيل إلا ما يحصلون عليه بقوة السلاح، وكذا الحال بالنسبة للأغذية وهذه هي الشروط المثالية لاكتتاب المساعدين. لقد صمم "الشريف عبد الرحمن" و"محمد سالم" على أن يأتوني بجميع "أولاد بالسباع" الجنوب مقتنعين بوشوك توجهي نحو "آدرار" لكي يدخلوه معي معولين على أن إغراء الغنائم يكفي لجعل قومهم يستجيبون. ولكن بطء وتردد سياستنا قد أجل دخول "آدرار" ربما إلى فترة ما زالت بعيدة في حين أن ما يعرضه عليهم "أحمد سالم" هو تسليمهم زمام منطقة "اترارزة" وهذا أمر حاضر. كم أنا متأسف، بسبب عدم تمتعي بحرية التصرف، على عدم تمكني من ضم هؤلاء الأشداء النشطاء المعادين لأهل "اترارزة" وللصوص الشمال وخاصة لأهل "آدرار"، فهم يمثلون بالنسبة لنا قبيلة "المخزن"²³⁶، من أجل السيطرة على باقي

²³⁶- قبيلة "المخزن" القبيلة المخلصة للحكومة وللسلطة الشرعية وبمعنى أوسع القبيلة التي تؤدي مهام الشرطة.

موريتانيا. أعرف أن القانون الصارم حول تعميم الضرائب سيجعل فكرة قبيلة "المخزن" غير محببة في الأوساط الإدارية. ولكن لن تكون هناك أية صعوبة في تطبيق هذه الفكرة على "أولاد بالسباع" فنزوحهم الموسمي إلى "وادي الذهب" وما لديهم من مخيمات هناك يمكن أن تمكننا من اعتبارهم تابعين لإسبانيا دون أن يشكوا هم في ذلك أحرى غيرهم.²³⁷

إذا استدرجنا "أولاد بالسباع" إلى جانبنا في يوم من الأيام فسنمتلك سلاحا جيدا ذا حدين: ضد "أهل آدرار" و"أهل الشمال" وضد "أهل اترارزة". أرسلت إلى "كبولاني" مشروع مسيرة عبر الحدود يتعين تنظيمها من "أولاد بالسباع" من البحر إلى "آدرار" ويمكن تجميعهم في منطقة "لعكل" في "تيجريت" ولكن موقفنا المتردد غير الجذاب للجماعات المغامرة لم يبق معنا مع الأسف إلا فرعين ضعيفين نسبيا من "أولاد بالسباع" أي 80 مقاتل. ولو لم نخسر رئيس "ادميسات" لتمكنا من اكتساب الآخرين لأنه يمثل مفتاح الدخول إليهم وبما أنه يقيم قرب "تيدره" حيث يقال إن "كبولاني" ينوي إنشاء مؤسسة للمصائد، قد يتم اتخاذ القرار بالاتصال به، ولحد الآن أنا الحاكم المقيم الوحيد الذي يتوفر على علاقات ودية مع "أولاد بالسباع".

لا بد من شفاء "رافين" وقدومه إلى "أخروفه" لأصبح حرا وأتمكن من الذهاب إلى "أولاد بالسباع" الجنوب لمعاينة الأمور عن قرب. ولا بد أيضا من الإسراع وتسديد ضربة دبلوماسية وعسكرية "الأولاد بالسباع" الموجودين مع "أحمد سالم" وقبل كل شيء سحق السبعين مقاتل من اترارزة الموجودين مع الأمير السابق وهو في عزلة عن "أولاد بالسباع".

ولم أتمكن من الخروج! واستمر ترددنا.

²³⁷ - قد يكون ذلك على المدى القصير جدا: فسيبتدد الوهم بسرعة، كل هذا المقطع ينم عن افتقار "أفرير جان" إلى معلومات دقيقة سواء حول "آدرار" أو حول قبائل الشمال.

عبر الدروب الضيقة: 238

حادثة كبرى مفاجئة... لقد تعثر "ولد سيدي". لقد حصل "أحمد سالم" على الدعم عبر انضمام "أولاد بالسباع" في اللحظة الأخيرة وكتب إلى "ولد سيدي" يدعوه إلى الالتحاق به صحبة من معه. ويبدو أن "ولد سيدي" الذي رفض في البداية قد تعرض للشتائم البذيئة من "الأمراء" وأذعن في النهاية وباع ما لديه من بقرات حلوب²³⁹ يومي 6 و 7 نوفمبر واشترى بثمنها جمالا جددا.

أشعرت النقيب الحاكم المقيم لاترارزة ربما بلغني عن "ولد سيدي" وإذا كان قد امتثل فعلا لاقتراحات "أحمد سالم" فسأذهب لمهاجمته وفي هذه الحالة سيواجه في أحد الجوانب فرق اترارزة الشرقية. وما كاد البريد يغادر حتى وصل إلى المركز "سيدي أحمد ولد الحسن" الأخ غير الشقيق لـ"بوبر سيرة" والصديق الشخصي لـ"ولد سيدي" وكان الليل قد أقبل فماذا يريد في مثل هذه الساعة؟ بما جاء يستطلع الأمور، أسأت استقباله: فإذا كانت تلك مهمته فسيعود ليتحدث إلى جماعته عن ما أقوم به من ترتيبات. ومن الغد أقبل "ولد سيدي" يوم 8 عند الساعة الثامنة صباحا، فلا بد أن "سيدي أحمد ولد الحسن" قد أشعره، فاستقبلته ببرودة وأخضعته لاستجواب دقيق، ولا بد أن أعترف هنا أن موقفه لم يكن قط على هذه الدرجة من الصراحة والدقة. صحيح أنه باع بقراته لأنه يريد المسير للإغارة على عصابات النهب وفاء لما تعهد به "للشيخ سيديا" ولهذا الغرض أيضا اشترى الجمال بثمن البقرات. فهل كان لدي مال أقرضه إياه؟ إذن لما باع بقراته. وأثبت لي من جانب آخر كذب ما قيل عنه، فقد توجه إلى الشمال الشرقي وليس إلى الشمال، فهو يسير ببطء نحو "لعكل" حيث طلبه "الشيخ سيديا" وأنا على علم بذلك. وأنكر أن يكون قد تلقى أية رسالة لا من "أحمد سالم" ولا من أمير "آدرار".

238- إشارة إلى كلمة السر لدى المتمردين في المشهد الرابع من "هرماني" (إحدى مسرحيات فيكتور هوغو) والعبارة بالكامل هي "الوصول إلى نتائج

عظيمة عبر طرق وعرة" أو "لا يتحقق النصر العظيم إلا بالتغلب على الصعاب الكبيرة" ويواجه "أفرير جان" في الوقت الراهن مثل هذه الصعاب.

239- لا تقوى البقرة الحلوب على العيش إلا في جنوب اترارزة حيث تجد الكفاية من المراعي والماء كل يوم أما في نفس الإقليم فلا تعيش الإبل في حالة جيدة بل تصيبها الأمراض بسرعة وشراء الجمال يقتضي نية المسير إلى المناطق الشمالية ذات المناخ الجاف.

أما "ولد امصالحي" فقد جاء ليستريح في مخيمه وهو مسافر في شؤونه، وهناك التقى "سيدي ميله". فجاء هذا الأخير ليخبر "ولد سيدي" بالموقف الانفصالي الذي اتخذه مولاي. هذا كل ما حصل. لقد ارتحت الآن.

شجعت "ولد سيدي" على مواصلة المسير إلى الشمال الشرقي والاقتراب بسرعة من "الشيخ سيديا" ولكي يثبت لي أنه متوجه فعلا جهة "اترارزة الشرقية"، طلب مني البريد الموجه للنقيب الحاكم المقيم في "بوتلميت". ومتى أصبح حرا فور عودة الرقيب الدركي "رافين" إلى "أخروفه" أنوي التوجه رأسا إلى الشمال صحبة كتائب من البيضان والجمالة والمساعدين لكي أمد اليد "لولد سيدي" من الناحية اليومنى وأكون على الناحية اليسرى لجماعة "أولاد بالسباع" الجنوب وبذلك استغني عن مساعدة الحاكم المقيم لاترارزة الشرقية الذي كتب لي بعدم رغبته في التعاون معي من أجل السيطرة على النظام. يجب أن لا يعول المرء إلا على نفسه. ومن الغد عاد "ولد سيدي" يوم 9 نوفمبر صحبة "سيدي مويله" وهذا الأخير قادم من مخيم "مولاي". جاء "سيدي مويله" بخبر مفاده أن "ولد إبراهيم السالم"، بعد أن أخرجه الملازم "مولني" و"أولاد البكار" من موقع "بيله" قد ابتعد وانضم إلى "أولاد بالسباع" المتحالفين مع "أحمد سالم" وعاد معهم إلى "مولاي" الذي قرر على الأقل اتخاذ موقف حيادي من "أهل آدرار" أعدائه التقليديين عبر إرسال رهينة أمير "آدرار" لا يكفي أقل من هذا لطمأنة "مولاي" ضد انتقام هؤلاء لأنه كان قد اغتال خال الأمير منذ أقل من سنتين. يريد "سيدي ميله" للمرة الثانية أن يثبت لي أن "مولاي" يخون قضيتنا. وقد بدا مغلوبا على أمره من حصول مولاي على رهينة من أهل "آدرار" وألح كثيرا على أن "مولاي" قد انتقل إلى صف العدو لكي أصدق ذلك. ثم أسر إلى من جانب آخر أنه هو ينوي ترك أسرته عند "الشيخ سيديا" والتوجه إلى "سينلوبيس" لمقابلة "كبولاني". ماذا يوجد وراء الأكمة؟ اعتقد أن "سيدي ميله" أثناء مروره بـ"الشيخ سيديا" وعبوره "اترارزة" بعد ذلك متوجها إلى "سينلوبيس" إنما يريد الإطلاع على أحوال قبائل "آزناكه" المسلحة. أحس أن شيئا ما يحاك، ما هو؟ أوفد إلي "الشيخ سعد بوه" نجله "محمد ماء العينين" يطلب أخبار "كبولاني"، كما لو كنت أعرف عنه شيئا! كتبت إلى "كبولاني" أحثه على الإسراع بتعيين من يخلفني في "أخروفه" بحيث أتمكن من العودة إلى نواكشوط لأجمع فيه كافة فرقي، أرجو مرة أخرى أن يسمح لي بالمسير لمهاجمة "أحمد سالم" وإذا لم نقرر ذلك سيتحتم علينا دائما استئناف كل شيء من جديد. نعاني في الوقت الراهن

من مجاعة حقيقية، نحن الضباط بسبب القرارات الأخيرة المتعلقة بالحصص المعوضة، لقد تعودت حياة البؤس ولكن في حدود؟

لم يغادر "ولد سيدي" حتى الآن وقد عرض علي أخيرا رسالة التحدي التي وصلته من "أحمد سالم" يتبجح فيها بحصوله على دعم جميع "اركيبات" وجميع "أولاد ادليم" وجميع "أولاد بالسباع" وكافة أهل "آدرار". يبدو أنه يتصرف معي مثل البرجوازي الذي يوجد وحيدا في منزله فيصرخ مناديا بأسماء حراس وهميين ليخيف اللصوص. ما حصل بكل بساطة هو أنه تفاوض مع "ولد إبراهيم السالم" ومع "أولاد بالسباع" بوصفهم أصدقاءه. أما الرهينة، فقد سلمها له أهل "آدرار" ليسلموا من شره. وهو ما يثبت أن أعداءه يعترفون بخطورته. "مولاي" لم يتحالف مع خصومنا ولكنه مرتبك لا يعرف كيف يتعامل معنا ومنتظر ما سنقوم به ضده وسيتخذ قراره بعد التأكد من موقفنا. بعد مغادرة "ولد سيدي" قدم إلي "المامي" وعليه علامات الغرابة ليخبرني أنه يعرف حقيقة ما فعله "سيدي ميله" في الأيام الأخيرة، ويمكن تلخيص ذلك في بضع جمل: لقد أفسد "سيدي ميله" بعمله الخفي ما أنجزه "الشريف عبد الرحمن" وربما استوحى من "عثمان" وحاول تحقيق حلم هذا الأخير في تحقيق المصالحة بين أطراف "اترارزة" ضدنا، والوحيد الذي يضايقه هو "مولاي" ولهذا السبب يحاول الوشاية به عندي. "سيدي ميله" أخطر رجل في "اترارزة" برمتها فلا بد أن أحاول إصلاح ما أفسده أولا لدى "أولاد بالسباع" فأرسلت مبعوثين إلى "أولاد احميده" المنشقين ومن جانب آخر كتب إلى رئيس "ادميسات" خاصة ليؤكد لي نواياه الحسنة. فسجلت ذلك. ولكنني بالإضافة إلى هذه الطرق الدبلوماسية سأحضر عملية مباشرة.²⁴⁰ وفي انتظار وقت الذهاب إلى نواكشوط اشتغلت على تحضير الخطة الآتية: لقد توغل "أولاد بالسباع" المتحالفون مع "أحمد سالم" نحو الجنوب الغربي بعد أن طردهم "اركيبات" من "بير انجني" وأقنعهم رئيس "ادميسات". "أحمد سالم" نفسه يقيم مع جماعة قليلة عند "البطحة" جنوب شرق "آكنيتير" وقد تجمع رجاله عند "انتيشط" على مسيرة أربعة أيام شمال نواكشوط. فور وصولي نواكشوط أنوي المسير رأسا لمهاجمة هذا التجمع بأكبر عدد ممكن من المسلحين ولهذا الغرض سأجمع "أولاد البكار" و"أولاد احميده" و"ادميسات" أثناء مسيرتي أسير باتجاه الشرق أثناء هذه العملية لكي ألقى بثقلي على "مولاي"

²⁴⁰ - وبالفعل هذه إشارة أخرى مأخوذة من تعابير الجماعات المتحررة حملة على استخدامها موقفه وذوقه.

وهو الآن في مرمى جماعة "أهل أمر أكديجه" المسلحة التي يوجد عندها "أبينو" وهو شاب فرنسي فر من أهله²⁴¹. بالإضافة إلى رهينة "آدرار" التي لم يقبل تسليمها "كبولاني" سيفكر "مولاي" في تعزيز موقفه لأخذ الرهينة الفرنسية.

سأسعى إذن لأخذ هذا الفرنسي شاء أم أبى سواء عند "مولاي" أو عند "أهل أمر أكديجه" وقبل أية عملية لا بد من المرور بنواكشوط لأخذ الأغذية والذخيرة، لقد بالغ المكتب في الإساءة لدرجة أنه لم يرسل لي إلا 12 طلقة لكل رجل.

بينما كنت أنتظر من يخلفني في "أخروفه" لاحظت نشاطا مفاجئا لدى "أخيارهم" استغربت أمره، أخبرني "المامي" أن "أحمد سالم" قد أصبح فعلا في وضعية بائسة، فلم يبق لديه سوى بضعة خيام بالية ولم يعد معه أحد. وأخيرا وصلنا الخبر الرسمي الأول عن عودة "كبولاني" فقد مر بـ"دكانا" يوم 9 نوفمبر ومن هناك بعث إلى برقية يتملق فيها رؤساء "البيضان" ويقول لهم إنه سيعتبر عدوا كل من رحل بمخيمه نحو الشمال ويؤكد لهم أن مصلحتهم ليست في مغادرة المنطقة، أمرت بترجمة البرقية وكتابتها بالعربية وأرسلتها إلى "ولد سيدي" طالبا منه أن يوصلها إلى جميع قبائل "اترارزة" من الزوايا ومن حسان وبذلك أكون قد منحتة فرصة الظهور في موقف القائد الوحيد في المنقطة فهل سيغتم هذه الفرصة؟ لقد دأبت على مد يد المساعدة له ولكن يوجد "سيدي ميلة" دائما إلى جانبه... جاءني موفد من "ولد سيدي" يخبرني أن أولاد بالسباع (وبطبيعة الحال) لا نعرف أيهم يعني (والمقصود "أولاد بالسباع" لجنوب) قد استولوا على إبل "تاشدبيت" التي كان "سيدي ميلة" يحميها... كان من الواجب توقع ذلك. مر الشيخ سعد بوه بـ"أخروفه" يوم 16 متوجها إلى "سينلويس" للقاء "كبولاني" وقد اشتكى بمرارة من أن رجالي يأخذون حاجتهم من عنده بالتسخير. ماذا بوسعهم أن يفعلوا غير ذلك؟ هؤلاء المساكين لأننا، كما هي حالنا دائما، نعاني نقصا في النقود. لا أريد أن أبدو أنا ورجالي كالمتحايلين لذا أشرح وضعيتي وأكشف عن ما أعيشه من بؤس والأسباب الكامنة وراء ذلك. فتأثر الشيخ من ذلك ووعدني عند المغادرة "بالدعم"²⁴² لدى

²⁴¹ - بالفعل يوجد في إرشيفات إفريقيا الغربية الفرنسية بعض مراسلات تتعلق بشباب فرنسي أعجب بحياة البادية فلجأ رغم معارضة أهله إلى "أهل أمر أكديجه" ورفض الذهاب عنهم وقد يكون من أسرة العقيد "أبينو" الذي كان في ذلك الوقت قائد أركان الجنرال "هوري" القائد الأعلى لجيوش إفريقيا الغربية الفرنسية في "سينلويس".

²⁴² - الوعد بالدعم من "الشيخ سيديا" يعتبر هنا صيغة مؤدبة للتعبير عن تفهمه للوضعية مع الحرص على إبراز أهميته وليس وعدا بالدعم الفعلي وهذا تلميح لا يدركه "فرير جان".

المكتب مثلا فاعتبرت ذلك حسنا من جانبه. حددت لجميع "اترارزة" بمن فيهم "مولاي" خطا تقريبا يجب أن لا يتجاوزوه في اتجاه الشمال: خط نواكشوط-اندومري. فسيجنبنا ذلك اللجوء إلى طلب عودة الجميع إلى الجنوب كما سيتمكن من الاحتفاظ بأكثرية القبائل في المنطقة القريبة منا والحال أن القبائل التي لديها الإبل لم تعد تستطيع الإقامة جنوب "أخروفه" ولا حتى في منقطة "إيكيدى" حول هذا المركز لأن الأمطار الغزيرة هذه السنة قد جاءت بذبابة "توكامت"²⁴³ القائلة للإبل.

علمت يوم 17 أن أخوي الأمير السابق "سيديا" و"أعمر الزالغ" قد مرا منذ ثلاثة أيام ومعهما أربعون مسلحا بمحاذاة شاطئ البحر غرب نواكشوط ولاشك أنهم الآن يمارسون نشاطهم جنوب غرب "اترارزة".

لقد عاد "كبولاني" وأصبحت في حل من التعليمات فبإمكانني على الأقل أن أخرج بخمسين مسلحا. سأعمل بواسطة فرقي من الجمالة والمساعدين ورجال فرقة "أخيارهم" على قطع طريقة العودة على جماعات النهب، ولا بد من تحضيرات كثيرة من أجل المسير. انطلقت عند طلوع القمر، وأنا امتطي فرسا رمادي اللون قد تقدم في السن أعاره لي أخيارهم وعند طلوع الفرج يوم 19 نوفمبر عاد الفرسان الذين كنا قد أرسلناهم لاستطلاع الأخبار، وذكروا أن فرقة من أربعة عشر مسلحا قد شوهدت مساء أمس قرب بئر "انديبخ" إلى الجهة الشمالية الغربية سأقطع بعد قليل طريق الفرقة وسأرى ما إذا كانت متجهة نحو الجنوب ومن الأعداد التي التحقت بي أثناء الطريق سواء من فرقة "أخيارهم" أو من فرقة "بويكر سيره" أصبح معي الآن 120 مسلحا، فإذا التقينا بالمسلحين فسنطوقهم بسهولة، وقد أخذت عشرين جملا بالتسخير من عند "لبيدات" لكي أعاقبهم على صمتهم على النهب الذي تعرضوا له يوم 13 على يد نجل "سيدي ميله" دون أن يخبروني بذلك، ففرضت عليهم غرامة من عشرين كبشا وهكذا أصبحت عندي الأغذية وحيوانات الذبح. كان المطر الخفيف متواصلا منذ الصباح، وأوصلتنا الآثار عند السادسة مساء إلى "اندباخ" وسط الكثبان الصفراء المرتفعة التي تشكل الحاجز الشرقي لآفطوط الساحلي، كان الغمام يغطي الأفق كما لو كنا في مناخ "ابريتان"

²⁴³- يبدو أن "كبولاني" لم يراع بدقة وضعية القبائل حين منعهم، تحت طائلة اعتبارهم أعداء، من التوغل نحو الشمال فهو بذلك يكاد يحكم على إبلهم بالموت لأنها لا تتحمل الرطوبة وأهل البادية لا يتحملون الحرمان من بعض مواشيهم.

حيث السحب قريبة من الأرض والعواصف تضرب بوحشية²⁴⁴، لقد كان البحر القريب منا هائجا وكنا نسمع هدير الرعد باستمرار. وعند وصولنا مخيما من "إشوكانن" أحد فروع "تندغه" أدركنا المطر الغزير فأسرعوا بإعطائنا خيمتين كبيرتين وجاء الليل وهذا المطر لحظة فأشعلنا نيرانا ضخمة.

كان الطقس رائعا من الغد فانطلقت عند الزوال ناويا التوقف عند بئر "تنومو" إلى الجنوب الشرقي. أرسلت فارسين من أهل التونسي لأخذ الأخبار وعند الساعة الخامسة جاء أحد فرسان أخيارهم من هذه الناحية وهو العجوز "التاه" لديه خبر مؤكد مفاده أنه شاهد فرقة قرب "تكنت" وتمكن من عد 28 فارسا ولاشك أنهم يتوجهون نحو الشمال للمرور غرب "أخروفه" نحن في موقع جيد لا اعتراضهم. وعند طلوع القمر عاد المبعوثان وذكرنا أن الفرقة قد أغارت مساء ذلك اليوم على "تاشدبيت" وأخذوا الغنائم ولكن تصادف مع ذلك قدوم "عثمان" نفس اليوم من "سينلوبيس" صحبة "أرويجات" فرع "أهل سيدات" فهاجم العدو وطارده وقتل خمسة رجال. ومن حسن الحظ أن "عثمان" كان هنا في الوقت المناسب. و"عثمان" فيه بعض العيوب ولكنه شجاع. قررت الذهاب قبل طلوع النهار لا من أجل الوصول إلى المهاجمين فذلك مستحيل ولكني أريد أن أمنعهم من معاودة الهجوم على "عثمان".

وبما أنني أمر قريبا من "أخروفه" صادفت أمة مذعورة أثارت الهلع في صفوف الرماة السنغاليين وهي تصرخ بأن جيشا كبيرا يمر ذلك الوقت شرق المركز وتقول إنها رأت فارسا رهيبا قد جعل لفرسه قلادة من آذان البشر ما زالت تقطر دما، فأرسلت على الفور دوريات وأمرت الرماة بالاستعداد، وبعد ذلك بقليل عادت الدوريات تقول إن الفارس المذكور ليس سوى "عثمان" وقد فعل هذا العمل الوحشي لضحاياه ومعه اثنان من أولاد "أركيك"، فهل بلغ الرعب بالأمة درجة جعلتها تعتبر ثلاثة رجال جيشا كبيرا.

ها هو "عثمان" استقبلته في المركب فأخبرني أن المهاجمين الذين قتلهم من "أولاد بالسباع" المتحالفين مع "أحمد سالم" وأن الفرقة برمتها منهم بالإضافة إلى عدد قليل من "أترارزة" من حاشية إخوة "الأمير السابق" الذين كانوا يقودون الفرقة. وكان "عثمان" يحمل إلي بريدا من كبولاني يتضمن أوامر جديدة حيث يشكرني الأمين العام على أنني استطعت المسير

²⁴⁴- قد يحدث في فصل الخريف أن تصل أمواج البحر إلى الصحراء الغربية وهنا تعيش المنطقة الساحلية مناخا يشبه مناخ "إبريتون" وهذا من حسن حظ المنطقة فتخضر وتمتلئ البرك بالماء وقد حدث ذلك سنة 1951م.

حسب ما يريد، ولكنه يخبرني بضرورة المواصلة، فلهم وفر الشكر، لقد سئمت حياة التوقع التي أعيشها منذ الصيف الماضي.

وعلى شاكلة تعليماته في يناير 1904م يقول لي إن بإمكانني التحضير للذهاب في مهمة استكشافية وحدد لي مدتها: خمسة عشر يوماً ولكنه لم يقل لي إلى أين ولا متى ولا بأية وسائل سيكون ذلك. لا شك أنه يفكر مرة أخرى في التضحية بي كما فعل في الحملة الأخيرة يقال إن هدف المهمة الجديدة سيكون تحكجة في تكانت، وكل الجزائريين الذين اكتبهم النقيب "سيكولي" قد توجهوا إلى الشرق. لم ينجز شيء مما وعدوني به.

قدم نجل "الشيخ سعد بوه محمد ماء العينين" يوم 22 نوفمبر ليخبرني أن "سيدي ميله" قد كشف عن نيته منذ يوم 18 لكنهم لم يتأكدوا من ذلك إلا مساء أمس. لقد توجه "محصر"²⁴⁵ "ولد سيد" إلى "تتيافويل" شمال غرب نواكشوط يقوده "سيدي ميله" وعندما وصلت ترجمة برقية "كبولاني" إلى "تندكسمي" حيث كان يوجد مخيم جماعة "ولد سيدي"، عقد هؤلاء اجتماعاً مع جماعة "مولاي" من "لعلب" وأقسم الجميع على القرآن بأن لا يذعنوا للأوامر الواردة في البرقية وعلى أن يحاربونا إذا حاولنا إقناعهم بالامتنال لهذه الأوامر. واتفق جميع قادة اترارزة بإيعاز من "سيدي ميله" لقد أصبح كل من "احمد سالم" و"ولد إبراهيم السالم" و"مولاي" و"ولد سيدي" أصدقاء الآن لقد منحت برقية كبولاني لـ"سيدي ميله" ذريعة لتحقيق وفاق شامل ضدنا. كما أخبرني نجل "الشيخ سعد بوه" أن الجواسيس منتشرون في جميع المنطقة وبالأخص في ضواحي مركز "أخروفه". لقد تجاوز جميع "اترارزة" الخط الذي حددته لهم متوغلين نحو الشمال،²⁴⁶ فهم يوجدون الآن شمال "أكيلال فاي" وقد تبعهم الكثير من قبائل الزوايا. ولحسن الحظ أن أمير "آدرار" لم يتمكن من القدوم لتعزيز صفوف "اترارزة" وقد منعه من ذلك تأثير "الشيخ سيديا". "الزغمه" زوجة "سيدي ميله" وحفيدة الأمير "محمد الحبيب"²⁴⁷ هي التي أقنعت الكثير من الزوايا بمرافقة جماعة حسان، فقد جاءت بفكرة أخذ جميع هؤلاء الزوايا تحت حمايتها بالطريقة الآتية: فقد جمعت كل ما لديهم من الإبل في قطع

²⁴⁵ - المحصر: محيط الإمارة الذي يشمل الأسرة والبطانة أي (جماعة بلاط ولد سيدي).

²⁴⁶ - لم يفعلوا ذلك عصياناً لأوامر "افير جان" بقدر ما فعلوه لإبعاد إبلهم عن الحشرات القاتلة التي تتكاثر في المناطق الرطبة التي اتسع نطاقها هذه السنة نحو المشال.

²⁴⁷ - أحد أمراء اترارزة لعب دوراً مهماً في القرن التاسع عشر (1789-1861) تولى الإمارة من 1824-1861 وقد اغتاله إخوته وأبناء أخيه. وغالبا ما تلعب بنات الشخصيات البارزة أدواراً خفية ولكنها حاسمة.

واحد "كسب" بحجة أنها ستؤمنها ضد نهب جماعتها. فابتعد "الكسب" نحو الشمال وبالتالي تبعه الزوايا. ماذا عسانا نستطيع إذا تدخلت النساء في مثل هذه الأمور؟ يربط تجمع "أترارزة" في الشمال تحت تغطية من "ولد إبراهيم السالم" ومن "مولاي" عند "تدريدل" شرق نواكشوط حيث ينتظرون "ولد سيدي". وفيما يلي ما أخبرني به "المامي" هذا اليوم وهو مسؤول مخابراتي لقد توجه "ولد سيدي" إلى "تججماجك" شمالا يوم 21 نوفمبر بحجة أنه يتبع جماعات النهب، وعند "اعكليت" التقى رجلين من "أولاد بالسباع" فقتلتهما وربما يكونان من "أولاد بالسباع الجنوب" أي من الموالين لنا، وكان "سيدي ميله" ينتظره عند "آكريدل" حيث أقنعه بالمصالحة مع "أحمد سالم". ولكن لكي يمويه الأمور وجهه إلى "تججماجك". لا يوجد من هو أشد مكرا "من صبيان المذبح" ومن لا خلاق لهم والأغبياء. ومع ذلك ليست الأمور على هذه الدرجة من السوء، "أحمد سالم" لم يعد له أي نفوذ فقد تخاصم مع أخلص مسانديه من "أولاد بالسباع" كما أن جماعة "العلب" التابعة لـ"مولاي" قد اشتبكت مع جماعة ولد إبراهيم السالم من "أولاد بالسباع" كما أن فرقة 115 من "أولاد بالسباع" الباقية في الوقت الراهن مع "ولد إبراهيم السالم" قد صرحت لـ"أترارزة" أنها لن تبدأ بإطلاق النار على رجالي ولا علي أنا شخصيا. يقول نجل "الشيخ سعد بوه" إن أي تحرك بسيط من جانبنا سيقوض خطة "سيدي ميله".

إن كتلة "أترارزة" في الواقع لا تطلب التوغل شمالا وسيكونون مسرورين بالحصول على ذريعة للبقاء في مواطنهم التقليدية ولو تمكنت من التخلص من ثقل "أخروفه" الذي يعرقلني لتوجهت إلى نواكشوط واستدعيت على الفور جماعة "أولاد بالسباع الجنوب" وتمكنت من فصل جماعاتهم الأخرى عن "ولد إبراهيم السالم" وعن "أترارزة" بصفة نهائية. وهذا هو سبب استماتة "سيدي ميله" في دفع "كبولاني" و"ولد سيدي" وحتى أنا شخصيا إلى مهاجمة "أولاد بالسباع" فهو يتوخى من ذلك أن نجعل هؤلاء مضطرين إلى الارتقاء في أحضانه. ولكن هناك شخص لم تتطل عليه الحيلة وهو أنا.

لقد قضي الأمر، نهاية حملة اترارزه

بسبب ما اعتبره قدرا لا أجد له تفسيراً عند الوهلة الأولى، وصلتني يوم 22 نوفمبر تحديداً أوامر تجعل كل تسوية مستحيلة. وهي قادمة من "سينلويس" وتحمل توقيع "كبولاني"! وتفسيري الشخصي هو أن هذه الأوامر جاءت نتيجة نجاح "سيدي ميله" في إقناع الأمين العام بما يدبره خفية بالإضافة إلى تواطؤ رؤساء جماعات البيضان، وسلك المترجمين الذين يتبنون العقلية السائدة في "سينلويس". والأوامر هي كالتالي:

يجب على "ولد سيدي" و"لعلب" أن يعودوا فوراً إلى جنوب "أخروفه" مع أنه نظراً لكثيرة "توكامت" وغيرها من الذباب لا يستطيع أي جمل العيش هناك، يبدو أنهم حريصون على أن تلقى أوامره رفضاً فهذا الأمر الذي تستحيل الاستجابة له سيقوض عمل سنة بكاملها ولن يكون له إلا أثر واحد: أن تصبح القطيعة التي بدأت نهائية ولا رجعت فيها. المسؤولون عن هذا لابد أنهم أصحاب العقلية السائدة في "سينلويس" والحاقدون من المولدين والزواج بالإضافة إلى جماعة "إيباكرن" القرده وهي التسمية التي يطلقها "ولد سيدي" على "عثمان" و"بوبر" سيرى" و"أخيارهم" في بحثها عن فصل "ولد سيدي" عنا واضطراره إلى عصيان أوامرنا قامت جماعة "إيباكرن" بنفس العمل الذي يقوم به "سيدي ميله" الذي يعمل على إجباره على مقاومتنا لكي يستحوذ عليه.

يبدو ذلك أكيدا من سلوك "عثمان" فهو يتصرف كما لو كان يرشح نفسه لمنصب الإمارة، وسيلة الضغط الوحيدة التي تتوفر عليها ضد "إيباكرن" هي سيطرتنا على أراضيهم التي لا يمكن أن يأخذوها معهم مع حرصهم عليها وارتباطهم بها. هل نريد أميرا ترتبط مصلحته بمصالحنا؟ كان من الممكن أن نجد ضاللتنا في "ولد سيدي" لو بقينا أوفياء له ولكننا ضحينا به استجابة للعقلية السائدة في "سينلويس" أم أننا لم نعد نريد وضع البلاد تحت الوصاية ونتجه نحو التسيير المباشر أي أسلوب الحكم المكلف أكثر؟ أم أننا سئمنا الطرق السلمية وأصبحنا نريد إثارة الحرب في "اترارزه" إذا كانت تلك غايتنا، فيها ونعمت. فقد تعبت وأصبحت أتطلع إلى نهاية هذه المخادعة الطويلة التي يسمونها "التوغل السلمي" وإذا لم تكن كذلك فكم نحن ضعفاء.

تخامرني شكوك قوية حول تورط "ولد سيدي" فقد أصبح الآن على علم بالبرقية المشهورة لقد قدم إلي صهره ورجل ثقته "ولد ليدارا" يوم 26 وزعم أن "ولد سيدي" سيمتثل لأوامر "كبولاني" حتى وإن تطلب منه ذلك أن يعود بمفرده إلى جنوب "أخروفه" وكتب له أمامي يحثه على ذلك ولكن بقي الآخرون، "علب"، هؤلاء بالتأكيد لن ينصاعوا للأوامر. كلما راقبت عثمان منذ عودته من "سينلويس" كلما لاحظت أساليبه الغريبة.

ذهبت يوم 26 إلى مخيمهم لأرى فرقة الجمالة من "أولاد بالسباع" وكنت منشغلا بتجهيزهم حين سمعت صدفة "عثمان"، وهو يثرثر كعادته، يقول لهؤلاء الشجعان إن "كبولاني" حذر منهم، فالأمين العام حسب قول "عثمان" قد سأله عما إذا كانت بنادق "أكراس" ستكون غير مأمونة في أيدي هؤلاء. لم يعد الأمر يطاق، فأمرت فرقة الجمالة نفسها بطرد "عثمان" وأرسلت تقريرا على جناح السرعة إلى كبولاني. وعلى هذا وصلت أخبار سيئة من اترارزة الشرقية، ف"أولاد أبييري"²⁴⁸ وهم قوم "الشيخ سيديا" من الزوايا الحاملين للسلاح قد توجهوا إلى الشمال لمحاربة "أولاد بالسباع" المتحالفين مع "أحمد سالم" فضربهم هؤلاء ضربا شديدا وفقد "أولاد أبييري" المساكن الجزء الأكبر من 200 بندقية التي كانوا قد حصلوا عليها من "كبولاني" وزميلي في اترارزة الشرقية. وأدى ذلك إلى جعل المنتصرين يعودون إلى الأمير السابق بعد أن كانوا على شبه خلاف معه والأدهى أن "أولاد أبييري"، دون أن يكثرثوا بالحاكم المقيم بـ"اترارزة الشرقية" قد استفزوا جماعتنا من "أولاد بالسباع" في نواكشوط التي لم يكن لها أي دور في هزيمتهم المترتبة على عدم التدريب والقيام بهجوم في غير محله دون تحضير. لقد فقدنا بسبب محاولاتهم بعض أسلحتنا وهيبتنا وقد غادر المنهزمون منطقة "اترارزة" الشرقية تاركين الفوضى تسودها دون الاكتراث بالسلطات الفرنسية كما لو كانت غير موجودة أصلا. وتقول جماعة "إيباكرن" العاملة معنا إن "ولد سيدي" قد يكون قد أوقف تحركه الآن متوجها بحاشيته نحو الشمال وقد يكون مستعدا للنزول برجاله جنوب "أخروفه" أما "اترارزة" الآخرون فقد غادروا بالتأكيد فاحراطين "أهل المختار ولد الشرغي" و"لمزازه" قد وصلوا بالفعل إلى "اتوزكت" في "إينشيري" أما "مولاي" و"سيدي ميله" فلا نعرف أين هما. فهل حل الذعر محل الثقة المفرطة والزهو على مستوى المكتب؟ وصلني خطاب مستعجل يشعرني بأن نواكشوط

²⁴⁸ - يكتبونها أيضا "أولاد أبييري".

توشك أن تتعرض لهجوم، من سيهاجمها؟ يقول الخبر: من "أولاد بالسباع" الذين تجمعوا في المنطقة تحت حماية المركز والذين يتصيدوننا، هذا سبب للاستياء. لا أعرف من أين يستقي المكتب معلوماته، ويبدو لي أن هذا جزء من الحملة الشعواء الجارية في "سينلويس" ضد "أولاد بالسباع" المخلصين لي وحتى ضد كل ما يخصني في هذه البلاد.

تلقيت أخيرا الإذن بتسليم القيادة في "أخروفه" إلى الملازم "مولني" والعودة إلى نواكشوط إلا أنني لا يمكن أن أغادر دون فرقة الجمالة التي ذهبت إلى "دكانه" بحثا عن المؤن الغذائية والأسلحة والذخيرة لقد كانوا آنذاك يرسلون كل شيء، وكان بإمكانهم إرساله قبل ذلك بكثير.

قال رجلان من الزوايا إنهما شاهدا "ولد سيدي" يوم 30 نوفمبر شمال "أكريدير" وهما يزعمان أن الأمراء أصبحوا يخافون من "أحمد سالم" الذي ما زال يحقد عليهم ولم يعودوا يريدون مواصلة المسير نحو الشمال. فأرسلت مبعوثين على الفور من أجل إقناع الأمراء بالاستمرار في هذا الموقف إن أمكن أن يحاولوا تعميق هذا الشرخ، لابد من الإسراع فقد علمت قبل قليل أن "أحمد ولد الديد" و"سيدي ميله" و"ولد إبراهيم السالم" سيلتقون مع الأمير السابق، ومن قبيل الإشارة، حدث حراك عند عودة "كبولاني" إنه نوع من الهجرة المرتبة على عمل طويل الأمد قد شارك فيه المكتب بصفة مباشرة.

لم يترتب على برقية "كبولاني" التي تلزم جميع "اترارزة" بالبقاء إلا أنها عجلت بتحركهم نحو الشمال. و"سيدي ميله" يبذل قصارى جهده في نشاط ليتمكن من تنفيذ مخططه في أربعة أيام. وجاءت برقية ثانية تأمر "ولد سيدي" بالتوجه جنوب "أخروفه" من السهل توقع ما سيحصل، ف"ول سيدي" كان قد قبل مجبرا اقتراحات "سيدي ميله".

أخبرني "ارحاحله" و"البيدات" أن "الأمراء" قد طلبوا منهم أثناء تهاطل الأمطار في شهر أغسطس أن ينضموا إليهم للاستيلاء على "أخروفه" أي في فترة انهيار البئر وكان المشروع من تدبير "مولاي"... ما زلت أفضل طريقته على أسلوب "سيدي ميله" ولكن ما يثبت أن خطط "سيدي ميله" قد نضجت وأن أفكاره المناهضة للفرنسيين كانت تأخذ طريقها في هذه الفترة هو أن الأمراء يبذلون في ذلك الوقت مستقرين وأغلبهم كان في صف حليفنا "ولد سيدي".

في غياب ردة فعل الأمين العام يواصل عثمان عمله التخريبي، فقد شاع أن الجزائريين الذين اكتتبهم النقيب "سيكولي" كانوا موجّهين إلى "اترارزة" والحال أن "عثمان" الذي غير مساره في الفترة الأخيرة توجه إلى "سينلويس" دون إذن قد كذب هذه الإشاعة علنا وصرح بأن الجزائريين ليسوا موجّهين إلينا، فلا نلومن إلا أنفسنا إذن إن سخر منا كل من هب ودب.

من أجل تخفيف الضرر الحاصل في المنطقة لابد من أن نتمكن من الظهور على الساحة عبر الدوريات والمرور بين الفرق المعادية واستعادة الذين انضموا إليها بغير اقتناع مع إرهاب أو مهاجمة الآخرين ولكن بأية وسائل ومتى يكون ذلك؟ فليس عندنا الوقت ولا الرجال الضروريون. أشار إلي "كبولاني" بأن هدف فرقة الاستكشاف لمدة 15 يوما التي أمرني سابقا بالتحضير لها، هو "آدرار" لم أعد أصدق شيئا مما يقال في هذا الباب. أنا على علم كذلك أن الأمين العام قد عمل على تجميع كميات كبيرة من المؤن وقرب الماء والجمال في بوتلميت، حيث سيتوجه يوم 15 دجمبر، لقد أخبرني البيضان بذلك وهم ليسوا مثلنا فلا يمكن أن نخفي عنهم أي شيء. ماذا سيكون الهدف من كل ذلك؟ قد يكون "آدرار" لا أعتقد ذلك فلو كان يقصد الذهاب إليه لما صرح بذلك. أرسلت بأن تحمل إلي الباخرة المنتظرة في نواكشوط عددا من الأطر ونحو 40 من الرماة القدماء فلا بد من أن أهني قافلتني المحتملة.

هل سيسمح لنا باستقدام مؤن خاصة بنا على الباخرة المذكورة؟ لحد الآن يمنعوننا ذلك. لا يمكن أن نتصور درجة حرصهم على تجويعنا. لابد من تفريغ جميع حمولة الباخرة في مركز نواكشوط وكان كل شيء محسوبا بدقة فلا يمكن أن أتحرر من هذا العمل قبل 20 دجمبر وإذا تمكنت من الخروج فلن أتمكن في هذا التاريخ المتأخر من تحريك جماعي من "أولاد بالسباع" التي تنتظر الانطلاق على أحر من الجمر تشوقا إلى الغنائم لقد بدأت الحداثق تنتج في "اخروفه" وأصبح لدينا بعض الخضروات كالفجل. ولن يجد الملازم "مولني" شيئا آخر من المؤمن باستثناء الخضروات وحيوانات الذبح، سيأتي معي بقافلة من نواكشوط وأنا فور وصولي هناك سأرسل قافلة ثانية من المؤن، لم يحصل لي قط طيلة عملي في المستعمرات ولا حتى أثناء قافلة "جوفر"²⁴⁹ أن وجدت نفسي مجبرا على شد الحزام مثل ما هو

²⁴⁹ - قافلة "جوفر": دخل الرائد "جوفر" مدينة تومبكتو سنة 1894 بعد أن كان دخولها ممنوعا على غير المسلمين وكانت آنذاك تابعة لإمبراطورية "ماسينا" من الفلان "العاصمة": حمد الله "قرب" "دجنه" وهذه القافلة تابعة لحملة العقيد "أرشينار" ضد قوات "أمادو"، نجل "الحاج عمر" (1890-1893). ولم يتمكن "ريني كايي"، وهو أول أوربي يدخل تومبكتو، من تحقيق هذا الإنجاز إلا بعد أن تقمص شخصية رحالة مسلم واستعد لذلك بالإقامة في "البراكنة" حيث تعلم اللغة العربية وعادات سكان الصحراء.

حاصل الآن. وإذا انتهى كل هذا الحرمان برحلة جيدة فسيكون مجددا وإلا فإن العمل الإداري والسياسي في مثل هذه الظروف المادية والمعنوية التي يجبروننا عليها هو أسوأ ما يمكن. وأخيرا وصل "مولني"!

وصلت نواكشوط يوم 10 دجمبر لا أحظ تغييرات كبيرة إلا أنني لم أعد متعودا على مستوى الرفاهية هنا منذ إقامتي في "أخروفه" فهنا حديقة وافرة الغلة فيها كثير من الخضروات وحقل من البطاطس والشمندر. ويوجد هنا من العمل أكثر مما يوجد في "أخروفه". تسارعت الأحداث ف"ولد سيدي" عصى أوامر "كبولاني" فلا هو ولا "الأمرء" يتحدثون عن العودة إلى الجنوب، وإن هم فعلوا ذلك فسيفقدون كل شيء بموت جميع جمالهم، فلا يستطيعون إذن، وهذه هي اللحظة التي اغتتمها "أحمد سالم" لتقديم عروض استسلامه كما فعل سابقا في شهري فبراير ومارس، وإذا كانت ستترتب عليها نفس النتائج فلا بد من أن أتحدى بالحذر. كما أن جميع "أولاد بالسباع" عرضوا علي استسلامهم وسأنتظر إننا مثيرا للجدل من المكتب ومن وكلائهم لكي أرد عليهم. وقد تعرفت عبر "أولاد بالسباع" على "المختار ولد أحمد ولد عيده" أمير "آدرار" المخلوع²⁵⁰ وهو رجل طاعن في السن صغير القامة وسخ لدرجة البشاعة وأخبرني أنه كان أثناء فترة حكمه القصيرة يعتمد على "إيديشلي" و"أولاد بالسباع"²⁵¹ ولم ينفذ ذلك فقد خلعه شعبه وخلفه آنذاك نجله الأكبر "أحمد" الذي أساء معاملة بعثة "أبلانشي" وهاجم "أولاد أحميده" فيما بعد، استضفت المختار في كوخ خارج المركز.

بلغني أن صداقة مولاي تتوطد شيئا فشيئا مع "أهل أعمار أكديجه" الذين يقيم عندهم الشاب "ابينو" الذي تحدثت عنه سابقا ويبدو لي أن "مولاي" يريد أخذ الشاب رهينة، فطلبت وحصلت على الإذن لإخراج الشاب من هناك وقد أعطاني المكتب تفويضا مطلقا في تحديد تكاليف العملية، فأعلنت عن خمسمائة افرانك لمن يقوم بها وليس هذا ثمنا كبيرا، سنرى. ولم أكن أعرف ما إذا كان الشاب "ابينو" سيعود من تلقاء نفسه وقد كتبت له مفسرا الخطر المحقق به مع هذه القبيلة طالبا منه مرافقة من أرسلتهم للإتيان به وفي نفس الوقت حذرت

²⁵⁰ - هذا غير صحيح تماما، فالمختار ولد أحمد ولد عيده قد ترك السلطة بحض إرادته ليتفرغ للشعر فقد كان الرجل، رغم مظهره المتواضع، شاعرا مبدعا ومحبويا لدى مواطنيه، والمصاعب التي واجهها هو نفسه وكذا أسلافه راجعة إلى الهزائم التي ألحقها بهم أمير تكانت "بكار" ولد أسويد أحمد" السياسي المحنك والمقاتل الراهب.

²⁵¹ - كان حلفاء أمير آدرار أثناء صراعه مع أمير تكانت هم "كنته" (وقد هلك رئيسهم في معركة "كصر البركة" سنة 1894 وهو ما جعلهم أعداء ألداء لإيدوعيش) "أولاد يحيى من عثمان" و "أولاد الناصر" و "أولاد بالسباع" لم يكونوا في هذا الصراع إلا دعما مكملا.

بأنه في حالة الرفض سيتحتم علي أخذه عنوة. كانت الفرقة مكونة من ثمانية متطوعين من "أولاد بالسباع" من المخيم المجاور من بينهم رجلان كنت قد خلصتهما في شهر أكتوبر من قبضة "ولد سيدي" الذي كان يريد قتلها بإيعاز من "الأمرء" باعتبارهما من "أولاد بالسباع" أولاً ثم لأنهما قد أهانا بعض الزوايا المتعاطفين معهم.

وعلى مسافة قريبة من نواكشوط عثر "أولاد بالسباع" على آثار أربعين رجلاً من "أولاد السيد" من جماعة "أحمد سالم" وصل المبعوثون إلى مخيم "أهل أعمار أكديجه" ليلاً وبعد عملية تحري حدودا مكان الخيمة التي يقيم فيها الشاب، فبعد بحث اكتشفوا أنه يقيم مع العبيد في خيمة مرقعة معه فيها أمة عجوز تصنع له الطعام وهو يزاول مهنة الإسكافي غير المعتبرة كثيراً في وسط "البيضان". أحسن استقبال رسلي وقرأ الرسالة جانباً على ضوء النار ولم يبد أي اعتراض على مرافقتهم فأخذه معهم على الفور بينما حاول اثنان من "أهل أعمار أكديجه" الاعتراض على ذهابه وهو ما يعني أن الشاب كان تحت الرقابة وانطلقت الفرقة و"ابينو" جاثم فوق "التاسوفره"²⁵² خلف راحلة أحدهم فحثوا السير في الظلام الدامس خشية المطاردة، عند وصوله المركز كان الشاب في هيئة رثة يلبس كسوة من قماش "الذيله" بالية يرتدي تحتها ثوبا من "كاكي" وسخ جدا ويضع في رقبته "تسيحا"²⁵³ كبيراً وهو حافي القدمين وشعره كث مجعد في تنافر صارخ مع كسوته.

لم يتعلم سوى بعض كلمات من الحسانية وبدا عليه الاندهاش والشعور بالإهانة من المثل أمام جماعة من الفرنسيين، وبدا غير متحمس للعودة إلى "سينلويس" معنا، ربما لأنه قارب سن الانخراط في الخدمة العسكرية. أخبرني "أولاد بالسباع" أن الأغلبية الكبرى من مقاتلي "اترارزة" قد تمردت، وأنهم جميعاً يوجدون في "تافويليت" و"إنيشيري" و"أوكار" وأن "أحمد سالم" قد جعل الجميع يعترف بسلطته بما في ذلك "ولد سيدي" وهذا أمر واقع وليس من باب الافتراض. كان آدرار هادئاً فالمقاتلون في هذه المنطقة لم يتلقوا بعد الأسلحة الحديثة ولا الذخيرة التي أرسلوا في طلبها من المغرب بواسطة "ماء العينين" أخي "الشيخ سعد بوه"²⁵⁴ لو منحوني سنة أخرى في "اترارزة"، فسأقتصر على الصيد البحري ولن أهتم بالأمور الأخرى.

252- التاسوفره كيس من جلد البقر أو الغنم تجعل فيه الأمتعة ويوضع خلف "الراحله" وهو يماثل حقيبة السفر.

253- التسيح: السبحة.

254- الواقع أن الذخيرة لا تأتي من المغرب ولكن من منطقة "الساقية الحمراء" غير الخاضعة لنفوذ السلطان، ولكن ماء العينين ييسر نفوذه عليها، كما أن تهريب الأسلحة (من الصنع الفرنسي والانجليزي، والألماني) منتشر وتأتي الأسلحة على مراكب صغيرة من جزر الكاناري ترسو في منطقة

إن وجودي فيها خلال هذه السنة قد ولد لدي فكرة قصة، مع أنني لم أجد فرصا كثيرة للتحرك، لقد شاهدت الكثير، ولكنهم لم يبخلوا في فعل كل شيء لمنعي من التصرف كما يحلولي. تلقيت رسالة من العريف الدركي "رافين" كما بعث إلي ببعض الملاحظات، هذا الرجل الرائع! لم يتمكن من مفاتحة "كبولاني" إلا يوم الرابع دجمبر حيث أخبره بوضعيتنا ويبدو أنه تعجب كثيرا حين أخبره بالنقص الحاد والدائم الذي نعيشه، ولذلك صدرت أوامر فورية بإمدادنا بالتموينات، فالمكتب لم يكن قد أخبره بوضعية البؤس التي نعيشها، كنت متأكدا من ذلك. كتب إلي "رافين" بأنه وصف حالنا للجميع، ولكنهم في المكتب يعارضون، ويزعمون أننا قمنا بتبذير المواد، يبدو أنهم يسبحون في البذخ، هناك في "سينلويس".

تلقي "رافين" من "كبولاني" خبر مرافقته له في جولة كبيرة تدوم أربعة أو خمسة أشهر سيتعين عليه المسير حتى "أطار"، سيتركون في نواكشوط حامية من 150 راجل ويتقدمون باتجاه "أطار" تاركين على طريقهم مراكز في مواقع متباعدة كما حصل السنة الماضية على خط "الأك"، "ميت"، "مال"، و"امبود"، إذن ليست هناك قافلة جادة يقول "رافين" كما ستصل بعثة من "بورردو" لدراسة إمكانية إقامة مؤسسات مصائد قبالة نواكشوط²⁵⁵، كما أن غرفة التجارة في "بورردو" من جانبها تقدم 25 ألف افرنك. سيكون هناك إذن نشاط مهم في جانبنا. لم يتلق "رافين" أي خبر من أحد حول مسألة مسيرنا ضد المتمردين في الشمال، وقد استغربت ذلك لأن "أحمد سالم" هو قائدهم، وقد أنهى الرقيب الدركي رسالته بهذه الكلمات: "وأخيرا، سيدي النقيب حتى وإن لم أكن الآن تحت أوامركم فسأعمل كلما في وسعي من أجل تحسين وضعيتكم لأنني تضررت منها كثيرا...".

هل بالغت في كلامي السابق؟ "المسيو كبولاني" يضيف "رافين"، بدا مستغربا ومندهشا من كلما حكيته عليه" وفي مكان آخر، هذه الحقيقة: "كلما كتبت أقل، كلما حصلت على أكثر". إذن على ماذا سأحصل؟ وأنا الذي أكتب كل التفاصيل، حتى التافهة منها محتسبا أن المكتب يرغب في الإطلاع على كافة التفاصيل، لقد كانوا يسخرون من حسن نيتي. "ختم

"يفني" أو في مصب الساقية. يعتقد "فرير جان" أن "الشيخ ماء العينين" يخضع لنفوذ السلطان، بينما العكس هو الصحيح، فالسلطان آنذاك "مولاي عبد العزيز" شاب ضعيف لم يتجاوز 18 سنة وتنقصه المصداقية بسبب بعض الممارسة غير اللائقة "بأمير المؤمنين" (مثل تعلم ركوب الدراسة، والتصوير الفوتوغرافي...). في حين أن "ماء العينين" رجل في ربيع العمر، يتمتع بنفوذ العالم ورجل الدين والقائد الروحي.²⁵⁵ يتم بعد ذلك إنشاء مركز سيطلق عليه فيما بعد "بور أتين" على شرف نائب "أوران" قائد الفرقة الاستعمارية للغرفة (يسمى المركز اليوم نواذيبو)، ولكن المركز لم يتطور كثيرا بسبب انعدام الماء البارد (كان الماء يستجلب في باخرة صهريج من "بورردو").

"رافين" رسالته قائلا: "تشجع يا صديقي". لابد من جرعة كبيرة من الشجاعة في مثل هذه الظروف، ولا أعتقد أنني أتوفر على مثلها لتحمل سنة أخرى مماثلة. وأخيرا ستنتهي حياة البؤس التي عشتها سنة 1904م. فقد علمت بواسطة آخر بريد يصل قبل الباخرة الموعودة أنه في نفس الوقت بقرار صادر بتاريخ 14 دجمبر تم تعييني للانضمام إلى بعثة "تكانت" - "آدرار" التي ستنتقل قريبا من "سينلويس" وأن خلفي في منقطة "اترارزة الغربية" قد تم تعيينه منذ 7 دجمبر. بعد عواصف المطر، يكون الطقس جميلا؟، وبالفعل شاهدت الإداري "رلهي" قادما في المركب البخاري "سينتهلدا" إنه خلفي، وقد جاء معه بكل ما طلبته بما في ذلك فرقة الدعم المكونة من أربعين مساعد هناك أيضا أطر جزائريون، ولتتصوروا مدى ارتياحي.

توجهت إلى "طرفايت المنصور" لاستقبال خلفي الذي نزل من المركب ومعه حصان جميل رمادي اللون مرقط، وتوجهنا معا إلى المركز على فرسينا.

كنت قد تركت فرسي الأسود المسكين عند "اخروفه" مصابا بالتهاب ليمفاوي، وأنا أركب الآن فرسا بلون زهرة الدراقن حديث السن جدا وناقص الترويض لذا فهو غير صالح للسير في الحملات، ورغم مظهره الجميل إلا أن أنفه مصاب ببهق الخيل وهو بأظلافه البيضاء يجعل مني رئيسا تقليديا لإحدى القرى الإفريقية.

لدي أمر بأن أسلم لخلفي كلا من المترجم "أعبيدي" والرقيب "الجلالي" مع عشرة من جمالة "أولاد بالسباع"، علي أن آخذ ستة وثلاثين جمالا من "أولاد بالسباع" وثمانية وعشرين من المساعدين الزوج وأتوجه إلى "بوتلميت" للاتحاق بـ"كبولاني" بين 20 و 30 دجمبر.

كما وصلتني تعليمات بأن اصطحب معي إلى "بوتلميت" الأشخاص التالية أسماؤهم

من "البيضان":

- "البانون" من جماعة "ارحاحله"؛
- "الحسن ولد الطالب" دليل البعثة السابق؛
- "أحمد سالم ولد أحمد معلوم" من فرقة "اخيارهم"؛
- "محمد فال ولد بركام" المتطفل الذي يلزم "بوبر سيره"؛
- وأخيرا ... "عثمان" نفسه.

تبعنتني "صربه" أي وفد من "أولاد البكار" و"أولاد حميده" مع أمير "آدرار" السابق،

ويرغب الوفد في أن أقدمه إلى "كبولاني".

وبالجملة، لكي أعبّر منطقة "اترارزة" المتمردة حالياً، يوجد معي سبعون مسلحاً يستطيعون العمل بحركية كبيرة إذا وجدت ما أحملهم عليه.

ما يعرف بجماعة "أباكرن" أو القروود الثلاثة، قد قدموا معي لتلقي الأوامر من "كبولاني"، ولكنهم سيدخلون عليه بالتناوب وفي هذا إشارة إلى نوع من الريبة وعدم الثقة فيهم، لاشك أنه في محله، وقد تم استدعاؤهم دون علم خلفي، وقد اعتقدت زمناً طويلاً أن مثل هذه الممارسات كان خاصاً بي وأنا مرتاح الآن حين بدا أن الأمر لم يكن كذلك.

قمت بتبادل المهام مع السيو "ريلهي" خلال الأيام التالية لقدمه واعتقد أنه قادر على تحريك الأمور داخل المنطقة، كما اعتقد أنه ستكون لديه فكرة شاملة عن الوضعية الحالية لمنطقته من خلال التقرير المفصل²⁵⁶ عن الأحداث خلال الأشهر الأخيرة الذي سيجده في مراسلتي.

غادرت بكل بساطة صباح يوم ضبابي من عيد الميلاد ولكنه ساخن إلى حد ما وقد شيعني مترجمي "اعبيدي" إلى مهبط كثيب نواكشوط وهو يغالب مرارة الأسف على عدم مرافقتي.

ها أنا أودع "اترارزة" الغربية مودعاً بذلك الوظائف السياسية والإدارية! لأدخل الفضاء الرحب وأبدأ الرحلات والمعارك...

كان سني قد صغرت بعودة الدورة الزمنية عشر سنوات إلى الوراء...
وحين أصبحت وسط السهل عدوت بفرسي دون التفات حتى بلغت مع "امحمد ولد
أعمر" مقدمة القافلة... إلى الأمام نحو المغامرات:

لا أشعر بأدنى أسف على مغادرة نواكشوط حيث يسطك العلم بألوانه الثلاثة على قمة
الكثيب فوق أكوام بيضاء من عظام جمالي ذات الحظ العاثر.
والآن أتوجه إلى القارئ:

فمن أجله سطرت هذه الحكاية الطويلة وربما المملة بتفاصيلها لتكون وصفاً للمرحلة
التي سبقت جزء الحكاية الموالي باعتباره كان أكثر حركية لأنه يمثل مرحلة العمل والنشاط.

²⁵⁶ - يوجد التقرير في أرشيف نواكشوط وتوجد نسخة منه على "الميكروفيلم" في أرشيف القوات البرية في "فينسان".

إن مرارة الانتظار على مضض هي الثمن الذي ندفعه غالبا مقابل شرف ومتعة "الحياة في القافلة" فليس طريق طريق العمل في المستعمرات مفروشا بالورود.

الجزء الثاني: في تكانت

من نواكشوط إلى تكانت

حين وصلت إلى "أخروفه" وجدت الجزء الأكبر من الفرقة 12 من الكتيبة الأولى للرماة السنغاليين القادمة من "دكانه"، وهي تتحضر لمغادرة المركز من أجل التمرکز في نواكشوط فأمام حجم الأعمال التي يتعين القيام بها في "أخروفه"، فقد تم التراجع عن ترك حامية عسكرية في هذا الموقع، فمن الأسهل تموين 150 رجلا في نواكشوط عن طريق البحر، كما أن تحركات الجماعات المتمردة في "اترارزة" تحملنا على نقل الوحدات إلى الشمال. كنت قد استدعيت جماعات "البيطان" التي طلبها كبولاني للحضور إلى "أخروفه" وكلفت كلا من "أخيارهم" و"عثمان" بإمدادي بالجمال الضرورية ليركبها الجمالة وفرقة الحراسة المرافقة وقد استجاب "أخيارهم" لطلبي أما "عثمان" فقد اعتبرني مغادرا المكان ولم يكلف نفسه عناء

التحرك، فاستدعيته للمثول أمامي فتصرف بوقاحة في حضور نقيب الفرقة 12، حتى أجبرته على النزول عن مطيته للرد على أسئلتى وأوسعته شتما وتعنيفا هو بهما جدير، فانصرف ساخطا متوجها من فوره إلى "بتليميت" يصرخ متوعدا بأن يشكوني هناك، ولم يكن مع ذلك قد جاءني بالجمال المطلوبة ولكني في صحبة "أولاد بالسباع" وهم قوم لا تعوزهم المصادر وسيؤكد لي ذلك في أولى مراحل المسير بعد مغادرتي "أخروفه".

كنا مجتمعين عند غروب الشمس على أحد الكثبان الناعمة نطل من فوقه من بعد على ربوع "إيكيدى"، وكانت ظلال رؤوس قطع من الإبل ترتسم تحت الأشعة البرتقالية لشمس الغروب وهي تحرك الأغصان قاضمة الأوراق من هنا وهناك فانتبه لها "أولاد بالسباع"، وما هي إلا لحظات معدودة حتى جاءوا بها إلى المعسكر، وهكذا حصلنا على أربعين جملا وهي غنيمة تبعث على الارتياح من ناحيتين: إذ تكفي لحملنا كما ينبغي من جهة، وهي فضلا عن ذلك من إبل جماعة "الأمراء" من جهة أخرى. كنت أجتاز تلال "لعكل" للمرة الثانية، ونمت ليلة 2 يناير عند "أقرقز" في برد قار 257 قرب ضريح أحد الصالحين ومن الغد، بعد أن قطعت صعودا وهبوطا سلسلة كثبان ضخمة جرداء، وصلت "تيارت" 258 بوتلميت عند الساعة 6 مساء.

وصلنا مع حلول الظلام، بحيث قد يظننا البعض جيشا من العدو، أوقفت فرقة الحراس المرافقة لي وتقدمت عنها وحيدا على فرسي باتجاه ما يشبه "القصبة" بشكله المربع في نهاية المنحدر، إنه المركز ومن حوله سور يحمي حوزته وقد وقف على السطح حارس شاهرا حربة بندقيته وبجانبه في الزاوية ينتصب مدفع رشاش مصوب إلى السهل ومع الاقتراب تبينت الزريبة القوية ثم الخيول تحت كنان الحشيش وحولها الخيالة يتحركون جيئة وذهابا في زيهم الأحمر وشاهدت راية حمراء بهلال ذهبي يتدلى منه ما يشبه ذيل فرس اسود فوق كوخ الملازم "رابول" قائد الكتيبة ورأيت فرقة الخيالة داخل فناء المعسكر ثم تبينت وجه الرقيب الدركي "تفرنو" ولكن الظلام كان قد اشتد بحيث لا يستطيع التعرف علي.

257- "برد قارس" : في غياب الغيوم تكون السماء صافية وتنخفض درجة الحرارة ليلا على الأرض بسرعة لتصل (0) في شهري يناير وفبراير.

258- منخفض أو غور طبيعي سريع الإنبات بسبب الرطوبة

دخلت بعد ذلك في جانب المعسكر الخاص "بالبيضان" الذي تحدثت عنه قبل قليل حيث رمقني العديد من التجار حول الخيام الشهباء جاثمين على أعقابهم يحركون سبحاتهم وقت صلاة المغرب 259 ثم وقفوا جميعا مصطفىين وأدوا الصلاة متجهين إلى الشرق.

تقدمت بفرسي حتى الباب فألفيته مغلقا وناديت وقرعت الباب فاقترب مني الحارس من فوق السطح ووجه نداء إلى الداخل فانفتح الباب فوجدتني وجها لوجه مع الرقيب الدركي "رافين" مذهولا تماما:

"كيف! هذا أنت سيدي النقيب! حسنا لم نكن نتوقعك الآن! سأخبر السيد "كبولاني".

اكتفى بذلك وتركني فوق الفرس وقد اجتزت الباب والظلام يلفنا شيئا فشيئا ثم عاد "رافين" مع أوربيين آخرين منعي الظلام من التعرف عليهم فكنت أسلم بيدي بصفة عشوائية ثم سألت عن المكان الذي سأنزل فيه وأين سيقم رجالي فتقدم مساعد من الزوج وأخذ فرسي إلى الإسطبل في حين توجه "رافين" شخصيا للتعرف على أفراد حرسى وعين لهم 260 مكان المبيت.

بالنسبة لي دخلت بجزمتي شاحبا مغبرا وسط الفناء ثم توجهت نحو "كبولاني" وهو جالس قرب طاولة مضاءة بجانب سريره المطوي وحوله جماعة متحلقة من الجلساء فوقف وخطا خطوتين نحوي ماذا يده فرحا لرؤيتي وقد تهلل وجهه وانفتحت عيناه من الدهشة:

"مرحبا سيدي النقيب بالتأكيد لم نكن ننتظرك بمثل هذه السرعة ولا أعرف بأي حيلة استطعت المرور بين جميع "الترارزه" المتمردين ولكننا سنتوجه لتناول العشاء وأنت معنا هل أنت عطشان؟ لا شك أنك كذلك فأنت قد قضيت يوما شاقا وكان الحر شديدا هذا النهار"

كنت شارد الذهن حين تحدث عن الحرارة في النهار فقد تذكرت البرد القارس ليلة البارحة ولكن عهدي بالشرب قبل أمس عند "شوبك" وقد جف حلقي فأجبتة بغمغمة وإشارة باليد كمن يمسك الكأس الممدودة إليه واستلمت كأس الشمبانيا برغوته الباردة الطافية 261 وابتلعت في صمت ثم استسمحت قائلا منذ يومين لم اشرب فعند "أفرقز" يوجد ضريح أحد الصالحين

²⁵⁹ - صلاة المغرب بعد غروب الشمس وبلدان المغرب العربي تقع في جهة غروب الشمس أي في الغرب

²⁶⁰ - يلتزم تلميذ اليسوعيين السابق في هذه الفقرة بصياغة لاتينية جدا ولكنها مجازية في اللغة الفرنسية.

²⁶¹ - كانت الشمبانيا عنصر الرفاهية الأهم والأوحد لدى الرواد الأوائل وتمتاز بقابليتها للنقل دون أن تتغير ومن الأعراف استقبال الضيوف المميزين بالشمبانيا وقد امتد ذلك إلى وحدات الجمالة ولا يعني ذلك أن الأطر الأوربيين العاملين فيها كانوا يعيشون الترف لأن نقل بضع قنينات ثمينة يتطلب مجهودا إضافيا كبيرا أما الشراب العادي في هذه الظروف فهو ماء الآبار المنظف في أحسن الحالات عن طريق التقطير.

ولكن لا وجود لقطرة ماء هناك وقد تخلّيت عن ما في القرب من الماء لرجالي من المساعدين الزنوج السائرين على الأقدام قلت ذلك ثم عدت ارتشف الكأس ولكن بها الماء الزلال هذه المرة.

" اللعنة، قالها كبولاني، ولكن إذا كانت شهيتك ستكون في مثل عطشك فكيف يمكن أن نؤمن لك الشبع؟ "

ذلك صحيح ففي نفس الفترة لم أتناول إلا القليل كما لم أشرب إلا الأقل طيلة أيام الصوم في " ترارزه الغربية" فأنا اشعر بالجوع يجتاحني. ولكن من حسن الحظ أن كبير الطباخين في مركز الإقامة قد أعد وجبة كافية وستقدم بعد قليل كان " كبولاني" لا يغادرني بنظره فهو مولع بالنظر إلى أصحاب الشراة فتم تقديم الوجبة لنا فالتهمت نصف شاة مشوية 262 في اللحظات الأولى.

ولعدة مرات كان " كبولاني" يعيد تعجبه من وصولي بهذه السرعة فقلت لا شك أنهم في "سنلوي" كانوا يعولون على هلاكي اثناء هذه الرحلة ليتخلصوا بذلك من رجل سيء الصيت مثلي لدى الحكومة العامة وبما أنني نجوت فقد قلت في نفسي إن " كبولاني" يصبح مرتاحا بصحبة رجل قوي شجاع استطاع الخلاص من هذه الورطة يصحبه بعض أفراد جماعة " أولاد بسبع" الرهيبيين الذين يثير الحديث عنهم الرعب لدى " البيضان" ومن الأحاديث الدائرة حولي، تأكدت من أنهم يعتبرون أنني أستطيع ترويض الشياطين لأنني تمكنت من صحبة " أولاد بسبع" في حين تبين لي أن هؤلاء يسهل التعامل معهم وحتى أفراد الوفد الذي اكتفى بالسير خلفنا فقط.

أقمت مع " كلوباني" وهو كرسكي صغير القامة مولع بقراءة الصحف على ضوء الشموع ولم يمنعني ذلك من أن أغرق في النوم على الفور. بدأت المشاورات يوم 4 يناير 1905 فسلمت فرقة المساعدين الزنوج للحاكم المقيم في " اترارزه الشرقية" واسترجعت جمالتي من " أولاد بسبع" الذين كانوا مقيمين خلف المركز وشاهدت داخل الفناء وجه الثعلب " عثمان" فرمقني بطرق عينه ثم صرف وجهه وبعق على الأرض وهذا سلوك يستحق عليه العقاب ولكنني تظاهرت بعدم رؤيته وأنا متأكد أنه جاء هنا ليشكوني ويجب أن لا أبالغ في تشنيع الوضعية.

²⁶² - نصف شاة مشوية ، نصف كبش مشوي والواقع أن الضأن في الصحراء ليس له حجم الضأن المعروف في فرنسا كما أنهم هنا لا يأكلون على العموم إلا الأجزاء الداخلية أما الباقي فيتركونه " للخدم"

ويبدو أنني سيء الحظ في هذا اليوم فما كدت أخطو بضع خطوات خارج الباب في اتجاه مخيم " البيضان" من قوم " الشيخ سيديا" حيث كان ينتظرني رجالي من " أولاد بسبع" عند مدخل المركز لأبلغهم بعض التوصيات فنادت " أمحمد ولد أعمر" الذي يتولى الترجمة فتعلق حولنا الجمالة ولا أريد حدوث صدام بين طرفي " البيضان الحاضرين هنا" خاصة بين " أولاد إيبيري" وأشهر أعدائهم " أولاد بسبع" وفجأة اقترب بعض الغرياء يستمعون لكلامي خرج أحدهم من إحدى الخيام وهو قصير القامة وقوي البنية عريض ما بين الكتفين رأسه مستدير وقد غطاه بلثام ضخيم يتدلى طرفه على ظهره فأصغى في صمت فاغرا فاه وعيناه محددتان وانتبه إلى أننا ننظر إليه وكان من الوقاحة لدى " البيضان" أن يستمع الشخص إلى كلام الغير فاستدار الرجل نصف دائرة وبصق ثم وضع يده على أنفه وهو ينظر إلينا قائلاً " مخنزكم" أي يا لها من رائحة كريهة! فوثبت نحو صاحب الحظ العاثر حتى أصبحت وجهها لوجه معه فأسكنت قبضة يدي بين عينيه فقفز من فوره خارج باب المركز يعدو، ولا شك أنه ذاهب هو الآخر ليشكوني! فتركت أصحابي وسرت خلفه فاعترضني أمام الباب زنجي من " الكانديولي" السنغاليين تقدم ليسد الطريق أمام أحد البيضا ولكي اشق طريق أبي أبعده بلكمة، يبدو أنني قوي القبضة اليوم فسقط العليج مترنحا فظننته سيسقط ولكنه انطلق باتجاه "كبولاني" وبالتأكيد لن يتحدث عني هناك بالمديح... ذلك هو الثاني. عندما حضرت لدى الأمين العام رأيت " عثمان" جالسا القرفصاء في إحدى الزوايا وغير بعيد منه رجل " أولاد إيبيري" الغاضب وهو يشير بيديه بحدة وإلى جانبه " الكانديولي" واضعا يده على مكان اللكمة فوق بطنه.

قال " كبولاني" " آه هذا أنت هنا ثلاثة رجال يشكون منك، أي شيطان أنت اليوم؟"

ثم خرج معي جانبا وأبني ولحسن الحظ منحني ذلك فرصة شرح الموقف، فبالنسبة لرجل " أولاد إيبيري" فقد اعترف " كبولاني" أنه قد استفزني ولم يعترض على اللكمة التي وجهتها له ومع ذلك شرح لي أنه من القادة وهو قريب في النسب " للشيخ سيديا" أحد البيضان الأوائل الذين قدموا خدمات للفرنسيين، من أدراني أنا؟ بما ذا سأجيب غير ضرورة الدفاع عن رجالي حين يتعرضون للشتم فوافق على ذلك واستدعى الرجل الشاكي ولامه وأمره بالانصراف وحين شاهد " الكانديولي" الزنجي ذلك انصرف هو الآخر أما بالنسبة لـ "عثمان" فقد أفرغت ما في جعبتي قائلاً لكبولاني إنه فرضه علي منذ زمن طويل وحدثته عن عقابي له في "أخروفه" وعدم امتثاله للأوامر حين طلبت منه الجمال ثم أفضت في الحديث عن مؤامراته فأوقفني

"كبولاني" ودخل فجأة وتركني وحيدا فسمعت كلامه بصوت عالي مع "عثمان" ثم انصرفت لأقدم التغذية لرجالي وفرقة حراسة الجمال فهذا يكفي لقد اتسمت بداية عملي في البعثة ببعض العنف.

وفي المساء ومن أجل التعرف على وسط " أولاد إبيري" اصطحبتني " كبولاني" إلى جلسة أحاديث أمام الخيام مع "الشيخ سيديا" فوجدناه في ثيابه البيضاء واضعا عمامته وقد جلس جلسة الخياط فوق "إلويش" 263 أبيض وحوله جمع من التلاميذ حديثي السن عموما ينظرون إليه بإعجاب ويتلقفون ما يصدر عنه من كلمات، كان يتكلم بأسلوب هادئ رصين تتخلله سككات منتظمة تصحبها إشارات مستمرة خفيفة بيده في استدارة يبدو فيها هذا الشيخ ذو البشرة النضرة "كالراهب اليسوعي" كما لو كان معجبا بيده البيضاء ذات الأظافر المقصوفة حين يرفعها في حين يمسك بيده الأخرى لحيته من تحت اللثام وهو يوزع النظرات بعينيه الواسعتين بحيث ترافق حركة بياض وسواد حدقته وصوته وحركة يده. إن "الشيخ سيديا" يتكلم في نفس الوقت بعينيه وفمه المخفي تحت اللثام الذي برز منه أنفه الدقيق كما يعبر بإشاراته المصاحبة لحركة عينيه كل ذلك في انتظام وانسجام.

كنت أراه في البداية من بعيد ثم اقترب " كبولاني" يصحبني مع بعض الأوربيين فجلس كل واحد منا على راحلة 264 أخرجوها له من تحت الخيام والجلوس فوقها مريح أكثر من أفضل الأرائك.

كان الرجل الشاكي حاضرا يجلس غير بعيد من " الشيخ" فذكروا لي اسمه إنه "المختار ولد داداه" 265 من أقارب الشيخ وفور اقتراب " كبولاني" ليمسك يد الشيخ الذي وقف قليلا لاستقباله خاطبه قائلاً:

" أقدم لك النقيب القادم من أنواكشوط"

رأيت لمعانا في نظرة الشيخ الكبير الذي انصرف بنظره فورا في اتجاه "المختار ولد داداه" وحين قابله هز هذا الأخير رأسه ثم مرت لحظة صمت فابتسم " كبولاني" فهو لتعوده يدرك

263- "إلويش" جلد كبش مديوغ وعليه الوبر يستخدم للجلوس وللصلاة ونلاحظ في وصف " الشيخ سيديا " بأنه يضع اللثام حسب التقليد القديم لدى

صنهاجه الذين يسميهم ابن خلدون " المثلثين".

264- " الراحلة" هي سرج الجمل عند "البيضان" وهي أكبر حجما وأكثر ملائمة وجمالا من مثلثتها المعروفة عند الطوارق

265- " المختار ولد داداه" : من أسرة سمييه الذي سيصبح فيما بعد أول رئيس للجمهورية الإسلامية الموريتانية (أغسطس 1961 يوليو 1978)

مغزى هذه الإشارات أما أنا فلا أفقه شيئاً، وبعد ذلك أصبحت محط أنظار الجميع وأجلت نظري في الحاضرين فلم أشاهد من بينهم أي أحد من جماعتي من " أولاد بسبع".

" أي رجل هذا النقيب؟" طرح " الشيخ سيديا" هذا السؤال دون أن ينظر إلي.

" فأجابه " كبولاني" مبتسماً " ليس رجل سلم على كل حال". فنظر الشيخ من جديد إلى " مختار" ثم قال " آه" وهو يأخذ نفساً طويلاً ثم غير مجرى الحديث، أما أنا فلم أنبس ببنت شفة. فأنا على كل حال في عداد من لا يفهمون الحديث بالعربية وعلى كل حال وجد " الشيخ سيديا" وسيلة بأقل عدد من الكلمات ومثل ذلك من حركات عينيه وتعبير وجهه ليبلغ الجميع في هدوء بأنه غير مرتاح وفي نفس الوقت أكد "للمختار" اهتمامه بحالته وكنت أنا متظاهراً بالانشغال أثناء ذلك ولكن لم يفتني أي شيء من هذه التفاصيل وقد تأكدت منذ ذلك الوقت من أن ما يشاع من الذكاء الخارق لدى " الشيخ سيديا" صحيح لا مرأى فيه.

لقد وجدت فيه نوعاً آخر من الرجال يختلف تماماً عن من عرفتهم من الزوايا حتى الآن فالفرق شاسع على وجه الخصوص بينه وبين الرجل المادي الضخم " الشيخ سعد بوه" وما مرت لحظة حتى اتضح لي ذلك أكثر، فقد دخل في نقاش علمي مع نقيب الهندسة العسكرية " جيرار" الذي تحدث معه في علم الفلك والفيزياء فلا بد أن "الشيخ سيديا" قد تلقى تعليماً موسوعياً أو أن لديه ذكاءً متفوقاً ليس فقط بسبب اطلاعه على هذه المسائل لكن أيضاً بسبب وضوح أفكاره ودقتها وصواب فهمه كما أن حديثه يمتاز بالبنية المنطقية فليس حديثاً متشعباً دون تنظيم كما عهدته عند " الشيخ سعد بوه" فأسلوب الشيخ يخلو من ما عند الآخر من الحدة والصوت الجهوري والحشو. إنه نموذج آخر والواقع أن " الشيخ سعد بوه" أكثر عمومية فهو خبير أساساً في نظام الأفارقة وما عند الزوج فهو شيخ يناسب الزوج أما الآخر فحتى وإن نقلناه إلى أوربا فسيبدو لبقاً بليغاً هادئاً إنه مدرس وموجه فهو عالم عربي في زمنه ويصلح شيخاً " للبيظ".

قد لا يترك الحاضرين يفرطون في تقبيل يده كما يفعلون مع الشيخ الضخم في الغرب وبالتأكيد لا شك أنه محبوب أكثر منه فعيون تلاميذه من الشباب المشدودة إليه تؤشر على مدى نفوذه. كان القمر قد اختفى حين وقف "كبولاني" فلا بد من إضاءة المصابيح من أجل الدخول فسحبت النقيب " جيرار" جانبا وقلت له:

" لم يكن شيخكم لطيفاً معي فلا شك أنني أغضبتك جداً بالكلمة التي صدرت مني اليوم"

" فقد أخبرني الحاكم المقيم الذي قدم إلينا إن كاتب رسائلك بالعربية من " أخروفه" كان وقحا جدا فجميع رسائلك إلى الشيخ جاءت، دون علمك طبعا، بأسلوب وقح، فأنت و " أحمد سالم" قد أسأتما إلى هيبة الشيخ ولكنه على الأقل يدرك أن ذلك من مسؤولية الكاتب لا من مسؤوليتك أنت. "لا استغرب كثيرا أن يصدر مثل هذا عن "المامي" كاتب رسائلي بالعربية فهو منكر 266 من الدرجة الأولى ولا شك أنه تسلى بتوجيه بعض العبارات الوقحة إلى الشيخ بتوقيعي وذلك تقريبا إلى جماعة " أولاد بسبع" المعادية لـ " أولاد إيبيري".

ورغم ذلك قام الجمالة من " أولاد بسبع" وأعضاء وفدهم بزيارة الشيخ يوم 5 يناير واستقبلهم كما لو كانوا من تلاميذه العاديين كغيرهم من "البيضان" وأمسك بأيديهم ورفعها إلى فمه كمن يريد أن يبصق فيها وهو يردد الدعوات فرفعوا أيديهم وأدوا حركة رمزية بمسح الوجه واللحية بطريقة توحى بالاحترام الشديد ثم أمسك كل واحد منهم بيد الشيخ وقبلها ووضعها على رأسه ثم احتفظ بها بين يديه برهة قبل أن ينصرفوا الواحد تلو الآخر والشيخ الكبير يقف رافعا عينيه إلى السماء متمتما ببعض الآيات القرآنية.

وكان الناس يتوافدون عليه طول اليوم بنفس الطريقة بأعداد لا يعلم عددها إلا الله من الزوايا وحسان وأهل البوادي المجاورة وغيرهم من القادمين من بعيد.

بدأت النيران في الليل متناثرة في مساحة " تيارت" هنا " أولاد دمان" مع زعيمهم "المختار ولد أمبارك" وهو من طراز "عثمان" إلا أنه أكثر صدقا منه حسبما يقولون وهو مزهو بشعره الطويل الأجد الذي يتدلى على كتفيه حتى المنكبين 267 وهناك "أولاد أحمد" من حسان ذوي المظهر المتوحش قادمين من "البراكنة" حول قائدهم " بيرام ولد أحمويد" وهو أعور غريب الشكل كهياة الحيوان المفترس ولكنه في الواقع مغفل.

وفي مكان آخر "أخيارهم" وجماعته من "أولاد عمران" وهو في حالة تأهب دائم ومن وراء ذلك الكثير من جماعات الزوايا مثل "القاسم" ومن معه من "تجكانت" القادمين من "سهوة الماء" وهو رجل طويل القامة قوي البنية سابقا ولكنه الآن شيخ محدودب الظهر يشبه الكبش له

²⁶⁶ - منكر: هذه حالة نادرة خاصة في زمن " أفيريجان" ولكن موقف " أولاد بالسباع" الذي اعتبره " أفيريجان" ظرفيا يبدو أكثر غموضا فهم قد يكونون خصوما ألداء لـ " اولاد إيبيري" وفي نفس الوقت يطلبون بركة شيخهم المشهور بالعلم والتقى فضلا عن مواهبه المشهودة فزيارة الصالحين مفيدة دائما.

²⁶⁷ - كان الشعر الطويل المتدلي من سمات نبلاء حسان في هذه الفترة في حين كان الزوايا يحلقون رؤوسهم ويضعون اللثام

شفتان كبيرتان كأنه من السلاسة العبرية 268 وهو مترهل يقبل كل شيء من الطرف الأقوى وهو صديق دليلي القديم في محنة " أندومري " " عبد العزيز " في شهر مايو الماضي وهو نشط رشيق ذكي يحصل على مصلحته من كل شيء ولن ينتهي بي الحديث أبدا إذا أنا واصلت تقديم كل هؤلاء " البيضان " الذين شاهدتهم حول " الشيخ سيديا " في هذه الفترة ... ولكن هناك وجه لا بد من التوقف عنده إنه شقيق الشيخ المسمى " سيد المختار " وهو الرجل المسلح في الأسرة وهو نموذج للقائد العربي الوسيم طويل القامة مشيق بارز أثناء مشيته وحركاته سلس رغم أنه ليس رشيقا بالقدر الكافي، عيناه تشبهان عيني أخيه ولكنه ينظر إلى أسفل في أغلب الأحيان بابتسامة لا تفارق شفثيه له لحية سوداء على طريقة المسلمين يعتني بها كثيرا يحيط وجهه البيضوي بلثام يبرز منه أنف دقيق طويل إلى حد ما.

وهو لا يزور " بوتلميت " إلا نادرا ومحل إقامته في الوقت الراهن في مضارب " أولاد إبيري " وهو الذي غامر بشباب القبيلة المتحمس نحو الشمال ولكنهم لا يتقنون استعمال الأسلحة وقد سحقهم " أولاد بسبع " في السابق في موقعتين، ويبدو أن " سيد المختار " لا يريد إيقاف دوره العسكري عند إرسال هؤلاء فكثيرا ما خرج يطارد بنفسه قطاع الطرق حين يحومون حول مخيمات القبيلة وقد اشتهر في هذا الميدان كما اشتهر أخوه في الميدان الآخر إلا أنه يبدو انطوائيا أكثر وربما تجعله مهامه العسكرية أقرب إلينا من أخيه.

إنني هنا في عالم يختلف تماما عن ما تعودته في " اترارزه الغربية " ولا شك أن هنا من يدبرون المؤامرات ولكنهم فيما يبدو أقل شراسة وبربرية من نظرائهم هناك وهو ما تؤكد منه أعضاء وفد " أولاد بسبع ".

فرغم الكلام اللطيف الذي قابلهم به الشيخ وردوا عليه بعلامات الاحترام فكبولاني الذي استقبلهم امتنع عن اعتبارهم ممثلين لجميع " أولاد بسبع " رغم كون رئيس الوفد " محمد السالك " قد تلقى من الجميع تكليفا بمهمة عقد اتفاق للسلم مع الفرنسيين ولكن " كبولاني " لم يشأ أخذ ذلك في الحسبان ربما إرضاء " للشيخ سيديا " الذي نحن في أمس الحاجة إلى دعمه الآن. تلقى " أولاد بسبع " أمرا بالتوجه في هدوء في ما يشبه التهديد ولم يمض وقت طويل حتى

²⁶⁸ - يبدو هذا المقطع مستوحى من كلام " إدوارد إردومونت " (1844 - 1917) وهو صحفي معاد للسامية بشدة من مؤلفاته " فرنسا اليهودية " 1886 و " الكلمة الحرة " 1892 وهي جريدة قومية معادية للسامية قد كشفت فضيحة " ابانما " كما كان " اردومونت " من أشد المعادين لأصحاب قضية " أدريفيس "

أدركنا أن " أولاد بسبع" المطرودين سيجعلوننا ندفع ثمنا غاليا لهذا التصرف إلا أنهم حين غادروا كانوا ساخطين على الجميع باستثنائي أنا وحدي. أثناء إقامتنا في بوتلميت قدم لنا "الشيخ سيديا" ما يربو على 1000 جمل ولم أر في حياتي مثل هذا العدد من الإبل وكلها جمال للركوب وحمل أمتعة القافلة التي سترافق بعثة " كبولاني" كان الأوربيون الموجودون في البعثة يتمرنون كل يوم على ركوب الإبل وإعداد "الراحلة" وينجح بعضهم من الشباب خاصة في هذه المهمة وكانت التمارين تتضمن السباق والتوقف المفاجئ والتمرن على الجلوس في "الراحلة" والنزول منها وكان " كبولاني" أثناء ذلك يجري محادثات ويستقبل " عثمان" و " أخيارهم" أما " بوبكر سيره" فبما أنه سيرافق البعثة فقد كان يعيش في ظل " كبولاني" وقد اطلع الأمين العام على رداءة رئيس حكومته هذا وأنه يؤدي نفس المهمة التي يؤديها " عثمان" فاصطحبه معه بذريعة أنه يريد أن يزور نخيل " تجكجه" في "تكانت". فالقديس " اببير" كما نسميه نظرا للشبه بينه وبين ما نراه من صور تمثل "حارس الفردوس" ، سيرافقنا إذن مصحوبا بصنوه رجل " الراحله" الطويل المترهل " ولد بركام" الذي لازمه في البعثة حتى موت " كبولاني".

ودائما ضمن تضحياته تمشيا مع العقلية السائدة في " سين لوي" ، كتب " كبولاني" بنفسه وطلب من " الشيخ سعد بوه" أن يكتب إلى الأمير السابق " أحمد سالم" يطلب منه العودة من الشمال على أن ينصبه رئيسا لعموم جماعة " اترارزه" ومن جانب آخر استخدم هنا نفوذ " الشيخ سيديا" لدى أمير " آدرار" يحث هذا الأخير على رفض منح اللجوء " لأحمد سالم" وأن يدفعه عند الحاجة إلى الانسحاب من " آدرار".

وسنرى ما سيحصل من هذه السياسة التي ليس لها من فائدة بالنسبة لي سوى أنها تتعلق بالماضي ولاحظت مع ذلك أن افتراضاتي السابقة لم تكن خاطئة عندما كنت في "ترارزه" الغربية فقد تبين أن " أحمد سالم" هو دائما المفضل لديهم ومن جهة أخرى قبل " كبولاني" معتمدا هذه المرة على تحليلاتي أن يضرب صفحا عن الحديث عن الضرائب في منطقتي السابقة هذه السنة.

بعد أن تحرر من كافة العراقيل قرر " كبولاني" أن ننطلق يوم 20 يناير 1905 في اتجاه الألك (لبراكنه) فسكون هناك جزءا من القافلة التي سترافق البعثة فانطلقنا في التاريخ المحدد حوالي الساعة 3 بعد الزوال على أن ننام عند بئر " تتيارك" حيث يوجد مخيم " أولاد إبيري"

الرئيسي وقد رافقنا عدد منهم يحمل السلاح حتى وصلنا " الأاك " وقد انضم بعض هؤلاء بصفة نهائية إلى البعثة. كنا في المقدمة مع خيالة " ربول " وجمالة " أولاد بسبع " رافق الحاكم المقيم في بوتلميت الأمين العام حتى وصل " تتيارك " وكان معه فريق من المساعدين الزوج من 120 مسلحا كما توجد عند " سهوة الماء " 25 مع أحد الضباط. وقد أعطاه " الشيخ سيديا " ومختار ولد أمبارك " ما يحتاجه من الجمالة وأخيرا من " الاك " ستتضم إليه فرقة " هبل " من الخيالة فليده إذن وسائل هامة تفوق بكثير ما كان عندي في السابق وستتسق مع من يوجدون في "ترارزه" الغربية (فرقة الرماة) وبها 150 رجل و40 مساعدا زنجيا و50 من الجمالة) سيكون هذا العدد كافيا لإبقاء المنشقين في الشمال حتى يستسلموا أو يفروا.

يقال إن " ولد سيدي " رغم كونه من المنشقين، يحتفظ بفرفته على حدة، وحدث شيء آخر فما كادت الفرقة 12 تغادر " أخروفه " حتى أجتاح الموقع بعض المشاغبين وأحرقوا بقايا المركز وبعد ذلك بفترة قصيرة تحدثت الصحف الفرنسية عن هذه الواقعة تحت عناوين متعددة منها "سقوط أخروفه في يد البيضان" وقد ابتهجنا لذلك. ولكن لنتوقف هنا عن " ترارزه" وما فيها من ذكريات المجاعة.

لم نبدأ المسير فعلا إلا يوم 21 يناير فانطلقنا بالأمس لم يكن محسوبا. استقبلتنا المنطقة بكثبان ضخمة ممتدة ككثبان " لعكل " لها نفس الاتجاه ولكنها تختلف من حيث الشكل فهي تشبه أذرع المحيط وأوديتها اقل عمقا وأكثر اتساعا من أودية "لعكل" وهي منطقة صخرية. توقفنا عند " آكروي " في "تيارت" تشبه تلك الموجودة في "بوتلميت" بها بئر عميق كان صوت "التينه" 269 ينطلق منه طول النهار وجزءا كبيرا من الليل تحيط بالبئر أشجار سامقة كثيرة الأشواك حطبها صلب أحمر يشبه ما نسميه خشب الحديد.

أصبح فرسي منهكا يوم 22 يناير بعد أن قطع 50 كلم بالأمس دفعة واحدة في حين تحطم جسم راكبه من التعب ومع ذلك كنت متعودا على السير بالفرس مسافات طويلة كما أنني جريح ولهذا السبب سأحاول للمرة الأولى ركوب الجمل. وجهني "كبولان" إلى شقيق "المختار ولد داداه" الرجل الذي تلقى اللكمة بين العينين وكان يربط خلف راحلته "تاسفره" 270

²⁶⁹ - " التينه: بكرة من الخشب بها ثلاثة خطوط يمر فوقها الرشا وتدور حول عود صلب.

²⁷⁰ - " تاسفره "وعاء من الجلد (جلد الثور إذا كان كبيرا أو التيس إذا كان صغيرا) يضع فيه المسافرين أمتعته وهو من صنع نساء الصناع التقليديين ويتم نظريته وترصيعه بأشكال هندسية بألوان مختلفة.

فركبت فوقها وهكذا أصبحت جائثا على مؤخرة الجمل لأدشن تجربتي معه بقطع 70 كلم في حين كان فرسي يسير في الخلف يقوده أحد الخيالة وهو يمرح من حين لآخر. وصلنا في حدود الخامسة مساء إلى "مشرع الإبل" في الطرف الشمالي لبحيرة "الأك" هذه المساحة المائية 271 تحيطها حقول الذرة التي تغمرها المياه كل خريف ويوجد حتى على حافة الماء بعض الرمل ومن بعيد نشاهد أشكالا مثلثة تتقاطع في السماء إنها طيور الحبش المتوحشة.

بعد توقف على حافة البحيرة تقدمنا تحت جناح الظلام حتى وصلنا مركز "الأك"، حين نزلت عن الجمل كانت أمتعتي ما تزال في الخلف ولا أستطيع تبديل ثيابي فتدبرت أمري في الظلام وكالجميع اتجهت إلى قاعة الأكل وما كدت أصل حتى استقبلتني موجة من الضحك وتبينت حين وصلت الضوء أن ثيابي من ناحية البطن وما تحته سوداء إنه قماش " النيله" قد فعلها بي فبالاحتكاك على ثياب "شيخونا" الذي يحملنا خلفه أصبحت ثياب الكاكي التي ألبسها بلون النيله من الجانب الملاصق لظهره وهذا يدل على أن شيخونا رجل ثري وعلى كل حال لم يمنعني هذا من تناول العشاء بشهية ونهم.

استيقظت يوم 28 وسط بحر من البشر فبالإضافة إلى فرقة الحراسة القادمة من بوتلميت، يوجد في الأك:

- فرقة النقيب "سيكولي" والملازم "لافوجيون" من الجمالة الجزائريين القادمين من كيهيدي
- الجزء الأكبر من المساعدين من "البولار" والسودانيين.
- وكتيبة الرماة السنغاليين المسماة "الكتيبة الطائرة لتكانت" التي هي نوع من الحرس الخاص للسيد "كبولاني". التحق بنا المساعدون الزوج عن طريق البر من "بوكي" وهم لا يخضعون لنظام وبالذات السودانيون منهم لأن "المسيو دوري" قد اختار فرقة "البولار" من المكان الذي يقيم فيه أما النقيب فقد اكتتب من هنا وهناك على طول النهر حتى "خاي" وأخذ جميع من تقدموا إليه.

ومهما يكن من أمر فقد وجد هذا الخليط فور قدومه إلى موريتانيا نصيبه من العطش والتدافع عند "بئر العزلات" في فوضى عارمة من أجل الحصول على الماء...

²⁷¹ - تتلقى بحيرة " الأك" مياهها من أحد فروع نهر السنغال ويختلف حجمها تبعا لمد وجزر مياه النهر ففي بعض الأحيان تصبح مجرد جدول مائي لا عمق له وتحيطها الحقول الزراعية.

أكثر هؤلاء المساعدين من الأطفال وسيصل خبرهم بعد قليل إلى أعدائنا وسيدركون أنهم ليسوا في مواجهة فرق حقيقية.

علمنا يوم 24 أن " إدوعيش " الذين لم يكونوا قد تحركوا في فترة الأمطار والذين استأنفوا نشاطهم قد اشتبكوا يوم 17 يناير مع قواتنا عند " أمبود " فقد اصطدم النقيب " ميكلارد " الحاكم المقيم "لأمبود" بجماعة " أنجايات " وهم فرع من " اشراتيت " أحد الفرعين الكبيرين لقبيلة "إدوعيش". 272

فقد لقيتهم إحدى دورياته المكونة من جمالة " ليتامه " و 40 من الرماة يقودها الملازم " اربوكاست"، عند " بديهات " قرب " امبود " وخاضت معهم معركة مات فيها 5 من جمالتنا ولكن العدو هرب ولم يتكبد الرماة أية خسارة وهكذا يكون الأمير " بكار " بعد أن قضى فصل الخريف يدعو " اترارزه " وأهل "آدرار " إلى الانضمام إليه دون أن ينجح في ذلك، قد قرر الآن أن يكون في المقدمة.

ويبدو أن " كبولاني " يريد الإسراع في تشكيل فرقه بحيث يتمكن بسرعة من تشكيل القافلة وعليه أن يأخذ من "مال" قسم المدفعية الجبلية بقيادة الملازم " فلي مورانسي " ونصف كتيبة "تكانت" الطائرة وحرس الحدود القدامى في السودان بالإضافة إلى رشاشاته.

ولا بد في الوقت الحالي من تشكيل مختلف الفرق، هناك أولا فرقة الجمالة من الجزائريين وفور تمكن هؤلاء من اتقان الجلوس على الراحلة ومعرفة التعامل مع الحيوانات سوف نتركهم بصحبة بعض "البيضان " ثم نشكل بعد ذلك فرقة " المسيو دوري " الذي سينضم إليه " المسيو مير " وتتشكل هذه الفرقة من "البولار " راجلين وراكبين الخيل تم سحبهم من الإقامة في " بوكي " وينضم إليهم 40 جمالا من " أولاد أحمد " الذين تعودوا منذ سنة على مرافقة " دوري " و " مير " وهما مساعدان سابقان في فرقة الخيالة ضمن جيش افريقيا وضابطان من الاحتياط. كلفنا الرقيب الدركي " رافين " بقيادة الخيالة المرافقين "كبولاني". أما أنا فقد استلمت فرقة من 57 من " البولار " يقودها عريف من "القبائل" من الفرقة الثالثة من رماة الجزائر وفيها 25 من "أولاد بسبع" قدموا معي من أنواكشوط بقيادة "أحمد ولد أعمر" ويدعى العريف القبائلي

272- بسبب النزاعات الداخلية انقسمت قبيلة " إدوعيش " الكبيرة إلى فرعين متنافسين: "أبكاك" فضلات الصمغ و"اشراتيت" أي الضباع وهذه الألقاب الغربية قد تبادلها الأشقاء الأعداء إثر مجاعات تعرضوا لها أجبرت " أبكاك " على أكل ما وجدوه من فضلات الصمغ أي "أبكاك" في حين لم ينجح " اشراتيت" من الموت جوعا إلا بالاعتماد على ما كان لديهم من جلود قديمة مثل ما تفعل الضباع مع جلود الحيوانات القديمة...

المرافق لي: " سعيد مدجيكان بنغازي". وندعوه " مدجيكان" فقط 273 وكان الزوج في فرقته يسيرون مشيا على الأقدام أما " البيضان" فيركبون الجمال أما أنا و " مجيكان" فنركب فرسينا. ومن حيث المبدأ وكما أخبرني " كبولاني" سأعمل منفردا إما في مقدمة أو على أطراف البعثة وحتى منفصلا تماما ومستقلا عنها كما سيكون معي أدلاء خاصون سأكتبهم بنفسي سعيًا من الأمين العام إلى البحث عن نقاط الضعف عندي.

غادر " كبولاني" يوم 27 باتجاه " مال" صحبة جميع الفرق التي تم تشكيلها ومعه المساعدون السودانيون المخصصون لإكمال الفرق التي يتعين تشكيلها في " مال"، بقيت وحيدا في " الاك" مع فرقتي بعد أن تقلص حجمها ومعني خيالة " ربول" المهيوون للعودة إل بوتلميت. لدى قائد مركز "الأك" الجديد الملازم " برياند" أمر بفرض غرامة كبيرة على " إيجيبه" عقابا على مشاركتهم في هجوم 9 ديسمبر 1903. زودت كل واحد من جمالة " أولاد بسبع" ببندقية من نوع " أكراس" خاصة بالخيالة و"برنس" أزرق بشارات حمراء وأعطيت كل مساعد زنجي كسوة زرقاء وغطاء للرأس وبرنسا لكل اثنين وبندقية من نوع " لابل" 1892 بحريتها.

وعلى الفور بدأنا التمرينات صباحا ومساء وكان " البولار" أكثر نكاء من غيرهم من الزوج 274 وبين ما كان رجالي من "البولار" يتمنون كنت أدرب " أولاد بسبع" على الرماية كما كانوا يقومون بترويض الحيوانات وسيختلط كل هذا أثناء الطريق.

يقع مركز " الاك" على قمة تل صخري يحيطه جدار يمكن إطلاق النار من فوقه والمحارب واقف أو جاث على ركبتيه ويوجد في ناحية الشمال الغربي جبل مماثل أقل ارتفاعا ويرتفع تحت الجبل موقع المركز وسط "ازريبه" من الأشجار الشائكة كان بداخلها قبل مغادرة " كبولاني" ما يكفي من المكان لاستيعاب جميع الرجال والحيوانات الموجودة مع القافلة ولكن لا بد من التوجه إلى " مشرع الإبل" على بعد 12 كلم من هنا كل يوم لأخذ ماء الشرب وهذا هو الجانب السيئ في المسألة فهذا المركز من حيث المظهر ومن حيث الموقع هو أفضل ما رأيته في موريتانيا.

²⁷³ - قدم " ر. راندو" في قصته " المستكشفون" سيرة رائعة للعريف " مجيكان وقد احتفظ له باسمه وكان " مدجيكان ينحدر من منطقة القبائل في

"دوار" يعرفه " راندو" جيدا.

²⁷⁴ - لدى " البولار" أيضا تقاليدهم الحربية

توجد عند "واد لحجار" حيوانات وطيور كثيرة للصيد: خنازير برية، غزلان، حبش متوحش،
حجل ، حبارى الخ

وفضلا عن ذلك توجد حديقة يانعة وهو أمر جيد فالمقام في "ألاك" رائع بالمقارنة خاصة مع " جزيرة الشيطان" أي أنواكشوط". وصلتنا أخبار جديدة بالبريد يوم 3 فبراير من " مال" فيبدو أولا أن الأمور قد تدهورت في " اترارزه" فالمنشقون يهاجمون الآن فرق الرماة فقد تعرضت ثلاث منها يوم 24 يناير في ثلاثة مواقع مختلفة من " اترارزه" الغربية لهجمات.

وفي صدفة غريبة وبما أن هذه الهجمات الثلاث قد تمت بأمر من " أحمد سالم" الذي أرسلنا نطلب منه العودة فلم يتعرض المهاجمون ولا قبائلهم للعقاب حتى لا يحول ذلك دون عودة الأمير السابق هذه تضحية جديدة إرضاء لأهل " سين لوي".

ولكن بريد" مال" يتضمن خبرا سارا آخر وهو أمر بمغادرة فرقتي سأذهب من " ألاك" في اتجاه " شكار آكريدي" و " كيمي" لأستولي على هذا الموقع الأخير لتجتمع فيه القافلة بكاملها وهي قادمة من " مال" كما تم اشعاري أن فرقة الطليعة في " مال" وكيمي" ستتشكل من الجمالة الجزائريين بقيادة النقيب " سيكولي" وستسير نحو " كيمي" قبل بعثة " كبولاني" لإبعاد جميع فصائل " إدوعيش" عن طريقها وخاصة من " لعويسات" الموجودين هناك فيما يبدو عند " دماودو" ، أما بقية " إدوعيش" فقد وصلت بالفعل إلى "تكانت".

بدأ رجالي من " البولار" الذين ظلوا يدورون طول النهار منذ 10 أيام يملون حياة الجندية والرماية والعمل في الخلاء أما " أولاد بسبع" فهم على خير ماداموا يحصلون في الخفاء على الشاي والسكر 275.

ولكن مزودهم بذلك قد ذهب مع " كبولاني" مصطحبا كل متاعه فسبب لهم ذلك كثيرا من الحرمان والكآبة ومن حسن الحظ أنني شغلتهم بكثرة التمرين على الرماية، كان خيالة " ربول" قد غادروا يوم 4 فبراير إلى " بوتلميت". قمت يوم 6 بآخر الاستعدادات. فالزواج قد قضاوا 12 من التدريب ونفذوا 5 دورات من الرماية والكثيرون من بينهم من الشباب وبما أنهم لم يتلقوا أي تدريب قبل تجنيدهم فما زالوا غير منضبطين رغم صرامة "مدجيكان" وأيضا، إذا كان أوربي واحد يكفي لقيادة " البيضان" فإن ضابطا واحد من البيض لا يكفي لتأطير 60 من

²⁷⁵ - يتم إعداد الشاي (الأخضر) باتقان مع الحرص على لونه وهو شراب محلى يفضله " البيضان" ويلزم إعداده واحتساؤه الاحتفالات واللقاءات الودية.

الزئوج. عالجت هذه النقطة بتعيين قائد لكل مجموعة من بين الرماة أو المساعدين الذين عملوا سابقا في القوافل ولم ينلق أكثرهم إلا تدريبا عسكريا بدائيا ولكنهم يتوفرون على ميزة المشاركة من قبل في القتال وسيسهلون قيادة الفرق ويعملون كوسطاء مع " مجيكان " ورغم نقص هذا التأطير فلم أجد مشكلة بعد ذلك وربما تكون كتيبتي من بين مثيلاتها في البعثة هي الأكثر انضباطا والأحسن تدريبا وصحيح أنه تبعا لطريقتنا في "السودان" قد استأنفنا التدريبات أثناء المسير. وعلى كل حال كانت معنوياتهم أفضل من معنويات السودانيين وبما أنهم منحدرون من الضفة اليمنى لنهر السنغال، فقد تعودوا على إطلاق النار مع " البيضان " وقد كنت أثير حماس " البولار " بأن " البيضان " كانوا في "أنبورو" في السودان يدفعون الضريبة لسلاطينهم، كما أن بعض الخيالة من الجزائريين الذي يعرفونني كانوا قد حدثهم عن "طلاسمي" 276 الشخصية وهكذا أصبحوا يعتبرونني خبيرا ويمكن الركون إلي في الحرب وأن قافلتي جيدة دائمة فيما يخص "الكبش" فعمالي يعاملون بشكل جيد.

تمكنت يوم 7 فبراير بعد المسير 20 كلم من تجاوز "مشرع الإبل" حيث قضيت الليل وتزودت بالماء.

سرت يوم 8 في اتجاه " شكار " قبل طلوع النهار قطعت مرحلة في اتجاه الشرق بمحاذاة كثيف "أناكيم" الذي تفصله عن السهل الذي أسير فيه منخفضات تغطيها الأشجار تسمى "واد لحجار" ينتشر فيها شجر الدوم والحقول الجافة وهي تشبه تربة نهر السنغال تماما كما لو كانت جزءا من منطقة "كايور" كان الحر شديدا ولكن جنودي من الشباب كانوا يغنون وكان "أولاد بسبع" يسيرون في المقدمة على الأطراف على وقع أغنية "البولار" متمايلين عند سماع لازمتهم: "مايرم مايرم" المترددة على ألسنة المغنين كأنها تمنحهم الحماس وبعد توقف في الهجير استأنفا المسير عند 6 مساء.

وجاء الليل وطلع القمر وفي هذه اللحظة بدا ضوء نار فوق الكثيب على الناحية اليسرى فأرسلت "أحمد ولد أعمر" مع نصف الجمالة لاستطلاع أمره فوجدوا النار تشتعل ولا أحد من حولها كنا في منطقة حلفائنا من "أولاد أحمد" فلا شيء نخشاه إذن واصلت المسير لأصل نقطة ماء قبل أن أنام.

276- " طلاسمي " : التمام أو الأشياء التي تعلق وقد أصبح الكثيرون يعتقدون في أن " أفريجان " تصاحبه بركة وبركة القائد تنتقل إلى رجاله

بدأ رجالي من الشباب يشعرون بطول الرحلة عندما أشار الدليل إلى غابة ملتفة يبدو من خلفها جدول ماء كالمرآة وقد انعكس عليه نور القمر فقال الدليل هنا " شكار ". وذكر لنا أن مخيما كبيرا من " كنته " يوجد في المنطقة ولا نعرف كيف سيتم فيه استقبال رجالي من " أولاد بسبع " بسبع " فهؤلاء " كنته " هم الذين دخلوا في العام الماضي في صراع مع " أولاد بسبع ". لا بد من أن نمر وسط المخيم لنصل إلى مكان الماء ومن جهة أخرى يجب تفادي ما يسبب إطلاق النار مع أناس تربطهم علاقات حميمة مع " كبولاني " وخاصة وأنه أوصاني بحسن معاملتهم لنستفيد منهم فيما بعد مع " كنته " الموجودين في " تكانت " 277 كنت محتارا إذن ولكنني لاحظت أن المخيم كان وسط الغابة ومن حوله فرجة رأيت منها البحيرة وكانت التربة متشققة في كل اتجاه.

فأمرت من معي بالتزام الصمت المطلق وسرت إلى الأمام بعد أن أمرت الدليل بدخول المخيم من الطرف الذي يوجد فيه أقل عدد من الخيام وحين اقتربت منها تقدمت منفردا أرد بنفسني على الأسئلة التي طرحها الناس بعد أن استيقظوا مذعورين من وصولنا وقد رأوني بوضوح تحت نور القمر ثم أعلنوا بصوت عال أننا فرنسيون أي أصدقاء، دخلت بسرعة صحبة جميع من معي عبر الفرجة واتخذت موقع المعسكر كنت قد أرسلت من يطلب حضور رؤساء قادة المخيم فتوافدوا علي مسرعين فأخبرتهم بأننا متعبون وسننام تحت حراستهم هذه الليلة ولكن بما أننا دخلنا مخيمهم بهذه الأعداد الكبيرة دون أن يشعروا بنا فمن الممكن للأعداء أن يدخلوا دون أن يشعر بهم أحد ولذا أجد نفسي مجبرا على توزيع رجال " أولاد بسبع " لأكون مطمئنا على وجود حارس يقظ في كل خيمة. وما كنت أَلْفُظ كلمة " أولاد بسبع " حتى ارتسمت على وجوه " كنته " علامات الحرج ولكنهم تملكوا أنفسهم بسرعة وأجابوني:

" لا بأس ما دام " أولاد بسبع " من رجالك فهذا حسن"، وهكذا وزعت رجالي من " أولاد بسبع " كل اثنين أو ثلاثة في إحدى الخيام وأنا متأكد من أنهم إذا لم يقضوا الليل منتبهين لما يأتي من الخارج فسيقضونه على الأقل يراقبون تحركات مضيفيهم، وكان هدفي من نظام الحراسة بالدرجة الأولى هو منع الحراس من النوم كما كلفت الذين قطعوا المسافة راكبين بالحراسة

²⁷⁷ - تحدثنا في الجزء الأول عن دور " كنته " الهام وهم اتحاد قبائل كبير ويمثلون في الصحراء الغربية المحافظة على الدين الإسلامي الحنيف.

باعتبارهم أقل تعباً من المشاة الذين قطعوا مسيرة 48 ساعة مشياً على الأقدام وما كادوا يشربون حتى تمددوا جميعاً غارقين في نوم عميق.

فتركتهم نياماً لغاية طلوع الشمس وكنت مصمماً على منحهم يوماً من الراحة أولاً في انتظار الحصول على المعلومات حول الطريق ثم إن "كبولاني" كان قد أوصاني بأخذ دليل جيد لدى "كنته". عاد قادة المخيمات من "مال" بعد أن تحدثوا مع "كبولاني" وعادوا مبهورين لكثرة القوات التي رأوها محشورة في المركز عند "مال" وردا على أسئلتني عما إذا كان الطريق بين "شكار" و "مال" آمناً أكدوا ذلك ولكن يمكن أن أجد "كيمي" تحت سيطرة إما "إدوعيش" وإما أتباعهم من "لبحيات" أما الماء فقد لا يوجد منه الكثير في "أكريني" ولكنهم ذكروا أن ماء "كيمي" يجمع بين الكم والكيف بصفة دائمة وأعطاني رؤساء "كنته" دليلاً تتوفر فيه الشروط التي طلبها "كبولاني" وهو أحد أتباعهم يسمى "مني" يعرف المنطقة تماماً ولكن (كما سأؤكد منه لاحقاً على حسابي) تبين أنه سارق جمال محترف²⁷⁸. غادرت "كيمي" يوم 19 فبراير صباحاً وسرت عبر سهر منخفض يتوزع بين المناطق المغطاة بالمحار وأخرى جرداء.

وصلنا "أكرين" في حدود الحادية عشر وهو مكان بحيرة في الخريف جافة في الوقت الحالي وتوجد آبار غير عميقة في وسطها بها ماء طيني عكر نمنا للقلولة تحت ظلال الأشجار الكبيرة وعند الساعة الثانية بعد الزوال أعطيت إشارة الانطلاق وقد قمت بعملية من باب الصدفة نالت إعجاب المرافقين لي، فقد أردت بطلقة من بندقيتي حباري كانت تنبش على بعد 200 م بين الأعشاب وهكذا حصلت في نفس الوقت على لقب بطل رماية بالمجان ثم على صيد سمين سأكله.

كنا عند الساعة الخامسة نمر أمام أضرحة بعض الصلحاء وقد فهمت ذلك من أدعية الدليل ومع حلول الظلام أقمت المعسكر على كتيب في المدخل الجنوبي لمنخفض كثير الأشجار هو "كيمي" ومن الغد كان جمالتي من "أولاد بسبع" يجوبون المناطق حول "تامورت²⁷⁹" كيمي" فلم يعثروا على ما يثير الشبهة. وعند عودتهم نزلنا لنقيم قرب الماء وأثناء عبوري "للتامورت" مر أمامي خنزير بري ضخم فأرديته بطلقة اجتازت جسمه في اتجاه الطول وبعد خطوات سقط ميتاً وبجهد جهيد تمكنا من حمله فوق الجمل فقد امتنع "البيضان" و "البولار"

²⁷⁸ - تعتبر سرقة الجمال من اللمم بالنسبة للدليل الذي يقوم بذلك على سبيل "العربة"

²⁷⁹ - "التامورت" منخفض ممتد أو وادي رطب تكثر فيه النباتات و الأشجار الضخمة.

من لمس الخنزير 280 كما يقولون فهو حيوان نجس فاضطرت إلى استدعاء اثنين من "بمبارة" تمكنا من نقله قرب المعسكر وعلى الخلاف من ذلك رجل القبائل " مدجيكان " فلم يكتف فقط بسلخ جلد الخنزير ولكنه استغل استراحتنا عند " كيمي " ليصنع لنا منه وجبة مملوحة وكمية من دهنه الجيد.

أكثر الآبار عمقا لم يكن يتجاوز مترين وبما أنها غير مطروقة وتوجد في وسط بحيرة كبيرة، فقد كان ماؤها رديئا تماما كما ذكر " كنته " وتبدو البحيرة الجافة في الوقت الحالي منتجعا يمتد على عدة كلمترات ومن مكاننا عند المخيم قرب الآبار كنا نستطيع رؤية كل قادم من بعيد لا شيء يمكن أن يفلت من رؤيتنا وطبقا لما لدي من أوامر أقمت المعسكر هنا من أجل 800 رجل يمكن أن يأتوا اليوم أو غد من "مال" وهكذا تم قطع نباتات الأسل الجافة وحرقتها وبعد وقت قصير حصلنا على مكان مناسب. عادت إحدى دوريات الجمالة صباح 12 فبراير نحو الساعة 10 مسرعة وأعلنت الاستنفار فقد رأيت جماعة في ناحية الشرق تتجه رأسا نحو آبارنا، جمعت المساعدين وهيأت الأسلحة وبقيت في الانتظار وكان " أولاد بسبع " متحمسين يرقصون ويرمون بنادقهم في السماء وتمكنت بصعوبة من إسكاتهم أما "البولار" فقد كانوا يترنمون بصوت منخفض بنشيد الحرب 281 وأنا أدرك أن هذا من عاداتهم ولن يتخلوا عنه بسهولة ولا أريد أن أعكر مزاجهم بالزامهم بالصمت فإذا كان القادمون من الأعداء فيلقون استقبالا ساخنا. وبعد قليل ظهر بعض الفرسان من فوق التل ثم هبطوا بعيدا عن مرامينا ودخلوا " التامورت " وهاهم يخرجون من جديد يبدو أنهم فعلا من " البيضان " ولكن يبدو من هيأتهم أنهم لا يتوقعون خطرا... وكانت الأوامر بإطلاق وابل الرصاص الأول قد صدرت، عندما صرخ مجيكان: " الخوذات " ، سيدي النقيب ! إنهم جزائريون منا" فأمرت بوضع الأسلحة وتقدمت أمام رجالنا ومن خلف فرقة الطليعة نزلت من بعيد كتلة الجمالة الجزائريين واضحة الملامح الآن يسير أفرادها في انتظام وليسوا منتشرين كما يفعل الجمالة من البيضان. ويوجد في مقدمتهم الرقيب الدركي " ديتال " ومعه " الحسن ولد الطالب " و أبناء إخوته.

²⁸⁰ - يعتبر المسلمون فصيلة الخنازير نجسة يجب الامتناع عن أكلها أو لمسها وزيادة على ذلك تم قتل هذا الخنزير برصاصة ولم يتم ذبحه

بالطريقة العادية وهذا يزيد من نجاسته. أما بمبارة الوثنيون فليس لديهم هذا النفور.

²⁸¹ - الرقصات (" فاغو " عند البيضان) و أناشيد الحرب (عند البولار) عادات قديمة استمرت حتى مطلع القرن العشرين وهي نوع من التحضير

الجسمي والنفسي.

" حسنا قلت له، وأنا أشير إلى الرجال المصطفين كل شيء كان جاهزا لإطلاق النار عليكم في المرة القادمة عندما تذهبون لملاقاتة الأصدقاء اجعلوا دائما بعض الخوذات فوق رؤوس الفرسان الموجودين في المقدمة" ولكن ها هو النقيب " سيكولي" صحبة الملازم " ديلافوجيون" ومعهما 120 من الجزائريين فعينت لهم أمكنتهم بحيث تشكل فرقنا مربعا حول البئر وكانت خيام الضباط منصوبة وقمنا أثناء النهار بتمتين الزريبة.

يبدو أن الجزء الأكبر من البعثة بقي بعيدا في الخلف ومن اللازم القيام عند " مال" بتحميل قافلة كبيرة وفرق المساعدين الزوج تتعين إعادة تنظيمهم وإرسالهم وفي انتظار وصول البعثة تناولنا الطعام كل ثلاثة على حدة وقد حازت الحبارى التي اصطدتها قصب السبق أما الخنزير البري فقد اختلفت فيه الآراء. وانتظرنا القافلة التي وصلت " التامورت " يوم 14 عند الثامنة صباحا وكانت طلائعها قد وصلتنا عند الفجر. يا له من خلق كثير بالنسبة لبعثة سلمية، أية آلة حربية هذه! يا لها من ضوضاء! وبالجملة هنا نحو الثلاثين من الأوربيين وما يناهز 800 من المحليين و200 من الخيول المسرجة و16 من البغال و300 جملا و80 ثورا. 282

كان "الكانديولى" أكثر الجميع سخبا وهم جمالة من " الولف" أخذهم "كبولاني" مع جمالهم من منطقة "كانديول" جنوب "سين لوي" كانت جمالهم الضخمة المتعودة على مناخ "كايور" تحمل ما يناهز 200 كلغ للواحد فنقلنا عليها جل أنقال القافلة ويلقبون جميعا "قال" وكانت جمالهم تتصارع حول النوق المجاورة وهديرها متواصل يغطي على كل الأصوات الأخرى وبعد قليل دب الهدوء وأصبحنا نستطيع الحديث مع القادمين الجدد إلى "مال".

كان كبولاني مبتهجا فنصب خيمته وسط المعسكر وانفرد داخلها للعمل فقرر أولا أن تأخذ القافلة يومين على الأقل من الراحة لإكمال التنظيم. وقد تم توجيهي مع فرقتي إلى موقع الطليعة وستكون مهمتي استكشاف الطريق والاستيلاء على نقاط التوقف وإعداد مواقع استراحة القافلة وجمع المعلومات في انتظار قدومها وكان " كبولاني" الذي وجد في السنوات الماضية بعض المشاكل في التعامل مع قادة الوحدات والذي كان من جهة أخرى وهو محق يعتبر الوحدات النظامية كثيرة المطالب، قد أنذرنا جميعا عسكريين ومدنيين، بأنه يعتبرنا

282- ستمثل العقبة في تموين هذا الكم الكبير من الرجال والحيوانات وهو ما يبدو أن " كبولاني" ومن معه لا يدركونه تماما.

مجرد أعضاء في بعثته لا أكثر ولا اقل ولكل واحد منا موقعه ليقوم بواجبه، ولكن ما دام هو لم يفوض سلطته لأحد فهو وحده المسؤول عن البعثة وقائدنا جميعا. تشكلت حراسة البعثة من فرقنا على النحو التالي:

- فيلق الرماة التابعين لتكانت
- الفرقة المختلطة التابعة لدوري، فرقتي وفرقة " مال "
- فرقة الجمالة الجزائريين
- فرقة الخيالة المرافقة، فرع المدفعية الجبلية على الجمال
- وأخيرا فرقة قوية من الجمالة " البيضان " تسير مؤقتا صحبة القافلة.

ولدينا طبيب هو الدكتور " كامبور " الذي قدم إلينا من " مال " وهو من جيش فرنسا، رجل جيد له خصوصياته فهو مثلا لا يعتبر أشعة الشمس ضارة بالنسبة له شخصيا. فمع أنه أصلع فهو ينام القيلولة تحت الشمس واضعا قبعة صغيرة من الحشيش فوق رأسه وهو متميز جدا ومرح إنه نسخة من " العم بندكت " في قصة " جولفرن " وهو يركب حصانا أكثر منه غرابة فهو حيوان قصير القامة من " شمامه " قوي البنية وسريع وفيه ميزة أخرى هي أنه يبرك كالجمال كلما ركبه الدكتور.

أفتح هنا قوسا، هل تلاحظون معي أنني مذ أكثر من سنة وأنا أجوب موريتانيا وهذه المرة الأولى التي يرافقتني فيها طبيب ويدل هذا على أن العلاجات الطبية ليست من الأولويات ولكن أيضا على أن المناخ في المنطقة صحي جدا وعلى أن الأطباء المتذمرين من ندرة الزبائن متذمرون أكثر من حياتهم المتعبة.

قد يكون من المدهش أنني كعسكري نظامي أصف الفرق النظامية بأنها كثيرة المطالب ويتعلق الأمر في هذه الحالة بعسكريين سنغاليين رماة وخيالة وما أقصده هو أنه دون الأخذ في الحسبان ضد استخدام هذه الفرق في مناطق وعرة كما هي الحال في موريتانيا فجميع المتاعب التي أثارها لي في "ترارزه" وهي متاعب من فعل أطر متأثرين بعقلية المعارضة السائدة في "سين لوي" ، فمن المؤكد وجود وضع غريب في فرقنا المكونة من المحليين العاملين في الفرق الاستعمارية. فبدلا من إدراكهم لكون الحياة في البادية وفي القوافل التي تجوب الفيافي بعيدا عن مصادر الحضارة هي بالنسبة لهذه الفرق وأطرها حياة عادية ومعهودة في حين أن حياة الاستقرار والإقامة في الحاميات داخل المركز هي مجرد راحة

استثنائية غير عادية يجب علينا أن نرسخ في أذهان فرقنا عقلية معاكسة لهذا فقد حولنا هؤلاء الزنوج السائرين دائما في الوضع "المدني" إلى فرق تحب الاستقرار في المراكز متشعبة بحياة الثكنة وسلوك فترات السلم في فرنسا ففي المراكز تأخذ جميع الاحتياجات التي ستصبح ضرورية بالتعود وينتهي بها الأمر إلى اعتبار ذلك أمرا مستحقا ولا بد من الاستجابة لكل هذه المطالب وبدرجة اقوي قد ترسخ لدى الأطر مثل هذا السلوك فأصبحت السلطة تساهم فيه. الم يلزموا المحاسبين في البوادي بالمحاسبة المطبقة داخل الحاميات في حين توجد محاسبة أخرى خاصة بالبوادي؟ كل شيء يتم حسب خدمات الثكنة ومتى ابتعدت الفرقة النظامية عن هذا الوضع يعتبرونها في وضعية غير عادية. ولطالما وصفت هذه الفكرة بالتقاعس والكسل والميل إلى البرجوازية ولن نتخلص منها ما دمنا لم نعتبر أن انتهاج سلوك السلم على الدوام يؤدي إلى الارتخاء فلا بد من البحث عن ممارسة تقرب الفرق من الظروف الحقيقية للحرب باعتبارها الوضعية العادية بالنسبة للعسكريين. إننا في الوقت الحالي كمقيمين في القرى وبرجوازيين نحيط أنفسنا برجال يشبهوننا تماما ولهذا السبب اعتبر أن الفرق النظامية التي تعودت هذا السلوك في زمن السلم تصبح عندما تكون في قافلة في مناطق وعرة كثيرة المطالب أكثر من تلك التي تم إعدادها لمثل هذه الظروف. ولكن لنعد إلى "كيمي" ، لنغادره بعد ذلك، توجهت ليلة 16 فبراير في الظلام الدامس بفرقة نحو الشمال الشرقي لاستولي على بعد بضع وستين كلمترا، بالقوة إن اقتضى الأمر، على آبار "أكجرت" لأعد حولها موقع إقامة البعثة التي تتبطني على مسيرة نصف يوم.

يجري الحديث عن أن "إدوعيش" يوجدون دائما في "تكانت" وقد يكون "أكجرت" في منطقة تحركاتهم وبالتالي لدي أمر بأن أختار موقعا محصنا قرب الآبار بصفة نهائية للمعسكر القادم وأن أقوم بتحسينه عند الضرورة. لا أحتاج لأن أضيف خلو الطريق بين "كيمي" و"أكجرت" من نقاط الماء. انطلقت عند الساعة التاسعة ليلا ولم أتوقف إلا عند طلوع النهار وكان دليلنا "مني" يعرف الطريق جيدا كما أن "رجالي من أولاد بسبع" كانوا قد أخبروه ونحن في "شكار" بمصير دليل "إيداب لحسن" يوم 24 مارس الماضي ومنذ ذلك اليوم لم أصادف قط في بلاد "البيضان" إلا الأدلاء الجيدين فهذا هو المنطق الفعال معهم.

وفي النهار شاهدت عن يميني مرتفعات صخرية أقمنا قبالتها مدة ساعة ونصف لناخذ قسطا من النوم والغذاء ولكي نتسخن حول النيران وعند الساعة السابعة انطلقا وبعد الزوال بقليل كنا

عند " أكجرت". وكما هي الحال عند " كيمي" توجد الآبار في وسط البحيرة الجافة تحيطها مساحات وعرة ما زالت مسافة 5 دقائق من السير نحو المكان الذي سأختره لإقامة البعثة. ورغم التعب الشديد حدد رجالي معالم أمكنة الوحدات التي ستصل في المساء وجمعوا حولها بعض الأشجار الشائكة لصنع حواجز دفاعية ومن السهل الحفر هنا في الرمال الرخوة فيكفي وقت قليل لحفر الخنادق وفوق الكثيب وقف حارس يراقب من بعد جوانب المنطقة بحيث لا يفوته شيء.

وفي هذه الأثناء كان رجال زوايا " تكانت" الذين وجدناهم قرب الآبار يقومون بإصلاحها من أجل زيادة كمية الماء. تركت رجالي يستريحون ويعدون الطعام ونزلت شخصيا لأراقب تقدم حفر الآبار كانت الساعة تقارب الخامسة بعد الزوال فأشار إلي الحارس من أعلى الكثيب بقدم القافلة فتوجهت لاستقبالها صحبة بعض العمال من أجل توجيه كل وحدة إلى مكانها المحدد فالوحدات ما زالت بعيدة.

وصل " كبولاني" رفقة كتابه والنقيب" جرار" وضابط آخر.

- " طاب يومك سيدي النقيب، هكذا خاطبني " كبولاني"، أين حددت مكاننا؟"
 - " على مسيرة 5 دقائق من هنا فوق الكثيب اتبعوني من فضلكم"
 - " لحظة، نحن متعبون"
 - " ورجالي مثلكم، ولكن كل شيء جاهز فقد وضعت معالم وهؤلاء هم العمال سيقودون الوحدات إلى مواقعها"
- مرت لحظة صمت وكلنا ينظر إلى الآخر.

- " ولكن أين الماء؟ "
- " هنا، هذه هي الآبار وقد أمرت بإصلاحها."
- " في هذه الحالة سأنزل هنا، قال " كبولاني" كيف يبدو لكم ذلك أيها السادة؟ "
- " بالتأكيد سيدي الأمين العام نحن متعبون جدا ولا يمكن أن نبتعد كثيرا كما أن الماء يوجد هنا فلا نحتاج إلى جلبه من بعيد..."
- " قلت جيد جدا وأنا مرتبك ثم أضفت ولكنني اخترت موقعا جيدا لإقامتكم بصفة نهائية ورجالي المتعبون أكثر من رجالكم بعد أن ساروا طول الليل قد تجشموا العناء بعد الزوال تحت الحر الشديد ليعدوا لكم المكان هل يذهب جهدهم هدرا؟"

ساد الصمت فابتعدت قليلا فحدثت مناجاة ثم استدعوني.

- " نحن نقدر كل ذلك سيدي النقيب يقول " كبولاني " وسنقيم هنا فاستدع رجالك ووافني بما حصلت عليه من معلومات، آه هاهم أهل "تكانت"، إنهم زوايا جيدون، أليس كذلك ؟ السلام عليكم..."

بينما كان هؤلاء يقتربون رويدا رويدا بقيت منفردا وجلس الجميع فكل واحد لا يفكر إلا في تعبه الخاص. عقد الغضب لساني وكنت اسأل نفسي من الذي يخصني بهذه المعاملة يبدو لي أن حول " كبولاني" من يسخر مني ثم تقدمت وأنهى "كبولاني" كلامه مع أهل "تكانت" وفور ابتعادهم حبيته قائلا:

- " يشرفني أن أحيطكم علما بأنني نفذت أوامركم سيدي الأمين العام ولو كنت أعرف أن ما قمت به سيبقى حبرا على ورق لما أجبرت رجالي على التعب في عمل لا طائل من ورائه وفي المستقبل سأنفادي مهمة تحديد موقع نزول القافلة. ليتولى آخرون (وأشرت إلى السادة) تحديد مواقع أفضل بالنسبة لكم دون شك. "

ولم أنتظر الرد فحيته وانصرفت. أوصلت رجالي إلى موقعهم الجديد بحيث يشكلون مربعا حول البئر وكظمت غيظي وانزويت جانبا فوق حصيري. قدم بعض الأصدقاء بوحدهاتهم يبحثون عن مكان ولكن رجالي المتعبين من عمل اليوم كانوا مشغولين بالاستحمام فكان هناك هرج ومرج. وأخيرا حل الظلام وكل فريق في مكانه تقريبا من حسن الحظ، هناك اختلاف بين موقعنا الجديد والموقع الذي كنا فيه عند " كيمي" وهو أنه بدل أن نرى كل من هو قادم من جميع الجهات كان هناك كثيب معزول قد يقترب البعض من خلفه دون أن نراهم ...

ولكن ... نحن متعبون! ونأخذ راحتنا أولا أما الجانب العسكري فيأتي بعد ذلك أنا لم افهم وكثيرون هم الذين قالوا لي بما أنك الأقدم في الرتبة كان من اللازم أن تقود الوحدات ولكن ما ذا يفيد ذلك؟ يفيدني بأن أتقدم بطلب مكتوب ... من باب التظرف... انقضى الليل وتم تحديد المراكز الأمامية رغم المصاعب ورغم تعب رجالي من " البولار" فقد أمرتهم دون استئذان بأن يتقدموا بفرقتين مع " مدجيكان" ليتمركزوا فوق الكتيب فسيد ذلك من خطورة الموقع. ولكن تدمري كان موضوع الأحاديث داخل المعسكر كان بعضهم يضحك والأكثرية تعتبرني محقا بقيت منعزلا منطويا. باختصار أدرك " كبولاني" أنني لست أخرق وانتبه إلى أنني على حق فرأيته في حديث طويل مع النقيب "ابيين" الذي كان متربصا طيلة الرحلة بين " مال " و"كيمي"

وبعد ذلك بلحظة، إذا بالأمين العام يقترب مني وقد ارتسمت على شفثيه الابتسامة التي لا تفارقه حين يحاول التقرب من شخص ما.

وفي بضع كلمات أخبرني أنه ذهب ينظر إلى موقع المعسكر فوق الكثيب، فألفاه موقعا جيدا ولكن كما أرى ليس هناك خطر محقق كما أن المعلومات تؤكد له أن " إدوعيش " قد انسحبوا إلى سهول " تكانت " مصممين على منعنا من دخولها ولم يعودوا يريدون القدوم لمهاجمتنا كما فعلوا في " الأاك " سنة 1903.

ثم إنه يريد أن يشيد بما يسميه قدراتي العسكرية ثم أخبرني بأن قراره بعدم تعيين قائد للوحدات لا رجعة فيه 283 وأنه قرر من الآن فصاعدا أن يجعلني في منصب يناسب قدراتي وبما أنني مشتمز من المسائل المتعلقة بتحديد موقع النزول والحراسة وتفاصيل المعسكر، فقد قرر إعفائي منها في المستقبل وإسنادها إلى النقيب "ابيين" أما دوري أنا فسيكون دورا آخرا من الآن فصاعدا.

من حيث المبدأ سأكون مكافا بكل ما هو حربي ولا علاقة له بالسلم في هذه البعثة السلمية (يا للهول!) سأعمل بصفة عامة بالأعداد التي سيمنحونها لي في كل حالة بعينها ومن هنا وحتى ندخل " تكانت " سابقي في الطليعة لأن الهجمات المتوقعة ستأتي من هذه الناحية وعند الوصول إلى المعسكر سأتشاور مع النقيب "ابيين" حول المكان الذي ستنزل فيه فرقتي ولكن متى أمكن ذلك سأعمل منفردا، هل هذا يناسبني؟

بالتأكيد إذا لم يكن يناسبني فمعناه أنه لا يمكن إرضائي وذلك ما يقصده " كبولاني " ودون تضخيم الحادثة رافقتي لزيارة الكثيب " كثيبي " وهو يحدثني عن المسائل التي كانت تهمني: عن " إدوعيش " فهو ينتظر تقارير المخبرين وفي الليل زاره وجاءه " إدوعلي " من "تجكجه " سيد ولد الزين وهو ينتظر المدعو " ولد غسني " رجل " الشيخ سيديا " المقيم عند " كنته " في تكانت. ذهبنا معا لزيارة المقبرة الواقعة فوق الهضبة المعزولة ثم عدنا صديقين كما لم نكن أبدا.

فكان ذلك اليوم الذي أقنعني فيه " كبولاني " أي عندما عاملني معاملة الجندي والجندي فقط ومنحني وسائل الخدمة حسب ذوقي وقدراتي قبل ذلك كانت علاقتي به (مع أنني كنت دائما

283- قرار لا رجعة فيه ولكن سيتبين فيما بعد في " تجكجه أنه قرار مشؤوم

مخلصا له لأنه رئيسي) كانت لدي دائما خلفية أخرى فهو يحذرنى كسياف جسور وأنا أخشى ما يصله خفية من معلومات كاذبة على حسابي.

لقد اثبت لي من قبل عنايته وأنا ممتن له بذلك جدا فقد حماني من قضية قتل الدليل بحيث لن يتم نبش هذه القضية قبل موته ولكن أفضل أكثر من ذلك أن يتم كل هذا حسب الفهم الصحيح لطبعي وورغباتي وبصفة خاصة بمنحي الوسائل الضرورية لمهمتي. استراح الرجال يومي 18 و 19 فبراير ووصلتنا المعلومات فتأكدنا مساء 18 من أننا ننتظر مرحلة صعبة من السير قبل الوصول إلى " تكانت" فلا وجود للماء بين " آكجرت" وسهل أظهر" كما أن المعلومات الواردة تشير إلى أن " إدوعيش" قد تكتلوا عند مضيق "قم البطحة" المدخل الرئيسي " لتكانت" من جهة الغرب مع أننا يمكن أن ندخل من الشمال من معبر أسهل هو "قم تحاربت" ولكن المسافة في هذه الحالة تقارب 100 مكم لا ماء فيها في حين أن " دكل" يقع على بعد 70 كلم وبه معبر سهل ولكن قد يكون تحت سيطرة العدو وعلى كل حال سيكون انتزاعه أسهل من السيطرة على مضيق "قم البطحة" حيث يلزم السير مدة ساعة للوصول إلى القمة وحيث الأرض وعرة ويمكن للعدو أن يتبع القافلة من الخلف ويهاجمها دون مشقة كما أن وسط المعبر وعر تغطيه الرمال ولا بد دائما من الذهاب إلى " دكل" لأخذ الماء إذ لا وجود لقطرة ماء عند " قم البطحة" في هذه الفترة بينما يتوفر " إدوعيش" في السهل داخل المنخفض على عيون ماء كثيرة قرب الصخور قد حصلت من مياه الأمطار. بعد الحصول على كل هذه المعلومات جمعنا " كبولاني" يوم 19 داخل خيمته حيث قدم لرؤساء الوحدات ملخصا عن الوضعية: يوجد طريق أول من نحو 50 كلم يتجه رأسا إلى " قم البطحة" ويوجد هنا احتمال حدوث معركة يكون العدو فيها متفوقا من حيث الموقع ونفتقر نحن فيها إلى الماء هناك طريق ثاني من نحو 70 كلم يقود إلى " دكل" ولا نعرف هل ذلك المعبر تحت سيطرة العدو ولكن إذا كان كذلك نستطيع انتزاعه بسهولة لأنه معبر قصير وإذا لم يكن كذلك سنجتازه بسرعة وفي كلى الحالتين، متى اجتزنا المعبر سنكون نتعقب " إدوعيش" داخل مناطق " كنته" ويعتقد " كبولاني" أن هؤلاء سيكونون مخلصين لنا وفي "دكل" كما ذكرت قد نجد الماء تحت المعبر. هناك طريق ثالث من نحو 100 كلم يقودنا إلى " تكانت" دون معركة ولكن بعد مسيرة طويلة لا بد أثنائها من جلب الماء من " دكل"

ومع وجود المساعدين والرماة الزوج تحتل مسألة الماء مكانة الصدارة والأسبقية على كل اعتبار وليس عندنا ما يكفي من قرب الماء 284 ولهذا السبب تم استبعاد طريق " فم البطحة" وبما أننا على كل حال مجبرون على الشرب " من دكل" فمن الأفضل أن نسير رأساً نحو هذا المعبر حتى ولو تطلب منا الأمر انتزاعه إذا كان بيد العدو. وقد صادق الكل بالإجماع على هذا الحل الأخير وقررنا المسير كتلة نحو " دكل" في مرحلة واحدة على أن يتوجه الجواسيس وحدهم إلى " فم البطحة" وأثناء انعقاد هذا الاجتماع حاول بعض " البيضان" والزوج من " الكانديولي" الاقتراب للتصنت علينا فتمكن " كبولاني" من إبعاد "البيضان" أما "الكانديولي" فقد لزموا مكانهم ينظرون بازدياء إلى من يأمرهم بالابتعاد غير مكترئين بالأوامر كعادة " الولف" مما أجبر "كبولاني" ، وقد تذكر دون شك ما أبديته من قدرات في الملاكمة عند بوتلميت، أن يلتفت إلي فجأة وهو متضايق ويقول لي : " هيا، سيدي النقيب خلصنا من هؤلاء!" فوقفت وتوجهت إلى أكثرهم وقاحة وهو شاب فاندفعت نحوه وأشرت له نحو الطريق قائلاً: " ألا تبتعد" وكجواب، أدار رأسه وبصق على يساره ثم نظر إلي فامتدت يدي نحوه واستقرت قبضتي على بطنه فترنح ووقع فاقد الوعي ففر الآخرون ولكن " كبولاني" تملكه الرعب فأرسل إلى الطبيب يتفحص الحالة فأكد أنه لا يعاني شيئاً عندها نهض وهرب عندما رأي بقره ومن يومها لم يقترب أحد للاستماع إلى " كبولاني" عندما أكون معه. من الجيد أن يكون المرء ذا شعبية ولكن من الأفضل أن يكون مهاباً. كانوا حريصين على إحاطة رحلتنا بالسر وهكذا غادرنا يوم 20 فبراير عند الساعة 3 بعد الزوال وكنت في المقدمة حسب ما اتفق عليه فاستدعاني "كبولاني" وأمرني بالمغادرة عند الساعة الرابعة ولكن لم يحددوا لي النقطة التي أنا متوجه إليها اكتفى النقيب "ابيين" فقط بإرشادي إلى الجهة التي علي أن أسير في اتجاهها فانطلقت مع رجالي من "أولاد بسبع" في المقدمة ولكن ما إن ابتعدت عن "أكجرت" حتى سألت دليلي " مني" عن وجهتنا فأجابني دون تردد " دكل" لقد انكشفت الحيلة الصبانية التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تخفي على " البيضان" وجهتنا في منطقة يعرفونها جيداً والأدهى أننا أضفينا هالة من السرية على طريق مكشوف. كنا نسير نحو المرتفعات الصخرية الجرداء التي تفصل بينها أودية من نفس الطبيعة كانت ظلال الجمال

ترتسم فوق الكثبان متوقفة لحظة ثم تنزل دوريات "البيضان" في المنحدر لتصعد الكثيب الموالي وهكذا دواليك ومع اقتراب الليل كانت الوحدات تقترب من بعضها البعض ولم أعد أحتاج إلى البوصلة لتحديد الوجهة لمن يوجدون في المقدمة. ومع حلول الليل تجمعت حولي القافلة وواصلنا سيرنا متكئين وبما أننا في منطقة العدو فقد التزمنا الصمت وكان البرد قارسا فطلع القمر فأصبحنا نرى آثار وبقايا "تامورت" توقفنا عندها بضع ساعات ورغم المنع البات تم إشعال النيران كنا نرتجف وكان الجزائريون مثاليين واشتد البرد لدرجة أنني رغم البرنص والغطاء من الكاوتشو لم أغمض عينا وكذلك رجالي الذين التزموا بمنع إشعال النار فكانوا متمسرين عند الساعة الرابعة صباحا حين تحتم علينا المسير ولكن الأوامر هي الأوامر! واصلنا المسير حتى الساعة الواحدة بعد الزوال ثم توقفنا لتناول الطعام وعند الساعة الثالثة وصلنا خبر بأن معبر "دكل" الذي زاره "أولاد أحمد" لا يوجد فيه أحد فأسرعنا في هذا الاتجاه وعند الساعة الخامسة شاهدنا سهول "تكانت" السوداء فوق الكثبان المصفرة تحيط بها بعض الأشجار الخضراء. وصلني أمر بالتقدم أكثر للاستيلاء على المعبر وتأمين مرور القافلة. وفورا دخلت المضيق عند مدخل المعبر ثم اجتزته منحدرًا إلى الشمال حيث منبسط تغطيه أشجار ضخمة خضراء وقادني "أولاد أحمد" عبر مساحة من المحار وعرة اجتازتها الجمال بصعوبة وكان "أولاد أحمد" قد قاموا بدوريات حول المرتفعات الصخرية الواقعة في جهة اليمين، أمرت جميع رجالي من "أولاد بسبع" بالنزول وتركت الجمال في الخلف مع خمسة منهم. كان المنبسط يتسع عن يساري فلاحظت المرتفع الذي يفصله عنا حيث توجد قمة صخرية ذات ارتفاع متوسط كانت الوحدات الأخرى قد اتخذت منها موقعا. بذل رجالي المنهكون آخر جهودهم وعند الساعة و30 دقيقة مع مغيب الشمس حيث ما زالت اشعتها تضيء قمم الصخور السوداء، ظهر رجالي من "أولاد بسبع" في ناحية الشمال فوق التل الذي أمرتهم بأن يتمركزوا عليه. أما أنا فتجاوزت المضيق برجالي من "البولار" يرافقتني على اليمين رجال "أولاد أحمد" مشكلا بذلك رأس جسر في مقدمة المدخل. كان "كبولاني" قد وصل وبعده بقليل وصلت القافلة.

كان الليل قد ارخى سدوله حالكا فتقدمنا حتى وصلنا أول منطقة مستوية مكشوفة حيث اقمنا مربع المعسكر كان الرجال متعبين لا يستطيعون القيام بالحراسة. وبما أن آبار "دكل" لا تكفي لشربنا فقد تم إرسال "البيضان" على الإبل في المقدمة لجلب الماء من "تامورت" أنعاج ومن

جانب آخر كنا محميين من جهة المدخل الغربي للمعبر فالفرقة القادمة من "فم البطحة" تسير من خلفنا وقد سارت بمحاذاة السهل فلم تصادف أحدا بين "فم البطحة" و "دكل" وأخيرا أكد "ولد غسني" ممثل "الشيخ سيديا" لدى "كنته" أن السهول الواقعة عنا في جهة اليمين يقيم فيها "كنته"، نمنا ليلة هادئة وكان "كبولاني" مرتاحا لدخولنا "تكانت" دون عقبة وبصفة لم تكن متوقعة، دعانا لنقاسمه الفرح ووزع "الشمبانيا" على الأوربيين احتفالا بدخول "تكانت" التي كانت متمنعة. كانت "الشمبانيا" فاترة ولكننا وجدناها جميعا لذينة ... وفي هذه الأثناء وصلت رجالي قرب من الماء من "تامورت أنعاج" 285 وماء إن شربوا حتى أخذوا إلى النوم.

حول قصر البركة

²⁸⁵ - "تامورت أنعاج" وادي الضأن: منخفض كبير في تكانت به غابة من الأشجار الكبيرة الخضراء تتعارض طبيعتها مع جفاف سهل أظهر في ناحية الغرب

فور طلوع فجر يوم 22 فبراير قادنا دخول "تكانت" دون قتال إلى خوض معركة ضد "إدوعيش".

ومن أجل حملهم على مغادرة "قم البطحة" اقتفينا خطاهم عبر "تامورت انعاج". ولكن بسبب إرهاب الأمس لم نقطع أكثر من 20 كلم. فأقمنا عند الطرف الجنوبي للغابة، عند "انتيتان" على حافة احد المروج الخضراء بجوار بركة ماء مصفرة اللون. ذكرني العبور وسط الغابة بقوافلنا أيام زمان في السودان.. كانت الحجلان والحباش تتواثب من كل جانب... إنها الغابة فعلا. من حين لآخر فقط، كان كثيب الرمل الأحمر، في الناحية اليمنى ينحدر من الجبل باتجاه الغابة بمظاهر الخراب والقحط التي لا تفارقه، فيذكرنا أننا لم نبرح بلاد "البيضان".

وقبل الصباح تقدم "كابولاني" بعيدا مع رجالي من "أولاد "بسبع"، وقد تبعهم بعض زعماء قبائل الزوايا بعد ذلك بحثا عن "كنته" الذين يقال أنهم موافقون ودعوتهم إلى التقدم أمانا. من الزعماء الذين كانوا "الشيخ عبد الله" زعيم قبيلة "إدكجمله". إما بدافع الرعونة أو الغريزة السرية لهذا الرجل الفارس الذي يجعله يحتقر الراجل، كاد هذا الطالب الكبير الشيطاني المندفع في السباق أن يجعل أقدام جملة تبطش بي. كان فرسي جريحا ومتعبا فتركته في القافلة ومشيت على قدمي على رأس جنودي "التكارير". وبغفوية تفاديت الصدام مع الجمل، وبنفس الغفوية ضربت الدابة على كتفها الأيسر. وكانت مفاجأتي كبيرة لما رأيت الجمل وراكبه يسقطان امامي من تلك الضربة والفارس طريح الأرض. وعندما عاودت التفكير لأجد تفسيراً لما حدث فتبينت أن الجمل كان يجري وفي لحظة ما فقد الاتصال بالأرض وقد صادفت أنا تلك اللحظة وقت الضربة.

لم يكن عبد الله يشكو من أي شيء لكنه كان يعجب بي أكثر مما أعجب بنفسي. وكانت عبارات "لا إله إلا الله" الصادرة من "البيضان" الحاضرين وضحكات الغباء والرضا المنبعثة من جنودي "التكارير" تعبر هي الأخرى عن العجب. فبالنسبة للجميع كنت أنا رجلا خارقا. والأكثر ضحكا من هذا المشهد كان "كابولاني" الذي كان يقول لجماعة "البيضان" المحيطة به : "يوجد كثير من الفرنسيين من هذا النوع!".

وعند وصولنا إلى "انتيتان" عاد محمد ولد أعمر وجماعته من أولاد "بسبع". وقال لي أن "كنته" كانوا بعيدين عن البعثة لما تمكن منهم. فهؤلاء "الكنتيون" -فيما يبدو- أساءوا استقبال الجمالة وحتى الطلبة الذين كانوا يتبعوهم. وامتنعوا عن المجيء لمقابلة "كابولاني" بإرادتهم. لذا أجبرهم

محمد ولد أعمر على ذلك. كما طالب بالتعويض للجمالة الذين تعرضوا جميعا للأذى من قبل هؤلاء الناس ونسائهم بالعيب والشتم من خلال إشراكهم في الغرامة التي ستلزم المجموعة لا محالة بدفعها.

وبما أن السيد دي ري دخل لاستلام الأوامر ألح كابولاني على بقائي.
وقال: "هذا السيد دي ري الذي أرسله لاقتفاء أثر "أدوعيش" فبعد جولنا اليوم لم يبق لهؤلاء إلا الهرب، أليس كذلك؟"
"لا شك في ذلك، السيد الأمين العام، لكن إلى أين؟ إلى الشرق، إلى الغرب، إلى الجنوب، هنا السؤال؟"

"سنعرف ذلك هذا المساء، سوف يخبرني جواسيسي."
"السيد دي ري ستغادر هذا المساء مع أتباعك الخمسة والتسعين من التكاير وجمالتك أولاد أحمد الذين لا يحبون إدوعيش. 135 مدفا قوة لا يستهان بها!"
"بالتأكيد، يجيب السيد ديد ري. لكن بماذا يمكن أن يواجهني إدوعيش؟"
"آه، هم كثيرون ومتعودون على الحجارة. تذكر قضية كورمل العام الماضي، لم نتابعهم فيها."
"إذن، قلت أنا، علينا جميعا أن نتبع السيد دي ري وأن نستعد لدعمه. وبما أنني طليعة البعثة ولم تعطوني الأمر باقتفاء أثر السيد دي ري، فمهمتي ينبغي أن تأخذ اتجاهها آخر."
"ها أنت قلتها! أعترم التوجه شمالا نحو عاصمة كنته القديمة، "كصر البركة"²⁸⁶ وهي خاوية الآن لكن كنته يرغمونني على الإسراع إليها حتى ينضموا إليها. أما ما يخص السيد دي ري فإني أرى أنه مع مساعده ورفيق دربه السيد "مير" سيكون لديه من القوة ما يجعله قادرا على المقاومة ولديه أيضا من الحزم ما يمنعه من الاندفاع نحو قوات تفوقه. لذا أتمسك برأيي وأرسله لتعقب إدوعيش".

لقد أشرت إلى أن هؤلاء القوم انقلبوا لكنهم مهزومين. وأن أولاد أحمد كانوا سيئي التسليح بالبندقيات ذات المكابس. وأخيرا وهو الأهم أن هذه المهمة كان هدفها إبعاد السيدين دي ري ومير. فالاثان لا يتفاهمان مع النقيب ابين وبالتالي ينبغي اختفاؤهما. لكن ماذا تفيد الملاحظات؟ فقد أوبخ نفسي بكلمة نائية... أنا أقتل نفسي.

²⁸⁶ - نخيل كصر البركة استصلحه كنته في القرن السابع عشر وانتزعه منهم تجكانت في القرن التاسع عشر

كنت أشعر بالتخوش. هذا الفك الأول بدأ في تفريق قواتنا. ليس لأنني لا أثق في قائدي المجموعتين المعينتين فهما مساعدان قديمان من الدرجة الرابعة في "اسباهي" بتونس ورغم أنهما مدنيين فقد كانت لهما قيمة عسكرية لا يستهان بها.

فالسيد دي ري في موريتانيا منذ سنتين وقد شارك في بعثة 1904. وكمقيم في بوكي عمل بكثير من الجرأة والشجاعة والسعادة ضد المتمردين في لبراكه واطرارزه الشرقية وإدوعيش الجنوب. وقد أعجب التكاير العاملون تحت إمرته بجلونه ويحظى باحترام أولاد أحمد التابعين له واستغل ذلك أقصى ما يمكن. أما السيد مير فقد كانت معرفتي له أقل لكنني أشهد له بالتفوق في الرماية والتفادي في موالاة السيد دوري.

لا أشك إذن في قيمة القادة : بل في فرصة هذه الفرقة...

من اجل الالتحاق "بكنته" الذين قد يمثلون البنية التقليدية "لتكانت"، ونظرا لما نعرفه من التاريخ الحربي لهذا العنصر، وضالة الدعم العسكري الذي ننتظره منهم، فقد كنا نعتزم ترك مجموعة معزولة من البعثة في وجه كافة قوات إدوعيش لأن الأمير بكار كان هنا وحوله مقاتلون كثر. وهم يرون في 135 بندقية فريسة مغرية.

ابتعدت فرقة "دوري" ليلة 22 إلى 23 فبراير أما بالنسبة لنا فاسترحنا عند "انتيتان" وعلمنا نهار 23 أن الأمير بكار "قد توغل بمخيماته إلى الشمال الشرقي في اتجاه "تجكجة" وأن مقاتلي "إدوعيش" الذين غادروا فم "البطحه" يتبعون الأمير في رحلته، أعطى الأمين العام بالنسبة لصباح 24 أمرا بالتوجه إلى "كصر البركه" وقد تولى دور الدليل 3 من شيوخ "كنته" هم "سيد محمد ولد أحمد أمحمد" و"سيد المختار" أخوه و"محمد المختار ولد محمد آب". اجتزنا "تامورت أنعاج" في الصباح الباكر وعند وصولنا "تيشنان" صعدا كتلا من الصخور السوداء تغطيها كثبان مسطحة ينفث في وسطها غور عميق تحف به النباتات الخضراء يسمى "أعوينات اللبه" وصلناه عند الزوال ووجدنا فيه عيون الماء. نزلت القافلة تحت الأشجار الخضراء وبعد الزوال حام حولنا فرسان يتطلعون إلى معرفة وضعيتنا فأبعدتهم مراكز الحراسة بطلقات البنادق إنهم "إدوعيش" وقد جعلت طلقات البنادق الشبان الذين يتولون الحراسة في حالة توتر وعصبية. وبحلول الليل تم إعلان الاستنفار واستطعنا لذلك أن نلاحظ أن "البيضان" الموجودين معنا سيكونون في وضعية خطر في حالة وقوع هجوم جاد فلا بد من فعل شيء من أجلهم وبصفة تلقائية انتقلوا إلى الجهة التي جاء منها إطلاق النار يغنون ويرقصون، يا

لهم من الوحوش! انطلقنا يوم 25 يناير متوجهين إلى الشرق رأساً ثم انحرفنا عبر سلسلة صخرية قادتنا إلى مساحة مسطحة حيث توجد عين ماء في منحدر "كلتة" صخرية من الصلصال الأسود سقينا منها رجالنا وجميع حيواناتنا وخرجنا من هذا الوادي عبر ممر رائع الجمال وجدنا في وسطه كثيراً من النخيل البري ونخيل الدوم ثم وصلنا وسط "الواد الأبيض" المغطى بالرمال عند الساعة الثانية عند الزوال حيث كنا في ضواحي قرية "دار البركة" مررنا بين بقايا واحة نخيل قديمة وسط "الواد الأبيض" ولكن النخيل لم يعد يحظى بالعناية وقد طال عهده بالمعالجة الزراعية. كان بطن الوادي واسعاً يناهز 40 متراً يغطيه رمل "البطحه"²⁸⁷ الناعم ذو البياض الناصع الذي تحار فيه العيون تحت أشعة الشمس وقد تأكلت حافتا الوادي بسبب تعاقب مياه الأمطار الغزيرة كل سنة تبدو القرية مهجورة تماماً بعد الحروب الأخيرة التي دارت بين "كنته" و "تجكانت" المدعومين من الأمير "بكار"²⁸⁸ وتقع أطلال القرية فوق تل يشكل ما يشبه أنف الجبل وسط الوادي توقفنا للإقامة على بعد 500 م على الطرف الشمالي للوادي ومن هذا الموقع كنا نشاهد أشكال الأكواخ المكعبة من الحجارة الحمراء الجافة وكان المعسكر قد أقيم وسط أشجار "تف الحنه" ذات الأوراق الوافرة التي تشكل عشبا جيدا للجمال وتغطي الحافة على طولها وهو أمر مفيد في حالة حصول هجوم أما نقطة ضعف هذا الموقع فهي ندرة المياه فالآبار القليلة رديئة الماء ولكن تنظيم سخرة لجلب الماء يمكننا من الحصول على الماء الجيد من العين الكبيرة التي شربنا منها هذا الصباح. لقد تقرر أن نبقى هنا بعض الوقت في انتظار الحصول على أخبار "إدوعيش" وإن أمكن لكي نجعل من المكان نقطة التقاء مع "كنته" الذين ما زلنا ننتظرهم قادمين لملاقاتنا تماماً مثلما كان سكان بولندا يستقبلون الإمبراطور. وفي انتظار ذلك التحق الأطفال بأبائهم من شيوخ "كنته" الموجودين معنا بالفعل وكان الأطفال ينظرون بدهشة إلى الخيام الأوربية وأكواخ الجزائريين ويتنقلون بينها بحثاً عن السكر والشاي. وأول هؤلاء الرؤساء هو "سيد محمد" وهو رجل قصير القامة بدين معتد بنفسه يتكلم بصوت عال وهو سمج ضخم الجمجمة له عينان غائرتان مع نظر حاد وهو سمسار نكي ما زال ابنه "أحمد" يحمل "التيب" فوق رأسه وهو ما

²⁸⁷ - البطحه: بطن الوادي حيث تجري المياه بعد الأمطار الغزيرة والواد الأبيض إشارة إلى لون الرمال

²⁸⁸ - لقد تحالف الأمير "بكار" مع "تجكانت" للاستيلاء على واحات النخيل التي كان "كنته" قد استصلحوها منذ زمن طويل ومن هنا نفهم مغزى الموقف الذي اتخذته "كبولاني" في دعم "كنته"، مؤسسي الطريقة القادرية وأصدقاء القادة الدينيين في مقابل خصومهم التقليديين "إدوعيش" و "إدوعل" (ويتبع إدوعل للطريقة التيجانية)

يشبه العرف من الشعر يمتد من مؤخرة الرأس إلى فوق الجبهة متوسطاً رأسه المحلوق كعادة أطفال الزوايا دون سن الثامنة عشر وكان الطفل ذكياً ولطيفاً ولكنه كذاب وكتوم كوالده وهو بالإضافة إلى ذلك وقح إذا لم يخش العقاب. أما "سيد المختار" أخو سيد محمد فهو زوج إحدى بنات الأمير "بكار" وقد قدم بمفرده لحد الآن وهو عجوز فاقد الأسنان طويل القامة نحيف له أنف طويل محدوب وشفتان كبيرتان كسحنة اليهودي²⁸⁹ فهو على النقيض من أخيه تماماً قليل الكلام والإشارات وهو أكثرهم رزانة. ويعتبر "إدوعيش" كل من الأخوين أكثر جماعة "كنته" لطفاً وكان "سيد محمد" لحد الآن حليفاً مخلصاً للأمير "بكار" وقد تخلى من أجله عن بني عمومته²⁹⁰ وبالنسبة لسيد المختار صهر الأمير فيقال إنه أكثر إخلاصاً وقد توجه إلينا الاثنان وكأننا شمس بزغت لهما فجأة بسبب ما لدينا من قوة ولكن الحقيقة أنهما دفعا "كبولاني" إلى تنظيم هذه الرحلة الغربية في اتجاه "كصر البركة" وهو ما حول وجهة القافلة عن هدفها الأصلي وهو مهاجمة تجمع "إدوعيش" الكبير. هل لذلك هدف؟ سيظهر ذلك في المستقبل. "محمد المختار ولد محمد أب" عجوز صغير القامة على رأسه شعر قصير أبيض متناثر وهو يبدو شخصاً ثانوياً وكان في السابق ممثلاً لقائد "كنته" الحربي "محمد المختار ولد الحامد" الذي يوجد منذ عدة سنوات لاجئاً في الحوض إثر الهزائم التي لحقت به في الحرب ضد "إدوعيش" وعلى غرار القائدين السابقين يكن "ولد محمد أب" بغضاً شديداً "لإدوعيش" ويصفهم "بأزناكه"²⁹¹ في نبرة احتقار وهو دليل ومستشار الرجلين وثلاثتهم

²⁸⁹ - لقد عاصر "أفريرجان" فترة "قضية إدريفيش" وهو عن وعي أو عن غير وعي متأثر بالوصف الكاريكاتوري الذي أزدهر في الصحافة في ذلك الوقت.

²⁹⁰ - العبارة مبالغ فيها والواقع هو أن لكل فرع من "كنته آدرار" سياسته الخاصة اتجاه أمير تكانت القوي فتزويج الأمير "بكار" لإحدى بناته من أحد زعماء "كنته" يدل على أنه إذا لم يكن يتعامل معه معاملة الند للند فهو على كل حال يتعامل معه معاملة الرجل القوي.

²⁹¹ - يعتز "كنته" بأصلهم العربي فهم ينحدرون من عقبة بن نافع ولديهم روابط كبيرة مع قبائل صنهاجة حتى إن اسم القبيلة "كنته" يذكر بجد صالح من صنهاجه. أما "إدوعيش" فينحدرون من أبي بكر المرابط فلدى كلي الطرفين إذن مصادر "حقيقية للنبيل" واستخدام كلمة "أزناكه" هنا بنبرة احتقار (متبوعة بكلمة صنهاجة) يوحي بأن "إدوعيش" الذين هم الآن من أقوى القبائل إن لم يكونوا أقوى بالفعل في الصحراء الغربية، قد مروا بفترات من الانحطاط. وبالفعل كان "إدوعيش" في القرن الثامن عشر بسبب الهزائم العسكرية قد أصبحوا زبناء لإدوعل (القبيلة المسيطرة آنذاك على تكانت وآدرار وحتى أتباع "لاولاد أمبارك" (حسان) بعد وقعة "اشرم العامر" (1646) ولكن تحت إمارة قائدهم الفذ التي استمرت لفترة فريدة لأنه قاد القبيلة طيلة نصف قرن، "أمحمد شين" استعادت القبيلة مجدها وبرهن إدوعيش على براعتهم العسكرية في القتال إلى جانب "أولاد أمبارك" ضد قبائل الشمال (انتصار "أم أحبائه" قرب "الجل" سنة 1715 ثم في هزيمتهم "الأولاد أمبارك" أولاً عند "أحنوك بغداد" قرب تجكجة (1983) وبعد هذه الانتصارات لم يعد أحد ينازع "محمد شين" الذي كان قد تحالف مع أمير آدرار، في لقب أمير تكانت الذي أطلقه على نفسه. وتمكن نجله محمد ولد محمد شين من الاستمرار في الإمارة ولكن نجل هذا الأخير "أسويد أحمد" قام تحت تهديد ستة من أعمامه الطموحين بالتحالف مع كنته من أجل مقاومتهم وإثر هذه الأزمة انقسمت القبيلة إلى "ابكاك" المناصرين للأمير نجل أحمد ولد محمد شين و"أشرانتي" المناصرين للمختار أحد أعمام الأمير الشاب.

ينتمون لفرع " أولاد سيد حيله". طلبنا منه أن يقودنا إلى أطلال القرية المهجورة منذ 1885 توجد منازل كثيرة مهدمة والجدران التي كانت مطلية في السابق بالصلصال الرملي قد فقدت طلاءها بفعل الزمن والأمطار وبقيت مجرد أحجار حمراء متراسة جافة ومسطحة ومن بين المباني مسجد بأعمدة كبيرة اسطوانية الشكل وقد تهدم سقفه ولكن المحراب ما زال قائما كل هذا يبدو حزينا وينم عن الإهمال الطويل. ومع ذلك لم تتعرض القرية لتخريب على يد العدو وإنما فر منها سكانها خوفا من مباغته "إدوعيش" وتوجد في المنحدر الغربي للتل الذي تقع فرقه القرية، مقبرة كبيرة ما زال " أولاد سيد حيله" يدفنون موتاهم في هذه المساحة الواسعة المغطاة بألواح الحجارة التي تحمل الكتابة العربية على امتداد نحو كلم ثم تبدأ الصحراء من هذا الجانب شيئا فشيئا تتحصر في اتجاه "تارما" و "تباريت" البوابتين الكبيرتين لتكانت من الناحية الشمالية الغربية. فهل سنعيد نحن الحياة " لكصر" كنته المهجور؟ ذلك ما يصبو إليه كبولاني ولكن هل يستطيع ذلك؟ لا بد أولا من هزيمة " إدوعيش" وطردهم من المنطقة ثم اكتساب ولاء "كنته" بصفة نهائية وفي المقام الثالث تعويد "كنته" على حياة التقري التي يبدو أنهم تخلوا عنها منذ 20 سنة كل هذا لم يتحقق بعد. استدعاني "كبولاني" مساء يوم 25 وبدا لي حديثه مبهما، تكلم عن مهمة خاصة عسكرية بحتة لم يحدد لي طبيعتها سيعطيني من أجلها 200 بنديقية ومدفعا رشاشا أين ستكون هذه المهمة؟ أضاف بأنه سيرسلني بعد عودتي إلى "ترارزه" لأعاقب كل من هناك. وقد وصلت بالفعل أخبار من تلك المنطقة "فأحمد سالم" بدل من أن يعود كما طلب منه ما زال مقيما في الشمال وعصاباته عادت إلى أنواكشوط تمارس النهب أما هو فمستقر في "أوكار" وقد توجه "سيد ميله" في الفترة الأخيرة مصطحبا "ولد سيدي" بعد أن قبل التخلي عن "السروال الأبيض" إلى هناك يبدو أن جميع "اترارزه" أصبحوا الآن متفقين ضدنا وبعد "سيد ميله" يبدو أن "مولاي" حسب ما يقول "كبولاني" كان العنصر الأكثر نشاطا في خلق الوضعية الجديدة، هل ذلك مؤكد؟ أنا أدرك ما يوجد من عداوة بين المترجم الرئيسي و "مولاي". اسر إلي كبولاني بصفة عفوية بحديث عن مشاريعه الواسعة فحدثني عن جنوب المغرب حيث يعتقد وجود أكبر مناجم النحاس في العالم وهو يفكر في إنشاء مؤسسة لاستغلالها ويقول إنه إذا تمكن من إكمال السيطرة على موريتانيا سنة

وقد مكنت فترة الأمير "بكار ولد اسويد أحمد" (1836-1905) "إدوعيش" من الهيمنة دون منازع على قبائل تكانت وأدرار بعد انتصار الأمير على "كنته" وعلى قبائل "حسان" (حسب ما ذكره ب. أملاط. " حوليات " إدوعيش" مجلة الدراسات الإسلامية 1937 المجلد الأول.)

1908 يستطيع بعد ذلك أن يتقاعد ويكتتب لهذه الشركة 2000 أو 3000 من الزوج يخصصون ليس فقط لحماية استغلال هذه المناجم ولكن أيضا من أجل مرافقة المعدن المنقول حتى الشاطئ وستتولى القوات التابعة لسلطان المغرب ولكن من خارج جيشه دور الدرك في هذه المنطقة سيتحقق بذلك حلم كبير " لن يؤثر ذلك على الأمور لأنك ستستفيد من امتيازات لواء وسيكون لك نصيب من الأرباح"²⁹²

إن بعد نظر هذا الرجل يحيرني وليست المرة الأولى التي يقول فيها إنه يريد مصلحتنا قبل الجميع إذا نجحت مشاريعه. تركته يفكر في مشاريعه الخيالية فقد أعادني منظر فرسي إلى الواقع المر فقد أصابه جرح في الكلية من كثرة القفز وقد اجتهدت في علاجه ومنذ 5 أيام على الأقل لم أعد أركبه وكنت أمشي على قدمي وسط دهشة الجميع طيلة مراحل السفر. يتعلق الأمر الآن بإنشاء مركز في " كصر البركة"، توجه جميع من معنا من الزوج يوم 27 فبراير إلى القرية لجلب الحجارة من أجل بناء الحصن الصغير فوق التل المعزول شمال لكصر وبهذا العدد من العمال سيتم تشييد الحصن بسرعة كما سيتم في نفس الوقت إصلاح الآبار. بناء على معلومات من " كنته" أرسل كبولاني جماعة "أولاد إبير" ومن معه من "أترارزه" للإغارة في ناحية الشرق على " إدوولي" المساندين "لإدوعيش"²⁹³ ومن جانب آخر أرسل المترجم العسكري " رني" مع جماعة "أولاد بسبع" وجزء من المساعدين الزوج القادمين من " مال" إلى " تامورت أنعاج" لطمأنة مخيمات "كنته" وتهديتهم وفي نفس الوقت ربط الاتصال مع "المسيو دوري"، وليغفر لي الرب إذا استمر هذا فنحن نسير على طريق التشرذم الكامل! كنت أعيش في "كصر البركة" مع ضباط الفرقة الجزائرية وقد أنساني الرخاء النسبي الذي اسبح فيه منذ أبي تلميت أيام البؤس الطويلة في "أترارزه" الغربية كنا نقوم بألف تقدير، يقال إن "أولاد إبير" لم يكونوا سوى طليعة لنا وأنا سنحتل تجكبه أولا ثم نكمل السيطرة على "تكانت". ومن جهة أخرى يبدو أن كبولاني قد هيا في "أترارزه" الشرقية عملا مشتركا سيشارك فيه الحاكم المقيم في هذه المنطقة الذي سيدخل آدرار من الناحية الغربية في حين يتوجه فيلق من البعثة في اتجاه آدرار مرورا بشنقيط فهل من أجل هذه المهمة كان الأمين العام يختبرني؟

²⁹² - هذا نموذج من "الحلم الاستعماري" تقريبا كما وصفه " جل فري" ولا بد من الانتظار في الواقع حتى سنوات 1950-1955 لتكتشف خامات

الحديد في جنوب المغرب وشمال موريتانيا (منطقة كدية الجل)

²⁹³ - كما رأينا في هامش سابق كان " إدوولي" في القرنين 16 و 17 القبيلة المسيطرة في آدرار وتكانت وقد اكتسبوا الكثير من الزبناء والحلفاء الذين عبروا عن تحالفهم بإضافة عبارة " إد" في بداية أسماء قبائلهم وهكذا أصبحت "بروقا" " إدويعيش" وهناك أيضا " إديشلي" وإديبيسات"

على كل حال وصلت أوامر إلى حاكم أبي تلميت وعلى الملازم "أبير" أن يمدنا بالمؤن عبر "أتوزكت" عندما ندخل آدرار. وفي انتظار ذلك كنا نمارس القنص في الوادي حيث تكثر الأرناب والحجل والغزلان وفضلا عن ذلك صنعت في يوم ماضي سلطة رائعة من لب نخلة صغيرة ولكن يجب إخفاء ذلك عن كبولاني الذي أخذ على نفسه حماية صغار النخيل خوفا من تخريبها. و بالجملة كنا نقوم بما يؤمن لنا العيش. لم تعد الثقة تعم "قيادة البعثة" يوم 28 فلا بد أن أخبارا جديدة قد وصلت فالنقيب "أبيين" توجه مرارا بشكل سريع للقاء الحاكم العام وقدم أشخاص مجهولون من "البيضان" ويبدو القلق على وجه كبولاني.. قدم رجال من أولاد أحمد يحملون أخبارا سيئة. "المسي دوري" المقيم على كثيب "البدر" بين "تامورت أنعاج" وفم البطحة قد يكون دخل في اشتباك مع قوات الأمير بكار مجتمعة وتكبد هزيمة شنيعة. ومن جهة أخرى عاد "أولاد إبيرى" و"ترارزه" من مهمة الإغارة وقد استولوا على 600 كبشا جاءت في الوقت المناسب فكنا على وشك فقدان اللحم الطازج وبدأ يظهر منذ ذلك الوقت هنا كما في جميع مناطق موريتانيا أن مسألة المؤن هي نقطة الضعف في تنظيمنا.²⁹⁴

معارك ضد "إدوعيش"

وقعة "تنشيبه"

أخيرا قدم إلينا نذير من أمير "إدوعيش" في اليوم الأول من شهر مارس وهو "أزناكيه" المفضل في مثل هذه المهمات وهو رجل طاعن في السن أصلع يحيط برأسه خط من الشعر المتناثر وسخ كأقصى ما يكون، أكد لنا أن "المسيو دوري" قد هزم صباح نفس اليوم وجرح

²⁹⁴ - الواقع أن الإمداد بالمؤن أمر بالغ الصعوبة بسبب انتشار الفقر في المنطقة فكل قافلة عسكرية كبيرة الحجم تستنزف ما يوجد وقد ظهر ذلك بعد قافلة "كورو"

في معركة مع جموع " إدوعيش " أثناء دورية الاستطلاع التي كان يقودها بنفسه انطلاقا من معسكره في " البدر " قرب " دركل " وهكذا تتأكد الأخبار السيئة التي جاء بها "أولاد أحمد" القادمون الجدد بل وتبدو أفظع مما ذكروه. لقد وصل مبعوث " بكار " على مطية دون سرج يحمل إنذارا صريحا من الأمير يطلب منا مغادرة المنطقة وقد ذكر أن "المسيو دوري" ومن معه من أولاد " دمان" ونصف مجموعة " البولار" قد سقط منهم قتلى كثيرون وأن فرقته قد انهارت معنوياتها ويجب أن تغادر إذا لم تكن نريد أن يبيدنا " إدوعيش" عن آخرنا بواسطة الرصاص اللامع وكانت معه كمية منه فأخرج لنا منها البعض في شكل رصاص فضي يصفه "بالمسحور"²⁹⁵. اختلطت السخرية بالمأساة فرغم ما يتمكن كبولاني من قلق شديد فقد انفجر مقهقها ومثله فعل الحاضرون. وكان محمد المختار ولد الحامد زعيم "كنته" العجوز جالسا خلف مبعوث الأمير ويقوم بإشارات توحى بأن ما يحكيه مجرد كذب في كذب فطفق الحاضرون يضحكون من جديد. كانت الساعة الثانية بعد الزوال حين أمرني "كبولاني" بالاستعداد للانطلاق لنجدة "المسيو دوري" ولن يسمحوا لمبعوث "بكار" بالمغادرة حتى يتأكدوا من أنه لن يصل في وقت يخبر فيه قومه بمغادرتي. ومع حلول الليل قدم رجل من " كنته" على جمل هزيل وكان شديد التعب كدابته لدرجة تكاد تمنعه من النطق يحمل في يده بندقية "المسيو دوري" وقد بالغ في وصف خطورة الواقعة التي تحدث عنها مبعوث الأمير.

وما حصل هو كالتالي: كان "المسيو دوري" قد عسكر عند "البدر" بعد استطلاع المنطقة في موقع محصن بجوار " فم البطحه" يطل من مسافة 50 مترا تقريبا على "تامورت أنعاج" وبلغه أن مخازن حبوب " إدوعيش" توجد غير بعيد وبما أنه يواجه نقصا في المؤن الغذائية (كما هي الحال بالنسبة لنا نحن أيضا) فقد فكر في استخدام الوقت الضائع في أخذ المؤن على حساب العدو في انتظار قافلة " أمويت" تغادر "البدر" يوم 28 فبراير صحبة أكثرية "البولار" تاركا الموقع المحصن في الجنوب الغربي وبجواره الماء والحطب وانطلق صحبة 40 من أولاد أحمد " و 38 من " البولار" ومعهم المترجم " صمبا أنجاي" وقافلة من الثيران محملة بالأكياس الفارغة وكان الجميع يمتطي إما الخيل أو الإبل وحتى الثيران هذه القافلة هي التي رآها " قوم أولاد أحمد" عند انطلاقها و تنبؤوا بما وقع لها مستنتجين من خطورة المسير بهذا العدد القليل،

²⁹⁵ - أسطورة الرصاص أو الرصاص الوحيدة " المسحورة" التي لا تخطئ العدو أو الفريسة شائعة في موريتانيا أيضا بعد ذلك بخمسين سنة وقد أكدها لي بعض البيضان بكل جنية.

70 مسلحا فقط، في منطقة يمكن أثناء عمليات البحث المضنية عن المخازن وأثناء تحميل الأكياس على الثيران أن يتعرضوا فيها لهجوم بأعداد تفوقهم كثيرا فلا مبرر بمثل هذه العملية حتى وإن كان أفرادها مسلحين بشكل جيد ومؤطرين على خلاف هذه الفرقة التي لا تتوفر إلا على 70 بندقية 40 منها من طراز قديم وليس لديهم من المؤطرين سوى "المسيو دوري" والمترجم. ومع ذلك توغلوا حتى وصلوا "دركل" ولكن "حراطين" وعبيد "إدوعيش" فروا عند رؤيتهم لنقل الخبر إلى الأمير في معسكره الموجود غير بعيد عند "أمزوزل" وفي طرفة عين جمع 200 من رجال إدوعيش "وأنطلق نحو "دركل" وكانوا على علم بنقطة ضعف الفرقة الصغيرة وأنهم لن يجدوا فرصة أفضل من هذه للتخلص من "المسيو دوري" الذي خبروا قدراته القتالية في السنوات الماضية. وحين شعر "المسيو دوري" بالمباغثة وهو منكم في العمل قرر التخلي عن الثيران المحملة بالأكياس ومحاولة تجميع رجاله ما أمكنه ذلك. لقد قاوم "أولاد أحمد" بشجاعة ولكنهم فقدوا 10 قتلى ونفدت ذخيرتهم، فحسب المعاملة التي كنت قد شجبتها سابقا في "ترارزه" الشرقية، فقد تم حساب الذخيرة بشح أما "البولار" فمن كانت لديهم خيول من بينهم قد قاتلوا بشجاعة وزاد من حماسهم ما رأوه من صمود ومهارة "المسيو دوري" الذي كان يتصدى لجموع من المقاتلين تصرخ وتقفز بصفة وحشية أما المشاة فقد انبهروا من الموقف ونظروا إلى عددهم القليل وتملكهم الخوف من عدم القدرة على الخلاص فعادوا أدراجهم هارين في كل اتجاه ليحاولوا الاجتماع من جديد في مكان بعيد وقد فقد "المسيو دوري" الأمل بعد سقوط 8 من "البولار المحيطين به وهو يحمل 3 جرحى فتقهقر إلى الوراء يتعارج بعد أن أصابته رصاصة في أعلى الفخذ خلف الركبة وحين رآه "إدوعيش" يسقط أرضا أطلقوا صرخات من هدير النصر وكثفوا إطلاق النار على الجهة التي يصمد فيها المترجم "صمبا أنجاي" الذي جمع بقايا فرسان "البولار" وبعض "أولاد أحمد" المسلحين ببنادق "لابيل" واستطاع أن يغطي انسحاب قائده رغم أن المترجم نفسه كان جريحا وقد قام رجل "كنته" الذي كان يعمل دليلا "للمسيو دوري" بتضميد جراحه وتطلب منه ذلك السيطرة عليه لأنه كان يبحث في هيسثيريا عن مسدسه ربما من أجل الانتحار وبمساعدة المترجم ورجل "كنته" استطاعوا ربطه خلف الراحلة فوق الجمل وانطلقوا به مسرعين إلى البدر حيث أطلقوا إشارة الإنذار. وفي هذه الأثناء أبان المترجم عن صمود وشجاعة بهر بهما العدو لكثرة ما سببه له من خسائر واستطاع بفرسانه أن ينطلق ويسبق العدو أثناء تنازعه الثيران والخيول

المتخلفة عن المساعدين القتلى واستطاع اللحاق "بالبولار" الهاربين مشيا على الأقدام وتمكن من الوصول إلى " البدر " في الوقت المناسب حيث أخبر " المسيو مير " بأن " إدوعيش " يطاردونه من خلفه. وكان ذلك صحيحا ولكن الهجوم بأعداد كبيرة على فرقة صغيرة تمت مباغتتها في العراء شيء وشيء آخر أن نهاجم عدوا على علم بوجودنا وهو متمترس داخل حصن منيع تحيطه زريبة محصنة. تردد " إدوعيش " لحظات حين وصلوا معسكر "الميسيو دوري" وهذه هي اللحظة التي كان رجل "كنته" محمد فال" الذي سلمه " دوري بنديقته اعترافا له. قد تمكن فيها من الانطلاق نحو " كصر البركة" لنقل الخبر إلى كبولاني" وبعد أن ابتعد سمع أصوات المعركة من خلفه فتأكد من أن " إدوعيش قد هاجموا " البدر " وأضاف بأن " أولاد أحمد" وكذلك "البولار" الموجودين مع "المسيو دوري" يعانون نقصا حادا في الذخيرة. لم يكن لدينا وقت نضيعه ولكنهم كانوا قد فككوا نظام فرقتي بأخذهم جماعة الجمالة " أولاد بسبع" وإلحاقهم للمترجم العسكري " رنيير" وفضلا عن ذلك لا بد من حصولي على تعزيزات من 40 من "البولار" اختارهم من الفريق القادم من "مال" ولا بد من إكمال ما لدي من ذخيرة قليلة لا تتجاوز 50 خرطوشة لكل بنديقية ثم إن علي أن أخط الرجال الجدد بالقدماء لأنني لا أريد أن أفسد تنظيم فرقتي في وقت أنا فيه بأمس الحاجة إليها وكإطار تكميلي زودوني بعريف سابق من " الرماة الجزائريين" يدعى "بن حماد محمد" وعريف أوروبي يسمى " رايل هاك". كانت مهمتي أن أنطلق بهذه التشكيلة معززة ب 25 من " أولاد إيبيري" و"اترارزه" باتجاه "البدر" في أسرع وقت ممكن لأسلم إلى "الميسيو دوري" كيسين من خرطوشات 1892 (يا له من شح) وبضع عشرات من كباش الغنائم وعند الاقتضاء أقدم النجدة "للمسيو دوري" والمسيو ميشلان جلي" أو لأحدهما حسب الحاجة وكنت على علم بأن قافلة من المؤن ستنتقل من "قصر البركة" يوم 3 مارس متوجهة إلى حيث " المسيو دوري والميسيو مير" وستواصل المسيرة في اتجاه " مال" لتعود محملة بالمؤن وكانت القافلة تحت قيادة الملازم "دوفور" وأخيرا متى وصلت "البدر" يكون علي أن أتناور مع " الميسيو دوري" بشأن الإجراءات الدفاعية والعقابية الضرورية لمواجهة " إدوعيش" وإبعادهم عن فرقنا وقوافلنا المتجولة في المنطقة حتى لا تتعرض لمهاجمة هؤلاء المتمردين. وقد أدهشني أنهم لم يرسلوا معي لا طبيبا ولا حتى ممرضا لعلاج " الميسيو دوري" وغيره من الجرحى. ولم يكن معي من الممرضين سوى طباحي "صمبا إديافاندو" ولم يكن رسميا مع انه أفضل من كل الممرضين العاملين مع الطبيب "

كامبور " فقد كان قبل أن يلتحق بفرقة المساعدين قد عمل في مستوصف "سكو". أخبرنا بعض الزوايا أن كل من "دوري" و " مير" قد تمكنا عند " البدر" من صد هجوم أولي "لإدوعيش" وأنهما في موقع محصن وقد خطر لي نظرا لاشتداد الحر أثناء النهار أن أتكلف المسير طيلة ليلة 2 إلى 3 مارس وأن أتابع المسير دون توقف حتى أصل "البدر" فانطلقت عند غروب الشمس وعند الساعة السادسة مساء كان "البولار" و"أولاد إبيري" مصطفىين تحت أسوار الحصن الجديد الذي كان قد وصل ارتفاعه 1،5 م فوق الأرض. قدم "كبولاني" لاستعراض فرقتي وما كاد يقف أمام فرقة "البولار" حتى صرخ " ولكن هؤلاء مجرد أطفال". ولكني هكذا تسلمتهم أدهشني أمر واحد هو أن "كبولاني" لم يبدي هذه الملاحظة قبل الآن لقد كان هؤلاء "الأطفال" يتمتعون بمعنويات عالية لدرجة أن أحدهم وهو مصاب في القدم حين علم أنني لا أريد الذهاب به، يقفز باكيا ويناشدني بأن أتركه يرافقتنا. وبالمقابل كانت لدى أولاد إبيري سمعة غير جيدة في مجال الحرب وقد أضفنا لهم واحد من جماعة "إيباكرن" هو العجوز "بوبر سيره". من بين جميع "البيضان" المرافقين لي هناك واحد متميز عن الآخرين هو "محمد ولد اللب" من "أولاد دامان" الذي لقبته نظرا لأنفه الطويل " بوبلير" وقد بقي معه اللقب وهو يعرف به الآن أكثر من اسمه الأصلي وكان أحد مبعوثي "كبولاني" اللذين أرسلهما المتمردون قبل هجوم ألاك آخر 1903 عاريين تماما إلى الأمين العام وقد كانت تلك معاملة حسنة لهما لأن "البيضان" في بعض الأحيان ينزعون أسنان المفاوضات قبل عودتهم إلى من أرسلهم ومن الأمثلة التاريخية على ذلك ما حدث في زمن " أفيدرب".

مع أن " بوبلير" عريق النسب من جهة أبيه الذي كان رئيس أحد الفروع القيادية في "قبيلة" "أولاد دمان" فقد كانت أمه أمة تحت الرق وقد احتفظ بملامح والده وأخذ من أمه البشرية السوداء وهو هادئ شجاع مخلص وقوي البنية الجسمية وهو لذلك وسيم ومحبوب لدى الجميع حتى النساء²⁹⁶ وقد أهلته تجربته في الحرب وموقف الفرنسيين منه لأن يتبوا قيادة فرقة "البيضان" عند مواجهة العدو ولكني فكرت في ذلك دون أن أتذكر دسائس " بوبر سيره" كما أننا سنرى فيما بعد دور "المختار ولد داداه" رجل "أولاد إبيري" الذي تلقى مني لكمة في بوتلميت وهو يرافقتي الآن.

²⁹⁶ - محمد ولد اللب الملقب " بوبلير" كان ما زال حيا سنوات 1950 - 1952 وقد لقبته في أبي تلميت وتحدث معي بارتياح عن الماضي الذي أصبح بالنسبة له من قبيل " الأزمن الخوالي" واعتمادا على ذاكرته القوية كان يسرد أسماء كل من لقيهم بدقة متناهية

انطلقنا في الظلام الدامس وكان علينا أن نحذر الضياع وبينما كنت أشد على أيادي الأصدقاء للوداع ابتعدت فرقة "أولاد إيبيري" ومعها الدليل فأرسلت "بولير" يأمرهم بالتراخي قليلا لقد كانوا فوق الجمال وفرقة "البولار" المرافقة لي تسير مشيا على الأقدام، عليهم إذن أن يتمهلوا وبعد قليل شاهدتهم متكئين في أحد المنخفضات يدخنون ويثرثرون كطيور القنادس العوراء، أمرت الدليل أن يبلغهم أوامري بالتزام الصمت والسير خلفي وقد وجدتني فيما بعد مجبرا على منعهم من التدخين والكلام بصوت عال أثناء الليل ولكنهم كانوا زوايا حديثي عهد بشؤون الحرب ولا أريد أن أعكر مزاجهم في التجربة الأولى .

عند الساعة الرابعة مساء هبت عاصفة تصحبها زوابع وبدأت سحب ضخمة سوداء تزحف في قبة السماء وأعلن الدليل أن السير ليلا في "تكانت" غير محمود العاقبة ولم استطع بعد ذلك أن أدفعه بعيدا وكنا داخل بطحة أحد الأودية فحشرت الجميع داخلها وقيدت الجمال وتمددنا على الرمل مخلصين إلى النوم ما أمكن ذلك وفي حالة الهجوم ستحمينا أطراف الوادي من حولنا بالإضافة إلى حارسين وضعناهما على طرفي المساحة المستطيلة التي نتمركز فوقها ولكن المطر ما لبث أن بدأ يتهاطل باردا مدرارا ومتقارب القطر وهذا يطمئنا على عدم احتمال أي هجوم ولكن الماء كان باردا وقد زادت من برودته الزوابع التي تصحبه فرغم كسوتي الجلدية وجزمتي الكبيرتين وما جعلت فوق جسمي من البرانس وغيرها من لباس الكاوتش فقد كنت أرتجف فوقفت لكي أكتسب قدر من الحرارة واتجهت إلى الجمال ولكن رفاقي من البيضان الذين كانت عليهم ثياب "النيلة" فقط كانوا قد التصقوا بجوانب الجمال بحيث كان في كل جانب رجل يلتصق بجسم الحيوان كأنما يريد امتصاص ما فيه من حرارة كما يقال في عادة أهل "سينسير" فبحثت عن جمل خال من هذه الطفيليات لألتصق به بدوري وبعد بحث وتلمس وجدت واحدا وما أن اقتربت منه حتى وقف الرجل الذي كان ملتصقا بجانبه الآخر فإذا به رجل "أولاد إيبيري" صاحب اللكمة الشهيرة وقد أمسك خنجره في يده فأمسكت بمسدسي توقعا لأي احتمال وعلى الفور أدركت أنني لم أفهم إشارته فقد أخرج الخنجر وأشار به إلى بطن الجمل ثم اتكأ مسندا جسمه على جنب الحيوان وقد وجه إليه رأس الخنجر الحاد فما علي إلا أن أفعل مثله وهي حيلة لمنع الحيوان من أن يتكأ عليه أثناء الليل

وبهذه الطريقة تمكنت من النوم في مكان دافئ²⁹⁷ ومع ذلك فقد أيقظني البرد قبل طلوع النهار وكان رجالي قد أوقدوا نيرانا خفية تحت الحافات الصخرية من أجل التدفئة ولا خطر في ذلك نظرا لطبيعة الوقت فلن يكون أحد خارج الخيام في تلك الليلة ليشاهد النيران. وقبل طلوع الشمس بقليل توقف المطر ولكن لا بد من المسير ولم نتردد في جعل الأمتعة المبللة فوق ظهور الجمال وهو أمر ضار نظرا لما بها من قروح ثم هبطنا في " تامورت أنعاج" لنصعد بعد ذلك بقليل فوق السهول الغربية وما كدنا نصلها حتى بدت ممتدة أمامنا تغطيها الأشجار وتتخللها برك المياه الكبيرة المتتابعة من الجنوب إلى الشمال على أكثر من 80 كلم لقد كانت الأشجار المحلية ضخمة تضاهي في ظلها وقاماتها ما نعرفه من أشجار البلوط الجميلة في فرنسا وبدت أشجار الغابة ميتة في بعض المواقع لم يبق منها سوى جذوع خشنة وكانت طيور اللقلق "مربو"²⁹⁸ تهوي من فوق الأغصان اليابسة وتحقق في سكون بعيونها البارزة فوق أعناقها الطويلة العارية. عثرنا وسط السهول على مخيم "كنته" فأخبرني أهله أن " إدوعيش" قاموا في مساء اليوم الأول من شهر مارس بهجوم ثاني كان فاشلا ضد معسكر "الميسيو دوري" عند البدر وأنهم كانوا مساء أمس 2 مارس يستعدون لمعاودة الهجوم حين شاهدتهم "ميشلانجلي" وهو قادم من "أمويت" ورغم قلة العدد المرافق له تذكر عمله السابق في سلاح المدفعية فأطلق عليهم الرصاص عن بعد من مدفعه الرشاش الذي كانوا قد خبروه من قبل عند "أمويت" سنة 1904 وسموه إذ ذاك "بولخساره" بسبب ما سببه لهم من خسائر من مسافة كانوا يعتبرون أنفسهم فيها خارج مرماه، فذعروا ولم يصمدوا وعدلوا عن مهاجمة "الميسيو دوري" وتولوا هاربين. وحسب جماعة "كنته" التقى "ميشلانجلي" مساء أمس "بالميسيو دوري" وبما أنه قادم بالذخيرة فلم يعد من المستعجل قدومنا كما أنه لا يوجد نقص في المؤن الغذائية ولكن حضورنا سيرفع العدد ويصبح من الصعب تغذية كل هذه الأعداد مجتمعة في "البدر" من رجالي أنا "والميسيو دوري" و "ميشلانجلي" و الملازم "دوفور" فسنعرضي بذلك على جزء كبير من المؤن التي سيأتي بها هذا الأخير يجب إذن أن لا ننتظره وبالتالي رغم أن الأخبار كانت مطمئنة لا بد من السير قدما لنصل مساء اليوم ونغادر قبل قدوم قافلة "دوفور" ودائما حسب رواية "كنته" من المحتمل أن نلتقي بالعدو وراء الجانب الآخر من التل الصخري

²⁹⁷ - ومفعم برائحة الجمال القوية النتنة

²⁹⁸ - "مربو" يتعلق الأمر هنا بالطيور لا برجال العلم والدين.

المرتفع شرق هذا السهل وبالتالي أمرت من هذا الموقع بالسير في صفوف متراصة مستعدا للقتال وكانت الساعة الثانية بعد الزوال، ولكننا لم نلق أحدا من "إدوعيش" وعند الساعة الخامسة مساء عبرنا مضيقا صخريا وعرا هبطنا بعده في منحدر رملي سرنا على حافته حتى وصلنا بركة "تامورت أنعاج" ذات المنظر الجميل تحفها الأشجار السامقة وكنا منذ نصف ساعة نزحف هكذا فوق المنحدر حين شاهدتنا دورية تابعة "للميسيو دوري". كان مخيم "البدر" متمركزا فوق كثيب رملي ساكن يطل من ارتفاع خمسين مترا على "تامورت أنعاج" وكان علينا صعود منحدر صخري صلب وهو أمر صعب دائما خاصة بالنسبة لمن واصلوا السير لأكثر من 20 ساعة لم نأخذ خلالها سوى وجبة طعام واحدة باردة. وعندما تمكنا من الوصول إلى أعلى استقبلتنا رائحة كريهة تتبعث من جثث أكثر من ثلاثين من "إدوعيش" متناثرة حول الزريبة وكانت إصابات عشرين منهم في الرأس على يد المقاتل الفذ "مير" تلك هي حصيلة الهجوم الأخير ولا بد من دفن هؤلاء القتلى فذلك اسلم وكما أخبرني "كنته" فقد صدت الحامية قبل أمس هجومين وتلقت تعزيزات مساء أميس من فرقة "ميشلانجلي" أي 40 مسلحا ومدفعا رشاشا وذخيرة كانت الحاجة إليها ماسة ومنذ ذلك الوقت لم يعد "الميسيو دوري" في خطر. ومع قدومي أصبح العدد 300 مسلح مجتمعين عند "البدر" وهو عدد كافي لمواجهة "إدوعيش" إذا فكروا في معاودة الهجوم ولكن "كنته" يعتبرونهم قد دحروا وتكبدوا من القتلى أكثر مما تركوه هنا بالإضافة إلى نحو 60 من الجرحى. وكان خلف الزريبة عدد من خنادق الرماة وقد شرح لي "مير" أنه كان يشرف على إطلاق رجاله لبنادقهم فيما يشبه الإطلاق الموحد فلو تركهم منبطحين داخل الخنادق لإطلاق النار فلن يفكروا سوى في الاحتماء داخلها وسوف يركزون مؤخرة البندقية على الأرض وبالتالي يكون إطلاقها غير دقيق التوجيه فأجبرهم بعد إعداد البندقية داخل الخندق بأن يقفوا عند سماع عبارة "قف" ويطلقوا بنادقهم عند سماع "نار" وليس هذا كثيرا على جنود لم يتلقوا إلا شهرا واحدا من الخدمة وكان أكثرهم من حديثي السن يمكن أن نستفيد كثيرا من هؤلاء "البولار" إذا أحسنا تأطيرهم. لقد كانت فرحة "البولار" كبيرة لا تقل عن غبطة "أولاد أحمد" وكذا الأوروبيين الموجودين عند "البدر" حين شاهدنا الجميع قادمين فاستقبلوني بحفاوة عبر رش "الشمبانيا" ولم يكن لدي ما أرد به ردا مناسباً على هذه اللباقة فليس معي إلا قليل من الأرز والقهوة هو آخر ما بقي معي بعد رحلة الخلاء. كان الليل قد أرخى سدوله شديد الظلام وما زال في الجو

مطر ولكنني نمت كثيرا تلك الليلة لم أشعر بساعة تهاطل الأمطار وكان "الميسيو دوري" محمومًا بسبب جراحه وبسبب معاناة الأيام الماضية وهو مندهش مثلي لعدم إرسال طبيب. ولكي أعطي رجالي ما يشغلون به وقتهم أمرتهم بربط حفاثر الرماة حول المعسكر²⁹⁹ لتتحول إلى خندق يحيط بالمكان ثم تشاورت مع "الميسيو دوري" حسب ما لدي من تعليمات بهدف إبعاد "إدوعيش" عن تامورت أنعاج" وحسب رأيي لا توجد طرق كثيرة لتحقيق ذلك فالطريق الوحيد هو أن نلحق بهم هزيمة نكراء. ولم أكن أعرف أن "إدوعيش" يزحفون بمخيماتهم وقطعانهم فقد كنت أظنهم متخفين ولا يمكن اللحاق بهم إذا انطلقوا هارين وكنت أظن أنني سأستدرجهم بالاستيلاء على مؤنهم من الذرة التي ذكر لي أن مخازنها الكبرى توجد عند "أنتاكش" على مرحلة واحدة شرق "البدر" كما أنني إذا وصلت سهل "أنتاكش" سأوفر الحماية لمجموعة كبيرة من "كنته" (أولاد التناكيه) وفي حالة نقص الأعداد المرافقة لي يمن أن استقبل التعزيزات عن قرب من "البدر" والعكس صحيح. وقال لي: "الميسيو دوري" إن الظروف ستتحسن بعد قليل لأنه يريد مغادرة "البدر" إذ لم يعد يوجد من مبرر لإقامته بعد قدوم "ميشلانجلي" وفور مرور قافلة "دوفور" سيتوجه مع "مير" وميشلانجلي" للتمركز عند مشرع "أتويرزيت" وهو نقطة اتصال مهمة على بعد نحو ساعتين من "أنتاكش" وبهذه الطريقة سيتقلص خط اتصالي وسأعول كثيرا على المحاباة والصداقة العسكرية لدى "الميسيو دوري" وأوصيته خاصة على إمدادنا بالمؤن الغذائية متى استطاع ذلك وكنت أنوي المسير ليلة 4 إلى 5 على أن تصل قافلة "دوفور" بعد مغادرتي بيومين ومن المناسب أن أخلي له المكان في الوقت الحالي لينتخذ موقعه عند "البدر" ومن جانب آخر لا أريد أن أمنح "إدوعيش" استراحة طويلة كما أن حفر الخنادق الذي كلفت به فرقي عند "البدر" كانت له فائدة أخرى هي خداع "البيضان الموجودين في المنطقة" وإيهامهم بالاستقرار فتوافدوا من كل الجهات من "أحياء كنه" وغيرهم فلا يمكنهم إذا أن يظنوا أنني على وشك المغادرة حتى أن رجالي من "أولاد إيبيري" ظنوا أنا سنستقر هنا وقد كانت مفاجأتهم كبيرة حين أيقظتهم عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل يوم 5 مارس وعند الساعة الثالثة كنا نسير زاحفين ببطء في البداية من باب الحذر أثناء عبور "تامورت المشرع" الجافة آنذاك في جزء كبير منها ثم عبور حقول

²⁹⁹ - هذه أيضا هي الطريقة المتبعة لدى الرومان الذين لم يكونوا يتركون الجنود دون عمل فكانوا يكلفونهم بأشغال البناء

الذرة في " الطرطيك". أثناء عبور " التامورت" مررت بالمكان الذي كان مدفع "ميشلانجلي" الرشاش قد أحدث فيه نتائج هامة فأريت فرسا جريحة تتعارج على ثلاثة قدام لأن الرابع مكسور حاولت أن تتبعنا فوضعت حدا لمعاناتها، قال لي الدليل إنها مطية أحد أبناء الأمير الذي جرح هو الآخر في ذلك اليوم بإصابة من مدفع " ميشلانجلي" الرشاش. وبعد " الطرطيك" اجتزنا معبرا صخريا بمنحدرات حجرية سوداء وملساء فوقها أشكال من الصخور الجافة يحكي "البيضان" أنها مساكن السكان الأصليين دون أن يذكرها اسمهم ولكن لا بد أنهم " السرقلة" الذين كانوا مسيطرين على المنطقة منذ القدم وكانوا حتى 1859 في "لعصابه" في زمن "ماج"³⁰⁰ وقد طردهم "البيضان" من المنطقة آنذاك فغادروها باستثناء "كيد ماغه" كانت هذه الأشكال لنوع من الأكواخ الدائرية يتم دخولها من أعلى في حين توجد في السهول بقايا قرى متهدمة ما زالت صخورها متناثرة على الأرض ولكن أسسها وجدران أسوارها ما زالت ماثلة هذه الأكواخ المعزولة المبنية في مواقع وعرة كان "البيضان" يحترمونها ويقولون إن المساكن الموجودة في الأعالي كانت الملاجئ الأخيرة للزوج الذين كانوا قبلهم في تكانت ولم يتم طردهم إلا حتى آخر القرن الثامن عشر وسيوضح ذلك دون شك يوما ما. ومهما يكن من أمر فمتى تجاوزنا المعبر هبطنا سهل " أنتاكش" وهو عميق وواسع تغطيه حقول الزراعة وفيه "أدباي" قرية زراعية لعبيد " أولاد التتاكاي" نحو 20 كوخا من الحشيش لم يبد هؤلاء القوم أية نية حسنة لا في إعطاء المعلومات ولا في إرشادي مع أنهم من كنته المعروفين بمواليتنا وقد خلصناهم قبل قليل من " إدوعيش" المنتصرين عليهم³⁰¹ ربما تكون هزيمة " دركل" هي سبب سلوك هؤلاء وككل الناس لا يذهب "البيضان" إلا الطرف القوي أو المنتصر وقد كنا كذلك إلى ذلك الوقت فكان " كنته" إذن يقابلوننا بالتناقل والتقاوس حتى عن البحث عن شيوخهم لذا أرسلت رجالي من " اولاد إيبيري" يجوبون الحقول ليأتوني بالوجهاء وفي نفس الوقت يتأكدوا من عدم وجود " إدوعيش" في سهل " انتاكش" بينما كانوا يقومون بالدوريات كنت أتفقد المناطق المجاورة لأحدد الموقع الذي سنعسكر فيه. كانت السلسلة الجبلية المحيطة بالوادي من الناحية الغربية تهبط رأسيا على سهل بمسافة 50 مترا تحت قمم التلال وتبدو محمولة على سهل

³⁰⁰ - " رحلة عبر تكانت " (افريقيا الوسطى) في مجلة al وسلسلة يوليو 1860 ، المباني التي يتم دخولها من الأعلى هي في الغالب مخازن الحبوب.

³⁰¹ - يبدو أن " فريرجان" يعتقد أن المركزية تسود في قبائل البيضان وهذا خطأ لأن لكل فرع وحتى كل رئيس أو لكل جماعة استقلاليتها الخاصة.

ضيق نرى من تحته أنصاف الدوائر السوداء لأسس أكواخ "السرقل" القديمة. وتبدو هذه الوهاد من الموقع الذي أراها منه خلاصة المنظر كأنما هي قلاع أو حواجز لنظام من تحصينات العصور الوسطى مشيد من الحجارة ذات اللون الرمادي وتهبط أسنة الرمال من تحت هذه التحصينات الرائعة منحدره لتشكل زاوية حادة مع الكثبان الرملية الواسعة التي تتفتح أمام الناظر. بحثت أولاً عن موقع الآبار لكي يكون المعسكر قرب الماء على هذا البساط الرملي المجاور للجبل حيث لا نخشى شيئاً لأن أي هجوم وحتى ولو كان بالأسلحة ذات الطلقات السريعة لا يمكن أن يصلنا إلا من أعلى وسيكون منحرفاً ولا يشكل أي خطر علينا. بدأ "كنته" (البيض والقادة) يتوافدون وأخبروني أن "إدوعيش" كانوا قد أخذوا ما لديهم من حبوب في المخازن الواقعة في الطرف الشمالي للسهل فقد غادرتها حتى الآن أربعة جمال محملة بالذرة منذ أمس باتجاه معسكر "إدوعيش" الموجود غير بعيد من "أنتاكش" في ناحية الشرق. عاد "أولاد إيبيري" عند الرابعة مساءً وكانوا قد أطلقوا بعض الرصاص وجاءوا بجملين محملين بالذرة انتزعهما من أهلها بعد الهجوم كما جاءوني أيضاً بالوجهاء المقيمين في السهل ومعهم بعض "الحراطين" والعبيد فأمرتهم جميعاً بحفر الخنادق للرماة خلف الزريبة. وتمكنت بصعوبة من الحصول على ستة كباش وبدأت البحث عن مخازن حبوب إدوعيش للحصول على الذرة من أجل صنع الكسكس لرجالي فما جئنا به من مؤن من "قصر البركه" قد نفذ ولا بد من أن نعيش على ما يوجد في المنطقة. رجع "أولاد إيبيري" لاستدعاء رؤساء "كنته" و"لكراير" وقد ابدي هؤلاء وأولئك سوء نية وتفاعسوا عن إخبارنا بمكان مخازن "إدوعيش" ،البعض لأنه من أتباعهم والبعض الآخر لأنه يريد الاحتفاظ بما فيها لنفسه. إلا أن معي "مجيكان" الذي اكتشف مكان المخازن بطريقة لا تخلو من براعة ولم يكن يعرف لمن تعود هذه المخازن وإنما اقنع بعض السكان المحليين بأن من مصلحتهم أن يقودونا إلى مكان المخازن باعتبار أننا لن نأخذ كل ما فيها ولكنني أدركت على الفور أن الكميات كبيرة ولا توجد معنا وسائل لنقلها فأخبرت "دوري" عند البدر بواسطة البريد اليومي الذي نتبادلته وفي انتظار ذلك حفرت نفقا في وسط المعسكر واستخدمت رجال "أدباي" لنقل الحبوب على دفعات من المخازن وجعلتها في النفق وهكذا أضمن عدم أخذها من طرف دوريات "إدوعيش" التي تحوم حول المكان كل ليلة حسب روايات "كنته" لقد حفزت يقظة الجميع وكان "مجيكان" قد توقف بعض الوقت عن عملية البحث واكتشاف المخازن فاجأ شابين من "

إدوعلی " كانا یراقبان حركاتنا من فوق الهضبة الشرقية وارسلهما لی فاستجوبتہما فإذا ہما من أهل "تجكجہ" وأخبرانی أن معسكر "إدوعیش" كان عند " وارب" على بعد عدة كيلمترات من ناحية الشرق وفي هذه الأثناء حضر اثنان آخران من "إدوعلی" قالا إنهما والد وشقيق المحجوزین وقال إنهما من أسرة "سید ولد الزین" قائد "إدوعلی" المرافق للبعثة ومعہما جمل وحمار وعدد كثير من "التیسوفرن" لحمل الحبوب وقد أخبرهما رجلا "إدوعیش" المجروحان بالأمس في المعركة مع رجالنا أننا قدمنا إلى المنطقة وفيما یعنی موقع "إدوعیش الحالي" فالمعلومات التي أوداها لا تتفق مع ما ذكره الشابان فهما یزعمان أن " أولاد طلحہ" وأهل "أسوید أحمد" من "إدوعیش" كانوا قد غادروا "وارب" متوغلين في اتجاه الجنوب الشرقي ولا بد أنهم قد تجاوزوا موقع "فورواجه" على مسيرة يوم من أنتاکش وقد ألحا على طول المسافة التي لا بد أن فرعا "إدوعیش" قد قطعها مبتعدین لدرجة أن إلحاحهما بدا لی مشبوها وبناء على معرفتي بخدع البيضان تأكد لی أنني أمام جاسوسین للعدو یسعیان لجعلنا نضل الطريق وربما من أجل أن نضيع الوقت. فسألته " لكرابر" و"كنته" فأخبرونی أن إدوعیش كانوا يوم 6 عند "اشرم" بین " وارب" و"فورواجه" ومعهم الخيام والقطعان فهم إذن یسیرون ببطء شديد بسبب العراقل من جهة ولأنهم لم یقطعوا الأمل في أن یلتحق بهم من تخلفوا لأخذ بعض ما لديهم من حبوب في المخازن التي لم نهتد إلى مكانها بعد. وأخبرنی أحد أعیان "كنته" نفس اللیلة أن "إدوعیش" لن یصلوا إلا من الغد في وقت متأخر إلى " فورواجه" ولا شك أنهم سیقضون فیها يوم 8 مارس. هذه المعلومات جعلتني أقرر السعي للحاق بأعدائنا بدل انتظارهم كما أن السیر إلى الأمام سیمنح أمانا أكثر للفرقة التي تحتم علی تركها عند " إنتاکش" والتي ستقوم أثناء غیابی بمواصلة البحث عن مخازن الحبوب وتتألف تلك الفرقة من 17 مساعدا من "البولار" حديثي السن ممن لا یستطیعون تحمل مسيرة طويلة جديدة أو من المرضی ومعهم اثنان من "أولاد إبیری" لتأمين الاتصال بیني و بین " دوری" الجمیع بقي في المعسكر المحصن تحت سلطة العریف الجزائري السابق "بن حماده محمد" الذي أعطیته الأوامر التالية:

أن یقوم أولا وقبل كل شيء بتضييق المساحة بأقصى ما یمكن مع تحصینها وتعزيز دفاعات المعسكر.

بأن یحصر من معه داخلها في مركز ضيق حتی عودتي

أن يبحث ويحدد مكان المخازن وأن يسهر على أن لا ينهبها " إدوعيش " الذين يحومون حول المكان

أن يجمع المعلومات عن كل ما يمكن أن يفيد أمنه أو أمني شخصيا.

أن يبقى على اتصال بالبريد اليومي مع " دوري".

وقد وصل هذا الأخير من الغد إلى مشرع " أتويزرزيت" ومعه 180 مسلحا وهكذا أصبحت " تتناكش" موقعا متقدما تتمركز فيه فرقة من 20 من رجالي ويمكن ربط الاتصال يوميا مع الفرقتين الموجودتين على بعد ساعتين من السير بواسطة " الجمالة البيضان" التابعين "لدوري" كان "بن حمود محمد" هو الوحيد الذي يمكن أن أعهد إليه بمثل هذه المهمة وباستثناء العريف الدركي "ريل هك" كان الوحيد الذي يقرأ ويكتب من بين رجالي وقد أعجبتني طريقته في قيادة السكان المحليين في سهل "انتاكش". أخبرت "دوري" إذن بزهابي الوشيك كنت مصمما على اللحاق "بإدوعيش" وأن أدفعهم وإن شاء الله أطردهم خارج "تكانت" ولتحقيق ذلك كان معي 25 من "أولاد إبيري" وهم غير مشهورين بالمهارات القتالية وسبعون من "البولار" كان معي إذن 89 مقاتل فقط أحاول بها بلوغ هدفي وتبدو المغامرة خطيرة بعد وقعة "دركل". ولكن فضلا عن نية الهجوم كنت أعول على أن إدوعيش كانوا مثقلين بأسرهم ومواشيهم كما أنني أدرك أنهم يبتعدون بالفعل لأن الفرق التي كان كبولان يرسلها في جميع الجهات تظهر عددا كبيرا أكثر مما نحن عليه في الواقع كما أوحى لهم ذلك بأننا نتحرك بمناورة لتطويقهم طبقا للخطة المعهودة لديهم أعرف أيضا أن معنوياتهم قد تأثرت كثيرا بالخسائر الجسيمة التي تكبدوها في "دركل" و"البدر" وفي "المشرع": فالظروف لم تكن على ما كانت عليه بالنسبة لهم. ولم تكن أيضا على ما كانت عليه بالنسبة لنا نحن. نحن نسير ليس فقط بهدف الهجوم ولكن أيضا بعزيمة الانتقام لهزيمة "دركل" ونعول على غنيمة كبيرة إذا نحن انتصرنا وأخيرا بالاعتماد على الانتشار الذي يظهرنا أكثر عددا مما نحن عليه في الواقع، فمتى طردنا " إدوعيش" خارج تكانت فلن يغامروا بعدها بالعودة فلا بد إذا أن يكون الانتصار ساحقا ونهائيا. ولن نحصل عليه بالانتظار والتسويق (مفترضين أن "إدوعيش" سيواصلون ابتعادهم حين يروننا مستقرين دون حركة) حتى ولو كنا بذلك نحاول تفادي الخسائر في هذه المرحلة ونؤجل الصدام إلى وقت لاحق قد تكون فيه الظروف أسوأ من الأفضل إذا أن نستجيب لحدس وندقم. انطلقنا إذن عند الزوال أولا لآخذ الماء عند نبع " أنتاكش" على بعد كيلومتر واحد

في جهة الشمال الشرقي من المعسكر ولقيت في عين المكان 23 من "أولاد إعلي" و"أولاد أحمد" يحملون لي مئة وثمانون كلغ من الأرز وناقتين للذبح من عند "دوري" كما أنهم يسوقون 6 ثيران للحمل من أجل نقل " الذرة من المخازن". سألني "سيد أحمد ولد هيبه" إلى أين أنا متوجه؟

-أجبتة " لمهاجمة "إدوعيش" هبل تريد مرافقتي سنلحق بهم حتما"

-أجابني " معاذ الله، الفرنسيون لديهم إذا مقاتلون جيدون يريدون هلاكهم، أنت تسير نحو الموت أنت ورجالك! إن عددكم قليل من أجل مواجهة مقاتلي "بكار" خذ حذرك!"

- " حسنا هل تريد الذهاب معي أم لا؟ "

- " لا والله ! أنا لم اصب بعد بالجنون!"

- " يبدو أنك جبان لقد اتضح لي ذلك وكنت أظنك شجاعا يا ولد هيبه!" وحين رأى رجاله يضحكون ابتعد متذمرا وفي هذه اللحظة قدم رجل " أولاد إيبيري" الذي بقي مع بن "حماده" يحمل لي ورقة من هذا الأخير جاء فيها:

" سيد النقيب الرجل الصغير الذي أرسله لك قد شاهد فارسين وسألاه عن عددنا نحن وعدد فرقتكم أنتم وتوجها ناحية الشرق منذ 10 دقائق إنهما من الذين يأتون بحثا عن الأخبار وهما على فرسين أبيضين ويسيران أمامنا" استجوبت الطفل الذي جاء به رجل " أولاد إيبيري" الفارسان لم يسألاه عن أي شيء، لا عن هدفنا ولا عن نوايانا المحتملة وكلما يعرفانه الآن هو أننا منقسمون إلى فرقتين وأن الجزء الأكبر منا يبتعد عن المعسكر برفقتي من المؤكد إذن أن الطفل قد ضاعف عددنا ثلاث مرات على الأقل وهو خطأ طبيعي بالنسبة لمن لم يتعود رؤية مثل هذه المجموعات من الأشخاص المسلحين تمر أمام خيمته وفضلا عن ذلك يعرف الفارسان أننا قد ذهبنا لأخذ الماء وهذا طبعاً لأننا نريد المسير بعد ذلك مباشرة ولكن إلا أين؟ من المحتمل أنه بمجرد قدوم هذين الفارسين إلى معسكر "إدوعيش" سينطلق آخرون لمراقبة " أنتاكش" لا بد إذن من السير بسرعة وعلى آثار الفارسين ما دامت واضحة على السهل وهذا من اليسير لقد توجهنا عدوا في البداية ناحية الجنوب بمحاذاة الحاجز الصخري الشرقي حتى وصلا عينا أخذنا منها الماء ثم صعدا المنحدر الصخري ومن هنا أصبح الدرب وعرا وأخبرني الأدلاء أنهما يسيران باتجاه "اشرم" في ناحية الشرق وكان معي ثلاثة أدلاء واحد من " كنته" وواحد من " لكرير" والثالث من "إدوعلي" وكل منهم يراقب الآخر ولكنهم يشتركون في خوفهم

الشديد من " إدوعيش " فمنذ انطلقنا وهم يصدعون أذني بأنهم لا يعرفون المنطقة من ما بعد " فورواجه " ومن حسن الحظ أن " بوبلير " هو الذي يقتفي آثار الفارسين وقد عثر عليها فوق قمة الجبل على طرف سهل هابط في انحدار نحو حقول الذرة الواسعة التي تتوزع فيها بعض أشجار "الدوم الكبيرة"، إنه سهل اشرم ". وعند الساعة الخامسة مساء عثرنا في عين المكان على مخيم صغير من خيمتين أو ثلاث من " إدوعلی " كان "إدوعيش" قد نهبوا ما عندهم منذ وقت قليل أثناء تراجعهم وهنا أخبرونا أن الفارسين اللذين نقتفي آثارهما قد عبرا من هنا بعد الزوال متوجهين إلى " فورواجه " على بعد مسيرة خمس ساعات وأثناء مرورهما لم يكن الفارسان متأكدين من وجهتنا فقد أخبرا المخيم أن ثلاث فرق تسير باتجاه "إدوعيش" إحداها قادمة من " كصر البركه " بقيادة "كبولاني" شخصيا والأخرى قادمة من " البدر " (فرقة دوري) وأخيرا فرقتي أنا. ومن الصحيح أن هذه الفرق الثلاثة تسير في الطريق بالفعل فقد رأينا حركة "دوري" وكذلك حركة فرقتي أما "كبولاني" فمتوجه بفرقة الجزائريين والخيالة المرافقين من " كصر البركه " إلى مشرع "أتوجرجيت". فقد تمكن فارسا "إدوعيش" من رصد حركة الفرق الثلاثة ولكنهما أخطأ في تحديد وجهة كل واحدة منها خشية لما قد يحدث أنذرا جماعة " حراطين إدوعيش " المنتشرين بأعداد كبيرة في "أشرم" بضرورة الرحيل على الفور للانضمام إلى أسيادهم عند " فورواجه ". أدلاني الثلاثة مجتمعين لا يصلح منهم دليل واحد فاستعضت عنهم بدليل من مخيم " إدوعلی " وهو " حرطان " أخبرني سيده أنه يعرف المنطقة تماما فاستجوبته وأخبرني أن مخيم " إدوعيش " لم يغادر " فورواجه " حتى الآن وأن الطريق في هذه المنطقة وعر جدا لدرجة أن مثل هذا المخيم لا يمكن أن ينطلق قبل طلوع النهار ويجب أن لا ننسى ما يجره أعداؤنا من أثقال وأنا أعرف تقاليد "البيضان" وما يحيط انتقال القبيلة من مكان لآخر من تحضيرات وإجراءات كثيرة تبدأ في غير الحالات الاستثنائية والضرورة القصوى عند طلوع الشمس ولا بد من انتظار الحليب وهو ما يؤخر الرحيل كثيرا حيث يشربون الحليب فورا ويتركون كمية قليلة لصنع الدهن واستخدام اللبن الآخر ويحملون هذا الجزء في قرب مناسبة. يبدأ بعد ذلك إسقاط الخيام ويكون بسرعة ثم يتم طي الخيمة على شكل اسطوانتين بينهما مسافة محددة (والخيمة من وبر الضأن الأسود). ثم يتم إدخال العمودين الكبيرين في كل واحدة من الاسطوانتين وتهياً الجمال الضرورية وتجعل فوقها الأثقال على هذا خيمة تتدلى الأسطوانتان من جانبيه وعلى ذلك حزم من الأمتعة وعلى هذا

الآخر أكياس الذرة أما الحمير فتخصص للأمتعة الخفيفة ثم تتركب النساء: البيضوات داخل "الجحفة" التي تماثل الهودج أو "الباسان" الجزائري أما الإماء والبيضوات من فئة المساكين فتركب فوق الخيام لتحافظ على التوازن وقد يركب بعضهن الثيران أو الحمير. ينطلق العبيد في المقدمة خلف القطعان تحت حراسة الرجال المسلحين يركبون الخيل³⁰² عادة ويكون مع هذا الفريق حراس ففي حالة عدم الرقابة المحكمة يتراخي العبيد وتتبعثر القطعان أثناء الطريق بحثا عن المرعى وهو ما يزيد من حجم القافلة ويطء سيرها. ولحظات بعد انطلاق آخر القطعان يتحرك المخيم ويكون الرؤساء في المقدمة على الخيل أو الجمال يتجاذبون أطراف الحديث أثناء الطريق وبالتالي لا يهتمون بحث القافلة على السير بسرعة أما الشباب فيبدؤون العدو بخيولهم يوقفونها أثناء سير الهودج لمغازلة النساء ثم يعودون إلى أمكنتهم والخيول تعدو في سباق أو في رقصة احتفالية وإذا كانوا على ظهور الجمال يفعلون نفس الشيء إلا أنهم فوق الخيل يلقطون المنديل الساقط على الأرض مثلا ويعودون فوق السرج ويطلقون بنادقهم إلى الخلف أما فوق الجمل فيقفزون إلى الأرض ويعودون فوق الراحلة كل ذلك بصفة استعراضية تظهر مهاراتهم لنيل إعجاب النساء المتفرجات من فوق الهودج. ويسير أغلب الرجال معلقين بنادقهم على الراحلة أو متمنطقين بها ولكن أثناء عدو الدابة يمسك الواحد بندقيته بيده ويرفعها بمحاذاة رأسه أما على الفرس فكثيرا ما يثبت المقبض على جنبه. وتسير حيوانات الأمتعة خلف القادة وتكون هودج النساء في المقدمة ومن حول هذه الفرقة حراس مثل حراس القطعان فكثيرا ما تسقط الأحمال خاصة من فوق الثيران الكثيرة في هذه القوافل خاصة عندما يكون المخيم ينتقل من مكان لآخر فلا بد من مرافق على الأقل لكل ثلاث حيوانات محملة بالأمتعة كل هذه الأحمال التي تسقط وتعاد على ظهور الحيوانات وهذه الحيوانات التي تبرك ويلزم رفعها أو تعويضها بغيرها تزيد من حجم وثقل القافلة ولكن من هم في المقدمة لا ينتظرون أبدا من يتخلفون في المؤخرة فيلحق المتخلفون بالركب إن استطاعوا ذلك وهكذا نرى من هذا الخليط أن "البيضان" المتقلين بما يجرونه خلفهم من أثقال وعراقيل

³⁰² - لا يصح هذا إلا في المناطق ذات المناخ السوداني في جنوب موريتانيا فكلما توغلنا إلى الشمال أصبح المسلحون يركبون الجمال ومن جانب آخر يبدو أن الفترة التي زار فيها "أفيريجان" هذه المناطق كانت الخيول فيها أكثر مما هي عليه اليوم فقد ذكر العقيد "كوسبي" الذي خدم في موريتانيا عشر سنوات بعد "أفيريجان" أن شيوخ القبائل كانوا يعتنون بخيولهم بمصاريف كبيرة في بعض قبائل "تكانت" وفي حالة انعدام الماء يسقونها لبن الإبل وكانت هذه الخيول من مظاهر الترف والأبهة ويمكن أن ترجح الكفة أثناء المعركة في هجوم سريع ولكن لا بد أن يكون محدودا ونذكر أن الجمل وحده يستطيع الصمود في المناطق الصحراوية مع أنه يسقط ميتا في المناطق الرطبة .

يقضون وقتا طويلا من أجل الحركة ولا يقطعون إلا مراحل قصيرة. فإذا لم ألحق "إدوعيش" عند "أفرواجه" فأغلب الظن أنني سألحق بهم أثناء الطريق بعد ذلك وأهاجمهم في ظروف مناسبة. إلا أنه من المستحسن، كلما أمكن ذلك أن أباغتهم مع طلوع النهار أو أفاجتهم أثناء النوم أو أثناء تحضيرات الرحيل وفي أسوأ الاحتمالات حتى ولو كان الفارسان قد أنذرا العدو في وقت مبكر يسمح له بتعجيل رحيله فقد كنت متأكدا على الأقل أنني إذا انطلقت بهدف المباغته في الصباح الباكر، فلا بد من أن ألحق بهم أثناء السير متبعثرين في الفضاء وأهاجمهم من موقع قوة في الصباح الباكر.

اتخذت إذن احتياطاتي من أجل هجوم مباغت أثناء الاستيقاظ صباحا ومع حلول الليل عسكرت وسط ركام من الصخور الضخمة يمكن لرجالي وحيواناتي أن تختفي خلفها وفي نفس الوقت أرسلت مع دليلنا المقبل "حرطان" "إدوعلي" دورية من "أولاد إيبيري" للتأكد من خلو الضواحي المجاورة لنا من "حراطين إدوعيش" ولم تصادف الدورية ما يثير الشبهة. أخبرت "أولاد إيبيري" أننا سننام لغاية منتصف الليل وبعد ذلك سنتوجه إلى "أفرواجه" لنهاجم "إدوعيش" مع طلوع الصباح وهم نازلون في منبسط صخري ضيق حسب ما أخبرني به الدليل فلم يبد أي واحد من "البيضان" أية ملاحظة ثم أخذنا للنوم حالمين بتحقيق انتصار سهل. وعند منتصف الليل أيقظت كافة رجالي دون ضوضاء وكنت قد حملت الأمتعة فوق ثلاثة جمال وأسرجت الخيول وفي ذلك الحين أخبرني "أولاد إيبيري" أنهم لا يستطيعون السير ليلا، أمن الكسل أمن الجبن؟ والجبن أمر طبيعي لدى الزوايا المسلحين ولكن عرفت أن الأمر كان من تدبير "بوبر سيره" وهو بالتأكيد من الجبناء.

وحدهما "بولبير" و "المختار ولد داداه" لم يطلبوا إلا المسير ولكن يبدو أن "أولاد إيبيري" الآخرين وعلى رأسهم المدعو "الهريم" قد أقنعوا أدلاء "أنتاكش" وأثروا على الدليل الجديد لدرجة أنه اختفى نهائيا فلم نعثر عليه.

كنت أغلي غضبا وأزبد فستفوتني الفرصة بسبب هؤلاء المقاتلين بالصدفة الزوايا المسلحين هذا الخليط الذي جمعه لي عند "دار البركه" لم يكن مثل هذه المحنة ليقع لي لو كنت مع مقاتلين حقيقيين؟ ولكن ما الفائدة من إثارة الخصومة فإذا كانت هذه الفرصة قد فاتتني فيمكن أن ألحق بإدوعيش أثناء المسير ولدينا الماء وقد أكلنا كثيرا يوم أمس وليلة البارحة... ومع طلوع الشمس عثرت على "الحرطان" الدليل قاطعا العزم على أن لا يفارقني طيلة اليوم

وانطلقنا فور انتهاء التحضيرات، رجل "إدوعي" القادم من "أنتاكش" كان قد أعطى خبرا كاذبا فالطريق ليس وعرا وإنما كان سهلا منبسطا ومكشوبا وأفضل بكثير من طريقنا بالأمس فأطلقت العنان لغضبي المكبوت وصرخت في وجه جماعة " أولاد إيبيري " الخائفين من المسير ليلا وشبهتهم بالنساء ولحسن الحظ أن " بوبلير " و"المختار ولد داداه" كانا يحثان السير في المقدمة على الدرب الواضح على الأرض أمامهما. وبعد أربع ساعات من السير دخلنا " منبسط أفرواجه" تغطيه حقول الذرة و" فوندي" وهو نوع من اليقطين أوقفنا في هذا المكان قافلة صغيرة من إدوعي" أخبرتني أن مخيمات "إدوعيش" قد انطلقت قبل قليل وتوجد على بعد مرحلتين من موقعنا. وعند الساعة العاشرة عثرنا على قافلة من "كنته" داخل معبر تغطيه الأشجار أخبرونا أنهم التقوا "إدوعيش" فأخذت القافلتين رهينتين معي لمنعهما من إشاعة خبرنا وقد زعمت قافلة "إدوعي" أن " إدوعيش" متوجهون إلى الجنوب نحو " كرجام" وعرضوا علينا المرافقة إلى هناك ولكنني قبل ذلك كنت أريد النظر إلى الموقع الذي ذهبوا منه لأحدد حجمهم واقتفي آثارهم من عين المكان فذلك أفضل عندي من أمهر الأدلاء. كان " إدوعيش" قد عسكروا على منبسط صخري مستدير وما زالت بقايا النيران تلمع تحت الرماد. وكانت جماعة "كنته" قد أخبرتني أن الجمال والثيران قد انطلقت أولا في الصباح الباكر في حين انطلقت قطعان الضأن برفقة الفرسان من " أولاد طلحه" عند الساعة الثامنة وهذا يوحي بعدم السرعة أثناء الانطلاق ففارسا " أنتاكش" لم يخبرا إذن عن وجهتنا فاستعدت ثقتي وهدوئي. ولا بد أن المخيم كان ضخما فالخيام تغطي كل مساحة المنبسط وهي متقاربة كما هو واضح الآن من آثارها الواضحة على الأرض مع أن عرض المنبسط يبلغ 1 كلم يتعلق الأمر إذن بقافلة ضخمة سيكون " إدوعيش" لقمة من الصعب ابتلاعها أما "إدوعي" فقد خدعونا بمحاولتهم توجيهنا نحو " كرجام" لأن القطعان كانت قد توجهت على طريق الجنوب والجنوب الشرقي.

بعد هذه الملاحظات انطلقت إلى الأمام على الدرب الواسع على آثار "إدوعيش" وعند الزوال اشار "بوبلير" إلى فارسين على حصانين أبيضين قدامان لملاقاتنا إنهما فارسا " أنتاكش" وبمجرد رؤية مقدمتنا عادا أدراجهما مسرعين فأرسلت "المختار ولد داداه" خلفهما ومعه 10 من "أولاد إيبيري" وتابعت المسير وخلفي بقية الجمالة لأستخدمهم عند الحاجة وبعد نصف ساعة أخذنا امرأة بيضاء من "أولاد طلحة" تخلفت بسبب المرض فجعلتها فوق أحد الجمال

وسألتها فأكدت لي المعلومات التي حصلت عليها من جماعة " كنته" الذين أوقفتم هذا الصباح. لم نعد بعيدين إذن من " إدوعيش" دفعت كل من معي من "البيضان" إلى المقدمة على آثارهم مؤكدا لهم ضرورة دعم "المختار ولد داداه" وسرت خلفهم مع فرقة "البولار" وبعد ساعة ونصف بع الزوال اكتشفنا عناصر " إدوعيش" جاثمة فوق المرتفعات الصخرية وهم يصرخون صرخات الإنذار فأسرعت بالهجوم في هذا الاتجاه ففرقت مجموعة أولاد طلحه واستوليت بسرعة على 500 رأس من الضأن بعد أن فر رعاتها وهم يطلقون النار علينا وفي جانبنا اليساري من ناحية المقدمة اندلع إطلاق نار مكثف إنه "المختار ولد داداه" في معركة مع "إدوعيش" وكانت الغابة ذات الأشجار القصيرة والكثيفة تمنعنا من رؤية ما يجري في هذه الناحية ولم نرى أحدا أمامنا فسرت في اتجاه الطلقات النارية وأنا أسوق الغنائم. وعاد "البيضان" ومعهم الغنائم المأخوذة من المعركة التي ما زالت جارية بقيادة المختار ولد داداه " وبوبلير" وعشرة من رجالهما وعند الساعة الرابعة ابتعدت أصوات الطلقات النارية شيئا فشيئا فبعد أن تأكد العدو بأن حفنة "البيضان" من خلفها تعزيزات، قرر التراجع منسحبا فالتحقت "بالمختار ولد داداه" صحبة جميع رجالي وفي هذه اللحظة كان عدد غنائمي أكثر من 10 آلاف من الضأن و100 من الجمال ومثل ذلك من الحمير والثيران هذا رائع لحد الآن وهو أفضل بالنسبة لنا فضلا عن ذلك قدم "المختار ولد داداه" بعشرة قرب من الماء البارد لمشائنا العطاش والمنهكين وجاء معه أيضا بعدة بنادق استولى عليها من العدو وشيئا فشيئا تذكرت بحسرة اللكمة التي سددها له في بوتلميت... وبعد إعادة نظام غنائمنا لا بد من التفكير في طريقة لحفظها أثناء الليل الوشيك. أخبرني "الحرطاني" الدليل أنه سيقودني إلى نبع الماء المجاور عند عين "تتشيبه" حيث يوجد ما يكفي لشراب رجالنا فانطلقت في المقدمة مع " البولار" لتهيئة موقع المعسكر وتركت الغنائم تحت حراسة "البيضان" تساعدهم فرقة مختارة يقودها " مجيكان". وعند الساعة الخامسة والنصف وصلت عبر ممر صخري وعر إلى واد عميق نسبيا يشبه الشق وسط الصخور يهبط شيئا فشيئا نحو ساحة منبسطة وجانبه المعاكس وعر جدا لا يمكن للقطعان أن تمر منه وكلما يمكن هو تجميعها داخل المعبر الذي يجري في وسطه نبع ماء يبقى أن نجد قرب هذا الماء مكانا يكفي لنتركز فيه بصفة نهائية. كانت الشمس تسير نحو المغرب معلنة نهاية النهار فجلت ببصري في الأفق وقررت الاستقرار فوق سهل صغير يطل من الغرب على المنبسط والمشرب وعلى حافتي الوادي في شكل وادي

متموج عرضه 50 متر يفصل بين السهل والهضبة ويشكل هذا الوادي المتموج غورا يهبط في انحدار متدرج نحو نبع الماء.

أصبح الوقت يضايقنا، تركت الخيول ومرافقيها داخل المعبر وتسلفت الصخور مع رجالي من أجل التمرکز على الموقع المختار وأثناء عملية الصعود الشاقة التقيت أحد "البيضان" يجري بسرعة ويده لوح من الخشب عليه الكتابة³⁰³ ألقى علي التحية العسكرية وأخبرني أنه زاوي من "مسومه" وطلب مني إذن الهبوط لأخذ الماء ولم يكن لدي الوقت لاستجوابه مع أنه أثار مخاوفي وفي نفس الوقت اندلع إطلاق نار كثيف في الخلف حيث توجد القطعان تحاول الدخول في المضيق فقد تعرضت مؤخرة القافلة لهجوم مباغت من فرسان "إدوعيش" القادمين من الجنوب الغربي. فأبعدهم "مجيكان" بسرعة مستخدماً فرقته التي كان يحكم تنظيمها ولكن "أولاد إيبيري" وغيرهم من المسلحين المنتشرين دون نظام تعرضوا للهجوم عن قرب واستطاع المهاجمون أن يحيطوا "ببولير" ومن معه قبل أن يتوائبوا وينبطحوا أرضاً ويبدووا إطلاق النار واستطاع "بولير" ورفيقاه الخروج دون ضرر والالتحاق "بمجيكان" الذي كان يبعد العدو في صمته المعهود حيث كان يمنع رجاله من إطلاق النار إلا عند إشارة منه. وعند سماع طلقات النار الأولى تمكنت من رؤية القطعان وهي تدخل المضيق يدفعها من حولنا إلى رعاة فأسرعت بتسلق المضيق للسيطرة على الهضبة التي أنوي التمرکز فوقها عبرت الصخور من خلف دورية المقدمة وفجأة انطلق الرصاص من خلف الكتل الصخرية المحيطة بنا عن قرب وحدث إطلاق نار مصم للأذان. كان من حولي كل من الرقيب الدركي "رايل هاك" والعريف المساعد "بوكار وادو" ومجموع فرقنا الخمسة بضع وستون مقاتل صمدوا في وجه الزويرة رغم كثافة إطلاق النار الصادر عن العدو والذي كان لحسن الحظ غير موجه بدقة لأن مقاتلي "إدوعيش" القريبين من فرقة "البولار" كانوا يحتمون خلف الصخور ويكتفون بتصويب البنادق دون توجيه دقيق ويتركونها تفرغ ما فيها من قذائف ومع ذلك كان هذا الصخب الناجم عن فرقعات البنادق المحشوة بالرصاص يثير حماس جماعة الأطفال المرافقة لي والتي ترى إطلاق النار عن قرب لأول مرة.

³⁰³ - على هذه الألواح يكتب الزوايا سور القرآن ليدرسها تلاميذهم أو يحفظوها عن ظهر قلب

عراقة الأصل لا تكذب، فشاباب "البولار" الشجعان منذ الأصل قد صمدوا ببراعة أثناء الهجوم وبيضة طلقات نارية محكمة التوجيه بدأ إخلاء الساحة وبعد ضجة دامت خمس دقائق لم يكن أحد يسمح شيئاً أثناءها ولا يراه بسبب سحب الدخان السوداء، هاهم " إدوعيش" يتراجعون. وما أن ضعف إطلاق نارهم حتى صرخت بقوة طالبا من الفرقتين المجاورتين توجيه دفعتين أو ثلاث من إطلاق النار الكثيف لتنظيف السهل. فكان العدو المدحور يجتاز الوادي تحت وابل من إطلاق نارنا بين السهل والهضبة فتمركزت على الفور فوق جميع جوانب الهضبة وأصبحنا نسيطر على الكتل الصخرية التي كان " إدوعيش" قبل قليل مختبئين خلفها. وما كدت أصل قمة الطرف المقابل للوادي حتى قدمت إلى " إدوعيش" تعزيزات كثيرة كنا نراها قادمة وأفرادها يهونون إلى الأرض زاحفين تحت الأشجار وعلى الفور استقبلنا وابل من إطلاق النار ولكن سرعة ردنا أثرت على العدو فلم يحكم توجيه إطلاق النار وأصبح الرصاص يمر على ارتفاع شاهق وكانت أغصان الأشجار تتساقط وقد قضمها الرصاص لم نتكبد في ذلك الوقت إلا جريحا واحدا هو مساعدي الذي أصيب في مؤخرة الرقبة ولكن إطلاق النار الكثيف تواصل ولم أكن أخشى ضررا كبيرا على رجالي الذين يطلقون النار منبطحين خلف الكتل الصخرية إلا أن معنوياتهم لا بد أنها أخذت في الهبوط إذا لم أقم على الفور بهجوم حاسم أكسر به شوكة العدو. وعندها جعلت مواقع " إدوعيش" هدفا لإطلاق نار كثيف متواصل وهكذا أرسلت أمواجا من الرصاص على علو منخفض على وجه الأرض وهو تصويب فعال خاصة إذا كان من بعد خمسين مترا فأثر ذلك على " إدوعيش" وتوقفوا عن إطلاق النار واختفوا داخل الأشجار وهم يطلقون الرصاص من حين لآخر. لقد انتهت المعركة الكبرى بعد أن دامت ثلاثين دقيقة لاحظت أفرادا من "إدوعيش" منبطحين على الوادي ولا أظنهم قتلى وإنما يتظاهرون بذلك لخداعنا حتى يتمكنوا من إطلاق النار عن قرب على أهدافهم وبوجه خاص لاحظت رجل منهم فوق رأسه " شاشية" لا شك أنه أخذها من أحد قتلى " دركل" وقد كمن وسط السهل بين صفوفنا فيما يشبه الكهف حيث كان في أوج المعركة يطلق الرصاص في اتجاه الرقيب الدركي ويستهدفني أنا كذلك لدرجة أنه حطم مقبض بندقيتي في يدي اليمنى وحكت إحدى رصاصاته على صدري وحطمت جزءا من ميداليتي وهكذا كاد أن يقتلني وعندها أعجبتني رباطة جأش " الملازم الدركي " رايل هاك" وهو يشير لي بعصاه في اتجاه الصخرة التي قدمت منها الرصاصات ويقول في هدوء

" اعتقد سيدي النقيب أن هناك من يطلق علينا النار " أجبتة هل تعتقد ذلك وأنا أفكر في أن ضابط الصف الشجاع يرى إطلاق النار لأول مرة وكذلك أفراد فرقته. قدم " مجيكان " ومن معه من الزوج صحبة بعض رجالنا من "البيطان" وسد الوادي الذي كان أفراد العدو ينتشرون فيه متظاهرين بالموت وكانت الغنائم تدخل المضيق منذ بعض الوقت يجمعها ويحرسها نصف فرقة "أولاد إبيري" فقام " مجيكان " بإخلاء الوادي من جميع من حاولوا نصب كمين في المنطقة ثم صعد الوادي فطوقت له الصخرة التي يختفي خلفها رجل " إدوعيش " صاحب "الشاشية" فاكتشفه على الفور " مودي أحمد " من فرقة "البولار" في اللحظة التي كان فيها يستعد لتوجيه الرصاص إلى واحد آخر من "البولار" فقفز الشجاع "مودي" ممسكا بفوهة البندقية فتلقى الرصاصة تحت إبطه الأيمن فتمزقت ثيابه واشتعلت وأصابته الرصاصة في الذقن ومع أنها أسقطت لحمه ذقنه وكان ينزف دما فقد انتزع سلاح رجل " إدوعيش " وحاول ضربه بمقبض بندقيته إلا أن رجل " إدوعيش " رغم محاصرته استطاع بقفزة كبيرة التملص مبتعدا داخل الوادي تحت وابل من إطلاق النار فصادفه " مختار ولد داداه " صحبة "مجيكان" فكسر ذراعه فتمكنت من إصابته برصاصة من بندقية أحد رجالي. وحين رآه عبيد " إدوعيش " السجناء لدينا خاطبوني قائلين هذا مقاتل شجاع يسمى "ولد وراذ" رحمه الله.

فكانت الساعة تقارب السادسة والنصف مع حلول الليل وقد أكملنا السيطرة على السهل ولكني مع ذلك أقيمت على الجهة الأمامية وعلى جهة اليمين حاجزا من الصخور الضخمة الجافة جعلت الفرق خلف هذا المتراس ونمنا في مواقع القتال وأسلحتنا مهيأة وفي مقدمة كل فرقة يوجد حارس على بعد 50 مترا ولدى كل واحد أمر عند حدوث أي هجوم للوقوف في صمت وانتظار إشارة القيادة لإطلاق النار في الجهة المقابلة أمامه. وفي الظلام الدامس نزل رجلان من كل فرقة وسط القطعان ليختارا كبشين سمينين ويقوما بإعداد وجبة لحم قوية لرفقتهما ليتناولوها بين نوبتين من النوم عند منتصف الليل فجماعتي من "البولار" لم تتناول أي طعام طيلة يوم 8 مارس لقد حان الوقت لإطعامهم. وخلافا لما توقعته كانت الليلة هادئة وشاهدنا على بعد في جهة الجنوب الشرقي ضوء نيران كبيرة يتراءى عن بعد ونظنها مواقع مخيمات " إدوعيش " أخبرني الأدلاء أنها عند "عين فوك" خارج تكانت في تخوم "أركيبه" وبما أنني لم اذق النوم فقد كنت أتوقع هجوما أثناء الليل وعند الساعة العاشرة اختفت أضواء النيران فأرسلت في ذلك الاتجاه دوريات من "أولاد إبيري" وأمرتهم بأن يتكلموا بصوت مرتفع وهم

يتحدثون عن أعدادنا بأرقام مبالغ فيها وأن يذكروا تحركات خيالية قادمة من بقية البعثة فأنا متأكد أن أفراد العدو يحومون حولنا داخل الغابة وستصل مسامعهم هذه الأحاديث وبذلك وحده أفسر تدهور معنويات العدو بالإضافة إلى ما لحق به من خسائر وسنعرف بعد ذلك أن العدو طيلة تلك الليلة بات زاحفا في جموعه يعبر وادي " فوك " العميق من أجل الابتعاد بأقصى السرعة خارج تكانت. كانت قرب الماء مملوءة بالماء الزلال عند ساعات الصباح الأولى ومع طلوع الشمس قدمت لرجالي وجبة أخرى من اللحم المشوي بهذه الوضعية يمكننا عند الحاجة أن نستأنف القتال. أكدت الدوريات التي أرسلتها في الصباح الباكر خلو المنطقة من العدو ولكننا لم نتمكن من الانطلاق بسرعة لأن من معنا من المواطنين الناخبين³⁰⁴ أصحاب الجمال ضمن القافلة قد فضلوا النوم ملء جفونهم وتأخر المسير بسببهم فلم أنطلق إلا عند الساعة السابعة سلك بنا الحرطاني الدليل أحد ممرات الوحوش الوعرة عبر غابة كثيفة فكنا نتكفل من أجل الخروج من الدغل عبر سهل " لحصيره " متجهين نحو الشمال الغربي وكنا نسير في شكل مربع يحيط بالغنائم التي هي البرهان المادي على الانتصار والذي لا يمكن أن أتخلى عنه باي ثمن خاصة وأن نقص المون الغذائية على مستوى البعثة يجعل قدوم هذه المواشي فرصة لا تعوض بالنسبة لكبولاني.

وكان المربع المحيط بالمواشي متشكلا على النحو التالي: في الواجهة الأمامية فرقة بسيطة من البيضان على الجمال من أقلهم شجاعة وفائدة وفي ناحية اليمين الرقيب الدركي " رايل هاك " و " بوكار وادو " مع ثلاثة وعشرين من أصحاب البنادق وعلى الجانب اليساري الزعيم مجيكان و 18 من "البولار " وأخيرا فرقة المؤخرة حيث أوجد أنا مع 18 من الزنوج و 12 من " أولاد إيبيري " ومعنا "المختار ولد داداه " و"بويلير " وفي وسط المربع تسير المواشي والأمتعة والجماعات غير المقاتلة (إدو علي، كنته، وسجناء إدوعيش) يسوقون القطعان ويجمعونها كتلة واحدة ما أمكنهم ذلك. يوجد أمر صارم: أي حيوان يبقى في المؤخرة يجب قتله بالحرب بحيث لا يبقى أي حيوان على قيد الحياة يمكن أن يقع في أيدي أفراد العدو المتربصين خلفنا. واصلنا السير هكذا طيلة ساعة دون أي عائق ولا حادث وعند الساعة الثامنة والنصف كنا

³⁰⁴ - " المواطنون الناخبون " سكان البلديات السنغالية الأربعة (كوري ، داكار ، رفسك ، وسين لوي) يعتبرون بالفعل مواطنين فرنسيين وبالتالي يتمتعون بحق التصويت لانتخاب النواب كغيرهم من سكان فرنسا ولذا يحظون بنوع من العناية ويتلقون وعودا انتخابية ومن أكثرها غرابة الوعد الانتخابي الذي أقيمت بموجبه اسوار مضمار ترويض الخيول في سين لوي هدية من المترشحين إلى ناخبهم (استشهاد من العقيد جورج كوسبي.)

نخرج من غابة صغيرة فرفعت الحيوانات رؤوسها وضمت آذانها وعلى الفور تلقت فرقة المؤخرة حيث أوجد وابلا من طلقات النار قادمة من المواقع التي مررنا بها للتو فاستدرت إلى الخلف وأطلقت وابلين من الرصاص ثم تابعت المسير وبعد أن أصبحت في مكان أرى منه العدو قدرت أعدادهم بنحو 300 فارس أصبحوا قريبين منا وكان بجانب واحد من "أولاد إيبيري" مجروح في الساق وكنت أنا أيضا مصابا في أصبعي الوسطى اليمنى والطلقات تصفر وفق رؤوسنا عرفت من صوتها طراز الرصاص ونوع البنادق ذات الطلقات السريعة الموجودة لدى فرسان "إدوعيش" فمعنى ذلك أننا نواجه نخبة ارستقراطية القبيلة ولكي أبعدهم أعدت إطلاق النار مرتين في اتجاه الخلف يبدو أن الأمير بكار قد أرسل فرسانه بهدف الاستيلاء على الغنائم من جهة ومن جهة أخرى لكي يشاغلنا حتى يبتعد بمن معه من المخيمات ومن الطبيعي أن يختار لهذه المهمة أفضل المسلحين وأشجعهم من بين رجاله كان فرسان. " إدوعيش" يسيرون بخيولهم بطريقة لا تخلو من مهارة محتمين بالأشجار لأنهم يحرصون على الخيول وفي بعض المراحل شاهدنا طرفا منهم وكلما خرجوا من منخفض وشاهدناهم نجدد إطلاق النار باتجاههم وبعد ساعة من هذه المراوغة تمكنت فرقة "أولاد إيبيري" من مضايقتهم بوابل من إطلاق النار فغيروا خطة تقدمهم وبدؤوا يتراجعون نحو مؤخرتهم. لقد صمد أفراد "البولار" من الفرقة المرافقة لي تحت إطلاق النار دون أن يتأثروا بكثافته أما مختار ولد داداه فأنا شديد الندم على اللكمة التي وجهتها له في أبي تلميت فقد صمد هو ورجاله ببراعة أثناء المعركة. أصبحنا الآن في هدوء ويمكن أن نعتبر أن "إدوعيش" قد قنطوا من استرجاع قطعانهم ولم يكن ذلك صحيحا فعند الساعة 10 تلقى الجانب الأيمن من المربع وهو المحاذي لخط الصخور طلقات نارية من وراء الكتل الصخرية وكان الرقيب الدركي " رايل هاك" المصاب بالحمى قد ترك مكانه لحظة ليشرب لدى خادمه وفي غيابه واجه الرقيب المساعد " بوكر وادو" الهجوم بطلقات نارية سريعة وأنطلق برجاله رافعين الحراب في اتجاه العدو في قفزة على مسافة 50 مترا لم يتمكن الرقيب الدركي بعد عودته من الوصول في وقت يمكنه من الاعتراض عليها وحين شاهدت ذلك اندفعت إلى الأمام في ناحية اليمين بفرقة المؤخرة لأدعم فرقة " بوكار وادو" وأمام هذا العدد من البنادق المتراسة وإطلاق النار الكثيف خرج فرسان إدوعيش من وراء الصخور وقفزوا على السروج مبتعدين عدوا بخيولهم وطلقات بنادقنا تطاردتهم. وابتداء من الساعة العاشرة والنصف توقف العدو تماما عن إطلاق النار فهل أخذ

منه التعب أم نفذت ذخيرته؟ هل لديهم أوامر بذلك؟ ومع ذلك ما يزال الفرسان يتبعوننا ولكن من بعيد. ففي حدود الساعة الثانية بعد الزوال، وبما أننا وصلنا مدخل "فورواجه" كنا نجتاز مرتفعا صخريا وعرا يحيط بالمنبسط الذي كان "إدوعيش" يتمركزون فيه بالأمس وحينها أشارت طلائع فرقة "البيضان" التي كانت قد صعدت فوق المرتفع إلى أن العدد الكبير من فرسان العدو الذين كنا نراهم داخل الأشجار قد بدؤوا يتحركون فجعلت فوق المرتفع المذكور فرقة "مجيكان" وعددها 18 بعد أن اشرف على مرور آخر المواشي وانسحب بعد ذلك علنا وفي هذه الأثناء جعلت فرقة المؤخرة في مهبط المنحدر قبالة العدو فاندفع الفرسان بسرعة طائنين أنهم يمكن أن يتكثروا خارج الغابة معتبرين أننا قد خرجنا منها تماما وهنا وقعوا في الفخ حيث كنت قد عينت كتلة أشجار على بعد 400 متر وما كادوا يخرجون من مواقعهم حتى تلقتهم موجتان من الرصاص فعادوا أدراجهم مسرعين هذه المرة بصفة نهائية فلم يحاولوا حتى إطلاق رصاصة واحدة واختفوا وبعد ثلاثة أرباع الساعة سمعت وأنا في مقدمة المربع طلقات نارية جديدة ففكرت في هجوم شيطاني من "إدوعيش" ولكن إطلاق النار توقف فجأة. وبعد ذلك بلحظات جاءني "مجيكان" يقود عدة رجال من قادة "تجكانت" من أسرة الشيخ الكبير "العبقري" يقولون إنهم في مهمة إلى كبولاني: من أجل تفكيك كتلة "إدوعيش" يقولون إنهم كانوا يحاولون إقناع "اشراتيت" بالانفصال وهم أحد الفرعين الكبيرين في القبيلة. اصطحبت رجال "تجكانت" معي أقاموا معنا داخل زريبة منيعة في الطرف الشمالي من وادي "أفرواجه" فمن غير المناسب تركهم يذهبون ليتحدثوا عن ما نقوم به وعن المكان الذي سأقضي فيه الليل أكدوا لي ووافقهم في ذلك جميع من يسوقون القطعان، أن "إدوعيش" سيعاودون مهاجمتنا أثناء الليل ولهذا السبب عززت التحصينات واتخذت جميع الاحتياطات لمواجهة أي هجوم قد يحصل على طريقة الطوارق. قال لي أحد أفراد تجكانت وأنا أودعهم صباح يوم 10 مارس: "إدوعيش" أبناء عمومة الطوارق فمن عادتهم الهجوم ليلا ويحدث ذلك عندما يذهب أحد بقطعانهم كما تفعل أنت الآن فلا بد أنك قتلت كثيرا من رجالهم وإلا لكانوا حاصروك هذه الليلة، إنك محظوظ، إن الله يحمي الفرنسيين" لم اسرح الأدلاء ولا الفرسان الذين احتجزناهم يوم 8 مارس فأنا بحاجة إليهم ليسوقوا الغنائم المتعبة بعد يومين من المسير... عند "انتاكش" وجدت رجال "أولاد أحمد" يحملون بريدا من كبولاني يطلب أخباري فكتبت له الرد بقلم الرصاص.

وبالجملة كانت نتائج وقعة "تنشيبه" جيدة فبالإضافة إلى الخسائر الضخمة من القطعان التي تكبدها "إدوعيش" فقد فقدوا الكثير من محاربيهم قيل أن من بينهم 11 من القادة هذا بغض النظر عن الرجال العاديين خاصة من "الحراطين" وإلى هذا يرجع عدم حماسهم يوم 9 مارس فقد تحطمت معنوياتهم خاصة بسبب ملاحقتنا لهم فور خروجهم من "تكانت" فقد بدوا كما لو كانوا مطرودين خارج المنطقة ولو كنت في ذلك الوقت أعرف طبيعة معبر "فوك" كما أعرفها الآن لكنت قد هاجمتهم داخل ذلك المعبر وسحقتهم ليلة 8 إلى 9 مارس أثناء تدافعهم وسطه مسرعين للخروج من "تكانت". على كل حال فقد هزموا تماما في يومين متتاليين فضلا عن خسارة قطعانهم ومخازن حبوبهم في "أنتاكش".

تستطيع البعثة إذن بالاعتماد على ما حققته من انتصار أن تحصل على كميات فائضة من اللحم والحبوب مع أنهم كانوا يخشون المجاعة الوشيكة في "كصر البركة". ولذلك كتب إلي كبولاني يوم 11 مارس من مشرع "أتويزرزيت:

" سيدي النقيب العزيز أهنتكم على ما أحرزتموه من نتائج وارسل لكم قافلة من 21 ثورا يرافقها 25 من الرجال من بين "أولاد أحمد" ستمكنكم من نقل كميات الذرة من "أنتاكش" ولتتركوا لي فرقة حراسة جيدة في انتظار عودة القافلة." كنت قد استبقت أوامر الأمين العام حين هاجمت "إدوعيش" فهو كان قد أرسل بريدا يوم 7 مارس مؤرخا من "كصر البركة" لم يصلني إلا بعد رجوعي من "تنشيبه" وكان قد كتب فيه: حسب المعلومات التي وصلتني "فإدوعيش" لم تؤثر فيهم الهجمات الناجحة التي قادها كل من "دوري" و"ميشلان جلي" فقد حاولوا الحصول على التعزيزات ويبدو أنهم يستعدون للاستقرار عند "أشرم" ثم عند "إنتاكش" بخيامهم ليحاولوا من هناك هجوما يائسا من أجل استرجاع قطعانهم فإذا حصل ذلك، عليكم أن تأخذوا كافة الاحتياطات الضرورية وفي حالة غير ذلك انتظروا وصولي إلى "قم البطحه" الذي أنوي التوجه إليه غدا ومنه أطلب منكم إرسال البريد المنتظم حول المهمة المسندة إليكم وبالمقابل إذا وجدتكم فرصة سانحة لتكبيد أعدائنا خسائر فادحة دون خسارة من جانبنا فلا تترددوا." كنت قد سرت بسرعة أكثر من الرسالة ولكنني لم أخرج عن نطاق ما ورد فيها فلم يكن لدي سوى ثلاثة جرحى جراح واحد منهم بليغة فمسيرتي المتواصلة قد حققت الأهداف التي تصورها كبولاني مع أنني لم أكن على علم بها ومع أنني انطلق من تصور آخر فقد أصبت عين ما كان يريده. لقد كنت مرتاحا لأداء رجالي ولكن ليس بصفة عامة فمن من نالوا إعجابي أولا

الأطر البيض وسبق أن تحدثت عن الرقيب الدركي "رايل هاك" وعن "مجيكان" الرجل المنحدر من القبائل الذي رأى إطلاق النار لأول مرة مساء يوم 8 مارس وأدى واجبه ببراعة فائقة في قيادة فرقة المؤخرة كما أن "بن حموده محمد" قد أحسن تنفيذ الأوامر أثناء غيابي وأمن الربط مع بقية البعثة كما نال صمود فرقة "البولار" تحت إطلاق النار إعجاب "أولاد إيبيري" وواحد فقط من هؤلاء هو "المختار ولد داداه" قد نال إعجابي بصفة تامة وقد عبرت له عن ذلك في معمعان إطلاق النار مع "إدوعيش" صباح يوم 9 مارس وأعلنت أمام كافة الرجال أن اللكمة التي ارتكبتها في أبي تلميت كانت خطأ فادحا و قد أبدى ارتياحا كبيرا لذلك ومن ذلك الوقت أصبحنا صديقين كأفضل ما يكون أما " بولير" فقد كان كعادته رائعا والجميع يعترف له بذلك. أما "الهريم" و"بويكر سيره" "ولد بركام" فقد بقوا أوغادا كطبيعتهم وأتمنى أن يغيبوا عن ناظري نهائيا و " أولاد إيبيري" الذين فوتوا علي يوم 8 مارس فرصة مباغثة "إدوعيش" لم يبرزوا مساء نفس اليوم إلا من أجل حماية نصيبهم من الغنائم فقد انتظروا عند "تنشيبه" حتى تأكدوا من تفوقنا على العدو ليخرجوا من المخابئ وبالجملة هم مجرد تلاميذ حرب ولا يمكن أن نلومهم أما "مختار ولد داداه" فقد برز كقائد من الدرجة الأولى التحقت بالبعثة يوم 12 مارس عند مشرع " اتويزر زيت" وعلمت أن وقعة "تنشيبه" قد جعلت "إدوعيش" يخرجون نهائيا من "تكانت" وبدا لي "كبولاني" منصاعا "لكنته" أكثر من أي وقت آخر فهم ومعهم جماعة " أولاد إيبيري" التي عاد بعض رجالها من عند "الشيخ سيديا" يستولون على نفائس ما جئنا به من الغنائم ويأخذونها كهدايا لأنفسهم لقد كان من الأفضل أن أحتفظ بمواشي أكثر لتغطية حاجة البعثة من اللحوم فقد انتهز "كنته" انحياز "كبولاني" لجانبهم وما يمنحه لهم من امتيازات ولم يترددوا في تقديم طلبات جماعية فقد قدموا طلبا ضدي ومن أجل ذلك تنقلوا من " أنتاكش" إلى "كصر البركه" حسب ما كتبه لي "كبولاني" ليطالبوا باسترجاع "حبوبهم وعبيدهم" ونعرف المقصود "بحبوبهم" فهم يريدون الاعتراف بأنهم كانوا محقين في عدم توجيهنا إلى مكان مخازن "إدوعيش" لكي تبقى من نصيبهم أما العبيد فقد أخذتهم " عرية" لتحصين المعسكر عند "تنشيبه" وعقابا على سوء نيتهم وسوء تصرف أسيادهم وكذلك في شكل تسخير طبيعي لأداء المهام أثناء الحرب وهم تابعون لمن يزعمون أنهم متحالفين معنا. لقد بدى لي أن "كنته" يبالغون بإفراط في استغلال الوضعية وفي نفس الوقت لا يقدمون أية خدمة ولذا تراكم حقدى عليهم. هؤلاء الناس يعتبروننا الآن مسخرين للسير في صالحهم ضد

أعدائهم ولن يساعدونا في شيء وعندما يتقدموا خطوة صغيرة نحونا نفرح بذلك كما لو كان ذلك امتياز يقدمونه لنا إننا نمنحهم أكثر مما يستحقون وستكون دهشتنا أكثر حين نلاحظ يوماً ما أنهم الوحيدون من بين "البيضان" الذين سيصوبون نحونا الأسلحة التي كنا سعداء بمنحها لهم؛ "الذين يريد التخلص منهم"³⁰⁵، يوجد الآن ثلاثة أرباع البعثة عند المشرع: كبولاني وكتابه والسيدان "مير" و"ميشلانجلي" وفرقهم وأنا وفرقتي والجزائريون والمدفعية دون أن نأخذ في الحسبان فرقة الرماة السنغاليين. ليس اختيار الموقع سيئاً فهو في تقاطع الطرق بين "كارول" و"انتاكش" و"كصر البركه" ولكن يوجد بالقرب منه موقع أفضل بكثير هو نقطة "الحسينية" التي عاينها كبولاني يوم صباح يوم 12 مارس وينوي التوجه إليها يوم 14 حيث ستمكنه من مراقبة طريق "كرول" عن قرب وفي الوقت الحالي هذه هي أهم نقطة بالنظر إلى عودة قافلة "دوفور" وبالمقابل سنكون بحاجة إلى مستوى أقل من الحراسة مما لو كنا عند "المشرع" أو عند معبر "فم البطحة" ولكننا من جهة سنكون فيها داخل منطقة "كنته" وهي من جانب آخر موقع جميل فيه النخيل والماء العذب بغزارة كما أنها حديث الساعة كما كان "كصر البركه" سابقاً. تركني "كبولاني" بعض الوقت عند "المشرع" ولدي منذ 12 مارس فرقة من 30 من البولار عند "انتاكش" من أجل استغلال مخازن الحبوب تحت أوامر "مجيكان" وما دام عجوز القبائل ذو اللحية الكثيفة يوجد هناك سيواصل "كنته" شكواهم لدى كبولاني لأنه لن يتركهم يأخذون شيئاً من ممتلكات "إدوعيش" كما أنه أصبح بارعاً في اكتشاف مواقع مخازن الحبوب أرسل إلي "كبولاني" يوم 15 مارس 16 جملاً و 10 ثيران لنقل الحبوب المكدسة عند "انتاكش" ومن أجل حمل أمتعة البعثة المتروكة بالأمس عند "المشرع". ويجب إرسال كميات الذرة يوم 17 مارس من "انتاكش" إلى المشرع وكما توقعت حصل "كنته" على ما يريدون فقد غادر "مجيكان" وفرقة "البولار" رفقة قافلة الحبوب ولن يعود إلى "انتاكش". وتلقيت أمراً صباح يوم 18 مارس بمغادرة "المشرع" والتوجه إلى "الحسينية" صحبة جميع رجالي. وفي ليلة 15 إلى 16 مارس مر بالمشرع النقيب "ابايين" قادماً من "كصر البركه" مع فرقة هامة من البعثة ومعه فرقتي من أولاد بسباع العائدة من جولتها في "تامورت أنعاج". وبقي عند "كصر البركه" الضابط المترجم "رنير" الذي يقود

³⁰⁵ - إشارة إلى فكرة "أوريبيد" التي جعلها "بواصو ناد" في هذه الصيغة اللاتينية والعبارة كاملة هي: "الذين يريد "جوبيتير" التخلص منهم بسلط عليهم الجنون أولاً

المركز ومعه السيد "كوب" من مصلحة القوافل وسيتم تموين "قصر البركة" بصفة مباشرة من طرف الملازم الذي يقود مركز ألاك والذي سيتمكن كذلك من مراقبة "تكانت". توجهت يوم 18 مارس إلى الحسينية طبقا للأوامر الواردة وكان الطريق من المشرع إلى الحسينية يمر على جانبه الشمالي بسلسلة جبال ذات كهوف ومنحدرات تعلوها كثبان من الرمال الثابتة تغطيها نباتات الوزال (تيتارك) الضخمة ونباتات أخرى تأكلها الإبل وتقع وسط الوادي "التامورت" التي تمتد ضيقة ومحصورة بين سلسلتين من الجبال كان سفحها الأيمن أملس في سواد تغطيه الصخور ثم يتسع الوادي بعد ذلك لتعمه حقول الذرة واليقطين المحلي والفاصوليا المحلية كان وادي "بورقعه" (وهكذا يسمونه) ما زال مغمورا بالمياه جزئيا مررنا بجوار بركة يحوم فوقها الإوز البري وبعض الطيور ذات المناقير البوقية. وجدت البعثة متمركزة فوق تل مسطح تهبط منه منحدرات صخرية في السطح الغربي للوادي وعند مدخل المعبر الذي تجري منه مياه نبع متدفقة على مسافة 100 متر لتشكل عدة مستنقعات في عمق المعبر ويوجد من الماء ما يكفي لشراب جيش بكامله كما توجد الأعشاب الخضراء والأشجار الظليلة ويتسع المعبر بعد ذلك ليتخذ شكل وادي منخفض ترتفع في وسطه رؤوس النخيل المحملة بالعناقيد ذات اللون الذهبي.

عند "الحسينة" ترك الجميع خيامهم باستثنائي أنا والنقيبين "سيكولي" و "بايين"، واستخدموا الزنوج في بناء أكواخ من الحشيش³⁰⁶ ويبدو هذا مؤشرا على الإقامة بعض الوقت، وكما فعل عند "كصر البركة" يبدو أن كبولاني يريد بناء مركز عند الحسينية سيكون لديه من الموارد أكثر مما عند "كصر البركة" و"إيدانفاغات" الذين يزرعون السهل من حلفاء "إدوعيش" ولكن كنته يسعون للسيطرة عليهم وبالإضافة إلى الحقول المزروعة يتوفر هؤلاء على أبقار جميلة وقطعان من الضأن الجيد وسهل "بورقعه" كثير الطرائد ويوجد في حوض المضيق عدد من التماسيح³⁰⁷ وتصطاد فيه أسماك جيدة يمكن أن تعمل منها بعض المقلبات. وما دام "مجيكان" لم يعد الآن في "أنتاكش" فقد علم "كبولاني" بوجود كميات كبيرة من الذرة وبما أنه أسرع في استدعاء عجوز القبائل مدفوعا بصراخ "كنته" وقد خلفه على المكان "أحمد" نجل

³⁰⁶ - كوخ الحشيش ويسمونه بالحسانية "تيكيت" وهي بنايات خفيفة أكثر ملائمة من الخيام لأن الهواء يتخلل الحشاش ويضفي برودة على الجو

وهي تقابل المظلة أو الخيمة عند اليهود في مناخ مختلف كما تماثل الخوص أو المقصورة المعروفة عندنا في العصور الوسطى

³⁰⁷ - هذه التماسيح الصغيرة هي بقية حيوانات العصر الرطب في الصحراء.

"سيدي محمد" أحد قادة "كنته" فقد كان غياب "مجيكان" لفترة قصيرة كافيا ليقوم "كنته" بتحطيم المخازن والاستيلاء على "ذرتهم" التي كنا نعول عليها وهكذا نكون قد تعبنا من أجلهم، كم سيكون ندمنا كبيرا فيما بعد على ترك كل هذه الحبوب.

ومهما يكن ورغم ما واجهته من منع ورغم الوسائل الرديئة الموضوعة تحت تصرفي فبالإضافة إلى كوني أمنت تزويد القافلة باللحم من غنائم "تنشيبه" فقد أمنت لها أيضا ما يكفيها من الحبوب من مخازن "انتاكش" ويمكن أن أقول إنني وفرت معيشة القافلة طيلة شهر على الأقل ومكنتها من انتظار قافلة "دوفور" القادمة من الجنوب بالمواد الغذائية. وأثناء التوقف عند "الحسينية" بدأنا إعادة تدريب الرجال وبالإضافة إلى ذلك كنا بعد زوال كل يوم نقوم بأعمال بناء المركز ولكن كميات الغذاء كانت ضعيفة ولا تمكن هؤلاء الرجال من استيعاب التمرينات، كان من الأولى أن لا نسمح "لكنته" بالاستيلاء على ما أخذوه وأن نستخدمه في تحسين تغذية رجالنا، الذين بدؤوا يتذمرون وصرح الكثيرون منهم معبرين عن ندمهم على أخذ حيوانات وحبوب "إدوعيش" لتقع بعد ذلك في أيدي "جماعات من البيضان" لم يكن لها أدنى حضور في لحظة الخطر حتى أنها رفضت تقديم أية خدمة. أبرق كبولاني يوم 18 مارس من "ابدور" إلى الحاكم العام يطلب لصالح "ترقية عاجلة إلى رتبة رائد" وطبعا أعترف له بهذا الجميل الذي طلب بموجبه من الحاكم العام ترقيتي ولكنني لا أنتظر كثيرا من هذه الناحية كل ما يمكنني الحلم به هو أنه ما دام كبولاني هنا لن يجرؤ أحد على أن يمسنني. أخبرني "تجكانت وإدولحاج" أن "إدوعيش" بعد خروجهم من "تجكانت" عبروا "أركيبه" ومكثوا عدة أيام عند كيفة ثم انتقلوا إلى "أفل" وهو منطقة جنوب شرق كيفة حيث يظنون أنهم قد أصبحوا في مأمن. وشاع بعض الوقت أنهم ينوون الإقامة في جنوب "لعصابه" وحتى الانتقال من هناك إلى "أفطوط كوركل" عبر جبل "أكرراي" للالتقاء من هناك "بترارزه"، ولكن هؤلاء لم يعودوا من الثوار "فأحمد سالم" الذي يبدو أنه تصالح مع "ولد سيدي" وتمكن بفضل هذا الأخير وبوساطة "الشيخ سيديا" من الحصول على الدخول تحت السلطة وقد يكون عاد إلى شمال "ترارزه" مع من كانوا متمردين آخر سنة 1904 وحدهم أهل "أعمر أكديجه" وهم زوايا مسلحون قد يكونون ما زالوا في سهل "يغرف" أي في آدرار. يبدو أن العقبات قد زالت الآن أمام كبولاني كما أن "إدوعيش" المعزولين في أفل" لم يعودوا يشكلون خطرا على قوافلنا القادمة من النهر رغم أنهم 50 يرسلون فرقمهم للإغارة عن بعيد.

إلا أن "كبولاني" مصمم على تعكير استقرارهم هناك حيث يحتكون يوميا بـ "كنته" أعدائهم الألداء، ويريد "كبولاني" أن يكسر شوكتهم نهائيا.

معركة بوكادوم ضد إدوعيش:

استدعاني الأمين العام يوم 25 مارس داخل كوخ الحشيش والأخشاب الذي يتخذ منه مقرا نسميه نحن "مكتب" الأمين العام. قدم عرضا عن حقيقة الوضع: فـ"إيدوعيش" لم يبتعدوا بالقدر الذي يشاع. قد شوهدوا بضواحي "كيفة" على سهل منبسط في قلب منطقة "اركييه". وما زالوا يشكلون خطرا مع احتمال دخولهم تكانت عندما تتوغل بعثتنا نحو الشمال. وإن نجحوا فسوف يقوضون كل ما حققناه من انتصارات. يجب إذن إبعاد خطرهم بأقصى ما يكون بضرية قاضية.

لقد حدد لي السيد "كبولاني" طريقا أسلكه للوصول إليهم. يجب علي أن استكشف مكان وجودهم بالضبط أثناء المسير نحوهم. وقد بلغني أنهم كانوا يوم 22 مارس عند موقع "بومحنه الدرجه" بين "اكوانيش" (أفله) و"لعصابه" على نحو خمسين كليو متر من "كيفه" ومن المحتمل أن أصادفهم أثناء البحث أو أتلقى منهم هجوما مباغتاً. وفي كلتا الحالتين لدي أمر بأن أبعدهم إلى الشرق دون المخاطرة بالفرقة الموجودة تحت إمرتي. والأمر في الواقع أبسط من هذا. فالمطلوب في الواقع هو أن أبحث عن "إيدوعيش" وأحقق أقصى ما يمكن من القضاء عليهم. لضمان العثور على "إيدوعيش" أمدي "كبولاني" بدليلين ماهرين مدفوعين بأحقاد شخصية ضد الأمير "بكار"، أحدهما محارب من أهل "سيد محمود" يدعى "محمد ولد أجاهي" والثاني زاوي من "مسومه"³⁰⁸ يدعى "البشير".

ويلزمي طيلة عمليات البحث أن استدرج كافة مجموعات البيضان القابلة للانفصال عن إدوعيش، والمتوجهة نحو "تكانت" من أجل تقديم التنازل وبالأخص أهل "سيد محمود"، و"تجكانت"، و"مسومه"، و"إدوعلي"، وعلي بصفة خاصة أن آخذ في الحسبان بعض رؤساء "البيضان" لأنهم كانوا قد أجبروا في السابق على الذهاب مع "إدوعيش"، ومن بين هؤلاء، "سيدي ولد الزين" الذي قدم معنا من "قصر البركة" والتزم بإيصال رسائل "كبولاني" إلى الأمير "بكار"، ومن ضمن هؤلاء أيضا "الحسين ولد بكار" نجل الأمير الذي جنح إلى السلم مع الفرنسيين وآخرون معه. فإذا مثل هؤلاء الرؤساء أمامي فلدي أمر بأن أقابلهم بالمعاملة الحسنة. وبالإضافة إلى جنودي من "البولار" الذين قد جربوا إطلاق النار في تشيبيه فقد أعطاني كبولاني مجموعة من المساعدين السودانيين، وقد فضل رئيسهم البقاء مستلقيا تحت الشمس، فتركته إذ لا أفضل أرغام الآخرين.

لقد حيكت ضدي مؤامرة إذ قيل لـ"كبولاني" إن مجموعة "أولاد ابيري" متذمرة من قسوتي أثناء رحلة "تشيبيه"، ويشاع أنهم لن يقبلوا بالعمل تحت إمرتي، وأنا أعرف من أين

³⁰⁸ - لقد كان أهل سيد محمود خصوما الداء لإيدوعيش خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد تحالفوا مع مشظوف وهزموا بكار في موقعة "التوسيرات" سنة 1881. إلا أن نجل رئيسهم الزاوي الذي جمع حوله عناصر متنوعة، أثار ابنه سيدي المختار حفيظة بعض فروعهم (مثل اسواكره) فانشقوا عنهم ولذا هزمهم إدوعيش في موقعة المدروم سنة 1882. وتوجد مأخذ حديثة العهد بين أهل سيد محمود وإيدوعيش، في حين تربط مسومة علاقة الزوايا بإيدوعيش، فهناك إذن دافع شخصي جدا وراء سلوك البشير، أما إدوعلي فلن تترسخ لديهم أبدا عدوانية ضد إدوعيش فتحالف المجموعتين قديم جدا. كما أن تبديل المواقف كثيرا ما يعود إلى دواعي انتهازية بحتة.

جاءت هذه الدسائس: من ضابطين حاسدين من كوني أكلف دائما بالجولات الحربية، وعلى رأسهم "بيكر سيرى"، و"الهريم"، ورؤساء "كنته"...

استدعيت "محمد ولد أعمر" و"المختار ولد داداه"، اللذين أكدا لي إخلاص خمسة وعشرين من "أولاد بالسباع"، واثنين من "أولاد ابيري"، يمكن أن أعتمد على هؤلاء بثقة تامة كما أن "بولير" جاءني بعشرة آخرين من "البيضان" ما بين "أولاد أحمد" و"أولاد دمان"، و"تجكانت اترارزة"، وبهذه الطريقة لاحظت أن الذين تخلفوا كما كنت أنتظر، هم "بيكر سيرى"، و"ولد بركام"، ورؤساء "كنته" ورجال "الهريم" الستة. هذا ما نتج عن المؤامرة الرامية إلى حرمانى من المجندين "البيضان"، وقد حصلت عليهم وحصد المدبرون الخيبة.

وبالجملة كان لدي 169 بندقية ذات طلق سريع: ثلاثة ضباط صف والرقيب "مارين" من الأوربيين والرقيب "مجان"، والرقيب الدركي "بلشير الهواري" و120 مساعد من الزوجين الراجلين، و25 طلقة نارية للمدفع الرشاش. وصلتني قافلة من 11 ثور تحمل 250 كلغ من الأرز ومئونة 15 يوم من أغذية الأوربيين. وكأغذية للموريتانيين لم يكن هذا يكفي لمدة طويلة، 5 أيام فقط تقريبا، ولكنهم يعولون على شطارتي، ومع ذلك كنت أشعر بخطر المجاعة، ولدي خططي وسنرى فيما بعد كيف تصرفت، وفي انتظار ذلك فعلى هذا المستوى ينتظرني الحساد المتربصون.

تلقيت أوامر صارمة: أولا بأن أبقى على اتصال دائم كلما أمكن ذلك برئيس البعثة عبر رسائل البريد الخاص، خاصة إذا تجاوزت "كيفة"، ثم إن علي أن لا أقسم مفرزة المساعدين الزوج وأخيرا لدي أمر بأن أسهر ليلا وأرسل بعثات استطلاعية من "البيضان" المخلصين، وأن أحرص على كسب ثقة الأدلاء.

وكما لو كنت أتصرف بطريقة مخالفة، أرى عبر هذه التوصيات والإرشادات مكائد الحساد وبصمات نقدهم. كان علي أن أنطلق يوم 26 صباحا، ومرة أخرى أترك لدى القافلة فرسي الشاب الذي أتيت به من نواكشوط الذي لم يشف رغم العلاجات التي قدمها الرقيب "الدركي رافين" فجراح ظهره ما زالت فاغرة. كنت أعالجه شخصا في إحدى المرات حين اقترب مني شخص ريفي ملتحي ذو عينين صغيرتين تلمعان تحت النظارات، دار حولي وحول الفرس كما لو كان يريد إثارة النقاش.

وكان قد قدم منذ قليل مع قافلة "دوفور" وسلك معها الطريق منذ "مال" رفقة الملازمين، وقدمه البعض بأنه صفحي في حين قال البعض إنه مجرد صديق لكبولاني، أما أنا فممنذ بضع ساعات أجدّه أمامي وقد عرفت فيما بعد أنه جزائري قد أصبح مسيرا لبلديات مشتركة. ويبدو أنه انشغل بمعالجتي للفرس، واستغرب أن يرى نقيبا يضمه بنفسه جراح فرسه، فتوقف يرقبني. ليس الخجل من طبيعتي، ولكنني لست جذابا ولا أفتح بالكلام بسرعة وقد بدا لي هذا الشخص مشابها لي تماما وقد اشتركنا فيما بعد في ثرثرة طويلة حول سياسة الخيل، وعلى ما أتذكر لم أبد تدمري أمامه لأنني كنت موقنا أن الموظف المكلف بخيول كبولاني كان سيقدم لي فرسا بليدا عوضا عن فرسي المريض. هذا يكفي قصارى الأمر أنني سوف أقطع المراحل القادمة مشيا على الأقدام.

كان معي السيد "أرنو"³⁰⁹ وكان قد تحدث عني مع "كبولاني" لأنه ينظر إلي كما لو كنت حيوانا غريبا أو ظاهرة أو على الأقل كائنا نادرا، وقد تعارفنا أكثر فيما بعد وتطلب ذلك قضاء أماسي رتيبة على كتيب "تجكجة" والتأملات المشتركة ونحن نتناول المخ من العظام إذ لم يكن لدينا ما نأكله سوى لحم الإبل، كما أن الموت المفاجئ لـ"كبولاني" قد جاءت بعده بشهر واحد عمليات استنفار مستمر ليل نهار.

ففي مثل ظروف الشدة هذه لا حاجة لأن يقدم البعض نفسه للآخر، ففي هذه الظروف تنشأ الصداقة الحقيقية عبر تقاسم اليأس والخطر.

أقيم احتفال صغير بمناسبة مغادرتي، فسكب النقيب "اباين" ما لديه من "الوسكي" لإبقائنا مستيقظين تحت خيمة المطبخ المشترك، وقد صدرت بعض الأصوات، فالبعض يتطلع بإخلاص إلى نجاح المهمة، وهم القلة، أما الآخرون فقد كان لديهم شعور آخر، وقد بدا الحسد جليا على واحد أو اثنين لم أكن أحفل لكل ذلك، فقد وضعت صوب ناظري هدفا محددًا لاستخدام ما لدي من وسائل ولم أكن أفكر إلا في تحقيق هذا الهدف وهو هزيمة "إدوعيش".

³⁰⁹ - "روبيرت أرنو"، جزائري عمل إداريا لبلديات مختلطة، نشر تحت اسم: روبرت راندو "المستكشفون، رواية كبيرة عن الريف" تحكي تاريخ ومغامرات بعثة "تكانت أدرار"، وقبل ذلك رافق "كبولاني" إلى "تينيكو"، وكصديقه "كبولاني" يتكلم العربية بطلاقة، وينسجم مع "البيضان" دون الحاجة إلى مترجمين. نشر سنة 1939 "كورسيكي" من "الجزائر" بين الرجال الزرق، خفير "كبولاني" المرابي" (الجزائر، انيرت) سيرة حياة "كبولاني"، وكان قد نشر سنة 1906 تحت اسمه الإداري كتيبًا مثيرًا بعنوان: موجز في السياسة الإسلامية، المجلد 1: منطقة ضفة نهر السنغال اليمنى (منشورات الحكومة العامة لإفريقيا الغربية الفرنسية، الجزائر العاصمة، جوردان) يشتمل هذا الكتاب على آرائه وآراء "كبولاني" حول المسألة.

أيقظت رجالي عند الساعة الواحدة صباحا، وبعد ساعة انطلقنا وما كدنا نبتعد عن معسكر البعثة حتى كان على الثيران الحاملين للأمتعة أن يجتازا واديا تغطيه الصخور الحادة، كان ذلك مقدمة لما ينتظرنا فيما بعد فلم نستطع أن نتقدم في الليل البهيم إلا ببطء شديد، وعند الساعة الخامسة صباحا تمكنا فقط من الوصول إلى طرف الوادي عند ممر "إيريجي" وقبل الصعود تزودنا بالماء من "الكلتة" ثم تسلقنا بمشقة المنحدر ذي الصخور المتحركة ولم تستطع الثيران المحملة الصعود فتحتم علينا إنزال الأمتعة والصعود بالحيوانات واحدا تلو الآخر، ثم حمل الأثقال على الأيدي، وكان الممر مسدودا بحاجز حجري مرتفع فيه ثقب صغير، وهو من أطلال الأسوار التي كان يحتمي بها "سرقلة"، وبالجملة كان هذا الممر متوسط الارتفاع، وقد قضينا ثلاث ساعات كاملة لاجتيازه. وعند الساعة الثامنة كنا متجهين نحو الجنوب فعبرنا سهلا صخريا، ومررنا بين ثلاثة رؤوس معزولة هي: "الكليات فندي"، وتركنا يمينا بعض قبور المشاهير وقد بدت لنا كذلك من الصخور الحمراء التي تحمل كتابات قرأها "البشير" وبعض الأدلاء مترحمين على الأموات، وبعد السهل نزلنا في منبسط عريض تنتشر فيه الصخور الكبيرة، وعند الساعة 11 وصلنا إلى "كلته الظهر" الكبيرة، حيث توقفنا للمقيل، وقد أعلننا الاستنفار بسبب مجموعات من القروذ الكبيرة التي حسبناها هجوما مباغتا من العدو، وبعد القيلولة انطلقنا، كانت معي مئونة من الماء، لأنني أنوي قطع أطول مسافة ممكنة قبل التوقف مع حلول الليل.

حوالي الساعة 5 مساء كنت شرق مزارع "فودجي"، ومع حلول الظلام أقمنا المعسكر على سهل "أعكليت فندي"، وكان رجالي من البيضان قد لا حظوا آخر ذلك اليوم آثارا حديثة لرجال قطعوا طريقنا، فبعثت "البشير" لاستطلاع هذه المؤشرات، وعند العودة أخبرني أنها آثار مجموعة من "إيدوبجلن"، وهم قوم من البربر يعيشون على القنص، ويدفعون الهدية لإدو علي تجكجة، وهم من الموالين لنا بسبب عدائهم للأمير "بكار" مع أننا لم نتمكن من مقابلتهم لشدة توحشهم، وأخبرنا "البشير" أنهم مسلمون مسلحون ببنادق ويلبسون ثيابا كعامة "البيضان" الفقراء أي من قماش النيل ذات اللون الرمادي³¹⁰ هبطنا يوم 27 مارس عند الساعة الثالثة صباحا في سهل "كمست لخيال" ثم واصلنا الصعود من سهل إلى سهل من "أكجار" إلى "أكنتور"

³¹⁰ - لا يعرف اليوم من محترفي الصيد البري أو القنص سوى أنمادي، وأعدادهم في تناقص مستمر.

سلمه إلى سهل "شبع لعمار"، كل ذلك تحت الظلام الدامس، وكما كانت عليه الحال بالأمس واجهتنا صعوبات جمة مع التيار التي تتساقط أحمالها باستمرار ويتعين إرجاعها دائما.

وعند الساعة 10 كنا على ما يشبه المسطح الواسع ينتهي من الجنوب بسهل "لوث" الذي ترتفع قمته في سلسلة تهبط إلى وادي كثير الحجارة في سهل "اركييه" فاصلة بينه وبين تكانت، حيث تنتشر كتل الصخور مشكلة من مكان لآخر كهوفا وأنفاقا طبيعية ويحيط سهل "لوط" بمسطح منبسط يبلغ قطره نحو 4 كلم، ويشكل هذا المسطح المنبسط من الجنوب مقاطع من الجبال تبدو متآكلة منذ القدم بسبب حركة الماء التي أكسبتها أشكالاً هندسية غريبة، وبين هذه المقاطع توجد ممرات ضيقة وعميقة ويبدو مستوى ارتفاع سهل "لوط" مساويا تقريبا لارتفاع سهل "اركييه" الكبير الذي يمتد إلى المرتفعات المتموجة للكثبان التي ترتفع من بعيد حول السهول السوداء الصخرية لمنطقة "عصابة"، ويبدو المنظر خلايا من موقع سهل "لوط"، وذلك بسبب تناغم الظلال السوداء وأشعة الشمس الساطعة، فيبدو المشهد رائعا كما لو كانت رسوما أبدعتها يد رسام في شكل متسلسل على شاكلة سلاسل الجبال الأندلسية بريشة "كوستاف دورى"³¹¹. كان الأدلاء مترددين لم يتمكنوا من الاهتداء بين ممرات الصخور إلى "كلثة لوط" وعند الساعة الواحدة بعد الزوال فقط تمكنوا من اكتشافها وراء معبر ضيق متموج ذي سطح طبيعي من الصخور المتآكلة بسبب الماء التي يسهل الانزلاق عليها كما لو كانت أحد الدروب الجبلية في روسيا، فتحتم علينا إنزال الأحمال عن الحيوانات لتتمكن من العبور.

تناولنا طعامنا عند "الكلثة" وملأنا القرب وعند الساعة 4 استأنفنا النزول وكان الممر ضيقا صعبا جدا، تنتشر فيه الصخور الدائرية رغم أن طوله لا يتجاوز مائتي متر، فقد تحتم علينا من جديد إنزال الأحمال عن الحيوانات، وحملها على الأذرع بمشقة، وكثيرا ما تحتم علينا رفع التيار والجمال لكي نتقدم، واستغرق منا ذلك ساعتين ونصف لتجاوز مائتي متر فقط، ولكن مع حلول الليل تجاوزنا العقبة وتمت إعادة الأحمال على ظهور حيوانات القافلة، ولم نكن في نهاية المتاعب، فالطريق يشكل مهلكة حقيقية فعشرة رجال فقط يستطيعون القضاء علينا دون مشقة، ورغم الظلام الدامس كان علينا أن نواصل النزول، ولا يمكن

³¹¹ - كوستاف دورى 1832-1983 رسام ونحات وفنان اشتهر خاصة بإبداعه في رسومات الكتب ("بانندا اكريل"، "الجحيم" لدانتي "التوراه") حيث أظهر خيالا خصبا وإبداعا رائعا في رومانسية ودقة عجيبة.

المرور إلا من السفح الشرقي للجبل ذي المهابط الصخرية المتتالية في ظلام دامس، واستغرق منا ذلك أيضا ساعتين ونصف، كانت مدة هذا الهبوط الشاق والخطير فقط كانت منحدرات الصخور حادة تشكل صخورا ضخمة انزلاقية وهو ما يضيف صعوبة أقوى إلى العملية، ورغم كل ذلك أقمنا المعسكر عند الساعة 9 مساء في عمق منبسط "لوط" غرب منابع "أعيون الكراشبة"، ولكن أية ليلة كانت هذه يا إلهي؟

يوم 28 مارس عند الساعة الثامنة وصلنا أخيرا إلى سهل رملي من "الرقبية" حيث كان السير سهلا وسط بعض الكثبان الرملية البيضاء، التي تعلوها نباتات الطرفة، ووصلنا في حدود الواحدة بعد الزوال إلى ثلاثة كثبان من نفس النمط تطل على بئرين قرب واحة النخيل المعروف "ببمبل"، وهنا أيضا كما هي الحال في "قصر البركة" كان النخيل مغمورا داخل كتل الصخور، فنزلنا للمقيل، ومن أعلى الكثيب بدت لنا الحافة الشمالية الشرقية "لاركيبة" من بعيد كالسور الأسود في شكل سلسلة مسننة من الجبال الشامخة إلى جانب بعضها البعض. وعند الساعة الرابعة انطلقنا باتجاه أولى هذه القمم الجبلية التي تبدو في الجنوب الشرقي وقد سماها الأدلاء "اللبة" وقالوا لنا إن هذه المعابر وكل التي سنمر بها فيما بعد في هذه السلسلة الجبلية تؤدي إلى ممر "فوك" الاستراتيجي الذي جرى الحديث عنه في معركة "تتشبه". كان الليل قد أرخى سدوله وما زلنا نسير في اتجاه "اعوينات اللبه"، ولم أكن أتصور هذه القمة على هذه الدرجة من البعد. يا إلهي! يبدو هناك ضوء نار في الخلاء على اليمين، توقفنا في صمت وأرسلت مجموعة من البيضان لاستطلاع خبر النار، وبعد نصف ساعة من الانتظار في صمت مطبق عادت إلي مجموعة "أولاد بالسباع" بنحو خمسين من الأشخاص ذوي البشرة السوداء، رجالا ونساء، وكلهم من "أحراطين تجكانت"، وقادني هؤلاء إلى بئر "حاسي اكويفه"، حيث قضينا الليل، وإذا استثنينا مجموعة "إدابوجلن" الذين لا ينتظر أن خونونا فإن هؤلاء الزوج هم أول مجموعة بشرية تشاهدنا منذ 25 مارس.

كنت حائرا، فإذا أخليت سبيلهم فإن قافلتنا تدخل الخطر وإذا احتفظت بهم "فتجكانت" من القبائل التي أنا مأمور بمداراتها حسب تعليمات السيد "كبولاني". وعند استئناف المسير يوم 29 قررت أخذهم معنا على أن تبقى خيامهم منصوبة حول بئر "حاسي اكويفه"، وكلفت رجالي من "البيضان" بمرافقة هذه المجموعة في الخلف، وأصدرت لهم أوامر بحثهم على الإسراع خاصة الأطفال والنساء من أجل إتعابهم وبعد ذلك نخلي سبيلهم فإذا عادوا إلى

خيامهم فيكونون محتاجين إلى أيام من الراحة وبالتالي نضمن صمتهم، وهكذا نحتفظ بالرجال معنا رهائن ولا يتجاوز عددهم ستة، وننذرهم بأنه إذا صدر أي إبلاغ من نسائهم وأطفالهم فسوف نحتفظ بهم حتى ملاقات العدو، ولكنهم على كل حال سيتلقون تعويضا من الغنائم. ومع أننا انطلقنا مع الفجر فلم نصل "أعوينات اللبه" إلا الساعة 7 حيث يحيط بها بساط أخضر يطوق قمة الجبل الذي استمدت منه اسمها، وهي عين ذات مياه دائمة الجريان. وعند الزوال تجاوزت قمة "تقادت انجكو"، وبعد ذلك بساعة توقفت في وادي أخضر كثير الأشجار والنباتات المختلطة بنباتات أخرى رأيتها في "تكانت"، واسترحنا حول مساحات مائية واسعة تغطيها النباتات الخضراء الكثيفة وتحميها من أشعة الشمس، فوجدت حيواناتنا المتعبة عشبا أخضر كثيرا وعندما انتهينا من الأكل تمددنا نستنشق النسيم والهواء الرطب على حافة المياه، وفجأة أشار لنا الحارس المرابط على قمة الكثيب المجاور، بوجود أعداد كبيرة من "البيضان" وسط السهل.

وبعد هزيمة جاعني الحراس الذين كانوا يتجولون حول المعسكر يسوقون هذه المجموعة، إنها وفد من "مسومه"، انفصلوا لتوهم عن "إدوعيش" استجابة لنداء "كبولاني"، وهم متوجهون إلى بلدة الحسينية. أخبرتنا جماعة "مسومه"³¹² هذه أن "إدولحاج" قد وصلوا "الحسينية" قبل مغادرتنا وأن "كبولاني" سمح لهم بالعودة، وإنهم نشروا في منطقة "اركييه" خبر قافلة فرنسية تجوب المنطقة، وهكذا كان "مسومه" يتوقعون ملاقاتنا في طريقهم، وقد وجدوا آثارنا عند "حاسي أكوفه" فساروا عليها حتى وصلونا في المكان الحالي.

وحسب هؤلاء، قد ارتحل "إدوعيش" من "كيفه" متوجهين إلى الجنوب الشرقي في دفعات متتالية، وقد لقيهم "مسومه" في منطقة "أفله" يوم 27 مارس، وفي اليوم السابق لذلك، 26 مارس انفصلت مجموعة منهم بعد أن أقنعها رجل من "تجكانت" الشرق يدعى "البخاري" وانتقلت هذه المجموعة إلى الشمال نحو "بديزوك" أي شرق "بشيشي".

³¹² - استطاعت قبائل حسان في نهاية القرن 15 ومطلع القرن 16 سحق قبائل "بروقه" و"مسومه" (لعله يقصد مسوفه) وكانت بروقه هي قبيلة بيت الإمارة المنحدر من "أبي بكر" المرابطي وأصبح أتباع بروقه تحت ظل المنتصرين، وانسحبت بروقه إلى الجنوب الشرقي لشنقيط، ودخلت تحت حماية "إدوعي" في أوج هيمنتهم، ولم تكن تدفع لهم فدية ولكن اتخذت اسما جديدا مشتقا من اسمهم هو "إدوعيش" (وكل المتحالفين مع "إدوعي" اتخذوا أسماء تبدأ بـ "إيد") ولكن إذا كان بعض من هزمهم حسان مثل "إديبوسات"، و"تاشديبت"، و"إدبلحسن"، و"تندقه" قد تم تجريدهم من السلاح وتفرغوا لسلوك الزوايا فإن "إدوعيش" احتفظوا بسلاحهم، أما "مسومه" فأصبحوا زوايا ومن هنا نفهم أن مثل هذا التحالف القديم بين "مسومه" و"إدوعيش" لن ينصرم بسهولة، فتحول "مسومه" الجديد قد يكون من باب المناورة السياسية، كما أن "إدوعيش" قد بعثوا بوفد إلى "كبولاني": ونادرا ما تكون القطيعة نهائية. يبدو أن "فرير جان" يجهل هذه الوقائع التي لم يتم اكتشافها إلا في الدراسات اللاحقة.

وفي الخلاصة يبتعد "إدوعيش" بصفة بطيئة وإنما أوفدوا بعثتهم إلى "كبولاني" كمناورة لكسب الوقت، وقد مرت هذه البعثة "بفوك"، وأنا مرتاح لأنني لم أصادفها لأنني لم أسلك الطريق الذي كان محددًا لي، فلو حصل ذلك لكانوا قد أخبروا المنشقين. وبما أن السرية هي أولى ضروريات نجاح المباغثة والهجوم عن بعد حسب رأيي فقد قررت أن أسلك الطريق الذي رسمه لي "كبولاني"، والواقع أنني لم أكن أتصور أن الممر عبر "لوط" سيكون وعرا لهذه الدرجة، ولكن لم نعد نخشى شيئًا الآن، اللهم إلا إذا حصل من باب الصدفة أن صادفنا "إدوعيش"، وبما أن "الصرية" لم تلاق ما يثير الشبهات في طريقها فإن الكتلة الكبرى من إدوعيش ستعتبر نفسها في مأمن من أي هجوم من قبلنا. تلك هي الأفكار التي استخلصتها من المعلومات التي حصلت عليها من جماعة "مسومه"، وقد أذرتهم بأنني سأعتبرهم مسؤولين عن أية تسريبات تصل إدوعيش، وعما سترتب على ذلك، وسلمتهم النساء والأطفال المأخوذين من مخيم "حاسي أكويفه" وقدمت لهؤلاء نفس الإنذار الذي وجهته لجماعة "مسومه"، ثم حملت رؤساء جماعة "مسومه" بتقرير موجه إلى "كبولاني" وودعتهم.

لقد أصبحت أرى الأمور واضحة إلى حد ما فأنا أعرف المكان الذي يحتمل أن أجد فيه العدو، وأنا على علم بأنه يتنقل ببطء، وأنه مبعثر أو منقسم، فحظوظ اللحاق به والانتصار عليه تبدو لي كبيرة، ولكن يجب التصرف بأقصى السرعة، وبما أن العدو يسعى إلى كسب الوقت فإن عنصر المباغثة سيكون مفيدًا في الانتصار عليه.

وإذا كان "إدوعيش" قد هزموا فإن وفدهم سيكون مناسبًا للعب دور الوسيط من أجل إقامة السلم. وضعية الثيران المحملة بالمؤن تمنعني منعا باتًا من السير ليلاً، ورغم اشتداد الحر نهارًا فقد قررت الاقتراب من العدو بسرعة، وكان من اللازم أن أسرع لأن "إدوعيش" يسيرون في اتجاه أهل "سيدي محمود" ولدي أوامر من "كبولاني" بأن أحمي هؤلاء من صولة "إدوعيش". غادرت "تغادت انجكو" مساء يوم 29 مارس عند الساعة الرابعة، سرت بمحاذاة الغابة الصغيرة داخل السهل، واتجهت شمال "جبل انتاكات" مجتازًا ممرا من الصخور الكبيرة الحمراء في "حاسي الحديد". وبما أننا أخلدنا إلى النوم من حلول الليل إلى الساعة الثالثة والنصف صباحًا فقد انطلقنا مع طلوع القمر، ومنذو ذلك الوقت ونحن نسير داخل وهد تحيطه الكثبان مسلكه سهل، وعند الساعة السابعة صباحًا وصلنا منخفض "إيمشكاون" المغطى بالأعشاب الخضراء، وحيث الواد في وسطه خمسة آبار قصيرة (عقلات) ذات مياه غزيرة

وجيدة، فاسترحنا هناك من الساعة حتى العاشرة أول النهار من أجل سقي المواشي وإعداد الغداء، وعند الساعة الثانية بعد الزوال وصلنا "كيفة"، حيث اجتزنا مخيمات كبيرة تابعة للأمير بكار في سهل صخري على جانبي أحد الأودية، ويبدو من الآثار وجود كثير من الناس، سرنا نحو ساعة من الزمن على آثارهم وشاهدنا مواقع الخيام، ثم هبطنا إلى منخفض "أكمار".

وبعد "أكمار" بدأنا نسير على آثار جديدة في وسط "زيرت المشرع" وهي بحيرة جافة في سهل "كيفة" وجدنا فيها آبار قصيرة كثيرة شرب منها رجالي وكانت الساعة الثالثة والنصف، وتحركنا قليلا ثم غابت الشمس عند "بلمطار".

والى هذا الحد أصبحت الآثار والدلائل جديدة، وبما أن الشمس حارقة والريح تهب من الشرق، فإن هذه الآثار تبدو قديمة إلى حد ما، وهو ما يثبط همة رجالي المتعبين حتى نوي الرتب العليا من الأوربيين بدعوا يفقدون الأمل في اللحاق "بإدوعيش"، ولكن عند بئر "بلمطار" وقعنا على آثار جديدة للثيران والخيول، وكان بعرها وروثها يعود لنفس اليوم، فأرسلت المجندين يبحثون في كل اتجاه، فجاءوني برجل أخضعتة للاستجواب وكان راعي قطع بقر اغتصبه "إدوعيش" عنوة على "إيدكجمله" في "مال" ولكنهم أعادوه إلى الراعي قبل قليل حين لاحظوا أنهم يتبعهم ويناشدهم بأن لا يجردوهم من كل ما يملكون، فعرضت الراعي أمام رفاقي فعرفه أحدهم، وفرضنا عليه أن يرافقنا حتى ملاقاته "إدوعيش"، فسنعيد له ممتلكاته (أو على الأصح ممتلكات أسياده) لقد كان "إدوعيش" قد أقنعوه بموقفهم أو على الأصح أصبح يعترف لهم ببعض الجميل، لاحظت ذلك من محاولته إقناعنا باستحالة اللحاق بهم، حيث قال إنهم بعيدون جدا من مرمى أسلحتنا فبدا لي أنه يبالغ واستخلصت أن الأمر هو على العكس تماما مما يقول. وعلى العكس من رجالي من الأطر بمن فيهم "البيضان" والذين أفقدهم كلامه كل الأمل، كنت متأكدا من أننا سنباغت "إدوعيش"، فقد حاول "إدوعي" في السابق أن يستعملوا معنا نفس الخدعة يوم 7 مارس عندما كنت أغادر "انتاكش" متوجها إلى "تنشيبه". لن يتمكن هذا الراعي من خداعي ذلك ما أقوله في نفسي. وبعد ليلة كاملة من الراحة على السطح الشمالي الشرقي لكثيب "بلمطار" كنت أنوي اجتياز مرحلة طويلة في اليوم الموالي لأقترب أكثر من العدو في منطقة أفله بين "بديزوك" و"بشيشي". انطلقت يوم 31 مارس مع طلوع النهار وعند الساعة الثامنة، كنت في سهل أم الشكاك، ثم مررت وسط "الملكه"، وفي حدود

الساعة الحادية عشرة دخلنا منطقة أفله، وبعد اجتياز السهل الواسع المغطى بالنباتات والأشجار في "تامورت الراحة" نزلنا للمقيل عند "تامورت المنصور" تحت الأشجار الملتفة حيث اختبأنا بقيت النهار. وكان أبعد مكان يوجد فيه "إدوعيش" هو "بشيشي" وقد أشار لي الأدلاء إلى مكانه يتراءى عن بعد في الأفق، فقررت أن أمنح رجالي استراحة آخر ذلك اليوم على أن أنطلق مع حلول الظلام باتجاه "بوبال" نحو مخيمات "إدوعيش" لأهاجمها بصفة مباغثة. فبالمسير رأسا نحو "بشيشي" على أقصر طريق يحتمل أن أقع على مخيم الأمير، وإذا تمكنت من شق كتلة العدو إلى شطرين فسيصعب عليه لم الشمل خاصة وأنهم يجهلون أعداد رجالي، ولا يعرفون جهة تمرکز قواتنا. كما أن جماعة "مسومه" قد أخبرتني أن "تجكانت" يفعلون ما في وسعهم من أجل إقناع جماعات "أنجايات" و"الجلافه" بالانفصال عن "إدوعيش". وكان رجالي من القادة وغيرهم قد تأثروا من ثرثرة راعي "إيدكجمله" وبما أن المعركة أصبحت وشيكة فقد طلبوا من الرقيب "مارين" أن يقنعني بالتوقف فصددته بعنف وقلت له كيف أنت الأوربي الوحيد معي في القافلة وتفقد شجاعتك هكذا وناديت جزائريين ووجهت لهم نفس الكلام مستبدلا كلمة أوروبى بأبيض، ولمتهم على الانخداع بثرثرة أحد الرعاة، ويسلوك مرافقيهم من الزوج، أما رجالي من أولاد "بييري" فلم يكونوا مرتاحين لاقترب الصدام مع الأمير المشهور "بكار".³¹³

انهمك الأطر المرافقون لي في تشجيع المساعدين الزوج رفع معنوياتهم. وبحلول الليل أرسلت رجالي من البيضان داخل "تامورت بوبال" يجتازوها طولا وعرضا ليتأكدوا من عدم وجود "إدوعيش" وأعطيتهم موعدا عند نقطة الماء. وبحلول الظلام غادرت شخصا "تامورت المنصور"، ولكي لا أفقد بعض الرجال كنت أسير ببطء وعند الساعة الثامنة نبهني الدليل إلى ضوء قوي إلى الشرق وجنوب الشرق مؤكدا لي أن ذلك معسكر "إدوعيش"، وبدا لي الضوء غير بعيد، ولكن في الظلام لا ندري حقيقة المسافات، فواصلنا التوغل داخل "تامورت بوبال" وهي غابة كثيفة ملتفة تؤثر على معنويات رجالي من الزوج، وكانت منخفضة أصلا لأنهم لا يحبون السير ليلا وسط الأشجار، وكان المساعدون متعبين جدا بسبب الأيام السابقة فلم يكن نصف يوم من الراحة يكفيهم كما أن مياه "حاسي بابو" كان لها عليهم مفعول الإسهال

³¹³ - الواقع أن قبيلة إدوعيش تعتمد على الكثير من المحاربين الشجعان، الذين أثبتوا جدارتهم وشجاعتهم على مر الزمن، فلولا تدخل الفرنسيين فإن أحفاد أبو بكر الصنهاجيين كانوا سينتصرون على بني حسان ويفرضون هيمنتهم على الترازرة ولبراكنة، بعد شريب.

فأنهكت الكثيرين منهم، كما أن بعضهم لم يتمالك أمام النعاس في الساعات الأولى من الليل وبالجملة كان أكثر رجالي من الزوج شبانا حديثي السن. أوقفت القافلة ولاحظت أن شعاع النور الذي كنت أراه بعيد لدرجة أن طلقة من بندقية داخل "التامورت" لن تصل إلى مسامع "إدوعيش"، وكالعادة في جميع مخيمات "البيضان" لا يخلوا الأمر من وجود صياد يدور في المنطقة، ولن يثير ذلك الانتباه خاصة إذا تعلق الأمر بطلقة واحدة بعيدة. فأطلقت رصاصة من بندقيتي الخاصة بالصيد وهي ذات صوت منفض خلافا للأنواع الأخرى، وصدق ظني فما كاد رجالي من "البيضان" يسمعون الصوت حتى توافدوا يحملون القرب مملوءة بالماء صفراء من آثار الطين الأحمر ولكنها باردة وحلوة المذاق، فواصلت التوقف حتى ملأنا الصفائح، وعند منتصف الليل خرجنا من "التامورت" متوجين تقريبا إلى الجهة التي شاهدنا فيها ضوء النار، وقد كانت الأضواء قد اختفت الآن، ومن حسن الحظ أن الأدلاء قد حددوا وجهتنا بالاعتماد على مواقع النجوم وكان الليل مظلمًا، فسرنا ببطء كأننا نتحسس طريقنا، كان الرقيب "مجيكان" في المؤخرة يدفع جماعات من السودانيين يحثهم على عدم النوم ومواصلة السير، وهم يتناقلون، وعند الساعة الثانية صباحًا سمعت طلقة مدفع في الخلف، وفي نفس الوقت أخبرني "مجيكان" أن المساعد السوداني "صمب كيتا" قد تمدد على الطريق غير عابئ بالأوامر ولم يسلم سلاحه وبقي في الخلف، وقد يكون هو من أطلق الرصاصة حين بقي وحيدًا، لقد كاد الملعون أن يفسد علينا يالها من فكرة خرقاء، أكد لي الأدلاء إننا أصبحنا قريبين جدا من المواقع التي حددوها عند انطلاقنا، ولكنهم لا يستطيعون التأكيد بسبب الظلام الدامس، وأصبحت أحتاج لأن أمنح رجالي وقتًا للنوم، فتوقنا والتحق بنا "صمب كيتا" سآحاسبه في ما بعد أما الآن فلا بد من الإخلاء إلى النوم، فانتظرنا طلوع القمر وفي انتظار ذلك طلب مني الدليل "ولد اجاهر" جملا ورجلين متطوعين ليقوم بجولة في المنطقة لقد كان طلبا يتجاوز رغباتي فإذا ذهب هذا "الشوف"³¹⁴ فسأبقى أقاوم النعاس في انتظار عودتهم وأنا الوحيد للقيام بذلك، ولا يمكن أن أنام وعند الساعة الخامسة طلع القمر وعاد رجال "الشوف" مسرعين يلتقطون أنفاسهم بصعوبة وقالوا إن معظم "إدوعيش" يوجد غير بعيد منا وأن الأمير يوجد في المخيم، فقد قال أحد رجالي من "أولاد بالسباع" واسمه "أحمد يوره" إنه

³¹⁴- الشوف: جماعة لاستطلاع الأخبار واستكشاف الأرض.

شرب معه الشاي قبل ساعة حين قدم نفسه بوصفه أحد الفقراء من الزوايا ثم اختفى والتحق برفاقه المختبئين غير بعيد ولاشك أن الأمير "بكار" بدأت تساوره الشكوك وأعطى إشارة الإنذار. يجب إذن أن نسرع، فصرخت "إلى الأسلحة" ثم أضفت "إدوعيش قادمون" فنتسي الرجال التعب واحتسبوا أنهم تحت هجوم مباغت فانتصب كل واحد واقفا كأنما تلقى ضربة سوط، فلا بد من استغلال هذه الوضعية.

أمرت الرقيب "مارين" بتشكيل فرقة احتياط من أربعين سودانيا معهم المدفع الرشاش، وأصدرت له أوامري بالسير خلفنا على مسافة 500 متر تقريبا، وأن يراقب الأطراف ومؤخرة القافلة، وعليه فضلا عن ذلك أن يقود هذه الفرقة المصغرة التي لا تحمل أية مؤونة، فقد أكلنا كل ما لدينا في الطريق حتى بعض المواشي المخصصة للحمل. ثم جعلت رجالي من "البولار" و"البيضان" في المقدمة كجناحين يقودون جمالهم بالأزمة وبعضهم يسير في الخلف ومعه نحو 130 بندقية، وكنا نتقدم بسرعة خلف الدليل "ولد اجاهر"، وبما أننا نسرع الخطى على بعد نصف كلمتر من القمة الصخرية التي يقسمها نصفين ممر وعر رأيت الكثير من الجمال تتماوج كالأسباح وكثيرا من الناس منشغلين في حركة غير منتظمة وكان الوقت باكرا، رأيت إلى ناحية اليمين فرسانا يتعدون مسرعين، لا سك أنهم يريدون إنذار المخيمات الأخرى في هذه الناحية، لن تكون المباغته كاملة إذن، فطلقت مدافعنا مع ذلك لن ينته لها العدو بسرعة، ولكن الهجوم المباغت بصفة مكثفة سوف يريك هؤلاء يوكون لذلك تأثير بالغ عليهم، يجب أن نسرع إذن حتى لا تتمكن المخيمات عند سماع الخبر من أن تهب لنجدة الآخرين، مرت هذه الأفكار كالبرق في مخيلتي، وكنت أحث فرسي الصغير الذي جنئت به من الحسينية متقدما بسرعة صعدت قمة الجبل، واستوليت على المعبر، وفورا صوبت خمس أو ست طلقات من كل جانب كانت تتهاطل على الخيام وتأتي من الأسفل على بعد أقل من ثمانين متر فاختلط الرجال والجمال التي كنت أراها قبل قليل واشتبكوا في فوضى مع الخيام، كان الكل يخرج من الخيام وقد تعالت صيحاتهم وانطلقت المدافع بصفة غير منتظمة في كل الاتجاهات. كنت وحدي أركب فرسا وسط الممر وإلى يميني "مجيكان" ومجموعة "أولاد اببير" و"أولاد احمد"، وإلى اليسار "بلبشير الهواري"، ومجموعة "أولاد بالسباع" كان الجميع يطلق البنادق منبٹحا على الأرض والطلقات تطلق إلى الأمام. كانت أعداد كبيرة من رجال "إدوعيش" يجولون بين الخيام على خيولهم مطلقين البنادق، وبعد خمس أو ست دقائق من

الفوضى العارمة استطاع "أولاد بالسباع" تحت قوة الهجوم أن يتقدموا من ناحية اليسار محاولين تطويق العدو الذي انسحب محتما بأشجار الغابة فقد أجبرتهم على ذلك بقوة الهجوم وتصويب فوهات البنادق والحرب البراقة تحت شعاع الشمس فتقدمنا بسرعة وتجاوزنا الخيام بعد أن أمرت مجموعة "أولاد بالسباع" بالاستيلاء على الخيول وتفتيش الخيام والقضاء على الفرسان المتبقين من العدو الذين كانوا يطلقون علينا النار من الخلف.

لقد فر العدو إلى الغابة تحت وابل من فرقة "البولار" فاندفعنا خلفه مطاردين فوجدنا مخيما جديدا لم يتماسك أمامنا كثيرا لقد سارت الأمور كما نريد ولكن يجب أن نبقي في حالة استتفار فاندفعت إلى الأمام وبجانبتي مجموعة "البيضان" واستولينا على قمة صخرية جديدة موازية للأولى ولكنها سهلة.

لقد اختفى "إدوعيش" بعد أن أعياهم الصمود أمامنا آخذين معهم ما أمكن من المواشي وكانت النساء تمشين مسرعات تحت الغبار متعثرات بالملاحف³¹⁵ وبعضهن يتعثرن بسبب السمنة المفرطة فتجاوزناهن غير مباليين وكانت بعض النساء قد بقين في المخيم يتعارجن تحت ثقل الوزن. وبعد قليل سمعنا طلقات نارية في الخلف من ناحية اليسار كان ذلك من الفرقة الاحتياطية للرقيب "مارين" الذي يصد هجوما مضادا للعدو، لقد استولى الرقيب "مارين" على المرتفع الصخري المطل على ساحة المعركة وبالإضافة إلى مدافعه الأربعين فقد استعمل المدفع الرشاش وفي طرفه عين توقف هجوم "إدوعيش" وفروا على طول الخط مجتازين سهلا صخريا يمتد أمامنا ومن موقعنا استطعنا إصابة عدد من الجمالين ثم ذهبنا نجتمع الجمال المتناثرة ترعى العشب في هدوء بين الكتل الصخرية.

ومن هنا بدأت المطاردة فانطلقنا في دفعات تتخللها طلقات من البنادق من أجل دفع العدو إلى الأمام إلى الشمال الشرقي باتجاه مواطن "أولاد الناصر" و"كننة" في الحوض³¹⁶، ولكي يبتعد عن مناطق "أهل سيد محمود"، ولهذا كنت أدفع أكثر من ناحية اليمين فطاردت

³¹⁵ - الملاحف جمع ملحفة وهي لباس من النيلة خاص بنساء "البيضان" يغطي جميع الجسم فهو في نفس الوقت كسوة وثوب داخلي (هامش "افيرير جان"). ويبلغ طول الملحفة نحو 5 متر تلتحف بها المرأة تاركة طرفها على الرأس ومن المطلوب أن تبقى أطرافها تحت الأقدام وهو ما يعيق المشي ولكن يمكن أن نرى الكعاب والسيقان وما فيها من خلخل من الفضة عبر فتحات الملحفة أثناء المشي.

كما أن السمنة إن لم نقل البدانة المفرطة من صفات النساء والأخص بنات الأسر القيادية، ويدل ذلك على الثراء ووفرة المواد الغذائية، وكثرة الخدم الذين لا يتركون عملا تمارس المرأة من خلاله رياضة بدنية.

³¹⁶ - "أهل سيد محمود" من حلفائنا أما "أولاد الناصر" و"كننة" فهم خصوم تقليديون "لإدوعيش".

العدو على مسافة ستة كلمتر دافعا إياه أكثر فأكثر إلى الفرار كأبعد ما يكون. وعند الساعة الثامنة انتهى كل شيء واختفى آخر فلول "إدوعيش" في الأفق مع القطعان التي يدفعونها أمامهم بصعوبة بالغة فعدت إلى مخيمهم برجالي ونحن في بلدة "بوكادوم".

لقد كانت معركة "بوكادوم" انتصارا حقيقيا وكانت معركة طاحنة أكثر مما كنت أتصور فقد كان هجومنا الأولي المباغت على قدر كبير من الفعالية. لقد أصيب الأمير "بكار ولد اسويد احمد" بجروح مميتة بين خيمتين وبقيت معه اثنتان من بناته هما الآن تحت قبضتنا وقد أخبرنا بعض الزوايا الموجودين في المخيم أن إحداهن هي زوجة "سيد المختار" أحد رؤساء "أهل سيد محمود" فأعطيتها جملا لكي تذهب إلى أهلها وحملتها بتبليغ تحياتي إلى زوجها حليفي القديم سنة 1893م.

أما بنت "بكار" الثانية فقد كانت حديثة السن وتكره الفرنسيين بشدة وقد عرفنتي على نفسها فسمحت لها وأختها بإدخال جثمان والدهما تحت إحدى الخيام وقد كانت تخشى من أن نقطع رأسه وقد فاجأها ما لم تكن تتوقعه من حسن معاملتنا له، فبكار لم يمت ولكنه كان في عداد الهالكين بسبب جروحه البالغة³¹⁷ لقد خرج "بكار" من خيمته أثناء فرار القوم من حوله وتجاوزناه أثناء الهجوم دون أن نراه ولكن واحدا من مجموعة "أولاد بالسباع" يدعى "أعمر ولد بيكر" وهو خال "محمد ولد أعمر" كان منشغلا بجمع الخيول بين الخيام فرأى هذا الرجل الضخم ذي القامة الطويلة يبتعد متثاقلا (كان طول بكار مترين وهو مصاب بجروح بالغة تعرقل حركته) فصرخ عليه الرجل "يا هذا هل أنت بكار؟" فرد عليه العجوز الجريح بطلقة من بندقيته فجاءه الرد من أعمر بطلقة نارية من بندقية أوتوماتيكية طرحته أرضا، فوقف فوقه "الحرطاني" "ابيليد" وأفرغ ما في جعبة بندقيته في جسمه عن قرب فاستولى "أعمر" على بندقية "الأمير" الذي كان يستجديهم بأن لا يتركوه حيا.

دخل "أعمر" في خيمة مجاورة واستولى على "ختم الأمير" وأخذ لحافا فألقاه على جثمان العجوز الذي تجاوز التسعين سنة وهو ما زال يتنفس بصعوبة وعلى هذه الحال وجدت جثمان "بكار" حين وصلت المكان كان عمره سبعة وتسعين سنة يومها وهو أمير قومه منذ

³¹⁷ - "البيضان" لا يقطعون رأس العدو المقتول؛ أثناء بعثة "تكانت" حصلت عدة حالات تمثيل بالقتلى، ومن أمثلة ذلك ما فعله المجندون الجزائريون ربما ورثوا ذلك التقليد عن الأتراك أو فعله المساعدون السودانيون الوثنيون. إن قلق بنات بكار وارد فقد كانت إحداهن تتوعد بأن تأكل لحم أول فرنسي يقع بين يدي أهلها وهذا يفسر عدم حماسة مجموعة "أولاد اببيري" عند اقتراب الهجوم على "إدوعيش" المعروفين ببسالتهم في القتال.

خمس وسبعين سنة، ويعتبر "بكار" أقوى أمراء "البيضان" على الإطلاق وانتصر على جميع من دخلوا معه في الحرب باستثناء "الترارزة"³¹⁸ لم تشارك في معركة "بوكادوم" سوى الفروع القيادية "إدوعيش" وخاصة أمراء "أهل اسويد احمد" وأعتقد أنني واجهت في هذه المعركة نحو 200 مقاتل ومع أنهم علموا بصفة غير دقيقة بانطلاقنا من "الحسينية" عن طريق بني عمومتهم من "إيدولحاج"، فإن "إدوعيش" لم يحملوا الأمر على محمل الجد، ولم يكونوا في انتظارنا ولو كان الأمر كذلك لكانت الغنائم كبيرة وعلى كل حال أخذنا تسعمائة جملا وناقاة وفصيل منها 150 "لأهل اسويد احمد" و 200 من الضأن وسبعة خيول للأمير. كان علي أن أعود من "بوكادوم" إلى "تجكجة" التي يجب أن أصلها يوم 10 إبريل ولم أكن أريد أن أعرقل السير بكثرة المواشي فأنا أتذكر ما سببته لي من متاعب غنائم "تنشيبه" وأعرف تأثير ذلك على القافلة أثناء المسير المتواصل.

فلم آخذ من خيم "بكار" إلا ما خف وزنه وغلا ثمنه وكان يفيد أثناء الرحلة: أدوات الطبخ، المراجل والأواني والقرب والذرة والملح والسجاد المغربي و"التيسوفرن" و"الرواحل". والإضافة إلى المائتين من الضأن التي أخصصها لمئونة الطريق سمحت لكل رجل بأن يأخذ معه كبشين أو ثلاثة شريطة أن تذبح في الأيام الأولى للطريق فأصبح عندنا ما مجموعه 1600 من الضأن وكان يمكن أن آخذ معي عشرة أضعاف هذا العدد ففضلت ترك ذلك، وأخذ الأدلاء بعض الثيران لأنفسهم وأخذت اثنين أو ثلاثة لتغذية الأوربيين³¹⁹ والباقي كله من قطعان وخيام بمحتوياتها تركته في عين المكان على حاله، فلم نضرم النار في أي شيء

³¹⁸ - دامت إمارة "بكار" ولد اسويد أحمد" فترة طويلة جدا ولكن "افير جان" قد زاداها بعض الشيء لأن "بكار" ولد نحو سنة 1816م وخلف أخاه في إمارة "إدوعيش" سنة 1836م (وهو ما يعني 69-70 سنة من الإمارة و89-90 من العمر وهذه على كل حال فترة طويلة) والرجل فريد عصره من حيث الذكاء والحكمة السياسية واللباقة الدبلوماسية والشجاعة في الحرب والشهامة: فصيت ومكانة قبيلته من صنعه شخصيا. ويقول "أملحات" إن "بكار" يمكن أن يفخر بأنه "تعامل مع كافة الحكومات الفرنسية منذ "الويس فيليب"، و انتصر على جميع القبائل حتى "تنبكتو" وانتصر على "فيدرب". تنقسم فترة إمارة هذا الأمير الفذ إلى عدة مراحل:

- من 1836-1890: حارب القبائل المجاورة وخاصة "كنتة" وبني حسان لتوسيع نفوذه إلى "تكانت" وجنوب شرق "موريتانيا"؛
- من 1890-1900: ترسخت سلطته في الجنوب وحاول توسيعها إلى "آدرار" بخوض الحرب ضد "كنتة" وخاصة ضد "أولاد اجعفريه" وانتصر في ذلك؛

- تدخل الفرنسيين في جنوب "موريتانيا" جعله يتخلى عن غزوة الشمال وحاول تعزيز المواقع المهتدة من طرف "كنتة" المحالفين مع "كبولاتي"، ومات مقاتلا في معركة "بوكادوم" مية جديرة ببطل أسطوري مثله.

³¹⁹ - تعطي هذه الأعداد فكرة عن ثروة أمراء "إدوعيش" ولكن يجب أن نذكر إلى جانب ذلك عدد الأشخاص: الأمراء وأفراد أسرهم، ولكن أيضا وزبناؤهم وخدمهم الذين يعيشون على هذه المواشي.

كالعادة³²⁰ وقد فعلت ذلك عن قصد أولاً لعدم وجود الماء في "بوكادوم" كما لم يكن أمامي من الوقت ما يكفي لأخذ المزيد من الماء بالعودة إلى بوبال ثم إنني ارتأيت أن من المفيد أن أهيب للتحالف مع "إدوعيش" بدلاً من "كننة" غير الأوفياء والأثانيين بناء على المبدأ القائل "لا تستند إلا على ما يمكن أن يصمد" كما أن "كبولاني" قد أمرني بالتصرف هكذا فقد كان يريد تلقين درس "لإدوعيش" ولكنه لم يكن يقصد تحويلهم إلى أعداء أبديين لا يمكن التصالح معهم بسبب الإهانة. فالبيضان عموماً يمكن أن ينسوا كل شيء إلا الإهانة، فهم يتشبثون بالكرامة ولكن لا يحقدون على من حاربهم بشهامة ولم يذهب تصرفي هباء³²¹ فقبل مغادرة "بوكادوم" علمت أن مجموعات "أنجيات" و"الجلابه" حين بلغها خبر موت بكار وهزيمة القبائل الأميرية، قد غادرت "بالديزوك" بسرعة، وأن أولاد طلحة الذين كان مخيمهم مع مخيم "آكوانيت" عند عين النعاج لم يكونوا حاضرين أثناء معركة "بوكادوم" فقد غادروا إلى الغرب من أجل النهب وأن "أهل اسويد" و"أولاد انتوفه" وهم أقلية قد استقبلوا فلول "إدوعيش" المنهزمين عند "بشيبي" فلم يعد لدى إذن ما أفعله هنا فقررت التوجه فوراً نحو "تامورت بيبال".

رحلة عبر "تكانت":

لقد كان الدرس الذي لقنته لإدوعيش كافياً من وجهة نظري، فقد خلفوا مخيماً مكتظاً بجثث الرجال والخيول وآثار الدماء وغنماً منهم الكثير من البنادق من بينها بندقية الأمير "بكار" وحملنا كميات كبيرة من البارود والذخيرة وخاتم الأمير و"التاسوفره" الخاصة به وبها وثائقه ووثائق الأمراء الحاضرين معه الذين يدينهم بعض هذه الوثائق وكان علي أن أسلم كل هذه الأشياء للسيد "كبولاني".

فحملت الجميع على الجمال وانطلقنا بسرعة أكثر من سرعتنا ونحن نستخدم الثيران، وكانت القافلة تحمل أيضاً مئونتنا وما تزودنا به من المخيم. وكنا قد سرنا ستة أيام بمئونة خمسة فقط ولكن بما أنني كنت أعطي للرجال نصف الحصاة فقط من الأرز فقد بقي معي ما يكفي ليومين ونصف وبالمقابل ذبحت جميع ثيران الحمل حيث كنت أعطي نصيباً مضاعفاً

³²⁰ - من عادات الحرب عند البيضان.

³²¹ - فعلاً خلف أفرير جان في موريتانيا سمعة المقاتل الباسل والشهم (كان أصدقاءه وأعداؤه على السواء يقول إن لديه بركة، وهو ما لم ينفه قط) وهو ما كان وفيماً وسخياً وقد قدر الناس على الخصوص حسن معاملته لأبناء وبنات الأمير بكار.

من اللحم كل يوم كما ضحيت أثناء المسير بجميع الجمال التي لم تعد قادرة على الإسراع،
فبهذه الطريقة تمكنت من الوصول إلى "بوكادوم" ولم يتبق عندي سوى ثور واحد للحمل وكان
رجال "البيضان" يركبون كل اثنين على جمل وكنت دائما أعوض الناقص من حصة الأرز
بزيادة حصة اللحم. وفي "بوكادوم" استبدلت الأرز بالذرة وفي طريق العودة أصبح رجالي
يتناولون غذاء متكاملًا بغض النظر عما التهموه من لحم الضأن فذلك دعم إضافي.

فبهذه الطريقة استطعنا أن نعيش بمئونة خمسة أيام لمدة خمسة عشر يوما كما أنني
أعطيت جميع رجالي مراكب جديدة وكان القادة يركبون خيل الأمير بكار.³²² غادرت
"بوكادوم" عند الساعة العاشرة صباحا مصمما على أن أبلغ نقاط الماء عند الزوال، ولحسن
الحظ أن رجالي تمكنوا بعد المعركة من إرواء عطشهم من قرب الماء الموجودة في الخيام لأن
الأدلاء كانوا يفسدون علي الكثير من الوقت.

كانت الشمس في كبد السماء وبدأ الرجال يشعرون بالعطش حين وصلنا إلى ترعة ماء
فبدأت بشراب مجموعة من الرجال ثم أمرتهم بقيادة الرقيب "مارين" ومعه المدفع الرشاش بأن
يأخذوا مواقعهم على الهضبة المطلة من بعد على الغابة و"التامورت". ثم بدأت بشراب بقية
الرجال والمواشي وحملت مئونة الماء ونحن تحت حماية الفرقة المراقبة على الهضبة وعند
الساعة الثانية والنصف بعد الظهر رأيت نحو مائة وخمسين فارسا يدخلون الغابة، يبدو أنهم
يعدون لهجوم مباغت فوجهت فوهة المدفع الرشاش إلى "التامورت" وأطلقت وإبلا من
الرصاص لكي أنبه رجالي من جهة ولكي أنذر الفرسان القادمين من جهة أخرى بأنهم تحت
الرقابة وأصدهم عن الاقتراب، وفورا بعد طلاقات المدفع لاحظت أنهم تفرقوا مبتعدين مخلفين
وراءهم بعض الفرسان ربما من أجل مراقبتنا. كنت أظن أنهم يعدون للهجوم علينا ليلا
فغادرت المكان مع ساعات النهار الأخيرة لأستقر في موقع آخر غير بعيد محتميا بين
الصخور وهو موقع كنت قد تعرفت عليه قبل ذلك بساعات وتركت النيران مشتعلة في الموقع
القديم وجهزت المدفع الرشاش لإطلاقه في كل اتجاه عند الحاجة، لاحظت أن بعض العسس
المتجولين جاءوا فقط إلى موقعنا القديم رأيت أشباحهم من بعيد على ضوء النار من موقعنا

³²² - مثل هذا النظام الغذائي الغني باللحم وهذه المعاملة (إعطاء الخيل للقادة) تجعل من رجال "افيرير جان" رجالا أوفياء لقائدهم، وفي مطلع هذا القرن العشرين كان يوجد الكثير من المأجورين.

القابع في صمت مطبق تحت الظلام الدامس، ولكن بضع طلقات من البندقية كانت كافية لجعلهم يفرون وهكذا قضينا ليلة هادئة.

علمت فيما بعد أن هذه المجموعة من فرسان "إدوعيش" إنما قدمت لاستطلاع ما نفعله نحن في عين المكان لأن "إدوعيش" لم يغادروا "بديزوك" بشكل كامل ولم يكونوا يعتبرون أنفسهم في مأمن من أن نهاجمهم في الليل.

فبواسطة رجال قد تمتعوا بالراحة ومعلومات أدق عن الخصم كنت مستعدا لذلك. تأكدت يوم 2 إبريل أثناء النهار من أن "إدوعيش" قد ابتعدوا بالكامل رغم النيران التي شاهدناها في الليل ورغم ما رأيناه من حركة الفرسان لقد حان الوقت لأخذ طريق العودة إذا كنت أريد فعلا أن أكون في "تجكجة" يوم 10 إبريل طبقا للأوامر فقررت أن نسلك الطريق الذي جئنا معه ما دمت في منطقة الخطر أي لمدة يوم أو يومين من المسير وهي طريق معروفة تجنبنا مشاكل الماء، فكان علي إذن أن أنزل للراحة عند "حاسي بابو" حيث قسمت الغنائم بالقسط بين مختلف مجموعات "البيضان"³²³ وأحكمت تنظيم القافلة بطريقة دفاعية وأرسلت حراطين "تجكانت" الستة إلى "حاسي اكوبفه" مع بعض الغنائم لتعويض من تضرروا أثناء مرورنا من هناك ويوم 3 إبريل. وعند الساعة السابعة مررنا بوادي الروضة حيث توجد قبور أجداد "سيدي المختار" وقادة "أهل سيد محمود" وفجأة سمعت طلقات البنادق في طليعة الركب وفي نفس الوقت نبهتني مجموعة "أولاد أبييري" إلى وجود قطيع كبير يسير في الاتجاه المعاكس لنا وبعد قليل جاءوني برجل من "تاكاظ" كانوا أمسكوا به وقال إن القطيع يمثل جزءا من مواشي استولى عليها "أولاد طلحة" الذين سطوا على "تاكاظ" يوم 29 مارس في شكار، فهم عائدون إذن من "البراقة" ومعهم 500 ثور و 1000 من الضأن وبعض الحمير والجمال.

وتجدر الإشارة أنه في وقت حصول هذا النهب كان وفد من "إدوعيش" يسير في الطريق لمقابلة "كبولاني" وقد يكون الوفد قد وصل فعلا إلى "الحسينية" وهذا يعطي فكرة عن قلة الإخلاص في المفاوضات التي يقوم بها هذا الوفد كما يقول رجال "مسومه" فهذا الوفد كان يهدف إلى مجرد كسب الوقت. وفور اكتمال التعرف على الرجل وقصة القطيع أمرت بمهاجمة "أولاد طلحة" بواسطة مجموعة من رجال البيضان مدعومين بفرقة من السودانيين،

³²³ - يمتثل "فرير جان" هنا لما جرى عليه العرف في الغزو عند "البيضان".

وبما أنني أجهل عدد من سنواجههم ففقت من باب الحزم بتوجيه المدفع الرشاش إليهم واستنفرت جميع رجالي.

وعند الساعة الثامنة والنصف ذكر المجندون أن "أولاد طلحة" تكبدوا قتيلين وجريح واحد وقد فروا مخلفين وراءهم مواشي "تاكاط" الذين كانوا قد أجبروهم على مرافقتهم للاعتناء بالمواشي. ثم واصلت المسير في اتجاه "إمشكاون" بعد أن خلصت "تاكاط" من ورطتهم وفي هذا الموقع تناولنا طعام الغداء ومن هنا تركت طريق الذهاب ونزلت في المساء عند بئر "بوجار" على الكئبان خلف "تقادت انجكو". ومع حلول الليل لحق بي جميع رجالي ومتعبين ولكنهم قد قتلوا ثلاثة من "أولاد طلحة" وسلبوهم ما أخذوه من جمال فأعدت فورا إلى "تاكاط" قطعانهم وخمسين ثورا أما بقية الثيران فقد أخذتها معي بالإضافة إلى رعاتها متوجها بها إلى "تجكجة" حيث يعاني "كبولاني" من نقص حاد في اللحم فتستطيع البعثة بهذه الطريقة أن تشتري عددا كافيا من الثيران للتزود باللحم الطري.

وفي يوم 4 إبريل ذهبت من "بوجار" إلى "بوكعاره" عبر سلسلة من الكئبان ذات الارتفاع المتدرج شيئا فشيئا نحو الشمال الغربي مشكلة سلسلة مرتفعات رملية يشقها ممر يقودنا إلى السهل المؤدي إلى بئر "بوكعاره" حيث توقفنا للمقيل وعند الساعة الخامسة مساء استأنفنا المسير بأقصى السرعة في اتجاه "فوك" حيث نزلنا في الليل على مرتفع يطل من بعيد على المنطقة كما يطل على "تامورت تنبل" ذات البساط الأخضر.

ويوم 5 إبريل وصلت عين فوك بعد خمس ساعات من المسير حيث اجتزنا أولا مجموعة كئبان متراكبة بعضها فوق البعض وتسلقنا مجموعتين من الهضاب الصخرية تسمى "كلب"³²⁴ لاسكارينا" و"كلب غينم حيران" وعلى سفح هذا الجبل وجدت نفسي أمام شق سحيق يبلغ مائة متر داخل الرمال.

نزلنا طيلة عشرين دقيقة عبر ممر صخري صعب الاجتياز لنتهي إلى ما يشبه السطح الدائري تحده من الشمال هضبة "تكانت" مرتفعة بشكل عمودي³²⁵ وفي عمق هذا المنبسط وعلى سفح سلسلة بارتفاع ثلاثين مترا يوجد قاع بئر جافة لم نستطع أن نجد فيها ماء لشراب الثيران التي أخذناها من "تاكاط"، فصعدنا من جديد إلى الشمال الغربي وعبر

³²⁴ - كلب ومعناها "قلب": هكذا يسمون الهضاب الصخرية.

³²⁵ - هذه الهضاب العمودية ذات السفوح الصخرية تسمى "الظهر".

الممر وصلت إلى معبر صخري به دومة كبيرة تجري في أسفلها عين ماء رقراقة هي عين "فوك" كان الماء باردا ونقيا ولكن هنا أيضا لم تكن الكمية كافية لشراب الثيران اللهم إلا إذا كنا سنقضي بقية اليوم وكل الليل لسقي المواشي مع أننا لا يحتمل أن نتعرض للهجوم يجب أن لا نخاطر بمثل هذا التصرف، فلا يمكن أن ننام في مثل هذه المهلكة مهما كان منظرها الطبيعي خلابا. فكرت في كل ذلك وأنا أتناول طعامي تحت الدومة.

ولكي أخلد مروري من هذه البقعة التي لم ترها عين أوربي قبلي كتبت بحريتي على جذع الدومة تاريخ ذلك اليوم 5 إبريل 1905م وكان جنود "بونا بارت" قبلي قد حفروا أسماءهم على أهرامات مصر.

ولكن أليست "تنشيبية" على مسافة قصيرة في ناحية الشمال الشرقي؟ هناك سأجد ما يكفي من الماء لشراب المواشي في منقطة أعرفها فقد اجتزتها يوم 8 مارس كما أعرف أنني من الغد سأكون في وسط سهل ممتد يمكنني إذن أن أمكث فيه لأمنح رجالي صبيحة كاملة من الراحة. في مساء يوم 5 مع حلول الليل كنت في "تنشيبية" بين عين "فك" وهذه النقطة كان الطريق صعبا قضيت ثلاث ساعات لقطع مسافة قصيرة رفض جال "تاكاط" مرور ثيرانهم منها وكان هدفهم من وراء ذلك أن يتوجهوا بمواشيهم إلى "شكار" ولكي أتخلص منهم، وهم قوم ملحاحون في الطلب سمحت لهم بالانفصال عنا.

يوم 6 استرحنا في "تنشيبية" حتى الساعة الثانية بعد الزوال وتزودنا بالماء ولكننا عند الانطلاق لم نسلك طريقنا السابق يوم 9 مارس وسرنا بسهولة نحو الشمال عبر سهل "لحصيره" الصخري.

يوم 7 إبريل انطلقنا في الصباح وعند الساعة السابعة تجاوزنا القمة الصخرية للكديية وقضينا ساعتين لتجاوز معبر "اتوريجات" ثم وصلنا إلى وادي ضيق حيث توجد كتلة "آموزل" التي انطلق منها "إدوعيش" في فبراير الماضي لمهاجمة المسيو "دري" وكان الماء في "الكتلة" ملوثا برجيع وأبوال الحيوان فكانت سوداء غير صالحة للشرب فمن ماء هذا الكنيف حملنا مؤنثنا وتأخر الكثير من الرجال في هذا اليوم بسبب التعب، رغم أنني منذ "بوكادوم" قد خصصت لكل مجموعة جملين من أجل حمل القرب والأمتعة والرجال. ولكن المجندين من حديثي السن كانوا يفتقرون إلى ارتفاع المعنويات والامتثال للأوامر لكي يصمدوا أمام التعب أثناء السير المتواصل ولكي أحافظ على هذا الجمع لجأت إلى وسائل عديدة:

التوقف عدة مرات، منع الحراس من مساعدة المتخلفين أو حملهم على الجمال ثم معاقبة المتخلفين عند الوصول مركزا في نفس الوقت على زيادة حصة اللحم في الوجبات فبهذه العناية المستمرة تمكنت من الوصول إلى "تجكجة" برجالي بكامل أعدادهم.

وبما أنني قضيت النهار في "آموزل" فيمكن أن أعول في المساء على مياه "آتويرت" حيث وجدت ما يكفي من الماء الجيد وعلمت من جماعة "تكجانت" العاملين في زراعة هذه الحقول أن فرسانا قدموا من "تجكجة" بحثا عنا ومروا بهذا المكان.

يوم 8 إبريل من الفجر حتى الساعة الثانية بعد الزوال سرنا دون توقف باتجاه بلدة "المجرمة" حيث قال لي "تكجانت" المقيمون في "آتورت" إن بها ماء نقيا.

لقد قضينا يوما متعبا كالكثير من أيام موريتانيا في شهر إبريل ومايو وقد صمد الرجال على المشقة حتى وصلنا الآبار ولكنها كانت جافة باستثناء بئر واحد فقمنا بتقديم الماء بمقادير محددة لكل رجل، ولم ينته التوزيع إلا في الليل ولم يتمالك أحد رجال "البولار" وهو حديث السن من تحمل الانتظار فسقط جثة هامدة مغشيا عليه وكان لابد من علاجه. إنها ضربة حر ومع ذلك تمكنا من إنقاذه لكن بمشقة كبيرة. أرسلت رجالي بكافة القرب ليملئوها من "تنشيه" وذهبوا بكافة المواشي لتشرب وعاد الجميع في الليل بعد أن شربوا وتزودوا بما يكفي من الماء.

يوم 9 مساء عبرت ممر "إفرشية" وعند الساعة السادسة والنصف صادفنا آثار البعثة التي توجهت في الأيام السابقة من "الحسينية" إلى "تجكجة" وقد بدت على الآثار خطوط بسبب العجلات التي تحمل المدفع وهذا دليل لا يقبل الشك مما أكسب الرجال المساعدين معي مزيدا من الثقة رفع معنوياتهم.

اجتزنا ممر "إفرشية" الصخري المتعرج واصطدنا بعض الدجاج الوحشي ذي اللحم الشهي وعند الساعة الخامسة أدركنا الليل عند "النيملان" وكانت الآبار جافة تماما مثل مثيلاتها في بلدة "المجرمة" ولحسن الحظ كانت قربنا ملاً بالماء من "تاورتار" على قلة جودته.

وفي النهاية اجتزنا المصاعب دون خسائر وها نحن يوم 10 إبريل سنصل إلى "تجكجة" ولم يكن الأمر بدخولها في هذا التاريخ صارما ولكنني حريص على الإتيان في الموعد المحدد باليوم والساعة وقد اختفى كل احتمال لملاقات العدو نظرا لقرب وصولنا من مقر البعثة فقسمت القافلة إلى ثلاثة ألوية. فكنت في المقدمة على رأس جماعة الحراس

وفرتين من "البولار" معي "مجيكان" و"لبشير الهواري" وخلفنا الغنائم والمواشي يسوقها الزوايا المرافقون لنا تحرسهم فرقة السودانين وفي المؤخرة خلف المواشي تسيير فقرة الحراسة الخلفية تحت إمرة الرقيب "مارين" وفيها الفرقة الأخرى من السودانين ومعهم المدفع الرشاش ولدى اللوئين الأخيرين أمر بالسير حسب خطاهم المعتادة دون الاهتمام باللواء الأول الذي سيملأ القرب فور وصوله ويعيدها إليهم.

في تجكجة

من "انيملان" الذي غادرته عند الخامسة صباحا وصلت عند الساعة الواحدة بعد الزوال إلى مشارف واحدة تجكجة والحقيقة أنني كنت متعبا وجائعا وليس لدي وقت لملاحظة المناظر المحيطة بي ومع ذلك فهذه الواحة الواسعة من النخيل كما لم أر قط في موريتانيا³²⁶ فاجأتني كثيرا فهي تمتد داخل منخفض من الأرض ويجب أن يكون المرء في مكان مرتفع ليشاهدها وخلف واحة النخيل توجد المدينة ذات المباني الحجرية ذات اللون الرمادي والأشكال المكعبة شبيهة بكومة من أحجار النرد المتراسة في غير انتظام.

مررت في المقدمة على فرسي الأبيض "الغزالة" الذي تعود إلى أحد أبناء "بكار". هذا الحيوان ذو البنية القوية المدرب بذيله المصبوغ بالحناء كان مطيتي منذ غادرنا "بوكادوم" ومعى كذلك فرسي الصغير الذي جئت به من "الحسينية" ويركبه "مجيكان" في هذه الرحلة. وباستثناء مطيتي ذات المظهر الرائع فإنني أبدو شخصا رث الثياب كقطاع الطرق لأول نظرة وببيدي هراوتي الغليظة وأحتاج إلى أن استحم بنهر من الماء ورطل من الصابون. لم أنزع الأخفاف الحمراء عن أقدامي منذ خمسة عشر يوما وأتساءل ما إذا كان جلدي سيتساقط عند نزعها وكانت كسوتي من قماش "الكاكي" بالية وسخة رغم أنني أخذت حماما وحلقت ذقني لم أسترجع بياض بشرتي كما بدا لي حين استطلعت وجهي في المرآة، كان لوني شاحبا كأنما احترق تحت أشعة الشمس، وكانت نظاراتي مثل عمال المناجم أو المتشردين، وبداي بلون الشوكولا أما القفازات فكان عهدي بها فرنسا.

استقبلنا الرفاق ولكن صادف قدومنا وقت استراحة القيلولة فبقوا تحت خيامهم ولم يخرجوا من الواحة سمعت زغاريد نساء المدينة من "البيضان" سمرا وسودا داخل مقر البعثة على خطوات أمانا. وبإشارات كبيرة كان رجالي يحكون قصة رحلتهم وما صادفوه من غرائب وهم يرفعون الأسلحة التي غنمناها من "إدوعيش" وتقلت بندقية "بكار" بين الأيدي وكان الجميع يتعرف عليها ثم جاء دور السجاجيد المغربية وكانوا يذكرون أسماء ملاكها ثم جاءت "التاسوفره" وما فيها من حاجات كثيرة العدد عديمة القيمة جمعناها في "بوكادوم" ولكنها أثارت

³²⁶ - تمتد الواحة على مسافة 40 كلم.

فضول الجمهور، وكانت أعداد الناس تزداد شيئاً فشيئاً حول الرجال القادمين الذين يتقدمون وهم يتحدثون بصوت مرتفع فوق الجمال لقد كذب أهل المدينة ممن يعرفون الأمير "بكار" خبر موته فذلك مستحيل حسب رأيهم.

الحسين، نجل الأمير بكار الذي بقي في معسكر البعثة بعد ذهاب وفد "إدوعيش" والذي خرج للتو ليرى مشهد قدومنا، عاد أدراجه مقطبا واختفى داخل خيمة المترجم "بو المقداد". دخلنا واحة النخيل أوقفت رجالي من "البولار" وكان رفاقهم من "البولار" المرافقين للمسيو "دوري" يحيطون بهم مصافحين وكان الناس يسألونهم عن التفاصيل.

لخص السيد "بخار ودو" الرأي العام قائلاً إنني رغم بسالتي في المعركة كنت قاسياً جداً أثناء المسير. لا يهم، فقد سمع المنتصرون الرومان قبلي مثل هذه التعليقات. كان رجالي مزهوبين بعض الشيء وهذا طبيعي ولكنهم في الواقع محتاجون لأخذ قسط من الراحة فأوكلت أمرهم إلى الرجل الشجاع "رافين" الذي نقلهم إلى موقع إقامتهم المؤقتة تحت النخيل، حيث قدم لهم العمال من الزوج وغيرهم من أفراد الوحدات الأخرى الطعام و الشراب وتعالج ضحكاتهم وتعليقاتهم وهم يتضاربون الأيدي متبادلين سلسلة غير منتهية من عبارات التحية وهم يحتاجون قبل كل شيء لأن يبقوا متمددين نائمين لمدة طويلة، وأعتقد أن ذلك أصبح في وسعهم الآن³²⁷.

نزلت عن جوادي تحت النخيل وكان في استقبالي السيدان المسيو "أرنو" والمسيو "كولوباني" على التوالي صديق وسكرتير السيد "كبولاني" فعانقاني ورافقاني حيث يوجد "كبولاني" في كوخه المظلم ولكن الجو داخله بدالي أكثر برودة مما كنت أتوقع.

- "آه، ها أنت عدت" خاطبني الأمين العام ثم أخذ نفساً طويلاً يكفي لإدارة مروحة طاحونة هوائية يبدو أن قلقه قد تبدد الآن إذ لم تنقصه التقديرات المتشائمة والأخبار الكاذبة أثناء غيابي فلا يبدو من سحنتي المبتسمة أنني فشلت في المهمة لقد أشاعوا أنني ضللت الطريق أو قتلت أو هزمت وبقيت الحال كذلك حتى وصل خبر معركة "بوكادوم" ليستعيد "كبولاني" تفاؤله ويخسأ من أشاعوا الأخبار المضللة الكاذبة، كم هي ساعات قلق طويلة عانى منها هذا الرجل، ارتسمت على وجهه ابتسامة الارتياح كعادته عند ما تسير الأمور على ما

³²⁷ - لقد روى "روبرت روندو" مشهد قدوم فرقة "افرير جان" إلى "تجكجة" بأسلوب رائع في كتابه "المستكشفون" الذي ذكرناه سابقاً وكان شاهد عيان على ما حدث.

يرام ولكنه لا يتكلم وأنا كذلك وقد تأكد ذلك في جو التعب والفرحة بقدمي بعد خمسة عشر يوما من العزلة وعندما صافحني بقوة ونظر إلي مليا دون أن ينبس ببنت شفة أدرك حقيقة ما أشعر به فخاطبني قائلا:

- "لا شك أنك تشعر بالجوع؟"

- "إلى حد ما سيدي الأمين العام"

- "إذن ستتناول الغداء معي وتقص علي متاعبك أيها المتمرّد العجوز"

- "مستعد... ولكن لدي كثير مما أقوله ولكن من الأفضل أن أتناول الطعام أولا"

وأثناء إعداد طاولة الطعام قدم الرفاق وفي مقدمتهم سيكولي والإخلاص بارز على

وجهه المنتفخ ثم المسيو ري المنشرح لرؤيتي فخاطبني قائلا:

- "لقد قتلتموه إذن" يعني عدوه بكار.

- "ليس تماما، قلت، ولكن موته مسألة أيام قليلة".

فرك يديه ثم دخل النقيب "باين" والنقيب "جيرار" والملازمون الآخرون ومجموعة

الموظفين وكانوا يوجهون إلي عبارات الإطراء جميعا مع أن المخلصين بعض منهم فقط.

ولكن الإطراء لا يؤكل فمنذ عشرة أيام وأنا ألك الأرز واللحم والأرز وسأكون أفضل

إذا جلست حول طبخ حقيقي، ها هو الطباخ "جالو" يدخل ومعه أطباق شهية إنها اللحظة

الرسمية كنت أتصور جوعا وذلك يروق للسيد "كبولاني" فنظر إلي مزهوا وأنا ألوي وأقضم

وأبتلع فخاطبني قائلا:

- "هل تريد خمرا؟" وشرع يسكب في الكأس فابتلعت ما فيها بعد أن شكرته وعلقت "هذا

رائع" وأنا أمسح شاربي وفمي.

لقد كان الشراب بحق كفارة للمياه السوداء الوسخة "لامزوزل" و"تاورتا". لقد كان

اختراعا يضاهي اختراع أيبينا نوح، وبعد أن أخدمت نار الجوع حان وقت الحديث وقص كل

شيء على المائدة والرد على الأسئلة والحديث إلى الجميع ولحسن الحظ وكان توالي الأطباق

على فترات يمنحني فرصة للتوقف من حين لآخر وأخيرا انتهى تناول الطعام وأستطيع أن

أذهب لأعتني بشأني الخاص، وكنت مرتاحا لأن السعادة تبدو على "كبولاني" وهو ينظر إلي

وذلك يعني أنه مرتاح لأدائي وأداء رجالي وما أنجزناه لقد كنت مرتاحا لنظرته في صمت

وأفضلها على خطاب من عبارات الإطراء، خاصة وأن الإطراء الكثير جاء بوجه خاص من

أكثر الرفاق حسدا لي أما الآخرون، ولا يتجاوزون عدد أسابع اليد الواحدة، فاكتفوا بالتعبير عبر نظراتهم وملامحهم ذات الدلالة البليغة فذلك بسيط ومعبر فهؤلاء السعداء مرتاحون حقا لانتصاراتي.

ورغم التعب الشديد الذي عانى منه رجالي فلم أسجل في النهاية أية حالة مرض ولكي يستعيدوا قواهم يلزم جنودي من الشباب قسط كاف من الراحة والراحة فقط والتغذية الجيدة وذلك ما وعدني به "كبولاني" ولم نسجل جريحا لا في معركة "بوكادوم" ولا في معركة "وادي الروضة" ويعود ذلك بالنسبة للمعركة الأولى إلى تأثير المباغته الذي أحدثناه وبالنسبة للمعركة الثانية يعود إلى تفوقنا من حيث العدد وارتفاع المعنويات والأسلحة.

وحده موقف الدفاع خطير في مواجهة البيضان فهم لا يتقنون سوى الهجوم وحسب المبادئ الكبرى فقد خضنا الحرب ليس فقط على أقدامنا ولكن أيضا بواسطة الأسلحة فقد اجتزنا خلال خمسة عشر يوما أكثر من ست مائة كلم لأننا قمنا بالهجوم على بعد ثلاثمائة كلمتر من نقطة الانطلاق وهي مسافة صعبة الاجتياز دون شك بالنسبة للسائرين على الأقدام ولكن في موريتانيا إذا أردت تحقيق عنصر المباغته فشرط ذلك أن تتطرق من نقطة بعيدة. لقد كانت النتائج السياسية لجولتنا بالغة الأهمية فإذا كان الأمير بكار ما زال على قيد الحياة فإن أيامه أصبحت معدودة فقد طرحنا أرضا أقوى أمراء البيضان بدون منازع وطردها من تكانت القبيلة التي تكثرت ضدنا وقاومتنا بأقصى ما يمكن من القوة وكادت أن تهزمنا في موقعة "الأك" سنة 1903م ثم في "دركل" سنة 1905م وتمكنت القبائل التي كانت تقع تحت هيمنتها وقهرها من أن تتقدم إلينا بكل حرية من أجل التفاهم وقد قمنا بذلك وحدنا بسبب سوء نية وجبن مجموعة "كننة" بدون أن تساهم في انتصارنا أية قبيلة محالفة كما يحدث عادة في بلاد البيضان.

إن الموقف المعتدل الذي اتخذته في "بوكادوم" سواء اتجاه الأمير بكار أو اتجاه بناته أو قبيلته بصفة عامة سيعطي النتائج التي توقعتها في وقت قريب عبر تحالف إدوعيش بعد أن ضعفت شوكتهم ولم تعد لهم القدرة على مواجهة أعدائهم الكثر ولا مواصلة توسعهم ومقاومتهم لتقدمنا ولكن كان يلزمهم عدد من المحن ليقتنعوا باتخاذ القرار. ومهما يكن من أمر فإن المستقبل أصبح بأيدينا فكبولاني بإعادته إلى الحسين ولد بكار بعيد العاشر إبريل كل

ممتلكاته الخاصة ضمن ما غنمناه يسهل علينا الحصول على موقف موات أكثر من إدو عيش.

لم أسمح أثناء موقعة "بوكادوم" بأن يفتش خيام معسكر بكار إلا رجال البيضان المتحالفين معنا ولم نكن نسعى إلى أخذ الغنائم فنحن لم نأخذ معنا إلا الأغذية وحيوانات حمل الأمتعة والوثائق الخاصة والأسلحة فباستثناء السجاجيد المغربية لم نأخذ شيئاً ذا قيمة وإنما أخذنا هذه السجاجيد لنفترشها على الأرض.

لقد برهن لي رجالي من مجموعة البيضان على حسن نيتهم وعلى امتثالهم للأوامر حين وقفوا عند ما حددته لهم وكبحوا ميولهم الطبيعي للنهب أما المساعدون من الزنوج فقد كانوا غاضبين جداً لأنني منعتهم من مغادرة أماكنهم بعد المعركة ليعيثوا فساداً في الخيام كما كانوا يريدون ومن حسن الحظ أنني حددت لهم نصيباً مما أخذناه ووعدتهم بتوزيعه فور عودتنا إلى تجكجة ومن حيث المطايا ومواشي الركوب وحمل الأمتعة فقد وجدوا ما يكفيهم منذ غادرنا "بوكادوم" وفيما يعني سلوك جنودي الشباب أثناء المعركة فقد أعجبتني خاصة شجاعة مجموعة البولار أما البيضان والمجندون المتحالفون معنا فقد برهنوا على بسالة رائعة، وقد بذلت مجموعة "أولاد ابيري" ما في وسعها لتضاهي مستوى مجموعة أولاد بالسباع، من قال إن الأرانب لا تحول إلى أسود؟

طلب كبولاني أربعة أوسمة للبعثة من درجة ضباط الشرف كانت موجهة باستثنائه هو إلى خمسة منا ومن بينهم اثنان يستفيدان من الترقية وقد كنت من بين المعنيين بمكافأة الأمين العام على هذه النتائج غير المتوقعة.

وكالاقتراح السابق الذي تقدم به الأمين العام لصالحه، بقي الطلب الجديد دون جواب وذلك شعار الرواد الذين فتحوا موريتانيا.

كانت البعثة في تجكجة منذ 2 إبريل وبقي مركز "الحسينية" تحت إمرة الملازم "فيلبي" "مرانسي" أما مركز قصر البركة فقد غادرناه في شهر إبريل لأن "كنتة" قد أدخلوا المناطق من حول الحامية الصغيرة فأصبح من الصعب تموينها وبالتالي فأني احتلال لتجكجة يجعل من هذه الواحة قاعدة عمليات في اتجاه شنقيط وبالجملة لم تعد نقطة "قصر البركة" ذات أهمية بالنسبة لدخول آدرار ولا ننسى أن هذه المنطقة الأخيرة هي هدف كبولاني لهذه السنة.

كان كبولاني يفكر في إعادة احتلال مركز "مال" من أجل ضمان طريق التمويل بعد أن غادرناه منذ شهرين وكان يريد إعادة تنظيم مركز الإقامة الذي سنتم إعادته إلى القائد السابق النقيب "بايين" ومن جهة أخرى لم يعد نصف مجموعة الجزائريين الذين تم اكتتابهم على عجل في مدن إفريقيا الغربية قادرين على أداء الخدمات وكان من اللازم أن يصطحبهم النقيب "سيكولي" أثناء عودته إلى "بودور" لتأمين قافلة المؤمن وقد أخذ معه بعض الخيول التي غنمناها على الأمير بكار وكان المسيو "دري" مستعدا للنزول إلى منطقة النهر ليشغل في كيهيدي الوظائف التي كان يشغلها "سيكولي" في "بودور" ورافقته المسيو "مير" والمسيو "ميشلان" "جلي" وبقي معي ثمانية وخمسون من رجال البولار الذين كانوا مع المسيو "ري" وسيحلون بجدارة محل فرقة السودانيين المؤلفة من أربعين نفر التي أعدتها بكل ارتياح إلى قاعدها السابق فور عودتي كنت أعتقد وكذلك رجالي أن مقامنا في المعسكر لن يدوم طويلا هذا التصور من المسيو "كبولاني" كان نتيجة منطقية لحديثنا في "آكويرت" الذي تحدثت عنه سابقا. سأمنح رجالي من "البولار" ثمانية أيام كاملة من الراحة ثم أستأنف معهم التمارين التدريبية لكي أحكم قبضتي عليهم عندما ينضم إلي من كانوا مع المسيو "ري" وفضلا عن ذلك، وبما أن لدي أمرا بالإقامة مع مجموعتي في موقع منفرد وبما أنه يجري بناء مقر للإقامة داخل النخيل طلبت من رجالي كل يوم تخصيص ساعات للأعمال اليدوية وهكذا شيدت سورا للدعم أمام الواجهة لأستخدمه في حالة الهجوم وكان كبولاني قد أمر سكان الحي بتوفير مئونتنا من الكسكس لجميع أفراد المعسكر وهذا جيد ولكنني وجدت الحصص غير كافية فاللحم سيصبح نادرا بعد قليل ولحسن الحظ أن التمور بدأت تنضج. علينا إذ أن نعمل على تقليص أعداد من نطعمهم، فغادر النقيب "سيكولي" ومجموعة الجزائريين المرحلين معه رئيس مركز "الأك" ورجاله والرقيب الدركي "رفين" ومن معه بعد ذلك بأيام قلائل متجهين نحو الجنوب.

وتولى الملازم "لوفانكيون" قيادة الفرقة الجزائرية الباقية معنا وهي نحو سبعين من العرب من أفضل المقاتلين وكنت أتناول وجباتي مع الملازم الذي أظهر طبخه المختار مهارة منقطعة النظير في إعداد الوجبات فقد تجلت خبرته في استخدام شحوم الإبل منذ منتصف إبريل بديلا عن الزيوت وعن ما كان لدينا من دهن الخنزير.

وصلتنا أخبار جديدة من اترارزة فالانفعال الذي أحدثته الهجمات الثلاث في شهر يناير ضد الرماة السنغاليين لم يخمد في الأوساط العسكرية للسنغال فقد كتب القائد العسكري لمنطقة "دكانه" (وهو نفسه الذي تكبد الهزيمة عند "سهوت الماء" سنة 1904م وهو يومها برتبة نقيب) قد كتب أن البنادق التي أخذتها مجموعة "العلب" عند "أديبونو" قد تم تسليمها إلى قائد اترارزة الشرقية وطلب عقابا ضد مجموعة "العلب" ولكن هذه القبيلة قد أعادت البنادق حين قدمت للتحالف مع "أحمد سالم" ولكن أحد الشروط كان يتمثل في التخلي عن المتابعة المترتبة على هذه الأحداث فلا مكان إذن للتصرف وهكذا قام المقدم قائد مفرزة الرماة السنغاليين الأولى بالمزايدة على شكايات الرائد وأعلم أن معنويات الرماة السنغاليين قد تأثرت لضعف ردة فعلنا اتجاه البيضان المتمردين والحال أن كبولاني كان قد أعطى آخر شهر مارس أمرا بمعاقبة حركة التمرد التي أصبحت مقلقة إذا لم يتم اتخاذ الإجراءات العقابية بسرعة فليست الوسائل هي التي تنقصه إذن وهو يستخدمها بالقدر الكافي على مستوى البعثة كما تشهد لذلك العمليات التي قمت بها ضد إدوعيش وهو ينوي استخدامي في اترارزة بعد العودة من آدرار ولكن إعلان دخول اترارزة تحت سلطتنا قد حدث بواسطة باب ولد الشيخ سيديا وتنازل "ولد سيدي لصالح" "أحمد سالم" وعاد جميع المنشقين تقريبا إلى جنوب البلاد وهذا التنازل كان يشتمل على عفو تام وكامل إذن لم يعد هناك مكان ولا محل للمعاقبة على الأحداث التي وقعت في شهر يناير.

في الخامس من إبريل حدث تغير مفاجئ فقد اغتيل "أحمد سالم" وفيما يلي وصف لما حدث: كان "أولاد أبييري" قد حاولوا في شهر مارس أن ينتقموا من "أولاد بالسباع" ورغم قلة عدد هؤلاء الأخيرين فقد هزموا مجموعة أولاد أبييري هزيمة نكراء عند "تنويكنات" في منطقة التيجيريت حيث فقدوا 150 قتيل ونفس العدد من البنادق التي سلمها لهم قائد منطقة اترارزة الشرقية.

أحمد سالم الذي أصبح من الآن خاضعا لسلطتها يخشى من أن يؤدي هذا الانتصار بأولاد بالسباع إلى أن يجتاحوا اترارزة وللوقوف في وجه ذلك يبذل جهده لتجميع القبائل في شمال البلاد وهي القبائل التي سارت مع "ولد سيدي" في الخريف الماضي، ولكن الحقيقة بالنسبة لهذا الأخير (لقد كان غير مرتاح لتخليه عن السروال الأبيض) كان يخفي حقا ضد "أحمد سالم" الذي وجه إليه الشتائم عبر الرسائل وهو أيضا يخفي مشاعره أما بالنسبة لاطرارزة

باستثناء "العلب" فهم لا يهتمون كثيرا بالبقاء في الشمال في مواجهة "أولاد بالسباع" الذين لا ينتظرون منهم سوى الضربات كما أن "العلب" لا يناسبهم البقاء في "أوكار"، أما الآخرون فيريدون النزول إلى الجنوب للتزود بالمؤن من المناطق الجنوبية وعند محطات النهر ولكي يأخذوا نصيبهم من حصاد "شمامه" وحين عجز "أحمد سالم" عن إقناعهم بالبقاء في الشمال كما استطاع في الماضي فقد راوده القيام بفعل سلطوي محاولا قيادة تمرد جمع شتاته في "نواتيل" وعند قدومه فر هؤلاء ولكنه بقي برهة على انفراد مع ولد الديد شقيق ولد سيدي والمختار نجل أخيارهم، فقتل بطلقة بندقية غدرا ومن الغد قتل هؤلاء أخاه أمير الأعرج وحين علم ولد سيدي بالخبر توجه من فوره إلى الشيخ سيديا للتفاوض معه وترك أخوي أحمد سالم يفرون وهما: ولد إبراهيم السالم وسيديا وكانا لاجئين لدى حاكم اترارزة الشرقية فقدم الشيخ سيديا ولد سيدي مباشرة إلى حاكم بوتلميت وطلب من كبولاني منصب أمير اترارزة لصالحه بوساطة الشيخ سيديا، وقال هذا الأخير إن أحمد سالم لحظة موته كان قد دخل في مفاوضات مع أولاد بالسباع الذين كانوا فيما يبدو ينوون الدخول في القتال وأن وفدا من هؤلاء كان في مخيمه في ذلك الوقت.

بودي لو عرفت حقيقة الدور الذي لعبه العجوز أخيارهم في عملية الاغتيال هذه لأنني لا أصدق أن ابنه قد تورط وحده في هذه المأساة وإن صح ذلك فستكون المرة الأولى في اترارزة منذ خمسين عاما التي يحصل فيها اغتيال دون أن يتورط فيه صاحب اللحية الزرقاء. وفي الخلاصة يبدو أن السياسة في المنطقة الغربية قد أصبحت مبسطة والواقع أن شيئا من ذلك لم يحدث فحلف "أحمد سالم" قد تشكل من جديد حول ولد إبراهيم السالم.

كان الحر شديدا في تجكجة كالعادة في موريتانيا خلال شهري إبريل ومايو إلا أن هذه الفترة كانت هذه السنة هي الأصعب ولا يمكن لأي كان أن يفكر في المسير خاصة وأن فرقتي المتعبة بالهجوم طيلة خمسة عشر يوما تحتاج إلى الراحة كما يجب انتظار المؤن الغذائية القادمة من عند "سيكولي" عبر "الأك" و"كيمي" وهو الخط الأول للتموين وهناك خط آخر يمر عبر كيهيدي حيث يوجه كل من المسيو "دري" والمسيو "ميشلان" جلي وعبر مال حيث يوجد بصفة مؤقتة المسيو "مير" ثم عبر امويت الذي تسيطر عليه فرقة من الرماة السنغاليين وفيلق من الجزائريين ويلتقي الخطان عند "الحسينية".

وقبل اشتداد الحر لم يكن على البعثة سوى انتظار وصول القوافل إلى المعسكر في "تجكجة". وفي هذه الأثناء كان "كبولاني" قد أرسل فرقة من البيضان لاستطلاع أمر تيشيت من بينها "بو بلير" وأمر ولد ببكر حيث كان يسود الاعتقاد حسب خرائط مستودع الحرب أن تيشيت بعيدة من تجكجة وأن الموفدين إليها قد أنجزوا عملا بطوليا بقطعهم المسافة في أربعة أيام وقدموا برسالة من سكان تيشيت ونعامة صغيرة كهدية للسيد كبولاني وعينات من معدن النيترات تم تسليمها إلى النقيب "جيرار".

تلقينا تأكيدا لموت الأمير بكار وتأثرا بالجراح التي أصابته في "بوكادون" في الأول من شهر إبريل وقد كابد لنحو خمسة عشر يوما قبل أن يسلم روحه العجوز لبارئه وخلفه أكبر أبنائه سنا وهو عثمان في إمارة إدوعيش وقد نازعه إخوته الذين يتجاوز عددهم الأربعين. توجه مبعوثون من "كبولاني" إلى "آدرار" كما أن "محمد المختار ولد المريد" القائد الحربي "لكننة" الذي كان قد كتب من قصر "البركة"، حيث كان يقيم إلى الجماعة في آدرار يطلب منها القدوم إلى "كبولاني" وفي نفس الوقت استقدم من منطقة الحوض مجموعتي "أولاد سيدي الوافي" و"أولاد سيدي ببكر" وإليهما ينتمي وقد توافدوا أمامنا في إحدى الليالي في البطحة في استعراض على الجمال وقد بدت عليهم علامات المجاعة ولم نعد بعد ذلك نسمع شيئا عن رجال "ولد المريد" مع أن "حراطينهم" قد استولوا على "لكصر" وواحة "الرشيد" على بعد ثلاثين كلم شمال شرق تجكجة تلك هي الخطوات الوحيدة التي أداها صديقنا ولد المريد لصالحنا.

لقي بعض موفدي "كبولاني" استقبالا سيئا في "آدرار" خاصة من طرف "إيدشلي" فأرسلنا ضد هؤلاء متطوعين من بينهم "خليلو" وهو شخص محتال ينتسب إلى مجموعة "سرقل" يزيد طوله على المترين قدم إلى البعثة مع المسيو "آرنو" حيث كان إلى حد ما يعمل خادما له³²⁸ وفي أحد الأيام عاد "خليلو" هذا ومعه ثلاثة أسرى من "إيدشلي" كان قد شد وثاقهم ولولا أن "كبولاني" قد فك وثاقهم قبل الاستجواب لفارقوا الحياة بسبب الوضع الذي قدموا فيه.

³²⁸ - بالفعل ينسب "روبير راندو" الذي يكتب تحت اسم كسارد إلى كسارد اصطحاب خادم يسمى خليلو وهو ذو أطوار غريبة فمذكرات "افيرير جان" تأتي ببعض التفاصيل التي هي من قبيل الخيال الروائي.

هذان الرجلان وأحدهما ينتمي إلى فرع أهل "التتاكيه" قد زودوا "كبولاني" بمعلومات حول ما يدبر ضدنا في "آدرار" لدرجة أن الأمين العام قد كتب يوم 20 إبريل إلى الجماعة في هذه المنطقة رسالة تهديد أبلغها إليهم عن طريق "إدوعي" شنقيطي وفي هذه الرسالة يلوم أمير آدرار على إيواء أعدائنا ومنعه الزوايا المنحدرين من المناطق التي نسيطر عليها من العودة ودعاه بصفة قطعية إلى تبديد الخلافات.

أخذنا معنا في البعثة العجوز "المختار ولد أحمد ولد عيده" الأمير المخلوع وابنه الفتى "سيدي أحمد ولد المختار" الذي كان قد هرب من آدرار، وكان كبولاني قد وجده يوم قدومه لاجئاً في تجكجة وهو خال وابن عم أمير آدرار الحالي وكانا متخاصمين في نفس الوقت والمختار رغم أنه أمير مخلوع كان يتوفر على بعض الأنصار خاصة في أوساط "إديشلي" أما "سيدي أحمد" فكان فتى عمره خمسة عشر عاماً وكان قد فر من آدرار لأن الأمير الحاكم وهو أصغر منه سناً (أثنى عشر سنة) كان يخطط لاغتياله.

احتفظنا بالرجلين تحت سلطتنا لاستخدامهما عند الحاجة والحقيقة أنهما ليسا صالحين لأي شيء لقد كان العجوز وسخا كرهه الرائحة.³²⁹ أما الفتى رغم أنه أفضل بدنياً فقد كان في نفس الوقت مخادعا ومغرورا ووقحا فعند تقسيم الغنائم المأخوذة من معسكر بكار حاول الاستيلاء على كل ما وسعه من نصيب مجموعة "البولار" مما حتم علي رفع الهراوة عليه لتخليص ما أخذه. وكان الابن ووالده يعيشان حياة غريبة داخل المدينة وكانت أحاديثهما بذينة لا توحى بالثقة ولم تجلب لهم التقدير لا من جانبنا ولا من جانب غيرنا من "البيضان".

بدأت معاملة "كبولاني" الحسنة اتجاه "الحسين" تعطي أكلها فقد عرضت مجموعة من "إدوعيش" من أكثرهم احترافاً للنهب هي "إيدينيس" من مجموعة "أبكاك" الدخول تحت سلطتنا وضريبة حرب قدرها مائة جمل كما أن مجموعة "أهل ديات" وهي من "إدوعيش" فرع "أشرايت" قد قدم بها "العبقري" زعيم "تجكانت" لعرض استسلامها أمام حاكم "امبود" وقد قبلت مجموعة "الغلال" مبدأ دفع الضريبة كما أن فروع "إدوعيش" التي ما زالت منشقة قد أرسلت بعثتين ولكنها لم تجرؤ على القدوم إلى "تجكجة".

³²⁹ - هذه التفاصيل وردت أيضا في رواية روبرت راندو .

ومن أجل تسريع استسلام "إدوعيش" بواسطة المصلحة أمر "كبولاني" بحجز الأملاك والنخيل التابع للمنشقين من "إدوعيش" فالمنازل التي كان يملكها هؤلاء في "لكصر" تم هدمها واستعملنا حجارتها لبناء الأسوار.

وفي نهاية إبريل في الوقت الذي كنا نستعد لمفارقة النقيب "ابيين" الذي كان على أهبة الذهاب إلى "كيهيدي" مع سنتين من السودانيين للإسراع بإرسال المؤن كلف "كبولاني" هؤلاء الضباط بتحرير أمر يتعلق بنظام الأمن في معسكر "تجكجة" وقد امتازت هذه الوثيقة بميزة غريبة هي وضع مركز الشرطة ليس عند المدخل الرئيسي للمعسكر وليس في نقطة ثابتة يكون فيها تحت تصرف السيد "كبولاني" ولكن على خلاف ذلك في المقدمة الأمامية حتى الواجهة التي تحتلها الوحدة المكلفة بالحراسة. وهكذا أصبحت نقطة الشرطة الوحيدة هذه بالنسبة لكافة المعسكر تغير موقعها كل يوم وقد تكون في بعض الأوقات بعيدة من المدخل الرئيسي، ومع أن فكرة السيد "كبولاني" تقضي بأن لا أكون ضمن حامية المعسكر فقد طلب مني إبداء رأي حول مختلف التعليمات وكنت أحبذ وجود حراسة تقوم بها الوحدة في كل واجهة على حدة بحيث يكون لكل واجهة مركز شرطة وتكون جميع المنافذ خاضعة للحراسة فتثبيت الوحدات في نقاط محددة يجعلها تتأقلم مع محيطها وبالتالي يمكنها التعرف على كل ما يطرأ في المناطق التي يلفها الظلام، وقد عرضت هذه الأفكار على السيد "كبولاني" ملحا بشكل قوي ولكنني لم أفجح في إقناعه وتم اعتماد التعليمات في صيغتها الأولى كما صاغها الأمين العام فكان علي أن أنصاع للأوامر ولم أوصل الإلحاح كثيرا بعد ذلك مع أنني أقدم في الخدمة من النقيب "بايين" فأنا مثله لم أكن أمثل في بعثة "تكانت" - "آدرار" سوى مجرد عضو في هذه البعثة وفي الوقت الحالي كنت بصفتي هذه قائدة فرقة يستفيد من فترة الراحة داخل المعسكر بين رحلتين وإقامتي في المعسكر كنت مكلفا بالدفاع إذا اقتضى الأمر عن الواجهة الجنوبية الشرقية من ذات المعسكر.

كنت أستعد للذهاب بعد وقت قصير في اتجاه "آدرار" وقد عبر لي السيد "كبولاني" عن ذلك عدة مرات وسألني بنبرة قلق: "هل رجالك مستعدون للمسير؟" وكثيرا ما صرح رئيس البعثة بعدم رغبته في ضابط يقود كافة الفرق سواء كانت نظامية أم لا وقد كان ذلك موضوع تعليقات من أعضاء البعثة وفي نهاية شهر إبريل وكان "كبولاني" قد سمع الرائد يتأسف على غياب قائد كافة الفرق وقائد مكلف بالأسلحة فناداه وخاطبه بنبرة غضب نادرا ما تصدر عنه

قائلا إنه لا يسمح بإصدار مثل هذه الأفكار داخل المعسكر وأن الجميع يعملون تحت أوامره المباشرة وأنه يتمتع بكافة السلطات ويتحمل كافة المسؤوليات وكان التعنيف شبه علني، قد سمعه الجميع.

وفي الظروف العادية يعرف عن "كبولاني" تسامحه بالنسبة للممازحة العادية التي تصدر عنا من أجل تلطيف الجو داخل المعسكر، فنحن لا نحرم أنفسنا داخل خيمة المطبخ الجماعية من أن نتحدث عن مناقب الناس والنواحي الطريفة في الحياة وكنا نعد ما يشبه النشرة، نكتب فيه الأغاني وكنت أحد الأوائل الذين أدوا الأناشيد كما أن رجالي قد جربوا لحظات من النجومية ليس فقط داخل معسكر "تجكجة" وإنما أيضا في المراكز الجنوبية. كما كان يوجد اعتقاد سائد لدى الموريتانيين يعرفه الجميع وله نكهته الخاصة³³⁰ وكأحد المنتصرين الرومان كان "كبولاني" يسمح لحراسه باللعب والمزاح في ما بينهم وحتى معه هو شخصا وهو يعرف أنه في الواقع يمكن أن يعتمد عليهم.

وبالعودة إلى مذكرة الأوامر الخاصة بالمعسكر والقرار الذي تم اتخاذه يوم 11 فبراير 1905 في "مال" عندما كنت في مقدمة البعثة من أجل الاستيلاء على منطقة "كيمي" فإن هذه المذكرة تكرر سلطات النقيب "بايين" الذي كان في السابق وأثناء غيابي مكلفا بقيادة الفرق النظامية وغير النظامية للبعثة الحاضرة في "مال"، ومن الناحية العملية تم إبلاغ القرارات والأوامر إلى أعضاء البعثة بواسطة هذا الضابط وقد تولى توقيع بعض هذه الوثائق ومن بينها التوصية المذكورة سابقا بعد مصادقة "كبولاني"، أذكر ذلك قصد تحديد المسؤوليات، قلت إن مذكرة الأوامر هذه لم تعين مركز شرطة عند المدخل الرئيسي كما أنها لم تشكل أية فرقة للاحتياط، وبما أن الأمر كذلك لفت نظر "كبولاني" إلى هذه النواقص دون جدوى وكل ما كان في وسعي القيام به هو تشكيل فرقة احتياط للجناح الذي أقوده ولم يعارض "كبولاني" ذلك، ولكن أحدا لم يفعل مثلي، وفي يوم 7 مايو غادر النقيب "بايين" لأداء المهمة المسندة إليه وسيصل إلى "مال" عبر "الحسينية".

ولم تدخل مذكرة الأوامر التي حررها النقيب "بايين" حيز التنفيذ إلا في اليوم الموالي لمغادرته "تجكجة" يوم 8 مايو بحيث تكون بعد مغادرته ملزمة لنا ومن المعلوم أن "كبولاني"

³³⁰ - ذكر روبرت راندو في كتابه "المستكشفون" ص: 119-120 ما نصه: أندريوتي تساهل معنا امنحنا مزايا الغزو وقافلة الشرطة وقدنا ضمن موكبنا دائما في اتجاه المغرب

يضطلع بكافة السلطات فضلا عن الإدارة العامة للبعثة ومذكرة الأوامر تذكر بشكل واضح أنه في حالة إعلان الاستنفار يرسل كل قائد وحدة أحد أصحاب الرتب لتلقي الأوامر من رئيس البعثة وفي هذه الأثناء هرب سجيننا "إديشلي" الذين جاء بهما "خليلو" وكانا آخرهم هروبا يوم 10 مايو وقد حصل ذلك بسبب الثقة الزائدة التي فرض "كبولاني" أن تمنح لهم، بحيث يكونون أحرارا في التجوال داخل المعسكر وكذا الثقة في العجوز "المختار ولد أحمد ولد عيده"، الذي كان يطمح إلى استعادة مكانته وشعبيته في منطقته عبر التحدث باسم هؤلاء السجناء وكان ذلك من باب الصدفة وكذا تمكنا على مهل من ملاحظة تنظيم فرقنا وكيف هو نظام حراستنا إلى غير ذلك من الأمور.

ولو كنا استمعنا إلى الشاب "سيد احمد ولد المختار" لم يستطع أي منهما أن يهرب ليقص ما رآه على الآخرين، لقد كان ذلك أفضل فالمثل يقول: أن تقتل الشيطان خير من أن يقتلك.

وفي صباح 12 مايو وصلت بعض الأخبار غير السارة من "آدرار" ولكننا علمنا من جهة أخرى أن "إدوعيش" قد أرسلوا وفدا ثالثا عاقد العزم هذه المرة على التفاوض من أجل السلام، ومع أن "كبولاني" كان ينتظر ردا على رسالته التي بعثها يوم 20 إبريل إلى أمير "آدرار" ورد هذا الأمير على رسالة "ولد الحامد"، فإنه استدعاني هذا الصباح، وبعد أن حاورني بشأن الوضع السياسي في الجنوب الشرقي خاطبني قائلا:

- لقد كان "أولاد الناصر" القاطنون في "النيورو" يساندوننا بقيادة رئيسيهم "أعمر ولد لحبيب" وكانوا يهاجمون "إدوعيش" كما أن "اسواكر" يطلبون الدخول في الصلح معنا وبقيّة "أهل سيدي محمود" التي داريناها قد اتخذت موقفا مسالما.

- وفي "تيشيت" كان الشرفاء و"ماسينا" و"أولاد بله" يتراسلون معنا ثم ختم كلامه قائلا إن الأمور تجري على ما يرام في هذه الناحية.

- وفي ناحية "آدرار" يبدو أن الوضع أخذ في التدهور عكسا للمناطق الأخرى فقد أُنذر بعض التجار القادمين من المنطقة بأن هناك حراكا يجري ضدنا وقد أكد ذلك مبعوث "كبولاني" العائد من هنالك.

لم أكن قد تعودت كثيرا على سماع أسماء منطقة "آدرار" لكي أروي بدقة فحوى تلك الأخبار ولكن خلاصة كل هذا الحديث كانت في ما ختم به "كبولاني" كلامه حين قال:-

"يمكن أن تتأهب، سأعطيك عددا معتبرا سيكون عندك بالإضافة إلى فرقتك مجموعة من الجزائريين والمتطوعين "البيضان" مع مدفعين رشاشين فهذه الوسائل يمكن أن تسبقنا إلى "آدرار" ولكن ليس الآن يجب أن ننتظر المؤن القادمة في مقدمة القوافل وبالجملة يجب أن ننتظر ردود الأمير وعودة مجبور (الرواد) التابعين "لعكل علي" لقد أصبح دوري في المستقبل واضحا على الأقل.

منذ 8 مايو و"كبولاني" يمارس قيادة المعسكر بصفة مباشرة ومن أجل تنفيذ أوامره كان يتوجه مرة إلى ومرة إلى الملازم "شريبي" من "الرماة السنغاليين" وكان يخص هذا الأخير ببعض التفاصيل الصغيرة فقد كان هذا الضابط يمسك سجل الخدمة وينظم أوقات الحراسة بين الأوربيين عسكريين كانوا أو مدنيين وبين أصحاب الرتب من الجزائريين كما كان يسجل فترات الحراسة بين الوحدات الباقية في "تجكجة" كل هذه التفاصيل ضرورية لاستيعاب الظروف التي أحاطت بوقوع كارثة ليل 12-13 مايو.

لقد وضع حراس على كافة جوانب سور المعسكر فالواجهة الشمالية الشرقية أسندت إلى فرقة السنغاليين والسودانيين، التي يقودها الملازم "استيفان" وقد كانوا على ارتفاع للدعم يساوي 30 متر وقد كان الباب الرئيسي يقع في وسط هذه الواجهة من المعسكر التي يرتفع خلفها على عدة أمتار مقر إقامة وسكن السيد "كبولاني" وقد أوشك على الاكتمال.

كان الباب الرئيسي للمعسكر عبارة عن ممر مغطى نجد تحته عند الدخول في ناحية اليمين المحل المخصص لمركز الشرطة وفي ناحية الشمال محلات التأديب وبما أن مركز الشرطة بناء على التعليمات الجديدة يبقى على الواجهة التي تحتلها الوحدة المكلفة بالحراسة وبما أنه لم يكن يوجد في ذلك الوقت باب يغلق على هذه المحلات فإن الدكتور "كامبو" كان يقيم في مركز الشرطة في حين كان "كبولاني" يقيم في مكان السجن وكانت الحراسة مساء 12 مايو من نصيب فرقة الجزائريين وفرقة السودانيين القادمين من "مال" وكانت تتمركز على النحو التالي:

- الفرقة الأولى عند الواجهة الجنوبية الغربية للمعسكر.
 - الفرقة الثانية عند الواجهة الشمالية الغربية.
 - مركز الشرطة كان في الزاوية الغربية من المعسكر.
- وكان هناك ستة حراس:

- واحد على الواجهتين الشمالية الغربية والجنوبية الغربية.
- اثنان على الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية وهما الأكثر طولاً والأكثر عرضة.

- كان أحد هؤلاء الحراس متقدماً بمسافة ثلاثين متراً على باب مدخل المعسكر وتمتد أمامه غابة نخيل في وسط "البطحة" وعلى الجانب الآخر منها تقع المدينة على أرض صخرية.

كان النقيب "جيرار" و"الويسيو أرنو" يمثلان في البعثة، العلوم بالنسبة للأول والآداب بالنسبة للثاني وكانا يقيمان في وسط المعسكر تقريباً وكان كوخهما يقع أسفل الكتيب الذي تعلوه إقامة رئيس البعثة وإلى جانبه توجد الخيمة البيضاء حيث يقيم المترجم وكانت باستمرار مكتظة برجال البيضان.

كان المسيو "أرنو" يأتي كل مساء إلى الكتيب حيث يحلو الجلوس على الرمل الرخو وكان المسيو "أرنو" كثيراً ما فسر عدة صفحات من كتاب "رابلي" الذي يصطحبه وكان ذلك يضيء مرحاً على الموقف كنا اثنين أو ثلاثة نرتاد هذه الجلسات فوق الكتيب تحت ظلال النخيل التي يتسرب عبر أغصانها ضوء القمر وترسم عبر الأغصان كما يحدث دائماً في إفريقيا ظلال كل ما يمر في السماء ذلك الوقت وكان النعاس يستولي علينا فنغط في النوم ونحن ننظر إلى هذه الأغصان المتباعدة التي تتمايل عند هبوب أدنى نسمة من الريح. وبما أنني لم أكن مرتاحاً لدرجة الحر في الليل مع أنها في الغالب أخفض مما هي عليه في النهار في شهر مايو فقد اعتدت أن ارتدي في الليل "غشابة" من "بازين" ذات لون أزرق داكن فأصبح مثل "البيضان" تماماً كنت قد اشتريتها من "ابودور" بوضع دراهم وكنت اضطلع فيها على الرمل مباشرة وأنام في العراء على شقي أمام كوخ صديقي "أرنو" و"جيرار".

كنت من هذا الموقع أوجد في الخط الخلفي لمنطقتي وتكفييني بضع خطوات لأكون في مركزي وكان بعض أعضاء البعثة يقضون أوقات فراغهم ليلاً في لعب الورق وخاصة في إقامات الملازمين كانوا يلعبون "البريدج" و"الكبير".

كان "كبولاني" يتناول عشاءه في الغالب في وقت متأخر على قمة الكتيب حيث كان يسحر ندماءه ببلاغة كلامه وكان يطلق العنان لخياله المجنح وكثيراً ما أذهل الحاضرين بسعة أفقه وعلى كل حال كان يحب القيام بعد تناول العشاء بعدة جولات على الكتيب مع أحد

جلسائه حيث كان يعرض عليه دون تحفظ أفكاره ومشاريعه المستقبلية وكان يتحدث عن ماضيه مما يسمح لنا بأن نتعرف عليه أكثر وكان يعرف كيف يشد انتباه كل واحد منا. فبالنسبة لي أنا كان يقص علي مغامرات خدمته العسكرية والمشاريع التي كانت عنده بالنسبة للصحراء الغربية وجنوب المغرب وكان يقص علي تاريخ أو أساطير قبائل "البيضان" ونظريات الإسلام وقد لاحظ اهتمامي بكل هذه الأمور وكان ينصحني بأن أذهب لدراسة إفريقيا الشمالية رجالا وأرضا وكان يقص علي بعض النكات السودانية تعود إلى ما اتفقنا على تسميته بـ "البطولات" لأن ذلك يعود إلى زمن مضى كان صعبا بالنسبة لي تماما كما كانت عليه الحال أثناء مقامي في "اترارزة" خاصة وأن "كبولاني" كان يطلب تعليقاتي بشأن الأحداث والرجال والتواريخ بالنسبة لهذه المنطقة التي مازلت مهتما بها ولم يكن أحد قد قدمها له بهذا الأسلوب ومن هذه الزاوية قبلي. وبما أننا لم نكن نتفق في الرأي حول أي شيء تقريبا فقد كانت لدينا موهبة التفاهم لقد استحوذ علي هذا الشاعر الحماسي³³¹ كما أنه حسب اعتقادي معجب أكثر بما قد أنجزته في السابق وما يمكن أن أنجزه في المستقبل أكثر من إعجابه بكلامي ومع ذلك شعرت باهتمامه بما أقصه عليه ولا أعجب للمرء من أن يحس باهتمام الآخرين بما يقوله. قلت إنه يعرف كيف يشد انتباه من حوله فاستطاع أن يجعل "البيضان" يركنون إليه وهم أشد الناس حذرا وخاصة منهم الزوايا كتجكانت الذين كانوا قبل أن يعرفوه يتغنون بمقطعهم الشهير "يا جكان يا جكان لا يحكمن كبولاني".

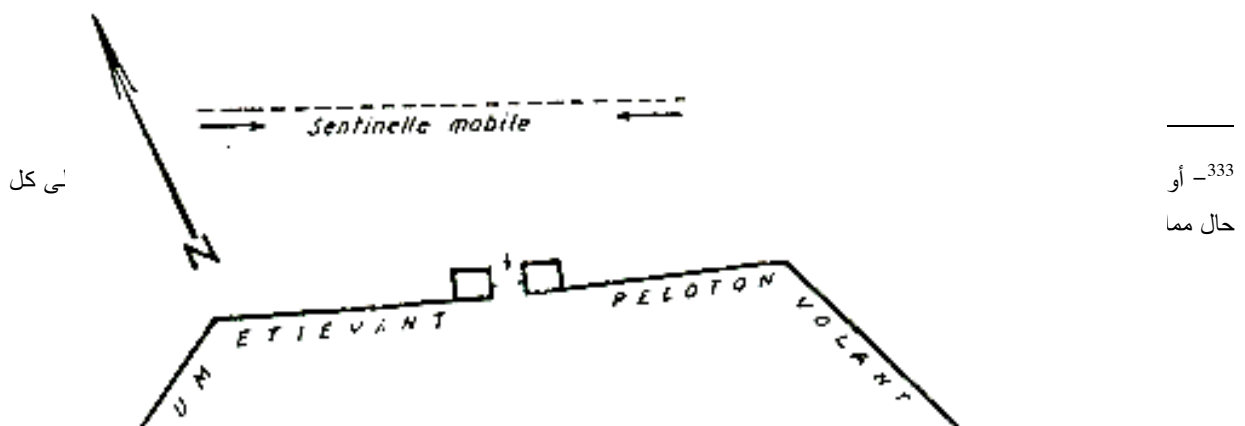
وقد سمعتهم يقولون عند الخروج من مكتبه في "الحسينية": "هذا الرجل يستولي على أرضنا ونحن مجبرون على الإعجاب به". على كم من الآلات يجب أن نعزف لكي نشد انتباه أحد الزوايا، حتى أنني سمعت بعضهم يسأل جادا عما إذا لم يكن "كبولاني" هو المسيح المنتظر لدى المسلمين. ومهما يكن من أمر فقد كان لكلامه أثر السحر³³² على الأوربيين والجزائريين و"البيضان" والزواج أنفسهم. لقد كان البوابون وفرسان الحراسة المرافقون يدينون له بإخلاص تام مع أنه يتخذ من الزواج نفس الموقف المبتعد ويتأذى عنه كما يتأذى "البيضان" عن أغلى حراطينهم عليهم فلدیه شعور اتجاه الزواج تختلط فيه الشفقة بالازدراء كشعور المرء اتجاه الأشخاص الناقصين الذين لا يعرفون كيف يتصرفون واعتقد أنه، لو تعين عليه

331- "الشاعر الحماسي" العبارة معبرة فعلا.

332- هي أيضا كلمة معبرة: "سلطان السحر" فقط أطلق "البيضان" على "كبولاني" لقب "الساحر" ولإبطال هذا السحر ضحى أحد المتحمسين بحياته

وصفهم، لأطلق عليهم الوصف الذي أطلقه رجال "فرنان كورتاز" الإسبانينيون على هنود "أمريكا" "أناس بدون صفات البشر". وهو لا يخفي احتقاره للزواج حين يكون بين أصدقائه فكثيرا ما ترددت على لسانه عبارة "عقلية الزنجي" لتشجيع بعض التصرفات والأفعال العنيفة فهو لا يتحمل التصرفات الهمجية التي تصدر عن الزواج اتجاه "البيضان" القادمين لمقابلته وقد اكتشف أن من يقومون بهذه الأفعال هم في الغالب من المجندين السنغاليين والسودانيين المنحدرين من أصول العبيد أو العبيد السابقين في مجتمعاتهم وقد اكتشف لديهم ما يشبه الطبع الدفين المتمثل في الحقد على ذوي البشرة البيضاء حتى من السمر أوروبيين كانوا أو "بيضان" كما لاحظ أنهم يشعرون بالارتياح لمعاملة "البيضان" كعبيد وهم في السابق أفضل زبناء الملك "الساموري" وغيرهم من تجار الرقيق الأسود لقد فهم مصدر حسد الفئة السفلى³³³ للفئة الذكية الأكثر تعلما وبما أنه محتاج إلى هذه الفئة ويسعى إلى استخدامها لا يمكنه أن يقبل كغيره من الأوروبيين أن يسمح الزواج لأنفسهم باستغلال موقفه للإساءة إلى هؤلاء (وبطريقة متعجرفة) الذين كانوا أسيادهم في السابق وهذا الاشمئزاز مما رآه بأعينه من معاملة سيئة تصدر عن الزواج اتجاه "البيضان" القادمين بناء على أوامره لمقابلته من تلقاء أنفسهم، والذي حال بين "كبولاني" وبين وضع مركز حراسة من الجنود الزواج عند المدخل الرئيسي للمعسكر كما ورد في مذكرة الأوامر. ولكن ألم يكن من الممكن تشكيل هذه الفرقة من الجزائريين؟ ومهما يكن السبب فإن عدم رغبة "كبولاني" في وجود مركز شرطة أمام بابه هو الذي أدى إلى موته وأعتقد أنه كان من الواجب، حتى وإن لم يرق ذلك "كبولاني"، أن لا نسمح بهذه المجازفة دون الاعتراض عليها واعتقد أنني كنت الوحيد من بين الذين طلب "كبولاني" رأيهم، الذي أبدى اعتراضه وربما يكون هذا هو الذي جعل الأمين العام، الذي يجب أن نعترف بعدم درايته ببعض الضرورات العسكرية، لم يفتتج بحججي ... لقد كنت أصرخ في وادي، ولهذا السبب خسرت من يقدم لي الحماية.

مخطط مركز تجكجة



موت "كبولاني" وما ترتب عليها

كان القمر يسدل أنواره ليلة 12 مايو على بساط الرمال داخل المعسكر والحراس في مواقعهم.

باستثناء المسيو "آرنو" الذي كان في نوبته من الحراسة، كان كل واحد قد بدأ ليلته على طريقته الخاصة، والبعض يمارس لعبة "أبوكير" الورقية. كان النقيب "جيرار" قد أطفأ الضوء داخل كوخه للتو وهو يتهيأ للإخلاء إلى النوم، رغم شدة الحر. أما أنا فقد بدأ النعاس يداعب أجباني وأنا ممدد في مكاني المعتاد على الرمل وقد التحفت "دراعتي" ووضعت عصاي ذات العقد تحت رقبتي وبنديقتي تحت يدي وعلى عقبها رتق الإصلاح الذي أنجزه أحد صناع "البيضان" التقليديين³³⁴ حين انكسرت في موقعة "تنشبيه".

كان كبولاني الذي كان يتحدث مع ندمائه قد انتهى للتو من تناول طعامه ولبس كسوته البيضاء الشاملة واستند على الجدار المجاور إلى يسار باب المدخل أمام محل إقامته ينظر إلى المدينة وكانت الساعة التاسعة وخمسا وعشرين دقيقة، وفي هذه اللحظة رأى الحارس الموجود عند الباب لمراقبة النخيل المتناثر بينه وبين المدينة، رأى شخصين يتقدمان كعادتهما كل يوم هما "عبدي ولد امبارك" الحرطاني التابع لبارك ومعه "سيدي ولد الزين" كان الرجلان يحملان كمية اللبن الخاص بكبولاني. وكان طباخ "كبولاني" لسبب أجهله يقوم بالطبخ خارج الفناء في زاوية الجدار قرب مركز الشرطة فناده الحارس ليأخذ اللبن ويعود إلى مكانه فعاد وتمتد على الأرض من جديد لأن القادمين قد أيقظوه وهو في بداية النوم.

وبعد ذلك بوقت قليل رأى نفس الحارس جماعة من "البيضان" المسلحين تبرز فجأة بين النخيل وتجري بسرعة نحو مدخل المعسكر توجه بعضهم إلى مطبخ "كبولاني" وبما أن الحارس قد ناداهم دون أن يلقي جوابا فقد أطلق الرصاص وعاد أدراجه ليتسلق الجدار. أطلق "البيضان" الأوائل الذين وصلوا إلى مطبخ "كبولاني" وابلا من بنادقهم على الطباخ فأخطوه بل تمكن الطباخ من نزع سلاح أحدهم وقتله.

³³⁴ - يصنع الصانع التقليدي (أو لمعلم لدى البيضان) الأدوات المعدنية ويصلحها (أقراط الزينة، الحلي، السكاكين،... إلخ) وكذلك الأدوات الخشبية، و يتمتع بعض الصناع بمهارة فائقة وذوق رفيع ولم يشفع لهم ذلك فهم في أسفل السلم الاجتماعي التقليدي إلى جانب "اللحمة" و"إيكاون" ولا يمكنهم الزواج خارج طبقتهم.

وقد بدأ نبذ "لمعلمين" مع قدوم الإسلام (في حين أن أمثالهم يحتلون مكانة مرموقة في بعض القبائل الإفريقية الوثنية كما في الكونغو حيث يحكم ملوك من الصناع التقليديين).

يشير بعض الأساطير (كأسطورة موت أبي بكر المرابطي إلى أن "لمعلمين"، وهم يمتلكون أسرار التراب والحديد أو من لقتوهم ذلك، قد قدموا من المشرق، وفن صهر الحديد قائم فعلا من مملكة كوش) تشير إلى أنهم ينتمون للدين اليهودي وأنهم كانوا وربما ما زالوا يتوفرون على قدرات شيطانية.

ومن مكانه الذي كان يستند فيه على الجدار نادى "كبولاني" خادمه بصوت مرتفع قائلاً: "جالو، ناولني مسدسي" وحين تأخر عنه توجه مسرعا إلى محل إقامته وفي هذه اللحظة صادف المهاجمين قادمين من مدخل المعسكر فأطلقوا عليه رصاصة ولكنه تمكن رغم جراحه من الاختفاء داخل غرفته فعمت فوضى وتعالّت الأصوات وطلقت البنادق والنداء في أرجاء المعسكر، زحف المهاجمون وأحاطوا بمقر الإقامة وبدأ الذين تبعوا "كبولاني" يطلقون النار داخل البيت الذي لجأ إليه فتعالّت طقطقات الرصاص في كل مكان وفي ما يلي سرد لما حدث:

فقد كان بعض المهاجمين قد تسلقوا سور المعسكر ومن بينهم الرجل الذي أرداه طباخ "كبولاني".

دخول المهاجمين "البيضان" وهم يصرخون ويطلقون النار في كل اتجاه أربك فرقة السودانيين التابعة "لاستيفان"، وأذكر أن أداءهم كان رديئاً في معركة "بوكادوم"، فهبوا من نومهم متراجعين إلى الخلف في فوضى عارمة حتى انحشروا في الزاوية الشمالية من المعسكر، ومن هنا أجبرهم الرقيب "مارين" على المواجهة واستطاع أن يدفعهم إلى الأمام. في حين اندفعت الفرقة الأخرى المهاجمة نحو المدخل وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه وقد تعالت أصواتها بصيحات "الله أكبر" وحين مروا بمحاذاة مسكن الطبيب أفرغوا عليه بنادقهم، ومن حسن حظه أنه لم يتحرك، ونفس الشيء فعلوا بغرفة المسيو "كولومباني"، وبكل شجاعة اندفع هذا الأخير بينهم زاحفاً نحو إقامة الأمين العام لإبلاغه الخبر وقد ساعدته شدة زحام المهاجمين وتدافعهم متشابكين، فلم يسمح لهم الوضع بإطلاق أية رصاصة بل حملته الموجه البشرية إلى الأمام، كما لم يتمكنوا من أن يشددوا له طعنة خنجر لشدة التصاقه بصفوفهم. وما إن بلغ نهاية الممر حتى تملص منهم بقوة ذراعيه وأطلق ساقيه للريح تحت وابل من طلقات بنادق البيضان المهاجمين وتلك القادمة من الرماة السنغاليين، متجهاً نحو كوخ الملازم "شروي" الواقع إلى الشمال قليلاً من إقامة رئيس البعثة وفي هذا الوقت بالذات تلقى "كبولاني" الضربة القاضية.

وبينما كان بعض "البيضان" يتبعونه داخل إقامته كان معظم المهاجمين يواجه الرماة السنغاليين الذين بدعوا يطلقون النار، في حين توجهت الفرقة الأولى من المهاجمين التي

أطلقت النار على إقامة "كبولاني" مروراً من خلف الإقامة واتجهت مع سفح الكتيب نازلة في المعسكر مروراً بين مقر الإقامة وخيمة المترجم.

وفي هذا المكان بالذات كنت نائماً كعادتي فاستيقظت مذهولاً وقفزت عند الطلقات الأولى فظننتها للوهلة الأولى عملية استنفار كاذب ومع ذلك استمعت برهة إلى الأصوات وأنا واقف وقد أمسكت بسلاحي ومر بي المترجم "بو المقداد" ممسكاً سلاحه وصعد مسرعاً على الكتيب وهو يقول: "إنه هجوم وأنا متجه إلى مركزي قرب المسيو "كبولاني" وفي نفس الوقت تقريباً سقطت رصاصات بيننا مثيرة سحابة غبار ولم يستغرق ذلك حسب ما بدا لي سوى برهة قصيرة وبقفتين كنت وسط مركزي وبما أنني كنت أمشي في نفس الاتجاه مع المهاجمين فقد كنت خلف طلقاتهم النارية التي كانت تمر عن يميني وعن يساري ومن حسن حظي أنني ألبس "الدراسة" فظنوني واحداً منهم وذلك ما أنقذ حياتي، وفجأة انحدروا إلى الشمال مطوقين فرقة السنغاليين وقد قتلوا واحداً منها كان يدافع عن كوخ الملازم "شيروي". وجدت رجالي في موقعهم مذهولين من سماع الطلقات النارية والرصاص الذي يتساقط قادمًا من الخلف ولكنهم لم يكونوا يتلقون طلقات نارية من الخارج فكان لابد من تهدئتهم وخطرت لي فكرة لقد كنت أشعر بالرغبة في التبول فوقفت ونزعت ثيابي وبدأت أتبول جهاراً باتجاه العدو فانطلقت الفقهات واستعاد رجالي معنوياتهم هنا ليس "واترلو" ولا مكان للأسلوب النبيل ولا للباقة تحت أمطار الرصاص، لقد كان تصرفي مناسباً فأصبح الرجال تحت قبضتي كنت أجهل ما يجري من حولي داخل المعسكر رأيت المهاجمين وكنت أعرف أن هناك من يطلق النار في كل اتجاه ومن موقعي الحالي أرى في الزاوية الأخرى من المعسكر فرقة الجزائريين توجه طلقاتها النارية باتجاه النخيل الواقع شمال غرب المعسكر حيث تصدر طلقات نارية قادمة من العدو. ومن جانبي كنت أنتظر وأنا أجلس القرفصاء خلف الجدار أمام جبهتنا، كنت قد بعثت إلى المسيو "كبولاني" عريفاً من الزوج يتكلم الفرنسية بطلاقة ليلعب دور وكيل الربط ولم أكن أعلم وقتها أن "كبولاني" قد جرح ولم يعد لي المبعوث فظننت أن سبب ذلك عدم وجود ما يتطلب عودته لإخباري وبما أنني لم أكن في تلك اللحظة أتلقى طلقات من الخارج فأرسلت حارسين داخل النخيل وبعد قليل صرخ الحارسان: "قف هنا فجاءهم الرد باللغة "البمبارية" من أحد السودانيين من فرقة "استيفان" كان قد ذهب لينام في المدينة وهو عائد بعد أن سمع أصوات الطلقات النارية فأرسلت "بلبشير الهواري" للإمساك به وتقديمه لضابطه وكلفته بأن يأتيني

بالأخبار فعاد إلي بعد دقيقة واحدة وقال لي في أذني: "سيدي الرقيب، الأمين العام مصاب بجراح قاتلة" وكانت المعركة قد هدأت فلم نعد نسمع سوى طلقات متقطعة، وأنا الأقدم في الرتبة ويتعين علي تولي القيادة فناديت أقرب الضباط مني وكان الملازم "دوفور"³³⁵ فأمرته بمراقبة الواجهة التي تدافع عنها فرقتي ثم سعدت الكتيب ووصلت إلى مقر الإقامة فأخبروني أن كبولاني يحتضر فتصرفت بسرعة وأمرت بإيقاف إطلاق النار وأعدت النظام داخل المعسكر ثم بدأت أجمع المعلومات عما حدث.

وعلمت من الروايات الشفهية أن الملازم "استيفان" قد رمى أوراق اللعب عند سماع الطلقات الأولى وتوجه مسرعا والمسدس بيده نحو فرقته من السودانيين الذين كان "مارين" قد أوقف تفهقهم فانطلق "استيفان" إلى المقدمة ليستدرج رجاله في ذلك الاتجاه فعاد بعضهم مدفوعين من "مارين" إلى استعادة موقف الدفاع، وفي هذه اللحظة كان الملازم قد تلقى طعنة بالسيف على الجمجمة من شيطان عملاق على رأسه عمامة هو بالطبع قائد المهاجمين البيضان وبطلقة من مسدسه أردى "استيفان" مهاجمه وأعطاه ضربة ثانية كانت القاضية ثم نزع سيفه وعرزه في جسمه حتى غاص في التراب فأثار حماس رجاله فتمكنوا من صد هجوم "البيضان" ولكنهم في نفس الوقت أثاروا وابلا من الطلقات النارية داخل المعسكر وخاصة في ظهور فرقة المجندين السنغاليين الذين يتعرضون لهجوم من كافة الجهات دون استثناء حيث كانوا يتلقون من الداخل وابلا من الرصاص من جهة البطحة وعند كوخ الملازم "شيروي" كان "البيضان" الذين أطلقوا النار داخل مكان الإقامة والذين سرت بين صفوفهم يطلقون النار أيضا على فرقة الرماة السنغاليين وأخيرا احتل بعضهم مدخل الممر واستقبلوا الفارين أمام فرقة "استيفان" ثم انضموا جميعا إلى الهاريين وهم يتدافعون للخروج فانتهاز الملازم "شيروي" هذا الارتباك وأخذ أربعة أو خمسة من الرماة السنغاليين ومعهم حراب البنادق وهجم على هذا الخليط الذي يحاصره الملازم "استيفان" وجراحه تنزف دما، وتمكن بعض المهاجمين من الفرار ولكن باب المدخل أصبح الآن خاليا من المهاجمين وتوقفت المعركة داخل المعسكر.

³³⁵ - ولد الملازم دوفور بتاريخ 23 مايو 1881، وهو خريج مدرسة "سينسير" وقد أدى بعد ذلك مسارا مهنيا عسكريا طويلا ومتميزا في إفريقيا، أولا في موريتانيا مع "كبولاني" ثم مع "كورو" وبعد ذلك أثناس مع "لارجوا" وأخيرا في النيجر. وعاد إلى موريتانيا في الفترة ما بين 1928-1931 ليقود دائرة أدرار. ترك مؤلفا بعنوان: "تاريخ العمليات العسكرية في موريتانيا من بداية التوغل حتى عام 1920" وهو دقيق لكنه لا يخوض في التفاصيل وأسلوبه أعذب من أسلوب "مذكرات افيرير جان" ولم ينشر هذا المؤلف ولكن الرائد "جيلي" قد استأنس به في كتابه مؤلفه "تاريخ التوغل في موريتانيا" جتر 1926.

كل هذه الأحداث التي يطول سردها لم تستغرق سوى خمس دقائق فقط. وقد انحصر القتال داخل المعسكر في شعاع ثلاثين متر وفي الخارج سلمت الواجهة التي كنت فيها وتلك التي كان فيها الجزائريون وحدهما من الهجوم ولكن ومع الأسف لم تعول مذكرة التعليمات التي فرضت علينا على تشكيل فرقة احتياط حتى تتمكن مع المحافظة على حراسة الواجهات من مؤازرة الواجهات التي تتعرض للهجوم، يجب أن نواصل تعزيز حماية الواجهات لأننا لا ندري حسب الخطة الجديدة للبيضان هل سيهاجمونا من أحد جوانب المعسكر ليركزوا في نفس الوقت على الجهة المعاكسة.

وهنا أفتح قوسا لقد اعتقد قائد إحدى الفرق في "سانلويس" بعد أن تلقى تقارير مبتورة تشير إلى أننا تلقينا هجوما من خمسة وعشرين من البيضان على الأكثر، أن بإمكانه أن ينقل هذه المعلومة في أحد الإخبارات التي كان يحرص على إدراجها في تلك التقارير³³⁶ والواقع أنه فيما يتعلق بعدد اللذين هاجمونا لن أكون أكثر دقة، وأنا الذي كنت في عين المكان، من صاحب التقرير الذي لم يحضر أي شيء فليست لدي أية بيانات دقيقة حول عدد الأعداء الذين كانوا يحيطون بالواجهتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية للمعسكر و الذين كان الجزائريون والرماة السنغاليون يطلقون عليهم النار حتى قيل أن إطلاق النار قادم من المدينة فكل هؤلاء الأعداء يضافون إلى من اجتاحوا المعسكر وبالإضافة إلى "كبولاني" (الذي لفظ أنفاسه بين أذرع السيو "آرنو" والملازم "شيروي" ومجموعة كتابه والطبيب، نصف ساعة بعد إصابته) تكبدنا خلال هذه الدقائق الخمس من القتال جرح ضابط وقتل أربعة من الزوج وجرح أربعة من البيضان الذين دخلوا المعسكر كما دخل المتعصبون التابعة "لعجوز الجبل" في حقبة الحروب الصليبية لقد ضحى الهاجمون بأنفسهم من أجل قتل كبولاني وقد ثبت أن أمثال هؤلاء الرجال المضحين يندفعون إلى الأمام رغم كل شيء.

من المعلوم أن الأسلحة ذات الطلقات السهلة أكثر فعالية في القتال ليلا خاصة عن قرب حيث تبدو أكثر دقة من الأسلحة المسننة.

³³⁶ - توجد في الأرشيف تقارير كثيرة موجهة إلى فرقة القيادة في "سانلويس" قبل حادثة 12 مايو ويبدو أن من تلقوا هذه التقارير لم يحيطوا بكافة الحثيات في تلك اللحظة (أرشيف دكاك رقم 9 ج: 15 يشتمل على تقرير الجنرال "بيرو" إلى الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية بتاريخ 2 يوليو 1905) يبدو إذن أن امتعاض "افرير جان" له ما يبرره.

ويبدو كذلك من غير الدقيق القول بأن المهاجمين لم يكونوا مسلحين إذا علمنا أن لديهم بنادق ذات طلقات سريعة والمعروف أن طلقات الرصاص وطلقات الرشاشة أكثر دقة دائما من العبوات المتفجرة فالأسلحة تكون أكثر فتكا كلما كانت مناسبة للموقف.

وهناك خطأ آخر هو أن عدد الذين دخلوا المعسكر ليس خمسة وعشرين وإنما نحو العشرين فقط³³⁷ بقي خمسة منهم في عين المكان من ضمنهم قائد المهاجمين الشريف "سيدي ولد مولاي الزين" ومات اثنان بسبب جراحهما بين تجكجة وآدرار وأعدمنا نحن الثامن فيما بعد.

فإذا كانوا قد حققوا هدفهم فقد دفعوا الثمن غاليا وعلى كل حال لو تلقينا معلومات دقيقة بأننا نواجه مجموعة من المجاذيب التابعين لفرقة لم تكن معروفة تخلص لقائدها حتى الموت كما يدل عليه وجود مجموعة من البيضان يقومون بهجوم مكثف بهذا العدد القليل على حامية تفوقهم عددا وعدة، كل ذلك يثبت أننا لم نكن أمام عملية عادية وقد اتضح ذلك بجلاء في الأيام القليلة الموالية. لم يكن الوقت قد حان، بعد طرد المهاجمين لطي صفحة مقتل كبولاني فلا بد بعد استتباب النظام من اتخاذ إجراء صارم.

رغم صدور الأوامر بوقف إطلاق النار نظرا لغياب قيادة عسكرية موحدة ومركزية فمازال هناك بعض إطلاق النار بصفة معزولة كان العدو يرد عليه من المدينة ومن البطحة، أصدرت أمرا صارما بالتوقف عن إطلاق النار (ولم أكن متأكدا من رباطة جأش السودانيين) فقد جرح قائدهم وهو ينزف ويهذي ولم يعد بإمكانه أن يقودهم في الوقت الحاضر أما "مارين" الذي كان على مستوى عال من الهدوء والحيوية فقد تمكن من جعلهم يصمدون أمام العدو، ولكن رتابة سلوك هؤلاء الزوج كانت محيرة لدرجة أنهم أطلقوا النار على كوخ الملازم "شيروي" وقد كانت آثار طلقاتهم النارية بادية على الجدران ولا يستبعد أن يكون واحد أو اثنان

³³⁷ - تفيد روايات شهود عيان آخرين - روبرت روندو، الرقيب الدرقي "فيلمين"، الملازم "دوفور" - أن عدد المهاجمين المباشرين لا يتجاوز الثلاثين من الرجال حديثي السن يقودهم المقدم في الطريقة "الغظفية" سيدي الصغير ولد مولاي الزين وقد قتله الملازم "استيفيان" الذي كان هو نفسه قد جرحه.

كان "الغظف" في هذه الفترة فرقة دينية تدعو أتباعها إلى الطاعة التامة لقادتهم وتقوم ببعض الممارسات التهنكية. مؤسس فرقة "الغظف" هو الشيخ "سيدي محمد بن الغظفي" تلميذ الشيخ محمد فاضل القيادي في منطقة الحوض وهو والد الشيخ ماء العينين وهذا الأخير هو والد الشيخ حسن القائد الروحي والعراب السياسي لأمير آدرار الذي لا يتجاوز العاشرة من العمر، كما أن الشيخ ماء العينين خصم للشيخ سيديا والشيخ سعد بوه (وهذا الأخير شقيقه) ويتجسد هذا النزاع على الصعيد الديني رغم أن القياديين الثلاثة يتبعون جميعا للطريقة القادرية كما يظهر نزاعهم على الصعيد السياسي أيضا.

على الأقل من السنغاليين الذين قتلوا قد لقي مسرعه على أيدي السودانيين فمنعتهم من مواصلة إطلاق النار دون إذني أو إذن المسيو "مارين".

بقي في المعسكر ضابط لم تحدد له مهمة هو النقيب "جيرار" فأعطيته قيادة الواجهة الشمالية الغربية حيث لم يكن فيها من ذوي الرتب الأوربيين سوى الرقيب الدرقي "ريل هاك". لم تتمكن فرقة السودانيين أثناء الهجوم الذي انتهى للتو وكانت في هذه الواجهة، لم تتمكن أثناء ردها على إطلاق النار القادم من واحة النخيل المواجهة لها سوى من إبادة ثلاثة وعشرين كبشا كانوا في زريبة على بعد أمتار من مركز هذه الفرقة.

وأخيرا شكلت فرقة احتياط من بين "البولار" الموجودين في فرقتي ولهذا الغرض أرسلت دوريات تتجول حتى مسافة خمسمائة متر من جميع الجهات خارج المعسكر وكنت حريصا على التأكد من أن المهاجمين قد ابتعدوا تماما من هذه المنطقة فعلى الدوريات أن تمسك بأي رجل تجده في المنطقة وتحضره أمامي.

كان أكثر من نصف الجمالين "البيضان" في مهمة استكشافية مع "أكلي علي" والبقية يقيمون إما في المدينة وإما في المعسكر حول خيمة المترجم.

وكان رجالي من "أولاد بالسباع" قد هرعوا إلي من المدينة فور وقف إطلاق النار إذ لو حاولوا الاقتراب قبل ذلك لوقعوا تحت نيران فرقة السنغاليين فوجدتهم يحملون سلاحهم حول "محمد ولد أعمار" فشكلت منهم مركزا متقدما في ناحية النخيل شمال غرب المعسكر حيث كانت تصل إلى المعسكر قبل قليل طلقات نارية.

أما مجموعة "أولاد أبييري" و"ببكر سيري"، ورهطه فقد انهارت معنوياتهم تماما بعد موت "كبولاني" وأكثرهم انهيارا كان القائد الحربي لمجموعة كنت "ولد الحامد" فقد بقي طيلة الهجوم وبعده مختبئا داخل خيمة المترجم³³⁸.

بدت الأمور وكأن كل شيء انتهى وقد أحضرت إلي الدوريات نحو الخمسين من الأشخاص من مختلف الأعمار والأجناس وجدتهم في محيط خمسمائة متر حول المعسكر. وكنت أتأهب لاستئناف خدمة المناوبة على الحراسة عندما سمعت صراخا حادا متواصلا قادما من المدينة يشير إلى وجود نهب في ذلك الوقت وفي نفس الوقت سمعت طلقات البنادق

³³⁸ - في حين قاتل المترجم "بو المقداد" بكل بسالة.

من خلف القرية وقد أدركت أن فرقة الجزائريين التي كانت تحرس قطيع الإبل دخلت في اشتباك مع العدو في الجهة المعاكسة لجهة الصراخ فقد كانت جمالنا ترعى بالفعل حتى في الليل³³⁹ في منحدر "راس أدرك" شرق المدينة "لكصر" وكانت تحرسها فرقة صغيرة من الجزائريين.

أصدرت أمرا بتصويب فوهتي المدفعين الرشاشين في جميع نواحي القرية وخاصة من حيث كانت تصلنا الصرخات وفي نفس الوقت أخبرني حراس الجمال أن إطلاق النار الذي قام به الجزائريون قد أجبر مجموعة من المهاجمين التي كانت تسوق عدة مئات من غنم المدينة، على تركها والفرار في حالة فوضى.

وقد أكملت طلقات الرشاشات بقية العملية فتخلى العدو عن نهب القرية. هذه المرة انتهى كل شيء تماما وكانت الساعة منتصف الليل وانتهى الليل بكآبة وكانت الأعصاب مشدودة فقضينا الليل مستيقظين جميعا فوق الكثيب، لقد مات كبولاني مباشرة بعد أن تأكد من عدم جرح أو موت أي أوربي آخر.

لقد افتقدنا جميعا بموته، من كان يحمينا لقد كنا نشعر جميعا بمدى العناية التي كان يحيطنا بها وقد كان أسف من يعرفونه أكثر أشد عمقا فقد كان حزنا شديدا، لقد كان شعورهم مزيجا من الحسرة والغضب على قاتليه والمتآمرين معهم ولن ننسى أن "عبدي ولد امبارك" و"سيدي ولد الزين" قد شاغلا الحارس لحظة الهجوم وأن فرقة الرماة السنغاليين قد أكدت وصول طلقات نارية من منازل القرية "لكصر" وناحية البطحة.

وأخيرا وصلت أمة من "تجكانت" متأخرة مع الأسف وكانت مهمتها إنذارنا بقدوم عصابة المهاجمين فقد بعثها أسياها يوم 12 من الشهر مع حلول الليل لهذا الغرض حين رفض "إيدوعلي" أن يوصلوا إلينا الخبر مما يدل على أنهم كانوا إلى حد ما متآمرين مع المهاجمين.

انتظرنا وقت النهار لاستيضاح كل هذه الجوانب وكانت الأفكار التي تبادلناها كئيبة وكانت مشاعرنا مزيجا من التعاسة وكيف ستكون حال رجالنا! بالنسبة لهم كلما حدث هو من "حيل البيضان" والحقيقة أن أكثرية هؤلاء كانوا أقل توترا منا نحن وقد تمددوا بكل هدوء وناموا

³³⁹ - الجمال لا ترعى ليلا إلا تحت ضوء القمر.

وهم يضعون البنادق تحت أذرعهم. وقبل طلوع النهار بساعة كان كل من في المعسكر مستيقظا وفي مراكز القتال وكانت دوريات تخرج من أجل إكمال التفتيش الذي بدأ ليلا والإتيان "بعبد ولد امبارك" و"سيدي ولد الزين". كنت أعتقد أنني سأعثر بين الأشخاص الذين جاءت بهم الدوريات على أحد يعرف أسباب الهجوم الذي تعرضنا له وكنت أمل جمع حزمة من المعلومات تمكيني من تشكيل رؤية أولية عما حدث. لقد عولت على غضب الزوج وعلى حماسنا عندما رأيت المجموعة المنتحبة تسوقها الدوريات ومن بينها كثير من "البيضان" أمسكت بهم الدورية قرب المعسكر وعليهم آثار الضرب المبرح والدماء تتزف من بعضهم ولكن كل هذا لا يصل مستوى فظاعة ما ترتكبه الألوية المركزية في قلب باريس حين تحدث الاضطرابات وما تقوم به من معاملة قاسية لجموع الناس. هنا كل فكرة في غير محلها وكل حركة تعبر عن الضجر كانت تقابل بضربات بمقبض المدفع كان الهلع والخوف يسيطران على هذا الجمع كانت الشتائم والتهديدات والضربات تنهال عليه من الأوربيين والزوج على حد سواء، وكان الملازم الذي جرح في الليلة الماضية وقد أقعدته الحمى يصب جام غضبه على "سيدي ولد الزين" الذي هاجمه، وبما أنه يتكلم العربية بطلاقة فقد كان يصب عليه سيلا من الشتائم البدوية لم يكن هذا الرجل لبقا بين ظهرانينا فقد كانت سحلته تنم عن اللؤم وتعبر في نفس الوقت عن الخبث والوحشية لقد كان وجهه كوجه قرد "الشينبانزي" فانهالت عليه شتائم الزوج و الجزائريين والأوربيين.

ونظرا للمسئولية الواقعة بصفة خاصة عليه وعلى "عبدي ولد امبارك" فقد سجنتهما محكمي الوثائق مربوطين في عمود مبنى الإقامة، وبما أن "سيدي ولد الزين" قد أفرغ ما في بطنه بسبب الخوف و انزلق إلى أسفل العمود فاغرا فاه مثل "الغوريلا" ذات الأسنان المتساقطة وهو يتضرع ويتوسل بجميع المارين وبما أنه لم يعد يتحكم في عضلاته الفسيولوجية فقد كانت الروائح الكريهة المنبعثة منه تعكس مفعول الرعب على أمعائه.

أما "عبدي" فقد كان يعلن براءته باستمرار وكان يشهد الله على ذلك وينادي كل واحد باسمه ويتوسل بأن نطلق سراحه ووجهه شاحب من الخوف وعيناه تدوران في كل اتجاه وسط وجهه المتورم وأنفه الذي يقطر دما من شدة ما تلقاه من ضربات نظرا لما يكنه له الزوج من بغض ومن سوء حظه أنه وقع في الطريق بين أيدي بعض الأوربيين الأكثر ارتباطا بالأميين

العام الفقيد وخاصة الحراس المقربين منه ولذا لم يبق منه سوى خرقة بالية بسبب الضربات وسوء المعاملة.

لقد استغرقت الساعة الأولى من الصباح استجواب هذا الخليط ولم نجد معلومات دقيقة وأكبر خطأ ارتكبه أغلب هؤلاء الشياطين البؤساء هو أنهم كانوا موجودين في مكان لا يمكنهم تبرير وجودهم فيه حين مرت الدوريات.

وبما أن الزنجي ذو عقلية بسيطة فهو يعتقد أن كل البيضان مجرمون لأن بعضهم قد هاجمنا ولذا قبضوا على الجميع وجاءوا به عنوة دون تفسير وقد استمر الرماة السنغاليون طيلة استجواب الموقوفين في تهديدهم بالإشارات ورفع حراب البنادق والضربات التي تنهال على كل من يتحرك من مكانه لقد كان ذلك كافيا لتحطيم معنويات كل هؤلاء الذين لم يكونوا يفهمون ما يؤخذ عليهم ولماذا يعاقبون هكذا³⁴⁰ ولكنهم مع ذلك أدركوا شيئا واحدا: هو أن من الأفضل الابتعاد عنا بأقصى ما يكون عند حدوث أي هجوم ومنذ ذلك الوقت أصبحوا يخلون المناطق المحيطة بالمعسكر كلما جرى الحديث عن هجوم وشيك وهو ما يشعرا باقتراب الخطر ويمنحنا مزيدا من الحرية ومنتسح من الوقت للتحرك.

وبعد قليل أطلقت سراح جميع هؤلاء البؤساء فاختلفوا جريا لا يلوون على شيء في اتجاه القرية. تمت مواجهة "سيدي ولد الزين" و"عبدي ولد امبارك" مع الحارس الذي شاغلاه أثناء الهجوم ومع طباح "كبولاني" فلم يسفر استجواب هذين الوغدين سوى عن ظنون ولم نستخلص منهما إثباتا لتورطهما، وخطر لي أنني بإطلاق سراحهما ومراقبتها سأحصل من ما ينقل إلي من أحاديثهما على بينات وحجج أثبت لهما عن طريقها تطورهما في الهجوم كما أنهما قد تعرضا لما يكفي من العقاب وهما يقعان تحت طائلة تهمة جسيمة فأخليت سبيلهما ولكنني ألزمتها بالحضور أمامي كل صباح وكل مساء وأذرتهما أن كل فعل أو سلوك مريب سيعرضهما للموت. اعتبر كثير من الأوربيين الحاضرين أنني تصرفت بلبين ورأفة لا مبرر

³⁴⁰ - بالفعل، نشرت بعض الصحف بعض المقالات المنحازة ولكن كانت هناك أيضا بعض النشرات المعارضة للمغامرات الاستعمارية كما كانت هناك صحافة مولعة بنشر الأحداث المثيرة وكانت من حين لآخر تجد ضالتها في بعض انزلاقات المستعمرين فظهرت عناوين مثل: "زيد المجتمع الفاسد" في حين كانت صحف أخرى تقدم المستعمرين في صورة "الأبطال" ويبدو أن حادثة "قوليت-شانوان" قد أثرت على الرأي العام بعمق بسبب "إخمادها" جزئيا: فالصمت يولد الشكوك. وتبدو قراءة هذه المقالات المناهضة للمستعمرين عديمة الفائدة في الوقت الحاضر إذ يبدو أن كاتبها لم يضع قدميه أبدا في المناطق التي يصفها ولا يمتلك سوى معلومات عامة عن الرجال والمشاكل في دول تختلف عن فرنسها فلا يجد المرء بدا من الضحك من "جبرود دلاين" وهو يرتعش في تذرر وقح حين يتحدث عن ما يسميه أصحاب الحظ العاثر من الجنود الفرنسيين الذين لا يجدون "جرعة خمر" في اليوم وسط الصحراء.

لهما مع هذين الوغدين وكان المتطوعون "البيضان" يقابلونهما بإشارات ترمز إلى لذبح عبر إمرار اليد على الحلقوم كأنما يقولون لي اقطع رأسيهما! كل ذلك لم يقنعني بالتراجع عن قراري وبعد قليل لم يبق في المعسكر سوى مجموعة من "البيضان" تم الإمساك بهم أثناء الليل.

وفي صبيحة 13 مايو حررت برفية إلى الحكومة العامة ضمنتها وصفا للأحداث المأساوية التي وقعت في الليلة السابقة وكلفت الشجاع "المختار ولد داداه" بحمل هذه البرقية إلى أول مكتب فرنسي على ضفة النهر. ولندكر من الآن أن "المختار" قد تمكن في ظرف أربعة أيام من الوصول إلى "أبودور" رغم أنه تعرض لهجوم من فرقة من أهل "آدرار" عند "كيمي" وردا على برقيتي تلقيت من "داكار" أمرا صارما بالانتظار في عين المكان حتى تصلني التعزيزات القادمة مع المقدم "مونتاني كبد بوسك" من سلاح المشاة الاستعماري الذي عين مفوضا للحكومة العامة في موريتانيا.

لقد أصبحت أماننا الآن مهمة شاقة وهي موارد جثمان رئيس البعثة وغيره من جنودنا المقتولين ليل 12-13 مايو. لقد طلب الملازم "لافوبيون" وضباط الصف الأوربيون في الفرقة الجزائرية أن يتولوا تغسيل الأمين العام وكانوا قد صنعوا له نعشا من صفائح الأكياس يتسع لجثمان "كبولاني" كانت كل ضربة بالمطرقة تزيدنا حزنا على حزن فكان الموقف العام متسما بالكآبة والوجوم وفي حدود الساعة 3:30 كان كل شيء قد أصبح جاهزا لحفل التأيين.

فقد تم حفر القبر في سفح الكثيب فكبولاني يرقد في عاصمة تكانت³⁴¹ حيث كان أول من رفع العلم الفرنسي بعد أن مات هذا الرجل المسالم (ولا أقول المحب للسلام) ميتة الجندي حيث سقط أمام العدو وهو يطلب أن يقدم له سلاحه.

كانت الفرق العسكرية، باستثناء ما هو ضروري لحراسة المعسكر، أي نصف كل مفرزة، حاضرة بزيها وسلاحها وتم تنظيم التجمع في شكل مربع يحيط بالقبر وكانت منصة الشرف من نصيب المقاتلين الفرنسيين الفرقة النظامية والفرقة الجزائرية فقط من البيض رغم أنها غير نظامية وبعد قليل تراءى لنا النعش على قمة الكثيب يحمله البوابون الخالصاء الذين طلبوا شرف حمله وعليه العلم الفرنسي بألوانه الثلاثة. وكنت أقود بنفسني حفل الشرف فأمرت

³⁴¹ -انظر السرد الذي كتبه "روبيرت راندو" في "المستكشفون" الصفحات: 240-244. وبعد ذلك أقيم نصب تذكاري في تجكجة كتب عليه اسم "كبولاني" ولكنه لا يحمل أي رمز ديني (كبولاني كان مسيحيا). وكل إشارة إلى ذلك ستثير حفيظة البيضان مثل السلاسل التي تحيط بالنصب التذكاري لغرض الديكور (٤) وقد قال البيضان شعرا في ذلك "لقد وضع الفرنسيون سلاسل حول قبر كبولاني ولكن روحه تقبع تحت خيمة أصدقائه البيضان" ولن ينفي كبولاني ذلك لو قدر له أن يتكلم.

بوضع الأسلحة على المناكب فتتابعت أصواتها في الأيدي المرتعشة من الانفعال ولمعت الحراب كالبرق تحت أشعة الشمس الساطعة.

وكانت الدموع تنهمر من أعين كل الأوربيين وكثير من الجزائريين و"البيضان" وبعض الزوج فنحن، سنجعل تحت التراب من كان يحمينا. أما أنا فقد جف حلقي من الانفعال وتعود إلي مهمة صعبة هي أن أقول كلمة الوداع لقائدنا. فلم أنبس ببنت شفة فقد اختلط في رأسي الانفعال مع الغضب من الذين اعترضوا سبيل مهمتنا وتحالفوا مع العدو الذي أزهق روح "كبولاني" فقد كنت أعرف أنه في السنغال كان هناك من يحرص "البيضان" على اغتيال الأمين العام فقد أشيع في أوساطهم أنه بقتل قائدنا سنسحب إلى منطقة النهر وكنت ما زلت تحت وقع الذهول وأنا أتذكر منذ الصباح أمر الوثائق المثبتة لذلك والتي كنا قد عثرنا عليها في "بوكادوم" واختفت الليلة الماضية ولم نجدها حتى الآن. كان يوجد إذن طابور خامس حتى داخل معسكرنا ولم يكن في وسعي مع الأسف سوى الظنون، فلو كنت قد تعرفت على المجرمين لدفعوا الثمن غاليا.

وفي الأخير تمكنت من نطق بضع كلمات متلعثمة وكان المسيو "أرنو" الصديق الحميم للفقيد، يبكي بحرارة لقد كان الموقف صعبا يتجاوز كل تعبير حين نرى هذا الرجل الملتحي ذي البنية القوية كالرياضي ومنكباه يرتجفان من شدة البكاء محاولا ضبط نفسه دون جدوى، فأشرت إليه قائلا: "جاء دورك" فأشار إلي دون أن يتكلم.

في جملة الوحيدة المقتضبة والمتقطعة تحدثت عن أخذ الثأر لأمواتنا ولم يكن ذلك من قبيل التبجح أو التحدي الذي لا طائل من ورائه فواجب كل قائد هو أن يعمل على رفع معنويات جنوده خاصة في ظرف تتهددنا فيه الفوضى وحيث لن يفهم الناس أكثر إلا إذا تأكدوا من أننا نخطط للانتقام، حقا أنني نسيت أن السياسة لا كرامة فيها ولا حياء ولم أكن أتصور أن من الممكن ترك مثل هذا الاعتداء دون عقاب طيلة كل هذه السنوات.

نزل جثمان قائدنا داخل القبر وأصبح علي، حتى إشعار جديد، أن أتولى مصير البعثة بعد أن رمته صدفة القتال بين يدي فبعد هول الصعقة يجب أن أرفع رأسي وأحافظ لفرنسا على ما حققه "كبولاني" من أجلها.

كنت قد توليت القيادة ومن المتوقع أن نتلقى هجمات أخرى وقد كنت مقبولا لدى الأغلبية ولا أقول الجميع لأنني علمت أن أحد الموظفين المدنيين من فرقة الاحتياط في

إدارتنا قد كتب فيما بعد في تقرير أن البعثة مدنية وأن قيادتها كانت من حقه باعتباره الأسمى رتبة إن صح التعبير بين المدنيين الحاضرين في تجكجة يوم 13 مايو. ومن سوء الحظ أنه لم يتحدث عن شيء من هذا طيلة وجوده في تجكجة.

لقد كانت المسؤولية كبيرة ولم أكن راغبا في تحملها وما أظن أن أحدا غيري كان سيقبلها، الجميع كانوا يدركون أن الظرف كان خطيرا خاصة بين السكان الأصليين فمن هو الذي سينصاع لأوامر موظف مغمور حديث السن أثبت سلوكه وعمله داخل المعسكر أنه عاجز عن مواجهة العدو وحتى وتولي أي قيادة أو أي مسؤولية إدارية.

لم يبد أحد اعتراضه علي في ذلك الوقت ومن سييدي منافستي فيما بعد كان في ذلك الوقت أقل الناس طموحا إلى احتلال مركز الصدارة فلم يتذكر هذا الطموح إلا لاحقا عندما أصبح آمنا في السنغال ودخل بين أوساط سينلوي المناوئة لي.

وعلى كل حال ومن أجل قطع الطريق أمام القيل والقال قررت في الوهلة الأولى أن لا أحمل سوى لقب القائد المؤقت لبعثة تكانت - آدرار فكان ذلك كافيا بالنسبة لي لتجسيد السلطة التي أحتاجها في انتظار تسليم المهام إلى غيري، لم يكن طموحي يتجاوز هذا الحد واعترف بأنني لم أفكر في مثل هذه المعارضة السخيفة الساذجة.

وقبل أن نتوغل إلى الأمام ونبتعد نهائيا عن هذا الوجه البارز أعني "كبولاني" الذي أثار جدلا كبيرا شأنه في ذلك شأن كل من له قيمة يسمح لي القارئ الكريم بأن أقدم تنويها أفند فيه حكما مسبقا طالما أطلقه البعض على قائد بعثة تكانت آدرار وقد رددته الكثيرون. فقد قيل، وربما كتب، أن "كبولاني" لا يحب العسكر وهذا كذب في كذب.

فبوصفه وطنيا مخلصا خدم أكثر من أي شخص آخر مصالح فرنسا الكبرى³⁴²، لا يمكن بأي حال أن يكون مناهضا للعسكريين فالذكريات التي كان يحلو له سردها عن فترة خدمته العسكرية كانت تتردد على لسانه في كل المناسبات. ومن سوء حظه أن وجد في طريقه بعض العسكريين الذين وضعوا تحت تصرفه وبدل أن يخدموه ويعينوه في مهمته أثاروا له المتاعب وبما أنهم كانوا متأكدين من التعويل على هذه العقلية المناهضة لكبولاني والتي تحدثت عنها مرارا، وكانوا متأكدين من قبول مواقفهم سواء كانت مناهضتهم له خفية أو معلنة

³⁴²- تدل هذه الجملة على الأفكار السائدة آنذاك: فالوطنية كانت قبل كل شيء فضيلة عسكرية ترتبط بمبدأ استعادة المناطق الضائعة سنة 1870م (ألزاس-لورن) أو لعمليات الغزو لتعويضها: الغزو الاستعماري الذي كان ينتظر أن يمنح فرنسا نفوذا أكبر وقوة أوسع.

فلم يكونوا بالنسبة له سوى عقبات بدل أن يكونوا في خدمته. لقد كانوا كثيرين وقد ضجر منهم الفقيد ولم يعد يتحمل سماع الحديث عنهم وهو أمر شرعي فبعض هؤلاء قد استغله واستفاد منه بخبث دون أن يقدم له أية خدمة³⁴³ ومن جهة أخرى ألقى على "كبولاني" ظلما تبعات تصرفات مبتذلة وحتى شنيعة لا دخل له فيها قد ارتكبها مسئولون في مستويات أخرى وحتى بعض الأفراد العاديين وكان يتعجب من سماعها حين تنقل إليه ويستاء منها. ومن سوء الحظ أن المحيطين به لم يكونوا متضررين منها ولذا حجبوها عنه عن قصد خوفا من إثارة المشاكل، فالشتائم والتوبيخات الموجهة للعسكريين العاملين في موريتانيا كانت من عمل بعض السلطات والمصالح التي بدل أن تطعننا من الخلف كان من واجبها أن تعمل ما في وسعها لمساعدتنا والتي كانت تجهل من حيث المبدأ كل شيء عن البلد والظروف التي تحيط بنا كان عليها أن تطلب المعلومات من السلطة المعنية المتمثلة في "كبولاني" نفسه لتدقيق الأمور بدل السعي إلى إدارتها عن بعد بشكل مواز لسلطة هذا الرجل أو، كما هي الحال في أغلب الأحيان، العمل على تشويش الوضع ومضاعفة الصعوبات.

كثير من العسكريين الذين قدموا إلى موريتانيا قد نبذ وراء ظهره الشعار النبيل المعروف "أنا أخدم فقط" الكثيرون أخلوا بواجب الإخلاص متناسين من بين أمور أخرى أنه في كل توغل سلميا كان أم لا، يكون فيه دور الرواد الأوائل صعبا جدا على الرغم من كونه مشرفا، كثيرون قد حرصوا على تحقيق مآربهم الشخصية مستغلين الظروف ومتخلين نهائيا عن المهمة التي التزموا بها (أو طلبوها) حتى أن بعضهم يفتخر بذلك.

هناك أيضا بالنسبة لأكثرية العسكريين³⁴⁴ ممن لم يشاركوا في عملية موريتانيا (وهم في الغالب من ذوي الرتب العليا) فقد كان هؤلاء يظهرون معارضة هذه العملية وما على من يشك في ذلك إلا أن يفتح مدونة التعميمات الإدارية ليقف على ذلك بجلاء، ومن أبرز الأمثلة على ذلك التعميم المتعلق بالعلاقات بين رؤساء الوحدات والضباط خارج الإطار المكلفين بالوظائف الإدارية والسياسية والدبلوماسية، بل توجد إفادات تهنئة وتقدير موجهة لعسكريين قد ارتكبوا حالات فشل ذريع (وهم الذين، بالنسبة لهم على الأقل، قد تفاجئوا بذلك) ثم لأن هؤلاء العسكريين، بعد أن غادروا محيط "كبولاني"، لم يتوقفوا عن معارضته والتحلي بعدم الوفاء

³⁴³ - آراء "فرير جان" ونهجه المهني قد أكد خطوطهما العريضة "روبيرت راندوت في "المستكشفون".

³⁴⁴ - من التابعين لإفريقيا الغربية طبعاً، فالآخرون لا علم لهم بكل هذا (توضيح من فرير جان).

اتجاه زملائهم الذين بقوا في الخدمة على الجانب الآخر من النهر أو الحاجز على الأصح. وبإمكان المرء، دون أن يخشى الوقوع في الخطأ، أن يقارن المدح الموجه لهؤلاء الفاشلين المهزومين بعبارات الحقد والإساءة التي كنا موضعاً لها فيما بعد نحن المخلصين لكبولاني بشأن عملية لا ناقة لنا فيها ولا جمل ولم يحاول أحد أن يكشف حقيقة المسؤولين عنها³⁴⁵ في الوقت الذي حققنا انتصارات عديدة ولن يشك في هذه المناهضة من لاحظ الطريقة التي عوملنا بها فور موت حامينا والمدافع عنا و"رئيسنا" (بالمعنى اللاتيني للكلمة) وكيف نبشوا ضدنا وضدي أنا شخصياً عن مآخذ قديمة جداً؟ وكيف بذلوا قصارى جهدهم في البحث عن مآخذ جديدة؟

قد يكون من قبيل الصراحة أن سبب الحرب المعلنة ضد "كبولاني" هو الفكرة السائدة والتي لا علاقة لها بالقيم العسكرية وإنما هي من نمط آخر وهي راسخة لا أدري لماذا لدى الكثيرين منا ومفادها وجود سلطتين منفصلتين إحداهما مدنية والأخرى عسكرية وتعني هذه الفكرة أن كل السلطتين مستقلة عن الأخرى دون أن تربطهما أية علاقة هذا في أفضل الأحوال وهما في حالة صراع في الأغلب الأعم حسب هذه الفكرة السائدة.

والواقع بالنسبة لكل بلد محكوم بصفة جيدة أنه لا توجد إلا سلطة واحدة تسمى "السلطة" دون الحاجة إلى أي وصف آخر، كانوا يحاربون "كبولاني" وبما أنهم لا يستطيعون النيل منه فهم يهاجمون صغار الموظفين العاملين في موريتانيا ومنتصرون استهجان "كبولاني" وهو من هو حين يعلم أن بعض العسكريين يستخدمون مثل هذه الطرق بكل وقاحة.

والواقع أنهم حين فشلوا في أن "يصنعوا" بـ"موريتانيا" مثلما "صنعوا" بالسودان و"أتشاد" فقد حرصوا على منع "كبولاني" من الانتصار وبتصرفهم هذا ووضعهم العراقيين في طريقه تمكنوا من التشويش عليه وإبطاء حركته وبالتالي كدروا حياتنا عبر التقتير والشح كلما وسعهم ذلك، ولكنهم لم يثبطوا هممنا ولا هممة قائدنا ولن ننسى شيئاً مما حدث، وبالمقابل فإن "كبولاني" لم يكن بالنظر إلى مناوئيه على درجة من ضيق الأفق وقصر النظر حتى يعزو المسؤولية عن هذه العراقيين للعسكريين بصفة عامة بل كان يعرف بحق إلى من يتوجه عندما يريد ذلك لو أنه عاش عند البحث عن المسؤولين عما حدث، فبسبب هذه المناوأة وهذه

³⁴⁵ - مع أن "فرير جان" لم يذكر أحداً بالاسم إلا أننا مع تتبع التفاصيل التي يقدمها ندرك أنه يقصد النقيب "ابيين" محرر مذكرة الأوامر المتعلقة بالأمن داخل معسكر "تجكجةط".

المعارضة التي لم تتوقف أبدا لقي "كبولاني" مصرعه ومن أجل تفادي هذه العلاقات الخشنة المفروضة عليه طيلة السنوات السابقة تخلى "كبولاني" منذ 1905م عن الرغبة في قيادة الفرق العسكرية ولأنه تخلى عن هذه القيادة فقد وثق بالمذكرة التخريبية التي وضعت لأمن المعسكر إن من المهم بالنسبة لذكراه أن يعلم الجميع بهذا التسلسل المنطقي للظروف.

إن "كبولاني" كان يعرف أننا من أولئك الذين قيل عنهم في زمن "تابليون" "يتذمرون ولكنهم يمثلون دائما" كان يعرف أننا خدام فكرته يجب أن يكون الجميع على علم بذلك لقد كنا نحب الرجل ما فعلناه من أجله قد قمنا به بكل تجرد ودون أي إكراه وللتأكد من ذلك يكفي النظر إلى الطريقة التي نكافأ بها في الغالب بعد موته كنا ندرك العداء الذي يتهددنا ولم نكن نهتم بأراء زملائنا المتأتية من شعور بشري غير معطن عادة هو الحسد لقد كنا نخدم مهمتنا طوعية ونشعر أن ذلك يشكل نبلا بالنسبة لنا ولسنا نادمين على أي شيء سوى على موت قائدنا على يد العدو... لننطلق، فالأرض مستديرة... كما يقول النشيد ولنترك موتانا الآن يرقدون تحت هذه الأرض التي أصبحت فرنسية بعد أن خصبوها بدمائهم فلنحييهم ونواصل المسير!

أول ما يلزم إنجازه عند تسلم القيادة هو إصلاح خدمة الأمن، لا بد من تصحيح مذكرة الأوامر السيئة الصيت، ثم بعد ذلك، توقعا للهجمات المقبلة التي يمكن أن نتعرض لها، مباشرة رص الصفوف في شبكة إنذارنا وحمايتنا.

فور يوم 13 مايو بدأت تنفيذ هذه الإجراءات الأمنية حيث ورد في تقرير ذلك اليوم:

- اعتبارا من اليوم وحتى إشعار آخر تبقى خدمة الحراسة الليلية مشكلة طيلة النهار وسيوضع حارس منفرد على كل واجهة تقدمه إحدى الوحدات المتمركزة في تلك الواجهة وعلى الواجهات التي تضم وحدتين يتفق رؤساء المفرزات على ذلك؛
- يجب على الحراس أن يراقبوا بوجه خاص غابة النخيل على الأقل من مسافة 50 متر؛
- أثناء استراحة القيلولة ستقوم دوريات مفاجئة ينظمها رؤساء المفرزات؛
- تتولى كل واجهة حراسة نفسها بوسائلها الخاصة وعلى مسافة كافية وستتلقى المفرزات غير المتوفرة على القوة الكافية للدفاع عن واجهاتها، أوامر خاصة وعند الحاجة ستتمركز على النقطة الأكثر عرضة للتهديد ضمن واجهتهم؛

- سيتم تنظيم عمليات رفع الأسلحة عامة أو خاصة في كل وحدة عدة مرات؛
- سيتم النداء بالأسماء مساء وعند الاستيقاظ في كل مفرزة بالنسبة للرجال الموجودين في مراكز القتال؛
- سيحكم إغلاق الباب الرئيسي ليلا بواسطة جذوع النخيل؛
- سيوضع المدفع الرشاش بيد المسيو "كولومباني" ويمون بالذخيرة موجهها في خلفية هذا الباب، سيترك منفذ يتسع لمرور الموظفين وفوهة المدفع الرشاش؛
- الرقيب "فوريي مارين" يغطي بمدفعه الرشاش الواجهة الشمالية الغربية التي تحميها فرقة السودانيين القادمة من "مال"؛
- سترسل القطعان للرعي مجتمعة كلما أمكن تحت حماية وحدة من الحراس تتغير حسب الظروف وتحت قيادة في الصباح؛
- سيتم إدخال القطعان من الآن فصاعدا داخل المعسكر في الليل؛
- ستعتبر الإقامة ومساكن الفرقة السنغالية من الآن فصاعدا منطقة معزولة في انتظار تحديد منطقة معزولة أكثر ضيقا؛
- يجب على البيضان بمن فيهم أفراد فرق الحراسة أن يعرفوا الحراس على أنفسهم عند القدوم أثناء راحة القيلولة وفي الليل وإلا سيطلق عليهم الحراس النار تلقائيا وفي فترة النهار يجب على البيضان من الحراس أو المساعدين أن يتوجهوا فقط إلى حارس البوابة الرئيسية الذي يوقفهم على مسافة بعيدة ويشير إليهم دون أن يغادر مكانه بوضع الأسلحة على الأرض ولا يترك الرجال يقتربون منه إلا واحدا تلو الآخر وسيتم في وقت لاحق وضع لائحة بأسماء البيضان المسموح لهم بالولوج في أي وقت داخل المعسكر؛
- ستكون هناك فرقة احتياطية على كل واجهة دون المساس بفرقة الاحتياط العامة التي يوجد مكانها في وسط المعسكر أمام مسكن المسيو "أرنو" والنقيب "جيرار"؛
- سترك خدمة الدوريات لتقدير قادة الواجهات الذين يتعين عليهم تقدير الموقف؛
- تعيين قائد كل واجهة: النقيب "جيرار"، الملازمون "شيروي"، "دوفور" و"لوفجيون"؛
- أبواق المزامير مع القائد المؤقت للبعثة ومكانه العادي تحت سارية الجناح سيوجد في كل مفرزة رجل يتكلم الفرنسية جهوري الصوت يعمل تحت أوامر هذا الضابط.

سيتم العمل بنظام المناوبة على الحراسة كما كان في السابق بالتبادل بين أصحاب الرتب من الجزائريين والأوروبيين.

توجه جميع الحراس والمساعدين البيضان الحاضرين في المعسكر، وهم نحو الأربعين، في الصباح على آثار المهاجمين وتقصوها بعيدا في اتجاه الشمال ولم يعودوا إلا بعد غياب الشمس معلنين أن العدو، الذي كان أكثر عددا مما كنا نعتقد، قد ابتعد بسرعة ولم يتمكنوا من اللحاق به.

عاد "المختار ولد داداه" برسائل من النقيبين "سيكولي" و"أبايين" وكان هذا الأخير بعد توقفه في "الحسينية" قد أرسل في ذلك اليوم إلى "كبولاني" رسالة بالبريد السريع يقول فيها: "أنه لا يصدق نبأ موته الذي قد شاع في كل نواحي البلد"، وقد وصلتني هذه الرسالة مساء يوم 14 وتعين على "المختار ولد داداه" أن يؤكد له الخبر الذي لم يكن يصدقه.

وكان النقيب "أبايين" هو الوحيد الذي تلقى تقريرا مفصلا بالمعلومات السياسية وهو الوحيد الذي يعرف الوضع السياسي للبلد، ولحسن الحظ أن المترجم "بو المقداد" والمسيو "كولومباني" كان بمقدورهما إطلاعي على تلك المعلومات. أصبحت مسألة المؤمن الغذائية مطروحة، طبعا وصلتني قافلة صغيرة من الأرز قبل موت "كبولاني" ولكن فرقة "أكلي علي" التي كنا ننتظر منها جمالا للذبح لم تعد حتى الآن وفي الواقع كانت هناك قافلتان للمؤمن في الانتظار واحدة قادمة من "أبودور" في نحو أربعمئة جمل والأخرى من "كيهيدي" تحمل أغذية الأوربيين بوجه خاص وسيتوجه النقيب "أبايين" إلى كيهيدي لتسريع مغادرة هذه القافلة.

وبالجملة، الوضعية تبدو كما يلي: لقد رجع وفد "إيدوعيش" من "تاورتا" عندما علم بموت "كبولاني" عن طريق "إيدوعلي" ولكنهم بقوا على معزل ممتثلين جزئا للمطالب التي كان "كبولاني" قد عرضها على "الحسين ولد بكار" ثم اقتربوا وعادوا إلى منطقة "أركيبه"، أهل أسويد احمد" وحدهم من القادة الكبار الذين بقوا على قيد الحياة من أسرة "بكار" قد بقوا في منطقة "أفله" حيث حبسهم، من جهة خوض الحرب ضد "كننة" في الحوض و"أولاد الناصر" ومن جهة أخرى رغبتهم في الانتظار خارج منطقة نفوذنا لما ستؤول إليه الأمور.

كتبت إليهم لأشعرهم رسميا بموت "كبولاني" مؤكدا لهم أن ذلك لا يغير أي شيء في سياستنا وطلبت من "الحسين" تسوية وضعه اتجاها بالاستجابة للوعود التي التزم بها

"كبولاني" وقلت للجميع إنني في حالة عدم تنفيذ الالتزامات، مستعد للضرب من جديد وهم يعرفون أن ذراعي طويلة.

ووصلت ضمن نفس البريد رسالة "الأولاد الناصر" وأخرى لأهل "سيدي محمود" تعلن دائما موت "كبولاني" وتؤكد على أنني سأواصل تطبيق سياسته فذكرت لهم إنني الملازم الذي عمل سابقا مع الفقيه النقيب "سانساريك" الذي بقيت سيرته الفريدة في ذاكرة هاتين القبيلتين اللتين التقى بهما سنة 1893م حيث التقى بالأولى كعدوة وبالثانية كحليفة³⁴⁶ سلمت بوجه خاص على "سيدي المختار" رئيس أهل "سيدي محمود" الذي كنت قد أرسلت إليه المرأة في موقعة "بوكادوم" مراعاة لمكانته.

كما كان "المختار ولد داداه" محملا رسالة إلى "الشيخ سيديا"³⁴⁷ أخبره فيها أنني أنفذ حرفيا النهج السياسي للسيد "كبولاني" وأن الخلف عندنا لا يغير شيئا في أوامر سلفه وأن عليه أن يثق ويطمئن ويواصل التعاون مع الحاكم المقيم "بأترارزة" الشرقية وكلفت "المختار" شفها بأن يقول للشيخ أن يعتبر نفسه من الآن فصاعدا في نفس الوضع الذي كان فيه مع كبولاني فأنا شخصا لا أمثل شيئا إنما أنا خلف لفترة مؤقتة³⁴⁸.

اكتملت الإجراءات العسكرية يوم 14 مايو. يقرأ في التقرير ما يلي:

- ستشكل فرق الاحتياط العامة للمعسكر من المجموعة الثالثة من "البولار" التابعين لفيلق "أفرير جان". وستتمركز كل ليلة في المكان المحدد لها سابقا. ستربط فرقة من الرماة السنغاليين ليلا ونهارا بقرب البوابة الرئيسية للمعسكر ويجب على أفراد هذه الفرقة أن يبقوا في حالة استعداد دائم ممسكين بأسلحتهم ورافعين الحراب.
- على كل وحدة في كل نقطة حراسة صغيرة ستشكل فرقة من أربعة رجال لديهم نفس الأوامر الموجودة مع فرقة حراسة البوابة الرئيسية. سيعين قائد كل واجهة معنية الأفراد المكلفين بتشكيل نقاط الحراسة. ستبدأ خدمة نقاط الحراسة هذا المساء عند بدء عمل الحراسة. وسيتم سحب هذه الفرقة إلى الداخل مع حلول الليل عند مركز الشرطة المرابط في الممر لدى "كولومباني" صاحب المدفع الرشاش.

³⁴⁶- في إشارة إلى حملة السودان التي شاركت فيها قبائل من الحوظ.

³⁴⁷- المختار ولد داداه والشيخ سيديا من أسرة واحدة.

³⁴⁸- هذا التصور الإداري "فرنسي بحت" ولا يفهمه البيضان الذين تعودوا أن يتم إعلان الإخلاص من الرجل للرجل لا بد أن يثبت الخلف "جدارته". لقد كانت رسائل الشيخ سيديا إلى خلف كبولاني لطيفة تتسم بالثقة ولكن دون مسحة الصداقة الحميمة التي كانت تطبع رسائله الموجهة إلى كبولاني.

- يجب على الأوربيين والجزائريين أن يحملوا سلاحا ناريا أثناء نوبات الحراسة وأن يكونوا مصحوبين في جولاتهم برجلين من وحداتهم يتولى أحدهما الدفاع الفردي عن الشخص القائم بإنابة الحراسة في حين يتولى الآخر مهمة المراقبة عن قرب وإجراء الاتصالات.
- سيقوم النقيب "جرار" غدا بدراسة مشروع لتشذيب غابة النخيل وآخر لإحاطتها بسياج من الأسلاك الشائكة يخترق الأماكن المعشبة أمام خط الحراسة. وتقوم المفرزات (من غير الرماة السنغاليين والسودانيين والبوابين) بإكمال مؤنتها من الذخيرة غدا صباحا بحيث تكون في حقيبة كل رجل مائة طلقة نارية وبالإضافة إلى ذلك ستهياً أربعة أكياس احتياطية من الذخيرة تبقى غير محكمة الإغلاق مع تعيين الواجهة المقصودة بالكيس وبإمكان قادة الواجهات الراغبين في ذلك أن يستلموا هذه الأكياس غدا صباحا وينقلوها إلى مساكنهم مقابل وصل أو يتركوها مكانها بعد معاينتها.
- ستوزع كميات جلود البقر الموجودة في المخازن على المفرزات تبعا لأعدادها من أجل صنع الأحذية وسيكون التوزيع بحيث يمثل الجلد الواحد عشرة أزواج من الأحذية.
- على قادة المفرزات أن يعلنوا عن عدد قرب الماء الموجودة عندهم بما في ذلك القرب الفردية لرجالهم.

أصبح النظام يسود شيئا فشيئا.

جاءت يوم 15 "صرية" أي وفد من "اسواكر" وهم فرع من "أهل سيد محمود" يحترف النهب. كل شيء هادئ في الجنوب الشرقي وما زال "أولاد الناصر" و"كنتة" يتحاربون مع "إيدوعيش". وبالنتيجة قدم "اسواكر" ليعلنوا دخولهم تحت السلطة بين يدي فدعوتهم إلى تحديد مبلغ الضريبة المطلوبة عليهم وأن يسددوه فوراً على أن يكون ذلك بعدد من الجمال.

وصل وفد آخر نفس اليوم يمثل "أكصر تيشيت" وقد جاءوني بفرخ نعام³⁴⁹ وأعلنوا عن نواياهم الحسنة وعلمت منهم أن نبأ موت كبولاني قد وصل إلى آدرار وقدم مع هؤلاء مبعوثون من "أولاد غيلان" وهم مجموعة تمتهن النهب في الشرق وقد طلبت منهم دفع ضريبة من نوع تلك التي طلبتها من "اسواكر".

في التقرير اليومي:

³⁴⁹- نلاحظ أن الوفود تأتي دائما مصحوبة بهدية حسب التقليد الإفريقي وهي في الغالب عبارة عن نعامة (النعامة قابلة للتدجين كالحوانات الأخرى).

- ستوضع عند كل واجهة فرقة من الجنود يساوي عددها تقريبا ثلث المدافعين عن تلك الواجهة وسيعد رؤساء الواجهات نظاما للأدوار لضمان هذه الخدمة وتعفى من هذه الخدمة الفرقة الاحتياطية العامة ومن الممنوع الاستراحة أو التجول في غابة النخيل مما يلي خط المطابخ أثناء القيلولة وفي نفس الساعات سيقوم قادة الواجهات بتنظيم دوريات من أربعة رجال في محيط المعسكر حتى بعد كلمتر على الأقل داخل غابة النخيل ويجب أن يقود هذه الدوريات أصحاب رتب يوثق بهم ومن الممنوع بتاتا الانفراد أثناء التجول داخل الغابة وكل مخالف لهذه التعليمات يكون موضوع عقاب شديد.

لابد من الصرامة في مجال ضبط السلوك.

أرسلت الرقيب الدركي "بلبشير الهواري" صحبة خمسة وثلاثين من "البولار" يجوبون كافة الجزء الجنوبي من غابة النخيل من العاشرة صباحا وحتى الرابعة مساء فلم يعثروا على ما يثير الشك.

عند الساعة 3 بعد الزوال قامت مجموع "البيضان" من حلفائنا باستكشاف الجزء الشمالي مشيا على الأقدام فجاءوا بنفس النتيجة التي عاد بها "بلبشير الهواري" ورفاقه. في المساء اكتشف الجزائري "بن حماده محمد" داخل لكصر أي القرية واحد من "حراطين كنتة" المقيمين في "الرشيد" وهو يقول لآخرين إن أحد المهاجمين ليلة 12 مايو ممن أصيبوا بجراح يوجد مختبئا في "الرشيد".

وبما أن هذا الجريح يمكن أن يعطينا معلومات حول الهجوم على المعسكر فقد قررت أن أرسل من يأتي به من الغد. أرسلت دورية على الجمال يوم 16 مايو إلى الرشيد مع أمر بالقدوم بالجريح المذكور وتفتيش المنطقة المحيطة بالرشيد. وهدفه هو الرد على ما ذكره القائد الحربي "لكننة" "ولد الحامد" الذي ما زال يزعم أن "كنتة" الموجودين في "الحوظ" سيأتون للاستيلاء على "تكانت" إذا شعروا بأننا قادرين على دعمهم فأردت إشعار "كنتة" الموجودين في "الرشيد" أننا نستطيع عند الحاجة إرسال الدعم.

كان "الزوايا" في "آدرار" من "شنقيط" خاصة "تكة" و"إيدو علي" يلغنون استعدادهم للدخول تحت سلطتنا وقد كانوا يبنون ذلك حتى قبل قدومنا إلى "تكانت" ولكن القبائل الحاملة للسلاح في "آدرار" لم يكن لها نفس الموقف عند وصول البعثة إلى "تكانت" فوقع حراك في صفوف أهل "آدرار" وتحدثوا عن القدوم لمحاربتنا وقد كان أبناء "محمد ولد اسويد أحمد" من

"إيدوعيش" الذين لجأوا هناك منذ سنة وهم أحفاد الأمير "بكار" يدفعون في هذا الاتجاه فاجتمع وجهاء "آدرار" لدراسة قرار محاربتنا. وفي هذه الأثناء تعرض "آدرار" لهجوم من "أولاد بالسباع" و"أركيبات" فتحتمت على أمير هذه المنطقة مواجهتهم ولم يكن سوى شاب يافع تحت قبضة جماعة الوجهاء وهو واقع تحت تأثير "الشيخ ماء العينين"³⁵⁰ وهو شقيق "الشيخ سعد بوه" وفي نفس الوقت معاد للمسيحيين ولموقف أخيه ولو استطاعت ممثليتنا في "المغرب" أن تقوم بعمل جاد لأمكنها التأثير على موقف "الشيخ ماء العينين" لأن هذا الأخير كان من حين لآخر يلعب دور المعلم الروحي³⁵¹ للسلطان مولاي عبد العزيز كان أحد أبناء ماء العينين هو الشيخ حسنا يوجد مع "إيدوعيش" عندما هاجمتهم في "بوكادوم" ومنذ ذلك اليوم انسحب إلى "آدرار" ونقل المعلومات إلى أميرها وأطلعه على حقيقة وضع "إيدوعيش" وبما أن أمير "آدرار" كان يخاف من أن يلقي مصير الأمير "بكار" فقد سلم الأمين العام رسالة للشيخ ماء العينين "أوصلها له الشيخ حسنا بواسطة المسمى "عبيدي" الذي سلمها إلى ماء العينين في الساقية الحمراء حيث يقيم عادة أما الشيخ حسنا شخصيا فقد مكث في "آدرار".

بالنسبة لنا نحن في "تكانت" يعتبر "آدرار" منطقة خطر مجاور كما أنه ملجأ آمن لجماعات النهب والسلب من "أولاد بالسباع" و"أركيبات"، فمن هنا ينطلق جميع قطاع الطرق متوجهين إلى الجنوب مما يجعل المنطقة تمثل خطرا دائما محققا بنا.

إن مآمرات "أهل آدرار" صحبة "إيدوعيش" تعرقل إخضاع إيدوعيش واستتباب الاستقرار في "تكانت" بصفة دائمة فهم يحتضنون جيبا منشقا من "إيدوعيش" يمثله في "آدرار" أبناء "محمد ولد اسويد احمد"³⁵² كما أننا بتركنا "الشيخ ماء العينين" يتصرف بحرية في آدرار يمكن أن نفتح على أنفسنا احتمال قيام تحالف حقيقي معاد لنا لأن هذا "الشيخ" يمارس تأثيرا قويا ليس فقط على "أهل آدرار" وإنما أيضا على "أهل سيد محمود" و"أهل الحوظ"... إلخ.

فعدم إرسال جماعة آدرار ردا على رسالة كبولاني بتاريخ 20 إبريل له دلالاته. بدأت أحكم تنظيم المعسكر شيئا فشيئا وقمت أولا بتجديد التعليمات إلى العمال المحليين بشأن

³⁵⁰- لم يكن وكيل الأمير الطفل سوى أحد أبناء الشيخ ماء العينين هو الشيخ حسنا.

³⁵¹- هذا فهم بسيط إلى حد ما، فالشيخ ماء العينين قد نصب نفسه ممثلا للسلطان في إقليم الساقية الحمراء ولكن السلطان الشاب مولاي عبد العزيز كان يشعر بالضعف ولا يقف أمام الشيخ الصحراوي ذي النفوذ الواسع الذي يتمتع بما يمنحه له العلم والقدااسة من قوة بوصفه قائد طريقة صوفية فلا يمكن إذن أن يكون للسلطان تأثير على الشيخ ماء العينين بل العكس هو الصحيح كما تؤكد ذلك أحداث المغرب.

³⁵²- لا يمكن منع ذلك فعلاقات النسب التقليدية بين أمراء آدرار وأمراء تكانت، تعتبر بقية الملاحظة بشأن الشيخ ماء العينين من قبيل التنبؤ.

القرية وغابة النخيل فالدوريات سوف تمسك بالمخالفين بالذين تعثر عليهم داخلها خاصة وأن تمور "إدوعي" التي بدأت تنضج تسيل لعاب رجالنا فكثير من "الرماة البيضان" يرغبون في قضاء الليل في المعسكر بدل القرية فحددت لهم حيا خاصا ولكنني أفضل بقاءهم في القرية بدل لبثهم في المعسكر فوجودهم في القرية يمكنني من الحصول على المعلومات بإقامة نوع من المخابرات الخارجية كما سيشكلون حامية ومركز أمن. ومن المعلوم طبعا أن الراغبين في قضاء الليل داخل المعسكر لابد أن يدخلوه قبل حلول الظلام وتحتم علي منع الأوربيين من التجمع في مكتبي لتبادل الأحاديث من السادسة حتى الحادية عشر من صباح الغد ومن الثانية حتى السادسة والنصف مساء، فكل حديث بصوت مرتفع يعتبر نقاشا لدى البيضان الذين ينتظرون مقابلي ولذلك أثره السيئ فسيعتبرونني أمارس التمييز بين الناس وسيشاع ذلك بينهم خارج المعسكر، عدت إلى خدمة الأمن مجددا في تقرير 16 مايو:

- سيحدد قادة الواجبات مواقع بارزة للرماة وسيحددون لهم الإجراءات المتخذة بهذه المناسبة وستوضع في نقاط المرمى أشياء تمكن رؤيتها ليلا تحت ضوء القمر ولمواجهة أي هجوم مباغت سيمرن هؤلاء القادة رجالهم على الخروج من المعسكر لملاقاة المهاجمين عند الضرورة.

تكون شمال المعسكر تجمع من الحراطين والعبيد المنحدرين من القرية مشكلين ما يسمى "أدباي"³⁵³ وكان وجود هذا أدباي يعرقل اتجاه الرماية في الوقت الذي تقدم هؤلاء النسوة خدمة الطبخ وطحن الحبوب ... إلخ. ومن بينهم من يتعاطين مهنا أخرى غير معلنة. فاتخذت قرارا استبداديا بشأنهن:

- من الآن فصاعدا لن يسمح بأي تجمع للنساء تحت أضواء المعسكر، سوف يودع "الكانديولي" حبوبهم للطحن لدى المعنيات وعند أي تذمر.

- اتخذت قرارا بإرسال جميع أفراد سكرتيريا كبولاني وكذا أكثرية وثائقه التي كانت موجودة في المركز الصحي، إلى "السنغال" كما سأرسل أكثرية الخيول المهددة بالموت جوعا بتجكجة وسأتلخص من الأفواه غير الضرورية التي تتطلب غذاء: الخدم، البوابون،

³⁵³- أدباي: تجمع صغير من المساكن البدائية للنساء أو التجار المرافقين للمحاربين وكان "كانديولي" أو السنغاليون مولعين بوجبة "كسكس" الذرة ويحتاجون إلى خدمة النساء لطحن الحبوب باعتبار ذلك من اختصاص النساء ولا يليق أبدا بالرجال مع أن استخدام آلة الطحن الثقيلة ينمي العضلات حتى تضاهي عضلات الملاكمين.

الفرسان المرافقون لكبولاني³⁵⁴ ستمكنا مغادرة هؤلاء من ترشيد المواد الغذائية وتأخير فترة التقسيط بالنسبة للعدد الباقي حتى يكتمل نضوج التمور لندخلها في وجبة الغذاء. يوم 17 مايو تولى الرقيب الدركي "فيلمن" من الفرقة الجزائرية رقابة نقل الخبز وكذا القطيع فكلفته بحراسة المخزن الذي يحتوي على قماش "النيلة" والهدايا السياسية كما اتخذته سكرتيرا.

أعود في التقرير إلى مسألة الرعاة:

- اعتبارا من اليوم سيذهب جميع الرعاة إلى المرعى دفعة واحدة تحت إمرة الرقيب الدركي "بايدي" الذي سيكون مسئولا عن أي نهب يحدث. يبدو أن غابة النخيل تسيل لعاب الجميع فلا بد أن أثرثر:

- يمنع دخول غابة النخيل على كل أحد مسلحا كان أم لا إذا لم يكن مأمورا بدخولها إن أي فرد يوجد داخل غابة النخيل سيعاقب عقوبة السرقة.

حصلت حالات سرقة داخل المعسكر ووجهت أصابع الاتهام إلى الحلفاء من البيضان طبعا ثم إلى العمال الذين يخدمون الأوربيين والواقع أننا لم نتعرف على من يفعل ذلك.

عادت دورية الحراس عند الزوال قادمة من "الرشيد" ومعها المهاجم الجريح الذي نقل خبره الحرطاني التابع "لكننة". كما ذكرت هذه الدورية أن مجموعة قليلة من "اركيبات" تمارس النهب على "تجكانت" في "تلمست" شمال شرق "الرشيد". كان الذراع الأيسر للجريح القادم من "الرشيد" منتفخا من الورم فقد اخترقته رصاصة بندقية محولة عظمه إلى شظايا وقد تم علاجه بواسطة جبيرة من الأغصان وصفائح النخيل ربطت عليها قطعة من الحصير بواسطة خيوط من الجلد وكانت تتبعث منه رائحة كريهة.

قال الطبيب بعد أن عاينه إن الجريح لا أمل له في الحياة. كان لونه داكنا ونظرته ثابتة يتخذ هيئة بسيطة يعتبر نفسه متحمسا قد نفذ أوامر الله. استجوبته بصفة سريعة بواسطة المترجم فاعترف بأنه كان ضمن العصابة التي هاجمتنا تلك الليلة وإنهم قدموا لإبادة المتحالفين معنا وبالأخص الفرنسيين وهو يعترف بأن "آدرار" لم يكن في ذلك اليوم في حالة حرب مع فرنسا وقال إن كلما قام به كان من أجل دخول الجنة بسبب محاربة المسيحيين كما يأمر القرآن بذلك.

³⁵⁴ - هذا أيضا رأي صائب: إذ يصعب ضمان تغذية التجمعات الكبيرة من الرجال المواشي كما أن تسخير المواد والمواشي ينهك البلد.

وبما أنه سبق اتهامي بعدم مراعاة الإجراءات المطلوبة في حالة الدليل الذي خدعنا في مارس 1904، فاستشرت المسيو "آرنو" باعتباره إداريا عمل في إدارة البلديات بالجزائر ونجم عن ذلك اتخاذ قرار بمثول الجريح أمام محكمة عرفية، فمن المهم أن يسمع الجميع اعترافاته أمام أعضاء البعثة المدنيين و العسكريين حتى يتم تصنيف الحادثة التي مات فيها "كبولاني" وطي ملفها نهائيا كجريمة حق عام ارتكبتها أحد المتحمسين بمشاركة أفراد آخرين. أي ما يشبه اغتيال "اكليبير" أو اغتيال "عجوز الجبل" سابقا في آسيا الصغرى. ومن الملاحظ أن الجريح في أفضل الحالات سيكون في وضعية مشابهة لتلك التي كان فيها الدكتور "جامسون" أي سيكون مأخوذا بتهمة رفع السلاح ضد أمة يعترف هو نفسه أن بلده لم يكن في حالة حرب معها في ذلك الوقت³⁵⁵.

لم اقتصر فقط على استشارة المسيو "آرنو" بل استشرت أيضا جميع أعضاء البعثة الحاضرين في تجكبة وبناء على رأي الجميع اتخذت القرار التالي: تشكل محكمة عرفية تتكون من:

- النقيب "افرير جان" من سلاح المشاة الاستعماري، خارج الإطار، رئيسا؛
- النقيب "جيرار" من فرقة الهندسة، خارج الإطار، عضو؛
- المسيو "آرنو" إداري مساعد من البلديات المختلطة في الجزائر، عضو؛
- الملازم "لافوجيليون" من سلاح الفرسان، خارج الإطار، عضو؛
- الملازم "شيريوي" من المفزة الأولى للرماة السنغاليين، كاتب ضبط؛
- "بولمقداد" المترجم الرئيسي.

ستجتمع المحكمة هذا المساء عند الساعة الرابعة في مقر الإقامة لمحاكمة المدعو "احمد ولد أباه ولد أحمورات" من مجموعة "أهل التناكي" المتهم بالقتل والمشاركة في الاغتيال والهجوم المسلح ضد مفرزة فرنسية.

لابد من الإسراع لأن ورم الذراع المتكسر قد يمتد فجأة كما يقول الطبيب إلى بقية الجسم و يموت الرجل قبل أن نستخلص منه ما نريده من معلومات. وعند الساعة المحددة كان أعضاء المحكمة الذين تم اختيارهم من بين المسنين في البعثة قد حضروا للاجتماع.

³⁵⁵- هذا ضرب من الجدل الفارغ: ما دام كبولاني يتحدث في الفقرات السابقة عن "الغزو".

كان المتهم قابعا في أحد أركان مكتب الإقامة يبدو غير عابئ بأي شيء وكان يرد بكل بساطة ودقة على كافة الأسئلة التي يوجهها له المترجم باسمي.

وفي ما يلي روايته للأحداث:

- عندما اجتاح "أولاد بالسباع" و"اركيبات" منطقة "آدرار" في الفترة الأخيرة وذهب الأمير لمحاربة هؤلاء المهاجمين. قال شريف من "الأولياء" يسمى "سيدي ولد مولاي الزين" إنه رأى الله في المنام فأخبره بأن "كبولاني" سيموت على يده ولكنه هو نفسه سيموت في نفس اليوم وقد اعتاد هذا الشريف أن يجمع كل سنة فرقة من "أهل آدرار" المسلحين لمرافقته في الزيارة التي يقوم بها إلى الحوظ وهذه السنة توجه إلى مجموعة أهل "التناكي" وهم بربر يقطنون الجبال من فئة "آزناكه" وهم جزء من "إديشلي".

- فاعتقد أهل "التناكي" أولاً أنهم سيحرسونه أثناء رحلته السنوية وأثناء الطريق التقى الراكب برجل من "إديشلي" هارب من معسكر تجكجة والحقيقة أن الرجل قد وجد الحرية بأمر من كبولاني فهرب ولكنه لم يهرب بالطريقة العادية فقد ذهب في وضح النهار وفي حديث مع الشريف قرر هذا الرجل ويسمى "سيدي ولد بو ابيط" وهو من أهل "التناكي" أن يقدم للشريف كافة المعلومات المفيدة لمهاجمة المعسكر ولكنه رفض أن يلعب دور الدليل: فقد كان معروفاً جداً بيننا.

- كان مع الشريف ثمانية وعشرون رجلاً مسلحاً فترك ستة منهم عند "غلنسي" على بعد ثلاثين كلمتراً شمال "تجكجة" لحراسة الجمال المسروقة التي قدمت عليها الفرقة من بلدة "الزركة" جنوب شرق شنقيط ثم أخذ منهم اثنين ليسوقا قطيع كباش مسروق أثناء الطريق وحتى اللحظة الأخيرة لم تكن فرقة أهل "التناكي" وهم من تعودوا ممارسة النهب أثناء جولاتهم وسلب المجموعات العزل، لم يكونوا يفكرون إلا في جمع الغنائم.

- والحال أن قطيع الكباش الذي تحدثنا عنه قبل قليل مسروق على مخيم من "تجكانت" يقع شمال "تجكجة" على مسافة قريبة وكانوا قد أرسلوا أمة لإبلاغنا الخبر وقد رأينا في السابق أنها وصلت متأخرة وكان "إدوعللي" الذين يعرفون الشريف جيداً قد رأوه يجتاز المنطقة ولكنهم لم يشعرونا لأن فرقته لم تأخذ عليهم شيئاً.

- عند ما بلغوا وسط "بطحة تجكجة" أعلن الشريف في اللحظة الأخيرة لرجاله العشرين عن مشروعه الحقيقي.

- يتعلق الأمر بقتل كبولاني حتى وإن هلكنا جميعا ولكن يقول الشريف: سيحجبنا الله عن المسيحيين وكان على أفراد الجماعة أن يهاجموا مدفوعين من طرف الشريف وهم يصرخون "الله أكبر" متجهين رأسا إلى الأمام على أن يقتلوا كل من يقع في طريقهم وخاصة كبولاني الذي لا بد أن يموت هذه الليلة حسب حلم الشريف وقبل التوجه إلى الجنوب كان أهل "التاكي" قد تلقوا من أصدقائهم في آدرار أمرا بقتل العجوز "المختار ولد احمد عيده" وابنه إن استطاعوا ذلك³⁵⁶.

- وبعد أن حثهم في حماس على القتل انطلق الشريف دون أن يترك لهم مجالا للتفكير أو التوقف وحتى لحظة نفس للاستراحة فوصلوا تحت المعسكر دون أن يراهم أحد وعندما أطلق الحارس النار لم يصب منهم أحدا فصاح الشريف الله أكبر وفورا دخلوا معه من الممر داخل المعسكر فرأوا أحد الأوربيين بلباس أبيض طويل القامة فأطلقوا عليه النار ثم تبعوه ليسددوا له الضربة القاضية ولم يكونوا يعرفون حينها أنه "كبولاني" كما أن المتهم الذي أمامنا "أحمد ولد أباه" لم يعرف ذلك إلا في "الرشيد" عن طريق "كنته".

- دفع الشريف رفاقه إلى الأمام باحثا عن أوربي آخر ليقتله ولكنه لم يفلح في قتل الأوربي حين طعنه بالسيف فسدد له الأوربي طلقة نارية من المسدس. وفي هذه الأثناء كان المهاجمون الآخرون ينتشرون في المعسكر بحثا عن الأوربيين ليقتلوهم فسقط "أحمد ولد أباه" هذا جريحا ثم هرب مع المهاجمين الناجين واختبأ في ضواحي المعسكر ثم توجه إلى "الرشيد" لأن بعض عبيد "إدو علي" قالوا إنهم سيكشفون أمره. ولكن "كنته" قد خانوه في "الرشيد" وهكذا...

يوجد في هذه القضية بعض الأمور المستبعدة، فمن البديهي مثلا أن المتآمرين ما كانوا ليهاجموا بهذا القدر من الحماس والانديفاع والالتحام لو كانوا-كما يقول أحمد ولد أباه- لم يعرفوا حقيقة ما يدبره الشريف إلا في آخر لحظة فمن غير المنطقي أن يكون الشريف قد أجبرهم على المهاجمة بعد أن أخبرهم بالأمر في آخر لحظة، كيف يجروء عشرون رجلا أن يهاجموا عكسا لإرادتهم أكثر من خمس مئة رجل متحصنين داخل معسكر يعرفون أنهم يفوقونهم عددا وعدة؟ كلا. "فسيدي ولد بوبيط" قد أعطاهم وصفا دقيقا للمعسكر ومن بداخله

³⁵⁶- لقد مات كبولاني فعلا في نفس الدقائق تقريبا مع قاتله ولو كان كبولاني قد علم بنبوءة الشريف لاعتبر ما وقع قصاصا "النفس بالنفس" نلاحظ أن التنبؤ يختلط بالسياسة الأكثر واقعية لأن هناك مخلصين يصرون على الموت لقتل كبولاني وفي نفس الوقت يخلصون الأمير الشاب من خصومه.

وهم يعرفون ما يفعلون وقد بيتوا خطتهم وأحكموا تنفيذها بدقة لا يمكن أبدا أن نتوقعها من رجال مجبرين على المهاجمة رغم إرادتهم، كما أن مجموعة أهل "التناكي" رغم المثال الذي ضربه لهم "أحمد ولد بوبيط" برفضه مرافقة الفرقة، قد أصروا على المسير إيمانا بقضيتهم. لم يتحدث "أحمد ولد أباه" عن العصاوية التي هاجمت القرية "لكصر" والتي استعاد منها حراس القطعان ما استولت عليه من الضأن كما لم يتحدث عن الرماة الذين أطلقوا النار على المعسكر من "البطحة" و"لكصر" وغابة النخيل الجنوبية الغربية. وقد شاع أن هذه الطلقات من فعل "إيدوعيش" اللاجئين في "آدرار" و"أولاد غيلان" ولم يكن لدي شك في أن الهجومين الداخلي والخارجي منسقان.

فما كان رجال الشريف المصممين على الموت معه ليغامروا بالدخول في المعسكر لو لم يكونوا يعولون على أن هناك من يشاغل الحراس. وقد لاحظنا التغطية القادمة من خارج المعسكر.

بعد نقاش مقتضب حول النقاط المعروضة للتدارس. قمنا بالتصويت. وبإجماع الأصوات تم الحكم على "أحمد ولد أباه ولد أحمرات" باقتراف جريمة القتل، باعتبار المحاولة فعلا إجراميا كاملا وبالتواطؤ في عملية اغتيال سياسي جماعي نظمها مجذوب سواء كان تحت تأثير سياسي أو ديني معادي. وهي عملية اغتيال من فعل مجموعة مسلحة منحدره من بلد لم يكن في حالة حرب معنا قامت بها المجموعة في عملية سطو تخرجهم عن الإطار القانوني. تم تدوين الاستجاب والحكم كما هو مطلوب.

وبالإجماع أيضا تم الحكم بالإعدام شنقا على المعني وهي طريقة القتل المقبولة عرفيا في بلاد المسلمين. كما أن من المناسب هنا أن نذكر أن الإعدام على هذه الطريقة أقل خدشا لمشاعر البيضان من قطع الرأس الذي يعتبر تمثيلا منكرا في حالة المسلم. وبناء على ذلك أصدرت القرار الآتي:

- تنفيذًا للحكم الصادر هذا المساء عن المحكمة العرفية ضد المسمى "أحمد ولد أحمرات" الذي تمت إدانته بالإجماع بالمسئولية عن القتل والتواطؤ في عملية اغتيال والهجوم المسلح ضد مفرزة فرنسية والذي حكم عليه بالإعدام طبقا للأعراف الإسلامية المعمول بها في حق المجرم، سيتم شنق المحكوم عليه في المكان المعين لذلك.
- بعد تحقق الدكتور من الوفاة سيتم دفن الجثمان بعد ذلك بيوم.

- ستتولى حفظ النظام وحدة من عشرة رماة سنغاليين يقودهم ضابط محلي.
 - سيكلف عمال الأمين العام المغتال بالتهئية والتنفيذ بإشراف النقيب "جرار".
 - يعطي الزمار الإشارة بنفخة في البوق.
 - لغرض إنساني لا يتم الإعلان عن الحكم إلا بعد وصول المحكوم عليه إلى عين المكان.
 - كانت الساعة تقارب الساعة مساء والشمس تميل إلى المغيب وبعد إكمال نصب المشنقة (وهي عبارة عن عمود بين جذعين من النخيل عليه بكرة فوقها حبل في طرفه أنشودة)، أحضر الحراس المحكوم عليه وكانت المشنقة بين المعسكر والقرية وتم استدعاء الجميع لحضور تنفيذ الإعدام وللتخفيف على المعني (الذي لم يكن يشك في أي شيء فقد أدار ظهره للمشنقة مع أنها فوق رأسه مباشرة) لم نقرأ له نص الحكم برمته وإنما اكتفى المترجم بالقول:
 - "تهياً، فأنت مقبل على الموت".
 - فأجابه بكل هدوء "الله أكبر".
- وبعد ذلك مباشرة انعقدت الأنشطة حول عنقه وتركه عمال كبولاني، وقد تملكهم صمت مطبق، معلقاً على ارتفاع ستة أقدام فوق الأرض. وبعد نصف ساعة حضر الدكتور. لقد دخل المعني في الغيبوبة ولكن قلبه ما زال ينبض ربما بسبب عدم خبرتنا بالموت بالشنقة سريع في العادة وبحلول الليل كان أحمد ولد أباه قد فارق الحياة تماماً ومن الغد كانت تتبعث من ذراعه رائحة كريهة جداً لدرجة أننا اضطررنا إلى إنزال جثمانه قبل الموعد الذي حددناه لذلك.
- قال الدكتور إن الورم كان في حالة متقدمة ولو لم يتم شنقه لمات من جراحه لكنه كان سيئاً كثيراً قبل مفارقتة الحياة.
- ذلك هو المأخذ الثاني المسجل ضدي شخصياً: المحاكمة والحكم وتنفيذه على "أحمد ولد أباه" ولم يكن مع ذلك بمقدوري إرساله للمثول أمام محكمة "سينلويس" فلن يصلها حيا. كما كان من اللازم تنفيذ عقاب في حق من اغتالوا "كبولاني" من أجل ردع جماعة البيضان لقد تم اتخاذ قرار الإعدام بإجماع المصوتين وكنت آخرهم ولم تكن توجد في المنطقة محكمة أخرى فالقضاء الأهلي (وحتى القضاء العامل) لم يتم تنظيمه بعد في موريتانيا ولم تكن أمام

حدث حربي إذ مهما كانت درجة سوء نوبيا أهل آدرار فلم يحدث بيننا وبينهم أي اشتباك "فسيدي ولد مولاي الزين" قد تصرف بمحض إرادته كقرصان متمرس، ومصير القراصنة هو الموت دائما منذ أن قامت الدنيا في حالة الإمساك بهم. وأبعد من ذلك يحدث في الحروب الأهلية ولنتذكر قضية "كيبورون"³⁵⁷. لو لم تنفذ حكم الإعدام في حق أحد قتلة كبولاني فقد نكون قد بررنا للبيضان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين منهم والذي فحواه أننا لا نهتم بمصير الأمين العام ومصدر هذا الاعتقاد هو ما قيل وربما أشيع عن قصد من أخبار قادمة من السنغال تواترت عند البيضان في منقطة النهر. لقد أصدرنا حكما بالإعدام ونفذناه فالجرائم الاستثنائية تتطلب دائما عقابا استثنائيا كما أن البيضان لا يذعنون إلا للقمع التلقائي وذلك ما قمنا به. أمرت يوم 18 مايو بمواصلة أعمال تحصين المعسكر وأخليت المنطقة حول جميع الواجهات كلما أمكن ذلك أمرت بتشذيب صغار النخيل ونزع ما تساقط في المنطقة.

أمرت في التقرير بمزيد من التعزيز لنظامنا الأمني:

- ستمر دورية كل مساء مع حلول الظلام حول كل واجهة تقوم بها فرقة الحراسة المعنية بتلك الواجهة هدف هذه الدورية هو التأكد من عدم وجود أي شخص كامن في محيط المعسكر وخاصة في المنخفضات حيث يمكن لفرقة من العدو أن تختبئ وستعمل كل دورية على التقاطع مع نظيرتها مع تغيير المسار والمسافة كل يوم. وفي نفس اليوم أمرت بحرق جثامين الأعداء التي عثر عليها ليلة 12 إلى 13 مايو وكذا جثمان "أحمد ولد اباه" وبتلك المناسبة أمرت بتنظيف محيط المعسكر³⁵⁸. بدأ أفراد الفرقة الجزائرية يسرقون التمور فعاقبتهم بشدة وأجبرتهم على التعويض عبر الاقتطاع من رواتبهم لقد كان عقابهم رادعا للبيضان وبالأخص الزوج عبيد البطون. لاحظت يوم 19 مايو على امتداد المنطقة المحيطة بالمعسكر أن بإمكان الرجال أن يقوموا بالطلقات النارية وقفين خلف أكوام الصخر.

³⁵⁷- في هذه المقارنة نظر: من المعروف أن الحروب الأهلية مع ما لها من دلالة سياسية هي الأكثر وحشية ففيها يتم انتهاك حقوق الناس. بالنسبة لحرب "فاندي" ففي الوقت الذي لا تعرف إلا خطوطها العريضة في رواية موالية للحكومة الثورية، فإن المؤرخين يتحدثون اليوم عن "حرب إبادة فرنسية-فرنسية" بعد اكتشاف ما تم الإبلاغ عليه حتى الآن من الأرشيفات.

³⁵⁸- المسلمون يدفنون الموتى ولا يحرقونهم ولكن في هذه الحالة لم يكن من الممكن دفن هؤلاء بعيدا من المنطقة التي يعيش فيها الناس فلجأ "افيرير جان" إلى حرق جثامينهم تقاديا لانتشار أحد الأوبئة.

وقد تم وضع ما يشبه المقاعد خلف بعض الجدران لتسهيل ذلك لقد أصبح المعسكر من الآن فصاعداً في مأمن من الغزو ولو عبر التسلق أقمت ورشة لإصلاح القرب ووزعت جلود الغنم الجديدة التي اشتريتها من القرية فابتداءً من اليوم سيكون لكل مفرزة فريقها الخاص بجلب الماء: كل رجلين على قرية أي ما يساوي خمسة عشر لتر من الماء لكل رجل.

لقد عاد اليوم مبعوث كبولاني سيدي العلوي الذي كان قد حمل رسالته إلى أهل آدرار يوم 20 إبريل وأكد جميع الأخبار السيئة الواردة من آدرار صبيحة يوم 12 مايو فأهل آدرار الذين لم يجربوا قوتنا حتى الآن يعيشون على ذكرى بعثة "ابلانشي"³⁵⁹ كان الأمير حديث السن جداً ويتحكم فيه أعداؤنا وهو يستعد الآن للقعود إلى تكانت إما من أجل مهاجمتنا وإما من أجل نهب وسلب ممتلكات الزوايا الذين يدفعون لنا الضرائب. ومن حسن الحظ أن القائل المحاربة في آدرار منقسمة على نفسها فبعضها خاضع لنفوذ "الشيخ سيديا" والبعض الآخر يأتمر بأمر "الشيخ ماء العينين" والبعض الآخر يتبع حتى لسلطة "الشيخ سعد بوه"³⁶⁰ وكان آدرار أكثر من أي وقت آخر ملجأً للمنشقين الجنوبيين ومنطلق جميع الغزاة.

لقد كان "سيدي ولد العلوي" متشائماً وقدم لي رسالة من أمير آدرار الشاب موجهة إلى "جماعة الفرنسيين" استخدم الأمير في هذه الرسالة عبارات الفروسية بأسلوب وقح بعد أن وصف نفسه بقائد سلطان المغرب في آدرار³⁶¹ لقد أخبرنا بأنه مستعد لعدم محاربتنا إذا خرجنا من أرض السلطان "موريتانيا" وبالأخص إذا تخلينا عن نية دخول آدرار فبهذه الشروط يقبل بأن يبقى صديقاً لنا رغم إلغاء الامتياز العرفي الذي كنا ندفعه سابقاً لأمرآء آدرار وختم رسالته مذكراً بأنه لا يشبه "إدوعيش" في أي شيء. وبالجملة يتعلق الأمر بدعوتنا للخروج من البلاد وإلا فسيعلن علينا الحرب فهي نوع من التهديد إذا كنا نزمع القعود إلى آدرار لقد كان

³⁵⁹ - تعرضت بعثة "ابلانشي" التي تضم بعض العلماء ونحو العشرين من الرماة السنغاليين للاحتجاز في آدرار طيلة سبعين يوماً وليلة وتوسط "الشيخ سعد بوه" من أجل إطلاق سراح هؤلاء (1900) بالضبط. وكان المستكشف "فايير" قد حاول سنة 1891 التوغل داخل آدرار لتوقيع اتفاقية تحالف مع الأمير وكان "الشيخ سعد بوه" قد نصح "فايير" بالتوقف في حضرته عند "تريبيرا" لأنه ورفاقه مهددون بمخاطر جمة فكتب "فايير" إلى الأمير وأرسل له مسودة الاتفاق بين فرنسا وآدرار! - فرد الأمير بخط قاضيه أنه يقبل التحالف ولكنه لا يوقع وهو ما لم يحل دون مصادقة فرنسا على الاتفاقية بمرسوم صادر بتاريخ 10 يونيو 1893.

³⁶⁰ - هذا صحيح فالقبائل الخاضعة للشيخ ماء العينين كانت معادية لنا.

³⁶¹ - اعتقد أمير آدرار الشاب أو بالأحرى مستشاره السياسي الشيخ حسنا نجل الشيخ ماء العينين أن من الدهاء ذكر العلاقة مع المغرب ربما لأنه يدرك أن المغرب يثير بعض المتاعب لفرنسا. لقد حدثت "واقعة طنجة" بتاريخ 31 مارس من نفس السنة وبدأت المحادثات الدبلوماسية وفي الواقع من السهل التحدث عن سلطة السلطان وهو بعيد جداً من آدرار ومنشغل كثيراً بمشاكله الداخلية دون ذكر القبائل البدوية الكبرى: اركيبات، أولاد أدليم، التي تثير الرعب في الجيوش المغربية وكذا بين القبائل المحاربة في آدرار.

الأسلوب متغطرسا ووقحا. أخبرني "سيدي ولد العلوي" أن ذلك من إحياء المستشار الرئيسي للأمير "سيدي احمد ولد مكيه" وهو رئيس فرع "أولاد سلمون" من مجموعة "أولاد غيلان" التي تحترف النهب وهو معارض لنا بشدة. ووصل مع هذه الرسالة في نفس الوقت جواب رسالة "ولد الحامد" القائد الحربي لمجموعة "كنته" الذي يتمتع بنفوذ كبير في آدرار وهو الكنتاوي الوحيد الذي بقي حليفا لنا في "تجكجة" بعد موت كبولاني. كان عيش منعزلا وكتب إلى أهل آدرار يطلب منهم القدوم إلينا وفي الرد طلبوا منه الانضمام إليهم لمحاربتنا فالرسالة تحمل اعترافا واضحا بنواياهم المعادية وقد سلمها لي "ولد الحامد" فأرسلتها إلى "سينلوي" مع رسالة الأمير.

كتبت ردا على رسالة الأمير بأسلوب متهكم وقلت له إن من الجديد جدا حديثه عن تبعية أمراء آدرار لسلطان المغرب في غير ما يتعلق بالمسائل الدينية³⁶² وقلت له من جهة أخرى إنني لا أتصور أن يكون أمير آدرار الحالي جاهلا لدرجة أنه لا يعرف أن فرنسا وبريطانيا المتحالفتين الآن هما من يحمي سلطان المغرب كما أن آدرار خاصة وموريتانيا عموما لم يكن أي منهما تابعا للمغرب في يوم من الأيام فنظريته باطلة تاريخيا وانتهزت فرصة الرد لأذكره برسالة 20 إبريل التي أرسلها "كبولاني" وما تضمنته من أوامر من بينها:

- الأمر بترك قبائل الزوايا تعود إلى "تكانت" والتوقف عن إيواء نجل "محمد ولد اسويد أحمد" لأنه تبرا من "إدوعيش" وإذا لم يستجب الأمير الشاب لهذه الشروط ولم يتوقف فورا عن تصرفاته المعادية فلا يلومن إلا نفسه فيما سيترتب على ذلك من أحداث.

أحد المفاوضين من شنقيطي الذي كان يرأسل كبولاني لم يكن يرى الوضع على هذه الدرجة من القتامة التي يصفها "سيدي ولد العلوي" يقول أولا: إن الأمير كان غاضبا من أهل آدرار لأنهم قتلوا كبولاني دون موافقته وهو كان يعتبره ممثلا لفرنسا ولكن المحيطين به قد أوهموه أن جميع الفرنسيين وخاصة أهل "سينلوي" كانوا يعارضون "كبولاني" لدرجة أنهم مرتاحون لمقتله وأنا بمجرد تهديد بسيط يمكن أن نغادر البلاد بناء على استدعاء من جماعتنا حيث يوجد كثير من ذوي النفوذ في السنغال المعارضين لوجودنا في بلاد البيضان كما أن الأمير مستاء من جهة أخرى لأننا استقبلنا وحمينا "المختار ولد أحمد ولد عيده" ونجله

³⁶² - ليست هناك تبعية دينية بين أهل آدرار وسلطان المغرب فهو مقدس باعتباره "أمير المؤمنين" ولكن لم تتم الدعوة له أبدا في صلاة الجمعة لا في آدرار ولا في أي مكان آخر من موريتانيا.

"أحمد". وأكد لي نفس المفاوض أن القبائل المحاربة في آدرار لا تمتلك من البنادق الأوتوماتيكية سوى واحدة لكل أربعين رجلاً. لقد كان "إدوعيش" يتوفرون على نفس الشيء عند قدومنا إلى "امبود".

يبدو أن الكثير من سكان القرى يودون القدوم إلينا. أخبرني المفاوض الشنقيطي أن تأمين آدرار سيؤدي حتماً إلى تأمين بقية موريتانيا. وبالفعل أرسل إلي "إدوعي شنقيط" من فرع "أمكاريج" مبدوعين يحملان وثيقة انضمام فرعهم المسمى "أولاد محم عاشور" وبعد أن تلقوا مني "الأمان"، أخبرني هذان المبعوثان أن مجموعة "أولاد ساسي" من "إديشلي" وهم من "أهل أولاد التناكية" مستعدون لمسالمتنا أيضاً فليدهم مصالح في "تكانت" كما فاض "الطرش" وهم فرع من "أولاد غيلان" بشأن الخضوع لنا عند قدومهم إلى بوتلميت آخر 1904 عبر وساطة من "الشيخ سيديا" ومثلهم فلعت كافة القبائل التابعة لهذا الشيخ الكبير في منطقة "آدرار".

لقد حافظ "المختار ولد أحمد ولد عيده" ونجله على عدد لا بأس به من المناصرين في "إديشلي" وبالأخص "أولاد عمي" القبيلة القيادية³⁶³ كما أن "أولاد بالسباع" المتوفرين على أكبر كمية من الأسلحة الأوتوماتيكية تربطهم علاقة صداقة بهؤلاء كما أن "ولد الحامد" الموجود معنا في تجكجة يتمتع بنفوذ حتى في الأوساط المحيطة بالأمير. أكد لي موفدا "أمكاريج" أنه لا توجد أي قبيلة من البيضان أكثر انقساماً من "أولاد يحيى بن عثمان" المجموعة القبلية القيادية في آدرار وتضم: "أولاد عمي" و"أولاد أكشار".

فعلى حد قول موفدي "أمكاريج" لن تلقى أبداً دعوة من قبائل الزوايا التالية: "إدولحاج" "كننة" وادان، "إدوعي" و"تكنة" شنقيط و"أهل باركا الله" في "انشيري"

انتقل خبر مقتل "كبولاني" إلى "آدرار" بواسطة الناجين من هجوم 12 مايو وانتشر بسرعة، ولكن الموفدين المذكورين أنفاً أكدوا أن ذلك لا يؤثر على المواقف العامة السابقة ويبدو كذلك أن نيران مدافعنا الرشاشة أثناء الوقعة الثانية ليلة الهجوم المشؤم قد رعت الرعب في قلوب أعدائنا إذ يبدو أن أحد المهاجمين في جهة "لكصر" (القرية) قد أصيب أثناء تصويب المدافع الرشاشة بأربع عشرة رصاصة ولم يمت جراحها كما استقرت خمس

³⁶³ - أولاد عمي: قبيلة حاملة للسلاح وهي قبيلة عريقة فيها بيت الإمارة في آدرار.

رصاصات في جسم مهاجم آخر فالفرقة التي هاجمت تتكون من "أولاد غيلان" و"إدوعيش" ولكنها هاجمت من خارج المعسكر

ورغم أن مستقبل الأوضاع ما زال غامضا بعض الشيء إلا أننا نتوفر على بعض الامتيازات كما أنني أعول بصورة أكثر على العداوة المترسخة بين "إدوعيش" و"أهل آدرار" وكنت أسعى لأن يتحالف معنا "إدوعيش" ونرى فكرة القيام بزحف مشترك ضد آدرار ولكن هذا لا يمكن تحقيقه إلا في حالة الهجوم وهو أمر ممنوع علينا حسب تعليمات الحاكم العام فلا بد لنا من انتظار وصول الدعم في عين المكان. لابد لنا من مؤن غذائية وبالفعل وصلت يوم 19 مايو قافلة منفردة تحمل بضع كيلوغرامات من الأرز كما أنني أشتريت على الفور جميع قوافل الحبوب المارة بمحاذاتنا. وصلني خبر انطلاق قافلة "سيكولي" من "ابودور" ولدي فكرة بأن أمد له يد العون بفرقة صغيرة. وهكذا سنتلحق فرقة السودانين الثلاثين التابعة للرقيب الدركي "ريلهاك" بالخمسة والعشرين الآخرين الموجودين في بلدة "مال" وهو ما سيشكل مع فرقة الثلاثين فارسا المرافقة "سيكولي" وحدة فيها من القوة ما يكفي لتأمين القافلة وطلبت من "سانلوي" السماح لوحدة السنغاليين المرابطة في "ميت" بأن تشارك في حراسة القافلة المنتظرة في كيهيدي كما أن حركة هذه الوحدة ستضمن الاستقرار في المنطقة.

وقد اشتريت الحبوب بسعر مرتفع سعيا إلى إغراء الباعة وهو مكن جماعات "البيضان" من تحقيق أرباح معتبرة فنحن لا يمكن أن نعول على التجار البيض ولا السود في السنغال.

الدفاع عن تجكجة هجوم أمير "آدرار"

لقد توغل الركب الذي يقوده "أكلي علي" في الاتجاه الجنوبي الشرقي حتى بلغ بلدة "خاب" شمال "انيورو" وكنت قد أرسلت له يوم 14 مايو أمرا بالرجوع فعاد يوم 19 من نفس الشهر ومعه زهاء ستمائة من الإبل ضمنها مائة منتزعة من "إيدوعيش" والبقية من ضرائب "إيدوعلي" البداة و"إيدبوسات" ومن تغريم "تنواجيو" على ما بدر منهم من سلوك شبه عدائي ورغم ذلك السلوك ومع أن هذه القبيلة لم تعلن خضوعها حتى الآن، فلم احتفظ بما أخذ عليها من الغرامة لكي أمنحها ذريعة لعدم القدوم إلينا. وحين بعث إلي "تنواجيو" وفدهم لم احتفظ إلا بثلاثين جملا للتعويض لاحقا عما احتفظت به وحملت الوفد بهدية سياسية عند مغادرته قدرها مئة فرنك وكانت النتيجة أن "تنواجيو" قد أرسلوا إلى بقبولهم الدخول تحت سلطتنا أثناء حصار "تجكجة" رغم هجوم "آدرار" الذي وقع في الأيام الموالية

وبناء على الأخبار التي جاء بها "سيدي العلوي" من "آدرار" أرسلت ليلة 19 إلى 20 مايو دورية قوية بقيادة الرقيب الدركي "خليل" وهي محمولة على الجمال التي جاء بها "أكلي علي" ومهمتها تأمين المناطق المحيطة بالمعسكر عن بعد من ما يمكن أن يتعرض له من هجمات من جهة الشمال والشمال الغربي، ولدى الدورية أمر بالسير على خط "أرهاط" وهو

المنخفض الفاصل بين "تكانت" و"آدرار" ولكن عليها أن لا تتجاوز هذا الخط لأكثر من مسيرة يوم في اتجاه الشمال وألّزمت هذه الدورية بمهاجمة كل فرقة معادية لا تفوقها كثيرا من حيث العدد وأن تنقضى المعلومات وتبعث بها على جناح السرعة وتبقى على اتصال بنا في جميع الأحوال وتحرص على بعث الثقة في نفوس قبائل الزوايا في حالة هروب إحداها من "آدرار" واشترطت على الدورية أن لا تغيب أكثر من خمسة عشر يوما. وهكذا كنت أتلقى المعلومات عن بعد. لاحظت يوم 21 مايو أن مواقع الرجال متقاربة جدا حول الواجهات وقلصت العدد بوضع رجل كل مترين على طول خط إطلاق النار. وقد مكنتني ذلك من تشكيل فرقة احتياط خاص خارجا عن فرق الحراسة.

سجلت التعليمات التالية في التقرير:

- سيتلقى كل أوربي أو جزائري أثناء نوبة الحراسة بالإضافة إلى حارسه الاثنين، دورية توفرها إحدى وحدات المعسكر تكون كل ما أمكن ذلك من الوحدة التي يتبع لها هو نفسه. وسيحدد لهذه الدورية مسارها في ما قبل خط الحراسة حسب ما يراه لازما خاصة بالنسبة لغابة النخيل.

وعند ما تكون الليالي مقمرة ستقوم فرقة الاحتياط العامة بنصيبها من هذه الخدمة ولن يتجاوز عدد أفراد الدورية رقبيا ومعه ثلاثة رجال وتدوم خدمتها مدة نوبة حراسة الأوربي أو الجزائري الذي ترافقه. ولا يمكن إرسالها في مسافة أبعد من خمس مئة متر وعلى هذه الدوريات أن تعود من نفس النقطة التي خرجت منها على خط الحراسة. ولتفادي السهو أو الغفلة سيقوم الشخص الذي يقوم بنوبة الحراسة بالإشراف على خروج الدورية من نقطة الحراسة التي ستعود لتدخل منها في ما بعد. وفي حالة وجود إحدى هذه الدوريات في الخارج وقت إعلان الاستنفار فعليها أن تطلق مجموعة من الرصاصات (في الهواء عند الحاجة) حتى ولو لم تشاهد العدو فهي بذلك تشعر المعسكر كما أنها تلقي الرعب في قلوب المهاجمين وإذا لم تكن الطلقات النارية خلف العدو فإنها يجب أن لا تكون أبدا في اتجاه المعسكر.

يوم 27 مايو، تعليمات جديدة:

- لا يلغي نظام الدوريات الصادر أمس القرار الصادر يوم 18 مايو بشأن الدوريات المسيرة مع حلول الليل من كل واجهة للتأكد من عدم وجود مجموعات مختبئة في محيط المعسكر. تواصلت أعمال تحصين المعسكر. ونظرا لتقاعس أهل القرية عن توفير اليد العاملة بالقدر الكافي فقد أمرتهم بالبقاء داخل المعسكر حتى يكتمل عدد العمال المطلوبين وبما أن الحراس يمعنون الأهالي الذين يأتون إلى هؤلاء بالطعام داخل المعسكر فقد فعل فيهم الجوع مفعوله فأنصاعوا لأوامرنا وهو ما نسميه تهكما "دعوة أهل القرية إلى طعام الغداء". ورغم ذلك كنت مجبرا على تكليف "عبدي ولد أمبارك" المتطفل السابق لدى الأمير "بكار" في "تجكجة" بأن يجمع ويراقب "الحراطين" أثناء العمل وهو معتاد على هذه الوظيفة كما أن حمسه يبدو مفرطا في بعض الأحيان ربما ليكفر عن سلوكه المريب أثناء عملية ليل 12 مايو. كان وقت المغادرة عند الساعة الثانية بعد الزوال³⁶⁴. وكان مخزوننا من الأغذية قد زاد نسبيا بسبب مغادرة عدد من الأشخاص الذين كانت تجب تغذيتهم. ويتعلق الأمر بإمكانية انتظار التعزيزات القادمة دون الموت جوعا. أما الباقي فليس في صدارة اهتماماتنا فمن المحتمل أن مغادرة هؤلاء في اتجاه النهر سيشتاع داخل البلاد أنها مؤشر على بداية الانسحاب فقد أشيع في السنغال في أوساط البيضان أنه بمجرد موت "كبولاني" فسوف لن نبق كثيرا في هذا البلد ولكن بين شرين لابد منهما يجب أن نختار الأصغر. زادت فترة المناوبة ابتداء من 23 مايو لأن عدد الأوربيين قد نقص بثلاث وحدات فأصبحت مدة المناوبة ساعة ونصف بدل ساعة واحدة وهذا ممكن لأن الشخص لا يكون في فترة المناوبة للحراسة كل ليلة. إن حجم قطيع الجمال يتطلب زيادة فرقة الحراسة المكلفة به فكان من اللازم إدخال الجمال كل مساء داخل المعسكر وبالتالي سوف ينقص وزنها بسرعة ولكن لا مندوحة عن ذلك.

انتهت جدران الأسوار يوم 24 مايو فتدارست مع الملائم "جيرار" طريقة إقامة موقع معزول وانتهى الخندق حول الواجهة الجنوبية الشرقية وعلى الواجهة الشمالية الغربية وتم تسييج الركنين الشرقي والشمالي بأسلاك شائكة ويوجد في الركن الشمالي المدفع الرشاش (رشاش مارتيني) أما المدفع الرشاش الآخر فينتقل مع الفرقة الجزائرية. أمر النقيب "جيرار"

³⁶⁴- يعني مغادرة فريق حراس كبولاني لإرسالهم إلى السنغال سيقص عدد الأفراد المحتاجين إلى التغذية وقد تمت الإشارة إلى ذلك في الفصل السابق.

يوم 25 مايو بالشروع في أشغال إقامة الموقع المعزول وأسرع في العمل لتكون جدران الموقع المعزول على ارتفاع مترين وخمسين فوق الكثيب خلال ستة أيام. وكما توقعت، رافقت ذهاب المفرزة المتوجهة إلى السنغال شائعات مغرصة فكان "البيضان" وخاصة من أهل آدرار يقولون إننا شرعنا فعلا في الخروج من "تكانت" وأشيع خبر مفاده أنني سأبقى وحدي بتجكجة مع خمسين من الحراس المحليين وعلم أمير آدرار الذي كان جنوب شنقيط يوم 24 بهذه الإشاعات كما وصله ردي على رسالته فاشتاط غضبا فبادر رجال "إدوعيش" اللاجئون هناك ورؤساء "أولاد عمي" و"سيد أحمد ولد مكية" إلى استغلال هذا الغضب الصياني وهذه الأخبار الكاذبة عن خروجنا وتقليص عدد من يوجدون في معسكر تجكجة فاستخدموه بخبت. وكان الزاوي المنحدر من "إدوعلي" الذي نقل إلينا هذه الأخبار أحد مبعوثي كبولاني كان قد بقي في آدرار وهو يقول أن الأمير قد قرر المسير لمهاجمتنا وأن جماعة آدرار قد طلبت المساعدة من أعدائها السابقين "أولاد بالسباع" و "أركيبات" وهم جميعا مسلحون ببنادق أوتوماتيكية.

وكان من المقرر أن تنقسم قوات العدو إلى فيلقين بعد تجميعها سيتوجه أحدهما إلى الجنوب للاستيلاء على قافلة "سيكولي" التي يعرفون أنها في الطريق في حين يسير الفيلق الثاني لمهاجمة معسكر "تجكجة" ويقال إن "أولاد غيلان" قد انطلقوا فعلا لاجتياح "تكانت" وينتظر قدوم ثلاثمائة من "أولاد بالسباع" و "أركيبات". وأمام هذه الأخبار وما خلفه توجهه مفرزة "كلومباني" نحو النهر من أثر سيئ على السكان المحليين، تخلت عن ما كنت أنوي القيام به من التوغل جنوبا لاستقبال قافلة "سيكولي" فقد كنت أفترض أن المقدم "مونتاني" الذي يرافق القافلة يكفي لحراستها. ومن باب الحيلة أخبرت النقيب "سيكولي" عبر البريد الخاص بنوايا "أهل آدرار" بشأن قافلته أما أنا فانتظر ما ستؤول إليه الأحداث وقد أمسكت بزمام الأمور.

كانت دورية "خليل" التي توجهت يوم 19 إلى منطقة "ارهاط" قد توغلت شرقا حتى "تلمست" تطارد عصابة من "اركيبات" لم تتمكن من اللحاق بها فعادت إلى تجكجة وأكدت المعلومات الواردة يوم 25 خاصة ما يتعلق منها بالأثر السيء الذي خلفه ذهاب جزء من الرجال عن المعسكر. أنذرت الجميع بأننا نتوقع هجوما وأجريت بعض التمارين على الاستتار الخاص والعام وكتبت في التقرير ما يلي:

- سيكلف الرقيب الدرقي "فيلمن" في حالة حصول الهجوم بتوزيع الذخيرة وسيكون مكانه في مكتب القائد المؤقت للبعثة حيث توجد احتياطات الذخيرة وفي حالة الاستنفار تبعث له كل مفرزة عاملين يتكلمان أو يفهمان الفرنسية إن أمكن.

- سيتم تجميع المرضى والجرحى في حالة الهجوم في قاعة الأكل بالإقامة ومعهم الكتور وسيحملون أسلحتهم إلى هناك ويتولى القادرون منهم حراسة الأبواب.

كان المستوصف المؤقت في بهو مقر الإقامة وكانت جدرانه مصنوعة من الجلود والسجاد المغربي الذي أخذناه من "بوكادوم" وكان المكان مريحا وكان جرحى هجوم 12 مايو يتمثلون للشفاء. استوليت يوم 26 مايو على قافلة "لتجكانت" قادمة من "امبود" محملة بالذرة فاشتريتها على الفور ودفعت ثمنها نقدا وحين لاحظ أصحاب القافلة السعر المغربي وعدوني بالقدوم بقافلة أخرى. أرسلت مبعوثين أثق بهما إلى ناحية آدرار لمراقبة تحركات العدو. كان الجمالة من "الكانيولي" و"الولوف" وقحين ولا يلتزمون بالأوامر فكثيرا ما تخلوا عن حراسة القطيع فجعلتهم تحت سلطة الجزائريين بصفة خاصة فلن يرحمهم.

كما نظمت خدمة دوريات على الإبل:

- اعتبارا من اليوم سنتوجه كل يوم دورية محمولة على الإبل من أربعة رجال (جزائريان واثنان من البيضان) ستجوب ضواحي تجكجة في مسارات وأوقات مختلفة وبإمكان هذه الدوريات أن تبقى في الخارج أكثر من نصف النهار وتم وضع فرقة "أولاد بالسباع" ورجال "أولاد ابيري" الخمسة الباقين و"بولير" و"أولاد اعلي" تحت تصرف الملازم "دلافجيون" المشرف على خدمة الدوريات المحمولة. وقررت تنظيم بعض الدوريات الأكثر قوة من أجل الاستطلاع للضباط.

قمت يوم 27 بتنظيم خدمة الشرطة داخل المعسكر وكلفت بها الملازم "اتيفان" الذي يتكلم العربية بطلاقة فعليه أن يتولى مركزة رقابة البيضان الأجانب على المسعكر وينظر في أمر جميع من يحضرون لأي سبب كان. وصلت أخبار مغادرتنا إلى "إدوعيش" فاخترأوا رجلين من اترارزة كانا لاجئين لديهم منذ زمن طويل فارسلوهما لاستكشاف حقيقة ما يحدث بأمر أعينهم.

وكانت مهمتهما المعلنة هي إخباري بأن رؤساء "إدوعيش" قد وصلتهم رسالتي وإنهم يستعدون لإرسال وفد رابع ليحمل إلي أمر دخولهم تحت سلطتنا وصل المبعوثان يوم 28

مايو فأبقيتهما في الانتظار عدة ساعات ليتأكدا من أننا لا نرتمي في أحضانهم بسرعة ثم قررت أن لا أستقبلهما إلا بعد يومين وفي انتظار ذلك أسكنتهما داخل المعسكر مع المترجم وأصدرت الأوامر بجعلهما يتأكدان من أننا نوجد هنا ليس فقط بأعداد كبيرة ولكن أيضا بأننا نشدد الحراسة وفضلا عن ذلك لا نفكر أبدا في الذهاب بل نحن باقون دون خوف في انتظار العدو لدحره.

أصدرت أمرا يوم 29 مايو إلى الرعاة بالذهاب بالقطعان قرب فرقة الجزائريين المكلفة بحراستها وبهذه الطريقة أتمكن من جمع عدد كبير من الرجال حول نواة من البيط فالزئوج حين يبقون وحدهم تسهل مباغتتهم دائما. ولكن بعض هؤلاء الزئوج ينتمي لفرقة الرماة السنغاليين فهم إذن نظاميون فلم أتمكن من جعلهم تحت أوامر الجزائريين الذين يعمل النظاميون منهم خارج الإطار فلن يقبل الضباط السنغاليون ذلك هذا جانب من قلة مرونة وعدم سهولة التعامل مع فرق الزئوج النظامية بسبب ارتياب ضباطهم فكنت مجبرا في الأيام التي يتولى فيها المجندون السنغاليون المشاركة في خدمة حراسة القطيع بأن أشكل قيادتين منفصلتين لهذه الحراسة إحداهما من غير النظاميين يقودها جزائريون وتضم الأخرى المجندين وحدهم، يالها من حيلة! عاد أحد المبعوثين وأخبر بأن "أولاد غيلان" يجوبون تكانت ومن المعروف أن "أولاد بالسباع" و"اركيبات" سيتحالفون مع أهل "آدرار" ضدنا وهو ما ضاعف غرور الأمير الشاب لهذه المنطقة وحضر مع المبعوث شخص يقوم بدور المغني "إكيو" المرافق لهذا السيد الشاب فقدم إلي بطريقة استفزازية رسالة من سيده وهي عبارة عن إنذار بالخروج من البلاد وإلا "سأحصل على رأسك" يكتب لي الأمير. وجدت الرسالة حادة بعض الشيء وبما أن مبعوثي "إدوعيش" يوجدون معنا في انتظار مقابلتي الموعودة ومعني فرقة من الجزائريين تعمل داخل الموقع المعزول فقد كلفت "بن حماده محمد" بقراءة وترجمة الرسالة بصوت مرتفع حتى يسمع الجميع ما يتفوه به هذا الوقح. وكان العجوز "المختار ولد احمد ولد عيده" ونجله معنا أيضا فقد كان من عادتهما الحضور بسرعة كلما كان من المتوقع قدوم أخبار من آدرار.

سمع الجميع قراءة الرسالة ورمقوني بنظراتهم، فهل سأقبل هذا التحدي أمام أربعمئة

رجل وفي عقدر داري؟

- "صرخت قائلاً لابن حموده" قل له إنه رجل محظوظ لأنني أعتبره مبعوثاً مفاوضاً! وقل له إن لديه ثلاث دقائق فقط لا أكثر ليتوارى خلف المرتفع الذي نراه هناك شمال القرية". حاول المطرب الذهاب من فوره. قلت له "ليس الآن".

أرسلت معه إلى هذا الأمير الغبي الذي حاول ازدرائي، بإحدى العبارات التي لا تصدر إلا عن ذوق جزائري وتعبر في أقل عدد من الكلمات عن تهديد أقوى مما ختم به رسالته فلم يتمكن المترجم من التقاط كلامي بالعربية! ولم أنه عبارتي حتى انطلقت القهقهات عالية داخل مجموعة الجزائريين الحاضرين أما البيضان فقد كانت الترجمة الحرفية لبن حماده تناسبهم فاستداوروا جميعاً وخاصة مبعوثي "إدوعيش"³⁶⁵ فأسرعت في نداء فرقة السنغاليين من الحراس وكانت معهم بنادقهم مهيئة فأمرتهم بالاصطفاف خارج السياج فأشار بن حماده على المطرب بأن ينظر إليهم قلت له أخبره بأنه إذا لم يختف في ومضة عين كما قلت له خلف المكان الذي حددته له فسيكونا هدفاً لوابل من رصاص هؤلاء.

- "إذهب الآن، انطلق يا كلب" قلت له فهياً المجندون السنغاليون الطلقات في جعبة بنادقهم. ومع حركة أيديهم اختفى هذا المطرب واجتاز المسافة بسرعة لا يستطيعها سوى القروء من البيضان حين يفرون ويقيت حائراً من السرعة التي اختفى بها. وما زلت أسأل نفسي هل نقل رسالتي بصدق إلى سيده؟ على كل حال إذا لم يجرؤ على ذلك فمبعوثاً إدوعيش والعجوز "المختار ولد احمد عيده"، كانوا حاضرين وستصل الأمير بطرق أخرى عبر البلد. أنا مطمئن على ذلك.

لماذا استقزني؟ لنكن جادين! هذا التحدي يدل على أن الأمير مستعد وهو على وشك مهاجمتنا. الحمد لله يمكنه أن يأتي، فنحن لم نعد في مكان بدائي كما كنا ليلة 12 مايو فنحن في مكان محصن سيصطدم به فقد بنيناه توخياً للهجمات المباغته. أخبرنا المبعوث بأن جيش أهل آدرار يبلغ ثلاثمائة رجل يهددون تجكجة فأرسلت هذا الرقم إلى رجالي أنهم يفوقون هذا الرقم عدداً كما أننا قد احتطنا للأمر فكل يوم يأتي دون حدوث الهجوم يجعلنا أكثر قوة وكل واحد منها ينام كل ليلة في نقطة الحراسة وحربته على فوهة بندقيته وقد أمرت بأن لا توقد نار داخل المعسكر بعد حلول الظلام وبأن يوقظ رؤساء المفرزات رجالهم بهدوء دون أي صوت.

³⁶⁵- وصف "روبيرت راندو" هذا المشهد في كتابه "المستكشفون" ص: 268-269 بصفة أقل تحفظاً فترجم جواب "أفرير جان" على استقزاز الأمير الشاب. "استداوروا جميعاً" (المقصود من الضحك) وهي عبارة لم تعد مستخدمة اليوم.

ذهب مبعوثا "إدوعيش" وقد حملتهما بكلام جميل ويمكن أن ينقلوا إلى رؤسائهم أخبارا سارة عن نوايانا الهجومية وعن المكان الذي وجد فيه أهل آدرار.

أرسلت دورية على الجمال من الجزائريين يوم 30 مايو إلى "الرشيد" يرافقهم خمسة من البيضان من بينهم "أكلي علي" ونظمت مفرزة للهجوم المضاد تحسبا لمهاجمة المعسكر ليلا شكلتها من خمسين رجلا من الجزائريين و"التكلور" يقودهم الملازمان "لوفانجيون" و"دوفور". وأضفت إلى هذه المفرزة رجال "أولاد بالسباع" الخمسة والعشرين، وفي حالة احتلال العدو لإحدى الواجهات سنتها على وحدة الاحتياط الخاصة بالحراب. وبعد عمل متواصل انتهى إعداد الموقع المعزول وأصبح الرجال يدخلون فيه كل يوم وقد استغلوا وسلاحهم مجهز وفي متناول أيديهم فلن يتمكن البيضان اليوم من مباغتتنا.

شكل المجندون السنغاليون حامية للموقع المعزول يوم 31 مايو ولكن تحسبا لحالة استثنائية مستبعدة من الدفاع المستमित يحدد لكل وحدة مكانها المتوقع داخل الموقع المعزول وتتعرف عليه وإثر شغل الموقع المعزول تمت إعادة تنظيم دفاع وشغل المعسكر عبر تقسيمه إلى ثلاثة مقاطع:

- قطاع "لوفانجيون" الواجهة الجنوبية الغربية؛
- قطاع "دوفور" الواجهة الجنوبية الشرقية؛
- قطاع "اتييفان" الواجهة الشمالية الشرقية.

يتولى النقيب "جيرار" قيادة فرقة الاحتياط العامة. وتصبح فرق الاحتياط الخاصة فرقا احتياطية للمقطع ويعاد تنظيمها في العمق هكذا سيكون لدى وحدة من فرقتين إحدى هذه الفرق على خط النار وتبقى الأخرى في الاحتياط هذا من أجل ضمان خط إطلاق النار ومن أجل تحريك عدد قليل من الرؤساء.

يجب على عمال البناء اليدويين أن يناموا من الآن فصاعدا داخل المعسكر وفي حالة الاستنفار يبقون نائمين فمن تحرك منهم فسيعرض نفسه للموت، لا حظنا حركة كبيرة جبهة وذهابا حول المعسكر كما لاحظنا حالات توقف مشبوهة فأصدرت الأوامر لتحديد هوية كل من يمر بالقرب من المعسكر وإطلاق النار على كل من لا يرد على النداء وأبلغت سكان القرية بذلك فمكننا ذلك من إخلاء المنطقة حولنا وإحكام السيطرة على معسكرنا. ولاحظت في بداية شهر يونيو أن مجموعة الحراس البيضان متساهلين بعض الشيء ويفضل بعضهم

البقاء في القرية على خدمة الدوريات المحمولة فأمرتهم بتسليم أسلحتهم حتى يطلبوا من جديد العودة إلى الدوريات وهو ما فعلوه بسرعة لأن الحارس الذي لا يحمل سلاحه لا يتلقى راتباً ولا حصة من الغذاء كما فرضت على الحارس الذي يعود لحمل السلاح بعد فترة توقف أن يقوم بنوبة حراسة إضافية خارج نوباته المعتادة وفي حالة العودة إلى المخالفة أقوم باقتطاع خمسة عشر يوماً من الراتب المستحق وفي هذه الحالة الأخيرة اقتطع نفس المبلغ من البيطاني الذي يرأس الفرقة بوصفه مسؤولاً عن رجاله ولم احتج إلى تطبيق هذه العقوبات إذ لم يعد أحد إلى المخالفة والحالات الاثنان أو الثلاث المعزولة التي تمت معاقبتها تعود إلى التعب وأصحابها من البداية الذين استسلموا للراحة بعد ما نسميه "مزيا الكوب"³⁶⁶ حينما وجدوا نوعاً من الترف في حياة القرية يختلف عن ما اعتادوه من شظف العيش تحت الخيام ولكن أكثرهم تكاسلاً يستأنف النشاط متى وقع على ظهر الجمل ووضع البندقية على فخذينه. أخبروني باختفاء مجموعة من كباش القطيع فقررت تعويض كل كبش مفقود باقتطاع من الحصة الغذائية للوحدة المكلفة بحراسة القطيع أو من الوحدات المكلفة بهذه الحراسة إذا كان هناك عدة وحدات معنية.

انطلق الرعاة يوم 3 يونيو فور استيقاظهم متوجهين إلى المرعى دون أن ينتظروا ذهاب الدورية المحملة التي تسبقهم عادة لتأمين المنطقة قبلهم وفور وصولهم إلى المنطقة الصخرية حيث يجمعون الحطب تفرقوا في عين المكان واتكأ العريف المكلف بالحراسة ونام. مهما أصدرت من الأوامر ومهما حذرت الزوج فلا فائدة من ذلك فمتى بقي هؤلاء وحدهم في غياب رئيس من البيط فإنهم سيجعلون الأوامر والتحذيرات تحت أقدامهم ولا يلبون على شيء بل يخلدون إلى النوم والاسترخاء. لاحظت أن هؤلاء الرعاة قد خالفوا الأوامر الصادرة بذهابهم قبل انطلاق الدورية المحملة على الجمال فقررت أن أعاقب هذا السلوك بعد عودتهم من المهمة.

وصل الرعاة إلى المكان الذي ترعى فيه المواشي في الوقت الذي تستعد فيه الدورية للانطلاق في مهمتها اليومية نحو الشمال وعندما وصلوا إلى مجموعة "إدوعل" القادمة من

³⁶⁶ - إشارة في أسلوب مرح إلى حملة الجنرال القرطاجني "حنا بعل" ضد "روما" في الحرب البونيقية الثانية، فبعد انتصاراته الساحقة على "تسين" و"اتريبي" وقرب بحيرة "اترازمن" (2017-2018 قبل الميلاد) استولى "حنا بعل" على أحياء الشتاء في مدينة معروفة آنذاك بترفها ولكن جيوشه أخذت إلى الراحة وانغمست في ملذات الكوب" وهو ما مكن الرومان من إعادة الكرة عليه.

الجزء الشمالي من النخيل وعليها علامات التأثر وهي تبدي إشارات الخوف حيث يقول أفرادها إن عصابة من نحو ثمانين رجلا من أهل "آدرار" يحملون السلاح قد سطوا على خيامهم واستولوا على مواشيهم وكانت العصابة بقيادة رجال من "الشرفه"³⁶⁷ أبناء عم "سيدي ولد مولاي الزين" (قائد الفرقة التي اغتالت كبولاني) كما تضم العصابة بعض "إديشلي" و"أولاد غيلان" وما زالت هذه العصابة قريبة فقد رأوها في المنطقة الصخرية جنوب المعسكر.

فأصدرت إلى الملازم "لوفيجيون" الأوامر التالية:

- يجب على الملازم "لوفيجيون" أن ينطلق على الفور صحبة أكبر عدد من الرجال المحمولين ويسترجع القطعان المسلوية من جماعة "إدوعللي" ويأتي بها إلى المعسكر، وفي حالة عدم تمكنه من اللحاق بالعدو أو في حالة كون العدو كثير العدد ولا يستطيع الملازم أن ينتصر عليه فعليه في هذه الحالة أن يرسل لنا إشعارا أو يعود أدراجه وعلى كل حال عليه أن يعود إلى المعسكر قبل حلول الليل ويرسل الأخبار كلما أمكن ذلك بما رآه وما صادفه. ومن جهة أخرى بلغني فجأة أن قافلة من "تجكانت" ومعها الذرة التي كانت موجهة إلينا توجد في "النيملان" وتطلب فرقة حراسة فقررت أن تتكون هذه الفرقة من الخمسة عشر حارسا من "البيضان" التي شكلناها لتستخدم عند الضرورة من الفرقة التي جاء بها "لوفيجيون" ستتوجه هذه الفرقة مسرعة إلى "النيملان" لتخليص القافلة وأمرتها بالحرص على القدوم بها في نفس اليوم.

أنهى الملازم "لوفيجيون" استعداداته، وحسب المعلومات التي قدمها الرجل الذي تطوع بمرافقته كدليل (وهو نجل أحد القوم الذين سلبت حيواناتهم) مفادها أنهم يستطيعون اللحاق بالعدو بسرعة واسترجاع القطعان وذهب إلى الجنوب دون أن يتزود بالماء كانت الساعة السادسة والنصف صباحا وكان معه خمسة وثلاثون من الجزائريين وعشرون من "البيضان" وما كاد يختفي مع فرقته خلف الهضبة الدائرية التي تقطع طريق "النيملان" حتى انطلقت من الجهة الغربية لنفس الهضبة عدة طلقات نارية جاء بعدها وابل على ثلاث دفعات من الطلقات النارية وبعد قليل رأيت أحد الرعاة ثم واحدا آخر يعودان مسرعين أخبرني الرجلان أن

³⁶⁷ - الشرفه: (مفردها: شريف) من ينتسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، "إديشلي" و"أولاد غيلان" قبيلتان تعارضتا في آدرار.

العريف قد جرح وأرسلهما لإخبارنا أن "البيضان" هاجموه بأعداد كبيرة عندما كان الرعاة منشغلين بقطع الخشب والحشيش وأنهم قتلوا منهم اثنين واستولوا على بنادقهم وذخيرتهم وأنهم أصابوا العريف بجراح وكان قد استيقظ مذعورا ورأى المهاجمين يطلقون النار على راع ثالث ويصيبون اثنين آخرين بجراح. وقد تمكن هؤلاء الثلاثة (الراعيان السنغاليان والعريف) من أخذ الجرحى وسلاح الراعي المقتول ثم أطلقوا ثلاث دفعات من الرصاص على المهاجمين فهرب هؤلاء ولكن مجموعة أخرى من "البيضان" قد جاءت على الجمال وحينها توجه الحارسان السنغاليان إلى المعسكر ليبلغا الخبر ويزعمان أن العريف قد بعثهما والحقيقة أنهما هاربان، وبما أن إطلاق النار قد توقف فقد بدا لي أن فرقة "البيضان" المحمولة على الجمال التي رأوها إنما هي فرقة حراسنا نحن التي أرسلناها وكان الملازم "لوفيجيون" قد دفعها إلى الأمام عندما سمع طلقات النار الأولى وقد تأكد لي ذلك عندما رأيت اثنين أو ثلاثة من هذه الفرقة يحملون الجرحى خلفهم على الجمال ومعهم الأسلحة وجثامين القتلى.

فهؤلاء المجندون السنغاليون رغم أنهم يعيشون جنبا إلى جنب مع أنظارهم من "البيضان" منذ ستة أشهر فهم لا يستطيعون حتى الآن التمييز بين أعدائنا وحلفائنا من "البيضان" بالنسبة لهم فنهم بيضان جميعا وكل "بيضان" أي كل شخص غير أسود هو سيء على كل حال وكثيرا ما أوشكنا أن نواجه اشتباكا بين المجندين السنغاليين المذعورين ومجموعات من حراس "البيضان" التابعين لنا ولحسن الحظ أن "البيضان" ينقدون الموقف بعدم إطلاق النار ويفضلون الفرار خوفا من حدوث المعركة.

لقد حاول هؤلاء الرعاة التصرف بمفردهم فكلفهم ذلك غاليا: ثلاثة قتلى، ثلاثة جرحى، وفقدان مدفعين ومائتي طلقة نارية. كان الحراس قد قطعوا بعض الطريق في اتجاه الشمال عندما سمعوا طلقات النار الأولى.

ولبث الملازم "لوفيجيون" بعض الوقت لرفع الجرحى والقتلى وفي هذه الأثناء ابتعد المهاجمون ولم يتمكن من اللحاق بهم إلا زوالا بعد ساعتين من المسير عندما كانوا يحاولون اجتياز ممر صخري وبعد التبادل القصير لإطلاق النار فر "أهل آدرار" تاركين القطعان التي كانت معهم فأخذها الملازم. ولكن الحر كان شديدا وهم لم يأخذوا مئونتهم من الماء لاعتقادهم أن العدو كان قريبا وأن مهمة استرجاع المواشي لن تستغرق وقتا طويلا.

شعر أفراد الفرقة بالعطش وقد زادت حدة ذلك بسبب الجري تحت الشمس المحرقة فأخذوا الطريق عائدين يزحفون بالمواشي متجهين إلى بئر "أشاريم" ولكنهم لم يهتدوا إلى مكانه وبسبب عدم تمكنهم من ذلك أصيبوا بالإحباط واجتاحتهم ضربة الحر الجماعية. سلم الملازم "لوفيجيون" القطعان إلى الرقيب الدرقي "خليل" الذي توجه رفقة الدليل وثمانية من الجزائريين إلى "تجكجة" ثم توقف الملازم مع فرقة الحراس "البيضان" وثمانية من الجزائريين وبما أنه شخصيا وكذا الجزائريين يشعرون بشدة العطش فقد قرروا ذبح بعض الأكباش لشرب دمها لاعتقادهم أن ذلك سيمكنهم من الانتظار أكثر وفي هذا الوقت كانت فرقة "البيضان" تبحث في كل اتجاه وأخيرا عثروا على بئر شرب منها الملازم وفرقته تبين أنها "أشاريم" أما فرقة خليل وما معها من القطعان فكانت قد ابتعدت كثيرا عند العثور على البئر كما أن حلول الليل منع من البحث عن آثارها. وفي الطريق مات الدليل من العطش وضل الجزائريون طريقهم وتخلوا عن القطعان ففرقت في كل اتجاه.

وفي يوم 4 يونيو وصل اثنان من "البيضان" أرسلهم الملازم فأخبراني بما لديهم من تفاصيل حول هذه القضية فأرسلت مع "إدوعللي" الذاهبين لاستعادة قطعانهم أكبر عدد ممكن من قرب الماء. وعند الساعة العاشرة صباحا كان الملازم وفرقته يشربون الماء بغزارة ثم أخذ "إدوعللي" الطريق التي سلكها "خليل" بالقطعان ومعهم عدة جمال محملة بالماء وعند التاسعة مساء وصل "خليل" إلى المعسكر صحبة عريف جزائري يوشك على الهلاك من العطش وبعد ذلك بقليل عاد الملازم وفريقه فقمنا بالنداء ولاحظنا غياب ثمانية من الجزائريين. فأرسلت دوريتين من "البيضان" على الجمال للبحث عن هؤلاء واستفرت كافة "حراطين" القرية كل واحد يحمل قربة ماء لتقيش المنطقة في كل اتجاه وهم على دراية بطبيعة الأرض وبما أن بعض "الحراطين" قد عادوا بعد أن صادفوا عصابة من "أهل آدرار" سألتهم عن أخبارنا، فقد أرسلت الملازم "شيرووي" مع فيلق من المجندين السنغاليين للبحث عن هذه العصابة فلم يعثر الملازم "شيرووي" على شيء. ومنذ حصار "تجكجة" مررت ست مرات على الأقل بمنطقة "أشاريم" حيث يوجد الماء كل أربعة كلمترات في موسم الأمطار وفي كافة المواسم يكفي حفر بسيط في باطن الوادي للعثور على بحيرة ماء عذب وفي أسوأ الأحوال هناك آبار حاسي "انيبا" وحاسي "متول" حيث يوجد الماء دائما فلم أجد تفسيراً مقنعا لهذه الكارثة سوى عدم خبرة الدليل والخطأ الفادح الذي ارتكبه الفرقة عند انطلاقها بعدم اصطحاب كمية من الماء.

بدالي يوم 5 يونيو أن قافلة الذرة التابعة "لتجكانت" ما زالت في "النيملان" ويمكن أن تقع في أيدي العصابة التي تحدث عنها "حراطين" القرية تبعد "النيملان" حوالي ثلاثين كلمتر عن "تجكجة" فقررت أن يتوجه إليها المساعد "جوكستل" صحبة عشرين من المجندين السنغاليين ينطلقون بعد الزوال ويعودون بالقافلة من الغد وأصدرت لهم أمرا صارما بالسير كتلة واحدة دون أن يتفرقوا أبدا وفور الوصول إلى "النيملان" سيتوجه أحد "تجكانت" إلى تجكجة بأخبار الفرقة وطلب الدعم من الجمال إذا اقتضت الحال ذلك. هبت ليلة 4 إلى 5 عاصفة متربة هوجاء محت جميع الآثار وهو ما يضعف الأمل في العثور على الجزائريين المفقودين مع أن نصف "الحراطين" ما زالوا في الخلاء يبحثون عنهم.

كانت القطعان ترعى منذ يوم 3 في الشهر بالقرب بين القرية "وراس أدرك" أي شرق المعسكر وفضلا عن فرقة حراسة المواشي كانت هناك دورية محمولة فيها أربعة "بيضان" أو جزائيين تدور باستمرار في المنطقة بحثا عن الفرق المعادية.

نحو الساعة الثانية بعد الزوال في الوقت الذي انطلق فيه فيلق "جوكستل" سمعنا طلقات نارية قادمة من الجهة التي فيها قطع الجمال. يتعلق الأمر بعصابة من "أولاد غيلان" يقودها المدعو "محمد ولد فدار" وهو مقاتل شهير من أهل آدرار كان قد أغار على مخيم "الإدوعلي" داخل غابة النخيل فهاجمه أربعة من الجزائريين في الدورية المحمولة فجعلوه يتخلى عن المواشي التي استولى عليها ويهرب فمن حسن حظهم أنهم دفعوه في اتجاه حرس القطيع الذين أطلقوا عليه النار وهو يمر بمحاذاتهم.

وبمشاهدة ما جرى هب الحراس "البيضان" إلى بنادقهم واستقبلوا "ولد فدار" على طريقة "أهل اكرنوبل"³⁶⁸ في هذه الأثناء، ما كاد المساعد "جوكستل" يخرج من المعسكر حتى سمع طلقات البنادق، فتوجه نحوها، فشهد العصابة وهي تحاول الاختفاء خلف الكتيب بمحاذاة غابة النخيل وتحاول انتهاز فرصة انشغال الحرس بمطاردة "ولد فدار" لتزحف نحو المعسكر فهاجمهم المساعد وأجبرهم على الفرار وعاد إلى المعسكر ليكون تحت تصرفي في حالة الهجوم ولكن لم يحدث شيء من ذلك رغم أننا في حدود السابعة بلغتنا أخبار من سكان القرية عن وجود "سيد أحمد ولد مكيه" على إحدى الهضاب شمال "تجكجة" وهو مستشار أمير

³⁶⁸ - استقبال معاد بالإشارات والصراخ وهو تعبير عن مطاردة الشخص وإهانته.

"آدرار" والقائد الرئيسي "الأولاد غيلان" ولم يستطع هؤلاء تحديد مكانه بسبب الذعر من رؤيته فلم يعرفوا كم معه من الرجال فأرسلت فرقة "أولاد بالسباع" وخمسة وعشرين من "البولار" تحت قيادة الملازم "دوفور" وكانت هذه الحركة كافية لجعل "ولد مكيه" الرهيب ينطلق فارا، وفي المساء عاد آخر "الحراطين" المكلفين بالبحث عن الجزائريين دون أن يجدوا شيئا.

علمت يوم 6 يونيو أن قافلة "تجكانت" التي لم أتمكن من أخذها بسبب الظروف الطارئة قد تعرضت للنهب ليلة 5 إلى 6 في "النيملان" نفسه مع الأسف، كنت متأكدا من أنني بعد الحصول على هذه القافلة لن أسجل نقصا في المؤن الغذائية، ولحسن الحظ أنني في الأيام الماضية قد اشتريت بالتدريج طنين من الحبوب كما أن التمور بدأت تتضج ومع ذلك بعثت بتقرير سلمته "لتجكانت"، أصحاب القافلة المنهوبة، أقول فيه إننا سنكون يوم 10 يونيو في حالة نقص تام في المؤن الغذائية فمن المفيد إذن أن نتلقى ما لا يقل عن طن من الأرز لكي نتمكن من الانتظار دون مجاعة حتى تصل المؤن الأخرى بعثت بهذا التقرير إلى "مال". وأنا في الواقع أبالغ في بؤسنا لكي أجعلهم يسرعون في إرسال المؤن وخاصة قافلة عشرين جمل الصغيرة التي كنت أنتظرها من الأرز وفي الحقيقة لدي المؤن الكافية لغاية 18 يونيو وإذا لم يصلني شيء فسأقوم بالتقسيت وأعوض نقص الذرة أو الأرز بمضاعفة حصة اللحم.

عاد مساء 6 يونيو الجزائريون الأربعة المفقودون ومعهم أسلحتهم فقد استقبلهم مخيم "تجكانت" ويبدو أن الأربعة الآخرين قد فارقوا الحياة في الخلاء على كل حال هذا أمر مؤكد بالنسبة لواحد منهم هو "أعمر بن محمد" الذي كان قد تأكد يوم 4 يونيو من الهلاك عطشا فسلم سلاحه وذخيرته للعريف الدركي "خليل" نقاديا منه لأن يقع ذلك في يد العدو وهذا سلوك بطولي عفوي يحسب لهذا الرجل الشجاع ولكنه قد هلك وقد وسنذهب بعد أيام بحثا عن جثمانه لدفنه في مقبرة تجكجة أما الثلاثة الآخرون فقد ماتوا في مكان ما لا نعرفه.

أخبر "حراطاني" "كنته" التابع "لولد الحامد" أن أمير "آدرار" شخصا قد اجتاز منطقة "ارهاط" يوم 5 يونيو على رأس مائتي مقاتل ومعهم جماعة "إيدوعيش" اللاجئة في آدرار ومعهم المحارب المعروف "سالم ولد بوحينات" الذي لا يتحرك عادة لمجرد النهب يتعلق الأمر إذن باستعدادات لمنازلتنا ومنتظر الأمير كذلك مائة من "أولاد بالسباع" وقد نزلت مائتان منهم إلى منطقة "التامورت" لنهب "كنته" والتريص للانقضاض على قافلة "سيكولي".

اتصل بي مركز "الحسينية" يوم 7 يونيو وأخبرني أن الفرق المعادية تجوب تكانت طولاً وعرضاً وأن قافلة المؤمن قد غادرت "الألك" منذ أحد عشر يوماً ويتوقع أن تكون في الوقت الحالي بين "مال" و"الحسينية" فهي لن تصل إذن قبل يوم 20 يونيو يلزم إذن تقسيط الغذاء وبالمقابل وصلت قافلة حرة من الذرة والخبز إلى "الحسينية" وعند إشراق الصباح الأولى يمكن أن أرسل من يأخذ هذه المؤمن عند "الحسينية" وإذا أرسلوا لنا حمولة عشرين جملاً من الأرز فيمكنني تحمل الباقي.

أعتقد أنني لا أحتاج إلى مصادرة مواشي الذبح من "إيدو علي" في القرية إلا أننا قد قدمنا لهم الحماية الفعلية ولنا الحق في أن ننتظر منهم ضريبة في شكل توفير اللحوم، فقد أعدنا لهم في الوقت الحالي جميع ما أخذه العدو منهم وقد كلفنا ذلك سبعة قتلى وفقدان عشر بنادق وهذا كثير. سيتوجه الرقيب الدركي "دتال" صحبة "أكلي علي" وأربعة عشر جزائرياً ليقوموا بدورية أخيرة في المناطق الشمالية الغربية لمحاولة العثور على جثامين وأسلحة الجزائريين المفقودين وباستثناء وجود قوة قاهرة لديهم أمر بأن لا يدخلوا في اشتباك مع أحد. تصلنا من الخارج أخبار سيئة فعمليات النهب تتوالى و"إيدو علي" قد تملكهم الرعب ويطلقون إشارات الإنذار للمعسكر باستمرار حتى أصبح هذا يثير الضجر فكنا في كل لحظة نسمع صراخ النساء الحاد الذي يطلقه لأدنى سبب وعند رؤية أي مجهول وحتى عند سماع الحديث عن "أهل آدرار" فنرى فوراً القطعان تتدافع من كل حذب وصور لتلجأ في المنطقة الفاصلة بين القرية والمعسكر وتأتي وقد أثارت سحباً من الغبار وضوضاء من الرغاء والصياح.

حتى أنه من السهل بالنسبة للعدو المحترف أن يتسلل داخل القرية وسط هذه القطعان فمجموعة الحراس الذين وضعناهم داخل القرية لن يصمدوا أمامه ومتى إن تم الاستيلاء على القرية فلن يكون بمقدورنا فعل أي شيء سوى الهجوم العام دون استعداد للمشى نحو المكان باعتبار أن المدفع الكبير قد عاد به النقيب "بايين" إلى "الحسينية". لدينا نظام حراسة مشدد فدوريات الاستكشاف والمراقبة تجوب المنطقة بصفة مستمرة لقد تعبت الحامية فمهمتها شاقة جداً وما هو أصعب من ذلك هو هذا الانتظار المضجر وترقب خطر وشيك وعدو لا نراه. وفضلاً عن ذلك، خاصة بالنسبة لي شخصياً، هناك قلق الحرس المستمر على تغذية رجالي ومع ذلك نحن نقاوم البؤس بشكل جيد. وأبادر فأقول إن معاناتنا أقل بكثير مما عانىنا في السابق في "اترارزة" فنحن هنا فرقة محدودة العدد تتمتع بكل الامتيازات إن صح التعبير

فالتباخ الجزائري العجوز "المختار" الذي رأى في حياته "ملك" و"الاصطياف" في "ألبسينيا" مع بعثة "بورك دبوراس" يقدم لنا فطائر خبز مغذية تمكننا بعد المضغ من ابتلاع قطع اللحم الصلبة لحيوان يجمع بين الهزال والرشاقة نسميه "كبش السباق" والحال أن هذا اللحم يتناوب أثناء عمليات التوزيع مع لحم الجمال المصابة أو المنهوكة. كنا أنا والملازم "دوفور" والملازم "لوفانجيون" نرتشف في المساء عند الخامسة شرابا قد اكتسب لونه الغريب من شدة الغليان يسمونه "الشاي" وكنا نقطعه بالتهام فطائر متنوعة الشكل مغموسة في سمن الإبل.

بينما كان "دوفور" يدخل بعر الإبل في غليونه (كم هو ثمين هذا الحيوان) اكتشفت في كوخ المستودعات (المسيو أرنو وكتاب رابلي والنقيب جيرار وبيده مقياس الأبعاد) وبجانبيهما قنينة من الكحول المشتعل كنا نبنش بها الشاي من فترة لأخرى ودون استشارة الدكتور استخدمت هذه المادة لإخماد حركة الدودية الشريطية التي تمرح داخل أمعائي.³⁶⁹

كانت نشاطات اللهو ليلا غير متنوعة وتتمثل فقط في الدوريات وخدمة المناوبة وهي رياضة أصبحنا نتقنها مع مرور الزمن وتوجد هناك حالات استنفار فالثيران والجمال والحمير التابعة لسكان القرية لا تعبأ بصيحات الإنذار وكثيرا ما أثارت الرعب لدى الحراس كما توجد هناك ألعاب فكرية كلعبة "البريدج" وتمتاز بأنها كل ليلة تجعل الملازمين والدكتور يقضون جل الليل ساهرين، وقبل أن ننام تحت عمود المبنى كما كنا نعقد جلسات للثرثرة والنقاش لا من أجل تسوية المشكل الاجتماعي³⁷⁰ وإنما حول مستقبل "تكانت" و"آدرار".

مع كل هذه النشاطات وخاصة انشغالاتي المتعددة لم يكن لدي وقت للشعور بالضجر.

عادت فرقة الاستكشاف اليومي يوم 10 يونيو حاملة جثمان "أعمر بن محمد" وقد جف فنظمنا له حفلا تابينيا ولم نجد أي إشارة تدل على وجود العدو الذي نبحت عنه ولكننا كنا نشعر به يحوم حولنا كالوحش يبيحث عما يفترسه³⁷¹ وقد وجدنا ما يثبت ذلك ليلة 13 يونيو حيث كان القمر ساطعا وكنا نرى الأشياء واضحة كما لو كان الوقت نهارا كانت الساعة تقترب من العاشرة والملازم "دوفور" في نوبته من الحراسة في دورية داخل "البطحة"

³⁶⁹ - كل هذه التفاصيل المثيرة قد أوردها "روبير راندو" في كتابه "المستكشفون" المشار له آنفا.

³⁷⁰ - "المشكل الاجتماعي" أحد مواضيع الجدل والنقاش في الصحافة والرأي العام داخل فرنسا آنذاك.

³⁷¹ - "يبحث عن ضحية يفترسها" تضمين لمقطع من خطبة وعظ للقديس "ابيير" ضمن رسالة التقوى حيث يشبه الشيطان بالأسد الذي يزأر وهو يحوم حول المكان "بحثا عن ضحية يفترسها" وكان "افريز جان" قد درس في "مدرسة اليسوعيين".

فانطلقت رصاصة مرت بقربه وسقطت على الرمل ومر طنين أخرى قرب أذنه فرد حارسه فزادت الطلقات النارية القادمة من "البطحة" فعاد "دوفور" ورجاله إلى المعسكر وفي الوقت نفسه سمعنا صراخا من الجهة الشمالية الغربية لغابة النخيل وطلقات نارية من هناك وعلى الفور وجه الرقيب "لوجوروت" المدفع الرشاش في تلك الجهة من غابة النخيل وأطلق وابلا من الرصاص مر يكسر سعف النخيل فأوقف زئير مدفع "بوتاسارت" الرهيب صوت الجلبة وأصوات المدافع الأخرى وانتهت الليلة في سكون تام.

علمنا من الغد يوم 14 يونيو أن ذلك كان "بكار ولد محمد ولد اسويد احمد" من "إيدوعيش" اللاجئين في آدرار هو الذي أخطأ زميلنا "دوفور" الذي كان من حسن حظه أن "بكار" كان يستعمل بنقديّة قديمة "رباعية" ولم تكن بيده بنقديّة أخرى.

كانت داخل غابة النخيل فرقة من أربعين محاربا قيل لنا إنها تتبع برمتها لأمير آدرار الذي كان على الهضبة الغربية المطلة على المعسكر ينتظر نتائج الهجوم الأول ليغير على المعسكر من الجانب المعاكس طبقا لاستراتيجية "البيضان" المعروفة ولكننا تعودنا على مثل هذه الحيل ولم تعد تتطلي علينا. فلم تكن القضية خاسرة بالنسبة للعدو فقط ولكن هدوء وصمت ورباطة جأش كل واحد منا والطريقة التي استخدمنا بها المدفع الرشاش كل ذلك يجعلني اعتقد شخصا أن المستقبل سيكون لصالحها فنحن بعيدون جدا من الفوضى التي كانت سائدة قبل 12 مايو. فلم يذهب ما أصدرته من أوامر صارمة ومتكررة أدراج الرياح فأصبحنا اليوم في حصن حقيقي. وكنتيجة لوقوع الهزيمة التي ألحقناها بالعدو، استطاع "حراطين" "كنته" في "الرشيد" أن يصدوا هجوما من "أولاد غيلان" على قرينتهم وبيعثون للإخبار بذلك وهكذا يكون الأمير قد جاء لسبر المنطقة فلقي مقاومة لم يكن يتوقعها وقد أخافته طريقة تعاملنا المبنية على المعلومات التي أوصلناها له عن طريق من ينقلون الأخبار لصالحنا ويزرعون الخوف لدى خصومنا من عددنا بعد أن كان يتوقع أن يجد أمامه في تجكجة ما لا يزيد على خمسين رجلا تسهل عليه السيطرة عليهم وهو كان ينتظر قدوم فرقة "أولاد بالسباع" دون جدوى وقد علمت أنه يفكر في العودة على أدراجه نحو آدرار. ومع ذلك فإن هذا العدد من المحاربين يثير قلقي إلى أقصى حد أكثر من أزمة الغذاء الوشيكة فأشعرت السلطة بذلك لأن رجالي في حركة مستمرة فكتبت: "سأشرع غدا 15 يونيو في تقسيط حصص الزنوج الذين لن يتلقوا إلا نصف حصة من الذرة ولكن رغم هذا التقسيط سأجد

نفسى خالى الوفاض تماما من الأغذية بحلول يوم 23 أو 24 يونيو". وكتبت في التقرير يوم 15 يونيو "ابتداء من اليوم ولغاية قدوم القافلة نجد أنفسنا مجبرين نظرا لقلّة ما في المخازن لأن نقوم بتفسيط الذرة وهكذا وحتى إشعار آخر لن نعطي إلا ثلاثة أرباع المقياس من الذرة لكل رجلين بدل رعين لكل رجل واحد وبالمقابل سنعطي لكل رجل ستمائة أگرام من اللحم بدل خمسمائة وقد أخبرت الرجال أن هذه الوضعية ستدوم زهاء عشرة أيام ولا مناص منها" من المكتوب أنني لن أجد القافلة الصغيرة التي كنت أعول عليها فقد وصلتني رسالة من المقدم "مونتاني" تحمل تاريخ 10 يونيو قادمة من "مال" جاء فيها "في ما يعني ما تطلبونه من توجيه قافلة صغيرة على الفور، فإن ما وصلني من معلومات أثناء الطريق والدراسة المتأنيّة التي أجريتها على تنفيذ هذا الطلب قد قادتني إلى العدول عن إرسال هذه القافلة لأن الإعلان عن قافلة كبيرة من ثلاثمائة وخمسين جملا متوجهة إليكم قد أسال لعاب قطاع الطرق وهم يترصون الدوائر فلا يمكن إذن أن تغلت منهم قافلة صغيرة ويصعب علي ما أنتم فيه من ندرة الغذاء وما نحن فيه من صعوبات في مجال التموين اعتقد أن المجازفة ببضعة أطنان من الأرز لتصل ثلاثة أو أربعة أيام فقط قبل قدوم قافلتنا المحروسة، من غير المجدي" ثم أضاف المقدم: "أنوي الوصول إلى تجكجة يوم 25 يونيو وأنا على وعي تام بما تواجهونه من مصاعب أشعر أنها في تزايد مستمر ولكنني أطلب منكم بذل جهد أخير فعلى ذلك يتوقف نجاح مهمتنا والتي من أجلها اعتمد على صمودكم وطاقتكم وإخلاصكم وحتى تضحيتكم".

كما شئت سيدي العقيد! ولكنني سعيد جدا لأنكم حددتم لي هذا التاريخ بيوم 25 يونيو أي نفس التاريخ تقريبا الذي سينفذ فيه كل ما معنا من زاد ولن يبقى لنا بد من شد الأحزمة، هنا لا يوجد ولا حتى حجر نقضه.

لاستكمال نظام جمع المعلومات عينت "عبدى ولد امبارك" يوم 16 يونيو في وظيفة مفوض شرطة مكلف بالقرية فقد بلغني ما يفيد أن الأمير قد زرع فيها جواسيسه ومن جهة أخرى عاد أحد من أرسلتهم إلى آدرار يوم 25 مايو وقال إن "أولاد بالسباع" قدموا لتعزيز صفوف عصابات الإغارة على تكانت وأن الأمير قد تلقى تعزيزات وأنه توجد في تكانت الآن تسعمائة بندقية معادية منها ثلاثمائة من النوع الأوتوماتيكي أجد صعوبة في تصديق هذه الأرقام فلا بد أنها من مبالغات "البيضان" المعروفة.

كان يوم 17 يونيو يوماً هادئاً وبما أن الحر شديد أول الليل كنا متمددين تحت العمود المركزي للبنى نتجاذب أطراف الحديث فوق الرمل الرخو وكانت الساعة العاشرة مساءً وفجأة قدم إلي المترجم "بوالمقداد" والملازم "استيفيان" وعلامات الانفعال بادية عليهما يصطحبان رجلاً من "تجكانت" عائداً من "آدرار" كان قد حضر إلى المعسكر وأصر على الدخول وعلى أن يستمع له على الفور فقلت له إن بإمكانه أن يتكلم أمام الجميع فجلس القرفصاء³⁷² وبدأ يحذرنا من أن الأمير يحوم حول تجكجة (كنت أعرف ذلك) على رأس ثلاثمائة وخمسين رجلاً من أهل آدرار وثمانين من "أولاد بالسباع" وهو يستعد للإغارة على المدينة وعلى المعسكر وهو ينوي إن استطاع أن يقتل "المختار ولد أحمد ولد عيده" ونجله.

أما مجموعة "أولاد بالسباع" الأخرى التي وصلت "تكانت" ومن ضمنها عدد من أصدقائي الشخصيين خاصة من "أولاد البكار" و"أدميسات" فقد امتنعوا عن محاربتني ولكنهم يتجهون نحو "التامورت" للإغارة على أعدائهم التقليديين من "كنته" وإن تطلب ذلك البحث عنهم حتى مركز "الحسينية" حيث يعتبرون أنفسهم في مأمن. أكثرية المجموعة الثمانين التي ترافق الأمير من "أولاد بالسباع" من الشباب من هذه السلالة المغامرة التي تجوب الصحراء الغربية وتحارب الجميع³⁷³ وهم مسلحون جميعاً ببنادق سريعة الطلقات ولكنهم الفرقة الوحيدة المتوفرة على مثل هذه البنادق ضمن حلف الأمير. أما هو فقد كان قرب "النيملان" يوم 16 يونيو ويبدو أنه ينوي السير على فرسه سالكا الطريق الطبيعي الذي تسلكه قوافل تمويننا. ومن المتوقع أن قدوم فرقة "أولاد بالسباع" سيرفع عدد جيشه إلى أربعمائة وعشرين بندقية وسيجعل مستشاريه يقررون الهجوم في أسرع وقت مستغلين حماس شباب "أولاد بالسباع" فكل تأخير سيجعل هؤلاء يسأمون ويتوجهون للانضمام إلى قومهم الموجودين في "التامورت" أو التوجه إلى جهة أخرى لغرض النهب.

يعتقد رجل "تجكانت" أن الهجوم سيقع الليلة أو غدا صباحاً وهو يلح على هذه النقطة فهدف العدو هو قبل كل شيء الإغارة على معسكر الفرنسيين وليس جميع القرية فما علينا إلا أن نبقي حذرين. صرفت رجل "تجكانت". وقد تحققت التوقعات في الساعات الأولى لصباح يوم 18 فما كادت الشمس تطلع حتى دوت صيحات الإنذار التي لم نعد نصدقها

³⁷² - هي الجلسة العادية عند أهل البادية إذ لا وجود للمقاعد لديهم فيتضايقون بسرعة إذا جلسوا بطريقة أخرى.

³⁷³ - من المعارف عليه لدى القبائل الحاملة للسلاح إرسال الشباب للمشاركة في الإغارات قبل الزواج كطريقة لتنمية مواهبهم.

لكثرتها انطلقت عن بعد جنوب المعسكر داخل غابة النخيل وكالعادة رأينا موجات صاخبة من الماعز والضأن ثم جاءت قطعان البقر تجري وثغاؤها يدوي في عنان السماء قد خفضت رؤوسها ورفعت أذيالها والرعاة يجرون خلفها ومن حولها يصفرون ويصرخون ويرفعون أذرعهم بالهروات في كل اتجاه ويضعونها على مناكبهم وبعض الجمال تجري ورؤوسها تتمايل وتهتز بسبب إثارته في هذا الوقت من الصباح ثم ظهرت هجمة من الحمير تجري وأذانها مصوبة إلى الأمام وخلفها الجحوش تجري وتتوقف فجأة لتسهل ثم تواصل الركض عند اقتراب العبد الذي يحثها من الخلف رافعا هراوته وتعالى حنين النوق كل واحدة تنادي فصيلها. ورؤوسها تدور في الهواء "كالأفعوان الأسطوري ذي الرؤوس السبعة" وقد جثا على كفل إحداها أشعث أغبر مقمل يتشبث بوبر ذروتها ويحثها إلى الأمام بالصراخ الحداء المتكرر في مثل هذه الظروف. ويلف جميع هذه القطعان غبار كثيف صبيحة هذا اليوم الحار الضبابي وتساعد هذه السحب من غابة النخيل يؤشر على تواصل النزوح وأن الصخب مستمر والسبب في ذلك يوجد في مؤخرة غابة النخيل الملتفة المعتمة التي لم يتراءى لنا منها شيء حتى الآن. وفي هذه الأثناء هرع أفراد فرقة الجمالة من داخل القرية يتنادون فيما بينهم محاولين شد الأحزمة على عجل كل واحد يحاول التقاط لثامه³⁷⁴ الذي سقط بسبب الجري وهو يحاول إدارته على شعره الكث أو تركه فوق كتفيه تعبت به الريح، يبدو أن الاستنفار حقيقي هذه المرة. كنا داخل المعسكر في مواقع القتال فأرسلت من يبحث عن المترجم لأعرف سبب هذه الضوضاء الصباحية فصعد "بو المقداد" على مهل يتحدث مع "عبدى ولد أمبارك" و"المقري" "طبيب إدوعلی" وكان هذا الأخير يتذمر بحركات قوية تدمر الرجل الذي أصبحت ممتلكاته في خطر. "إنه الأمير هذه المرة يقول "بو المقداد": قال "المقري" هذا إن معه كثيرا من الرجال المسلحين بعدد ما على هذا الكتيب من الحصى وأنهم قد استولوا على غنائم كبيرة أكثر بالضعف مما يموج هنا وإذا لم نتدخل بسرعة فإن "إيدوعلی" و"تجكانت" الموجودين في هذا النخيل سيفقدون كل شيء وفوق ذلك انظر هناك في الجنوب حيث مخيم "تجكانت" الذي جاء

374- اللثام أو "الحولي" قطعة من القماش تشبه الوشاح طولها نحو ثلاثة أمتار تدار حول الرأس وأحيانا حول الوجه كله (في حالة الغبار والأثرية). وعملية لف اللثام فن يشبه عقد ربطة العنق يشير إلى مدى مهارة صاحبه. ففي معركة "استينكرت" لم يجد ضباط "الويس" الرابع عشر الوقت الكافي لينقوا عقد ربطات أعناقهم وكذلك المحاربون البيضان هنا لم يجدوا وقتا لف اللثام كما ينبغي.

أمس واستقر هنا على بعد ثمانمائة متر من المعسكر لأنهم يخافون على أنفسهم قد بدأوا يجمعون قطعانهم وينقلون خيامهم لقد أصيبوا بالهلع إنها الحقيقة لا يتعلق الأمر بمزحة".

الواقع أن هؤلاء القوم يشبهون الدجاج حين يرى الصقر. لن نتركهم ينهبون أمام أعيننا لقد تلقى الحراس خمسين طلقة نارية لكل واحد وأذرتهم بأن هذا كل ما سيجدون لأنني أعرف أنهم يسرفون في استخدام الرصاص أمرتهم بالهجوم مشيا على الأقدام داخل غابة النخيل وأمرت المساعد بدعمهم عبر خمسة وعشرين من فرقة الرماة السنغاليين تتبعهم على الحاشية الشرقية للغابة وعلى الحاشية الغربية وراءهم بقليل سيسير الملازم "لوفيجيون" ومن حظ هذا الأخير أن فترته من الحراسة تعود دائما عند وقوع قتال. لا بد لي من فرقة احتياط تمكنني من تعزيز فرقتي للخروج عند الحاجة سيكون الملازم "شيروي" مع بقية كتيبته مناسبا للعب هذا الدور في حين يستولي الملازم "دوفور" ومعه نصف فرقة "البولار" على المناطق المحيطة بالموقع المعزول حيث كان الرماة السنغاليون أما جوانب المعسكر الأخرى فستبقى بتشكيلاتها إلا في حالة تغييرات طارئة. لم يبق لي سوى انتظار هجوم رجالي من "البيطان" ولن أعاني من الضجر طويلا. كان الملازم "دوفور" جاثما على سطح كوخه في الركن الشرقي من المعسكر حيث يرى كل شيء عن بعد وفي أسفل السور يتدافع شعب من المساكين³⁷⁵ حيث يعلو النواح والبكاء والصراخ والنساء تتعثرن في الملاحف الطويلة ترفعن طرفا بيد وبالأخرى تمسك تحت ذراعها طفلا يبكي أما الأطفال المراهقون فكانوا يجرون عرايا إلا من "غشابة" قد نفختها الرياح وهم ينظرون خلفهم من حين لآخر وقد انتصب على رأس كل واحد منهم "تبيب"³⁷⁶ إنهم زوايا صغار جناء. الرجال فروا هم الآخرون عاقدين أطراف ثيابهم وراء رقابهم وقد رفعوا أذرعهم العارية يتوقفون من حين لآخر لاستماع الضوضاء القادمة من الخلف كان المسنون والعجائز في هيئة القرفصاء على الحمير يدفعها العبيد بضربات متتالية بالعصي وهي تركض إلى الأمام لا تلوي على شيء لقد تعودوا على مثل هذا الفرار هذه الفوضى عمت جميع القرية وبقيت المواشي في "البطحة". أصدرت أمرا يوم 14 يونيو بنصب مدفع الرشاش داخل كوخ الملازم "دوفور" الذي كان يراقب الأفق فشهد عن بعد سحباً من الدخان الأبيض وتناهدت إلى مسامعنا طلقات البنادق بعد ذلك وقريبا منها في غابة النخيل

³⁷⁵ - مسكين: فقير ودائما الفقراء هم الذين يتعرضون أكثر لقدان القليل الذي يملكونه.

³⁷⁶ - حلاقة الأطفال حيث يتم حلق شعر الرأس باستثناء خط في الوسط يشبه ذؤابة الفرس ينطلق ما بين الجبهة ومؤخرة الرأس.

انطلق وابل من الرصاص الجاف. إن فرقة حراسنا تواجه طلقات من بنادق سريعة ما من شك أن الطلقات النارية رغم تأثير الأشجار قد أصبحت مكثفة وتططق بالقرب منا لكننا لم نر شيئاً في هذه الناحية. بقيت مذهولاً بعض الوقت فالطلقات النارية التي كانت تبتعد من الغابة بدت وكما أنها تركزت في مكان واحد فمعناه أن فرقة حراسنا لم تعد تتقدم، مرت لحظة من الرعب. ابتعد إطلاق الرصاص ولكن يا إلهي! أتمنى أن تكون هذه أصوات العدو يفرغ ذخيرته بلا فائدة ولست متأكداً من ذلك وعلى كل حال أعددت حقائب من الذخيرة لأرسلها إلى فرقة المقاتلين لأنني أعرفهم فهم لا يلتزمون بالأوامر أثناء القتال فلا تلبث في أذهانهم إلا قدر ما يلبث دخان بنادقهم في الهواء. الآن أسمع طلقات نارية أخرى على يميني إنها طلقات ذات وقع خاص ميزت من خلالها مدافع الفرقة الجزائرية ومن موقعي كنت أشاهد الهضبة في الأفق تغطيها سحب الدخان في ناحية الجنوب الشرقي وتعرفت من صوت الطلقات النارية على مدافع فرقة البيضان³⁷⁷ استنتجت أولاً من ذلك أن "لوفيجيون" قد اضطر إلى مؤازرة فرق "البيضان" بزحفه في ناحية اليمين لإخراج "أولاد بالسباع" المعادين من غابة النخيل حيث كانوا يقاومون فرقة حراسنا وأعرف أن أولاد بالسباع هم الذين يحتلون غابة النخيل إذ لم أسمع فيها إلا طلقات البنادق السريعة وهم وحدهم من يتوفرون عليها من بين أعدائنا. كما استخلصت أن "لوفيجيون" يواجه الآن الجزء الأكبر من جيش الأمير ومن رجال آدرار. لم أسمع حتى الآن فرقة السنغاليين التي يقودها المساعد ولا شك أن الملازم قد أمرها بالتأخر ليتمكن من دفع فرقة "البيضان" إلى الأمام لأنني ألاحظ أنها تتقدم نحو "راس أدرك" وبعد قليل شاهدت في مهبط الهضبة سبحة أخرى من الدخان إنهم رجالنا من "البيضان" الذين يتقدمون وهذا واضح ثم اختفوا عني ولم أعد أسمع طلقات بنادق العدو ماذا يجري؟ فهل تراجع فرقة الحراس؟ لغز محير!

في هذه الأثناء أطلق الملازم وابل من الرصاص على العدو من الناحية الجنوبية الشرقية وبواسطة المنظار الصغير كنا نميز أحد الأعداء على فرسه الرمادي وهو في حركة متموجة أخبرني بو المقداد أنه الأمير "ولد عيده" فهو لا يعرض نفسه كثيراً للخطر فهو على بعد ألف متر على الأقل من الجزائريين كما أنه بعيد جداً خلف مدافع رفاقه الذين يبدو أنهم

³⁷⁷ - مدافع: جمع مدفع وهو البندقية (الإشارة لـ"فرير جان").

قد شرعوا في التخلي عن فرقة "أولاد بالسباع" وتركها وحيدة على هضبة "راس أدرك" وكان أهل آدرار قد استولوا على باطن وسفح الوادي من الناحية الجنوبية الشرقية من "الأزرك" بالضبط في نفس المكان الذي يقال إن أمير "إيدوعيش" "بكار" كان قد هزمهم منذ اثني عشر عاما. توجد منطقة خالية بين فرقة "أولاد بالسباع" ورجال الأمير وفيها بالذات يوجد معبر "قم لأزرك" وسيحاول "لوفينجيون" اغتنام هذه الفرصة للتخلص من فرقة "أولاد بالسباع" وفي نفس الوقت يوقف تقدم المغيرين من أهل آدرار لاشك أنه سيحاول ذلك.

وهاهم الرماة السنغاليون يبدعون الهجوم في المنطقة التي كان فيها "البيضان" قبل قليل فطقطقت البنادق في الوقت الذي بدأ المدافعون على قم الصخور يطلقون وابلا من الرصاص وكنا نسمع صراخا وأغاني من البيضان ولا أظنهم "أولاد بالسباع" وهي أصوات قد تأثرت من بعد المسافة تقطعها طلقات المدافع من حين لآخر تصل إلى مسامعنا ليست صادرة عن فرقة السنغاليين التي لا تعرف مثل هذه الأناشيد وأنا أميز أصواتهم عند الهجوم إنها دون شك أصوات أناشيد فرقة "البيضان" ولكنهم لم يعودوا يطلقون النار ومعنى ذلك أن ذخيرتهم قد نفذت، يا لهم من مبذرين للبارود.

أبقتني طبيعة منسبي هناك داخل المعسكر فلزمني القيام بتصريف سلطوي، فأصدت أمرا يلزم كل واحد بالبقاء في مكانه بسبب ما تلقيته من إزعاج وإرشادات (نعم إرشادات) من اثنين أو ثلاثة من المغرورين حتى أنني وجدت نفسي مضطرا من الإزعاج إلى طردهما. أنا أعرف ما علي فعله وكل من هم حولي يقدمون دروسا في غير محلها ومن بينهم أصحاب سلوك غريب مثل هذا الدكتور الذي اضطرني إلى أمره بالتحاق بمحل عمله بين الحقن والإبر. فقد جاء مدججا بسلاحه محاولا إعطائي دروسا في الحماسة والقتال وهو متمنطق ببندقيته وعلى حقه مسدس وقد أحاط جسمه بحزام من الذخيرة ونظاراته فوق جبهته تحت قبعة من الحشيش وقد بدا صدره المغطى بالشعر في قميصه المفتوح. ولا ينقصه سوى علبة أعشاب على الظهر وشبكة لاصطياد الفراشات.

أما المسيو "أرنو" فلم يكن يثرثر وإنما كان يراقب ساحة المعركة بانفعال وقد انضم إلى لإبعاد الدكتور الذي بدأ يزعجني فعاد إلى مستوصفه ساخطا ليضع بهرجة الحربي.³⁷⁸ ولكن

³⁷⁸ -قدم "راندو" بده وصفا غير متوقع للطبيب الذي أسكرته رائحة البارود وتضايق منه "افرير جان" بشدة.

ها أنا أجد ما يشغله. فقد عاد للتو بعض فرقة "البيضان" يحملون اثنين من الرماة السنغاليين على جمل من الغنائم وجراحهما شبه خطيرة ومعهما جثة حارس من "البيضان" بعد أن قطعت رصاصة أحد أوداجه. وفي هذه الأثناء كانت المعركة حامية الوطيس. ماذا يجري؟

قص علي أحد الجريحين السنغاليين ما حدث. في حين تحدث "بو المقداد" مع أحد الحراس "البيضان" ثم أرسلت هؤلاء بأكياس ذخيرة معدة لزملائهم. وفي ما يلي سرد لما حدث على ساحة المعركة:

فقد تمكنت فرقة الجمالة "البيضان" (كومييات) من دحر مجموعة "أولاد بالسباع" الذين كانوا يحاولون التسلل داخل غابة النخيل ليصلوا إلى المعسكر. قد زحف الملازم "لوفانجيون" بفيلق الجزائريين إلى ناحية اليمين ليحاصر مجموعة "أولاد بالسباع" من هذا الجانب فانسحب هؤلاء من غابة النخيل وتسلقوا مرتفع "رأس أدرك" وتبعتهم فرقة "الجمالة" في الوقت الذي كان فيه الجزائريون يتصدون في ناحية اليمين، لوابل من بنادق "أهل آدرار" الذين استقبلوهم بالنار فور بروزهم من غابة النخيل. كان رجال الأمير يقاتلون على طريقة "البيضان" المعهودة حيث يطلق بعضهم بنادقه من مسافة بعيدة للفت الانتباه في حين يتسلل البعض لاحتلال المواقع المناسبة لتصويب طلقات بنادقهم السريعة تمنع "أولاد بالسباع" فوق "رأس أدرك" وصدوا أمام هجوم "الجمالة" الذين كانت ذخيرتهم على وشك النفاد. انبطح "الجمالة" على الأرض بعد نفاذ الذخيرة في حين شرع الشباب في الرقص والإنشاد بحماسة وفي هذه الظروف قتل رجل "الجمالة" أحمد سالم ولد التايب" الذي جاءت جثته كما ذكرنا سابقا بعد قليل كانت فرقة الرماة السنغاليين "التيرايبير" تتدخل خلف فرقة "الجمالة" في هجومين أحدهما يقوم به فيلق يطلق النار بالتوازي مع تقدم الفيلق الثاني، فانبطح أفراد فرقة "كومييات" تفاديا للإصابة برصاص الزنوج. وحين التحق بهم هؤلاء انطلق الجميع على خط واحد.

ولكن ثلاثة أرباع هؤلاء لم يعد في وسعهم إطلاق النار بسبب نفاذ الذخيرة، فشرعوا يغنون ويصرخون لتخويف العدو ذلك ما أخبرني به كل من الجريح السنغالي و"بو المقداد". نظرت مجددا وسمعت إطلاق نار سريع يتبعه صراخ حاد عرفت أنه صراخ فرقة "الرماة" السنغالية وهي تقوم بالهجوم. ولكن الهجوم توقف واستؤنف إطلاق النار السريع من جديد بشكل أعنف ثم تلاه هجوم ثاني فتوقف وآخر تفوق الفرقة المتمركزة على رأس أدرك بسبب موقعها الاستراتيجي هو السبب وكان علي أن أنتظر حتى أسمع خمس مجموعات من إطلاق

النار المتتالي وخمس هجمات متتابعة. وكنت في السابق قد فكرت في إرسال فرقة الاحتياط ودعوت الملازم "شيروبي" وأرسلته لتعزيز فرقة المساعد كما أنني صوبت المدفع الرشاش من أعلى السطح وقد وضعت حزاما على مسافة ألف ومائتي متر كان ذلك أمرا عاديا جعلته فوق موقع فرقة الرماة السنغالية السائرة في الأسفل ولكنني لم أجد سببا لاستخدام هذا الإجراء الاحتياطي.

لم يعد أمام الملازم "لوفيجيون" أي شيء يدل على وجود العدو الذي دحره الجزائريون رغم بسالة رجال الأمير وتفوقهم عددا لم يجدوا بدا من الهروب تاركين مجموعة "أولاد بالسباع" تواجه مصيرها منفردة ومن جهة أخرى توصلت فرقة "الجمالة" بالذخيرة التي أرسلتها إليها وبمؤازرة هذه الفرقة تقدم المساعد بفرقة الرماة ليهاجم من جديد فرحف الجزائريون بسرعة على الجانب الأيسر "الأولاد بالسباع" وفي نفس الوقت زحف الملازم "شيروبي" بتعزيزاته على الجانب الأيمن. تحطمت مقاومة مجموعة "أولاد بالسباع" أمام هذا الهجوم المنسق فرأيناهم يفرّون في اتجاه ممر "قم لأزرق" حيث لم يتمكن الملازم "لوفيجيون" من أن يسبقهم لاحتلال الممر أما "راس أدرق" فقد كان تحت سيطرة رجالنا وكان الجزائريون يطلقون منه وابلا من الرصاص باتجاه العدو أثناء عبوره المعبر وفي هذه اللحظة وصل الملازم "شيروبي" بتعزيزاته وتمركز فوق هذه الهضبة برجاله المنهوكين. كان اليوم في صالحنا تماما فالعدو يفر وقد انقسم شطرين غير متساويين فمن الإنصاف أننا إذا لاحظنا أن مجموعة "أولاد بالسباع" المناهضة لنا كانت قد استماتت في القتال ونجحت في الصمود أمام قوات تفوقها عددا وعدة فذلك بفضل ما لدى هذه الفرقة من سلاح سريع وأيضا بسبب موقعها الرائع أما مقاتلو "آدرار" المعروفون فقد تصرفوا بصورة مخزية رغم عددهم الكبير فقد فروا أمام حفنة من الجزائريين تاركين حلفاءهم من "أولاد بالسباع" في ساحة الوعى وهو ما لن يغفره هؤلاء الحلفاء لأهل آدرار بسهولة.

بقي المقاتلون متمركزين على الموقع الذي استولينا عليه لكي يقضوا فيه ساعة القيلولة وكانت فرقة الرماة وهي على قدر من الراحة بقيادة الملازم "شيروبي" تتولى الحراسة بينما كان رفاقهم المنهوكين يخلدون إلى الراحة.

وكانت فرقة "الجمالة" أثناء هجومها مع فرقة "الرماة" السنغاليين بقيادة المساعد قد التقطت أحد رجال "أولاد بالسباع" مسنا بعض الشيء وكان طريح الأرض منذ بداية الهجوم

بسبب رصاصتين في الصدر وقد طعنه "الرماة" السنغاليون بحرابهم. معتقدين القضاء عليه. ولكنه ما زال يتنفس وقد تعرف عليه أفراد "أولاد بالسباع" الموجودون معنا ضمن فرقة "كوميات" وقد جاء به "أحميد" قائد مجموعة "أولاد اببيري" العاملة معنا بعد أن ربطه خلفه على الجمل فقفز "أحميد" في راحلته وأسرع به إلي فإذا كان سيتكلم فسأخذ منه بعض المعلومات وكان "أعمر ولد ببكر" "حرطاني أولاد بالسباع" الذي سدد الضربة القاتلة للأمير بكار في "بوكادوم" قد امتطى جملا من الغنائم وسار خلف "أحميد" ليراقبه خوفا من أن يقتل الأسير أثناء الطريق والحال أن الأسير من وجهاء "أولاد بالسباع" وهو أحد قادة فرع "أدميسات" واسمه "الولي" استقبلته في البداية بجفاء لقد كنت حانقا على "أولاد بالسباع" لأنهم قاتلوا ضدي رغم ما قدمته لهم من خدمات فما كاد الجمل يبرك حتى قطع "أحميد" بسكينه الحبال فسقط الرجل على الأرض وتقلب عدة مرات فأوسعته سبا وشتما ولكن فكرة سريعة خطرت لي فيمكن أن استخدمه لزرع الفرقة والشقاق في صفوف العدو خاصة وأن أهل "آدرار" تصرفوا بطريقة دنيئة اتجاه حلفائهم من "أولاد بالسباع". فافتعلت الدهشة عند سماع اسمه ليظن أنني أعرفه فقلت إنه ابن عم صديقي قائد "أدميسات" ولد الشيخ المختار فبدأت أطف الحديث بسرعة وأرسلت من يبحث عن الطبيب وطلبت منه فحص جراح الأسير. فبدأت علامات الدهشة على وجه "الولي" حين رأى من كان يقاتلهم قبل قليل يعتنون به ويعالجونه متظاهرا بعدم المبالاة بالمصير الذي ينتظره ربما لأنه كان على يقين من أن جراحه قاتلة وستنقضي عليه فشكرني وأعلن أن أفرادا آخرين من "أولاد بالسباع" قد انفصلوا بتجاه "تامورت أنعاج" بدل قتالنا في تجكجة قائلا إنه لو كان قد تحلى بالحكمة لفعل مثلهم ولكنه فضل السير مع أبنائه ولكن الحظ لم يكن حليفه ونصحني بالكتابة إلى "أولاد بالسباع" الذين سوف ينتقمون من "أهل آدرار" الذين خذلوهم وتطوع بحمل رسالتي مؤكدا أنه إذا قص عليهم معاملتي له سوف يسهل ذلك قدومهم. كان الطبيب متأكدا من مصير الجريح فصدده قد اخترقته ثلاث رصاصات في نفس الوقت كما فتكت طعنات الحراب بأمعائه كما أن الطريقة التي نقل بها على جمل يجري بأقصى السرعة تحت ضربات هراوة "أحميد" لم يكن من شأنها تحسين وضعه الصحي ولكن قد يبقى على قيد الحياة وبعد تضميد جراحه سلمته إلى المترجم وفي المساء طلب الأكل وهو أمر سيعجل بموته فأعطيته لتر اللبن الوحيد الذي كان معنا فشكرني والدموع تترقرق في عينيه. ولكن ما باليد حيلة فقد مات تلك الليلة وطبعا تهكم أكثر

من واحد على الطبيب بطريقة لاذعة حين قالوا إنه قد نجح في تضميد الجريح ولكنه قضى عليه. لقد أحسن الطبيب "كامبور" التصرف بعد مهزلته الصباحية وفوق ذلك لقد كان أكثرنا جميعا ارتياحيا للانتصار الذي حققناه فقد كان يذهب جيئة وذهابا وعلى رأسه قبعة الحشيش وهو يؤكد أن الجرحى سيقفون على أقدامهم في أقرب وقت.

والواقع أن نجاحنا يستحق كل ذلك فقد استعدنا جميع الممتلكات المأخوذة صباحا وهرب العدو وبلغت خسائره عشرين قتيلا وزرعنا بذور الشقاق في صفوفه عن طريق استغلال التصرف غير اللائق الذي بدر من أهل "آدرار" حين تخلوا عن حلفائهم في ساحة المعركة فأصبح الطريق من الآن فصاعدا سالكا بالنسبة لقافلة المؤن المتوجهة إلينا. هذا بالإضافة إلى ما ستركه من أثر على معنويات كافة التجمعات في البلد كانت تلك هي النتائج الأولى لانتصارنا. كما أن فرقة "الجمالة" التي أرسلتها لتقصي الأخبار حول تجكجة قد أخبرتني أن جل العصابات قد خرجت من المنطقة وأولها الأمير وفرقته فقد ابتعد يجر أذيال الخيبة وقد يكون دخل آدرار حيث سيتصل "بحسنه" نجل "ماء العينين" الذي سيساعده على تهدئة غضب "أولاد بالسباع" ولكن خبر هزيمته في "راس أدرك" كان قد شاع وسبقه إلى آدرار الذي تعرض لهجمات أخرى من الشمال والغرب من "أولاد بالسباع" الغاضبين على الأمير وهم ينهبون مناطق آدرار وكان فريق "أولاد بالسباع" الذي كان موجودا في "تامورت أنعاج" قد انضم إلى رفاقه المهزومين في "راس أدرك" وغادر الجميع منطقة آدرار غداة المعركة متوجهين إلى "آدرار" وقد تملكهم الغضب على الأمير وجماعته فأصبح هؤلاء بين نارين وبين كتلتين من "أولاد بالسباع". وجهت تقريرا يوم 21 يونيو إلى المقدم أنقل له فيه تفاصيل انتصارنا وأعتقد أنه أصبح قريبا منا وبما أنني أعتقد في وجود بعض الأعداء المهاجمين يختبئون في الخلاء خاصة وأن بريدنا الأخير قد تم اعتراضه عليه في "النيملان" فكتبت برقية مشفرة على ورقة من علبة السجائر وأعطيتها للدليل "الديماني" داخل عظمة فخذ³⁷⁹ فلن يفكر أحد في أخذ هذه العظمة التافهة الموجودة داخل "التاسوفرة" الصغيرة ضمن أشياء أخرى عديمة القيمة قد لفها صاحبنا في خرق من القماش الملون البالي ووضعها على كتفه إذا كنت قد عالجت بشكل موجز في هذه البرقية قصة انتصارنا فإنني قد ركزت فيها على ما نعاني من بؤس:

³⁷⁹ - تم استخدام هذه الطريقة عدة مرات.

- "لم يعد عندنا غذاء إطلاقاً سوى لحم الحيوانات الهزيلة والتمور الجافة عندنا ما يكفي ثلاثة أيام فقط من هذه الأشياء فمن المهم أن تأتي القافلة يوم 25 فأخبروني عن الجهة التي ستصل منها سأذهب لاستقبالها إذا كان رجالي يستطيعون المشي بسبب شظف العيش أنا بدون مؤونة غذائية منذ العاشر من الشهر تقريبا ولا يمكن أن ننتظر لفترة أطول".

تصادف هذا البريد مع بريد آخر من المقدم الذي كان يعتقد أننا ما زلنا في المأزق فرسالته بتاريخ 18 يونيو تقول إنه تلقى في "الحسينية" الرسالتين اللتين بعثتهما يومي 14-15 يونيو:

- "سأستأنف المسير بعد غد أي يوم 20 يونيو يقول المقدم وأنوي الوصول إلى تجكجة يوم 24 وهو التاريخ الذي تقولون إن مؤنكم تمكنكم من الصمود لغايته أكد لكم تعليماتي الواردة في رسالتي بتاريخ 10 يونيو وأجدد لكم التعبير عن ارتياحي لكل الترتيبات التي اتخذتموها للقيادة المؤقتة لبعثة تكانت-آدرار خاصة في هذه الظروف الصعبة التي اجتزتموها قبل حين".

وفي نفس البريد وصلت رسالة من النقيب "سيكولي" بتاريخ 11 يونيو يقول فيها:

- "لن أعود، على الأقل بسرعة، إليكم وليس بوسعي إلا أن أقول لكم كم كان انفعالنا قويا حين علمنا بالأحداث الأليمة التي وقعت في تجكجة ولكن لا بد أن أعبر لكم أيضا عن إعجابنا بمقاومتكم والطاقة التي واجهتم بها الوضعية الصعبة وثقتكم في المستقبل ليس من مهمتي أن أقول لكم ذلك ولكن ما أقوله مجرد رجوع صدى لما نسمعه عنكم".

لقد أنستني هذه الاعترافات المريحة نداء المقدم "مونتاني" في رسالته بتاريخ 10 يونيو حين استحث تضحيتي. لقد تذكرت ذلك بسرعة.

بعد هزيمة الأمير:

يبدو أننا، بعد انتصارنا يوم 18 يونيو، لم نعد بحاجة إلى الإجراءات الأمنية المتخذة وهذه عقلية فرنسية بحتة انخفض مستوى اليقظة لدى الرجال ولدى بعض الضباط تابعت مراقبة ضواحي "تجكجة" و"الكصر" القرية نفسها بواسطة ما لدي من "جمالة" أو شرطة. فعلمت أن "أولاد غيلان" وهم أساس عصابة أمير "آدرار" ما زالوا يحومون في مناطق تكانت

رغم هزيمتهم يوم 18 يونيو في "راس أدرك". وهم يراقبون حركتنا بجواسيسهم وما لديهم من متعاطفين داخل القرية نفسها. ما حدث إثر هذه الأنباء أثبت عدة مرات مدى إطلاع العدو بدقة متناهية أفعالنا وتحركاتنا. ونكتفي، كمثال على ذلك، بكون الفرقة التي هاجمت المعسكر ليلة 12 مايو قد اختارت لحظة انشغال حارس البوابة باستقبال اثنين من سكان القرية، لتغير مندفعة نحو هدفها. كما أن عمليات السطو الجريئة التي قام بها "أولاد غيلان" هنا وهناك فرادى وجماعات، قد أثبتت لي وجود متآمرين معهم داخل القرية. وقد أخبرني أكثر من واحد من "إيدو علي" الذين أفلتوا من قبضة أمير "آدرار"، أن هذا الأخير يدبر لاغتيال "المختار ولد عيده" ونجله "سيد احمد" للاجئين عندنا، فقد تبجح أمام مخبري أنه سيستطيع ذلك بسهولة. وفي نفس الوقت الذي أنذرتني فيه "إيدو علي" بما ينويه أمير آدرار، اكتشفت مؤامرة أخرى يدبرها "إيدو عيش" لاغتيال "ولد الحامد" داخل "لكصر" والقيادي الوحيد الذي بقي معنا من "كنته" بعد موت "كبولاني". في هذه الوضعية، ونظرا لأننا بفضل تحركات فرق "أولاد غيلان" حولنا رغم انتصارنا يوم 18 يونيو، قد بقينا في حالة استنفار، فقد اتخذت بعض الإجراءات.

فمع المحافظة على اليقظة الصارمة حول المعسكر، أحكمت تنظيم شرطي داخل "لكصر" اعتمادا طبعا على "عبدي ولد امبارك" ولكن أيضا بإسكان فرقة من "الجمالة" داخل "لكصر" لجعلها هدفا للاغتيال فأخبرت أفرادها بالخطر الذي يتربص بكل واحد وكان من المقبول إطلاق النار فورا على أي رجل يوجد متلبسا بمحاولة التجسس أو التآمر ضدنا في الداخل. كما يتم إطلاق النار خارج "لكصر" والمعسكر عند رؤية أي مشتبه فيه. مازلنا في حالة حرب مع "آدرار" الذي فرض علينا حصارا من حسن الحظ أنه رفع الآن ولكننا مازلنا مهددين من هذا العدو.

مازلنا تحت تأثير هجوم 18 يونيو الذي اكتسى طابع الجرأة والتجاسر من العدو على مهاجمتنا حتى داخل معسكرنا لقد ربط "المختار ولد أحمد عيده" ونجله مصيرهم بقضيتنا وهو ما لم يفعله "ولد الحامد" القيادي من "كنته" لقد أخبرنا "الجكني" الذي أنذرتنا يوم 17 يونيو بقدم الأمير ورجاله أن أحد الأهداف الرئيسية للأمير هو اغتيال خصميه اللاجئين عندنا. بعد معركة 18 يونيو بثمان وأربعين ساعة، أحضر لي "المختار" ونجله "سيد أحمد" أحد "حراطين" "أولاد غيلان" أمسكاه داخل القرية كنت قد تلقيت بشأنه المعلومات الآتية:

هذا الزنجي كان في البداية عبدا لدى "إيديشلي" ثم استمر كذلك لدى "المختار ولد أحمد عيده" الذي تخلص منه أو حتى طرده إثر عدة اغتيالات وعمليات سطو، فلجأ إلى "أولاد غيلان" حيث وجد جو التلصص الذي يناسبه، فعتقه "أولاد غيلان" وأصبح "حرطانيا" تابعا لهم. ولكنهم طردوه بعد ذلك بقليل بسبب سلوكه فهرب إلى "تكانت" فحاول مواصلة حرفته داخل "كنته" عند "تامورت أنعاج". ولكنه بعد مغادرة آدرار قد حافظ على علاقات خاصة مع "أولاد غيلان" فكان يؤدي لهم في "تكانت" خدمة الدليل والمخبر ويشارك في غاراتهم وسطوهم المريح وسهل أمره كون "كنته" الذين يعيش بين ظهرانينهم متحالفين مع "أولاد غيلان". ولكنه بعد قدوم "كبولاني" إلى "تجكجة" بداية شهر إبريل قد غادر حي "كنته" بعد تحالفهم معنا لأنه يبغض النصارى وخاصة الفرنسيين منهم، وذهب ليستقر في حي "لكصر" بتجكجة نفسها حيث يكثر "الحرطين" فكان يريد أن يبقى غير معروف بينهم. فتسلل إلى هذا الحي صحبة شقيقه الأصغر منه سنا ومنذ ذلك الوقت وهو يعيش مع صانع تقليدي "امعلم"³⁸⁰ يدعى "سدات"، كان هذا اللص المحترف، يشاركه، ليس فقط زاده وكسوته، ولكن أيضا زوجته. فمنذ ثلاثة أشهر وهذا "الحرطاني" يعيش هكذا، ولكنه أصبح، كعادته حيثما حل، مصدر رعب لجيرانه، ومع ذلك كان يتحاشى ملاقاته سيدة السابق المختار ولد أحمد عيده. إذ سيتعرف عليه فوراً إذا صادفه، ولكنه جازف يوم 20 يونيو بالاقتراب من سكن أمير "آدرار" السابق ونجله ليتعرف على أخبارهما ويراقب تحركاتهما. ولكن "إيدوعلی" أخبروهما بوجوده فحمل الأمير السابق ونجله سلاحهما وأمسكا بالحرطاني وقدا به إلي.

فأخضعت له لاستجواب أولي فأظهر بعض الغرور ولم أحصل منه على شيء، وبما أن الوقت كان متأخرا فقد قررت تأجيل التحقيق إلى غد 31 يونيو وسلمت أمر الرجل للملازم "استيفان" ولم يكن لدى هذا الأخير مكان ليحبسه فيه فربطه بجذع نخلة وحين لاحظنا أنه يحاول حك الحبل باستمرار على الجذع للتخلص من وثاقه والهرب اجتهدنا في شد وثاقه وبينما هو هكذا مشدود الوثائق كلفت به بعض من نسميهم "الكباش" ليستتقوه وهم من الجزائريين والبيضان المخلصين.

³⁸⁰ - يحتل الصانع التقليدي "امعلم" في مجتمع البيضان التقليدي الرتبة الأخيرة في السلم الاجتماعي إلى جانب المطرب "إيكيو" فسلوك هذا الحرطاني لم يكن ليوافق عليه غيره من الحرطين فمعناه أنه متشدد أو منبوذ.

فزعم في البداية أن ما شاع عن كونه "حرطانيا" لأولاد غيلان غير صحيح وزعم أنه "حرطاني" للشرفه في تكانت ولم يخطر له أن "الشرفه" ليسوا سوى أبناء عمومة ولد مولاي الزين الذي قتل كبولاني فلم تكن هذه النسبة لتساعده اتجاها أكثر من انتسابه لأولاد غيلان، بعيد من ذلك! وفي الليل غير رأيه وأعلن بكل صراحة للفرقة التي تستجوبه إنه فعلا من أولاد غيلان ثم حاول صرف أنظارهم وبدأ في سرد قصص مختلفة فزعم مثلا أنه في ليلة 12-13 مايو رأى امرأة في "لكصر" ذكرها بالاسم قال إنها كانت تؤوي في دارها قتلة "كبولاني" ولم تكن هذه المرأة في الواقع سوى المرأة التي أسكنت عندها فرقة الجمالة من "أولاد أعل" وإن افترضنا ما يزعمه (وهو ما سيتناقض مع الأحداث اللاحقة) من أن فرقة جمالتنا قد تأمرت مع قتلة "كبولاني" فمن المستحيل موضوعيا إيواء كل هذا العدد من الرجال في المحل الضيق الذي تسكن فيه امرأتان وبقية أفراد أسرتهما مع خمسة عشر من "أولاد أعل". فالحرطاني يكذب إذن لصرف الانتباه عن شخصه ومن أجل تضليل التحقيق في اتجاه آخر. فانقلب عليه تدبيره. استدعيت "عبدي ولد امبارك" الذي كنت قد أوفدته كصاحب شرطة في القرية واستدعيت معه "سيدي ولد اخليفه" مسؤول الحي الذي يقيم فيه الحرطاني فأكدنا بأدلة كثيرة اتهام المرأتين ومن جهة أخرى صرح المختار ولد احمد ولد عيده ونجله بإلحاح أن هذا الرجل لم يكن فقط قاطع طريق ولصا محترفا وإنما هو أيضا مكلف باغتيال المختار ونجله. فاستدعيت وجهاء القرية وطلبت رأيهم فيه فاستغربوا جميعا كوني لم أتعرف لأول وهلة على نمط حياة هذا الحرطاني وهو المعروف لدى الجميع وفي وضوح النهار أنه كان يرتبط بعلاقات وطيدة مباشرة أو بواسطة أخيه مع الأعداء. ولكنه كان يبعث الخوف لدى الجميع فلم يكن أحد يجرؤ على الحديث عنه فاعتقدت أن كثيرين غيره من سكان القرية قد يكونون متورطين في عمليات مماثلة وأنه أنما تم كشف أمر الحرطاني لصرف نظري عن الآخرين فالبعض يخاف من كشف أمره عبر ما سيدلي به من تصريحات. وبما أنه الآن قد وقع في المصيدة فتلك قضية أخرى فهم يعتقدون أن إثبات التهمة عليه وحده سيجعلني أكتفي به ولا أوسع البحث إلى غيره. فاجتهد ثلاثة من الوجهاء على إقناعي بأن تعامل هذا الحرطاني مع العدو أمر واضح يعرفه الجميع كالشمس في رابعة النهار وأن أخاه كان يرأسه وهو الآن في حي الأمير وقد رآه هناك بعض "إدوعي" وأن هذه المؤامرة مستمرة منذ قدم الفرنسيون إلى تجكجة. ثم أكدوا لي أن هذا اللص مستعد لفعل أي شيء ومن المعروف أنه طرد عدة مرات بسبب سلوكه اتجاه

الكثير من القبائل وناشدوني بكل إلحاح أن أخلصهم منه قائلين إنني إذا أطلقت سراحه لن يستريح أحد من السكان المسالمين في القرية. ومهما كانت الحال هناك أمر مؤكد هو أن هذا الرجل جاسوس للعدو وهو لذلك يستحق القتل رميا بالرصاص ففي زمن الحرب لا وجود لمعاملة أخرى غير هذه للجواسيس كما أنني لا يمكن من جهة أخرى أن أطلق سراحه إنه مجرم حق عام ولا يمكن أن أعرض "الدوولي" لانتقامه في القرية ولا أن أعرض حياة المختار ونجله للخطر ومن المعروف أن زعماء البيضان يكلفون عادة أتباعهم من الحرطين بعمليات اغتيال العدو فالرجل الذي بين أيدينا هو دون شك الرجل الذي يعول عليه أمير آدرار. فاستشرت في المسألة بعض الأوربيين الذين كان لهم نفس الرأي وذكروني في هذا السياق بما حصده "كبولاني" كجزء لتسامحه مع رجل "إيديشلي" الذي كان سجيناً ولم يكن لصاً محترفاً ولا جاسوساً. إن من الخطير دائماً أن نخلي سبيله أو نتركه يهرب وهذا ما لم أكن أريده أبداً. ولم تكن لدي الوسائل من جهة أخرى للاحتفاظ بالسجين إلى ما لا نهاية فليس لدي محل بأبواب تغلق وليس لدي حراس أثق بهم تماماً وأتأكد من أنهم يستطيعون حراسته ولا يمكن أن أتركه يستمر مشدود الوثاق مربوطاً على العمود. فهو على كل حال يستحق الموت للأسباب التي ذكرتها سابقاً مع ملابسات تشديد مشددة أخرى. ولم يكن من المفيد تشكيل محكمة عرفية فالمعلومات الوحيدة المتاحة قد استنفدها التحقيق العميق الذي قمت به سابقاً فأصبحت قضيته واضحة ولن أستشير أحداً إلا وكان له نفس الرأي الصارم في نتيجة المحاكمة حسب ما لاحظته وبالتالي سلمت الحرطاني للرقيب "مدجيكان" وأعطيته أمراً بإعدامه بالرصاص خارج المعسكر في غابة النخيل.³⁸¹ خضعت سنة 1906 للاستجواب أمام مجلس التحقيق بسبب عدم احترام الإجراءات في إعدام هذا الرجل ولكوني لم أشكل محكمة عرفية كما فعلت سابقاً في حالة "أحمد ولد أباه". وهكذا كانوا يأخذون علي تقديم هذا الأخير لمحكمة عرفية ويأخذون علي عدم تقديم الجاسوس لمحكمة عرفية أيضاً وهو مأخذ يجافي المنطق فإما أن أكون مخطئاً أو مصيباً؟ وقد توصل المجلس في النهاية إلى أنني كنت مصيباً.

لن أعود إلى المسألة ولكنني سأسوق الأسباب التي جعلتني لم أكن أرى ضرورة لإشاعة أمر إعدام هذا الجاسوس في مثل هذه الظروف فلا شك أن الجميع يتذكر مدى

381- أورد "روبيرت راندو" هذه الحادثة في كتابه "المستكشفون".

الإلحاح والصرامة في العقاب الذي مارسته لمنع سرقة التمور حتى على رجالي من الزوج والجزائريين فكل الذين عاقبتهم كنا قد قبضنا عليهم متلبسين بالسرقه ولم يمنع ذلك من معي من الزوج من أن يتهموا البيضان بأنهم هم الذين وشوا بهم وهم يضمرون لهم الحقد لهذا السبب.

كتبت في التقرير يوم 31 مايو:

العمال التابعون للبعثة يستغلون وجودهم قرب غابة النخيل لسرقه التمور رغم التحذيرات وما أنزلته من عقاب بالمتورطين في ذلك لقد عاقبت بشدة على مثل هذه المخالفات كلما علمت بها ولكن رغبة هؤلاء كانت شديدة خاصة بالنسبة للزوج وحتى بعض الجزائريين أحيانا. لقد ساءت الوضعية من هذا الجانب طيلة شهر يونيو بالتزامن مع نضج التمر فتعارض المصالح كان يتحول إلى خصام وكانت الرغبة في سرقة التمور شديدة بسبب تقسيط المواد الغذائية وبنفس المستوى كان حرص البيضان على منتج نخيلهم وهم معروفون بشحهم وجشعهم³⁸² كلما اقترب الحصاد فتأزم العلاقات بين الفئات الاجتماعية بلغ درجة يستحيل معها إعدام جاسوس بصفة علنية يوم 21 يونيو فلم يكن من اللازم تأزيم المشهد بإطلاق الرصاص عليه علنا أمام الجمهور فإن بني جلده الحاقدين أصلا على البيضان سينتقمون منهم. فقررت إذن إعدام الجاسوس بصفة سرية تقاديا لتأزيم الوضع وحدث مذبحة ونشوب العنف من جديد ومن أجل أن أتفادى نهب غابة النخيل. كما أنني كنت متأكدا جدا أنني سأقدم تقريرا شفهيما عما قمت به إلى المقدم "مونتاني" فور قدومه.

ومنذ ذلك الحين كان تصرفي موضوع نقد شديد حتى اعترفت الجهات الرسمية بأني لا يمكن أن أتصرف بخلاف هذه الطريقة ذلك هو المأخذ الثالث والأخير الذي قادني سنة 1906 إلى المثل أمام مجلس التحقيق. راودتني بعد انتصارنا يوم 18 يونيو فكرة اغتنام فرصة الانتصار من أجل الدخول إلى آدرار ومطاردة الأمير المنسحب فقد بدت لي الفرصة سانحة فآدرار لم يكن يتوفر بعد على الأسلحة السريعة وكان المحاربون أقل حماسا وجماعة أولاد بالسباع ممتعضة من سلوك الأمير اتجاهها في معركة "راس أدرك" وقد انفصلوا عنه تماما وكذلك الدخول المدوي لنحو ثلاثمائة وخمسين من "أولاد بالسباع" الغاضبين والمدربين

³⁸² - يمثل حصاد النخيل دخلا مهما لأصحابه وهو مكمل غذائي يمتاز بقابلية الادخار وفي بلد فقير يكون كل مصادر الدخل مهما مهما كان حجمه.

جدا والمسلحين بعد أن كتبت لهم وهم يعرفونني شخصيا. ما زال عدد رجال البعثة يتجاوز أربعمئة وخمسين بندقية وإذا تركت مائة رجل في حماية مقرنا في تجكجة يمكن أن أشكل فيلقا من ثلاثمئة بندقية على الأقل ولا أشك في أن فيلق الدعم الذي يقوده المقدم "مونتاني" سيصل بسرعة لا ليحل محل الثلاثمئة بندقية ولا لكي يتبعها بقافلة من المؤن الغذائية الكافية.

وفي انتظار ذلك، سواء تعلق الأمر بالمؤن الغذائية أو بوسائل النقل، بإمكان "إيدوعلي" الذين دافعنا عنهم باستماتة (فقد حافظنا على قطعانهم) أن يوفروا لنا ما هو ضروري من وسائل النقل عبر التسخير كما فعلنا سابقا في منقطة "العكل" سنة 1904.

وإذا ابتعدنا كثيرا فسنحصل على وسائل النقل، كرها أو طوعا، لأن "كنته" الذين يزعمون محالفتنا ولم يقدموا لنا حتى الآن مساعدة ذات بال، سنمنحهم الفرصة هذه المرة لكي يثبتوا صدقهم أو نأخذ مهم بالقوة ما نستطيع به المسير على أن يلتزموا مكانهم. كما أن سلوك ولد الحامد زعيمهم الحربي الذي ما زال تحت قبضتنا يؤشر على أن من الأفضل مواصلة المسير بدل البقاء في مكان واحد، فمن الأفضل أن نضعه أمام مسؤولياته ونفرض عليه أن يثبت لنا ما يدعيه من نفوذ بصفة ملموسة وسوف نتأسف لاحقا ربما، أو نندم على الأصح إن لم نقم بذلك فغزو آدرار يمكن أن يعود بالفائدة عليه من الناحية المادية وهذا يجعله وقومه مستعدين للمسير خلفنا. وتسير الأمور على ما يرام بالتفاهم باعتبار أن الوسائل الضرورية لانطلاقنا قدمها "إيدوعلي" فإننا نعول على أن يقدم لنا "كنته" ما هو ضروري لدخول آدرار وفي حالة نكوصهم عن ذلك وبالتالي حملهم لنا على تفنيشهم بالقوة فإننا بذلك ندفع "إيدوعيش" إلى الانضمام إلى صفنا لأنهم سيوجدون معنا في نفس الخندق فهم يعادون بشدة أهل آدرار وبنفس الدرجة كذلك يعادون "كنته".

أشرت سابقا إلى عدة محاولات فاشلة للتقارب بيننا وبين "إيدوعيش". فما نمحه من امتياز "لكنته" يحول دون تحمس "إيدوعيش" للقدوم إلينا رغم أن "إيدوعيش" قد أوقفوا تقدم أهل "آدرار" حين اتجهوا إلى تكانت، وأرسلوا لي في ذلك الوقت وفدا مفاوضا لكنه كالوفود السابقة عاد أدراجه قرب تجكجة خوفا من مقابلة أعدائهم التقليديين، أهل آدرار و"كنته". ولكن نوايا "إيدوعيش" كانت أفضل في الأخير.

إن حظوظ نجاح غزو جريء بعد انتصار 18 يونيو كبيرة جدا ولاشك أنها ستجعل "إيدوعيش" ينضمون إلينا وقد مددت لهم يد المسالمة خارج "بوكادوم" فمثل هذا الغزو في هذه الظروف المحيطة بنا ونظرا لانخفاض مستوى التسليح لدى قبائل "آدرار" وتذمر "أولاد بالسباع" والمساعدة التي يمكن أن نستمدّها إما من "كنته" وإما من "إيدوعيش" يمكن لكل ذلك أن يضمن لنا النجاح.

لنوضح الأمور، لا يتعلق الأمر هنا بالسير من أجل الاستقرار في "آدرار" كما فعلنا في تكانت، وإنما المقصود هو مجرد توغل عابر كما فعل "اترارزة" و"إيدوعيش" في القرن التاسع عشر فالمقصود هو معاقبة "أهل آدرار" وليس احتلال أرضهم وبعد ذلك نعود إلى المناطق الجنوبية من موريتانيا لنستعد في السنة الموالية لإعادة الكرة وإن اقتضى الأمر ذلك نستعين بقبائل الجنوب التي ستكون قد انضمت إلينا أكثريتها بعد وضوح نياتها، وبالمقابل إذا التزمنا بالبقاء كما تريد الأوامر القادمة من "داكار" فإن ذلك يشجع هذه القبائل على الانشقاق. ولا نخشى عرقلة أوروبية ولا مغربية على الرغم من زعم أمير "آدرار" الشاب بأنه "ممثل السلطان" في بلاده فإن الاتفاقيات السابقة الموقعة³⁸³ بيننا وبين "آدرار" تجعلنا لا نخشى شيئا من هذا الجانب. كنت في الأيام الأخيرة من شهر مايو قد أمرت النقيب "جيرار" بإكمال الدراسات عن طريق المعلومات التي كان يجمعها سابقا بأمر من "كبولاني" في اتجاه "أوجفت" و"شنقيطي" و"أطار" وكنت شخصا قد أرسلت مبعوثين لاستكشاف أخبار هذه المناطق وأتوفر على أدلاء ماهرين وفضلا عن ذلك تلقيت الكثير من رسائل الدخول تحت سلطتنا وعروض الخدمة وأخيرا قبل موت "كبولاني" كان كل شيء جاهزا من ناحية أترارزة من أجل التعاون معنا أثناء المسير نحو آدرار فكان من المقرر وصول قافلة تموين عبر "اتوزكت" وهي جاهزة في "بوتلميت" ولم يكن الشيخ سيديا يطلب سوى التعاون معنا في هذه العملية باتجاه آدرار وهو سيستغل بذلك نفوذه الديني من أجل شق صف قبائل آدرار التي دب فيها الخلاف فعلا، كما أن تدخله سيحمينا من قيام حرب مقدسة ضدنا وهو هاجس قديم في موريتانيا لا ينقصه سوى عدم فعاليتنا وما ارتكبناه من أخطاء سنة 1906م³⁸⁴. إن إخضاع "آدرار" سيؤدي حتما إلى السيطرة على كافة الأراضي الموريتانية باعتبار آدرار ملجأ المنشقين ومركز انطلاق

383- الاتفاقية التي وقعها المستكشف "فابير" سنة 1891 انظر الهامش السابق بشأن "فابير".

384- هذا صحيح فالبيطان ليسوا متحمسين دينيا و"الحرب المقدسة" لم تجد لديهم إلا صدى محدودا.

الغارات فالسيطرة عليه تعني تحفيف منابع حين لم يعد أي شخص يستطيع اللجوء إليه ويعرض نفسه لغاراتنا كل سنة وإذا استخدمنا لهذه المهمة القبائل المحاربة في الجنوب فسيكون العمل محكما ويكون هؤلاء في صفنا بدل أن يكونوا خصوما لنا³⁸⁵ فضلا عن ذلك، بالنسبة للعملية التي أفكر فيها لا بد من المسير في فصل الخريف لضمان وجود الماء من أجل الزواج ولكي نصادف موسم حصاد التمور حيث يستقر الناس في مناطق متفرقة ويمكن أن نحكمهم عن طريق المؤن ولكن يبدو أن الحصاد في آدرار يأتي بعد الحصاد في تكانت بفترة قليلة، فإذا انطلقنا في الوقت المناسب فسنصل في الفترة المناسبة. وبالمقابل كل تأخير وبقاء دون التحرك يفرض علينا الانصياع للأوامر ويجعلنا تحت ضغط أهل "آدرار" الذين سيعودون حتما إذا تمكنوا من رص صفوفهم ولكن سيكون ضدنا أيضا "أولاد بالسباع" حين يقتنعون بعدم الجدوى معنا لانعدام تصميمنا وعزمنا وكذلك "إيدوعيش" سيفسرون عدم تحركنا بالضعف ويؤجلون دخولهم تحت سلطتنا كما أن "كنته" أنفسهم، وهم لن يغفروا لنا أبدا ما عانوه من نهب على أيدي أعدائنا بحجة تحالفهم معنا، سيأخذون علينا ذلك.

ومن ناحية أخرى يعاني أهل "آدرار" من انقسام بسبب تعارض المصالح. والمختار ولد احمد ولد عيده نجله يحافظان على بعض العلاقات هناك. كما أن قبائل الزوايا تدعونا لذلك والشيوخ سيديا سيسير معنا في هذا الاتجاه.

إن الأوامر الواردة لا يمكن أن تقدر الظرفية التي نوجد فيها وبالتالي يلزم تغييرها حتى تتكيف مع الوضع الحقيقي للأشياء فهل نريد الاستفادة من الظروف من أجل التقدم والتنفيذ الكامل لبرنامج البعثة الذي أعده كبولاني ووافق عليه الحاكم العام أي وافقت عليه الحكومة الفرنسية؟ ولا ننسى أن هذه البعثة تسمى "بعثة تكانت وآدرار" أما أنا ولو كنت سأعرض للنقد فإنني خشية التدايعات الخطيرة التي ستترتب على عدم التحرك، سأخذ المبادرة وأتحمل المسؤولية ولكن هل سيتبعني الجميع؟ لا أريد أن أكرر تجربة "قوليت شانوان": لا أريد المسير إلا بموافقة الجميع، إذا كانت هذه الموافقة، كما هو محتمل، ستحدث بناء على الأسباب المذكورة أعلاه والتي شرحتها بصراحة لرفاقي.

³⁸⁵ - دون شك. يجب أن نلاحظ هنا أن "افرير جان" يحلل الأمور بمنطق القائد الحربي لإحدى قبائل الجنوب ... وخاصة "أولاد بالسبع".

لننتقل إذن! هناك كثير من المترددين في البعثة! رأيهم هو السائد ساندني ضابطان فقد أما الآخرون فقد اتخذوا ذريعة من الأوامر الواردة فهم يفضلون انتظار المقدم ويريدون أن تبقى فرقنا في مكانها حتى ولو أضر بها هذا السكون وعدم التحرك هذه الاستشارة أوضحت لي بجلاء ما يمكن أن أطلبه من الأطر العاملين معي فهم متعبون ولا يريدون مخاطر جديدة ولا أتعابا جديدة فهم يفكرون في مستقبلهم الشخصي إنهم مترددون فهم "برجوازيون"! لا فائدة: لنتنظر القافلة.

ربما تكون لدى المقدم أوامر بإنهاء برنامج البعثة على كل حال سأعرض عليه أفكارى فور وصوله. إن التردد يعني دائما الضعف والخور، إن المترددين عاجزون عن كل فعل جسور! يا للقدارة! قال لي قبل أيام أحد أصدقائي في رسالة من "سينت بترسبورغ" إنني لست من أهل هذا الزمان. ذلك ممكن كنت أود أن أكون قد عشت في فترة "الجيش العظيم" ولكن ما يهمنا الآن هو أن تعرف ما هي كلفة الأمور المهمة بالنسبة لفرنسا؟³⁸⁶ أي معرفة من سينفذ الخطة التي أقترحها ومن سيتردد ويبقى ساكنا كالحلزون في قوقعته. وعلى كل حال لست مسؤولا عن تدبير الأمور أو كما يقولون لا أمسك بمقبض المقلاة.³⁸⁷ يبقى الآن أن أتخذ الإجراءات بصفة لا تخلو من ركاكة لاستقبال المقدم مفوض الحكومة العام. نزلت إلى التكنة. ورغم كل شيء لم نعد في أزمة بفضل جهودنا الخاصة وتقسيطنا للمؤونة ولكن ما هو أهم هو شعورنا بالانتصار وإذا لم نكن قد استمتعنا بهذا الانتصار فليس ذلك بسببي شخصيا. يجب إذن أن نعطي للحادث أبعثه، سنخرج لاستقبال الضيف منتظمين وسنقدم له كافة المراسم بصفة منضبطة بعد ستة أشهر من العمل داخل القوافل سوف تبدو الخبرة على سلوكنا وانتظامنا ولن يكون مجرد استعراض مبتذل فستكون ضمن الاستعراض فرقة الجمالة البيضان بهيئتهم الموحشة وشعرهم الكث والثياب الرثة التي يسترون بها أجسامهم الهزيلة. ونحن سوف نكون بمختلف ملابسنا ونعالنا وأحيانا حفاة الأقدام وشعر رؤوسنا ولحانا الطويل الأشعث وأشياءنا المصنوعة من الجلود القديمة وكل ما يبدو علينا من مظاهر البؤس وشظف العيش، سيبدو المشهد جميلا؟

³⁸⁶ - من المؤكد أن "قافلة كورو" التي غزت آدرار قد كلفت كثيرا بالنسبة لفرنسا وبالنسبة لبلاد البيضان.

³⁸⁷ - هذه عبارة كثيرا ما تستعمل آنذاك بشأن رجال السياسة.

أجد نفسي مجبرا في آخر أيامي في القيادة، على أن أصدر أحكاما قاسية ضد من يسرقون التمر فأطلقت وابلا من التهديدات باتجاه من ينهبون التمر وتوعدتهم بأني سأربط كل من يسرق إلى جذع النخلة التي سرق منها حتى ولو كانت تقع في الخط الأمامي للحراسة وسيبقى هناك مربوطا ليلا نهارا. ولدى الحراس الليليين أوامر صارمة بإطلاق النار دون رحمة على كل من يتحرك في الخارج قرب غابة النخيل، ولا يهمني أمر من يقع تحت طلاقاتهم النارية. رغم هذه التحذيرات والوعيد استمرت حالات السرقة فالجوع والشره أقوى تأثيرا على هؤلاء من الخوف ولكنني نفذت كلامي فقد ارتاح "إيدوعلي" لرؤية من سرقوا تمرهم مربوطين إلى جذوع النخيل. أخبرنا الحارس المراقب عن رؤية القافلة على خط الأفق الجنوبي الشرقي وفورا خرجت من المعسكر مختلف الأولوية بناء على الأوامر وتمركزت على بعد مائتي متر أمام الواجهة التي يحرسها الجزائريون. فاصطفت الوحدات من اليمين إلى الشمال فرقة "الركاة السنغالية"، الجزائريون، البولار، السودانيون، ثم البيضان. كان الجميع راجلا على الأقدام فقد مات نصف الخيول من الجوع والبقية لا تصلح لتأدية أية خدمة وليست الجمال أحسن حالا. كان استعراضنا مهيبا رغم هيئته فرجالنا يقفون بثقة في زيهم الرث وكلهم ثقة وفخر لأنهم يحضرون الآن منتصرين أمام القائد الجديد القادم وكانت فرقة المجندين الجدد وعلى رأس كل واحد منهم "شاشيته" أما البيضان فلا بد من ريشة فنان لرسم مشهدهم الفريد في زيهم الرث. كانت كل الأسلحة براقعة رغم قلة الشحم في اللحم الذي كنا نأكله، على كل حال استطاع كل واحد أن ينظف بندقيته ويحرص على لمعانها. تولى قيادة الفرق الملازم "لوفانجيون" بوصفه الأقدم رتبة أما أنا فكنت في المقدمة على ربوة صغيرة ومعني الطبيب و"آرنو" والنقيب "جيرار" وإذا كان هناك ما يلفت النظر في هيئتنا فهو على كل حال تنوع أحذيتنا فقد كان لدي حذاءان مهدبان ولدى الطبيب حذاءان كبيران من أحذية المحاربين أما المسيو "آرنو" فله حذاءان عاديان في حين لدى النقيب "جيرار" والملازم "لوفانجيون" أخفاف فلالية متهالكة ولدى الملازم "شيروي" حذاءان سليمان أما أفراد الفرق كضباط الصف فأحذيتهم من نفس المستوى معنا وعلى كل حال لسنا جميعا من زبناء "سينت اكريين"³⁸⁸ إن صح التعبير. ها هو المقدم يتراءى فوق فرسه وخلفه إلى اليسار ضابط آخر يبدو من هيأته

³⁸⁸ - سينت اكريين هو زعيم الإسكافيين أي صناع الأحذية.

أنه حديث عهد بالمدرسة الحربية إنه النقيب "فيراديني" وخادم قيادات الأركان هذا معروف في سلاح الاستعمار بإصابته بجروح في "الداهومي" وبمؤلفه "إرشادات للإدارة الاستعمارية"³⁸⁹.
بدا الإرهاق على القادمين أكثر منا نحن وهذا أمر طبيعي بسبب الطريق الطويل الذي قطعوه في أكثر فترات السنة جفافا وحرا. وصلت الفرق وكنت في المقدمة لتحية القائد الجديد وتقديم الفرق أثناء الاستعراض وخلفي الفرقة المختلفة التي أقودها وكانت هيئتنا أقرب إلى هيئة رعاة البقر كانت بشرة المقدم شاحبة (تصوره البيضان أسمر) ويبدو غير قادر على الجلوس مستقيما داخل راحلته وقد أدار حول عنقه لحافا وبعد أن رد علي التحية أشار للتعبير عن عدم قدرته على الكلام فبدأ النقيب يتكلم نيابة عنه وهو على فرسه وقدم إلينا شكر وامتنان رئيسه وأسفه على عدم القدرة على مخاطبتنا بنفسه بسبب ورم في الحلقوم وكان القائد الكبير يعبر عن موافقته على ما يقال بواسطة إشارات بعينيه ويده ثم نظر إلى الفرق المتراسة واتجه بفرسه نحو فرقة "المائة" السنغالية فرفعوا بناذقهم على المناكب فلمعت الحراب محدثة برقًا خاطفا تحت الشمس.

- "هل أنت راض عن فرقتك من الروماة السنغاليين؟" قالها النقيب "فيراديني" بصوت عال- هؤلاء القادمون معنا ليسوا أفضل منهم فصفتهم هي: قلة الحماس، الحرص على الحصول على امتيازاتهم والتكاسل".

- "أما أنا فالفرقة التي معي مقبولة أو حتى جيدة جدا" أجبته هكذا "طبعًا ليسوا على المستوى المطلوب بصفة مطلقة ولكنهم جنود شجعان أثناء القتال وأنا مرتاح لأدائهم".
ثم بدأت أحدثه باقتضاب عن الهجمات الخمس المتتالية التي أداها هؤلاء يوم 18 يونيو وهو أمر يعكس قيمتهم.

استمع المقدم ثم مر أمامهم متباطئا وكانوا جامدين في مكانهم دون حراك لكن أعينهم كانت تعبر في الوقت الذي كانت مناخيرهم تستنشق رائحة الأغذية القادمة مع القافلة.
بدا الجزائريون بدورهم في هيئة حسنة فقد احتفظوا جميعا بزي مقبول وكانت خذات بعضهم متقدمة بعض الشيء وبشراتهم شاحبة بسبب حرارة الشمس كان كل واحد ينظر أمامه بانضباط تعبيرًا عن الانسجام والانضباط العسكري وهم يكونون لي مودة خاصة بسبب

³⁸⁹- كان النقيب "فيراديني" قد جرح في الرقبة بالداهومي وكان معروفا بمؤلفه "إرشادات للإدارة الاستعمارية" ويبدو "افرير جان" غير معجب به.

ما اكتشفوه من حبي للعرب بدأت أصف للمقدم الخدمات التي يقدمونها منذ 12 مايو ودورهم أثناء معركة 18 يونيو، ولم أفجح في أن يصدر منه سوى حركة خفيفة في الرأس وابتسامة باهتة ثم تجاوزهم ولم يفاجئني هذا السلوك منه: فأنا أعرف بعض من جاءوا معه. جاء دور "البولار". فأطلق "مجيكان" صرخة بصوته المبحوح خرجت من بين شفثيه المغمورتين تحت شعر لحيته الكثة: "استعداد" فلمعت حراب البنادق في صف واحد تحت الشمس فوق أغطية رؤوسهم ذات الألوان الباهتة كانت السعادة بادية على وجوههم وهم ينظرون باعتزاز، إنهم يحبون مثل هذه المواقف ولكن بذلاتهم الزرقاء كانت بالية فوق سراويلهم من أسمال قماش "النيله" البالي، إنها الفرقة التي قطعت أطول المسافات وهاجمت عبر الصحاري في أبعد النقاط عند "عين تشييه" وعند "بوكادوم".

لنتجاوز! نظر إليهم نظرة خاطفة. والتقطت أذني جملة صدرت من النقيب "فيراديني" تنقص من شأن "البولار" ولكنها في صالح "البمباري". بدأ الملازم "استيفان" الذي شفي جرحه ونزع العصابة عن رأسه في تقديم فرقة السودانين في ثيابهم الرثة أكثر من سابقهم ولكنهم يبدوون في مظهر أفضل عسكريا من "البولار" ولكنهم لا يمكن أن يدعوا مكانة هؤلاء السادة السابقين فهم إما عبيد أو من أبناء قبائل السودان التي قهرها هؤلاء قديما. بدا عليهم الاسترخاء داخل الصف كأنما يسعون إلى إثارة عطف القائد عله يأمر لهم بنصيب أكبر من المؤن أو يمنح أذنا صاغية لما سيقدمونه من شكاوى تتعلق أساسا بما تعرضوا له من عقاب على سرقة التمر. وجهت كلمتين خلصة إلى العقيد فبدرت منه إشارة خاطفة عبرت له عن عدم ارتياحي لهذا الخليط من خدم المنازل والعبيد الذين تم اكتتابهم في "خاي" دون مراعاة أي معيار، فلاحظت أن تعليقي لا يروق له وأعرف السبب أيضا فالذي يستخدم "البولار" لخدمته الخاصة سيفضل السودانين الأكثر تحملا للأعمال اليدوية المنزلية من أعمال الحرب فلكل فئة اختصاصها، أما مهنتي فهي الحرب فالبعض يفضل العمل في المعسكر والقيام بأشغال البناء بدلا من هذه الأعمال الأخرى. يوجد في الطبيعة ما يرضي ذوق الجميع.

وأخيرا هاهي فرقة البيضان لم يوجه أية كلمة لهؤلاء ومر أمامهم بسرعة لم يكذب ينظر إليهم إلا أنني عندما ذكرت له اسم "محمد المختار ولد الحامد" القيادي العجوز في "كنته" لمعت عيناه وخصه بتحية باليد وهو الوحيد الذي سيخوننا بعد ذلك بعام ولم ينبس ببنت شفة تعبيراً عن شكر هؤلاء البيضان الذين يخدموننا كل يوم يجوبون الصحاري من أجلنا فكل ما

صدر عنه كتعبير عن الود اتجاه هؤلاء هو مجرد قبضة يد للرجل الذي لم يخرج معنا في يوم من الأيام حاملا سلاحه! استاء الجمالة من هذه المعاملة، ولا بد أن هناك من خدع هذا القائد حتى يتصرف هكذا مع من يخدمون مصالحنا ويساندون قضيتنا والذين يستحقون على كل حال التشجيع!

- "لدى المقدم انطباع جيد" قالها "فيراديني" موجها كلامه إلي. وقد جاء هذا الانطباع في ملاحظة أوردتها المفوض العام للحكومة في تقريره:

- استعرض المفوض العام للحكومة عند قدومه إلى تجكجة الفرق العاملة في الحامية الموجودة هناك ولاحظ بارتياح أن هذه الفرق رغم الإرهاق بسبب المراقبة الصارمة التي تقوم بها ورغم عمليات الاستنفار المتكررة ونقص المؤن الغذائية فقد عاشت تحت تقسيط الوجبات منذ عشر يونيو، فقد كانت معنويات الرجال مرتفعة ولم تتأثر بهذه الظروف.

وبما أن انطباعه في صالح رجالي، فقد اقتربت من المقدم عند دخوله المعسكر وفور نزوله عن الفرس فأشرت عليه بأن يستخدم هؤلاء الرجال المدربين لإنهاء مهمة آدرار طبقا لخطط "كبولاني" التي اعتقد أن تنفيذها متواصل. فأخذ نفسا طويلا وأشار إلي قائلا: لا! فأكمل "فيراديني" مفسرا كلامه بأن هناك أمر بعدم القيام بأي شيء فلم أتمالك التعبير عن امتعاضي. وكان الطبيب حاضرا فذهب بالمقدم ليضعه على سرير المستوصف فقد أطبقت عليه الحمى. وفي هذه الأثناء انتقلنا إلى مقدمة القافلة. كانت الجمال متراصة في انتظام كالعادة وأخذ منها التعب فلم تعد تقوى على الوقوف ولكنها تحمل لنا كميات كبيرة من المؤن. فعلى الأقل حين حرمانا من المكافأة المعنوية سنجد عوضا عن ذلك مكافأة البطون رغم أن هذه لا تقوم مقام تلك. لكن يجب دائما أن نتقبل القليل الذي نحصل عليه، كانت فرقة الجزائريين على الخيول بقيادة "رابول" تحرس القافلة وها هو صديقي الشجاع الرقيب الدركي "رافين".

- "سيدي النقيب، جئتك بشيء من "الشانباني" وقبعة من قبعات "البوير" لتعوض خوذتك المكسورة."

ليس الحصول على الخمر من بين الأمور التي لم ترق لي في هذه المناسبة، فقليلة هي أيام الأعياد، واليوم الذي أجد فيه ما يذكرني بالحياة الأوربية يستحق الاحتفال، فدعوت محدثي وثلاثة من القادمين معه إلى مأدبة عشاء فاستهلكنا كل النبيذ على مائدة الطعام من

ذلك الوقت حتى نفذ كلما أمامنا وكنا نتحدث بحرية ونعبر عن امتعاضنا من عدم الموافقة على المسير نحو آدرار.

فاجأني أنهم تركوني قائدا للمعسكر ولكني أدركت للتو أنهم إنما يريدون تمديد الفترة الانتقالية حتى تتعد كل الأخطار وتقاديا لانتقال مفاجئ للقيادة.

بعد عدة أيام من الإخلاء إلى الراحة تحسنت حال المقدم وبقيت في وظائف طيلة الوقت رغم أنف من كانوا يريدون أن يطلق لهم الحبل على الغارب وساندي القائد في قمع سرقة التمور وحتى في منع الاقتراب من غابة النخيل والتوجه إلى القرية.

تم تعيين النقيب "بايين"، وهو في أفضل ظروفه، حاكما مقيما بمنقطة مال-تكانت. لقد أصبح الآن بإمكان "كنته" الذين فروا من تكانت في فترة الخطر أن يعودوا ولكن ليس الآن فبعض الفرق ما زالت تحوم حول المنطقة وما زلنا نطلق صيحات الإنذار. استولت إحدى العصابات يوم 30 يونيو على قطعان "إيدو علي" المقيمين في منطقة "حيرات" جنوب تجكجة فأرسلت عشرة من الجزائريين وخمسة عشر من البيضان يوم 2 يوليو لاسترجاع هذه القطعان. تفككت الفرقة المرافقة للقافلة فغادرت فرقة الجزائريين بقيادة "رابول" وفرقة الفرسان بقيادة الرقيب الدرقي "رافين" يوم 27 يونيو متجهتان نحو النهر لاستقبال القافلة الجديدة التي هيأها النقيب "سيكولي".

استمرت الحملة المنظمة منذ زمن طويل ضد فرقة "التكولير" الموجودة معي وقد أدت إلى نتائج، ففي الأيام الأولى من شهر مايو، حين كان كبلاني على قيد الحياة، حين رأى "البولار" ذهاب المسيو "دري" والنقيب "بايين" إلى الجنوب صحبة بعض الفرق، فجاءوا يطلبون متأخرات رواتبهم والإذن بالذهاب قريبا إلى النهر حيث حقولهم بقيت بدون زراعة منذ زمن. فقد تم اكتتابهم دون تحديد لفترة الخدمة. فلم أجد ما أقوله لهم وطلب مني فقط أن أعيد الانضباط إلى صفوفهم فعاقبت من قادوا العملية وعند سماع صوتي عادوا جميعا إلى مواقعهم بانتظام كما جاءوا أصلا وقد عاقبت من قادوا العملية بشدة.³⁹⁰

لا مانع، مع معاملة أخرى غير التي أتبناها، والتي قد لا يستطيعها كل واحد، أن يكون الأمر يتعلق هنا برفض الرماة السنغاليين للاستمرار في الخدمة كما قد يحدث مع غيرهم.

³⁹⁰ - لا علاقة لسلوك فرقة "البولار" بالثورة حسب الظروف التي كانوا فيها فقد تم اكتتابهم دون تحديد لفترة الخدمة، وحين توقف تسديد رواتبهم مصادفة مع موسم الزراعة، فمن الطبيعي أن يطلبوا الإذن للذهاب.

النقيب "اباين" يعرف ذلك أكثر من غيره لو كان قد احتفظ في ذاكرته بالسلوك الطائش لحراس الحدود بمنطقة الساحل في "مال" سنة 1904م. نقاط الضعف التي لاحظتها وذكرتها بشأن فرقة "البولار" أثناء رحلة "بوكادوم" تم استخدامها ضد هذه الفرقة رغم أن نقاط الضعف تلك كانت من فعل فرقة "السودان" التي تم دمجها مع فرقة البولار و نحن نذكر سلوك السودانيين يوم 12 مايو أثناء إطلاق النار.

لقد تم تقديم صورة عن فرقة "البولار" العاملة معي كما كانت فرقة ذات سلوك استقلالي وهذا صحيح كما وصفوا بأنهم متمردون على الأوامر وهذا غير صحيح عندما يجدون من يحكم القبضة على قيادتهم كما تم التركيز على تنظيمهم الارتجالي ونقص تأطيرهم وهذا فيه نصيب من الحقيقة ولكن ما يجافي الحقيقة هو القول بأن تكوينهم كان ناقصا في الوقت الذي خاضوا فيه خلال الأشهر الأخيرة رحلات وتمارين ميدانية في تجكجة منحتهم قدرة وتجربة كافية للفرق النظامية. كما تم تناسي خدماتهم الباهرة أثناء الحرب وقيل إنهم لم يخضعوا لأي تنظيم منضبط وهذا غير صحيح وهو مجرد نقد موجه إلى المسيو "دري" وضدي أنا بصورة خاصة وقيل إن استعمالهم للأسلحة لم يخلو في بعض الأحيان من ارتباك وإنهم كانوا مصدر خطر في بعض الحالات.

نقف هنا! وسلوك الرماة السنغاليين، وسلوك السودانيين، ألم نشاهده ليلة 12 مايو خاصة حين عرضوا أنفسهم وأنفس قاداتهم للخطر: لقد تبادلت هاتان الفرقتان إطلاق النار على مسافة أقل من 30 مترا! إذن لقد اتضح لي كل ذلك، منذ بعض الوقت تتعرض فرقتي من البولار لحملة انتقاص من قيمتها كما تعرضت من قبل فرقة البيضان حدث ذلك في الطريق بين مال وتكججة، إنه تحالف كهيدي يواصل حملته ضدي ولا غرابة في ذلك فالأمر يتعلق بنفس الأشخاص كما في سنة 1904م يريدون التخلص من كل من عمل في خدمتي وكلما يحمل علامتي. وبلغت بهم الشطارة، أن حصلوا على الوسيلة المناسبة لإبعادي شخصيا وفي نفس الوقت استخدموني لاستبدال هؤلاء "البولار" غير المرغوب فيهم ولكن من الصحيح كذلك أن البولار أنفسهم لم يعودوا يرغبون في البقاء.

نهاية الحملة

انتهت الحملة: فقد تم إشعاري يوم 03 يوليو ضرورة التوجه إلى كيهيدي عبر "الحسينية" و "مال" و "ميت"، ويمكن أن ترافقني مائة وسبعة وعشرون مسلحا:

- الفيلق التابع للفرقة العاشرة من الوحدة الأولى للرماة السنغاليين العائدين من "ميت"، حاميتهم الأصلية.

- ثمانية وعشرون من السودانيين المتوجهين إلى "الحسينية".

- ثلاثة عشر جزائرياً لمركز "مال"

- فرقة من سبعة عشر من البولار سيتم تسريحهم في "كيهيدي".

كان علي أن أتوجه في مهمة إلى بلاد السودان لاكتتاب مجموعة من المساعدين من "البامباري" وكان العدد المطلوب ثلاثمائة على أن تنتهي مهمتي يوم 15 سبتمبر لأعود بعد ذلك.

تحول معسكر تجكجة يوم 06 يوليو إلى مركز واتخذ رسمياً اسم "قلعة كبولاني" على أن يمكن ذلك بإعلان حالة الحصار عندما يتعرض من فيه للهجوم مجدداً وهو ما لم يكن بوسعي القيام به داخل المعسكر.

كانت الأمور على ما يرام في الجنوب الموريتاني عند مغادرتي ولكن الأمور كانت مخالفة لذلك في منطقة آدرار، لقد انتصر "أهل سيد محمود" على "أولاد غيلان" الذين نزلوا من تكانت إلى "أركيبه" كما انتصر أهل "تيشيت" مرة أخرى على فرقة النهب التابعة "لاركيبات". أما في اترارزة فقد تعرض "ولد سيدي" وهو الحائز على رضا حاكم اترارزة الشرقية، للهزيمة في "أمدير" أمام "ولد إبراهيم السالم" بمساندة "العيلب" و"الجمالة" البيضان من اترارزة الشرقية. حدث ذلك يوم 11 مايو قرب "سهوة الماء" ومنذ هذه الواقعة لم يتحرك الخصمان فبقي الأول في "بوتلميت" في كنف "الشيخ سيديا" في حين اتجه الآخر إلى "آباخ" صحبة المسيو "ريللي" حاكم اترارزة الغربية. تجري عملية نزع الأسلحة ببطء وهدوء في المنطقة الغربية.

استغل الشيخ حسنا في آدرار عدم تحركنا وتمكن من إقامة صلح بين "أولاد بالسباع" والأمير وقد أرسل بعثاته تجوب المناطق التابعة لنا. أما الأمير فقد توجه إلى "واد نون" يطلب الأسلحة من "ماء العينين" والسلطان³⁹¹، كل هذا ينذر بالأحداث، سيندمون بعد قليل على عدم امتثالهم لرأيي وأنهم لم يتحركوا نحو آدرار مباشرة بعد انتصار 18 يونيو.

³⁹¹- الشيخ ماء العينين هو وحده الذي يستطيع في ذلك الوقت الاستجابة لطلب أمير آدرار، لأن الشيخ ماء العينين كان يحصل على الأسلحة والذخيرة في وادن نون والساقية الحمراء عبر التهريب في زوارق صغيرة تبحر ليلاً من جزء الكناري وهو يتوفر بوصفه زعيم الطريقة القادرية الفاضلية

غادرت تجكجة مساء يوم 06 يوليو وفي لحظة انطلاقي "قرب المقدم مونتاني المبخرة من وجهي"³⁹² بعبارات المدح والإطراء أمام الملاء، فهذا لا يكلف أمثاله شيئا لكن حبذي لو كان هذا السخاء من الحبوب "فحبة واحدة من الذرة أفضل بالنسبة لي"³⁹³ ولكن تلك المعاملة تخص آخرين.

دخلت "الحسينية" صباح 11 يوليو وجدت "كنته" مجتمعين حول المركز الذي أعيد بناؤه في عدة مجموعات فتزكت فرقة السودانين هناك وأنا سعيد بالتخلص منهم. ورغم الإرادة الحسنة التي بذلها كل من الملازم "فيلبي مورانسي" والضابط المترجم "رينيبي" من أجل تزويدي ببعض الحيوانات لحمل المتاع ودليل إلا أن "كنته" قد أخلوا المنطقة حول المركز مما أجبرني على التدخل شخصيا من أجل الحصول على كل ما نريده. ف"كنته"، "حفاؤنا المخلصون" كانوا حريصين جدا على خدمة مصالحنا لدرجة أنهم ابتعدوا دون الحصول على موافقة قائد المركز ولدرجة أنهم استدرجوا معهم مجموعة "تجكانت". والحال أنني أحتاج إلى دليل وانتهى بي الأمر إلى اللحاق "بتجكانت" وكانوا أقرب من "كنته" فصادرت منهم بعض الكباش ووجدت رجلا مسنا من عبيد "كنته" فاكتبته ليرافقنا دليلا حتى نصل "كراول". لم أتمكن من مغادرة "الحسينية" إلا يوم 12 يوليو عند الساعة الثامنة صباحا وبعد ساعة ونصف من السير تمكن عبد "كنته" العجوز من مغافلة حراسه من الرماة السنغاليين فهرب. ولحسن الحظ عثرت بعد ذلك بقليل على مخيم من "تجكانت" فأعطوني دليلا آخر مع حلول الليل نزلت عند "سناس" حيث تعرضنا لعاصفة رملية. وصلت "كراول" يوم 13 يوليو وهي إحدى مداخل "تكانت" الأكثر ارتيادا وبها ممر صخري ضيق وغابة استوائية حول عين ماء وعدة أحواض تسبح فيها التماسيح³⁹⁴ استرحت في أحد الكهوف وعند الساعة الخامسة مساء غادرته لأنام في السهل الآخر بعد أربع ساعات من السير.

يتوفر على مصادر مالية أكبر من تلك الموجودة لدى السلطان الضعيف ولنتذكر أيضا أن الشيخ حسنا مستشار أمير آدرار الشاب هو ابن الشيخ ماء العينين.

³⁹² - عبارة أخرى شائعة في تلك الفترة "تقريب المبخرة من لحية الشخص" كناية عن الإطراء والتملق وهي إشارة إلى ممارسة شائعة في الطقوس الدينية، أثناء حفلات القداس الكبيرة: حيث كان أحد الأطفال يوزع البخور بين الحاضرين بتقريب المبخرة من وجوههم.

³⁹³ - إشارة إلى حكاية "لانفونتين": الديك والجوهر.

³⁹⁴ - إشارة نادرة إلى وجود مثل هذه الحيوانات في مطلع القرن العشرين حيث مازالت التماسيح آنذاك تعيش في "الكلتة" وفي "المجرية" وتوجد الفيلة في "تندل" ولا يتعلق الأمر بالفيلة الضخمة كما في إفريقيا الوسطى، ولكن بنوع منها أصغر حجما بكثير كان يوجد في إفريقيا الشمالية قديما (قبيلة حنا بعل" التي انقرضت إثر عمليات الصيد المفرط التي مارسها الرومان من أجل ألعاب "السرك"). وتخضع قبيلة لعصابه" للحماية الرسمية في الوقت

اتجهت يوم 14 يوليو إلى "كلثة أطيور" وكانت المسافة طويلة وفقدنا أحد الرماة السنغاليين فقضيت هناك مساء 14 ويوم 15 يوليو حتى الساعة السادسة مساء كانت هناك عشرون من الكباش وجمل عجوز ولا يوجد راع معها لاشك أنها بقية ما أخذته إحدى الغارات فاستوليت على هذه الغنيمة غير المتوقعة. سرت ليلا في اتجاه "تدل" وعبر هذا الطريق ولم أكن متوجها نحو "مال" بل أسير في اتجاه "مايت" وقد تمكنت من اختصار الطريق وبمكاني إرسال الجزائريين من "مايت" إلى "مال" الطريق الذي كان قد رسم لي ملزما فبعد أن سرت مدة أربع ساعات في حوض "كوركول" الأبيض حيث كانت توجد مستنقعات مائية هنا وهناك، وصلت إلى "تدل" وكانت البحيرة التي تشير إلى المكان جافة تغطيها الأعشاب وهي مكان ترتاده الفيلة وأثناء نومنا ليلا مر بنا أسدان مسالمان مرا بيننا بين الجمال وكان القمر قد غاب نحو منتصف الليل.

غادرت "تدل" مساء يوم 16 يوليو وتجاوزت نقطة "أطويل" في حدود الساعة الرابعة وبحلول الليل نزلت في الخلاء ومن الغد عند الساعة الثانية بعد الزوال دخلت "مايت". وجدت النقيب "كريفوا" عند "مايت" وهو قائد المركز والوحدة العاشرة التي ينتمي إليها فيلق الرماة السنغاليين القادم معي كان هناك أيضا الملازم "هوبير" مع فيلق من الخيلة الجزائريين عرفت هناك أن الكباش التي وجدناها في "كلثة أطيور" هي بقية قطيع تم نهبه في "مونكل" جنوب "مايت" على طريق "كيهيدي" تعرض للنهب من فرقة مغامرة من أهل آدرار وكان الخيالة الجزائريون بقيادة "ربول" قد طاردوا هؤلاء اللصوص إلى الشمال الغربي لكلثة "أطيور". استرحت في "مايت" يومي 18-19 يوليو حيث وشحت الملازم "هوبير" بالوسام الذي حصل عليه قبل ذلك بفترة من درجة "فارس شرف". وكنت قد أخبرت زعيم حرطين "لمتونه" بحاجتي إلى بعض الثيران لحمل الأمتعة أريدها لي أنا وفرقة "البولار المرافقة لي" وحددت له يوم 19 يوليو للحصول عليها واستعنت في ذلك بالوسيط المعتمد لدى قائد المركز ولكن بما أن هذا الأخير لم تكن له وظائف إدارية فلم يكونوا يمتثلون لأوامره وعند الساعة الخامسة مساء لم أر أي ثور في عين المكان فأمرت على الفور بسجن زعيم الحرطين فأعطت هذه المعاملة

الحالي، ولكن عدد أفرادها لا يزيد على العشرات، أما الأسود فقد أصبحت من الأساطير في هذه المنطقة وكون الأسود لم تهتم بالجمال يعني أنها كانت شباعا.

الصارمة نتیجتها على الفور فبعد ساعة فقط كانت جميع الثيران المطلوبة أمامي مع قائد كل واحد منها فأخليت سبيل السجين.

مررت "بمونكل" ليلة 19-20 يوليو في حدود الساعة 11 فوجدت هناك في أحد الأكواخ ملازما قادمًا من "سينلويس" في اتجاه "تجكجة" مع فرقة من خمسين من الرماة السنغاليين وكان يغط في نومه دون حراسة لدرجة أنني دخلت كوخه دون أن ينتبه أي واحد من فرقة الرماة السنغاليين المرافقة له. دخلت "كيهيدي" يوم 20 يوليو عند الساعة التاسعة صباحًا حيث وجدت استقبالًا حسنًا سواء من طرف "ميشلان جلي" و"اكروستي" الذين يمثلان "موريتانيا" أو على مستوى المركز العسكري الذي كان آنذاك تحت قيادة الملازم "روس فلدر".

صعدت يوم 23 يوليو على متن الباخرة "باني" متوجهًا إلى مدينة "خاي" وبعد عدة أيام من الانتظار في هذه المدينة أخذت القطار متجهًا إلى "كاتي" وهي مركز عسكري في أعالي السنغال كان علي أن أقوم هناك باكتتاب ثلاثمائة من "البامباري" وتوقع الحاكم بالنيابة لهذه المستعمرة عدم نجاح مهمتي قائلًا إن الزوج لا يريدون الذهاب إلى البلاد البعيدة حيث ظروف الحياة الصعبة كما في موريتانيا. ولكن بفضل الإرادة الحسنة للعقيد "سايمونو" القائد العسكري لأعالي السنغال والنيجر فقد بدأ الاكتتاب فور وصولي إلى مدينة "كاتي" يوم 3 أغسطس 1905م لينتهي يوم 14 سبتمبر الموالي دون أن أبرح مكاني، وفي نفس اليوم تلقيت أمرًا بالتوجه شخصيًا إلى "سينلويس" في أول وأسرع فرصة وكان علي أن أقوم أثناء الطريق بإنزال المكتتبين الثلاثمائة من الباخرتين "لبيرن" و"لابي" عند "كيهيدي" حيث سيتم حملهم من هناك إلى المراكز في "موريتانيا". وصادف ذلك مرور المركب البخاري الصغير "لدكانا" التابع للدولة، فركبته من كيهيدي ونزلت في "سينلويس" يوم 28 سبتمبر.

علمت أثناء الطريق بترقيتي، حسب الأقدمية، إلى رتبة "قائد كتيبة"³⁹⁵. كان علي أن أتوجه إلى فرنسا يوم 27 نوفمبر 1905م فانتظرت في "سينلويس" عدة أشهر انشغلت خلالها بالرد على عدة أنماط من الأسئلة المطروحة من طرف وزارة المستعمرات ووزارة الحرب³⁹⁶ بشأن حادثة 12 مايو. كما كان علي أن أقدم تبريرات مكتوبة للوقائع الثلاث التي لدى الحاكم

³⁹⁵ - كان كبولاني، إثر الانتصار في "بوكادوم"، قد طلب ترقية "افرير جان" إلى هذه الرتبة كما طلب عدة أوسمة شرف كان أحدها مخصص لهذا المقاتل ... فهل أنسى مقتل كبولاني ما يستحقه من بقوا بعده على قيد الحياة؟

³⁹⁶ - توجد هذه المراسلة محفوظة في الأرشيفات بداكار.

العام مآخذ علي بشأنها وهي: قتل الدليل في منطقة "العكل" رميا بالرصاص سنة 1904م، وشنق أحمد ولد أباه في تجكجة يوم 17 مايو 1905 وأخيرا إعدام الحرطاني الجاسوس يوم 21 يونيو 1905.

كما كان علي من جهة أخرى أن أقوم بتسوية بعض المسائل المالية من بينها تلك المتعلقة بالألبسة والأغذية المقدمة لولد سيدي ومجموعته من عند التاجر عبد الله سك في "دكانه" في شهر يونيو 1904 وبما أن هذه النفقة قد تمت دون إذن واضح من المكتب فقد صنفوها ضمن "الممارسات غير المطابقة للنظم الإداري" وحملوني مسؤوليتها وهو ما سيعتبر من قبيل الإجحاف لاحقا أمام قضاة مجلس التحقيق. أبحرت يوم 27 نوفمبر على الباخرة "ماجيلان" متجها إلى فرنسا وهي باخرة المراسلات البحرية ونزلت منها يوم 03 ديسمبر 1905م وكنت أعتبر بناء على سلوك السلطات في داكار أن ما قدمته من تفسيرات مكتوبة كان كافيا وأن أمري قد أصبح واضحا لديهم وأنهم سيتركونني وشأني. لقد كنت واهما. فما كدت أصل فرنسا حتى انطلقت يوم 25 ديسمبر حملة صحفية ضدي سأعطي منها بعض المقاطع لاحقا. فسيمكن ذلك من ملاحظة مستوى الطريقة التي كانت صحفنا تجمع بها المعلومات وكيف كان الفرنسيون يصدقون كلما يصلهم من ترهات غريبة بمجرد ظهورها على مطبوعات لقد كنا في حقة الفضائح الاستعمارية فقد انتهت قبل فترة قضية "كود" و"توكي" حيث كان المسيو "دبرازا" يحقق في "الكونغو" كما انطلقت في غينيا اتهامات ضد إداريين وضابط³⁹⁷. وفي "الكونغو الأوسط تم تجريم عريف عسكري أما في موريتانيا فالضحية هي أنا.

كتبت جريدة "لوبيتي مارسويه" بعد جريدة "لوجورنال" المقال الآتي: "كنا نعرف أن المسيو "كبولاني" المكلف باحتلال الضفة اليمنى لنهر السنغال ومنطقة آدرار الشرقي-آدرار الشرقي بعيد إلى جهة الشمال الشرقي من "تمبكتو"³⁹⁸، كان من أنصار التوغل السلمي وكان يريد أن يتم احتلال هذه المناطق دون إطلاق رصاصة.

³⁹⁷- من الصعب اليوم العثور على أي أثر لهذه "الفضائح".

³⁹⁸- آدرار الشرقي بعيد في الشمال الشرقي لـ"تمبكتو" (إشارة من أفيرير جان) يتعلق الأمر بآدرار "إفكان": غلط لا يغتفر بين آدرار الموريتاني الذي يسمى أيضا "آدرار التمر".

كان ذلك يوم 12 مايو في "تجكجة" على تخوم آدرار نحو الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة مساءً كان "كبولاني" مستندا على سور المعسكر يواجه بعض الأوامر إلى طبأه فتعرض لرصاصتين من بندقية قطعت الثانية منهما أصابعه فحاول الدخول إلى كوخه لأخذ مسدسه ولكن عشرين من "البيضان" الذين اجتأوا المعسكر قطعوا عليه الطريق وضربوه في الصدر فهوى على ركبته مصابا بجروح قاتلة وسرت الفوضى داخل المعسكر. تمكن الملازم الشيرووي وأحد المجندين برتبة مساعد صحبة العريف "لوجيرو" من تجميع الرماة وصد المهاجمين الذين كانوا قد احتلوا كوخ قائد البعثة وفروا مخلفين أربعة قتلى هم قائد المهاجمين واثنين من أبنائه وأحد المهاجمين. تم نقل كبولاني على سريره ولفظ أنفاسه بعد أن تأكد من عدم إصابة أي واحد من الأوربيين. فتولى "افرير جان" قائد الكتيبة قيادة البعثة وبذل جهده للقبض على الجناة. ألقى القبض يوم 15 على أحدهم في "الرشيد" وهي واحة نخيل على بعد 30 كلم من "تجكجة" ومثل أمام مجلس حرب تم تشكيله طبقا للنظم من الرائد "افرير جان" والكاتب الأول لكبولاني³⁹⁹ وملازمين وأحد المترجمين. اعترف رجل "البيضان" المقبوض عليه بانتمائه إلى المهاجمين وحكى أن الهجوم قد تم بتدبير من رجل الزوايا الذي واجه بعض الصعوبات في إقناع أفراد فرقته بالمهاجمة. وحكم على الرجل بالإعدام بتهمة الهجوم المسلح والقتل وتم شنقه بدلا من إطلاق الرصاص عليه وذلك مراعاة للأعراف المحلية وتفاديا للمساس بمعتقدات "البيضان" المسالمين وبقيت جثته أربع أو خمس ساعات بعد موته معروضة حتى تحللت تماما إلى جانب جثث القتلى الأربعة الذين سقطوا يوم 12 وذلك في مكان يمر منه جميع سكان تجكجة متوجهين إلى غابة النخيل. فعلى أساس حادثة الشنق هذه تم نسج القصة الخيالية لفضيحة موريتانيا الفرنسية حيث اتهم الرائد "افرير جان" بممارسة التعذيب البشع. وغادر هذا الضابط السنغال في شهر نوفمبر الماضي تحت حكم بالتوقيف لعدم الانضباط ولكن لم توجه له أية تهمة بممارسة التعذيب ويعتقد أنه مسؤول إلى حد كبير عن اغتيال "كبولاني" فقد يكون قد تجاهل أوامر هذا الأخير المتعلقة بالتدابير العسكرية التي يتعين اتخاذها بوصفه المسؤول الوحيد عن حياة الموجودين معه كان عليه أن يحيط نفسه بشبكة حراسة أمامية.

³⁹⁹ - هو المسيو "أرنو" دون شك؟ ولم يكن كاتباً لكبولاني (إشارة من افرير جان).

وقد رد أصدقاء "افيرير جان" لأن "كبولاني" قد رفض الحراسة وأنه، نظرا لسلطته، من غير المدهش أن نرى أحد الضباط لا يجرؤ على مخالفة أوامره. هناك مأخذ آخر على الرائد "افيرير جان" حين تعرض معسكر تجكجة للهجوم يوم 13 يونيو في خمسمائة رجل من قبائل "أولاد غيلان". وفي نفس اليوم شوهد بعض المسلحين على مسافة قريبة على الجمال يعلقون بنادقهم على الرواحل وتبين من هيئتهم أنهم رواد جاءوا يستكشفون المنطقة. وكان الملازم "شيروي" قد ذهب خارج المعسكر على رأس خمسة وعشرين من الرماة السنغاليين وفرقة من الجمالة فاصطدم بعدة مئات من البيضان وبعد معركة حامية تمكن من صدهم دون أن يفقد أي واحد من رجاله سوى جريحين، كان أحد الجمالة قد انفصل عن رفاقه فعثر على أحد البيضان جريحا فسدد له الضربة القاضية ببندقيته وقطع رأسه وحمله إلى المعسكر كغنيمة بعد الانتصار. عملية قطع الرأس هذه هي المأخذ الذي اتهم به الرائد "افيرير جان" وهكذا نرى أنهم قد لفقوا الكثير من القصص حول هذه الواقعة".

التوقيع: ف.

نلاحظ أن هذا المقال الذي كتب عن حسن نية يزخر بالأكاذيب. كما سردت جرائد أخرى مشاهد من نسج الخيال المحض تتحدث عن مجازر لم يسبق لها مثيل حدثت يوم 13 مايو في الصباح وهي تصف الرماة السنغاليين وهم يسددون الركلات لضحاياهم المرتعشة بينما يقوم رماة آخرون بتصوير المشهد!

بنت جريدة "بتي مارسويه" قضيتها على هذه القصص ولكن حكايتها الخيالية التي اختلطت فيها الأحداث تبدو مستوحاة من وثائق صحيحة تم تحريفها دون شك من طرف المحرر وهو معذور في ذلك لأنه يريد تلميع فرقة الرماة السنغاليين وخاصة منهم تلك المرافقة للملازم "شيروي" والرقيب "روجيرو" وهو ما يشير بوضوح إلى مصدر هذه المعلومات التي تشكل في صورتها هذه سردا خاطئا للأحداث في نفس الجريدة وعلى نفس العمود من المقال المذكور نجد في نفس الزاوية "بريد السنغال" اسمي شخصين يتبعان للسلك أو خدمة موريتانيا هما المسيو "دليل" المسؤول المساعد عن الشؤون المحلية والرقيب "هانري لوجيرو" من بعثة كبولاني وقد وصلا إلى "بورديو" يوم 31 ديسمبر 1905 على متن الباخرة "لاتلانتيك". ولاشك أن "لوجيرو" في محاولة توجيه لفتة إلي قد أعطى المعلومات السابقة لأحد المراسلين ولكن وضعيته في البعثة (عريف في فرقة الرماة السنغاليين التابعة للملازم "شيروي") لم تكن تسمح

له بالاطلاع على مجرى الأحداث وهذا هو مصدر الخلط بين الحقائق وتقديم بعض المعلومات الخاطئة التي بني عليها مقال "بتي مارسويه".

وإذا كنت سأتوقف عند نقطة معينة، فهي أنني لم أخضع في يوم من الأيام للتوقيف بسبب عدم الانضباط ولم تطلب مني وزارة الحرب سوى تحديد دور كل واحد من الناحية العسكرية على مستوى بعثة كبولاني، ولم يترتب أي رد على التفسيرات المكتوبة التي قدمتها بهذا الشأن. والتمست عذرا لصاحب المقال بأنني أدركت أنه ليس من ضمن أصدقائي لأنه يسند الرد لهؤلاء وأولئك ولاشك أن أهل "سينلويس" الذين لم يغفروا لي انضباطي اتجاه "كبولاني" القائد المدني لبعثتنا كانوا كثيرين كما أن المقال يذكر بالتحديد أن الحملة كانت بقيادة هؤلاء الأعداء. أن يحاول الرقيب "لوجيرو"، مبرزا دوره الشخصي، أن يرفع من شأن الملازم الذي يقوده فهذا شعور حسن من حيث المبدأ وكذلك محاولته إسناد البطولات إلى فرقة الرماة السنغاليين وإذا لم يكن كاتباً لإحدى زوايا الصحافة فكانت لديه على الأقل مشاعر طيبة اتجاه رؤسائه ومن يعملون تحت إمرته، وهذا تصرف من رجل شهم وعسكري جيد كما تدل عليه خاتمة المقال. إلا أن قصة الرأس المقطوع غير صحيحة تماماً، فما حدث هو الآتي: في صبيحة 18 يونيو كانت فرقة الجمالة "البيضان" كما ذكرت، تطارد "أولاد بالسباع" من غابة النخيل وقد انسحبوا مخلفين جثة أحدهم وهو شاب من "أولاد أحميده" وقد تعرف عليه رفاقنا الجمالة من "أولاد بالسباع" بالاسم. وبما أنه ليس من عادة هؤلاء كغيرهم من "البيضان" أن يمثلوا بجثث القتلى، فقد تركوا الجثة وتجاوزوا يطاردون العدو المنسحب ولكن الجزائريين القادمين خلفهم، والذين أخذوا عن الأتراك عادة قطع الرؤوس، توقفوا عند جثة القتيل وتقدم أحدهم فقط رأسه، ولم يكن صاحب هذه الفعلة سوى "مختار" طباحي أنا و"لوفجيون"⁴⁰⁰ وعند عودته من المعركة جاني وهو يحمل الرأس ممسكا بشعره. يروى أن الأتراك قد فعلوا نفس الشيء في واقعة "ويسانبورغ" سنة 1870م. فلم يكن من المدهش بالنسبة لي أن أرى هذه "الغنيمة" بين يدي أحد العرب. ولكن لم يستخدم هذا الطباخ سكين المطبخ للتمثيل بجثمان القتيل؟ لقد أثار هذا التصرف القرف والتقرز لدي ولدى جليسي وبالمناسبة عبرنا للطباخ "مختار" عن عدم رضانا وأوسعناه شتما وتعنيفا.

⁴⁰⁰ -أورد "روبرت راندو" هذه التفاصيل في كتابه "المستكشفون"، ص: 259-260 وذكر ردة الفعل المشمئة التي صدرت عن الملازم "لوفانجيون" حين علم أن طباحه قد استخدم سكين المطبخ في قطع رأس القتيل.

إلا أنني حين تذكرت ما تثيره الرؤوس المقطوعة من نفور وخوف لدى البيضان، فقد تركت هذا الرأس معروضا أمام بوابة المعسكر وذلك بالضبط في اللحظة التي كنت أمر فيها الطبيب بعلاج سجين "أولاد بالسباع" هذه بالضبط هي قصة الرأس المقطوع.

تمت إعادة نفس المقال تقريبا في جريدة "إيكو دباري" التي ختمته بقولها: "ترى أن هذه القضية قد تم تضخيمها مع أنها لا تتجاوز أحداثا يمكن تفسيرها أو تبريرها.

هذه بعض الصحف التي حاولت التحلي بالموضوعية. وهناك بالطبع مختلف الآراء الأخرى. ولكن أكثرية النشرات التي كانت آنذاك مولعة بالفضائح المتعلقة بالفترة الاستعمارية لم تكن على نفس المستوى من الموضوعية وسيكون العمل كبيرا إذا حاولت ذكر جميع الأباطيل والترهات التي نشرتها ضدي هذه الصحف. فبالنسبة لأغلبية هذه الصحف قد ارتكبت الفظائع المنسوبة إلي وأنا قادم من بعيد لنجدة البعثة. وكان العاملون في الإدارة الاستعمارية يسرعون في نشر هذه الأخبار في الصحف الموزعة في الموانئ الكبرى دون الاهتمام قدر الكافي بحقيقة الأمور وحتى بالناحية المنطقية فيما ينشرونه من مزاعم وفيما يلي المقال المنشور تحت عنوان: "مذابح موريتانيا":

- "سيمثل الرائد "افرير جان" قريبا جدا أمام مجلس الحرب الذي سيستجوبه حول جملة من الأحداث التي تستحق المعاقبة وكنا قد تحدثنا عنها وكتبتنا أن هذه الوقائع قد تم سردها مع بعض المبالغة وأن الرائد "افرير جان" لم يتجاوز أبدا حدود سلطاته ... يمكن أن نقرأ أن هذا ليس رأي المسيو "روم" الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية الذي ذكر هذه الأحداث في تقريره الموجه إلى وزارة المستعمرات وهي أحداث، إن ثبتت صحتها، سيكون هذا الضابط مسؤولا عنها وهكذا يبدو أن الرائد "افرير جان" قد تبجح مفتخرا بأنه قد أعدم أحد الزوج دون محاكمة بتهمة الانتماء إلى قتلة كبولاني وبعد إعدام هذا الزنجي تبين أن الرائد قد أخطأ الهدف وأعدم أخ المذنب بدلا منه ولكن ذلك لم يغير شيئا في الأمر فبعد أن قتل البريء أخذ المذنب الحقيقي وشنقه دون محاكمة. فيما يتعلق بتمثل الرائد "افرير جان" أمام مجلس الحرب فقد كان ذلك بإلحاح من الوزير نفسه.

لقد استوحى الكاتب مقاله من أحد المقربين من هذه الوزارة والقصة التي تم التلميح إليها هنا هي قصة "حطاني أولاد غيلان" ومما تقدم نرى درجة التحريف والخلط المتعمد بين إعدام أحمد ولد أباه وبين ما حدث. كل ذلك كان محض اختلاق من نسج الخيال. لقد افتخر

كاتب هذه السطور أيضا، ولم يكن ذلك من حقه، بأنه على إطلاع بمحتوى تقرير المسيو "روم" دون شك ولكن لدي فكرة محددة عن خياله. فلم يكن مثولي أمام مجلس الحرب بطلب "ملح من الوزير نفسه" وإنما بطلب مني شخصيا لكي أضع حدا لسيل التهم الكاذبة الذي كنت أتعرض له وقد انتظرت ثلاثة أشهر قبل أن يصدر القرار بشأنني ليس من أجل أن أمثل أمام مجلس الحرب وإنما أمام مجلس التحقيق وقد كان المثل أمام مجلس الحرب سيمكثني من دحض أكاذيب الصحف أمام الملأ أما في مجلس التحقيق فتجري الأمور خلف أبواب موصدة ولن تتاح لي فرصة دحض ما تعرضت له من إهانات بالطريقة التي كانت سترضيني إلا أن مرسوما جديدا كان قد سمح لي بالاستعانة بمدافع، فطلبت مساعدة أحد المحامين المعروفين في "سينلويس" وكنت أريد من وراء ذلك أن يتسرب بعض الحقيقة إلى خارج الجلسة خاصة فيما يتعلق بالحكاية التي تقول إنني تبجحت، كما ورد في الصحافة المناوئة لي، بارتكاب جملة من الأفعال التي يعاقب عليها القانون. وفيما يلي ما نشرته جريدة "لوتان" المعروفة والتي نستغرب مشاركتها في هذه الحملة، فقد نشرت في عددها ليوم 27 ديسمبر 1905م:

- "الاتهامات الموجهة ضد الرائد "أفرير جان"/نشرت جريدة "لوجورنال" في عددها الصادر أمس تفاصيل حول الاتهامات الموجهة ضد الرائد "أفرير جان" المكلف بالبحث عن قتلة المسيو "كبولاني" الذي قتل في تجكجة كما نتذكر من طرف فرقة منشقة من "البيضان". فقام بتعذيب عدد من "البيضان" حين امتنعوا عن إخباره بمكان وجود القتلة فحين امتنعوا عن الرد على أسئلته أمر فرقة الرماة السنغاليين بإعدام عدد منهم بعد أن تعرضوا للضرب بالأحذية ومقابض البنادق فتم القضاء عليهم بالضرب بالعصا وتم شق بعضهم.

لقد قلنا أن المسيو "روم" قد قدم الرائد "أفرير جان" للمثل أمام مجلس الحرب وقد قص هذا الضابط السامي بنفسه على المجلس بكل وضوح تفاصيل الوقائع التي سردناها قبل قليل وقد ترك بعض الحاضرين يأخذ صورها أمام عينيه. يتحدث الرائد "أفرير جان" عن خدماته العظام في حين يعتبره البعض مجرد مغرور لا يستطيع القيام بما يدعيه من إنجازات فهو يفتخر بأنه رد على مذكرة من السلطة تطلب منه حين كان مستولا عن دائرة "النيورو"، تفاصيل نظام الأمن في منطقته، يتبجح بأنه رد قائلا: "النقيب القائد لدائرة "النيورو" يفرض على السكان المحليين الغرامات التي يراها مناسبة ويسدد لهم عدد ضربات السوط الضرورية ويحكم عليهم بالإعدام وفي الحالات الخطيرة يرجع إلى السلطة العليا" طبعا لم يكن هذا المقال

يحمل توقيعها والفقرة الأخيرة تذكرني ببعض الدعابات حول المائدة كانت تصدر بين اللقمة والجرعة قبل ذهابي إلى موريتانيا في نوفمبر 1903 بأحد الفنادق في "سينلويس" بحضرة أحد الكتاب المتحمسين جدا آنذاك. أنا أرفض أنني كنت يوما ما قائدا لدائرة "النيورو" كلما في الأمر أنني كنت فيها تحت الأوامر سنة 1893م وأنا برتبة ملازم. وأذكر لجلسائي دعابة من النقيب "سامساريك" الذي كنت أعمل تحت أوامره آنذاك وكان مهذارا يجب أن أقول أن الذين كان يتحدث عنهم آنذاك تحت أوامر قائد للدائرة في مناطق بعيدة باستثناء "الحالات الخطيرة". مذكرة السلطة المقصودة لم تصدر إلا عشر سنوات بعد الفترة التي كنت فيها موجودا في "النيورو". هكذا نرى الكيفية التي يتم فيها بكل خبث تحميلي مسؤولية بعض المسائل التي وردت في أحاديثي عن آخرين في فترة أخرى فأوصف بأني أتبجح بارتكاب هذه الفضائح وهكذا في الوقت الذي كنت أواجه اتهامات عنيفا يجرؤ رجل سافل التفكير ليكتب ضدي هذه التفاهات متلعبا بمصيري الذي يريد آخرون القضاء عليه وأتمنى أن يكون قد تاب من ذلك وإلا أتمنى أن تتحول ضده يوما كل هذه العبارات التي صدرت منه ضدي.

وبالجملة لم يكن المقال المذكور أنفا سوى نسيج من الأباطيل. اعترف باستغرابي بأن يصدر مثل هذه الأمور في صحيفة جادة كصحيفة "لوتان". فأنا مثلا لم أكلف يوما بالبحث عن قتلة "كبولاني" فقد كنت موجودا في عين المكان وقتلت بعضهم أثناء المعركة وأمسكت بمن أمسكت بهم ولكنني لم أرتكب أبدا المجرمة التي نسبتها إلي جريدة "لوتان" ولم أضرب لا بالعصي ولا بالأحذية أبدا كما أنني لم أرتكب عمليات الشنق التي زخرفوا بها حديثهم عني. ولم أسأل "البيضان" أبدا عن مكان وجود قتلة "كبولاني" فقد أرسلت دوريات لاستقصاء الأمر تمكنت بسرعة من طرد المهاجمين وحنيتها أرسلت فرقة الجمالة التابعة لي لمطاردتهم ربما يكون ما تعرض له "البيضان" الذين جاءت بهم الدوريات قد اعتبر من طرف هؤلاء من مشاهد التعذيب ولكن لا نبالغ إذن ولنتمنى مثل الاعتدال الذي نطالب به هنا للفرقة المركزية لشرطة "باريس".

هناك أيضا قضية الصور الفوتوغرافية فحسب علمي أخذ عمال سكرينيريا "كبولاني" صورة لأحمد ولد أباه وهو في المشنقة. وإن كانوا قد أخذوا غيرها صباح يوم 13 مايو فلا

شك أنهم بفعلهم ذلك قد ارتكبوا مهزلة غير مقبولة⁴⁰¹ وهو ما لا أصدقه لأن حزنهم كان حقيقيا وكبيراً ولم يكن لديهم وقت ولا قدرة للتفكير في الاحتفاظ بوثائق من هذا الصنف على كل حال لن أسمح أبداً بأخذ صور فوتوغرافية لشخص مشنوق إذا كان كورسيكي قد أراد أن يثبت لبلده انتقامه ممن قتل كبولاني، فإنني لا أرى أي صلة لهذه الصورة بي شخصياً ولا أي إسهام يمكن أن تضيفه إلى اتهامي.

أعرف جيداً أن واحداً آخر من كتاب كبولاني قد حرر ضدي تقريراً وقد ذكرت سابقاً سبب ذلك وقد قيل لي عدة مرات إنه قد وشى بي لدى السلطات العليا ليقدمني في صورة المتعطرس وربما يكون قد استعان في ذلك بصور فوتوغرافية غريبة طلبت بإلحاح أثناء التحقيق أن أراها دون جدوى ربما تكون عدة صور ولا ندري بأي مشاهد تتعلق تلك الصور في الحقيقة، لقد تصورت كل الاحتمالات لأنهم رفضوا مشاهدتي لتلك الصور لكي أعطي رأبي فيها. أخيراً، أعلن جازماً أنني لم ألتق مرة ثانية بالمسيو "روم" من 16 نوفمبر 1903م حتى شهر أغسطس 1907م. وقد وصفت الأحداث بشكل رسمي في تقارير أي في وثائق لا يمكن لأي كان أن يتبجح أو يفتخر فيها بل وإنما المطلوب هو الحقيقة والحقيقة فقط، وأتحدى أي كان بأن يجد في هذه التقارير الترهات التي اعتبرتها جريدة "لوتان" حقائق مقدسة كما أنني لم أتمكن أبداً من سرد هذه الأمور للمسيو "روم" الذي أتمكن من مقابلته طيلة وجودي في إفريقيا من 1903 إلى 1905 فأنا إذن لم أفتخر بشيء أبداً أمام المسيو "روم" و"الرعونة" التي تحدثوا عنها هي الصفة اللائقة بأولئك الذين لفقوا كل هذه الأباطيل (استجابة لهوى جمهور مولع بالفضائح المتعلقة بالفترة الاستعمارية لأنهم جبناء ولا يستطيعون المخاطرة بأنفسهم ولا تحمل المناخ الرديئ ولا الإقامة بين شعوب شرسة). ومع ذلك فبسبب مثل هذه التهجمات غادرت فرنسا في إبريل 1906م، مخلفاً أبا مريضاً وأما مذعورة، وقدمت إلى دكار لأمثل أمام مجلس التحقيق بسبب هذه الوقائع التي ثبت بعد التحقيق عدم إمكانية تجريمي بسببها. وبالجملة تمت تبرئتي بالإجماع بعد محاكمة استمرت من 14 إبريل إلى 22 مايو 1906م.

⁴⁰¹ - يوم 13 مايو هو يوم دفن كبولاني وقد أجمع الكل على مدى الحزن الذي كان مسيطراً على جميع أعضاء البعثة.

وقد سنحت لي الفرصة أثناء هذه المحاكمة بأن أرى أحد أعدائي يكتب في "تونكين" محاولاً أن يسد لي رفسة حمار! بعد أن إطلع على الأوراق الإجرائية، كتب وزير الحرب ما يلي:

- "يستنتج من التصريحات التي حصلت أمام المجلس عدم تماسك أي من الاتهامات المصرح بها ضد الرائد "فرير جان" وأضم صوتي إلى رأي مجلس التحقيق وأصدر أمراً بحفظ ملف هذه القضية دون متابعة وأن ترفق مع الملف الشخصي للرائد "فرير جان" ملاحظة تلغي شكل ومضمون المآخذ وتحول دون أخذها في الحسبان من طرف القادة الذين سيتولون تقييمه في المستقبل بما لا يدع مجالاً للشك في صحة أو عدم صحة الاتهامات الصادرة ضد هذا الضابط السامي".

لاشك أن الوزير كان مقتنعاً جداً، حتى تصدر منه طواعية مثل هذه الملاحظات. من جهة أخرى بقيت كل مقترحات الأوسمة والترقية بناء على السلوك أثناء الحرب حبراً على ورق وبما أن مجلس التحقيق لم يكن علنياً وأنهم قد تجاهلوا بكل بساطة أن يكون قد استدعي من أجل محاكمتي فقد ثبت في أذهان الكثيرين أن قضيتي إنما تم إخمادها وأنها قد لا تكتسي أهمية لأن كلما قدمت به في موريتانيا كان معروفاً وربما بالغ فيه الرأي العام ولم أحصل منه على أية مكافأة. وإن انتقلنا إلى تاريخ لاحق وقيل لي إنني حصلت على وسام ضابط الشرف، سأرد بأن الوسام لم يسلم لي إلا بعد مرور ثلاث سنوات على انعقاد مجلس التحقيق وأني لم أحصل على ذلك الوسام إلا بفضل العقيد "كورو" وعلى خلفية حملة آردار أي مكافأة على الخدمات التي قدمتها بعد مجلس التحقيق وقد يعنقد أنني إنما حصلت على هذا الوسام مكافأة على هذه الخدمات الأخيرة وأخيراً وحتى بعد الملاحظة والتقييم الجيد الذي رافق تسليم الوسام فلم يمح ذلك الانطباع السيء الذي خلفته حملة شرسة في الصحافة العمومية والتي لا يخفى منها لأي ملاحظ موضوعي أن الذين تم تكليفهم بإظهار الحقيقة وإعلانها قد تركوني ضحية دون أي اعتراض.

ولهذا السبب أجعل الآن من القارئ حكماً، فهل سيجد في ذلك إجحافاً به؟
أختم هذه الحملة بهذه الأفكار التي أقرؤها لمؤلف معروف. ستمثل مغزى الصفحات السابقة، فتظهر أنني، مهما بدت قاسياً في هذه المرحلة الصعبة من حياتي، فقد تصرفت كما ينبغي.

يقول "ماندرون" في كتابه "الهند الجنوبي، الكوروماندل" إن الإفراط في الصرامة متأتي أكثر من السياسة التي توجه بالمثل ليحتذى أكثر من تركيزها على فكرة العدل. العقاب المتراخي يؤدي إلى العصيان الذي يعتبر من قبيل الضعف ما هو محض تصرف إنساني أسيء فهمه.

إن من واجب كل حكومة تحترم نفسها، أن تفرض الاحترام. ما الاحترام بالنسبة للمشرقي إلا الجانب الخارجي للرعب وبما أنه لا يبجل سوى القوة، فهو يتذكرها إذا كانت مشفوعة بالعقاب ومما لا يقبل النفي أن "البيطاني" مشرقي من حيث الأصل والتقاليد والدين. على القارئ أن يستخلص النتيجة.

الجزء الثالث
قافلة آدرار، على تخوم موريتانيا

عند "خاي" حيث يعود الحديث عن أمير آدرار.

مكثت خمسة عشر شهرا في فرنسا بعد عودتي من مجلس التحقيق. فذهبت أولا إلى "كوتري" لعلاج ألم في حلقومي ثم حضرت مناورات اللواء الواحد والثلاثين مع كتيبة المشاة في الجيش الاستعماري في "سيت". كنت في وضعية إعاقة ووحيدا في قيادة إحدى الفرق في هذه المناورات في إقليم "لافيرون" وهي مناورات مفيدة حصلت فيها من الجنرال "ابو" على شهادة مكتوبة تعبيراً عن الرضى عن هيئة وسلوك كتيبتي. ومنذ هذه المناورات لغاية آخر مايو 1907 بقيت على رأس الكتيبة ذاتها وكوني قائد سلاح في "سيت".⁴⁰²

إلى جانب الذكرى السيئة لإقليم الجنوب ذي المناخ الرطب والرياح العاصفة، علقت بمخيلتي من هذه الحقبة ذكرى مريحة عن هؤلاء الرجال الشجعان الذين قذتهم وعن أهل "سيت" الطيبين الذين كنت ألقاهم، وبقيت معي بصفة خاصة ذكرى كوكبة من القادة الأكفاء الذين هم من أفضل من لقيتهم طيلة مسيرتي العسكرية.

وبما أنني حصلت على وضعية الإقامة الحرة⁴⁰³ منذ نهاية سنة 1907م، لم يكن علي أن أشرك في قمع الاضطرابات في أقاليم زراعة الكروم بالجنوب⁴⁰⁴. وبما أنني كنت قد أخذت دور شخص آخر مرة أخرى من أجل تعجيل ذهابي إلى المستعمرات، فقد بلغني خبر عودتي الوشيكة إلى إفريقيا الغربية.

402- مدينة (Sète) وقد أصبحت تكتب (Cette) منذ 1927 فقط.

403- وضعية خاصة لقوات البحرية والقوات الاستعمارية: فترة راحة تشترط فيها العودة عند أول نداء مع احتفاظ المعني براتبه (إشارة من "أفرير جان").

404- تم في بداية القرن العشرين قمع الكثير من الاضطرابات الاجتماعية بأوامر من الحكومة التي أرسلت الفرق ضد المتظاهرين كما أرسلتهم لطرده رجال الدين وإحصاء الكنائس ولم يمر ذلك دون إثارة مآسي من أزمات الضمير أدت إلى استقالة بعض الضباط.

تحت وزارة "اكلمانسو" (أكتوبر 1906 إلى يوليو 1909) أدت حركات نقابية واجتماعية إلى مظاهرات عنيفة في بعض الأحيان خاصة سنة 1907 (إضرابات عمال الكهرباء والإدارة والمكتبيين البحارة وعمال البناء في باريس وعمال البريد) في "أدرايفيل" أدى الصدام بين الفرق والمتظاهرين إلى وفاة ثلاثة أشخاص من العمال. وفي أقاليم زراعة الكروم في "كارد" وفي "هيرولت" كانت الاضطرابات بسبب خوف صغار ملاك الأراضي الذين كسد إنتاجهم من الخمور فتحول الوضع إلى اضطرابات: شجار، حريق مكاتب حاكم "تاربون" كعلاج لهذه المأساة الاقتصادية دفع "اكلمانسو" بالفرق الأمنية. ولكن فرقة الخط السابع عشر المؤلفة في أغلبها من المكتبيين الجدد المنحدرين من الإقليم قد امتنعوا عن الهجوم وتضامنوا مع المواطنين للزحف على "بزيير" ولم ينتهي التمرد إلا بعد صدور وعد من الحكومة بإعلان عفو شامل والمصادقة على قانون ضد الغش وخاصة بعد ارتفاع أسعار الخمر هدأت الأوضاع.

في نوفمبر 1906 حين وقعت المأساة التي تعرض لها جنودنا في "النيملان"⁴⁰⁵ يوم 25 أكتوبر الماضي، عرضت التطوع بالإعادة إلى الخدمة في موريتانيا ومع أن العقيد "موناني" قد سجل طلبه إلا أنه لم يتمكن من البت فيه.

لقد كان إرسالي إلى إفريقيا الغربية التي كنت قد ذهبت إليها في يونيو 1905م تحت طائلة الاتهامات التي تحدثنا عنها وحيث كان علي أن أعود سنة 1906م لأمثل أمام مجلس التحقيق، يمثل بالنسبة لي نوعا من إعادة الاعتبار إلي من طرف رؤسائي إن كنت أحتاج إلى ذلك.

لقد كنت مسرورا بالعودة إلى إفريقيا. التقيت في "بورديو" بالمسيو "آرنو" كمرافق أثناء الرحلة على متن الباخرة "الشيلي" وهو صديق قديم في بعثة تكانت-آدرار ومعه سكرتير شاب للجنرال بدا بشوشا ولطيفا. نزلت في داكار يوم 10 أغسطس 1907م حيث تقدمت للمرة الثانية إلى الحاكم العام المسيو "روم" حيث استقبلني وكأن شيئا لم يكن من الأمور التي جرت بيننا في السابق فأدركت للتو أنني أذهب هذه المرة في مهام بطريقتي أخرى كما أنني كنت مصمما على عدم التطرق إلى أي شيء من ذلك وحتى بالإشارة أو التلميح وقد انتبه بعض الحاضرين، وليسوا من أقلهم شأنا، إلى تصرفي. لقد وجد الجنرال "أوديود" وهو آنذاك القائد الأعلى للقوات في إفريقيا الغربية، نفسه محرجا بسبب رتبتي، فلم يكن يستطيع تعييني في موريتانيا فأرسلني إلى المفزة الثانية من الروماة السنغاليين في ما يسمى "كتيبة الساحل" ويوجد مركزها في "خاي" من بين الفرق الخمس التي كانت تخضع لأوامري مع رتبة قائد قوات الساحل، كانت ثلاث توجد في بلاد "البيضان" وواحدة على الحدود مع هذه البلاد فكانت الوحدات في "كيفه" و"النيورو" و"كومبو" و"سوكوتو"، لقد كانت لدي إذن رجل في المناطق التي كانت تستهويني أكثر والتي سأزورها أثناء مهمات التفتيش وأتمكن بتلك المناسبة من زيارة "أهل سيدي محمود" و"اسواكر" و"الغلال" و"أولاد الناصر" و"أولاد أمبارك" و"مشظوف"

⁴⁰⁵ - الشيخ ماء العينين عمل على أن يعينه المخزن ممثلا رسميا له في جنوب المغرب فوجه نداء إلى القبائل المناوئة للفرنسيين ووزع الأسلحة وأطلق الغارة على موريتانيا وقدم الدعم للشريف "مولاي إدريس"، ابن عم السلطان الذي أخذ قيادة جميع المناوئين الذين قدموا لحصار تجكجة التي كان يدافع عنها آنذاك النقيب "تيسوت" ولفك الحصار أرسلت "تيسوت" ضد مهاجميه الملازمين "آندريه" و"ديفرانسو" معهما ستين من الرماة السنغاليين وثمانية من الجمالة البيضان وفرقة من الموالين من "كنته". ولكن "إدوعيش" من أهل تجكجة قد خذلوا "آندريه" فوقع في كمين عند "النيملان" وقتل كما أن "ديفرانسو" الذي كان عائدا بالناجين إلى المركز قد قتل بدوره من طرف الموالين الذين انتقلوا إلى العدو. (أرشيفات سينلوييس السلسلة N رسائل النقيب "تيسوت" والكلونل "تشار" وج. دزرى فيلمين: "مساهمة في تاريخ موريتانيا" "كلير أفريك" داكار 1962).

وهي قبائل مهمة حاملة للسلاح وتمتحن النهب في بعض الأحيان. سأتمكن من العودة إلى "اركييه" و"أفله" وهي المناطق التي اجتزتها سنة 1905م وسأجوب من جديد أقاليم بلاد "البيضان" التي مررت بها سنتي 1893 و 1894 مع النقيب "سانساريك" (قتله العدو في "دونكو" قرب "تينبكتو" يوم 15 يناير 1894م). وقوافل "أرشينار" و"جوفر". قبل صعودي في "سينلويس" على سفينة "تونمبكتو" التي ستقني إلى خاي قدم إلي المترجم الرئيسي "بوالمقداد" واحدا من البيضان يقبل مرافقتي فقد كنت أحتاج إلى من يساعدني في تحسين مستواي في اللهجة الحسانية أو على الأقل يمكنني من تذكر ما قد تعلمته سابقا. في جميع رحلاتي المقبلة عبر منطقة الساحل كنت أعرف أن بإمكانني التعويل على مرافقة واحد من البيضان من منطقة الغرب، من أجل مراقبة البيضان الشرقيين الذين سألقاهم ومن أجل جمع المعلومات التي ستكون ضرورية بالنسبة لي يوجد تنافر شديد بين الفئتين من البيضان أهل الشرق وأهل الغرب كما أن الشخص الذي اكتبه يعتبر نفسه منحدرًا من فئة العرب وكان يكره من يسميهم أبناء آزناكه البربر الذين ينتشرون في منطقة الساحل.

أقدم هنا نبذة عن رجل البيضان الذي قد لعب منذ ذلك الوقت دورا هاما في حياة الترحال والتنقل التي كنت أعيشها والذي كان، من واجبي أن أعترف بذلك، مخلصا لي بحق. لقد كان "أحمد يحظيه ولد المصطفى ولد أسويد" ابن رجل من زوايا "تاشديت" في اترارزة أصله من "لغلال" وكان قد توفي منذ فترة أما أمه فكانت من "لعلب" فرع "لكوافيف" من قبيلة تحمل السلاح. وكان الأب قد تخلى عن المرأة وأطفالها الثلاثة وأكبرهم سنا "أحمد يحظيه" وتركهم يعيشون حياة البؤس فذهبت الأم لتلتحق بأخيها "سيدي ولد لحبيب" وهو أحد أبطال "لعلب" فرع "لكوافيف" وكان صيادا محترفا إلا أنه تخلى عن حياة اللصوصية والنهب ليصبح مقاولا مشهورا في نقل "الفتق" حيث كان يؤجر جماله لبني جلدتنا في السنغال. لم يلبث "أحمد يحظيه" أن ارتبط بخاله⁴⁰⁶ وأخذ اسمه "سيدي" فأصبح له بمثابة الأب وسنتحدث فيما بعد عن سيدي هذا.

⁴⁰⁶ - يلعب الخال دروا تقليديا مهما في الأسرة الإفريقية وكذلك لدى البيضان، فهو وكيل أبناء أخته في حالة اليتيم أو الطلاق. وهو يستقبل أخواته عند الحاجة. لقد كان سيدي ولد لحبيب هذا خالا بالمعنى التقليدي للكلمة كما كان تاجرا ناجحا، حيث تمكن من اغتنام الفرص والاستفادة من نشاط كان مثمرا فضله على حياة الغارات التي فيها كثير من الخطر خاصة مع تزايد نفوذ الفرنسيين.

لقد أصبح "سيدي" بعد فترة قليلة من أمهر الرماة على يد خاله وكان صيادا ماهرا وفارسا وجمالا مجريا⁴⁰⁷ لقد كان نحيفا متوسط القامة صلبا كل مواصفاته تجعله ضمن فئة حملة السلاح من أخواله "لعلب". الذين كان يلعب مع أترابه منهم وهو طفل صغير، لقد كان يكن حقدًا شديدًا للزوايا ربما كان ذلك من وحي أمه التي لم تغفر لوالده تصرفه معهم.

عندما انشق فرع "لعلب لكوافيف" سنة 1905 لم يذهب معهم خاله "سيدي ولد لحبيب" بل توجه ناحية السنغال حيث كانت تدعوه تجارة الفستق وعندما مرض وتوفي في جنوب اترارزة توجهت أخته والدة "سيدي" مع ابنها إلى أختها التي كانت زوجة رجل من "أولاد اللب" تعيش معه في مضارب "لعلب الكحل" الذين لم ينشقوا. وما لبث "لعلب الكحل" أن عاملوا "سيدي" وإخوته أسوء معاملة لدرجة أن الأسرة فرت لتستقر في "سينلويس".

هنا أراد "سيدي" وكانت سنه يومها سبع عشرة سنة أولاً أن يلتحق بفرق الجمالة ويذهب للعمل معي في "تجكجة" حيث كنت آنذاك. وهي فترة مقتل كبولاني، فلم يسمح له صغر سنه بذلك كما أن والدته كانت قد أقنعتة بعدم الذهاب وفضلت الانتقال به إلى جنوب السنغال حيث استأنفت النشاط التجاري لأخيها المتوفى⁴⁰⁸ وهكذا قام سيدي بعدة رحلات إلى "قاتيك" في "كازمانس" أولاً مع والدته ثم مع أحد أعضاء فرقة الجمالة التي كانت تعمل معي وهو من أولاد السباع يسمى محمد سالم ولد اعبيدي الذي حشى رأس الشاب سيدي بقصص الحرب التي كنت بطلها، لدرجة أن سيدي لم يعد يحلم إلا بالاقتراب مني وبالعودة إلى موريتانيا لخوض الحرب تحت أوامري.

ولكن إذا كان سيدي قد تعلم من هذه القوافل حياة الترحال فإنه أيضاً قد عانا خلالها من حمى الملاريا التي لا ينجو منها أي واحد من البيضان عندما يجتاز النهر نحو الضفة الجنوبية. فاضطر إلى ترك الذهاب إلى جنوب السنغال وعاد ليقيم مع والدته في "سينلويس" التي ما لبثت أن ذهبت لتسوية بعض المسائل المتعلقة بالمصالح لدى "لعلب الكحل" وتركت "سيدي" في "سينلويس" ولكي لا يبقى عائلة عليها فقد بحث عن عمل في المدينة. فأصبح أولاً سائس خيول لدى أحد التجار الخلاسيين (المولدين) ولكن نجل رب عمله قد شتمه يوماً فضربه "سيدي" وخاطبه قائلاً: "زنجي قذر" فكان عليه الذهاب بحثاً عن مكان آخر، فوجد

407- هذه هي التربية المثلى للشباب في القبائل الحاملة للسلاح.

408- النساء البيضانيات وكذلك السنغاليات يتمتعن غالباً بموهبة تجارية فقد نجحن كمديرات شركات.

ضالته لدى بائع الحلويات الأوربي في المدينة حيث تعلم صناعة الحلويات وتعلم الفرنسية وفي هذه الأثناء أظهر الإخلاص للفرنسيين عبر تصرفاته فقد هب عدة مرات لمساعدة رجال الدرك وهكذا تلقى يوما طعنة بسكين على الحاجب على يد واحد من "الولوف". فتلقى جراء ذلك مكافأة قدرها أربعين افرنك قدمتها له قيادة الدرك وأخيرا أصبح عامل مخازن لدى أحد الوجهاء من التجار المغاربة في "سينلويس" الذي ما فتئ أن سلمه كعامل مهام يومية لدى صديقي "مولاي ولد عبد الواحد" وهو تاجر من "أولاد بالسباع" وهنا تعرف عليه "بو المقداد" وعلى ولعه بالمغامرات رغبته في مرافقتي ف جاء ووأخذه وأتاني به على متن باخرة "تونمبكتو".

كان "سيدي" هو الشخص المناسب لي بالضبط فقد كان عصاميا ومتعودا على حياة البادية، يتكلم الفرنسية بمستوى جيد وهو نبيه ورشيق كالقرد وكان قناصا من الدرجة الأولى. عيبه الوحيد هو ثقته المفرطة في قدراته، وبسبب ذلك كانت له فيما بعد بعض المغامرات مع الزوج في السودان، وكانوا يكونون بغضا دفينا للبيضان وكان "سيدي" في هذه القضايا في أغلب الأحيان يوزن على الأقل بثلاثة رجال وبالتالي تكون له الغلبة دائما ولكن هذه التصرفات سببت له بعض المشاكل مع وكيل الجمهورية في خاي الذي كان شديد التعاطف مع الزوج. ومن حسن حظ "سيدي" أنني كنت يومها أتناول الطعام في مكان واحد مع القاضي رئيس المحكمة. وفي الحقيقة لم تكن الحياة المتحضرة في صدارة اهتمامات صاحبي ومع ذلك، عندما تزوج بموافقتي ودعمي المالي⁴⁰⁹، أصبح أكثر استقرارا فقد تزوج واحدة من "أولاد لغويزي" من أصل عربي لم يمر وقت طويل حتى رزق منها ولدا هو "عبد الرحمن".

سنعود إلى الحديث عن سيدي فيما بعد.

كنت قد وصلت إلى "خاي" يوم 23 مايو 1907. وكان رفيقي في الرحلة على متن "تونمبكتو" الرائد "أباتي" المفوض بالنيابة للحاكم العام لموريتانيا. وكان ضابطا ساميا عمل منذ ثلاث عشرة سنة خلت ملازما في نفس الوقت معي في "تونمبكتو" كما صعد معنا على نفس السفينة الإداري "هانري بوناسياس" هو نقيب سابق من سلاح المشاة كنت عرفته منذ أربع سنوات وهو الآن متوجه إلى "خاي" لتسلم مهامه في الدائرة نزل الرائد "أباتي" في "باكل" واجتاز النهر متوغلا نحو الشمال: كان ذاهبا في مهمة تفتيشية في "غيدماغا" الإقامة

⁴⁰⁹ - المساعدة المالية دون شك ضرورية لدفع مهر الزوجة.

الموريتانية حيث يوجد "السرقوله" الزوج ينتشرون في نصف المنطقة وهم معروفون آنذاك بأنهم قد دسوا السم لحاكمين على التوالي⁴¹⁰. في "خاي" بدأت أستعد للذهاب فوراً في رحلة وكان عندي فرس جيد من خيول الحرب كميته كرزى اللون أسميه "ماتام" واشترت فرسين آخرين خصصتهما لعمالي أحدهما "بوشويمه" وكان "سيدي" يمتطيه ويطلق بندقيته من على ظهره فلا يتحرك والفرس الآخر "كيمه" وهو حيوان جميل خلاسي بين فصيلتين خصصته لطباخي وكان لون الفرسين الأخيرين كميته أشقر. لم أكتب طبأخي إلا في نهاية سبتمبر وكنت لغاية تلك الفترة أعيش مع الإداري "بوناسياس" قائد الدائرة. لقد كان "مدو كونه" بمباريا أصيلاً كان وجهه بلون الشوكولا الداكن تحيط به لحية قصيرة وكان وجهه الأشدق يناسب مهنته تماماً كان من عادته ارتداء ثوب رمادي اللون أعطيته له ويضع فوق رأسه قبعة غير منتظمة الشكل ولا اللون. وكان فوق الفرس يشكل تناقضا كاملاً مع "سيدي" فقد كان هذا الأخير فارساً أنيقاً يلبس ثياب البيضان ويغطي رأسه بالعمامة في حين كان مامادو يمتطي فرسه بتباطؤ ممسكاً غليونه بين أسنانه وقد مد رجليه إلى الأمام. كان يطبخ ما يصطاده سيدي في حين كان هذا الأخير يضع بندقيته مهياً على راحته وينتقل من مكان إلى آخر في مقدمة الفاقلة وأطرافها بحثاً عما يطلق عليه بندقيته أو ما يكتشفه في حين كان مامادو المسالم يسير في الخلف وراء الثور الذي يحمل الأمتعة وآلات الطبخ كان ينظر بتركيز إلى قلادة فرسه ولا يفتح شفتيه إلا ليمزح مع فرقة الرماة السنغاليين المرافقة له وكان يكره البيضان ومع ذلك تفاهم تماماً مع "سيدي" باستمرار إلا في أيام استلامه لراتبه، فقد كان وهو المتعلق بالتائم والأحراز، يأخذ قبعة الريش⁴¹¹ ويضعها على رأسه زاعماً أنه ينحدر من أسرة ملكية وتتأبه نوبة من الشراسة حين يضحك البعض من هذا الزعم في حين كان "سيدي" يسخر من ابن الملوك هذا الذي يدمن الشراب. فلم تكن الإقامة في المدينة مناسبة لمامادو بسبب مسألة الشراب هذه فلئن كان مخلصاً بأقصى ما يكون إخلاص "البمباري" المعهود إلا أنه مع ذلك كان يتمتع بالحياة ويكون مرتاحاً ولا يريد شيئاً حين يكون قد حصل على كل ما يحتاجه من أكل وشرب. انطلقت من "خاي" بهذا الفريق المتواضع مع بعض الرماة السنغاليين آخر

⁴¹⁰ - فعلاً السم هو السلاح المفضل لدى "السرقوله" وكانوا يعدونه بإتقان وتصاحب العملية تعاويذ سحرية لمضاعفة مفعول السم.

⁴¹¹ - أخذ قبعة الريش: عبارة أخرى كانت شائعة في زمن أفرير جان للإشارة إلى انفعال المتكبر، ولم تعد مستخدمة في الوقت الحالي.

سبتمبر متوجها إلى "النيورو". وكانت تلك المرة الثانية التي أخوض فيها هذا السفر وكانت الأولى أواخر سنة 1892.

مررت أثناء الرحلة بقرى: مدن، كانمان، كونو، سكاللا، منيا، ديكولان، يليمانى، كرانى، كرسينيارى، كاركا، وأفوسى. كان مركز يليمانى في ذلك الوقت تحت قيادة المسيو "أعمر" وهو جزائري يتكلم لهجة البيضان بطلاقة، وقد سهل ذلك علاقاته مع "أهل سيد محمود" و"تنواجيو" القاطنين في الإقليم، وقد عرفته قدما وكانت فترة إقامتي القصيرة في مركزه مريحة جدا، إلا أنه ارتكب خطأ بعدم إعطائي معلومات عن سلوك الإداري الذي يحكم "أنيورو". وعند وصولي لهذا المركز قضيت أياما في تفتيش الحامية ثم أبدت رغبتى في الحصول على بعض الحيوانات القادرة على حمل المتاع لأنقل بعض الألبسة والمتاع إلى "كيفة" من أجل الفرقة المرابطة هناك.

فقابلني الإداري الذي يحكم "أنيورو" بعدم الحماس والتردد في تلبية طلبي. كان صاحبنا هذا في السابق طبيبا من البحرية ولديه ميل شديد إلى جعل الدائرة "تخضع لسلطته بشكل مطلق ولا رأي لأحد فيما يقوم به. وكان في "أنيورو" في ذلك الوقت مفتش شؤون محلية غير مقبول جدا وكان الإداري الحاكم يستغل ذلك ويسيء معاملته. والحال أن المفتش كان برتبة رائد سابق في سلاح المشاة الاستعماري فكان بالنسبة لي يستحق من التقدير والاعتبار أكثر مما يستحقه السيد قائد دائرة "النيورو" فكانت أتكلف في كل مناسبة التظاهر باحترامه بسبب المنصب أكثر من أي شيء آخر وخاصة جانب التهذيب. ومن جانب آخر كان في "النيورو" شخص مهم عندي شخصا هو المسيو "مارث"⁴¹². وهو أسير سابق لمدة طويلة لدى البيضان ولديه معرفة جيدة بهم عموما وخصوصا أهل الساحل الذين كانت معلوماتي عنهم محدودة.

كان "مارث" عريفا سابقا من سلاح مشاة البحرية وقد فر من الخدمة في أحد الأيام بسبب عدة أفرنكات كانت ناقصة من الحساب اليومي ولجأ إلى مجموعة "إدولحاج" في اترارزة حيث عاش معهم زمنا طويلا وقد استعبدوه رغم اعتناقه الإسلام وهكذا جاب معهم كافة مناطق الصحراء الغربية بما في ذلك "واد نون" حيث كان يرافق قوافل أسياده. وذات صباح من سنة 1894 طفح كيله من حياة التشرذم القاسية فسلم نفسه للسلطات الفرنسية ومثل أمام

⁴¹² - انظر حول الموضوع "نشرة اللجنة الإفريقية الفرنسية" نوفمبر 1892.

مجلس الحرب فتمت تبديته خاصة لأن المجلس أخذ في الحسبان ما عاناه منذ فراره. وبعد أن أصبح حرا حاول "مارت" الإقامة في "تونمبكتو" ثم استقرت به الحال في "انيورو" حيث أقام تجارة رابحة مع البيضان الذين كان على دراية واسعة بلهجتهم وعاداتهم إلا أن حاكم "انيورو" المتجبر لم يكن بطبيعة الحال ليسمح بأن يكون هذا التاجر أكثر اضطلاعا منه على شؤون البيضان القاطنين في المنطقة وخاصة أن يكون جاهلا بما يدور بينه وبينهم من معاملات وربما مآمرات، فكان الحاكم يكن حسدا شديدا لـ"مارت" ويتمنى زواله. أما أنا فوجدت في المسيو "مارت" رجلا محترما يتمتع بعلاقات ممتازة مع ضباط الحامية لديه معرفة عميقة بالمنطقة وسكانها وقد أسدى لي خدمة حين أعطاني بسرعة كلمة السر لفهم الأطوار الغربية والممارسات العنيفة التي تصدر على الدوام من هذا الحاكم المتجبر. كان البيضان يرجعون إلى المسيو "مارت" في كل شيء ولأدنى سبب وقد استمروا يدعونه "عبد الله" مع أنه ارتد عن الإسلام وكانوا يخبرونه بكل صغيرة وكبيرة في شؤونهم وحتى عن ما يكتشفونه هنا وهناك، فلننتصر إذن ما سيشعر به الحاكم المتجبر من إهانة حين يعلم أن هناك من هو على دراية دقيقة بكل ما يجري في دائرته.

انتظرت الحصول على الثيران عدة أيام بسبب تقاعس الحاكم وهكذا مددت إقامتي في عاصمة دائرته، وقد استخدمت ذلك الوقت للتعرف من جديد على هذه المدينة التي لم أرها مرة أخرى منذ 1893... لقد تم هدم القلعة⁴¹³ التي بناها "الحاج عمر" واستخدمت حجارتها لبناء مساكن الأوروبيين في المدينة ولكن المدينة القديمة ما زالت كما هي لم تتغير قيد أنملة، ومن جانب آخر مازالت جماعات البيضان وإبلهم تتجمع في الساحة الكبيرة كعهدي بها قديما. تمكنت الإدارة أخيرا من إعطائي بعض الثيران الهزيلة لحمل الأمتعة فواصلت مهمة التفتيش وانتقلت من "انيورو" إلى "كيفه". تركت آخر قرى الزنوج عند "لاكانكم" في ناحية الشمال الغربي من "كيراني" وكم كانت سعادتي كبيرة حين وجدت نفسي في الصحراء الخالية من سكان القرى حيث تنتشر حواضر البيضان ومتنقلا من مرحلة إلى أخرى وصلت أخيرا مدينة "كيفه" مررت ببحيرة "دوويناي" وزحفت من هناك عبر الصخور المسطحة إلى "بويطحة" وفي الغد لقيت مفتش الشؤون المحلية المسيو "مارتن" الذي كان عائدا من تفتيش "كيفه" من

⁴¹³ - بناء مرتفع كان معروفا في إفريقيا الغربية.

الناحية الإدارية والسياسية ثم مررت ببلدة "اديكوم" ثم بالمر الموحش في "النايريس" وأخيرا وصلت "أم آدوير" ثم "أم اطيور"⁴¹⁴ ثم وصلنا "كيفه" في اليوم السابع بعد ذهابنا من "النيورو" بعد أن قطعنا نحو 280 كلم من الفيافي والأدغال. كنت أتخيل "كيفه" أبعد من هذا بكثير فقد كنت مررت بها سنة 1905 في طريقي للهجوم على الأمير "بكار" في بوكادوم، وكم كانت مفاجأتي كبيرة حين وجدت مركز "كيفه" عند آبار "حاس بابو" هنا، كما هناك، يجري تطبيق العادة الفرنسية بتشويه جميع المعالم الجغرافية. وجدت المركز قيد البناء، كانوا يشيدون فيه منطقة معزولة بجدار من الحجارة وكنت سعيدا بذلك لأن المركز في حالته القديمة كان أوسع بكثير من الأعداد المرابطة فيه ولم يكن من الممكن الدفاع عنه إذا تعرض لهجوم من عدو مصمم، فلم يكن المقيمون فيه يستطيعون الثبات مثل ما حصل في قلعة "كبولاني" سنة 1905 حين تعرضت للحصار بعد كارثة "النيملان" حين صمدت القلعة أمام هجمات مرعبة متعددة.

كان مركز "كيفه" على حالته تلك مقر إقامة النقيب "مانجيو" الذي كان يسير من هناك شؤون منطقة شاسعة تشمل "اركييه" و"أفله" و"المسيله" وكان معه داخل المركز نصف فرقته فقط صحبة ملازم وطبيب، وقد لاحظت أنه أفلح كثيرا في استمالة "أهل سيدي محمود" القبيلة المسيطرة في المنطقة وقد بدا لي ولزميلي "مارتن" أنه يحسن إدارة من حوله، ولم يكن ذلك طبعا هو رأي صاحبنا الحاكم المتجبر في "النيورو". كانت فرقة "كيفه" تشتمل على فيلق من الجمالة تجوب المنطقة، ذهبت مع النقيب "مانجيو" لتفتيش هذا الفيلق الذي كان يوجد على بعد 150 كلم إلى الجنوب الشرقي في وسط منطقة "أفله" مكنني ذلك من أن أمر من جديد بالأماكن التي كانت شاهدة على رحلتي سنة 1905م: "تامورت الراحة"، "المنصور"، "بيبال"، ثم "بوكادوم" حيث أقام "إدوعيش" ضريحا فخما من الحجارة لأميرهم "بكار ولد اسويد أحمد" الذي انتصرت عليه في فاتح إبريل 1905، ومن هنا سرت مرورا "بيشيشي"، "أم البارز" وسط أحياء "اسواكر" الخاضعين لنا والذين كانوا يشكلون حول فيلق الجمالة بقيادة الملازم

⁴¹⁴ - "أم اطيور" (أم الطيور) أي المنطقة التي يعيش فيها كثير من الطيور (إشارة من "افير جان").

"أباكت"⁴¹⁵ حزام أمن. فوجدت هذا الفيلق منظمًا ومدربًا كأحسن ما تكون عليه فرقة محمولة على الجمال، وكان مؤلفًا من الزوج النظاميين تقريبًا فلم أخف ارتياحي لذلك عن ضباطي. فارقت النقيب "مانتجو" عند "امخيريف" ورجعت عبر أفله مرورا بـ"بانمباري" و"أم أدوير" حيث ينتظرنني الحراس المرافقون. وإذا كانت "تكانت" قد ذكرتني بإقليم "كوريير"، فإن "أفله" قد ذكرني بإقليم "أفيرون" حيث شاركت في المناورات السنة السابقة: نفس الجبال المنغرسة في التربة والتي تبدو وكأن قممها قد خرجت من الأرض وقد اقتصررت في هذا الوصف على الناحية الطبغرافية البحتة، ولم آخذ في الحسبان الفرق الشاسع بين النباتات المنتشرة في هذه المنطقة وتلك الموجودة في فرنسا.

كان فرع "اسواكر" من "أهل سيدي محمود" ينتشر حول المنطقة التي يربط فيها فيلق الملازم "أباكت" مستفيدين من حمايته. وكان على أعدائهم من "لغلال" الذين شاركوا سنة 1906 في الغارة على "تكانت" ومعركة "النيملان"، أن يدفعوا ضريبة حرب بسبب ذلك استرضاء للفرنسيين، ولكي يتمكنوا من دخول أراضي منطقة الساحل، والحال أنهم، بسبب ميلهم إلى المكر، ولكي يجعلوا سلطة فرنسية تواجه سلطة فرنسية أخرى مجاورة، قدموا على النقيب "مانجيو" الذي رفض استقبالهم وأرسلهم إلى الإداري الحاكم في "النيورو" الذي تفاوض معهم بشأن خضوعهم والذي أصبحوا تابعين لدائرته من الناحية النظرية.

وبناء على ذلك فحين وجدوني حاضرا مع الحاكم، اعتقدوا أنهم إذا خاطبوا هذا الأخير فإنه يستصرف حتما بعكس ما فعله النقيب، وهذه الحسابات تصيب في العادة عند ما يتعلق الأمر بالقادة الفرنسيين أو الأوربيين عموما، وهي حسابات يبنيها السكان المحليون على ما استنتجوه من ملاحظاتهم وتجاربهم مع الأوربيين.

وبما أنني لم أكن أشغل أية وظيفة، لا إدارية ولا سياسية، فقد استقبلت جماعة "لغلال" بجفاء، ولكن بما أنهم جاءوا لمخاطبتي وأصبحت سيد الموقف، فقد وجدت الفرصة سانحة للتعبير عن شعوري نحوهم. ذلك أن هؤلاء كانوا منذ عام يتبحرون بأنهم قد طافوا بمختلف الأماكن برأس واحد من الفرنسيين الأربعة الذين قتلوا في "النيملان" ومعلقة على راحلة أحد جمالهم. ولذلك وجدت في قدومهم إلي شيئا من الثقة بالنفس لدرجة الوقاحة، فصرخت في

⁴¹⁵ - لقد أنجز الملازم "باكت" مسارا مهنيا رائعا مع الجمالة خاصة في موريتانيا من 1906 إلى 1909 وأصبح نقيبًا سنة 1913 وشارك في حملة "مورين" التي فكت الحصار عن "اكاديس" سنة 1917 وتم تعيينه قائد لتلك الدائرة، وقد نال رتبة مقدم، في نهاية حياته المهنية.

وجوههم في الوقت الذي كان فيه الجمالون والرماة يتمرنون على الرماية بين يدي، فمنحت "لغلال" بضع دقائق فقط ليخففوا عن الأنظار وإلا جعلتهم أهدافا متحركة لرماتي. وكما فر "إيكيو" أمير آدرار أثناء حصار تجكجة، لم أكمل كلامي حتى انطلق "لغلال" هاربين وتوجهوا رأسا إلى "النيورو" للشكوى. ذهبت أنا بدوري إلى "النيورو" في الاتجاه المعاكس على الطريق الذي سلكته نحو "كيفه" أياما قبل ذلك ثم أرسلت خيولي إلى "خاي" أطلب خمسة جمال لأنقل عليها إلى "كومبو" ولم أكن أبدا لأحصل عليها بدون مساعدة المسيو "مارث". وفي انتظار وصول الجمال كنت أتردد على المسيو "مارث" حيث أجد في بعض الأحيان بعض البيضان الذين أعرفهم من "تكانت" خاصة فقد كان محل تجارة المسيو "مارث" يطل على ساحة السوق ويسمح بمشاهدة وسماع كل ما يجري في هذا المكان⁴¹⁶ وفور حصول "مارث" على الجمال التي أحتاجها ودليل ماهر توجهت إلى "كومبو" لمتابعة التفتيش. ولكني لم أتمكن من الذهاب إلى "سوكوتو" فقد تلقيت أمرا بالتوجه إلى "كاتي" في أسرع وقت لأن العقيد الحاكم العسكري لأعالي السنغال والنيجر سيتوجه وشيكا في جولة داخلية فكان من المقرر أن أنوب عنه في القيادة العسكرية وقيادة المفزة الثانية من الرماة السنغاليين. وصلت إذن إلى "كاتي" عبر "مورديا" و"بونومبا" ثم انطلقا من "كوليكورو" بواسطة السكة الحديدية وهكذا أنهيت جولتي الأولى والوحيدة في المراكز التي تتمركز فيها كتيبة الساحل، سلك العقيد نفس الطريق الذي سلكته أثناء الجولات التي انتهت منها قبل قليل فاطلع بنفسه على جودة وضع فرقي والطريقة التي تم بها التفتيش وكذلك الشخص المستبد الذي كان علي أن أتعامل معه وأتحمل نزواته.

عدت إلى "خاي" لأستأنف قيادة كتيبتي فور عودة العقيد إلى "كاتي" في نهاية يناير 1908م، حيث بدأت حياتي داخل الحامية برفاهية تضاهي البرجوازية، المنغص الوحيد لمتعتي هو التعامل مع شخص سيء السلوك رافقني هناك حتى شهر مايو وكان ذلك النشاط الوحيد من بين أطر الكتيبة ذات التشكيل الجيد التي كان لي شرف قيادتها. من بين الأحداث الهامة التي شهدتها "خاي" هذه الفترة، استقبال الحاكم العام الجديد المسيو "بونتي" في شهر يناير وفي إبريل قدوم الجنرال "أودود" في مهمة تفتيش وكان قادما من موريتانيا، وقد أنهى جولته في "كيفه" ووجد الفرق الأخيرة التي فتشها في ظروف ممتازة خاصة فيلق الجمالة بقيادة

⁴¹⁶ - يعيش المسيو "مارث" كأحد تجار البيضان تماما فمنزله ملتقى القوافل حيث يتوافد أهل البادية للبيع والشراء ولكنهم أيضا يلتقون ويتبادلون الأخبار.

الملازم "باكت" الذي تشرف بنيل تهاني مكتوبة. وفي هذه الأثناء بالذات ازدادت خطورة الوضع في موريتانيا ولا بد من ملخص تاريخي عن ذلك في ما يلي:

تكبدنا في سنة 1906م، عندما كنت في فرنسا، هزيمة لا مثيل لها في تاريخنا بموريتانيا، فقد كانت الفرق المتحمسة بقيادة الشريف مولاي إدريس تضم أيضا أهل الحوض وأهل تكانت، وأهل آدرار، وكوركول، واركيبه. على الرغم من صد الهجمات العنيفة على مركز قلعة كبولاني وعلى الرغم من وصول قافلة الدعم سنة 1906 بقيادة العقيد "ميشار" وكونها أجبرت المهاجمين على الانسحاب نحو الشمال ورغم الخلاف الذي دب منذ الأيام الأولى لسنة 1907 بين القبائل التي تبعت الشريف في حركته الانسحابية وعلى الرغم من أن ذلك قد أوقع "إدوعيش" بالدخول جماعيا تحت الطاعة، إلا أننا تكبدنا كارثة مثل كارثة موت "كبولاني" بقيت هي الأخرى دون عقاب. فالسرعة، دون تروي التي قبلنا بها غرامات الحرب ذات القيمة التافهة لدى قبائل الساحل وقبائل الزوايا خاصة قد قللت من شأنها لدى هؤلاء القوم الذين لا يقبلون لأسباب تقليدية ودينية عدم الثأر للدم بما يساويه في القيمة⁴¹⁷. إلا أن من الصدق القول إننا لم نتصرف في عموم موريتانيا تصرفا أكثر فعالية من هنا ففي الغرب كانت الأمور أفضل.

في ارترازة سنة 1905 كان "العلب" قد انشقوا بعد الحادث العارض الذي وقع في "أكيرت" قرب تندكاديش" حيث فاجأتهم فرقة الأعوان من ارترازة الشرقيين الداعمة لولد سيدي حليفنا آنذاك الذي ذهب بدوره خلال سنة 1907. ولم تكن سياسة ارترازة الشرقية مضبوطة بالقدر الكافي، سياسة ارترازة عند النظر إليه كتلة واحدة شرقا وغربا تحت نفس السلطة لم تكن أكثر إرضاء. إلا أن النقيب "بيرجير"⁴¹⁸ استطاع مع ذلك أن يصلح خطأ "أكويرت" عبر معركة "اعكيلت أنعاج" التي لم تكن فقط بطولة رائعة ولكنها كانت أيضا عملية سياسية ذكية، فقد تمكن من عزل "أولاد بالسباع" و"العلب" فرع "لكوافيف" وعلى رأسهم "مولاي" فانضموا إلينا نهائيا وأصبحوا من أفضل حلفائنا ولم يتغير موقفهم منذ ذلك الوقت ويرجع الفضل في ذلك للنقيب "بيرجير" الذي استطاع استدراجهم والمحافظة عليهم كحلفاء مقتنعين بأن ذلك من

⁴¹⁷ - جبر الدم أو الدية هي قيمة مماثلة كما ورد في القرآن وتتفاوت قيمتها إذا تعلق الأمر بقائد أو بعبد.

⁴¹⁸ - هو الآخر كان له مسار مهني رائع كواحد من ضباط الجمالة، خاصة أثناء انتفاضة "لاير" 1916-1917، حيث قدمت قافلته لدعم فرقة "مورين" من أجل فك الحصار عن مركز "أكاديس" وقد ختم حياته المهنية برتبة عقيد.

مصلحتهم. أما "مولاي" الذي طرحه المرض عند "تجكانت" في سهوة الماء، فلم يلبث أن مات، ويشاع أن العجوز "أخيارهم" قد سقاه شايًا مضرًا بالصحة ومهما تكن الحال فإن انضمام "العلب" وبقاء "ولد إبراهيم السالم" في آخر 1905م مستقرًا في اترارزة الشرقية مع أغلبية الأمراء فإن اترارزة مع "الشيخ سيديا" و"الشيخ سعد بوه" يمكن أن تعتبر تحت السيطرة النهائية. وجاء تأسيس مركز أكجوجت، بعد حادثة "أعكيت انعاج" وذلك بمبادرة من الرائدتين "كرنيبي" و"أباتي"، جاء كإشارة أمل على أبواب آدرار. سيدخل الساحة في بداية 1908م عنصر جديد مناوئ كان يعمل ضدنا منذ زمن قديم في المغرب وكان يعمل في الصحراء الغربية أقصد "ماء العينين" فسلطة هذا الزاوي حلت محل سلطة الشريف "مولاي إدريس" بعد عودته إلى المغرب. ولم يكن "ماء العينين" في السابق على علاقة حسنة معنًا فالأموال الطائلة التي كانت مستعمراتنا تسمح لأخيه "الشيخ سعد بوه" بالحصول عليها جعلته يعتقد أننا كالبرقالة تعصر حتى النهاية وترمي قشرتها، لدرجة أن "ماء العينين" قد رفض دعوة سلطان المغرب ضدنا وقد كان قائده الروحي⁴¹⁹ إلى حد ما.

ولكنه منذ مقتل "كبولاني" قد غير موقفه تمامًا بطلب من أمير آدرار تلميذه، والذي كان نجله الشيخ حسنه يقيم لديه كنوع من المندوب المقيم الذي يراقبه ويوجهه، لقد تأكد الموقف المناوئ لدى الشيخ ماء العينين في الوقت الذي دخل فيه أشريف مولاي إدريس إلى "تكانت" زعمًا أنه سيطرنا، وكان معه اثنان من أبناء الشيخ ماء العينين في معركة "النيملان" وأثناء حصار "قلعة كبولاني"⁴²⁰.

عندما وصلت قافلة "ميشار" انسحب الشريف آخذاً معه إلى سلطان المغرب ابن عمه رؤساء كثير من القبائل المتمردة وتولى ماء العينين تقديم هؤلاء الرؤساء المنشقين إلى السلطان مولاي عبد العزيز وحصل منه على بنادق أوتوماتيكية وذخيرة حديثة لجميع

⁴¹⁹ - ليست معلومات "فرير جان" حول الشيخ ماء العينين دقيقة جدًا، فلم تحل سلطة الشيخ محل سلطة مولاي إدريس الذي لم يكن له نفوذ قوي أبداً وعلى العكس من ذلك كانت السلطة الدينية للشيخ وهو نجل الشيخ البارز محمد فاضل ووريث بركته كبيرة جدًا، وتوازيها قوته الاقتصادية (هدايا أتباعه الكثيرين) التي تمكن من شراء الأسلحة من المهربين بالإضافة إلى قوته السياسية فأحد أبناء "الشيخ ماء العينين" هو مستشار أمير آدرار الشاب، والشيخ نفسه لم يلبث أن سيطر على سلطان المغرب ذي النفوذ الضعيف في انتظار أن يحل محله ... السلطانان مولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ كانا حديثي السن في حين أن الشيخ الصحراوي العجوز يمثل قوة دينية واقتصادية وسياسية.

⁴²⁰ - اسم يطلق على تجكجة.

أعدائنا⁴²¹ وهنا بدأ دوره الشخصي يحل محل العملية الشريفة وبعد ذلك بقليل تفاوض مباشرة مع أوربيين لا يراعون إلا ولا ذمة فأغرقوا الصحراء الغربية بالأسلحة والذخائر الحديثة القادمة من المغرب ومن مركز الداخلة الإسباني ومراكز وادي الذهب وأخيرا من "سينلويس" ومحطات المناطق الجنوبية من السنغال الفرنسي. لقد كانت الذخيرة تباع في هذه المستعمرة للبيضان ملفوفة في قماش النيلة، أما الأسلحة فقد كانت تباع بالمفرد سرا في سينلويس نفسها. لم يعد يهتم بالتعليمات الواردة في مقررات الحكام العاميين بشأن الأسلحة النارية إلا الأوربيون في ذلك الوقت، ولن تشكل هذه التعليمات عائقا أمام تسليح أعدائنا، ولن تشكل مصدرا ماليا للخزينة العمومية. ففي مارس 1911م كانت الأسلحة الحربية تباع للبيضان خفية في "سينلويس" فكان سعر بندقية "أكراس" في هذا التاريخ خمسين أفرنكا للقطعة وبندقية "بل" عشرين أفرنكا. وسنجد في آدرار ذخيرة فرنسية جيدة من صنع الشركة الفرنسية للذخيرة بين يدي المنشقين وخاصة (أتلاميذ)⁴²² أتباع الشيخ ماء العينين. لقد أغرق ماء العينين الإقليم بالأسلحة ذات الطلقات السريعة، كما أصبح كبير موردي البنادق في الصحراء الغربية وكان يطلب الثمن من الإبل وهو ما منحه امتيازاً وزاد قطعانه وضاعف مناوأة القبائل التي كانت تشتري من عنده، وبهذا النظام وجد وسيلة رفع قيمة السلاح لدى حلفائه، وفي نفس الوقت حرمان وسائل النقل الضرورية لركوب فرقنا فأصبحت الاضطرابات بالمناطق الخاضعة للفرنسيين دائمة إذ كانت تعتبر خزانات للإبل التي كان من المشروع وحتى من الواجب على الصعيد الديني أخذها من القبائل المتحالفة معنا، هكذا أصبحت الغارات تتوالى دون هوادة، أن أصحابها متأكدين من وجود سوق في الشمال لبيع ما يحصلون عليه من غنائم.⁴²³

وبالجملة، لم يكن ثراء الشيخ ماء العينين يزداد كثيرا لأن أنواع الإبل التي تعيش في الجنوب لا يناسبها المناخ في الشمال والعكس صحيح، ورغم ذلك فقد كان نظامه المبني على معرفة عميقة بعبادات البيضان، ذكيا جدا واستطاع استنزاف المناطق الجنوبية التي كانت خاضعة لنا واستطاع فوق ذلك أن يعيق حركتنا، وهذا هو الأهم بالنسبة له.

⁴²¹ - كان هو نفسه موردا لجزء كبير من هذه الأسلحة، لقد كان سعر الأسلحة المهربة سنة 1906م على النحو التالي في موريتانيا: البندقية بأربعة جمال، 45 طلقة بناقة حيلي (أنظر أرشيفات دكار 9G18 وأرشيفات وزارة ما وراء البحار والآن الأرشيفات الوطنية: موريتانيا A-S IV,2 تهريب الأسلحة).

⁴²² - أتلاميذ: مفردا تلميذي: تابع أو تلميذ لأحد الزوايا.

⁴²³ - هذه رؤية صائبة لخطة الشيخ ماء العينين.

ساعت الأمور بالنسبة لنا⁴²⁴ مع تولى "مولاي حفيظ" خلافة أخيه "مولاي عبد العزيز" كسلطان للمغرب فتم توزيع شهادات القيادة باسم السلطان على رؤساء القبائل من البيضان حتى على أبواب "سينلويس" وتكثفت عمليات جلب الأسلحة والذخائر على نطاق واسع، وكان "ماء العينين" ينظم انطلاقا من آدرار المناوئين لنا بواسطة نجله "الشيخ حسنه" واللجائين القادمين من الجنوب، فكان آدرار نقطة تمركز وملجأ ومصدرا للأسلحة خاصة بالنسبة لهؤلاء، وأصبح من المؤكد شيئا فشيئا، أنه لن يقوم لنا استقرار ولا سيطرة على المناطق الجنوبية التي استولينا عليها بثمن باهظ، ما دما لم نحكم القبضة على آدرار، وما لم نسحق زمرة "الزنابير" التي تلسعنا باستمرار من هذا الجانب. كان رؤساء قبائل آدرار قد رجعوا من المغرب بوعد بتقديم الإمدادات ومن أجل دفعهم إلى السير ضدنا عززهم "الشيخ ماء العينين" بأتباعه "التلاميذ" وكانت الجماعات المحاربة من البيضان تعمل بشكل فوضوي إلى ذلك الحين كل فرقة تهاجم منفردة لحسابها ولكن "ماء العينين" شعر في بداية 1908م بضرورة جمع هذا الشتات وتشكيل قوة واحدة من هذه القوى المناوئة لنا، فشكل نواة من تلاميذه المتحمسين المكتتبين على السواء من قبائل الزوايا ومن القبائل الحاملة للسلاح في إقليم الساحل الذي ينحدر منه هو شخصيا وكذا من المناطق الخاضعة للسلطة الفرنسية، وصمم على مهاجمتنا بشكل مباشر بهذا الجمع من "التلاميذ" وغيرهم.

وقد وجه هؤلاء ضرباتهم ضد الوحدات الفرنسية معتمدين في ذلك على تفوقهم من حيث التسليح وحماسهم المفرط وما لديهم من تعاطف في مختلف أوساط البيضان دون أن يتخلوا عن عمليات النهب التي هي الدافع الأساسي وراء الحروب التي يخوضها أهل البدو الصحراويون، كما نشر هؤلاء التلاميذ في من حولهم دعاية مضادة للنصارى ولكل من يتحالف معهم مشكلين بذلك عامل لحمة وحرص لصفوف جماعاتهم. إلا أن هؤلاء "الرهبان الجنود" بقوا دائما في المؤخرة حتى آخر مارس 1908م، حيث كان باستطاعة الفرق المحاربة لهم أن تأخذ عليهم عدم التمركز في المقدمة لإعطاء المثال أمام الجميع.

والحال أن "التلاميذ" كانوا في هذه الفترة قادمين من "واد نون" في اتجاه آدرار، فكانت القبائل تعتبرهم مجرد طلائع لجيوش الدعم⁴²⁵ التي وعد بها السلطان الرؤساء الذين قابلوه

⁴²⁴ - الشيخ ماء العينين هو الذي عجل بسقوط عبد العزيز وسعود مولاي عبد الحفيظ، وقد حاول الإطاحة بهذا الأخير وأخذ مكانه.

⁴²⁵ - جيوش: مفردا جيش، أي الفرق المسلحة المقاتلة (إشارة من "افيرير جان").

رغم أن عددهم لا يتجاوز المائة. وقد أحدث قدومهم حركة في آدرار خلفت تصاعد حدة المناوئين من أهل هذه المنطقة. كان النقيب "ريبو" قائد مركز أجكوجت قد انتقل إلى وادي "يغرف" بعد تعدد غارات أهل آدرار ليستكشف المنطقة فاصطدم يوم 16 مارس 1908 عند "أعكليت الخيبة" بفرقة يقودها أمير آدرار شخصيا صحبة "ولد سيدي". وهذا الأخير كما قلت سابقا، كان قد بقي معنا طويلا ودخل تحت سلطتنا في منطقة أترارزة الشرقية إلا أنه اختلف مع الحاكم المقيم لدائرة أترارزة، فغادر منشقا عن صفنا. وانضم إلى صفوف المناوئين لنا ويشاع أنه قتل النقيب "ريبو" بيده على الرغم من أن قدوم الملازم "اشميت"⁴²⁶ قد فاجأ المهاجمين البيضان وأدى إلى انهزام فرقة الأمير رغم أن الملازم قد عاد إلى أجكوجت دون قتال حاملا معه جثمان رئيسه المقتول فانتشر خبر مقتل النقيب "ريبو" في جميع المناطق تناقله البيضان وروجوا له كانتصار باهر على العدو. ستظهر فرقة التلاميذ يوم 8 إبريل في منطقة "دمان" بإنشيري حيث سطوا في وضح النهار على قافلة من الرماة السنغاليين العائدين إلى الجنوب عند خروجها من مركز أجكوجت وقتلوا الرقبين الأوربيين "أرنو" و"جودلا" أما المساعد "جيربير" قائد القافلة فقد هرب واختفى في الغابة، وقد تم هذا الهجوم بتواطؤ مع أهل "باركلله" وأهل "بوحبيني" وهما من الزوايا القاطنين في منطقة "دمان" ويوجد ضمن "التلاميذ" أفراد منهم.

لقد زادهم هذا الانتصار السهل حماسا وأصبحوا يتحدثون على نطاق واسع عن جيش السلطان القادم ويدعون إلى الحرب المقدسة ضدنا، فقد أصدر الشيخ حسنه "فتوى"⁴²⁷ يصرح فيها علنا، كما قال العقيد "كورو"، بأن الغارات على المسلمين الخاضعين للفرنسيين، تعتبر عملا صالحا. وفي هذه الأثناء كان من المتعذر تأمين الإمدادات لمركز أجكوجت نظرا لموقعه فنقد كل ما فيه وحين علم التلاميذ بذلك أثناء مراقبتهم للمركز أحكموا عليه الحصار. وإذا كان النقيب "بابلون" قد تمكن دون عناء من دخول المكان ليخلف النقيب "ريبو" إلا أنه كان عليه بعد ذلك بقليل أن يواجه صعوبات جمة لربط الاتصال بالمناطق الجنوبية، فقد وجد الملازم "أوبير" على رأس فرقة الجمالة من أترارزة قادما بقافلة تموين لأجكوجت، وجد

⁴²⁶ - سيقق هو الآخر مسارا مهنيا عسكريا باهرا وقد أنهى نجله "وريس اشميت" مساره المهني كقاعد عام لأركان القوات المسلحة (1992). وكان

الملازم اشميت أحد رفاق الملازم "جورج كوسبي" الذي تلقيت شهادته الشفهية خاصة بشأن الأيام السابقة لموت النقيب "ماجين".

⁴²⁷ - حكم أو توصية ذات طابع ديني.

نفسه مجبرا، لكي يعود إلى بوتلميت، على أن يقتحم صفوف التلاميذ عند "أعكيت تمادي". وفي هذه الأثناء اجتاحت المناطق الخاضعة لنا موجة من الغارات والنهب في كل اتجاه، فلم يعد العدو مكتفيا بالنهب بل كان يهاجم الفرق المسلحة التابعة لنا، وقد وصلت به الجرأة إلى إبادة قافلة من الرماة الزوج عند "العزلات" على بعد ثلاثين كلمترا من السنغال. لقد أصبح من اللازم أن نقوم بردة فعل فلكما طال انتظارنا كلما ترسخ لدى السكان الاعتقاد في ضعفنا وتقاعسنا. وهو الاعتقاد الذي ساد بعيد سكوتنا على مقتل "كبولاني" وحصار تجكجة سنة 1906 وكنا في كلتا الحالتين نتوفر على الوسائل للقيام بردة فعل ولهذا الاعتقاد ما يؤيده فبالنسبة للجميع كان من البديهي منذ زمن طويل أننا لن نكسب المعركة إلا بالسيطرة على آدرار ولكن كان ذلك مجرد كلام جميل لدى الفرنسيين آنذاك أما اليوم في الظرفية الديمقراطية المتوجسة في الوقت الحالي من الانقلابات فلا بد من انتظار دوافع تجبرنا على التصرف والرد على هذا العدو الهزيل الذي يجرؤ على لسعنا، ولا يكون ذلك إلا بتسديد ضربة تجعله يختفي. وقد جاء هذا السبب القاهر على يد فرقة التلاميذ التي جعلت السلطة الفرنسية المحلية تطالب من الوزير الإذن في إعطاء الكلمة الفصل في هذا الوضع. في يوم 13 يونيو تعرضت وحدة الجمالة بقيادة النقيب "مانجين" لهجوم من التلاميذ القادمين من آدرار رغبة أدلاء من "إديشلي" فرع "أولاد ساسي" و"كنته" فرع أولاد سيد بيبكر وهم جميعا من الخاضعين لسلطنتنا، وقد تعززت صفوفهم بالضعف من خيرة المحاربين من كافة القبائل، فتمكنوا عند "المينان" في منطقة الخط شمال تكانت من القضاء في وضح النهار على فرقة من ثلاثين رجلا كان معها النقيب الذي أجبرته ندرة الماء والمرعى إلى إخفاء قواته فقتل النقيب "مانجين" وأرسلوا رأسه إلى قلعة "كبولاني" مع الناجي الوحيد من فرقة الرماة السنغاليين⁴²⁸ ثم أرسلوا إلى السلطان المدفع الرشاش الذي استولوا عليه. وفي اليوم الموالي هاجموا وحدة من نفس الحجم عند "تالمست" ولكنهم هنا أجبروا على التقهقر بعد سبع ساعات من القتال لعبت فيها نساء فرقة الرماة السنغالية دورا حاسما بإمداد خط القتال بالذخيرة وقد انهزم العدو عندما ظهرت في الأفق دورية قادمة من الخلف بشكل مفاجئ.

⁴²⁸ - حول هجوم المينان انظر مقال ج. فيلمين: "حول النقيب "مانجين" في مجلة التاريخ السلسلة TXXXVIII، 1951، ص: 460-464: تم إثر ذلك بناء نصب تذكارية في تجكجة لـ"جورج مانجين" ورفاقه.

أعطى التفاصيل حول الهجوم على فرقة "مانجين"، العقيد "جورج كوسبي" الذي كان آنذاك ملازما رتبة ج. مانجين كما أعطاها الرقيب الدرقي أ.ب. فيلمين الذي كان موجودا في تجكجة آنذاك وكان شاهد عيان عند وصول أحد الرماة السنغاليين يحمل رأس النقيب "مانجين" مربوطة على رأسه.

كان "أهل سيد محمود" قد أخبروني في "خاي" قبل خمسة عشر يوماً بأن أهل آدرار يخططون لقتل أحد الضباط في موريتانيا. ويكن أهل سيد محمود، شأنهم في ذلك شأن إدوعيش، بغضا حادا لأهل الشمال منذو نزوحهم سنة 1906 خلف الشريف حين وصفهم أهل آدرار بأنهم ثلة من "آزناكه" رغم ما أبانوا عنه من إخلاص وشجاعة أثناء الهجمات على قلعة كبولاني. وكنت أخشى على فيلق الجمالة بقيادة الملازم "أبكت" الذي تعرض لهجوم من أولاد غيلان في هذه المنطقة ولكنه استطاع التخلص منهم بكل شجاعة ولم أكن أتوقع اندحار النقيب "مانجين" قبل أن يصلني الخبر بالتلغراف، ولكن لم ينته الأمر عند ذلك فقد أصبح من اللازم في شهر يوليو تزويد مركز أكجوجت من جديد. فتم تكليف النقيب "برجير" بإيصال قافلة من المؤن وكان معه بالإضافة إلى فرقته من الرماة السنغاليين، عدد من شجعان "لعلب" الذين أصبحوا مخلصين له تماما بعد تصرفه الجيد معهم في حادثة "اعكليت أنعاج".

وأثناء مسيره من "نواكشوط" في اتجاه أكجوجت اصطدم النقيب "بيرجير" عند بلدة "الشبكة" الواقعة على بعد 93 كلم من كل نقاط الماء، بفرقة من التلاميذ وكان رجاله قد سيطر عليهم العطش فاستطاع صد المهاجمين ولكنه وجد آبار "أرماش" محكمة الردم بالتراب وهنا وقعت مشاهد من الهستيريا الجنونية في صفوف الرماة السنغاليين بسبب العطش فتراشقوا بينهم بطلقات البنادق وهددوا النقيب بالتمزيق بوساطة الحراب... وفي هذه الأثناء كان رجال "لعلب" يطاردون فرقة التلاميذ من آبار "لبيدات" بعد انتهاء المعركة. ورغم هذين الانتصارين: انتصاره هو عند "الشبكة" وانتصار "لعلب" عند آبار "لبيدات"، فلم يعد تحت قيادة النقيب "بيرجي" إلا فرقة منهكة المعنويات وتمكن بصعوبة من الوصول إلى بئر "برجيمات" في "إينشيري" وفي يوم 2 أغسطس أرسل خبرا بأنه يحاول لم شتات فرقته عند "برجيمات" وأنه، إذا لم يتلق تعزيزات، فسيكون من المستحيل أن يواصل تقدمه.

هكذا أصبح التلاميذ العائدون من "المينان" يتنقلون بحركية غير مسبوقة حتى بلغوا الحدود الغربية لإنشيري وكانوا يظهرون في كل مكان أمام قواتنا ويقاثلون بتفان، وفي وقت قياسي أصبحت لهم سمعة وطار صيتهم وأصبح الناس يبالغون فيما ينسبونه لهم من انتصارات. وفي الطرف الآخر من موريتانيا، كانت أحداث جسام أخرى تتهاى. فبعد حادثة "المينان" بقليل (حيث كان قوم "كنته" فرع أولاد "سيد بيكر" ممثلين في جماعة "ولد العباس"، قد واجهوا التلاميذ عند بلدة "تالمست")، ظهر من جديد في جنوب آدرار صاحبنا القديم

العجوز "محمد المختار ولد الحامد". ويذكر أن قائد "كنته" العجوز هذا الذي استدعاه كبولاني من الحوض، كان حليفنا الذي لم يفد بشيء أثناء حصار تجكجة سنة 1905 وقد كان يحرص على عدم تعريض نفسه للخطر بالخروج معنا أثناء المعركة، وقد ذكرت فيما سبق الامتياز غير المستحق الذي حصل عليه من الكلونيل "مونتاني"⁴²⁹ ولم يكد يمر عام على ذلك حتى وقع حدث فريد حتى الآن في تاريخنا الموريتاني حين قام "ولد الحامد" وقومه من "كنته" بخيانتها بكل خسة أثناء معركة "النيملان" وقتلوا ضباطنا وأفراد رمانتا من السنغاليين بالأسلحة التي طلبوها منا بحجة الدفاع عنا. وكان بعد عودته من المغرب حيث ذهب يحرص السلطان ضدنا، قد توقف قليلا بأدرار لاستطلاع مواقف "كنته" المنحدرين من "تكانت". وفور تأكده من دعمهم تجرأ على القدوم ليستقر في واحة الرشيد على بعد أقل من أربعين كلمتر من تجكجة ليباشر الحصاد أمام أعيننا. وفي هذه الأثناء وقعت حادثة غريبة. ففي سنة 1907 دخل جميع إدوعيش تقريبا في طاعتنا فتجمع الذين ما زالوا منشقين منهم تحت اسم "أهل الكدية" (أصحاب الجبل) بقيادة "عثمان" الابن الأكبر لآخر أمرائهم "بكار" ومع أنه لم يعترف بسلطتنا إلا أنه ورجاله من أهل الكدية قد ذهبوا لمهاجمة "ولد الحامد" وقومه من "كنته"، فسحقوه داخل واحة النخيل واستولوا على المحاصيل وأجبروا "ولد الحامد" ومن معه على الانزواء داخل منطقة لكصر في "الرشيد" وبعد انسحاب أهل "الكدية" تمكن "ولد الحامد" بدهائه المعتاد من استدراج "أهل أحجور" من أهل "أدرار" وهم مشهورون بالزهد والخبرة في الرماية وكنا نجدهم أمامنا في كل مكان من تيشيت حتى "سبخة اجل" فانضم "أهل أحجور" إلى "ولد الحامد" في الرشيد وبالاعتماد على هؤلاء المساعدين المهرة وعلى التحصينات التي أقامها في "لكصر" وبالاعتماد على التواطؤ المعلن أو الخفي لجميع "كنته" في تكانت استعاد العجوز قوته، وكان الرائد "شامبير" حاكم دائرة تكانت أثناء جمع ثلاثمائة مقاتل استعدادا لإخراج "ولد الحامد" من حصنه. وتوقفت الأمور عند هذا الحد...

كان الناس في خاي يتناقلون هذه الأخبار ويضخمونها في تعليقاتهم بسبب بعد المسافة والجهل المطبق والمقصود من الأوربيين في السودان للشؤون المتعلقة ببلاد البيطان.

⁴²⁹ - القائد الوحيد من البيطان الذي سلم عليه الكلونيل بيد، في الوقت الذي اكتفى بمجرد نظرة خاطفة في اتجاه الرجال المخلصين الحاضرين.

وأيضاً بسبب، وربما أكثر، شعور المناوأة لموريتانيا المناهية في المستعمرات المجاورة لها. ولنتصور أنني إذا كنت أغلي ضجراً من كوني عديم الفائدة في أحد المراكز... فقد كنت أعكف على تدريب فرقنا التي أوكلت أمورها إلى فريق من الضباط الحائزين على الثقة والجديرين بتقديري، ولكنني كنت مع ذلك أذكر ما قاله لي الجنرال "أوديودو": "وهو أن "خاي" حسب رأيه كانت نقطة الانطلاق لعملية عسكرية محتملة في موريتانيا. كنت أنتظر ساعتني. كما كنت، كلما كان ذلك ممكناً، قد أعلنت أمام كل من يعيرني أننا صاغية، رغبتني الشديدة في العودة إلى موريتانيا فقد كان الحاكم العام الذي قابلته في شهر فبراير ورئيس ديوانه العسكري الذي كتب إليه الجنرال "أدواودو" وجميع رؤسائي وجميع رفاقي وحتى العاملين تحت سلطتي، على علم برغبتني في الخدمة من جديد في هذا البلد الذي تؤهلني معرفتي بسكانه طيلة حملات سابقة في ظروف صعبة فقد يكون من المفيد أن أعمل فيه في هذه الظروف الحالية الصعبة. كنت قد طلبت من العقيد "كورو" نفسه (وهو في تلك الفترة مندوب الحكومة العام في موريتانيا) أن يأخذني معه إذا كان ذلك ممكناً ورغم تفضل السيد الحاكم "اكلوزل" بالسعي لدى الكولونيل، بقي طلبي دون جواب، فإن كانت لدي بقية من أمل فسيكون ذلك على المدى البعيد.

وفجأة أبرق إلي ضابط أوامر الجنرال يوم 8 أغسطس 1098 بأن أكون مستعداً: فسيتم استدعائي للذهاب إلى موريتانيا. ورغم الطابع الشخصي للخبر لم يخامرني الشك أية لحظة في صحته، أكملت استعداداتي على الفور. كان "سيدي" يرقص فرحاً لمجرد التفكير بالعودة إلى بلده وللذهاب من أجل القتال لدرجة أنه نسي زوجته المريضة من مضاعفات النفاس وولده الرضيع. فكان يقضي وقته في الاعتناء بالخيل أما "مماو" فقد تملكته هذا المساء نوبة كبر لا حدود لها ورفع "قبة الريش"، فكان علي أن أتناول العشاء في المدينة. وصلني الأمر الرسمي بالمغادرة ليل 8-9 أغسطس وأشعرتني قائد الأركان بضرورة اغتنام أول فرصة للذهاب إلى "دكانه" عن طريق النهر لأكون تحت تصرف العقيد القائد العسكري لموريتانيا، "مرافقة إحدى القوافل" تقول البرقية: "وكان عندي أمر بالإبراق بتاريخ ذهابي وأشعروني أن العقيد "كورو" كان على علم بذلك.

أوبة إلى موريتانيا

لا تود في "خاي" مع الأسف وسيلة نقل نهريّة سريعة فكان الحل الوحيد هو انتظار المراكب التجاريّة التي تتعاقب بسهولة على نهر السنغال في هذه الفترة التي يرتفع فيها مستوى المياه.

تلقيت يوم 10 أغسطس برقية من العقيد "كورو" فيها ما يلي:

- الجنرال القائد الأعلى قد أبرق إليكم بالنزول فوراً إلى "سينلوبيس" يتعلق الأمر بالتوجه إلى "أكجوجت" بقافلة كبيرة صحبة مائتي رجل في ظروف عسيرة. أحرصوا بأقصى ما يمكن على النزول لأن المفرزة ستتوجه إلى "أكجوجت" يوم 14 أغسطس وتوجد أسباب قاهرة لتعجيل مغادرتها. أشعرونا بمغادرتكم وانطلاقكم من كل محطة أثناء الرحلة.

لا يوجد أي مركب تجاري على الرصيف. وصلني يوم 12 الخبر العاجل الآتي:

- المعتمد العسكري "أكويهو" و"المسيو دوان" ممثل دار "دفس-شومت" قد أبرقا أمس بالإسراع بصعود وتفريغ وعودة المركب "بورنيش"⁴³⁰، ريان "بورنيش" لديه أمر بالإسراع و"المسيو دوان" يود أن تصلوا "سانلويس" مساء يوم 16.

من الممكن مغادرة القافلة "سانلويس" يوم 15 أغسطس عبر "اندياكو" ومسار محاذي إلى حد ما لشاطئ البحر إلى نواكشوط. في هذه الحالة سأرسل مفرزة إلى نقطة النهر قبالة "كرمين" قرب مركز "أبياخ" السابق.

من أجلكم والمفرزة. سيتوقف "بورنيش" برهة في "دكانا" لأخذ برقية تشعركم بما إذا كان عليكم النزول في "سانلويس" أو التوجه إلى "كرماسين". لقد اتضح ذلك. إلا أنني تلقيت البرقية التالية من العقيد "كورو":

- لقد تعطل مركب "بورنيش"، أرسل لكم مركبا صغيرا بعجلات يعمل بالبتترول تابع لشركة "دفس شومت" هو "آيكرت"⁴³¹.

توجهوا على الفور بالزورق أو بالعوامة لتكونوا أمام "أكرت" التي ستتوجه إلى "سينلويس" فور صعودكم.

توقفوا في "دكانا" فقط لأخذ الخبر... انتبهوا ليلا نهارا حتى لا تتجاوزوا المركب "أكرت" دون أن تلاحظوه.

لا مجال للتردد. لقد كنت على أتم الاستعداد، لم يسمحوا لي باصطحاب فرسي الشخصي فسأخذ الفرسين الآخرين "بو اشويمه" و"كيمه". قامت المعتمدية العسكرية في "خاي" بتسخير "لا كامارك" وهو مركب بخاري كان متجها في المساء إلى "سينلويس" فأقمت على زورق مسطح تجره "لاكامارك" صحبة فرسي وعمالي أي "سيدي" و "ممدو" وسائس الخيول. انطلقنا عند الساعة الثامنة مساء في الظلام الحالك بعد توديع جماعة من أصدقائي الذين قدموا لتحيتي والمباركة لي.

⁴³⁰- دار التجارة "دفس وشومت" من أقدم مثيلاتها في "سينلويس" والمركب النهري يسمى "بورونييس دس بوردس" (ويختصر على "بونبيس" احتفاء بأحد كبار القادة في فترة الاستعمار) اشتهر في السودان وفي "تونكين".

⁴³¹- نلاحظ أن دار التجارة التي طالما عرقل مسيرها مهمة "كبولاني"، تضع أحد مراكبها التجارية تحت تصرف العقيد "كورو" ربما رأى أصحاب الدار أن من مصلحتهم الانحياز لجانب "من بيده المقبض".

وفي اليوم الموالي كنت في "باكل" عند الصباح حيث توقفت نحو ساعة أمام المركز أنتظر قائد المشاة السابق المسيو "رو" مفتش الشؤون المحلية الذي كان متوجهاً في مهمة تفتيش إلى "سالتدي" فقد حرص على الإقامة معي في مكان غير مريح فقد كنا على عوامة من الخشب والمسامير مكشوفة لا غطاء فوقها يحمينا من لسع البرد وأشعة الشمس كنا محشورين هنا إلى جانب الفرنسيين وأعلافهما ومستلزمات المطبخ، كنا في النهار نستخدم الأسرة المطوية وفي الليل نتمدد على حصائر فوق الجسر بين الأمتعة المتناثرة. وكنا عند اشتداد الحر نهاراً ننتقل إلى جسر المركب حيث نستظل بالشرع من أشعة الشمس ورغم كل ذلك، صدقوني، فلم أكن أشعر بالحر الذي يلفحني تحت الشمس الحارقة زوالاً في شهر أغسطس على سطح نهر السنغال. وكنت من حين لآخر هدفاً لزوابع ثلجية لا يقوى "برنسي" على حمايتي منها ولكن مهما كان الحر ومهما كان البرد فلا شيء يهجم فأنا أعود إلى موريتانيا ولا أشعر بشيء من ذلك لشدة الفرح، فأنا أتحمّل كل ذلك من أجل هذا الهدف.

افتترقت مع الرائد "رو" عند "سالتدي" وكنت قد عرفت منذ واحد وعشرين سنة خلت، حيث بدأت معه التدريب العسكري في الأقاليم الكامبوجية من منطقة "كوشينشين" القديمة⁴³² وقد لقيته مرة أخرى في السودان سنة 1892 ومرات أخرى في "خاي" و"سينلويس" يبدو أن سنوات العمر والحملات الكثيرة لم تؤثر على ظرافة ومرح هذا الصديق فلم أشعر بطول الرحلة التي تفصلني عن الأرض الموعودة. كان على "لاكامرك" أن تتوقف في "أبودور" يوم 16 أغسطس للتزود بالفحم، وكانت تنتظرنني هناك بقرية من العقيد "كورو" جاء فيها:

- رجاء أوبرق علي فوراً بساعة مرور "لاكامرك" قبالة "أبودور". وإذا توقفت "لاكامرك" رجاء أخبروا الرائد "أفير جان" بأن عليه التوجه فوراً حتى "سينلويس".
وصلت "سينلويس" يوم 16 أغسطس عند الساعة السادسة مساءً، فأنزلت الفرنسيين و"سيدي" والسائس "محمد ولد اميسة". كانت "لاكامرك" تستعد للاقتراب من الرصيف لأنزل هناك مع أمتعتي وطباخي، وفجأة وصل مركب صغير يقل ممثل دار "دفسيومت" وسلمني ورقة من العقيد "كورو" جاء فيها:

⁴³² - يعود استعمار إقليم "كوشينشين" إلى عهد "تابليون III".

- "عزيزي" افرير جان"، لا تنزل، سآتي لأصطحبك على "كامرك" بعد نصف ساعة من قدومك، وسأرافقك حتى "فرع النهر" عند "مارينكوين" حيث يمكنكم أن تلتحقوا بالفرقة التي غادرت هذا الصباح. فسترسل مفرزة لاستقبالكم في هذا المكان وهكذا يمكننا أن نتجاذب أطراف الحديث مع كسب الوقت فلا وقت لدينا نضيعه.

أنا سعيد في ظروف الحرب أن أعيد تعارفنا القديم في "باماكو" في شهر ديسمبر 1894. تحية حارة "العقيد كورو".

كان المترجم "بو المقداد" قد صعد على متن المركب فأوصيته بالاعتناء بكل من سيدي و سائس الخيول، الفرسين على أن يلحق بي كل هؤلاء عن طريق البر في مركز "ابياخ" القديم صعدت بأمعني على جسر "لاكامرك" فانعطفت فورا متجهة إلى أعالي النهر ثم توقفت على مسافة من الرصيف. وبعد ذلك بلحظات توقفت عربة فكتوريا⁴³³ صغيرة قبالة المركب وصعد إلينا العقيد "كورو". لم تسعني ذكريات 1894 في استعادة صورة العقيد، كان معه مساعده النقيب "جرت هرد" ولم أكن أعرف سوى اسمه ومعهما اثنان من الخدم من فرقة الرماة السنغاليين، وكم كانت دهشتي حين رأيت صحبته الشاب "سيدي احمد" نجل "المختار ولد احمد ولد عيده" الذي عرفته سنة 1905 في تجكجة أثناء الحصار وإلى جانبه أحد الجمالة القدماء من أصدقائي أولاد بالسباع "عبد الرحمن ولد أزغيمه" وكان قادما هو الآخر لتحيتي. أوصيته بأن يقول لمترجمي القديم "أعبيدي فال" إني أريد منه اكتاب ثلاثين من أولاد بالسباع على أن يلتحقوا بي في نواكشوط، أعرف أننا لا يمكن أن نستغني عن الجمالة في بلاد البيضان، وكنت أود أن استرجع فرقتي القديمة من أولاد بالسباع، فارتباطهم بشخصي وإخلاصهم لي لم يكونا محل أي شك. ولكن "أعبيدي فال" كان في ذلك الوقت عاملا في إحدى دور التجارة في مكان بعيد في جنوب "باول".

ولم يكد العقيد يستقر على متن المركب وأنهى توصياتي "لعبد الرحمن" حتى تحرك "لاكامرك" ولكن، شيء أن ينزل هذا المركب إلى عباب النهر، وشيء آخر أن يبحر صاعدا نحو الأعلى. وما كاد المركب يتحرك حتى وجدت نفسي وحيدا مع العقيد والنقيب "جيرهارد" اللذين قدما لي عرضا عن الوضعية.

⁴³³ - فكتوريا عربة مكشوفة تجرها أربعة خيول.

حسب التقرير الوارد من النقيب "بيرجير" يوم 2 أغسطس كان هذا الضابط يوجد في
الوضعية الآتية: قال إنه كان متوقفا عند "بو ارجيمات"، وطلب تعزيزات قوية لكي يتقدم
ويوصل قافلة الأغذية إلى مركز "أكجوجت" الذي كانت تحت إمرته وقد أصبح يفتقر بإلحاح
إلى الأغذية وفور وصول الخبر أرسل العقيد في البداية الملازم "أوبير" صحبة مائة مقاتل مع
قافلة صغيرة من الأغذية لكي تتمكن حامية "أكجوجت" من الانتظار حتى تصل قافلة
"بيرجير" وكان من المنتظر أن يمر الملازم "أوبير" على بو ارجيمات ليمد يد العون، إن أمكنه
ذلك، إلى النقيب "بيرجير" ومن أجل نقله إن اقتضت الحال إلى مكان آخر. لم تكن حامية
"أكجوجت" محاصرة فقط من طرف العدو وإنما كانت أيضا في حالة عجز تام عن التحرك
فقد اجتاح من فيها وباء مزدوج: "البريري" أو نقص الفتامينات و"الاسكربوط" أو فساد الدم،
فلابد إذن من إسعافها بالأغذية من أجل معالجة الوضعية الغذائية للجميع لأن هذا الوباء
يعود إلى حد كبير إلى تغذية تقتصر على الأرز فقط، فقد كان المركز بدون لحم كما أن
الماء فيه كان رديئا يشوبه الملح والنحاس⁴³⁴.

كنا نخشى أن يقوم العدو بعدده الكثير وعدته وبناء على ما لديه من معلومات حول
الحالة الجسمية والمعنوية للحامية، بهجوم مباغت يستولي فيه على المركز قبل وصول
التعزيزات، وذلك رغم وجود 130 مسلح قرب أكجوجت، ورغم التحصينات القوية حول
المركز، ورغم شجاعة الضباط الذين كان يقودون الفرق. كما أن ضرورة الإسراع بمعالجة
الوباء الذي يفتك بمنهم في أكجوجت كانت تفرض علينا الإسراع بتقديم الإمدادات بأقصى ما
يكون من السرعة فعلى ذلك تتوقف حياة 25 من الأوربيين و300 من الرماة السنغاليين في
عين المكان.

ما هي الوسائل التي سيمدونني بها؟

أولا: فرقة من 180 من الرماة السنغاليين: هي الرابعة من الفيلق الرابع للرماة
السنغاليين وبغض النظر عن رقمها فقد تم تشكيلها على عجل في "دكار" من هنا وهناك مع
ما قد يصاحب ذلك من عدم انسجام بسبب الارتجال إلا أنها تتكون أساسا من الجنود
السابقين الذين لديهم خبرة في الحملات إلى حد ما، ولكن أغلبية أعضائها قادمة من ساحل

⁴³⁴ - يوجد هناك منجم للنحاس كان يستغل إلى وقت قريب.

العاج وهو بلد لا يشبه في أي شيء البلد الذي يتعين على هؤلاء أن يعملوا فيه من الآن فصاعدا...

ولكي أجعل هذه الوحدة تتمكن بسرعة ودون تعب كثير من اجتياز المسافات الشاسعة التي تفصلها عن هدفها قررت أن أجعل الرجال يركبون الجمال كما لو كانوا في فرقة محمولة على طريقة الكتيبة الخارجية أي تخصيص جمل لكل اثنين بحيث يقطع كل واحد نصف الطريق فقط مشيا على الأقدام. كما أن القافلة الكبيرة الواقعة تحت حراسة هذه الفرقة تتطلب عددا كبيرا من الجمال والحال أن موريتانيا قد تعرضت للكثير من الغارات على القبائل الخاضعة لنا ولم يعد هناك من الجمال مثلما كان يوجد في الزمن القديم. عكف الجميع على تسوية ذلك فسلم الحاكم العام إلى العقيد "كورو" مبلغ مائة ألف افرنك لشراء الجمال على جناح السرعة من السنغال، وقام الإداريون بكلما يلزم من أجل القدوم بها إلى "سينلويس" وكان كل شيء جاهزا يوم 13 أغسطس في "سينلويس".

أما بالنسبة لأطر الفرقة فالأمر يختلف فجميع هؤلاء كانوا جددا. فالنقيب قدم مباشرة من حامية في إحدى العواصم الشرقية ولم تكن لديه خبرة ولا تعود على العمل في المستعمرات فكان يندهش لأدنى سبب وكان على الدوام مذهولا أمام مشهد الفرق والأطر الذين يستعرضون أمامه في هيئتهم الرثة. أما الآخرون فقد تعودوا على التصرف حسب الظروف السائدة في المستعمرات وكانوا أكثر خبرة بالحرب من أمثال الملازمين القادمين من الهند الصينية ومدى غشغر والسنغال. ورغم الكفاءات العسكرية العالية لكل هؤلاء فلم تكن لواحد منهم تجربة في مثل هذه الظروف ولا بأحوال السكان في موريتانيا ولا حتى بمناطق صحراوية مشابهة وكانت تلك هي حال ضباط الصف الأوربيين والرماة السنغاليين، فقد كان هؤلاء يخافون الإبل ويتعاملون معها بخشونة ولا يعرفون كيف يركبونها، ولا كيف يحملون الأمتعة على ظهورها، وفي مثل هذه الظروف كان من المؤكد أن تناقص عدد الجمال سيكون كبيرا خاصة وأنهم غير متحمسين للذهاب إلى موريتانيا البلد المعروف بندرة مصادره وبالتالي كان الرماة السنغاليون ينفرون منه.

من بين الأوربيين العاملين معي كان واحد فقط يرغب في الذهاب إلى موريتانيا وفي ركوب الإبل، إنه الملازم الأول "سينتير" من الاحتياط الذي رافقنا حتى نواكشوط وهو يعرف بلاد البيضان ويتكلم الحسانية بطلاقة، وبما أنهم لم يمنحوني مترجم فقد كنت سعيدا بوجوده

معي، كما أنني أعرف "سينتبير" منذ 1906 وهو يعرف ما أقوم به في موريتانيا فعلاقتنا الجيدة ومعرفتنا المشتركة بناء على التجربة الماضية لكل منا كل ذلك زاد من غبطني بالالتقاء من جديد بالمسيو "سينتبير" وكان يشاطرنى نفس الشعور وكثيرا ما كتب لي بذلك.

وبصفتي قائدا كنت الوحيد ضمن القافلة الذي سوف يكلفونه بالمهمة بناء على خبرتي في السير في المناطق الصحراوية. لقد كنت تقريبا الوحيد الذي يعرف موريتانيا والبيضان وما يمكن أن نستفيد منه وما يجب أن نخشاه من جانبهم وعقلياتهم وما يجمعهم وما يفرقهم أي طريقة التعامل معهم. وفيما يعني الجمل فتلك قضية أخرى، فلحد ذلك الوقت كنت أرتاح دائما لاستخدامه، وإن كان مرهقا، كوسيلة نقل لفترة من الزمن. وهاهم يخبرونني أن الجمال الموضوع تحت تصرفي ليست من الفصيلة الريفية المتعودة على نوعية العشب في موريتانيا وإنما هي جمال متعودة على منطقة "خاي" حيث تأكل كثيرا وتشرب كل يوم في حين أن العكس هو ما ينتظرها في هذه الرحلة فكيف ستتكيف مع ظروف مخالفة تماما؟ الضابط الوحيد الذي له دراية بطريقة التعامل مع الجمال لم يستعمل هذه الفصيلة أبدا، ولا يوجد أي راع من الرعاة المختصين فيها معنا، السبب الثاني الذي سيجعلنا نعاني من نقص حاد في الاستفادة من الجمال هو ذلك. لم يخف عني العقيد "كورو" أن الفرقة الموضوعه تحت إمرتي هي الأخيرة وأن الجهد المالي الذي بذلته الحكومة العامة كان هو أقصى ما يمكن، فإذا لم أنجح في مهمتي فمعناها الخروج من موريتانيا. والتراجع نحو النهر وما سيترتب على ذلك، ولم يخف عني العقيد كذلك أن تعييني لقيادة هذه الحملة قد تم بدون علمه. ولم أتعرف إلا في وقت متأخر على الشخص الذي يرجع له الفضل علي في ذلك. وعلى كل حال فأنا أعزو ذلك في الوقت الحالي للجنرال "أوداودو"، إن ظروفه واضحة: أرسلوني على عجل لأقود حملة دون أن يأخذوا رأي القائد العسكري لموريتانيا، ومن ذلك يتضح حجم ما أتوفر عليه من وسائل إذن ورغم كل شيء كنت واثقا وأتحمل كافة مسؤوليات المغامرة، وهذه فعلا من أكثر المغامرات تعقيدا ضف إلى ذلك أنه خارج الصعوبات التي كنت أتوقعها ولدي تجربة في مواجهتها، قد واجه من سبقوني على هذا الطريق صعوبات جديدة خاصة بالمنطقة وبطبيعة العدو. والحال أن هذا العدو الذي وصفوه بأشرس من يمكن أن أواجهه حتى الآن في موريتانيا كان أمامي. لقد كنت واثقا أنني لن أجد أصعب مما كنت قد واجهته في حملاتي الصعبة في موريتانيا وفي أقاليم "التوارك". ولم يصدق ظني فالحملة التي تبدأ ستكون من أكثر ما خضته

صعوبات وعقبات، كما أن وسائل الحرب الموضوعة تحت تصرفي ناقصة وعلي أن أقبلها كما هي واستخدمها دون أن أجد الوقت لتكييفها. وبالجملة كانت اللحظة حاسمة كما هو واضح من القلق البادي على وجه الكفيد. فإذا لم أنجح فسينتهي كل شيء بالنسبة لي كما بالنسبة له ويتبدد حلم السيطرة على موريتانيا الذي ناضلنا في السابق من أجله وتألما وإذا نجحت فسيحدث العكس وقد أسر إلي العقيد بأن وزير المستعمرات سيأذن عندها في السيطرة على آدرار من أجل بسط النفوذ على عموم البلاد. لابد من الانتصار إذن.⁴³⁵

كان النقيب "أوداودو" قائد الفرسان الجزائريين قد تلقى أمرا بمرافقتي إلى "ابياخ" بفصيلين من رجاله وكان يحرس "البيضان" المرافقين لنا كما يحرس عشرة من المرافقين "البيضان" الآخرين قدمهم لنا "ولد إبراهيم السالم" الذي بقي حليفا لنا منذ 1905 رغم الجفاء والإعراض الذي يقابله به "الشيخ سيديا" المناصر لغريمه "ولد سيد" المنشق في آدرار. وكان على أحد فصيلي الفرسان أن يرافقني حتى نواكشوط وكان من المقرر أن لا تتجاوز معنا فرقة الفرسان إلى المناطق الخالية من الماء ولكن نظرا لما يوحي به منظرها من أبهة لدى "البيضان" فقد تم الترخيص لها في تجاوز نواكشوط بمرحلة حتى يتمكن جواسيس "البيضان" من رؤيتها ونقل خبرها وهو ما سترك أثره في نفوس القبائل.

رسم لي العقيد لوحة قاتمة عن حالة البؤس التي يوجد بها زملاؤنا في مركز "أكجوجت". فاعترض على مائدة العشاء على استهلاك المعلبات ونصحني بتوفيرها للأوربيين الموجودين هناك، وكان يفكر خاصة في صديقه النقيب "بابلون" المريض والذي كان يحتاج في حالة ذهابه ضمن حملة "آدرار" إلى استعادة صحته إذا قرر الوزير ذلك مبدئيا، ورغم ذلك لم يكن الوضع على هذه الدرجة من السوء في موريتانيا. فقد تلقى العقيد خبرا سارا حيث علم أن الملازم "لابريير" من فرقة الفرسان كان قد اشتبك يوم 14 يوليو 1908 في ضواحي تجكجة مع فرقة من أهل "أحجور" وجماعة "ولد الحامد" من "كنته" وتمكن من دحرهم رغم إصابته بجروح خفيفة. لقد أصيب الملازم "لابريير" بجروح خفيفة ومعه العريف الدركي "افويلمن" الذي أصابته رصاصة في القدم. ووجد الملازم "لابريير" نفسه مضطرا إلى الدخول في عراك مع أحد المسلحين. وكان ذلك أول انتصار يتحقق منذ زمن طويل. أخبرني العقيد

⁴³⁵ - كل هذه الفقرة توحى بأن "افريير جان" يتعرض لنوع "من الابتزاز" سيجني الكولونيل "كورو" فوائده لاحقا.

أن الرائد "شابير" سيكون في الوقت الذي نتحدث فيه في اشتباك مع جماعة "كنته" لطردهم من الرشيد.

نعود إلى الهدف المحدد لي، فهو أولاً إيصال التموين إلى مركز "اكجوجت" ولتحقيق ذلك لا بد لي من الوصول إلى "بارجيمات" بقافلتني وحراسها وهم في وضع جيد، ومتى تمكنت من ذلك فيجب أن أنضم إلى القافلتين الأخريين تلك التي يقودها "أوبير" وتلك التي يقودها "برجير" وأزحف بهما نحو المركز.

وبعد تموين "اكجوجت" يتعين إرسال الحامية إلى نواكشوط تحت حراسة فرقتي "أوبير" و"برجير" على أن أبقى في المركز مع الكتيبة الرابعة التابعة للفرقة الرابعة للرماة السنغاليين. وإذا قام العدو، كما هو متوقع، بمحاصرة المنطقة يجب أن أشق الطريق عبر صفوفه لفك الحصار عن "اكجوجت". وهذه طبعا مهمة هجومية تليق بي فمتى وصلت "إينشيري" ستكون تحت سلطتي أعداد كبيرة: نحو 500 بنقديّة دون أخذ الحامية المريضة في الحسبان. وهذه قيادة مناسبة والمصاعب الجمة التي توقعها لي العقيد في رسالته يوم 8 أغسطس لا تنقص من غبطتي من مواجهة هذه المصاعب والتغلب عليها من أجل مواصلة المسير على رأس حلمتي. توقفت باخرة "لاكامارك" زوال 17 أغسطس على حافة نهر السنغال عند مدخل بحيرة "الباعوض"⁴³⁶ وعند الساعة الرابعة بعد الزوال شاهدنا فرقة من نحو اثني عشر رجلا على الجمال، إنه الملازم "بلود" وقد ترك نصف كتيبته في مباني المركز القديم عند "أبياخ" وقد شرفني العقيد صحبة النقيب "جيرهارت" بالنزول على الأرض لتودعي وبعد ذلك بنصف ساعة توجهت إلى "أبياخ" في حين انطلقت "لاكامارك" في اتجاه "سينلويس" وكنت أفكر أثناء الطريق إلى وجهتي في الحديث الذي تبادلته للتو مع قائدي الجديد وقد أدركت من عباراته أن أفرادا ممن لم أرغب أبدا في مخالطتهم، قد استغلوا اسمي لإظهار مناوئتهم للعقيد "كورو" فقد حدثني هو نفسه بكل صراحة عن ذلك وجعلني ذلك أعبر له عن رفضي واستتكري لما يصدر عن هؤلاء. كيف ذلك! إن الشرذمة التي كانت تحاول جعلني أنا والعقيد في سلة واحدة وتشيع في مقاهي "سينلويس" أن السلطة كانت مجبرة على الاستعانة من جديد بنا نحن السابقين في الخدمة، طبعا أنا كنت من هؤلاء السابقين أما هو فلا. ذلك ما صرحت به للعقيد

⁴³⁶ - كانوا يطلقون عبارة "مارينكوين" في القرن السابع عشر على "الباعوض".

والحقيقة أنني كنت راغبا جدا في العودة إلى موريتانيا وقد أفلحت في ذلك ولا أعرف حتى الآن كيف حصل ذلك ولكن لم يكن ذلك أبدا من أجل حملي لواء معارضة العقيد "كوررو".⁴³⁷

قد مرت بي فيما بعد مواقف شك وعدم ارتياح اتجاه هذا الأخير وذلك بسبب ظروف الحرمان من الوسائل وما صاحب ذلك من عقبات ولكنني متأكد من أن العقيد لم يخامر أدنى شك أبدا في صدقي وإخلاصي.

"الصديق" المريب الذي حدثني عنه العقيد كان يحاول التستر تحت اسمي للقيام بعمله الدنيء الذي اعتاد القيام به فلم يكن بوسعي سوى استنكار ذلك وإعلان براءتي من هذا الشخص⁴³⁸. نحو الساعة مساء بعد أن غمرتني المياه عدة مرات حتى السرة، وصلت أكواخ مركز "ابياخ" القديم. وكان الملازم "ابلود" قد أشعرتني بإمكانية حصول مفاجآت حول الكيفية التي ستصل بها الفرقة المحمولة والجمال إلى "ابياخ".

حصل لدي انطباع غامض من طبيعة اللسان الأرضي⁴³⁹ المبلل بين البحر والنهر وعدم خبرة القائد الذي ذكره لي العقيد.

⁴³⁷ - يجب أن لا ننسأ العقيد "كوررو" قد التحق متأخرا بالجيش الاستعمار (كان صيادا في الأصل) وأن خدماته قد خولته الترقية بسرعة وهكذا فكوررو ينتمي إلى دفعة "النصر الكبير" المتخرجة 1888-90 من مدرسة "سينسير" أما "فرير جان" فهو من دفعة "مداغشغر" المتخرجة من نفس المدرسة 1883-1885.

⁴³⁸ - يتعلق الأمر دون شك بالنقيب "اباين" من دفعة "تومبكو" 1987-89.

⁴³⁹ - يتعلق الأمر بـ"السان بارباري" عند "سينلويس" وهو شبه جزيرة رملية. وفي شهري يوليو وأغسطس تنزل الأمطار وتبتل الأرض فتصبح غير مناسبة للجمال. فموسم الخريف يصعب على الجمال اجتياز هذه المنطقة.

قافلة "كجوجت"، معركة "أكلال فاي"

وصل إلى "ابياخ" صباح يوم 18 أغسطس كل من النقيب "أودادو" وفرقة الفرسان الجزائريين صحبة الموالين من أصحاب "ولد إبراهيم السالم" قادمين من المذذرة، وقد أتاني النقيب ببعض المرافقين من البيضان ولكن هؤلاء تم اكتتابهم من قبائل الجنوب المتعودة على استخدام الثيران والحمير لنقل الأمتعة ولا يعرفون استخدام الإبل. وقد ترتب على ذلك نقص عام في كيفية التعامل مع الإبل في هذه القافلة.⁴⁴⁰

لقد كان النقيب "أودادو" الذي تخرج معي ضمن نفس الدفعة رجلا من السودانيين قد تقدمت به السن. رأيتَه قبل ذلك في "خاي" وكان آنذاك قادما من تفتيش فرقة الجمالة في أعالي السنغال والنيجر متوجها لقيادة فرقة الفرسان السنغاليين وهي آنذاك عاملة في موريتانيا بكاملها. أطلعته على أوامر العقيد وأمرته بمرافقتي صحبة أحد الفيالق التابعة له حتى نصل نواكشوط على أن يعود بعد ذلك للعمل في اترارزة، وعمله هناك أصبح ضروريا لمعاقبة أتباع "لعلب" الذين يقومون بالتهب هناك.

لقد كنت مسرورا برفقة "أودادو" أثناء الطريق لعدة أيام فقد كان صديقا حميما بكل ما في الكلمة من معنى وضابط خيالة متمرس يمكن الاعتماد عليه وطلبت منه هناك أن يسامحني في التعجل الذي فرضته عليه وأني جعلته ينتظر كل صباح لتحديد ساعة انطلاق الجمال بعد تحميلها بالأمتعة. كان على فرقة الملازم "ربول" المحمولة على الجمال السنغالية ذات القامات القصيرة، أن تبقى تحت تصرف الحاكم المقيم في المذذرة. كما كان لدى "ربول" الكثير مما يتعين عليه القيام به خلف قافلتنا.

قدم فارسان مسرعان عند الساعة العاشرة صباحا، يتعلق الأمر برفيقي "سيدي" وقد امتطى "بو اشويمه" وسائس الخيول يركب "كيمه" وقد جاءني بأخبار الفرقة المحمولة القادمة بمشقة حسب ما يقولان وعند سماع ذلك هز الملازم "أبلود" رأسه بطريقة فيها أكثر من معنى... بدأت القافلة تصل عند الساعة الثانية وكانت مبعثرة لدرجة لم أتصورها وبدا أن فرقة الرماة السنغاليين قد خرجت على النظام وكان الضباط ساخطين وقد ضاعت أمتعة الأوربيين

440 - شكل ذلك معوقا خطيرا بالنسبة للعمليات اللاحقة.

حتى الصندوق الخاص للفرقة فقد بقي في الخلاء. وقد هرب جميع المرافقين وهم من الزنوج المكتتبين في "اندياكو" ولم يبق منهم سوى تسعة عشر هم الذين لديهم خبرة في التعامل مع الجمال السنغالية "كانديولى"، وقد امتنعوا في البداية عن فعل أي شيء ثم قالوا إنهم لن يتجاوزوا "أبياخ"...، ولكي أعيد الانضباط إلى القافلة وأحكم قبضتي عليها فقد أرسلت الجميع في تمرين ميداني وفي المساء دعوت الضباط إلى مائدة العشاء. كان جميع من يعملون معي يعانون من نقص الخبرة، وليس ذلك عن سوء نية وإنما يحتاجون إلى التمرين وكسب الخبرات في الفترة الأولى لابد من إعادة الانضباط إلى هذا الخليط المبعثر لدرجة أن القافلة بعد المسير يوميين فقط من "سينلويس" لم تصادف فيهما أي عدو ولا أية عقبة، دبت فيها الفوضى حتى أصبحت وكأنها قد تعرضت بالأمس لكارثة.

وبالجملة كان الأطر الموجودون معي من النوع الجيد وإنما المطلوب هو إعادة النظام والانضباط وإزالة الاختلال الحاصل بسبب الذهاب بصفة مرتجلة. ولا بد أيضا من تعويد الرماة السنغاليين على استخدام الجمال وتبديد خوفهم منها، ولا بد من جهة أخرى من تشجيع الجنود النشطين وتخويف الكسلاء، ويكون ذلك بمنع الجميع من الاستراحة والتوقف ما دمنا قريبين من "سينلويس" فهذه الطريقة يمكن أن نعيد الانضباط عند وصولنا إلى "أبياخ" وأثناء المسير سنتحسن الأمور، فإقامة النظام والانضباط تكون أسهل أثناء المسير منها في حالة التوقف. لقد كان العدد مكتملا فيما يخص الرجال كما كنت أتوفر على كميات الذخيرة والمواد الغذائية، ومن جهة أخرى كان الملازم "سينبير" قد قام مرتين بإعادة تنظيم القافلة، ووزع المرافقين البيضان الذين جاء بهم النقيب "أوداودو"، وهكذا كانت جميع الألوية السائرة ضمن القافلة جاهزة يوم 19 أغسطس.

قررت الذهاب صباح 20 أغسطس في اتجاه نواكشوط على أن يبقى الملازم "ربول" خلفنا مع فرقة الفرسان الجزائريين المرافقة له لمراقبة المنطقة الفاصلة بين البحر والنهر والقبض على كل من يجدونه والذهاب به إلى المدزرة. انطلقنا صباح 20 أغسطس عند الساعة الثالثة فجرا بجميع القافلة، وكنت قد قررت فرض انضباط صارم أثناء السير وخاصة في الليل، حيث يتم النداء بالأسماء عند الاستيقاظ تحت جنح الظلام.

وبعد فترة لاحظنا أن واحدا من فرقة الرماة السنغاليين قد نسي بندقيته في مكان إقامتنا ولم يتمكن من العثور عليها. هذه الحالة تقدم فكرة عن طبيعة بعض أفراد هذه الفرقة. توقفنا

عند الساعة التاسعة صباحا في انتظام وانضباط أكثر مما كنت أتصوره وكان ذلك عند آبار "السُمسيات" حيث زارني رجال قادمون من عند "الشيخ سعد بوه" وهم مدهولون لرؤيتي بعد أكثر من أربع سنوات من الغياب، فطلبت منهم تزويدنا بالثيران بأمر من العقيد فأعطوني وعودا معسولة مبالغا فيها.

لم يكن من المنتظر أن نجد المراعي الكافية لجمالنا على الطريق الذي سلكناه من "أبياخ" إلى نواكشوط عبر أفطوط الساحلي ومنطقة "أزار" ولم نجد الكثير حين ابتعدنا في اتجاه كثبان اترارزة، فقد كانت المراعي قليلة ربما لجهلنا بأماكن وجودها بكثافة كما أن محاولة البحث ستجعلنا نضل الطريق في منطقة لا نعرفها ونتأخر عن هدفنا العسكري وهو فك العزلة عن "أكجوجت" بأسرع وقت ممكن. سلكت إذن الخط المستقيم عبر أفطوط الساحلي وكنت أدرك، نظرا لتهاطل الأمطار منذ فترة وجيزة، أن المياه ستكون في البرك والمستنقعات في عموم المنطقة، وكانت هذه الظروف مناسبة لفرقة الرماة السنغاليين وخيول الفرسان الجزائريين.

وفيما يعني إعادة الانضباط كان علي الحذر من ما سيصدر من سلوك وتصرفات غير محسوبة حين يتعرض أفراد القافلة للعطش والإنهاك الشديد، إذا ما حاولنا التوغل في المناطق الرملية بحثا عن المراعي أثناء مسيرتنا.

وأخيرا كنت قد علمت في "أبياخ" بوجود فرقة معادية يقودها "ولد الديد" أخو "ولد سيدي" تنتقل في المنطقة الساحلية فلا بد إذن من مضايقة هذه الفرقة بالاقتراب منها. توقفنا للنوم مساء 20 أغسطس عند "مختيري" وسط آخر كثبان أفطوط الساحلي قرب أضاعة مترعة بمياه الأمطار العذبة.

كانت فرقة الفرسان تقوم بدورية يوم 21 أغسطس متوغلة في اتجاه الغرب والجنوب الغربي بحثا عن جماعة "ولد الديد" التي لم تكن تتوفر إلا على أربعين بندقية فلم تجد طريقة أفضل من الفرار من المنطقة. وعند الزوال وصلت القافلة إلى "تجيمان" وقد وجدنا الماء على طول الطريق وكان المناخ ثقيلًا والسماء ملبدة بالغيوم وقد استغرق شراب الجمال يوما كاملا، وفي المساء انهمرت الأمطار بغزارة واستمرت طول الليل حيث قضينا تلك الليلة في العراء تحت المطر. وانطلقنا صباح 22 أغسطس وسرنا متتقلين عبر كثبان "انجبخ" الصفراء حيث نمنا ليل 22 إلى 23. وتوقفنا للمقيل عند "أم لخشب" وبعد الزوال وصلنا "تيفورنوت"، وهنا

التحقت بنا الفرقة التي كنت قد أرسلتها إلى "الشيخ سعد بوه" لأخذ الجمال التي وعد بها، فلم يعودوا بشيء فقد أخلف "الشيخ سعد بوه" وعده. ولكن بما أنني أحتاج إلى نحو مائة لنقل القافلة وتوصيل المؤن إلى مركز أكجوجت فقد صادرت الفرقة نحو ستين دابة من عند "أهل أمر أكديجه" وهي قبيلة من الزوايا كنا نشك كثيرا في إخلاصها...، توجهت يوم 24 أغسطس من "تيفورنوت" إلى "أجدير" وهنا لم أعد أجد برك مياه الأمطار وإنما بعض الآبار ذات المياه الملوثة السوداء، فوزعت كمية من احتياطي الماء المحمول في البراميل وقررت أن نزحف ليلا لقطع أطول مسافة ممكنة على طريق نواكشوط وقد أرسلت إلى هذا المركز فرقة الجمالة للإعلان عن قدومي.

وفي يوم 25 أغسطس دخلت بقافلتني إلى نواكشوط لم تكن "جزيرة الشياطين" قد تغيرت كثيرا عما تركتها عليه منذ عام 1904، جعلت الفرق تتمركز غرب المركز، حيث كان علي انتظار قدوم الباخرة "لاماري" من سينلويس وتوجد بها أعلاف الحيوانات أرسلها إلي العقيد، وقد أصاب الهدف فجمال "الكانديولي" تحتاج إلى ذلك كما أن ذلك سيمكنني من المسير دون الحاجة إلى البحث عن المراعي النادرة في هذه الفترة. لم تصل الباخرة من دكار إلا يوم 26 أغسطس وقد خيبت أمني فقد غير الجنرال الأوامر الأولية التي أصدرتها وقد زاد ذلك من مصاعبي، حيث ألزمني فور الوصول إلى "أكجوجت" بإخلاء الحامية ليس فقط من الرجال وإنما من كافة اللوازم والآلات القابلة للنقل كما ألزمني بضرورة تحطيم ما بقي والتراجع إلى الخلف نحو "برجيمات" حيث سألقي في انتظار الأوامر للتقدم من جديد.

لقد كانت هذه مسؤولية عظيمة وثقيلة ألزمتني بها أوامر الجنرال، فقد ألزمني بنقل كميات هائلة من اللوازم وحمل جميع ما أرسلوه إلى "أكجوجت" منذ 1907 ولم يكن لدي للقيام بذلك سوى عدد قليل من الجمال غير الجيدة كما أن الأدهى والأمر هو إلزامي بالتراجع أمام العدو، لقد أثر علي ذلك كثيرا، فقد كنت متعودا على السير خلف العدو أطارده، لقد وجدت الأمر سيئا ولكن لا بد من امتثال الأوامر. فلم أكن أفكر إلا في تخفيف حجم القافلة فليس من المفيد أن أذهب بجميع كميات المؤونة إلى أكجوجت، فيكفي أن أحمل مؤونة فرقتي لأتركها في "بارجيمات" تحت الحراسة وأغذية قافلتني "أوبير" و"برجير" كانت تكفي لتغذية حامية "أكجوجت" فضلا عن فرقتي هذين الضابطين حتى يتوجه الجميع إلى نواكشوط كما أنني سأستخدم الجمال التي نزلت عنها الأغذية المتروكة في نواكشوط، لأحمل عليها أكبر

كمية من الحشيش وعددا إضافيا من براميل الماء التي أسأدها من منطقة نواكشوط. وأخيرا نزل "الشيخ سعد بوه" عند طلبنا فأرسل الأربعين ثورا التي ما زالت ناقصة فأصبح لدي مائة ثور. استراح جميع المرافقين لي أثناء الإقامة في نواكشوط، حيث تهاطل مطران غزيران وهو ما يبشر بأننا سنجد المياه في منطقة 93 كيلومتر الخالية من نقاط الماء التي سأكون أول من يجازف بدخولها بعد النقيب "برجير" فسنجد إذن برك الماء أو نجده في الآبار.

فارقت الملازم "سينبير" على مضدد فقط كان عليه، وهو المتزوج حديثا، أن يتوجه إلى السنغال عبر البحر، لقد أفادني هذا الرجل كثيرا أثناء المسير من "أبياخ" إلى نواكشوط، فقد عود رجالي على استخدام الجمال، كما مرنهم على سير القوافل في انتظام. فعينت الملازم "جيرار" لأخذ مكان المسيو "سينبير" وكنت متأكدا أنني في مرحلة لاحقة سأجد ضمن فرق "برجير" و"أوبير" وحتى في حامية اكجوجت بعض الخبراء الذين بإمكانهم أن يواصلوا تدريب رجالي على التعامل مع الجمال.

كانت آخر أخبار "بارجيمات" أقل سوءا مما كانت عليه في بداية الشهر فقد تمكن النقيب "بيرجير" من الإقامة برجاله قرب الآبار كما أن قدوم الملازم "أوبير" قد رفع معنويات هذه الفقرة المنهكة جدا. وعلى كل حال لم يكن من المتوقع أن يحدث لي مثل ما حدث للنقيب "بيرجير" فلن أتعرض لهجوم في المنطقة الخالية من الماء، وإن حدث ذلك فلن يكون من فرقة قوية، فالفرق التي توجهت إلى "بارجيمات" ستكون لي بمثابة الطليعة أو الحاجز الأمامي وستشعرنني في أي وقت بكل ما تصادفه قادما من جهة آدرار.

إذا كان "الشيخ سعد بوه" قد أرسل إلي العدد الإضافي من الثيران الضرورية فإن نجله "سيدي بويه" لم يحفل بإرسال رعاة الإبل الذين طلبهم منه حاكم المذرذرة المقيم ليحلوا محل من أخذناهم عند "أبياخ" فكان من المقرر أن لا يتجاوز هؤلاء منقطة نواكشوط، ولكن للضرورة أحكامها، فقد تحتم علي أخذ أكثرتهم معي أثناء المسير، وقد كان "سيدي بويه" وحده مسؤولا عن هذا النقص وعدم الوفاء بالوعد، لقد كان شخصا لا يوثق به وكان من السذاجة أن نعول على واحد من أبناء أخ "ماء العينين". كانت أرملة "مولاي" والدة "أحمدو" زعيم "العلب لكوافيف" تزورني يوميا طيلة إقامتي في نواكشوط وتوصيني على ولدها الموجود في ذلك الوقت عند "بارجيمات" على رأس فرقة "العلب" العاملة مع النقيب "بيرجير"، لقد كانت العجوز "مكفوله" امرأة عنيدة وهي "القائدة" الفعلية لقومها "العلب" ولا بد من مداراتها وبما أنها

كانت تعيش في بؤس فقد أعطيتها خنشة من الأرز وكانت أفضل هدية يمكن أن أقدمها لها في مثل هذه الظروف، كما جعلتها تأمل في أنني سأعتني بولدها.

غادرتني النقيب "أوداودو" مساء 29 أغسطس صحبة فرقة من الفرسان مبتعدا نحو الجنوب الشرقي يتسلل خفية وسط مضارب "لمزازه" الذين سيغير عليهم بعد ذلك بأيام عقابا لهم على التحالف مع أعدائنا، ليعود إلى "مكفوله" وإلى جماعة "العلب" ما نهبه أتباعهم ولقد كان من الفطنة أن نجعل حلفاءنا يستفيدون من الغنائم خاصة من مجموعة تابعة لهم تستحق العقاب.

غادرت يوم 30 أغسطس في المساء صحبة الدليل "سيدي" وهو شاب من "العلب" كان قد جرح في يوليو أثناء معركة "البيدات"، ونظرا لتكاسل الرعاة المرافقين فقد قضيت أربع ساعات طوال هذا المساء لأجتاز كيلومتر واحد بصعوبة كبيرة فكانت الأمتعة تسقط وكان الرعاة المرافقون يهربون تحت جنح الظلام، والجمال تفر في كل اتجاه. لقد تملكنتي حالة غضب شديد ولكنه خفي مما اضطرني على التوقف ولكنني صممت على أن أكون أكثر عنادا من هؤلاء الرعاة، فلا بد من جعلهم يستسلمون وينقادون مذعنين للأوامر.

زحفت في اليوم الأول من سبتمبر حتى "واد لحطب" حيث وصلتته عند الساعة التاسعة صباحا وقد خلفت فيه الأمطار الغزيرة في الأيام الماضية بركة من الماء مثلثة الشكل نزلنا حولها وتحسبا للمستقبل قمت بإصلاح الآبار لكي نتمكن بعد شراب جمالنا من البركة وكان عددها ثلاثمائة⁴⁴¹، نستطيع الشراب والتزود بالماء داخل البراميل وكانت لحسن الحظ محكمة الإغلاق.

انطلاقا من هذه النقطة نكون قد دخلنا منطقة 93 كلم المعطشة، حيث أشرفت قافلة "بيرجير" على الهلاك. يجب علي إذن أن أحافظ على احتياطي الماء، فجعلته منذ البداية تحت حراسة مشددة بقيادة ضابط صف أوربي يجب أن لا يحول نظره لحظة عن مراقبة حاويات الماء، وأثناء الليل ينام الأوربيون غير المكلفين بنوبة الحراسة على الجوانب، قرب حاويات الماء، وأسلحتهم مهيأة لإطلاق النار على كل من يقترب منها، قد تبدو هذه الإجراءات جائزة في نظر من لا يدرك أهمية الماء خاصة بالنسبة للزواج، وقد مكنتنا هذه

⁴⁴¹ - تدل هذه الإشارة على حجم البركة وغازة مائها.

التدابير من العبور دون مشقة ودون مشاهد فظيعة في هذه المنطقة الخالية من الماء والتي كان أفراد فرقة الرماة السنغاليين التابعين لـ"برجير" قد تقاتلوا فيها بالأسلحة وتصارعوا في عراك حول بضع جرعات من الماء، وقد اكتسبت خبرة قديمة في مثل مشاهد العطش، فقد كنت ضمن قافلة "جوفر" التي عبرت الشرق الموريتاني على طريق "تتمبكتو".

مررنا يوم الثالث سبتمبر عند الساعة الواحدة بعد الزوال وسط الميدان الذي جرت فيه معركة "الشبكة" مازالت جثث البيضان متناثرة هنا وهناك، وقد افترستها الوحوش، وتوجد أعداد من الذخيرة متناثرة يبدو أن أصحابها قد رموها، وتوجد عظام جمال وحقائب سفر حديدية للأوروبيين قد تم فتحها. وقد بدا لي من الغريب وجود هذا العدد من الأشياء في ساحة المعركة، حيث كان رجالنا منتصرين ولم أفسر ذلك إلا بالهروب إلى الأمام بحثا عن الماء في اتجاه آبار "انورماش".

عند الساعة الثالثة انطلق "سيدي" من مكانه في مقدمة الجمالة مسرعا فجأة إلى ناحية اليمين، وجمله يعدو وهو يصرخ قائلاً إنه شاهد رجالاً مسلحين وفعلاً بعد ذلك بقليل سمعنا طلقات بنادق تمر فوق رؤوسنا. أمرت بالتوقف ثم جمعت القافلة في منخفض من الأرض ثم زحفت في اتجاه الطلقات النارية وكان الجمالة والملازم "جيرار" وفرقتهم قد انطلقوا مسرعين خلف "سيدي"، فشهد الملازم بعض البيضان يتسللون داخل الغابة ثم اختفى كل شيء فبدأ "سيدي" صحبة فرقة الجمالة يرفعون أصواتهم منشدين بالنصر يرقصون فرحاً وهم يرمون بنادقهم إلى أعلى، ويتلقفونها.

وعند توقفنا مساء ضاعفت إجراءات الحراسة على الماء. فهل نحن متأكدون من وجود الماء غدا صباحاً في "انورماش"؟ وحتى إن كان في الآبار ماء فقد تتعرض للردم، فلا بد إذن من الاحتفاظ بزاد من الماء من أجل الغد، وفي يوم 4 سبتمبر وصلنا عند الساعة العاشرة إلى آبار "انورماش" وكان فيها الماء ولكن ليس بكمية كثيرة، أمرت بالنزول حسب خطتنا المعتادة ثم ذهبنا لاستكشاف حالة الآبار، فلا بد من إخراج ما فيها من التراب والأوساخ من أجل الحصول على كمية أكثر وأجود من الماء، وهكذا سنحصل على ما يكفي لشراب الرجال والجمال والثيران. وما كاد الزوج يرون منظر الآبار للوهلة الأولى حتى استيقظت في رؤوسهم الأفكار الشيطانية، فاتجهوا إلى فوهات الآبار مشهرين أسلحتهم متدافعين حولها ليشتبكوا من أجل الحصول على الماء، كنا باتجاه تكرر مشاهد الهستيريا الجنوبية التي حصلت لقافلة

"بيرجير" بسبب العطش. ولحسن الحظ أنني قد بدأت أولاً بإعطاء الشراب من البراميل للفرقة التي ستتولى حراسة الآبار، فبدأت بالتوزيع دفعة واحدة مستخدماً مجموع الكمية التي كانت موجودة معنا، فعاد المهاجمون العطاش أدرأجهم ليجدون نصيبهم من الماء. وعلى الفور أرسلت فرقة أولى لتأخذ حصتها من الماء من البئر وخصصت بئراً للخيل والثيران، وبدأ الرجال والحيوانات يشربون ببطء ولكن بالقدر الكافي، ومع حلول الليل كانت ثورة العطش قد خمدت لنتمكن من النوم في هدوء، فقد زال الخطر، وأصبحت منطقة 93 كيلومتر المعطشة خلفنا، لقد نجونا بأعجوبة.

فور وصولي إلى البئر شاهدت "احمويد" قادماً وهو شخص من "أولاد ابيري" تعرفت عليه قديماً ضمن بعثة "كبولاني" مع اثني عشر من الجمالة، ويبدو أنهم هم من أطلقوا علينا النار مساء اليوم الثالث من الشهر ظناً منهم أننا فرقة من العدو، ولكنهم حين تعرفوا على فرقة الرماة السنغاليين قد أوقفوا إطلاق النار ولحسن الحظ اقتصر ضحايا هذه الحادثة على موت جمل واحد. قدم إلي "احمويد" بأخبار سارة، فقد تمكن النقيب بيرجير من التقدم بقافلته فور وصول الملازم "أوبير" تاركاً إياه مع فرقة الجمالة الزوج في مضيق صغير يشرف على "بارجيمات" فقد جمع قافلته مع الجمالة البيضان التابعين لـ "أوبير" ثم توجه إلى أكجوجت عبر "اتويرجيت" آخذاً معه مئونة القافلتين معاً، ولا بد أن أكجوجت قد وصلتها الإمدادات في هذه اللحظة، فما علي إلا أن أقوم بإخلاء المركز رغم أنف العدو. لم أبدأ المسير إلا يوم 5 سبتمبر بعد الزوال وعند الساعة السادسة مساءً رأيت الملازم "أوبير" وبعض الجمال على ظهور الجمال خلف الكتيب، فأسرعت نحوهم ممتطياً الفرس "بو اشويمه" فتبادلنا السلام بالأيدي، وقد تملكنا الانفعال وتوجهنا معاً إلى المضيق المشرف على "بارجيمات" حيث كان "أوبير" قد استخدم الصناديق الحديدية التي كانت فيها مواد البسكويت والدقيق وملاؤها بالماء، فتمكن رجالي من الشراب فور نزولنا.

سيعود النقيب "بيرجير" وقافلته من أكجوجت في الغد، فقد نجحت عملية التموين، سأنتظر "بيرجير" لأتحدث معه قبل الوصول إلى أكجوجت، ولأول مرة منذ غادرنا "واد لحطب"

أخذت إلى النوم في هدوء تحت حراسة فرقة الجمالة التابعة للملازم "أوبير"⁴⁴² دون أن أشعر بهاجس الماء.

تمتاز المنطقة التي اجتزناها منذ نواكشوط بنوعين مختلفين من التضاريس حيث نجد انطلاقاً من المركز هضاباً واسعة بين الكثبان تنتشر فيها أشجار "الطرفه"⁴⁴³ في المنخفضات ثم تأتي بعد ذلك الكثبان الثائرة المغطاة بالنباتات بين "بيلا" و"واد لحطب" وفي هذا الأخير كانت توجد غابات منها جاءت تسمية المكان بـ"واد الحطب" أما الآن فلم يبق سوى بعض الأشجار الشائكة⁴⁴⁴. النوع الآخر من التضاريس يظهر عند كثيب "أم التونسي" ويمتد نحو الشرق، فكثيب "أم التونسي" تطوقه طبقات كثيفة من المحار الأبيض غير المتماسك بعضها فوق بعض، لا رابط بينها وبعيدا من هذا "الرك" توجد سهول صلبة التربة مغطاة بشظايا حجارة صلبة حمراء مختلطة بما يشبه الحديد أو الصخور الصلبة العادية التي تغطي كامل المساحة في بعض المناطق، وتمتد بين هذه السهول مجاري كانت تحوي المياه وهي جافة الآن تحيط بها بعض النباتات التي لا توجد إلا في مثل هذه التربة، وعلى هذه المنطقة الساخنة باستمرار تحوم أمواج من السراب الدائم، في حين تطل من ناحية الجنوب قمة كثيب "الترينا" محافظاً على مظهره الشاحب كأنما يعبر عن الحزن، وفي منحدره الشمالي تقع آبار: "انورماش"، و"البيدات"، و"بارجيمات"، وحولها مراعي جيدة للجمال، ولكن قافلتني "بيرجير" و"أوبير" كنتا قد التهمتاهما... كيف سنحصل على العشب لحيواناتنا؟ الحل الوحيد لهذا المشكل هو عدم التوقف لفترة طويلة والاستمرار في البحث في مكان آخر لقد قال الملازم "أوبير" إن من الممكن وجود بعض المرعى عند "اتويرجيت" في ناحية الشرق، وما دام ذلك على طريق أكجوجت فالأمر مقبول. وصلت قافلة "بيرجير" يوم 06 سبتمبر عند الزوال وحسب المعلومات التي أوردتها النقيب، يبدو أن "الشيخ حسنه"، بعد أخذه علماً بالوضع داخل حامية أكجوجت بواسطة جواسيسه، قد جمع مقاتليه من أجل الاسيتيلاء على المركز وهو يتوفر على سلاح كثير ويعتمد على تواطؤ أو على الأقل تعاطف جميع قبائل الزوايا في المنطقة. لم يجد

442- حقق الملازم "أوبير" هو الآخر مسارا مهنيا متميزا في فرقة الجمالة بموريتانيا، كان برتبة ملازم سنة 1901 وانتقل إلى الميدان فور سنة 1903 حيث أقام طويلا دون انقطاع، حتى سنة 1911، حيث ذهب وهو برتبة نقيب إلى تكانت، تحدث عنه "أبشير" في كتابه "رسائل من السانتريون"، ص: 188-189.

443- الطرفه ومفردها طرفاية هي نوع من شجر الأثل.

444- وهو ما يؤكد فرضية جفاف المنطقة الجنوبية من الصحراء.

النقيب "بيرجير" فرقة الأوربيين المرابطة في أكجوجت على الدرجة من المرض التي توقعها ولا الزنوج كذلك، أما الطريق فقد كانت مفتوحة أمامه في الذهاب كما في الإياب.

وبما أنه من المفيد في هذه الظروف من ناحية، أن نسمح لقافلة "بيرجير" بأخذ قسط من الراحة، ومن ناحية أخرى قد يكون من المفيد أن نترك لها حرية الحركة حول "بارجيمات" ومن المفهوم أنها ستنظر أوامري قرب هذه الآبار وهكذا سنجعل من المكان المحصن قرب "بارجيمات" معقلا ينطلق منه الدعم لجميع عملياتنا بين هذه النقطة وأكجوجت، وسيقوم النقيب الذي يقود الفرقة الرابعة من الفيلق الرابع للرماة السنغاليين بتقوية تحصينات هذه النقطة. وفي المقابل سيأتي الملازم أوبير بعد أن أخذ الجمالة السنغاليون قسطا من الراحة ليرافقني ويساعد بواسطة جمال فرقته في إخلاء المركز.

كنت أتوفر يوم ذهابي في 07 سبتمبر على قوات تتشكل كما يلي:

- عند "بارجيمات":

• في الطليعة: الملازم "أبير" ومعه 70 مسلح؛

• جمهور القافلة الكبير: 130 رفقة فرقة الجمالة، 300 جمل؛

وبما أن فرقة الطليعة محمولة فينتج عن ذلك أن هذه الكتلة المؤلفة من 260 مسلح متنقلة جدا، وهكذا أصبح عندي في أكجوجت 400 من الجمال للنقل أثناء عملية الإخلاء، وفي مساء 07 سبتمبر نزلت الفرقة المتوجهة إلى أكجوجت عند "رك أعكيلة ارفايك"، حيث يوجد بعض المراعي المناسبة للخيول. زحفت يوم 08 حتى بلغت "اتوجييك" ونزلت قرب الآبار وسط "أكراره"⁴⁴⁵ خضراء.

مساء يوم 9 سبتمبر في حدود الساعة الثالثة انطلقت بالقافلة في اتجاه أكجوجت وعند الخامسة تقريبا كنت قرب رأس جبل "تمكوت" المعزول. فظهر عدد كبير من الرجال قادمين فوق الجمال من ناحية اليمين وهم يتقدمون بسرعة رافعين أيديهم بإشارات التعارف، أوقفت القافلة يبدو أنهم فرقة "أوبير" المكونة من عشرين رجلا في مقدمتهم صديقايا القديمان: "بولير" و"المختار ولد داداه" وقد قدم هذا الأخير مسرعا بجمله يلوح بورقة في يده. فاستلمت المظروف وفتحته، فإذا به تقرير من النقيب "بابلون" يقول إنه بالأمس قد تلقى من "الشيخ

⁴⁴⁵ - "أكراره" بقعة معشبة (إشارة من أفرير جان).

حسنه" مذكرة وقحة تأمره بإخلاء مركز أكجوجت فوراً ودفع الجزية للمسلمين وإلا فسيتعرض للهجوم.

وكان النقيب "مانجين"، قبل مقتله عند "المينان"، قد تلقى إنذاراً مماثلاً فلم يعره أي اهتمام⁴⁴⁶. فكان من الممكن إذن أن يكون التهديد في حالة أكجوجت متبوعاً بالفعل، ومع متابعة تقرير "بابلون" في اتجاه "بوارجيمات" ومن ثم إلى نواكشوط عبر البريد السريع المحمول على الجمال، قررت السير مسرعاً نحو أكجوجت، وأرسلت على الفور فرقة "أبير" للإعلان عن قدومي الوشيك ثم سرت حتى الساعة 11 وتوقفت مدة خمس ساعات.

يوم 10 سبتمبر كنت في أكجوجت عند الساعة 11 صباحاً ولا بد أن العدو الذي كان يتوفر على جواسيس في عين المكان قد بلغه الخبر وأدرك أن أي هجوم على المركز سيواجه بمقاومة قوية فالأمر يتعلق بالنسبة "للشيخ حسنه" ليس فقط بالاستيلاء على قافلة النقيب المكونة من ثلاثين من الرماة السنغاليين ومعهم مدفع كما فعل ذلك في السابق عند "المينان" وإنما سيكون عليه هذه المرة أن يهاجم مركزاً محصناً عليه سور سميك تدافع عنه في الوقت الحالي فرق من نحو 400 مسلح منهم 260 في حالة جيدة بالإضافة إلى مدفعين رشاشين. "فحجم القطعة عسير على الابتلاع" وسيكون على العدو أن يفضل السلام. أرسلت فرقا استكشافية لتأكد من عدم وجوده في المناطق القريبة.

لقد أصبح لدي الوقت إذن لتحطيم المركز وحمل ما أمكن من اللوازم المكومة داخل المركز (لقد كانت هناك أسرة من الحديد وطاولات من الخشب ومقاعد سميكة)⁴⁴⁷ سيكون لدي الوقت إذن لإتلاف كل ما في المركز. كانت لدي إمكانية فرز الأشياء التي لا بد من حملها وتوزيع الأمتعة الثقيلة على الجمال حسب ما أراه مناسباً مع التحضير لإخلاء الحامية من كل شيء باستثناء خمسة رجال، ولا بد لي من حمل الرجال على ظهور الجمال بواقع اثنين على كل جمل. لقد أصبح الآن من المؤكد أن كل هذا -قافلة الأمتعة الثقيلة ونقل العمال العاجزين عن السير- سيشكل كتلة ضخمة ثقيلة لا تستطيع الدفاع عن نفسها أثناء المعركة كما تتطلب وجود آبار في الطريق للحصول على الماء، واعتباراً لهذا الشرط الأخير أرسلت

⁴⁴⁶ - حصلت على تفاصيل الحادثة من شاهد عيان هو العقيد "جورج كوسي" انظر "حول النقيب "مانجين" تأليف ج. فيلمن، المجلة التاريخية المجموعة TXXX، VIII، 1951م.

⁴⁴⁷ - لا شك أن هذا المستوى من البذخ والترف قد أثار حفيظة "افريير جان" المعروف بصرامته: أسرة من الحديد، طاولات ومقاعد.

أمرا إلى النقيب "بيرجير" بالقدوم ليعتزل عند آبار "أتوجيك" ويقوم بإصلاحها، فوجود فرقته في هذه النقطة سيصرف عنا بعض أنظار عدو نحسه قريبا منا ولا نراه. ومتى وصلت أكجوجت فسيرجع النقيب "بيرجير" إلى "بارجميات" لإعداد موقع للتراجع لفرقة الإخلاء عند حاجتها لذلك قررت أن أترك أعمال التحطيم الكبرى لليوم الأخير، ليس فقط لأن إضرار النار في كافة الأشياء التي لا أستطيع حملها، سيلفت انتباه العدو الذي لن يتسرب إليه أدنى شك في أننا ما زلنا هناك في ذلك اليوم، ومن جهة أخرى لأن التحصينات يجب أن تبقى مكانها حتى اللحظة الأخيرة.

كنا في ذلك الوقت نعد الأحمال لجعلها فوق الجمال في معسكرنا خارج المركز، وقد طلبت من الأوربيين أن يضحوا بكل ما هو غير ضروري: طاولات، مقاعد، أثاث مختلف لا يستعمل إلا في حالة الاستقرار، ويكون ثقيل الحمل أثناء المسير. لقد وجدت الوضع الصحي للأوربيين أفضل بكثير مما كنت أتوقعه فقد استعادوا قواهم بفضل المئونة التي قدم بها النقيب "بيرجير" وقد ساعدهم على ذلك استعمال كميات الخمر والنهم الذي تداعت به فرقة المصابين بداء "الطربوت (سوء التغذية)" على أفخاذ الخنازير المحنطة التي جئت بها من "خاي" وكنت أود الاستعانة بها على مواجهة الشتاء القادم، ولكن يبدو أن تفاؤلي قد تحطم، فلم تقو أفخاذ الخنازير المحنطة على الصمود أمام هجوم الأشواك بأيدي جماعة خمسة منها مصابون "بالطربوت".

أما المنحدرون من السكان المحليين فقد لاحظت عليهم درجة كبيرة من الإهزال ويعود ذلك طبعا إلى طبيعة المياه الرديئة ولكن السبب الأساسي لهزالهم يعود بوجه خاص إلى فقدان اللحوم طيلة شهور والاقتصار على التغذية بالأرز الفاسد، ولكن انهيار معنوياتهم كان أكثر حدة من هزال أجسامهم بسبب هذه التغذية.

فمنذ اليوم الذي قبلت فيه الحامية استيلاء العدو على الجمال أمام أعينها بحجة عدم القدرة على حراستها وتغذيتها، عاش المركز مغلقا على ذاته فالضباط المعروفون بنشاطهم مثل النقيب "بابلون" والملازم "اثميت" والملازم الأول "أفيولت"، كانوا قد صرحوا منذ شهر مايو بعجزهم عن حمل رجالهم على القيام بأية حركة خارج أسوار أكجوجت.

وفي الخلاصة كانت المعنويات داخل هذه الحامية منهارة أكثر من الوضعية الجسمية والصحية لمن فيها وربما أثرت الأولى على الأخيرة، طبعا كانت هناك إصابات "بالبريري"

و"الطربوت" أكدها طبيب المركز وهي السبب دون شك في ما حصل من وفيات. ولكن لا يمكنني أن أقبل أن ضباط حامية أكجوجت النشطين، قد بلغ بهم التعب درجة لم يستطيعوا معها إثارة حماس رجالهم.

وهناك شيء آخر، فقد سبق لي أن عاهدت العقيد على ظهر سفينة "لاكامارك" بكتمان أمر موافقة الوزير على انطلاق حملة آدرار. وقد التزمت بذلك فلم أنبس لأحد ببنت شفة حول الموضوع.

ولكنني فور الوصول إلى أكجوجت لاحظت أن الخبر متداول بين ضباط المركز الذين حصلوا عليه من جهة أخرى ولم يتلقوا أمرا بكتمانه. والحال أنهم يدون جميعا المشاركة في هذه الحملة خاصة الضباط، مثل النقيب "بابلون" الذين سبق لهم أن خدموا في منطقة "كانم"⁴⁴⁸ مع العقيد الذي كان صديقا حميما للنقيب. لقد كان من حقي الاعتقاد في أنه، إذا كان هؤلاء الضباط لم يتلقوا الخبر من مصدر موثوق ومأذون بأن قافلة آدرار ستتشكل وأنهم لو لم يسرعوا في إخلاء أكجوجت، للمشاركة في القافلة بدل البقاء في هذا المركز غير المناسب، ولم يكونوا قد تسببوا في انهيار معنويات وأجسام رجالهم وبالغوا في إبراز ذلك ولو لم يتركوا الفوضى تدب في صفوفهم بدرجة أصبحت معها لحامية بكاملها في حالة فوضى وتذرعوا بتشخيص الطبيب لرفض القيام بأية خدمة، ولو لم يحدث كل ذلك مع ضباط لا يمكن انهيار معنوياتهم، قلت إذن إن من حقي الاعتقاد أننا لو لم يحصل ذلك ما كنا لنحصد في أكجوجت هذه النتيجة السيئة.

فحرص هؤلاء الضباط على اصطحاب هذه الفرقة التي يزعمون أنها لا تفيد في شيء عند اكجوجت يدل على أنهم، باستثناء مسألة الارتباط المتبادل، ينوون استخدامها من جديد وفي أسرع وقت ممكن. والحقيقة أنهم قد استخدموها فعلا وسنجدها بعد ذلك بأربعة شهور في آدرار. ومن الطبيعي أن يستغل هؤلاء الضباط حادثة المرض الذي أصابهم ورجالهم لتحسين أوضاعهم بالتقرب من العقيد والتحرر من الروابط للمشاركة في الحملة المقبلة. وكان من المؤكد من جهة أخرى أن أمر الجنرال بإخلاء المركز وتحطيمه مع بقائي فيه صحبة رجالي

448- منطقة في "انشاد".

محل الحامية القديمة التي ستكون قد غادرت لإعادة تنظيمها في ذلك الوقت ولكي يتحسن من وضعها، أما تلك فمسألة أخرى فسنلعب دور الحراسة للحامية والأمتعة المنقولة.

ولا يستطيع أي واحد من الرجال السير على الأقدام حسب تشخيص طبيب أكجوجت ورأي النقيب "بابلون" فتحتم علي إذن تفكيك الفرقة الرابعة من الفيلق الرابع للرماة السنغاليين لتوفير الجمال اللازمة لحمل هؤلاء. قمت أيضا بمصادرة كافة الجمال الموجودة مع فرق الجمالة وتلك غير القادرة على خدمة الاستكشاف وحفظ الأمن في المناطق البعيدة وهو أمر ضروري لقوافلنا ولكن لا بد من التضحية بكل ذلك نظرا لمتطلبات حامية اكجوجت. كانت فرقة المرافقة تضم إذن:

- فرقة التأطير: الفرقة الرابعة وفرقة الجمالة بقيادة "أوبير" وهم تقريبا على الأقدام جميعا.
- الفرقة المخصصة للقافلة: مجموعات الجمالة.
- فرقة العاجزين: وهم جميعا على الجمال: رجال حامية اكجوجت.

وكانت هذه الأخيرة غير مقاتلة مع أنها تحمل السلاح، تحول جميع من في القافلة من البيضان إلى حراس مرافقين مسلحين وقد كان سير القافلة المتناقل يسمح لفرقة المؤطيرين من مسايرتها بسهولة رغم أن أفرادها راجلين.

تقرر كل شيء هكذا ولم يبق إلا أن أقوم بالإجراءات الأخيرة في المركز، لا بد من حمل جثة النقيب "ريبو" وتطلب ذلك إخراجها من القبر وتميرها على النار⁴⁴⁹ لنتمكن من جعلها في كيس نحمله على جمل.

كنت قد كومت حول المركز جميع المواد القابلة للاشتعال بسرعة بما فيها مواد الذخيرة معدا بذلك لتفجير القلعة. قمت يوم 14 سبتمبر بإشعال المحرقة، ولكي أزيد سرعة تحطيم وإتلاف الموجودات وزعتها في حفر أشعلت فيها النار. وبعد قليل ستدوي أصوات الانفجارات وتتصاعد ألسنة اللهب والدخان في جميع الاتجاهات لتتذر العدو بطبيعة العمل الذي نقوم به. لقد كانت المتاريس على درجة من الارتفاع والصلابة تطلبت منا مزيدا من الهدم لجعلها غير صالحة للاستعمال نهائيا. ثم خرج الجميع من المركز وأشعلنا النار في أكواخ الحشيش فتصاعدت ألسنة اللهب متشابكة في منظر رهيب. طافت بمخيلتي فكرة أخرى، فلا بد أن

⁴⁴⁹ - حملتهم الضرورة هنا على القيام بإحدى الممارسات المعروفة في القرون الوسطى.

العدو الذي يتربص بنا وقد أعلن نواياه العدوانية سيتبعنا، وما دمنا بهذا العدد الكبير فسيحجم عن مهاجمتها إلا إذا استدرجناه إلى ذلك بالاستفزاز. أما بعد ذلك فبعد ترك فرقة العاجزين تذهب إلى نواكشوط تحت حراسة النقيب "بيرجير" ونحن حينها في المنقطة المعطشة، فلا شك أن العدو سيكون أقوى على مهاجمتنا وسيحاول تكرار ضربته السابقة في "الشبكة".

وفي الوقت الذي تبدو فيه فرقة "بيرجير" مستريحة وتتمتع بمعنويات عالية، فقد كنت أعتقد، أنه إذا كانت حامية أكجوجت في الوضعية التي يظهرها ضباطها، فمن غير اللازم حملها على القتال أثناء الطريق، ما من شك حسب آخر المعلومات أننا سنواجه عدوا أكثر قوة وتعدادا مما حصل في "الشبكة". فنحن على علم بأن "الشيخ حسنه" وأمير آدرار قد جمعا فرقا كبيرة تتجاوز بكثير المائة من التلاميذ التي كانت قد اشتبكت في يوليو مع النقيب "بيرجير" ف جيش بهذه القيادة وهذا العدد المتشكل حول فرقة التلاميذ لن يكون قد تحرك من أجل معركة بسيطة، فليس بمقدور النقيب "بيرجير" أن يواجهه منفردا في الوقت الذي تحركت فيه حامية أكجوجت: وهو ما لم يكن من الواجب فعله، ليس فقط بسبب ما يحوم من شكوك حول نتائج المعركة ولكن أيضا بسبب المنطقة غير المناسبة التي قد يحصل فيها الهجوم. فلا بد إذن من العمل على أن يحصل هذا الهجوم الذي لا مناص منه في وقت ما زال فيه عددنا كبيرا أي بين "أكجوجت" و"بارجيمات" فلا بد أن تكون الحامية المنقولة خلال مسيرها من "بارجيمات" نحو نواكشوط آمنة من أية مضايقة لكي تتمكن من اجتياز المنطقة المعطشة. فلا بد إذن من استدراج العدو نحونا بأسرع ما يمكن وجعله يهاجمنا ولتحقيق ذلك لابد من استفزازه.

ولهذا الغرض جعلت فوق القمة الصخرية المطلة على بقايا مركز "أكجوجت" لوحة على عمود طويل كتب عليه "المختار ولد داداه" ما يلي:

- من الرائد "افرير جان" قائد حملة الفرنسيين إلى أهل آدرار: "أغادر أكجوجت ليس بسبب رسالتكم وإنما لأنني تلقيت أمرا من رؤسائي للقيام بذلك، أستطيع تقييم رجال جيش آدرار، فقد رأيت الأمير "ولد عيده" يفر أمامي في تجكجة. أنتم مجرد كلاب أبناء كلاب ولستم رجال حرب. نحن نغادر أكجوجت لأن المياه في آبارها تشبه ماء بئر ثمود ولا يشربها إلا الخنازير البرية المنحدرة من خنازير برية من أمثالكم ولذا نتركها لكم ولكننا لا نخرج من إينشيري فستجدوننا كلما نزلتم إليه. أما المدعو "الشيخ حسنه" فلا أعرفه، فأنا لا أعرف إلا

رجلا واحدا من الزوايا جديرا بهذا الاسم هو "الشيخ سيديا" صديق الفرنسيين. ولا أرغب لا في معرفة الشيخ "حسنه" ولا في التعامل معه. لا أسلم عليكم بل أسلم فقط على أصدقائي القدامى الموجودين معكم". ثم وقعت على ذلك.

يمكن أن نفترض أن متعة شتم العدو لا تكفي وحدها لحملي على إصاق مثل هذه اللافطة، وبناء على معرفتي بالبيضان فقد كنت متأكدا أن مثل هذا الاستفزاز سيؤدي إلى ردة فعل تلقائية في شكل هجوم وذلك ما أريده بالضبط، سنتثبت الأحداث اللاحقة دقة حساباتي. كما أن ما قد يصلني من توبيخ على عدم اللياقة اتجاه "الشيخ حسنه" وأمير آدرار، لا يعدل شيئا في ميزان النتيجة التي سأحصل عليها من تصرفي، ولكنه سيثبت لي أن المناورة التي قمت بها لم تلق الفهم الصحيح في المستويات العليا من السلطة، وصحيح في الوقت الذي لم تشكل فيه حامية أكجوجت وهي في السنغال لعدم وصولها إلي.

كان البيضان يتناقلون خبر هذا الإعلان ويتوقعون ما سيكون له من أثر مدمر على العدو الذي سيشعر بالتحدي ولن يتأخر عن مهاجمتنا. غادرت أكجوجت يوم 15 سبتمبر وكانت أمطار غزيرة قد تهاطلت مساء بالأمس وهو ما مكنتني من الاطمئنان على أن الأودية ستكون مترعة بمياه الأمطار.

لاحظت أثناء المسير أن ضعف الرقابة قد جعل حامية أكجوجت تسير مبعثرة تماما إلى مجموعات منعزلة في غير انتظام على طرفي القافلة وقد فضل كثير من أفرادها المشي على الأقدام بدل ركوب الجمال التي تعبنا في تحصيلها من أجلهم ونزلوا عن ظهورها دون إذن⁴⁵⁰ وبقوا متناقلين في الخلف في غير انتظام غير مبالين بسير القافلة. كما لاحظت أن ضباط الصف الأوربيين في حامية أكجوجت لم ينصاعوا لطلب التضحية بحاجاتهم الشخصية غير الضرورية فبضعهم قد أخذ معه تسع جمال محملة بمقاعد الحديدية والمقاعد المطوية والحصائر. كما شعرت بأن أفراد حامية أكجوجت يعتبروننا مجرد جنود حراسة⁴⁵¹ أو من يسوقون العربات. فأفراد هذه الحامية لا يبذلون أي جهد في هذه الظروف غير المريحة والصعبة التي نمر بها بسبب هذه الحامية نفسها وكان ذلك هو الشعور السائد لدى كافة ضباط القافلة الذين يقومون في الوقت الحالي بمرافقة وتأطير هذه القافلة التي تنقل محتويات

⁴⁵⁰ - يعتبر ركوب الجمال شاقا على غير المتعودين عليه، ولذا يفضلون المشي على الأقدام.

⁴⁵¹ - يسمون جنود القطار في التعبير العسكري الذي يوحى بالاستخفاف وهم من غير العسكريين أصلا.

ورجال حامية أكجوجت لقد تفاجأ ضباط أكجوجت حين عبرنا لهم عن استيائنا وخاصة بالنسبة لي أنا شخصياً، ولم يكن شعورهم مهما عندي ما دمت سأحصل على ما أريده من وراء تصرفي، أي عودة النظام والانضباط إلى فرقتهم. لقد كانت فرقة أكجوجت أثناء التوقف وكذلك أثناء المسير تسير على انفراد.

وصلت أتويجيك مساء يوم 16 سبتمبر وكان النقيب "برجير" قد وصلها بقافلته وكانت الآبار في وضع جيد فقد تم تنظيفها كما أن الأمطار المتهاطلة ليلة 14 قد خلفت بحيرة كبيرة من المياه ولكي نستفيد من هذه المياه والمرعى ولكي أمنح الجمال الرازحة تحت الأثقال قسطاً من الراحة، فقد قررت النزول في "أتويجيك"، وقمت من جهة أخرى سعياً إلى تخفيف الضغط على المكان، بإرسال قافلة "برجير" إلى "بارجيمات" يوم 17 سبتمبر، وفي يوم 18 أصدرت أوامري مساء بجمع الجمال عند الساعة الرابعة لتحميل الأمتعة وفجأة ظهر بعض أفراد العدو يطوفون بالمنطقة على بعد وأطلقوا نحونا عدة عيارات وانسحبوا أمام اثنتين من دورياتنا. أصبح بإمكاننا الآن أن نحمل الأمتعة وننتقل بسلام. كان الحر شديداً يوم 18، وأخبرني بعض المتخلفين عن قافلة "برجير" وجدتهم على الطريق، بأن تلك القافلة قد عانت كثيراً من الحر والعطش وأن رجالها قد تعرضوا مرة أخرى لنوبة من هبوط المعنويات، فهل يمكن أن نعول عليهم لمرافقة مجموعة "العاجزين" بين "بارجيمات" و"تواكشوط"؟

انطلقت يوم 19 قبل طلوع النهار فلا بد أن أصل في الليل لأعاقب مجموعة "العاجزين" الذين استولوا على أفضل الجمال التي كانت مخصصة لحمل الأمتعة وركبوا بدل تلك التي كانت مخصصة لهم وكانت متعبة وتعاني من الجراح بسببهم. جعلت الملازم "أوبير" في مؤخرة القافلة وهو الأكثر خبرة بين ضباطي. وعند الساعة صباحاً بدأت الحرارة تشتد، وكانت القافلة تسير بانتظام وسط "رك" على مسافة كيلومترين تقريباً شمال "اترينا" وكان السراب يخيم على المنطقة والظباء تجري هنا وهناك أمامنا، فسمحت لسيدي وعشرين من الجمال بتمارين الصيد في مقدمة القافلة⁴⁵². وما كاد هؤلاء يطلقون الرصاصات الأولى، حتى ردت عليهم من ناحية الشرق أصوات البنادق ومرت رصاصة أو رصاصتان من فوق القافلة. فظننت أن فرقة الطليعة قد ارتكبت خطأ، فأوقفت القافلة ليتمكن الملازم "أوبير" من اللحاق بنا وفي هذه

⁴⁵² - لحم الظباء طري جداً ومفضل لدى البيطان ولدى الأوربيين ولكن منذ زمن "افيرر جان"، أصبحت الظباء نادرة بسبب الإفراط في صيدها.

الأثناء تركت الجمالة يواصلون القنص في المقدمة، وفجأة قدم إلي من فرقة الجمال المتكتلة في مؤخرة القافلة، الطبيب "كازنيف" وسلمني تقريراً من "أوبير" جاء فيه أنه تعرض لهجوم وأن ثلاثة من الجمال أصيبوا بجراح، وأنه تمكن من مواجهة الهجوم.

وأثناء الحركة لإيقاف القافلة اقتربت مسافة 1700 إلى 1800 متر من "اترينا" بحثاً عن "رك" يتسع لاحتواء مجموع القافلة. وبعد تسلمي لتقرير الملازم "أوبير" من يد الطبيب، بقليل رأيت فرقا كثيرة من الجمالة تظهر عند سفح الكثيب وسط ما يشبه المنخفض في ناحية الشمال ولحسن الحظ أن السراب قد زاد قاماتهم طولا كما هو معروف، فأظهرهم لنا ولولا ذلك لبقوا مختفين في المنخفض، وفي نفس الوقت أطلق الصيادون وابلا من الرصاص على شيء آخر غير الظباء ورفع لنا السراب ظلال العدو القادم بأعداد كبيرة في اتجاه "بارجيمات". إنهم يحاولون تطبيق استراتيجية التطويق المعروفة لدى البيضان. لقد وصلنا موقع "أكلال فاي" ولحسن الحظ أن فرق العدو الأقرب إلينا ما زالت بعيدة جدا وأن الطلقات النارية المتعاقبة كانت تمر فوق رؤوسنا بكثير وكلها قادمة من العدو، ولا شك أن علو ارتفاعها من تأثير السراب الذي يجعلهم يخطئون في تقدير المسافة لأنه يزيد قاماتنا طولا فكانت الطلقات النارية تمر على ارتفاع شاهق، كما يبدو أن لدى العدو كميات كثيرة من الذخيرة لأنهم يطلقونها دون ترشيد محدثين ضجة وصخبا من حولنا. كانت القافلة قد توقفت واقتربت مني الفرقة الموجودة في الخلف في الوقت الذي بدا فيه أن الهجوم قادم من جهة الكثيب، يبدو أن العدو يحاول الإحاطة بنا. وحين "بركت"⁴⁵³ القافلة، تركت الجمال تحت حراسة مجموعة "العاجزين" من فرقة أكجوجت وجمعت الجمالة وأمرت النقيب "بابلون" بإعارة العريف "نافون" ومجموعة المدافع الرشاشة ثم أرسلت فرقة "أولاد أبييري" بقيادة "المختار ولد داداه"، و"أحمويد" لتقديم الدعم لفرقة القناصة فأصبح العدد ستين مسلحا من غير النظاميين، وفي نفس الوقت أصدرت الأوامر بالهجوم في ناحية اليمين والوسط اتجاه العدو الموجود في ذلك الوقت في المنخفض الشمالي لموقع "اترينا" وكان بديها أن العدو قادم من الخلف يتبعنا في البداية وفي ذلك الاتجاه يوجد خط انسحابه الأساسي فلا بد إذن من قطع الطريق عليه من هناك وأقرب الفرق الخمس من هذا الخط هي فرقة "أوبير" فهي القادرة في الوقت الحالي على تنفيذ هذه المناورة

⁴⁵³ - برکت: عبارة عربية تخص الحيوان، ولكن "افرير جان" قد استعملها لجميع القافلة تعبيراً عن توقف حركتها من أجل النزول.

ضد العدو، كما أنها الأكثر عددا وتدريباً والأحسن قيادة، وأمرت فرقة من ثلاثين من الجمالة فيها اثنان من "أولاد دمان" وبعض الترارزة ضمنهم "بولير" و"سيدي" وغيرهم، بأن تمر من خلف فرقة "أوبير" وتسير في انتظام إلى ناحية الشمال لتصل بسرعة إلى الطرف اليميني للعدو وتتمركز على قمة مرتفع "اترينا" وكان "سيدي" سعيداً بهذه المهمة...، وكان لدى فرقة "أوبير" أمر بالهجوم على دفعات في ناحية اليسار التي سنتبعها من اليسار إلى اليمين فرقة "جيرار" و"أبلود" من الفرقة الرابعة وفي ناحية أقصى اليمين توجد فرقة "أديونيس دو سبور" التي تشكل مرتكزا للتوجه إلى اليمين وفي هذه الناحية يوجد مغزى المناورة، سرت مع فرقة العريف "الوران" كدرع واقى ودعوت "المختار ولد داداه" بعد أن صد الفرقة التي هاجمت جمالنا كما كانت معي فرقة المدافع الرشاشة بقيادة "نافون". وأمرت النقيب "بابلون" في مؤخرة القافلة بأن يتمركز في موقع دفاعي حول الجمال مع فرقة "العاجزين" المسلحة. في الوقت الذي كان فيه الملازم "أوبير" يتقدم في اتجاه العدو الذي بدأ يظهر شيئاً فشيئاً على بعد 1600 متر في ناحية الجنوب أمرت "أحمويد" أن يبقى على يميني مع فرقة "أولاد أبييري" المكونة من ستين رجلاً في انتظار أوامر أخرى سأرسلها له مع "المختار ولد داداه"، اختفت فرقة الجمالة الثلاثين وبدأت تزحف نحو قمة المرتفع المحددة لها وبعد وقت قليل وجدت هذه الفرقة وكذلك فرقة "أوبير" نفسيهما مجبرتين على إطلاق النار لتتمكننا من التقدم فوجهت فرقة المدافع الرشاشة إلى الخط الذي توجد عليه الفرق التابعة لـ "جيرار" و"أبلود" وبما أن العدو يتحرك بنشاط أمامنا وسط السراب الكثيف أمرت بإطلاق النار من على بعد 1600 بواسطة المدافع الرشاشة مصوباً إلى المكان الذي يحتمل أن تصاب منه سيقان الجمال في منحدر الكثيب فكنا نرى ظلال الجمال يحركها السراب تتمايل فوق أقدامها الطويلة. لاحظت على الفور أن تصويبة الرقيب "نافون" كانت فعالة فقد شاهدنا الرجال فوق الجمال يترنحون مذعورين من الرصاص المنهمر عليهم من هذه المسافة ولكي أزيد ارتباكهم عززت الطلقات النارية الصادرة من المدافع الرشاشة بوابل من الرصاص من فرقتي "جيرار" و"أبلود" الواقعتين على ارتفاع مناسب. فلا بد، رغم بعد المسافة، من استغلال فرصة عدم الحذر الواضح لدى العدو حين ظهر بأعداده الكبيرة أمامنا. أمرت "المختار ولد داداه" بالتوجه بفرقة الستين مسلح من "أولاد أبييري" بقيادة "أحمويد" ليتسلل معهم للضغط على العدو من ناحية اليسار والحرص على التمركز قبله فوق "اترينا" تقدمت بالوحدات الثالث فرقة "جيرار" وفرقة "أبلود" وفرقة

"أديونيس دو سبور" دائما على دفعات في الوقت الذي تتبعها فيه فرقة "لوران" على مسافة قريبة ولكنها مختفية بحيث تستطيع التدخل متى دعت الحاجة إلى ذلك، بقيت المدافع الرشاشة في مكانها أولا ثم انتقلت لتصبح تحت أوامر النقيب "بابلون".

الأمر تسير على ما يرام حتى الآن، فبعد أن كنا مطوقين (بفتح الواو) في البداية أصبحنا مطوقين (بكسر الواو) في الوقت الحالي لم يتمكن العدو من الصمود أمام الملازم "أوبير" بسبب ما تكبده جراء المدافع الرشاشة، فانسحب فوق "اترينا" قبل أن يصله الهجوم الذي وجهته عبر فرقتي الجمالة وتمت الأمور بانتظام وانضباط. وفجأة هبت فرقة "جيرار" وكانت الأقرب إلى فرقة "أوبير" واندفعت إلى الأمام نحو منحدر "اترينا" وحالت بيننا وبين فرقة "أوبير" ربما استدرجها قسم من العدو بقي في مواجهتها، فأرسلت فرقة "لوران" إلى هذه الناحية، وفي نفس الوقت أمرت "أوبير" بالصعود فوق الكتيب صحبة فرقته، بحيث نستعيد وضع خطتنا الأولية ونتابع التحرك في اتجاه اليمين الذي سيمكننا حسب تخطيطي من قطع خط الانسحاب أمام العدو وإجباره على الفرار في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي. وحين شاهدت "أوبير" يتحرك اقتربت صحبة فرقة "لوران" وفرقة الملازم "أبلود" التي توقفت عن السير في الوسط بحيث انسجنا مع الحركة العامة، هكذا أعدت الانضباط داخل مختلف الألوية. وفي هذا الوقت سمعت أصواتا عالية في المقدمة على ناحية اليمين يصاحبها إطلاق نار كثيب، إنه هجوم مضاد من العدو الذي وجدنا أمامه على الكتيب فتراجع مهاجما فرقة "أولاد أبييري" ولكنها تمكنت من الصمود مختفية وراء الأشجار واستمرت في إطلاق النار مشكلة حلقة هجوم، وكان هجوم العدو قد توجه إلى ناحية اليسار بين فرقة "أولاد أبييري" وفرقة "أديونيس دو سبور" التي اكتفت بإيقافه فقط ولم تبرح مكانها، ولو كانت قد تحركت إلى ناحية اليمين لاستطاعت أن تشكل طوقا حول العدو وتتمكن مع فرقة "أولاد أبييري" من إبادته.

دفعت بفرقة "أبلود" إلى الأمام من أجل الإحاطة بالمهاجمين، واقتربت فرقة "لوران" لدعمننا، ولكن المهاجمين البيضان ما أن لاحظوا الحلقة تكاد تنكش من خلفهم حتى تراجعوا إلى الخلف وتبعهم "أولاد أبييري" يطاردونهم متسابقين معهم إلى قمة "اترينا" فانطلقت المعركة إلى الكتيب، كان يوجد أمام فرقة الوسط بعض المجموعات الصامدة على بعد 150 متر، ولكن الطبيب الجسور "كازانيف" وجد الفرصة لإطلاق الرصاصات الأولى في حياته تواصلت

طلقات النار وقد أخذ الكتيب أصواتها لتتناقص بعد ذلك وتضعف ولكنها كانت كافية لإبعاد العدو الذي كان متخلفا في منطقة الوسط فأمرت فرقة "الزمارة" بإطلاق الإنذار وتحت الصخب سعدنا بانتظام فوق الكتيب. كنا نشاهد العدو يفر في كل اتجاه تاركا القتلى والجرحى على ساحة الميدان، ولكنه اختفى، كيف حصل ذلك؟ يبدو من الآثار أنه اتجه ناحية الجنوب الشرقي حيث توجد بركة "أركش" يقول "أولاد أبييري" إنه متجه إليها لأخذ الماء، فإذا كان الحر والعطش قد أضرا بنا فإن العدو يعاني من نفس الشيء، ولم يفتأ الجمالة أن وجدوا دليلا على ذلك فقد عثروا على جمل جريح يبدو أن العدو قد بقره لشرب ما في كرشه من ماء. يا إلهي لو كانت عندي مثل هذه الجمال أثناء معالجاتي لقضية حامية أكون فكيك كان رجالي سيتعاملون معها؟ كانت الساعة الحادية عشرة ورجالي يشعرون بعطش شديد لقد حان الوقت لتوجيههم نحو الماء. أخبرني الملازم "أوبير" الذي كان بجانبني ونحن عائدان أن النقيب "بابلون" سيكون ساخطا لأننا تركناه في حراسة القافلة، ذلك يمكن ولكن ما العمل؟ فرجالي حسب ما يقول "عاجزون". إلا أنني من أجل إرضائه تظاهرت بمعاملته كقائد لفرقة الاحتياط وطلبت منه إعطائي فرقة لكي أشكل موقع تراجع على قمة "اترينا". كانت هذه الفرقة من موقعها العالي تراقب الضواحي بينما نحن نشرب ونتناول طعامنا، ومتى انتهينا من ذلك سنقوم باستجواب الجرحين الموجودين معنا من العدو وهما مصابان بجراح قاتلة إلا أنها لا تمنعهما من الكلام. وهما يقولان إننا قد واجهنا نحو أربع مائة مسلح بقيادة "الشيخ حسنه" وأمير آدرار شخصيا⁴⁵⁴. وقد كان من ضمن هؤلاء فرقة "اتلاميد" بقيادة "بكار ولد الشيخ" من "إيديشلي" الذين كنت قد أصدرت الأوامر بمحاولة استدراجهم ويعرف عن "بكار" أنه صديق "للمكتب" في "سينلويس" ومن ضمنهم كذلك "أحمد سالم ولد الشيخ محمد ولد سليمان" وهو شقيق أحد رؤساء "أولاد ديمان" في اترارزة، كما أن هناك فرق من مختلف قبائل آدرار ترافق الأمير وبعض أولاد السباع ونحو مائة مسلح من "اركييات" وفرقة اركييات هي التي هاجمتنا من ناحية اليمين في نهاية المعركة لتأمين انسحاب بقية المهاجمين، يقول الجريحان والمجموعة التي جاءت بها فرقة الجمالة إن العدو كان يظننا ما زلنا نياما في الصباح في

454 - هذا جمع كبير فالشيخ حسنه والأمير لا يتحركان إلا بعد التأكد من حصول انتصار ساحق.

مكان إقامتنا وقد اقترب منها بحذر لئيباغتنا بهجوم باكر، ولكنه وجدنا قد انطلقنا فصار على آثارنا وحصل ما حصل.

يبدو أن اللافتة التي تركتها في أكجوجت قد أثارت ردة الفعل المطلوبة، فقد حطموها وقرأها "أديافرات اختاير" أحد زوايا آدرار الذي حملها فورا إلى الأمير فأدى ذلك إلى ثورة غضب وهجوم ويبدو حسب الأخبار أن العدو منهار ويعاني من العطش.

ولكن قد شاع منذ ذهابنا من أكجوجت أن انسحابنا هو بداية الخروج من جميع البلاد وأن الانسحاب قد فرضته علينا "جماعة" الفرنسيين. كافة الجمال التي يركبها الأعداء الذين هاجمونا قد حصلوا عليها من قبائل الزوايا في المنطقة خاصة "أهل بار كلل" و"أهل بوحيني" الراغبين في المساهمة في طردنا من البلاد في نفس الوقت الذي يحضرون فيه أمامنا كل صباح محملين بشهادات موقعة من القادة السابقين علي. وفي الأخير جمعنا من ساحة المعركة كميات من الذخيرة الجيدة من صنع "الشركة الفرنسية للذخيرة"⁴⁵⁵ أرسلت عينات منها إلى العقيد كأمتلة لما وجدناه، كنت أنوي الدخول إلى "بارجيمات" نفس الليلة أو من الغد في الصباح فانطلقت عند الساعة الثالثة كان الحر شديدا والمناخ ثقيلًا ولكن النهار قد انتهى بالمطر فعند الساعة السادسة مساء فاجأتنا الزوبعة ونحن غير بعيدين من "بارجيمات" لم أر في حياتي زوبعة أشد منها، فقد باغتتنا ونحن وسط "الرك" فأثارت علينا الأتربة والحجارة ممزوجة بالغبار (كاد بعضها أن يحطم المنظار فوق عيني ومنها ما هو بحجم بيض الحمام) أجبرتنا العاصفة على التوقف والاحتماء قرب الجمال والخيول، كان الظلام شديدا حتى أن الشخص لا يرى من بجواره وكانت الحجارة الصغيرة تصفر فوق رؤوسنا وبعد قليل اختلط بها ماء المطر البارد وكان طوفانا فكنا نرتجف وتصطك أسنانا من البرد.

توقف المطر عند منتصف الليل فحاولنا أن ننام دون جدوى، وكانت الفرقة الخلفية قد تجاوزتنا دون أن تشعر بوجودنا أثناء الزوبعة أرسلت بعض الجمالة إلى "بارجيمات" للإعلان بقدمنا ثم أشعلنا النيران في الصباح الباكر من أجل التسخين وقد جفت أمتعتنا بعض الشيء وعاد بعض النظام إلى القافلة فانطلقنا نحو "بارجيمات" حيث وصلناه عند الساعة السابعة يوم

⁴⁵⁵ - هذا دليل على ازدهار تهريب الأسلحة الفرنسية، فمن أين جاءت هذه الذخيرة وهذه الأسلحة؟ من الساقية الحمراء (الشيخ ماء العينين هو من كان يشتريها) ومن سينلويس في السنغال (بواسطة دور التجارة).

20 سبتمبر كانت الفرقة الخلفية قد وصلت ليلًا، باستثناء رجل واحد ضل طريقه في الليل حاملاً سلاحه وأمتعته سجد جثته فيما بعد في بداية نوفمبر.

فرقة إينشيري المتنقلة

لقد أنجزت الجزء الأول من مهمتي، فمركز أكجوجت تم إخلاؤه وإتلاف ما فيه من لوازم كما حافظنا على الشرف وأكثر من ذلك إثناء الانسحاب لأننا هزمنا العدو ونحن نتمركز الآن قبالة "أدرار" عند "بارجيمات" في وسط إينشيري لم يبق لي من التعليمات الأولوية سوى

إرسال فرقة أكجوجت "من العاجزين" إلى نواكشوط ولكن وصلت أوامر جديدة أثناء إخلاء مركز أكجوجت أخصها فيما يلي:

- علي أن أزيد عدد الفرقة النظامية بواسطة الرجال الذين سيتركهم لي النقيب "برجير" ليصبح العدد مائتين وخمسين مسلحا وأنا مطالب بإرسال الجمالة العشرة التابعين "الولد أبراهيم السالم" ولكن علي الاحتفاظ بالجمالة الستة من فرقة أكجوجت والعشرة الذين يقودهم "أحمويد" من جماعة "أولاد أبييري"، كما يجب علي اكتتاب عشرة من جمالة "العلب الكحل" وأخيرا سيترك لي النقيب "بابلون" مدفعي أكجوجت الرشاشين. كل هذا العدد أي ما مجموعه 276 مسلحا سيطلق عليه اسم "فرقة إنشيري المتنقلة". علي أن يصبح مركزي من الآن فصائدا هو المعقل الموجود في "بارجيمات" ولكن بإمكانني التنقل حوله بحثا عن المراعي للجمال، ولكنهم عينوا لي حدودا في ناحية الشرق مخافة أن أتوغل منفردا في آدرار كما تلقيت تعليمات بالاعتناء بالجمال والحرص على راحة الرجال بحيث يكون الجميع قادرا على المسير عند وصول الأوامر بذلك. ومن الناحية السياسية يجب أن أعمل على استقطاب انتباه أهل آدرار وهو ما سيمكن العقيد في الوقت المناسب من مفاجأتهم بالهجوم من جانب آخر.

وكما كان طبيعيا، فقد ترك لي النقيب "بيرجير" عددا عديم القيمة من رجاله خاصة أولئك الذين أخلوا بالنظام في شهر يوليو الماضي أثناء اجتياز منطقة 93 كيلومتر المعطشة، فلم يعد بإمكانني أن أستخدم فرقة الرماة السنغاليين التابعة لـ"بيرجير" إلا كفرقة حراسة لمعقلنا في "بارجيمات" سأواجه مع ذلك مشكل تغذيتهم. توجهت قافلة إخلاء أكجوجت يوم 23 سبتمبر إلى نواكشوط ومعها جزء من جمال القافلة وكافة الجمال التي كانت تستخدمها فرقة الجمالة وكان في القيادة النقيب "بابلون" باعتباره الأقدم رتبة وهكذا لم يعد معي فرد من "فرقة العاجزين" وقد أخذت مني القافلة المغادرة بأمتعة أكجوجت ورجاله، تسعة عشر حمارا استخدموها في حمل النساء المأخوذات أثناء الغارات في المناطق المحيطة بأكجوجت من شهر مارس إلى مايو 1908 وكن ذاهبات إلى نواكشوط صحبة أسيادهن. توجهت فرقة "جيرير" إلى نواكشوط كذلك بنحو مائة من الجمال المخصصة للحمل على أن تعود لنا بالمؤن الغذائية التي كنت قد تركتها أواخر أغسطس هناك والتي ستصبح ضرورية لنا في الوقت الحاضر، وبعد مغادرة قافلة الإخلاء المتوجهة إلى نواكشوط لم يبق في "بارجيمات" في

انتظار قدوم "لعلب الكحل" سوى سبعة عشر من الجمالة بما في ذلك "سيدي". بقينا نعاني من نقص الأدوية البيطرية وانعدام خبرتنا في تضميد جراح الحيوانات وقلة المراعي وقد ازداد الوضع سوء لأن الجمال ليست مملوكة من طرف من يستعملونها ولذا فهم لا يشفقون عليها ويبالغون في إرهابها. كما لاحظنا أن الحيوانات مصابة بداء "التابوريت" أو مريضة "بازواكي" بسبب حقنها بمصل هذا المرض⁴⁵⁶. ولن يقوى أي واحد منها على تحمل مناخ اترارزة الشمالية أو إينشيري وسيكون الوضع أسوأ في آدرار لأن بعض النباتات تقتل الإبل القادمة من الجنوب مثل "أسكاف". وصلني بريد من انواكشوط يخبر بوشوك وصول حامية أكجوجت وبقية قافلة الإخلاء إلى هذا المركز، وطبقا لتوقعاتي لم يتعرض أي من هؤلاء للمضايقة أثناء الطريق. وما أن وصل النقيب "بيرجير" إلى نواكشوط حتى انطلق مقتفيا آثار فرقة سطو من "أولاد أدليم" وأخرى تابعة "لولد الديد"، وقد لحق بهذا الأخير عند "تيفرنوت" وسحقه وهزم فرقة أولاد "أدليم" عند "تدغادش" في ناحية الجنوب الشرقي حمل إلي نفس البريد كذلك خبر انتصار الرائد "شانبير" على "محمد المختار ولد الحامد" زعيم "كنته" الذي تم طرده من الرشيد بعد أن استعملت القافلة ضده المدافع وقد هرب إلى الحوض. يبدو أن عملياتنا بدأت تنتشر في كافة المنطقة، ولكن من الناحية الظاهرية فقط، فأعدونا بعد أن تخلوا عن الهجمات الكبيرة قد اعتمدوا استراتيجية مشاغلتنا بالفرق المتعددة التي تنهب وتقتل حتى سعاة بريدنا وتصطو على جميع القبائل غير المتحالفة معها، وقد حصلت بعد ذلك بقليل على ما يثبت كون أهل آدرار لم يتراجعوا عن مشروعهم لطردها من إينشيري. كان النقيب "بابلون" قد ترك لي "المامي" رجل مخابراتي القديم في منطقة أترارزة الشرقية سنة 1904 الذي أصبح منذ 1907 من وكلاء السياسة في مركز أكجوجت وبعد مغادرة قافلة الأخلاء بأيام قليلة شاهدت رجلا قادما من جهة "أتويجكت" يصفونه بالجنون وكنت قد لقيته هناك ويرافقه رجل لا أعرفه وقد أعلن "المامي" حين رأى الرجل المجهول أن المعني هو المخبر الرئيسي لمجموعة "اتلاميد" في مركز أكجوجت وما علي إلا أن أقوم ببحث بسيط في أوساط فرقة الجمالة التي كانت موجودة هناك فأكدوا لي أن هذا الرجل كان على الدوام يوافي الأعداء بكلما يجري في أكجوجت.

⁴⁵⁶ - "التابوريت" مرض قاتل يصيب الإبل بسبب لسع ذبابة "اتسي تسي" المنتشرة في المناطق الرطبة (قرب الأنهار والبرك وأثناء موسم الأمطار، أما "آزواكي" فهو الحيوان المريض بسبب الحقن بمصل مرض التابوريت).

فلا شك إذن أنه لا يعلم بوجود "المامي" معي ولذا فكر في استئناف عمله الميداني في معسكرنا. استدعيت الرجلين واستجوبتهما فزعمتا أنهما قدما إلى "بارجيمات" بحثا عن مجموعة حمير ضائعة وهو ما لا يصدق لأننا لم نصادف آثارا للحمير في الجهة التي قدموا منها، فأجلت بقية الاستجواب إلى وقت لاحق، وبحثت لهما على الفور عن عمل شاق يشغلها فكلفتهما بحفر وتنظيف الآبار طيلة مقامنا في "بارجيمات" ولكي أعوض لطافة المناخ، أجبرتتهما على البقاء وقت المقييل وأثناء الليل داخل حفرة عميقة تحت رقابة أحد الحراس، وما كان يضايقهما أكثر هو استحالة الهرب من العمل الشاق الذي ينتظرهما خارج الحفرة خاصة وأن أعينهما تبقى معصوبة طول الوقت وأيديهم موثقة وراء ظهريهما.

فلم يمض وقت طويل حتى أثرت فيهما هذه المعاملة وحين خضعا للاستجواب من جديد على انفراد، اعترفا بأن "الشيخ حسنه" قد بعثهما شخصيا لمعرفة أخبارنا، وبما أن الأجل الذي حدده لرجوعهما قد تجاوز وأنهما تعودا على معاملتنا فقد قررا عدم العودة إلى مجموعة "اتلاميذ" وفضلا مواصلة العمل معنا لغاية دخولنا في آدرار.

لقد ذابت الثيران المائة القادمة من انواكشوط وسنواجه نقصا في اللحم الطازج وأنا متأكد بناء على تجربة السابقة في أعالي إقليم "تونكين" أن وباء "البري بري" و"اسكاربوت" الذي اجتاح رجالنا في أكجوجت كان أساس بسبب نقص اللحم ولم يكن بسبب الماء ولا عدم تنوع التغذية، وفي ذلك الوقت اتقرب مخيم "أهل باركلله" من "برجيمات" فكلفت "المامي" بأن يبحث لي لديهم عن ثيران للبيع وزيادة في الاقتصاد ومن أجل تحسين تغذية رجالي ومضاعفة كمياتها، كلفت "المامي" نفسه بأن يبحث عن أقرب تجمع معادي تتوفر لديه المواشي لأصادر منها وأحصل بالمجان على ما يكفي من اللحم لفترة طويلة.

لم يطل "بالمامي" البحث كثيرا، حتى وقع على خبر جماعة من "أولاد اللب" الحلفاء الحميمين لأهل آدرار وهم فرع من "أولاد أدليم" واندست هذه الجماعة ضمن مخيمات "أهل باركلله" و"أهل بوحبيني" على بعد مسيرة ليلة ونصف شمال غرب "برجيمات" في ناحية "تن يدين".

وهؤلاء الزوايا هم الذين أعطوا جمالهم عن طيب خاطر المغيرين الذين صددهم يوم 19 سبتمبر عند "أعكليت ارفايك". وفوق ذلك، فقد اعتاد "أولاد اللب" حين يذهبون للإغارة على المناطق الخاضعة لنا، أي يتركوا خيامهم وقطعانهم لدى هؤلاء الزوايا رغم وضوح وصراحة

الأوامر في مثل هذه المخالفات: كل جماعة من الزوايا تنتسز على ممتلكات تابعة لأعدائنا سنتم مصادرة ممتلكاتها الخاصة مع الممتلكات المخفية.

هذه بالضبط هي المناسبة المنشودة بالنسبة لي أرسلت النقيب "دور وي" يوم 29 سبتمبر على رأس قوة من سبعة عشر من الجمالة المتطوعين ومائة وخمسين مسلحا من الفرقة الرابعة إلى مخيمات "تن يدين" وفي صباح يوم 30 سبتمبر استولى "سيدي" ومن معه من "البيضان" على كل ما لدى "أولاد اللب" من أكباش في مخيم "تن يدين" وطاردهم في اتجاه الغرب حتى "أم أكراع" وفي الأول من أكتوبر عاد النقيب "دور وي" إلى "برجيمات" بغنائمه لقد أصبحنا، ليس فقط في مأمن من نقص اللحوم، ولكن أيضا صار في مقدورنا أن نضاعف حصة اللحم وبالتالي نقضي على مرضى "البري بري" و"اسكاربوت" ولو وجدت وسيلة لتحسين تغذية الجمال لكان ذلك أفضل، ولكن ما باليد حيلة مع الأسف.

وفي نفس اليوم التحقت بنا جماعة "لعب الكحل" وعددهم عشرة بقيادة رئيسهم الشاب "سيدي محمد ولد امربيع" وقد جاؤوا للانضمام إلينا وتقاسم مصيرنا من الآن فصاعدا.

لقد أصبح لدي إذن سبعة وعشرون ما بين متطوع وجمال وهو ما سيمكنني من استكشاف المراعي وتسيير دوريات شرطة في محيط "برجيمات" وكان الملازم "جرار" قد عاد من انواكشوط بما يكفي لشهرين من المؤونة الغذائية لقد أصبحنا مطمئنين من هذا الجانب.

لقد حول النقيب "دور وي" المعقل الذي سلمنا له في حالة بدائية، إلى منشأة محصنة وسط سياج من الأشجار مدعم بالأسلاك الشائكة نستطيع ونحن داخلها أن نتحدى هجمات المنشقين في المنطقة. اغتتمت فرصة الهدنة لإعادة الانسجام داخل فرقتي باستئناف تمارين الرماة السينغاليين، كما أصبح بإمكانني أن أقوم بواسطة الملازم "أبلود" والطبيب "كازانوف" بتشكيل وحدة نموذجية للمدافع الرشاشة يتوفر فيها القادة ورجالهم على مهارة عالية في استخدام هذه الآليات.

قدم إلى بعض الزوايا يوم 20 أكتوبر بخير ثلاثين من "اركييات" قد كانوا قد استولوا في اترارزه على قطيع كبير من الثيران يتجهون به نحو بركة "أركش" قبل التوغل في اتجاه الشمال، فسبقهم الملازم "أبلود" وفرقته صحبة المتطوعين وكمن لهم عند البركة فكانت النتيجة: مقتل جميع رجال "اركييات" باستثناء أربعة وترك جميع الثيران فأخذها ملاكها الأصليون وغادروا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التعبير عن شكرنا.

لقد أصبح من الملح أن نبتعد أكثر بحثا عن المراعي فبدون ذلك ستموت جمالنا من الجوع، فأخبرني أحد رؤساء "أهل باركلله" بوجود مرعى جيد بين "أعكليت ارفايك" و "واد اتويجيل" في مكان يسمى "امزيريف" يقع قرب مخيم زعيم "أهل باركلله" فلاشك أنه ينوي من وراء اختياره الاستفادة من جوارنا للاحتماء من صولة عصابات النهب، كما علمت من ناحية أخرى أن العديد من هذه العصابات تتوقف، أثناء دخولها وخروجها من اترارزة، داخل مثلث "اتويجيل" و"دمان" و"اعكليت لحبيب".

فلا بد إذن من توجيه معظم فرقتي إلى الشرق، فسأحمي بذلك أعز ما عندي وهو الجمال وعند الاقتضاء أرد على عصابات التي قد يتكلف وجودها أثناء اجتياز المثلث ترك النقيب "دور وبي" في معزلة في "برجيمات" على رأس مائة مسلح معهم فرقة المدافع الرشاشة والطبيب "كازانوف" وغادرت إلى استقبال وفدا من "أهل بحبيني" بقيادة الزعيم الكبير "الني ولد أحمد مولود" ثم وفدا بقيادة العجوز "الشيخ عبد الله" الذي عفته قديما في انواكشوط، وبأيدي الجميع إفادات إدارية عديمة القيمة عندي ليقيني أن حامليها متواطئين مع أعدائنا، وإنما قدموا لهدف واحد: أن يأخذوا مني أقصى ما يمكن مما صادرتهم في "تن يدين" و"أم اكرع" ولئن تنازلت لهم بسهولة عن الحمير، فقد امتنعت عن إعطائهم الحيوانات الأخرى الصالحة للذبح، وقد زاد من حرصي على التمسك بها كون مضاعفة حصة اللحم في تغذية فرقتي بعد خمسة شهور من حياة الصحراء، قد بدت الأحسن حالا من بين جميع الفرق المتوجهة إلى آدرار.

في نهاية أكتوبر استدعى "غايدن"⁴⁵⁷ حاكم دائرة اترارزة "احمويد" وفرقة المتطوعين من "أولاد ابيري" فتركوني عند "اتويجيل" وغادروا إلى بوتلميت مرورا بانواكشوط، ولم يدر بخلدي أنني أودع "احمويد" لآخر مرة، فما كادت تمر الايام الأولى من شهر نوفمبر حتى لم يبق معي سوى، "سيدي" وعشرة من "الغب" وستة جمالة من فرقة اكجوجت أي ما مجموعه سبعة عشر من "البيضان" المسلحين، وهو عدد كافي لتنظيم الدوريات.

بدت أحوال الجمال وكأنها تتحسن فزادت أحجامها ولكنها ما زالت خائفة القوى، فكنا نفقد جملا أو جملين في كل واحد من تنقلاتنا حيث يضجع على الأرض ولا يقوم بعد ذلك توجهنا يوم 6 نوفمبر إلى بئر "اتويجيل" للشراب والتزود بالماء فأندرنا "أهل باركلله" أن المنشقين كانوا

⁴⁵⁷ قضى "غايدن" كل حياته المهنية في موريتانيا وتعلم اللهجات المحلية (الحسانية، البولارية، الألفية) ندى تقاريره المحفوظة في الارشيف على كفايته العالية ونباهته وبعد أ، أصبح حاكما لموريتانيا بقي فيها بعد تقاعده إلى أن مات ودفن في مقبرة (سور).

عند البئر ولكن عددهم قليل، فأرسلت فرقتي المتطوعين والجمالة في المقدمة لاستكشاف خبر العدو تعززهما من الخلف فرقة الملائم "أديونيس دو سبور"، وعند الطلقات الأولى أخلى المنشقون المكان وهم من أهل "آدرار" فطاردهم رجالنا لمسافة حتى أبعدهم.

وفي يوم 10 نوفمبر كنا على موعد مع حدث آخر، ف"ولد الدين" وجماعته المكونة من 112 مسلحا قد شربوا من آبار "اتويجيل" و"دمان" وهم يقومون بإصلاح آبار "أعكيلت لحبيب" ونحن نزود بالماء منذ قدومنا إلى "امزيريف" عن طريق "أحراطين أهل باركلله" الذين سئموا هذا العمل الشاق والتحقوا ب"ولد الديد" وحثوه على مرافقتهم ليلا للهجوم على معسكرنا ولكن "ولد الديد" الذي كانت لديه مشاريع أخرى أكثر مردودية من جهة، وأكثر رجاله الـ112 من اركيبات الرديئين في الحرب⁴⁵⁸ فلم يكن يريد المجازفة بهم في وجه عدو يفوقهم عددا.

وهو، من جهة أخرى، يعرفني خاصة منذ زمن "أخروفه" حين كنت صديقا لأخيه، "ولد سيدي" ويدرك مدى يقظتي، كما أنني ما زلت مطمئنا على أن لا يلحقني ضرر، لا منه هو ولا من أخيه نظرا لما أسديته لهما من خدمات في السابق، ومن جانب آخر، أثناء سحق الملائم "أبلود" الجمالة "اركيبات" عند بركة "أركش" وقع في أيدينا طفل منهم (يبدو أنه نجل زعيم فرع "أولاد موسى") وبما أن البيضان مطلعون على دقائق الأخبار، فقد شاع بين "اركيبات" أننا نعامل الطفل بالتي هي أحسن وهو يرافقتنا بملء إرادته حيثما حللنا، وهكذا حين علم رجالهم الموجودون ضمن جماعة "ولد الديد" أن "أحراطين أهل باركلله" يدبرون مع هؤلاء للإغارة علينا ليلا، فقد تمردوا بعنف لدرجة أنهم هاجموا "الحرطاني" الذي تزعم المؤامرة وقطعوه إربا إربا بالسكاكين.

هذه التفاصيل حصلنا عليها، أثناء، مرورنا على طريق بئر "اتويجيل"، من امرأة من قبيلة "لعلب" كانت سجينة وهربت ولجأت إلى مخيم "أهل باركلله".

كالعادة، أرسلت رجالي من "البيضان" في المقدمة باتجاه الآبار وعززتهم بوحديتين، وبعد ذلك بدلا من الانطلاق رأسا إلى الآبار، انحرفت ناحية اليمين فوق كثيب في الجنوب، واستوليت بالقوة على بقايا منزل "الشيخ سعد بوه" واتخذت منها موقعا استراتيجيا يطل على جميع السهل الواقع شمال الآبار حتى هضبة "تمكوت" في الشمال الغربي وجبال اكجوجت في الشمال

⁴⁵⁸ "أفريرجان" لا يعرف "اركيبات" والحكم الذي أطلقه عليهم هنا غير صحيح رغم أنه قد اعترف قبل قليل أن "اركيبات" هم الذين أمنوا انسحاب مهاجميه في المعركة ضد جماعة الشيخ ماء العينين.

والشمال الشرقي وبالفعل قدم بعض رجال "ولد الديد" إلى الآبار، فلتقاهم رجالي بالطلقات النارية وصدوهم، ولكي أظهر "ولد الديد" تصميمي على منعه من ورود الآبار، قررت المبيت حول منزل "الشيخ سعد بوه" كنت أعرف أن العدو يراقبنا وكان الملازم "جيرار" قد أطلق النار من مسافة بعيدة عند مغيب الشمس على مركزه الذي يرصدنا على الكثيب في الجنوب، وبما أننا سنسير في الظلام، فقد تركت رجالي من "البيضان" في الخلف يمشون على الأقدام، وهكذا أضمن أن يصلني باستمرار خبر أي طارئ يحدث في المؤخرة، حسنا فعلت، إذ ما كدت أصل "الرك" المؤدي إلى "أمزيريف" قبل طلوع القمر، حتى دوت خلفنا طلقات نارية تصاحبها، إشعاعات مضيئة، فردت عليها فرق الجمالة والمتطوعين على الفور، فشككت المربع وانطلقت استكشف الأخبار، وما كدت أفعل حتى قدم أحد "العلب" مسرعا يلهث وعلامات الرعب بادية عليه فقال لي:

- إنهم رجال "ولد الديد" من اترارزة لقد كانوا منبطحين في حوض الوادي الجاف وأطلقوا علينا النار من مسافة قريبة، ومن بينهم "عبد الله ولد كومبه" ويمكن أن أوريك آثار قدميه الكبيرتين فلا مثل لهما في المنطقة.

- حسنا، قلت: لسيدي، وأنا أشير إلى رجل "العلب" الذي عاد مسرعا لقد انطلق كالأرنب وتركك في المؤخرة، ما رأيك؟

لقد بدأ الحقد يسري ضد "سيدي: ولم يلبث أن ذاق طعم ذلك، وبما أن القمر قد تعالي في السماء فقد وصلنا معسكرنا عند "امزيريف" وانتهت تلك الليلة في هدوء.

علمت يوم 12 نوفمبر أن "ولد الديد" قد انتقل بكل من معه إلى "اعكليت لحبيب" وفي نفس اليوم وصلتني أوامر من العقيد بمغادرة "برجيمات" والتوجه بفرقتي إلى آبار "أكلال فاي" حيث يتعين أن أبقى في انتظار أوامر أخرى، اعتبرت جمالي غير قادرة على حمل أي شيء حتى وإن استطاعت السير خلفي حتى "أكلال فاي" (إذن تم استبدالها بالحمير التي هي حيوانات حمل الأثقال الوحيد الموجودة في المنطقة إلى جانب الإبل لأن الثيران تعيش في الجنوب، وبما أن "أحراطين أهل باركلله" قد ارتكبوا في الأيام الأخيرة سلوكا مهاديا لي، فقد فرضت عليهم دفع غرامة من خمسين حمارا.

وكنت قد حصلت على نفس العدد تقريبا من "أولاد اللب" في "تن يدين" بالإضافة إلى حمير أخرى كنت قد امتنعت عن تسليمها لبعض الزوايا، استدعيت "محمد ولد أحمد مسكه" وأخبرته بقراري تسخيره ليرافقني دليلا بين "برجيمات" و"أكلال فاي" وبما أنني لا أريد أن يذهب ويعلن في كل مكان عن الجهة التي أتوجه إليها، فقد أمرت على الفور باحتجازه حتى انطلقت به معي، لقد كنت فعلا قد قدمت من أكجوجت بدليل محترف اسمه "المحرز" كان في السابق من أدلاء عصابات النهب وكانت تلك هي مهنة أبيه وجميع أسلافه المعروفين،⁴⁵⁹ وهو دليل ماهر لكنه انتفاعي جدا، فكنت بحاجة إلى الضغط عليه بمنافس حتى يشعر بالمضايقة.

كنت يوم 13 نوفمبر أسير باتجاه "برجيمات" كانت الجمال تقاوم مادما لا نطيل المسير، فلاحظنا بكل دهشة أنها بدأت تهلك الواحد تلو الآخر بدءا "التابوريت" حتى بلغ العدد اثني عشر جملا وهو ما يعد أهوالا تنتظرنا عند اجتياز منطقة الكثبان، مرة أخرى، يتعين علي إنجاز مهمة غير عادية، وستكون لدى قافلة معتبرة فأنا أحتفظ في المعقل بما يكفي شهرا كاملا على الأقل لنفقة ثلاث مائة رجل من المؤن الغذائية وكثير من الذخيرة وعتاد ضخم لجلب الماء من ضمنه اثني عشر برميلا سعة الواحد مائة لتر، فمن أين لي ستة جمال يقوى كل واحد منها على السير فوق الكثبان بحمولة مائتي كيلو غرام؟ ليست براميل مائة لتر مناسبة في مثل هذه الظروف، وبالفعل مسافة 30 كلم معطشة بين "برجيمات" و"أكلال فاي".

فلا بد ترشيد الحصص الموزعة على الرجال، وإذا كان رجال الفرقة الرابعة قد صمدوا على مثل هذه الظروف، فليس الأمر كذلك بالنسبة لفرقة الرماة السينغاليين التابعة "لبيرجير" فمازلت أذكر ما لاحظته من آثار تمردهم عند "انوارماش" أثناء المسير نحو أكجوجت: حيث جنث رفاقهم القتلى قرب البئر وبراميل الماء المثقوبة بحراب البنادق، لم أكن أخشى شيئا أكثر من خشيتي تكرر هذه المحنة لأنها ستجعلنا نصارع مجانين مسلحين.

قضينا يوم 14 نوفمبر بكامله في تحضيرات القافلة فضلا عن الأخطار المذكورة آنفا، أنا على علم بأن "ولد الديد" وعصابته قد شوهدوا في ضواحي المنطقة، فقد ندخل في معركة ونحن بدون ماء وهو احتمال غير سار بالمرة، وكإستراتيجية لاجتياز الـ90 لكم المعطشة بين

⁴⁵⁹ كانت مهمة الدليل، قبل التدخل الفرنسي، مهنة مدرة للدخل ومشرفة، فرغم ما يحبط بها من أخطار (بغض النظر عما تتطلبه من قدرات ومواهب خارقة) فهي تعود بأرباح طائلة من الغنائم.

"برجيمات" و"أكلال فاي" قسمت رجالي إلى أربع فرق على أن تتولى كل فرقة بقيادة ضابط مرافقة وحماية قافلتها الخاصة كما يجب على كل فرقة أن تضبط خطاها بحيث تبقى دائما على مرأى من اثنتين على الأقل من الفرق الأخرى وهكذا تستطيع القافلة العامة أن تتخذ - تبعا لطبيعة الأرض - كافة أشكال المضلع الرباعي.

كانت قافلة الماء المحمولة على الجمال تحت الحراسة الخاصة للعريف "لوران" ولم يكن لها مكان محدد، فالمهم أن تبقى فقط وسط المضلع الرباعي، وأخيرا اجتهدنا في تشكيل فرقة الحراسة الخلفية كما تلقت فرقة محمولة على الجمال تحت أوامر الملازم "ابلود" والطبيب "كازانوف" تضم كافة الجمال والمتطوعين باستثناء يسيران برفقتي كسعاة.

وبما أن كافة "البيضان" يركبون الجمال فقد كانت مع كل واحد منهم مؤنثته الغذائية وقربتان كبيرتان من الماء تتليان من جنبي راحلته على أن يستخدم إحدى القريتين لإغاثة المتخلفين عن الركب، فمن مهام المتطوعين النقاط المتخلفين وحملهم ولهذا الغرض وضعت هذه الفرقة تحت قيادة الطبيب.

وبعد تنظيم القافلة على هذا النحو انطلقت مساء 15 نوفمبر بعد أن حطمت معقلنا في برجيمات، تمام كما فعلت من قبل بمراكز أكجوجت لم أقطع في الليلة الأولى إلا مسافة قصيرة ونزلت للمبيت على المنحدر الجنوبي لـ"اترينا".

كنا في شهر نوفمبر ودرجة الحرارة مقبولة وهذا من حظنا حيث نستطيع تقسيط توزيع الماء إلى ثلاثة لترات فقط كل يوم للفرد الواحد من الزوج الذين يحتاجون إلى ضعف هذا العدد في الأيام العادية في حالة التوقف.

ولكن رجال الفرقة الرابعة الذين سبق لهم أن اجتازوا معي دون عناء منطقة الـ93 المعطشة (في ظرف مواتي طبعاً) بين "واد الحطاب" و"انوارماش" كانوا يتقن بي وهم موقنون أنهم بامثال أوامري لن يموت أحد منهم عطشا، وعلى العكس من ذلك لا أثق تمام بفرقة "بيرجير" من الرماة السينغاليين .. فقد وزعتهم بواقع اثنين أو ثلاثة على كل واحدة من وحدات الفرقة الرابعة وكانت عاقبة هذا الإجراء محمودة فتقسيم هؤلاء الضعاف قد قلل من عدد المتخلفين عن الركب.

في يوم 17 نوفمبر تقاطعت في سهل "أمليل" مع طريق "ولد الديد" وهو متجه نحو الجنوب الغربي، وتمكنت من عد آثار اثنين وستين جملا مركوبا فاتخذت اتجاها جنوبيا شرقيا، ولكي

أخفف أحمال الجمال قررت استهلاك جميع براميل مائة لتر في اليومين الأولين، وبما أن توزيع الماء قد تم، فلا بد من تشديد الحراسة على الكميات الاحتياطية وتأمين توزيع إضافي في الغد قبل الانطلاق، كان الحر شديدا طيلة يوم 18 نوفمبر وتحملت فرقة الحراسة الخلفية مهمة شاقة فقد كنا نزحف على الرمال الرخوة المتحركة في منطقة "براويه" ثم في سهل "تاركة" المنخفض وأخيرا توقفنا على القمة الشمالية لكثيب "تماشانت"، كان عدد المتخلفين عن الركب أكثر من عددهم بالأمس فقد ناهز الثلاثين.

ولكن إخلاص الطبيب والملازم "ابلود" وتفانيهما قد مكن من التغلب على هؤلاء الناس، مع أن فرقة المتطوعين والجمالة قد انتزعت أسئلة بعضهم وأخذت معها البعض الآخر فوق الجمال، وفي النهاية لم يتخلف أحد عند النداء بالأسماء في المساء، ولكن أعين الفرنسيين المسكينين "بوشويمه" و"كيمه" بدت غائرة، فلم يشربا بما فيه الكفاية منذ يوم 15 سبتمبر ونحن في يوم 18 منه فقد كنت اكتفي كل يوم برش الماء على مناخيرهما وإعطائهما ست لترات من الماء ولكن بما أنني أتحمل مصير الأنفس البشرية فمن غير المقبول أن أعطيها أكثر من هذا.

لقد كانت المرحلة الأخيرة يوم 19 نوفمبر شاقة جدا، فالحمير بعد أن صمدت باستماتة، وصبرت على العطش أصبحت منهكة وتزحف ببطء شديد فوق الرمال الرخوة حيث تغوص حتى الأرساغ وما كادت الشمس تتعالى في كبد السماء حتى بدأ المتخلفون بالأمس يتثاقلون من جديد محاولين التوقف والنوم تحت الأشجار، ولحسن الحظ أننا خففنا أحمالهم خاصة من الأسلحة فلو لم نكن قد فعلنا ذلك لتبادلوا إطلاق النار مع رجال "البيضان" الذين استدعت منهم الحالة انتزاع السكاكين من أيدي هؤلاء المجانين الغاضبين وإعمال كافة الوسائل لحملهم على السير.

عند الساعة 8 والنصف تعرف بعض الرماة على معالم الأرض اعتمادا على ذكرياتهم أثناء مرافقة قافلة كانت قد مرت في ضواحي، "أكلال فاي" فاندفعوا نحو الآبار لا يلوون على شيء، فانطلقت بوحدة من الفرقة الرابعة وطوقتهم بصعوبة فبدون ذلك سيكون الصعب إيقافهم وفور تجميعهم توجهت صحبتهم إلى المقدمة وفي حدود الساعة 9 وصلنا آبار "أكلال فاي" وهنا حاول بعض الحمقى الاندفاع نحو فهوة البئر.

البئر الذي يبلغ عمقه ستين مترا، كان لدينا رشاء واحد لا يكفي لجلب الماء من هذا العمق، ولو لم أكبح هؤلاء بالوحدة التي هيأتها لهذا الغرض، لحدث أثناء سحب الماء مشهد حول البئر مماثل لما وقع عند "انوارماش" ولم ألبث أن حصلت على رشاء كافي وبكرة مناسبة وسحبنا الماء بالكميات الكافية وشرب الجميع حتى ارتوى.

كنت مقدما جدا على مسافة بعيدة من المجموعات الأولى من القافلة وكنت الأوروبي الوحيد في هذه المرحلة فلا بد من إظهار الصرامة ليتم تنفيذ أوامري، وحين ما تعمد أحد الثائرين عدم الانصياع لأمري لم أتردد في إطلاق النار عليه من مسدسي ولكني تعمدت عدم التسديد فأخطأته عن قصد، إلا أن مرور الرصاصة فوق رأسه كان كافيا لجعله يرتمي منبطحا على الأرض مذعورا فسارع أصحاب الرتب الحاضرين إلى شد وثاقه، فهدا وعاد الانضباط إلى الصفوف بسبب هذه الرصاصة فأصبحت الأمور تحت سيطرتي منذ تلك اللحظة، كما تمكنت، عند وصول القافلة نحو الساعة 11، من تشكيل الكتيبة وتوزيع الماء، في هدوء دون حدوث أي عراقك.

ولكن لم تطلب ذلك من الأوروبيين من الصرامة وإحكام القبضة لكي تنتظم الأمور وعند الساعة 2 وصلت فرقة المتطوعين ومعها آخر المتخلفين عن الركب فلم نسجل فقدان أي رجل وذلك ما لم نكن نتوقعه.

لقد خدمتنا فرقتنا الجمالة والمتطوعين بتفان وإخلاص خلال هذه المسيرة الشاقة وبالأخص "سيدي" الذي أبان عن جدارته أثناء مرافقة الطبيب وقد اعترف له الرماة السينغاليون بذلك، فحين في المساء متعبا بحمل أحدهم على مؤخرة جملة، تلقته الفرقة بكاملها بالاحتراف والهتاف، وهو أمر لافت لمن يعرف مدى الحقد الذي يكنه هؤلاء الزوج لجنس "البيضان".

لقد تحلى الأوروبيون بمستوى عالي من القدرة والصمود الضروريين لنجاح مهمة على هذه الدرجة من الصعوبة، ولكن الطبيب "كازانوف" والملازم "أبلود" قد أبان، من موقعهما في حراسة المؤخرة، عن مستوى منقطع النظير من الإخلاص والتفاني، كما كتب العقيد "كورو": (لقد أبان رجالي في هذه الأيام الصعبة عن جدارتهم بدرجة لم أشاهدها من قبل حتى في أيام المعارك الطاحنة).

أما أنا فتجسدت جدارتي في اجتياز منطقة الكثبان مشيا على الأقدام، رحمة بفرنسي "بوشويمه"،⁴⁶⁰ وبما أننا الآن قد وصلنا "أكلال فاي" سالمين، فقد تم إنجاز الجانب الصعب من العمل ولم يبق إلا تقدير الخسائر.

لقد تخيلنا أيام 17 و18 و19 عن نحو العشرين من الجمال، ولكننا لم نترك إلا خمسة ثيران فقط، (أما بالنسبة للخيل، فعند وصولنا غفل السائس الأسود عن فرنسي "غيمه" حتى أفرط في الشراب فمات من حينه ولو لم أتصل قبل فوات الأوان لقي فرنسي الآخر "بوشويمه" نفس المصير.

وصلني طلب من "بوتلميت" بإرسال الرجال التابعين سابقا لقافلة "بيرجير" إذ يتعين أن يذهبوا إلى "الأك" لتعزيز الفرقة الثالثة من كتيبة موريتانيا.

فأرسلتهم يوم 23 نوفمبر صحبة فرقة الملازم "جرار" المتوجهة بجميع الجمال الموجودة إلى قائد دائرة اترارزة بحثا عن المواد الغذائية هناك فبقي معي في "أكلال فاي" مائة وعشرون من الرماة السينغاليين وعشرة متطوعين من "العب".

وبينما كان رجالي يأخذون راحلتهم ونحن نعيد تنظيم فرقتنا، كانت القافلة تعود شيئا فشيئا بسبب وجودنا لتقييم في المنطقة، فاستقر "أهل باركلله" بقيادة "محمد ولد أحمد مسكه" عند بئر "انواكل" على بعد ثلاثين كيلومتر شرق "أكلال فاي" وقد احتجزت زعيمهم في المعسكر كان الرماة السينغاليون يقضون وقتهم في طبخ وجباتهم الخاصة وترقيع ثيابهم البالية وتصليح أحذيتهم وتبذير ما لديهم من نقود في لعب الورق، فاستأنفت لهم التدريب ولكن لا التمارين ولا الاستعراضات كانت كافية لقطعهم عن تلك المشاغل.

بمجرد مرور ثمانية أيام تبخرت من رؤوسهم الذكريات الأليمة لمشقة اجتياز الكثبان المهلهلة وعادوا إلى سابق عهدهم بالمرح واللاملاحة.

أما أنا فقد وجهت تقريرا إلى العقيد وصفت فيه مسيرتنا الشاقة محذرا من المجازفة بتكرار مثل هذه المغامرة فما دمنا نجونا من الهلاك فيجب أن نأخذ العبرة ولا نعيد الكرة.

كانت الفرق المناوئة تجوب المنطقة طولا وعرضا وهو ما يجعل استيلاءنا على بئر "أكلال فاي" أمرا مهما، فمن شأن ذلك أن يضايقهم وتجبرهم على البحث عن الماء في أماكن بعيدة

⁴⁶⁰ يعكس هذا السلوك جانب "الرفقة" في شخصية "الفريرجان" رغم ما يشاع عنه من قسوة.

وغير معروفة، ومع ذلك كانت هذه الفرق تحوم حولنا باستمرار، وهكذا كان "سيدي" وابن عمه واثنان آخران من "العلب" يقومون بدورية، فاصطدموا بعصابة من سبعة عشر منشقا مسلحين بالبنادق ذات الطلقات السريعة، تبين أنهم من "أولاد اللب" و"اركييات" فلم يتردد رجالنا في مهاجمتهم رغم فارق العدد، فأجبروهم على الفرار.

كان الملازم "جيرار" قد عاد من "بوتلميت" يوم 13 دجمبر وأعاد لي فرقة جمالة "اكجوجت" ومعهم ثلاثون متطوعا من: "أولاد دمان" يقودهم أحمد ولد امبارك شقيق رئيس القبيلة، "بولير" يعود من جديد لمرافقتي، ويحمل الملازم خبر انطلاق القافلة الوشيك من "المجرية" نحو "آدرار" يوم 5 دجمبر تحت قيادة العقيد "غورو" شخصيا، أما أنا فيأمرني العقيد باجتياز منطقة الكتبان من جديد بحيث أكون عند "أكرارت لفرس" يوم 25 دجمبر وأنتظر قدوم القافلة الرئيسية في ذلك الموقع بعد تحصينه.

سأشارك إذن برجالي في قافلة آدرار بعد أن وافقت الوزارة أخيرا على انطلاقها، وأعترف أن الأمر باجتياز منطقة الكتبان المعطشة قد أفسدت علي متعة السير من أجل الحرب، ولكن علي هذه المرة أن أجتاز هذه المنطقة في خط مائل فتصبح المسافة 135 كلم بدلا من 90 كلم، وينطلق مسار الرحلة من "أكلال فاي" إلى "اعكيت انعاج" أحكمت نظام قافلتني، لم يبق لرجال أولاد دامان الثلاثين سوى جمل واحد لكل رجلين فجمالي الأخرى كانت على درجة من الهزال جعلتني لا أعول عليها، كان حاكم دائرة "اترارزة" قد أرسل إلي من بوتلميت 117 حمارا وأنا أخبئ نحو مائة من الحمير كما وصلني مرافقون من "أولاد أبييري" فوزعت القافلة وأحمالها على الحمير.

بدأ المطر الخفيف البارد يتهاطل باستمرار طول الوقت وسبق لي أن تعرضت لأمطار النكطة⁴⁶¹ هذه في "اترارزة" سنة 1904 ولكن أسعفني الحظ آنذاك فعثرت على مخيم من "البيضان" لجأت إليه برجالي.

أما هذه المرة فليس عندنا من "أكلال فاي" ما نحتمي به من المطر سوى خيمة واحدة وعدد غير كافي من الأغطية، فوجدت نفسي مضطرا إلى اللجوء تحت خيمة النقيب "دورواي" حيث بقي نصف جسد كل واحد منا معرضا للمطر، فقد تركت خيمتي فغي "سانلوبيس".

⁴⁶¹ "النكطة" مطر ينزل في الشتاء، وهو موسم جاف في العادة، وهو مطر نادر يتهاطل في غير وقته ومصدره الأطلسي.

ودام المطر ثمانية أيام كاملة فعاونني داء "الروماتيزم" فسرت الآلام المبرحة في مفاصل جسمي من اليدين حتى القدمين مرورا بالأضلاع والكتفين فأصبحت شبه مشلول، لقد كان وضعي مزرياً، ولكن مرضي لا يزن شيئاً في مقابل الكارثة التي حلت بجمالي، فقد هلكت منها العشرات على دفعات بسبب هذا المطر، فما بقي منها لا يكاد يكفي لحمل المتطوعين والأوروبيين، لكن فكرتي في التركيز على الحمير محمودة العاقبة.

ومع أن المطر قد ألحق بنا ما لا يحصى من الأضرار، إلا أنه قد خلف برك الماء في كل مكان وذلك أمر مفيد للرماة السينغاليين والحمير فلم يعد هاجس العطش موجوداً وأصبح اجتياز الـ135 كلم مجرد نزهة.

قافلة الحمير

انطلقت قافلة الحمير يوم 12 دجمبر عند الساعة الواحدة بعد الزوال متجهة إلى آدرار اتخذت "المحرز" دليلاً وكانت ترافقه إحدى نسائه كان قد أحضرها من "بوتلميت" حيث ذهب مع الملازم "جيرار" وبما أن الأمر يتعلق بقافلة من الحمير، لابد من الاعتراف بأن هذه القافلة على غرابتها تمتاز بإيجابيات عديدة، فهي سهلة التجميع، سهلة المراقبة وسهلة الانقياد للسير .. كما أن سرعتها منسجمة مع سرعة الرماة الراجلين.

رافقنا المطر طيلة الليلة الأولى، ثم تبعنا من الغد يوم 13 دجمبر حتى لحق بنا أثناء التوقف في "تاركه" كنت قد لاحظت منذ انطلاقنا من "أكلال فاي" أن بعض المرافقين يبيتون أمراً، وهكذا فر "ولد انيوف" تحت جناح الظلام مساء 14 دجمبر ومعه خمسة حمير ولم نتمكن من اللحاق به رغم أننا تعقبناه بفرقة من المتطوعين محمولة على الجمال، فقد سلك طريقاً يتجه راساً إلى "اتويجكت" في الشمال وينشر خبر مسيرتنا في كافة أرجاء المنطقة يا لحظنا العاثر!

عسكرت يوم 15 دجمبر على شبه جزيرة جنوب "آمليل" على بعد خمسين كلم على الأقل من كل نقاط الماء، لقد كانت أ مطار "النكظة" الغزيرة التي تهاطلت في الأيام الماضية مصدر خلاص لنا، ولكي أمتع بمزاياها كنت أسير على مهل، عثر رجالي من المتطوعين يوم 16 دجمبر على آثار مشبوهة بين "اعكيلت هوك" و"اعكيلت لحبيب" تركت القافلة تحت أوامر النقيب وسرت على الآثار مع جماعة "البيضان" يبدو أنها آثار جماعة ن "اركيبات" أي من الأعداء وهم في المكان المناسب فقد اندمجوا ضمن الزوايا الذين عثرت في خيامهم على بعض من الأمتعة مثل:

الشاشيات التي يضعها الرماة السينغاليون على رؤوسهم، وبعض الذخيرة والمراجل وأواني الطبخ لاشك أنها من غنائم المعارك الطاحنة التي جرت في منطقة "دمان" في شهر ابريل الماضي، لقد فر الزوايا من المخيم مسرعين أمامنا للالتحاق بمخيم "اركيبات" وكان أهل المخيم من "اركيبات" أسرع من الجميع كعادتهم فغادروا المخيم في حين وصله الزوايا المذعورين في نفس الوقت مع مطارديهم من رجالنا المتطوعين.

وما لبثت فرقة المتطوعين أن عادت إلينا بنحو ستين من الجمال وأربع مائة من الضأن وكلها غنائم بعثت الارتياح في نفسي ورجعت إلى النقيب وزحفنا في اتجاه "اعكيلت لحبيب" وهكذا أتوفر على مطايا مناسبة لركوب فرقي من الجمالة والمتطوعين، كما سأمكن من إطعام رجالي بلحم الضأن الذي طالما اشتهوه بعد أن سئموا أكل لحم البقر كل يوم منذ فاتح اكتوبر، وبهذه المناسبة أقمنا عند "اعكيلت لحبيب" وحيث وجدنا ثمانية آبار غير عميقة، وهذا هو المكان الذي لجأ إليه أمير اترارزة السابقة "أحمد سالم ولد أعلي" في ابريل 1904 بعد توغلي في منطقة "لعكل" ومن هنا أيضا انطلق "ولد الديد" منذ أكثر من شهر متوجها إلى الجنوب قصد النهب، أما الآن فقد جاء دوري أنا.

وزعت الضأن على رجالي، كل اثنين على كبش، فما لبثت النيران أن اشتعلت وتصاعدت أسنة لهبها الوهاجة ناشرة الضوء في كل مكان مع رائحة الشواء فعمت البهجة والسرور على المعسكر، ومع ذلك لم يخدعني هذا الهدوء فقد أمرت رجالي من "البيضان" بالقيام بدوريات طول الوقت خاصة داخل "أمطليش".

قبل مغادرة "أكلال فاي" وصلنتي أخبار من "اترارزة" منها خبر مقتل الملازم "ربول" الذي قتل مع مائة وعشرين من الفرسان يوم 28 نوفمبر على يد "ولد الديد" عند "لكويشيش على مسافة قصيرة من "تن جيمان" شمالها.

كما علمت بأسى أقل بموت عثمان لد إبراهيم اخليل برصاصة طائشة .. ليكن ولكنها سقطت في المكان المناسب طيب الله ثراه لم يكن فيه من المحامد سوى الشجاعة.

بينما كان رجالي منمهمكين في شي لحوم الأكباش، انطلقت فينا صيحة استنفار حقيقي، فقد وقع رجالي من فرقة المتطوعين على فريق من "اركيبات" تابع لعصابة "ولد الديد" وعادوا ببعض الإبل بعد فرار الفريق إلى جهة "دمان" فخشيت أن يطلقوا النفير في المخيمات الموجودة عند "اعكيلت انعاج" فقررت الإسراع بالرحيل من المكان.

وإذا وزعت الضأن بسخاء على رجالي، فسيبقى لي 300 من الأكباش التي استوليت عليها عند "اعكيلت لحبيب" ستكون عائقا يمنعني من الإسراع في السير، فأعطيتها بالتناصف بين "محمد ولد أحمد مسكه" الذي لازمني حتى هنا وهو يستعد للذهاب في زيارة خيام أهله في ناحية "اتويجيك" والنصف الآخر للديماني المتملق "باب أحمد" الذي أوصاني به خيرا كل من حاكم اترارزة والشيخ سيديا.

اعتقد أنني بإعطائي 150 كبشا أكون قد اشتريت صمته على مسيرتنا نحو مواقع "اركيبات" في "انشيري" الذين أريد أن أباغتهم لأغنم منهم عددا من الإبل الجيدة قبل الدخول إلى "آدرار".

افترقت مع هذين الشخصين يوم 18 دجمبر في الصباح الباكر، وفي المساء أقمت عند "سهوت اجعيرينية" وسط الصخور المتوغلة شمال "أمطليش" في يوم 19 دجمبر دخل الفرق منطقة "إنشيري" وأقمنا في حدود الساعة 9 صباحا حول بركة "اعكيلت انعاج". أي في المكان الذي ذكر لي فيه "اركيبات" منذ يوم 16 دجمبر ولكن لا أثر لخيام هؤلاء في جميع ضواحي المنطقة.

من الذي أفشى خبر قدومنا؟ لا أحد يعرف! ربما يكون الحراس المرافقون الفارون، ومن هربوا من "تعكيلت لحبيب" هم من أشاعوا الخبر، استأنفت المسير مساء يوم 20 في اتجاه "اكرار لفرس".

لقد اشتدت علي آلام "الروما تيزم" فأصبح مرضي مبرحا، سقطت مغشيا علي ليلة 20 إلى 21 وسط المعسكر وحين شعرت بتدهور حالي، ناديت "سيدي" وطباخي "مامادو كوني" فهرعا مسرعين نحوي صحبة الطبيب والملازم "ابلود" وأجلسوني، كل هذه الحالة المرضية ناجمة، ليس فقط عن الرطوبة التي تعرضت لها منذ بداية دجمبر، وإنما أيضا عن حالة التضايق التي عشتها منذ نهاية أكتوبر بسبب ما تضمنه الخطاب الذي وصلني من "سانلويس" تلقيت تهنئة علي ما أحرزته من انتصارات في شهر سبتمبر، ولكن منغصات أخرى كثيرة قد محت أثر ذلك، فقد تلقيت توبيخا علي لافتتي في اكجوجت وتعنيفا علي عدم صمود جمال "الكانديولي" على المناخ المحلي.

فمن فعل بي هذا؟ هل هي جماعة المسفرين من اكجوجت. أم هو جزء من الممارسات التي يتبعها "المكتب" في حقي منذ 1904.

اتسم الخطاب الذي وصلني من "سانلويس" بنبرة عداة ذكرتني بأني شخص جيء به دون طلب العقيد ليخدم في هذا البلد، لقد كنت أتعذب داخليا من الشعور بأن كل ما أنجزته في الشهور الخيرة وأنجزه في الوقت الحالي قد تم تشويهه وصرفه عن حقيقته إما على مستوى السينغال أو على مستوى فرنسا، ولا يهمهم إن أزعج ذلك أسرتي فهم يريدون طمس السمعة التي حازتها من إنجازات فرقة "إينشيري" ولولا المراسلات الأخيرة الواردة من العقيد "كورو" لقل إن الفريق الذي قدمته لم يكن موجودا أصلا في موريتانيا⁴⁶².

وصلتني ضمن آخر بريد، قصاصة من صحيفة أرسلها صديق من فرنسا تتضمن تلخيصا لدوري على النحو التالي:

"في موريتانيا" أمر الجنرال "أوديودو" القائد الأعلى للجيش في إفريقيا الغربية الفرنسية بإخلاء مركز "اكجوجت" والواقع أن الرائد "افير جان" ما كاد يصل عين المكان حتى تأكدت استحالة إقامته فيه مع الحامية القديمة التي قضى عليها داء "البري بري" و"اسكاربوت" وكذا الحامية الجديدة التي نفدت مؤنها الغذائية، وستطلق القافلة المتوجهة إلى "آدرار" هذه الأيام. هكذا يتم في فرنسا تشويه ما تقوم به فرقة "إينشيري" إنها عملية وأد من الدرجة الأولى:

⁴⁶² العقيد "كورو" "السيطرة على موريتانيا" باريس، "لاروز" 1910، ولنفس المؤلف ولكن في طبعة متأخرة جدا حيث يعيد كلامه في الكتاب السابق مع إضافة الكثير من الأحداث الطريفة: "موريتانيا - آدرار، مذكرات افريقي" منشورات "ابلون" 1945، ولكن "كروم" لم يتحدث كثيرا عن "قافلة الحمير" ولم يبرز دورها في ما سرده من وقائع.

لقد كنت مريضا، ومن الغريب أن الآلام اشتدت علي أثناء المسيرة مع أن الحركة كانت في الحالات العادية هي العلاج المخفف لعلتي.

إن المرض يجعل المرء ساخطا والعكس بالعكس لقد تملكني التشاؤم وهكذا بدا لي اجتياز منطقة الكثبان الرملية وما فيها من مشقة وأخطار، كان من الممكن بكل بساطة أن أهلك فيها مع كل من معي، مجازفة خطيرة وإن نجوت فلا طائل من وراء نجاحي أنه عمل عبثي.

وأصبحت أتساءل عما إذا كل شيء قد أعد لضمان فشلي الذريع وذلك بجعلي لا أصارع الرجال وإنما أصارع الظروف وحين قارنت الأخطار التي عرضوني لها في الآونة الأخيرة مع ما كان من علاقات متوترة مع مجموعة العاجزين المسافرين من "كجوجت" وذكرت ما لهم من مكانة في "سانلويس"، اقتنعت بأن علي أن أخشى الوقوع في مؤامرات جديدة.

لقد تحطمت ثقتي في الجميع، استتجت من الأوامر الجديدة أنني، رغم حجمي الثانوي جدا، سأستقطب نحوي الكتلة الرئيسية من الأعداء، وذلك لعدة أسباب: فخير وجودي هنا شائع منذ عدة شهور، فقد قدم إلي عند "أكلال فاي" مبعوثون من "الطرش" و"أولاد آكشار" يعرضون على استسلام مجموعاتهم وأصبحوا يعرفون مكان وجودي، وأهل آدرار كانوا يتابعون أخباري باستمرار ولم أغب عن أعينهم في يوم من الأيام.

والحقيقة أن وجودي هنا يرمي إلي مشاغلهم ولفت انتباههم لقد ظن أهل آدرار أنفسهم أن تجميع فرق القافلة الرئيسية في "المجرية" حتى مغادرتها يوم 5 ديسمبر 1908، إنما قام به العقيد تحضيرا للانسحاب من البلاد بأمر من الحكومة، لقد كان هذا الخبر الكاذب، الذي صدقه الكثيرون في كل أنحاء موريتانيا، المفرقة⁴⁶³ قبل الأخيرة من سلسلة الترهات التي تطلقها جماعة السينغاليين المناهضة لنا.

أما الآن وقد انطلقت قافلة "آدرار" فقد توقعوا أنها لن تؤدي مهمتها، أما قوات العدو، فبدلا من أن تقف بين القافلة وبين "آدرار" فقد قررت الاكتفاء بالانتظار متربصة في المرتفعات الجنوبية مستعدة للانقضاض بكامل ثقلها على إحدى القافلتين الفرنسييتين وبالأخص تلك التي توفر أكثر فرص النجاح، ويختلف مفعول الانقضاض على قافلتني عنه بالنسبة للقافلة الرئيسية التي تماثل قوتها قوة قافلتني بخمسة أضعاف كما أنها غير مثقلة بفيلق الحمير كما هو الحال

⁴⁶³ ربما لا، لأن الجنرال "كورو" تحدث في كتابه "موريتانيا - آدرار" عن أثر المراسلات الخاصة بين ضباط قافلة "آدرار" وأهاليهم، فسوء فهم هذه الحكايات جعل الحكومة تفكر في الانسحاب من الأراضي بعد أن أصبحت تحت السيطرة فعلا.

بالنسبة لقافلتني، ولا بد أن عدد المسلحين في قافلتني وهو لا يتجاوز 224 يجعل منها فريسة سهلة، خاصة إذا لم نتمكن من بلوغ "آدرار" حسب ما يراهن عليه "البيضان". كانت هذه الأفكار تدور في رأسي وأنا أكابد المرض، كنت أعتبر نفسي طعما مقدما للعدو لمشاغلته حتى تدخل القافلة الرئيسية إلى "آدرار"، وأقول لنفسي إن نصيبي هو الأدوار الشاقة الخطيرة والغامضة في حين يحصد الآخرون الانتصارات والامتيازات، ولكني مع ذلك صامد، فإن حاول العدو افتراسي فلن أكون لقمة سائغة سهلة الابتلاع.

لهذا السبب واصلت السير بقافلتني متماسكة في كتلة واحدة.

وبقض النظر عن السخط بسبب الظروف، فإن توفر مائتي بنقديّة ومدفعين رشاشين يعتبر قوة ضاربة لمن هو مصمم على حسن استخدامها في إفريقيا. واصلت السير بانتظام دون توقف رغم حالتي السيئة وعسكرت في "غسمرت" يوم 21 ديسمبر فوق الكثيب المعزول وهو نفس المكان الذي أقام فيه النقيب "بيرجير" سنة 1907 لقد كان موقعا دفاعيا من الدرجة الأولى يمتاز بقربه من آبار عديدة كما أنه يطل على حقول واسعة للذرة بلغت مرحلة الحصاد وهو ما سأقوم به من الغد. أخبرني "المحرز" أن "أغرارت لفرس" تقع على بعد يوم أو يومين على الأكثر في ناحية الشرق أصبح بإمكانني على الأقل أن أستقر في "غسمرت" متحصنا في انتظار أن تقدم إلي القافلة الرئيسية لأن "أغرارت لفرس" ليست موقعا محددًا وإنما هي منطقة مفتوحة تمتد إلى الجنوب من جبال "إيبي" التي تتراءى لنا كتلتها السوداء الضخمة من بعيد هناك في ناحية الشمال الشرقي. ولكي ألعب الدور الذي توسمت من الأوامر أنه قد حدد لي والمتمثل في مشاغلة العدو ولفت انتباهه عن القافلة الرئيسية حتى يسهل دخولها، يلزمني لذلك الاقتراب أكثر والتمركز حسب ما وصلني من أوامر في موقع عسكري جيد يسمح لي بالانتظار متمنعا حتى يصلني الآخرون، ولكن لا بد لي قبل كل شيء من الاحتكاك بالعدو لتحديد موقعه.

كانت لدي مهلة أربعة أيام على الأقل ولكن لا بد من حصاد حقول الذرة فقررت القيام بذلك أولا لأتمكن من تنويع تغذية رجالي من الرماة السينغاليين وكان عدد كبير من الحمير يسير بدون أحمال فحملتها بالذرة. نزلت في "غسمرت" يوم 22 ديسمبر وغبت عن الوعي مرة أخرى ولكن لم يشعر أحد بذلك.

استجوبت العبيد القائمين على زراعة الذرة لصالح أهل آدرار فأخبروني أن "ولد اندوف" الحارس المرافق الذي فر علينا، قد أشاع خبر قدومنا في كل مكان وهو الذي أنذر أركبيات المقيمين بأعداد كبيرة في تلك الضواحي فغادروا المكان حين علموا أن "ولد الديد" الذي كانوا يريدون الالتحاق به في أمسائه، يوجد في ذلك السهل الكبير الممتد في ناحية الغرب من آدرار وإذا كانوا يبحثون عن المرعى هناك فإن دورياتهم تتوغل في اتجاهنا وهكذا طارد رجالي من المتطوعين يوم 22 دجمبر جماعة من نحو 20 من اركبيات حاولت الاقتراب من حقول الذرة.

انطلقت صباح 23 دجمبر ووصلت في حدود الزوال إلى النبع المسمى "تراره" كان الكثير من "إيديشلي" المناوئين لنا يتمركزون في المواقع الصخرية المطلة على نقطة الماء، فأبعدهم رجالنا من المتطوعين برشقهم بوابل من الطلقات النارية ولم يجرؤوا على مطاردتهم نظرا لعدم خبرتهم في تضاريس منطقة "إيبي" أقمت وسط السهل قرب عين ماء "تراره" غير بعيد من "شينار الأخضر" لقد أصبحت في النقطة المحددة على الخريطة بالضبط: "اغرارت لفرس" حيث تتراءى لي من الجنوب الغربي قمة "شينار الأبيض"، كان لدي ما يكفي من الماء والمرعى وأنا عند تقاطع حوضين أحدهما يمتد من ناحية الشمال والآخر يمتد من ناحية الشرق، ولكني كنت على منبسط أي في موقع غير جيد في حالة حدوث معركة، فقد يكون موقعي ملائما من الناحية الإستراتيجية ولكنه يوفر خيارات تكتيكية كثيرة، والواقع أن الأوامر تلتزمني بالتمركز في موقع يساعدني على الانتظار أي في موقع يمكن الدفاع عنه والاحتفاظ به.

أخبرني خليط من "الزوايا" و"أولاد عمي" كنت قد أوقفته مساء نفس اليوم 23 دجمبر، أن الأمير "ولد عيده" كان قريبا مني عند "الفرديسية" قرب لكرارة الممتدة في ناحية الشرق ومعه الكثير من المسلحين وقد تلقى خبر قدومي نفس الصباح من جماعة "إيديشلي: المطرودة من "اترارزة" قد يكون العقيد قد دخل "أوجفت" وهو يسير في اتجاه "تونكاد"، لم أجرؤ على المجازفة بالاندفاع داخل المعبر الذي يمتد من صخور "إيبي" إلى كثنان "أمطليش" قبل استكشاف مجاهيله، فأرسلت مبعوثين.

وضعت نفسي بين يدي الطبيب صباح 24 دجمبر، وفي المساء عاد المبعوثين لقد تم إخلاء منطقة "لكرارة" فأمر آدرار قد قام بناء على نصيحة محمد المختار ولد الحامد الرئيس المنشق

لجماعة "كنت" في "تكانت"، باستدعاء الكثير من المسلحين تحضيراً لمهاجمتي، وبعد فترة انتظار قررت الانسحاب مبتعداً إلى ناحية الشرق.

وهكذا استوليت صباح يوم 25 دجمبر دون مقاومة على واحة النخيل وعلى "أدباي" المسمى "لحجيرة" على حافة "أمطليش" حيث وجدت المكان خالياً، كان أدباي تحت النخيل، كنا نشاهد إحدى قمم "أمطليش" الرملية وقد شاهد الحراس فوقها حركة أناس كثيرين، فأخبرني دليلي "المحرز" أن هذه القمة من "أمطليش" تطل على واحة نخيل "آزويكه" حيث توجد مياه غزيرة، بعد تفحص المرتفع على بعد بواسطة المنظار تأكدت أنه يستجيب لمواصفات الموقع المنيح الذي يمكنني أن أبقى فيه منتظراً لفترة طويلة حتى وإن هاجمني عدو يفوقني عدداً، وأتوقع أن يكون العقيد قد وصل "تونكاد" وهي حسب معلوماتي لا تبعد كثيراً عن "آزويكه".

عالجني الطبيب، في حين كرس "سيدي" نفسه للبقاء إلى جانبي كحارس مريض، وبما أنني لم أكن أقوى على إمساك زمام جملي، فقد قام "سيدي" بدور القاعد الموجه فربط خطام جملي بجانب راحلته واستمر في السير أمام مباشرة باحثاً عن أوسع وأسهل الممرات لكي يجنبني الاهتزازات، وكان يتطلع إلي من حين لآخر ليدرك درجة معاناتي وبما أن ذراعه مكسور فقد كان منظرنا يوحي بأننا الاثنيْن في حالة سيئة.

غادرت "لحجيره" يوم 25 دجمبر في الصباح الباكر وكان الطريق قد أصبح وعراً يتعرج في بطن أحد الوديان محصوراً بين السفح الصخري الأسود لجبل "إيبي" والكثيب العالي من الرمل الرمادي المائل إلى الصفرة، كانت أدهاغل الشجر الشائك تحف الوادي كنا نتقدم ببطء شديد داخل هذه المهلكة، وعند الساعة 7 بدأ المعبر يتسع بعض الشيء باتجاه سهل صخري يمتد منفصلاً عن سفح جبل "إيبي" كنا ما نزال نشاهد من بعيد رؤوس النخيل تعبت بها الرياح وزحفها يتموج في جنون في نهاية الوادي السحيق، كان "أمطليش" يتراجع القهقري أمام السهل الصخري لتقترب من جديد في مكان آخر لرسم حدود المسطح الضيق مع الممر ومع القمة الواقعة على يمين واحة النخيل المعزولة التي شاهدها بالأمس، إنه الموقع المناسب لتتمركزي.

يتسح بطن الوادي بين حافتي الممر العمودي المحصور بين منحدر الجبل والهضبة الصخرية كانت القافلة قد اندفعت بكاملها على السهل الصخري، حين بقيت وحدة الحراسة الخلفية متعثرة بسبب الأشجار الملتفة ذات الأشواك الحادة كانت طلائع القافلة قد اندفعت في بطن

الوادي بمحاذاة السفح الرملي للجبل متجاوزة إلى الأمام، وفجأة حدثت في وجهها طلقات نارية، وبالتزامن مع ذلك انطلق وابل مكثف من الحافة المعاكسة للوادي ومن أمامنا ومن ناحية اليمين ومن واحة النخيل ومرتفعات "إيبي" الوعرة إلى شمالنا.

فرقة المتطوعين التي كانت قد هبت لنجدة زملائها في المقدمة بعد أن سقط الأمامي منهم قتيلًا، اندفعن بعد أن فاجأها إطلاق النار، اندفعت، لتتبعنا إلى فرقة الرماة في الطليعة، لقد احتفظ الملازم "جرار" برياط جأشه، فحرك وحدته وزحف إلى الأمام، فتبعته فرقة المتطوعين وتم دحر العدو، أرسلنا أمرًا إلى الملازم "ديونيس دوسجور" الذي يقود الجناح الأيمن، أطلب منه الصعود على القمة الواقعة إلى يمين فرقة الطليعة، بمجرد التحرك تراجع جناح المهاجمين الذي يشكل خطراً محققاً بي من ناحية اليمين بعد شعوره بالمباغثة من الخلف، ومنذ تلك اللحظة تركزت المعركة في خط الجبهة الأمامية وعلى ناحية اليسار.

لم يكن العدو يرى الملازم "بلود" الذي زحف بالجناح الأيسر نحو ركن الهضبة، ولكن العدو استمر في إطلاق النار على القافلة مما أجبرني على تجميعها بمشقة للاحتماء داخل أحد الأغوار الصخرية، وفي هذه الأثناء وصلت فرقة الطليعة الهضبة تحت وابل من الرصاص القادم من "إيبي" و..... فأصبح جناح اليمين وحده في مأمن من بنادق العدو ولذا اتخذت منه فرقة احتياطية.

اقترب مني النقيب "دور وي" الذي يقود فرقة الحراسة الخلفية ليتلقى الأوامر، فوجدني في حالة مزرية، فبعد الاستيلاء على المواقع الأولى، لاحظت أن الرصاص أصبح مكثفاً لدرجة أن الطلقات النارية تمر مصفرة من حولي، كما أن جملي إلى جمل "سيدي" يشكلان هدفاً مكشوفاً ومن العجيب أننا حتى الآن لم نصب برصاصة، وقد أمرت "سيدي" بجعل الجمال تبرك وهو ما لم ينصع له، وكنت أنوي السير على قدمي ولكن دون جدوى، يبدو أنني لم أحسب حساباً لآلام "الروماتيزم" وما كدت أنزل حتى بقيت متمسراً في مكاني لا أقوى على تقديم رجل ولا على تأخير أخرى...

ولا يوجد من يعيدني فوق راحتي وكم كنت سعيداً وأنا أرى النقيب "دور وي" قادماً وهو الرجل القوي، فحملني دون كبير مشقة وأعادني فوق راحتي، ولم يستغرق كل هذا سوى بعض لحظات مع أن ذلك يعتبر طويلاً بالنسبة لي في الأحوال العادية.

وفي هذه اللحظة احتدمت المعركة، بناء على أوامري، على الجبهة الأمامية، فالمدفع الرشاش بيد الطبيب "كازا نويف" يمطر واحة النخيل في كل اتجاه بدعم من وحدة "ابلود" في الوقت يشق فيه الملازم "جيرار" طريقه للتمركز على حافة الواحة مجبرا العدو على الانسحاب من الموقع، وكان الملازم "أديونيس دوسجور" قد استولى على المرتفع الرملي المشرف على طريق وحدة الحراسة الخلفية، المرافقة للقافلة وبما أن الواحة خلت تماما من الأعداء، فلم يلبث الملازم "ابلود" أن تمركز على المرتفع ونصب فوقه الرشاشات بحيث أصبح من المستحيل على العدو أن يعاود الهجوم محتما بغابة النخيل.

أرسل الملازم "جيرار" دوريات لتجوب الغابة التي توغلت فيها فرقة المتطوعين حتى بلغت مشارف "إيبي" وضعت فرقة حراسة ورصد من أربعة رجال فوق قمة "أمطليش" على بعد تسع مائة متر في ناحية الجنوب، فمن هذا الموقع تستطيع الفرقة أن ترى ما يجري على مسافات بعيدة في كل الاتجاهات كما أنها تطل على الموقع المواجه لها، ثم أمرت بإدخال فرقة الملازم "جيرار" التي أبلت بلاء حسنا في هذه المعركة ذات المدة القصيرة.

لقد أصبحت الآن متمركزا على الموقع المنشود، فأرسلت على الفور من يستطلع أمر عين الماء الموجودة داخل غابة النخيل، فوجد ما يكفي حاجتنا من الماء، فأمرت بإعداد الموقع المطلوب في حالة حدوث هجوم وأرسلت الحيوانات لترعى فوق الكثيب تحت حراسة فرقة من الرماة.

كانت الساعة 9 ونصف صباحا، وكان العدو قد أوقف إطلاق النار فور احتلال غابة النخيل وانسحب نحو المنحدر ولكنه لم يلبث أن غادر المكان بمجرد اقتراب وحدة المتطوعين، ولكن يوجد شيء ما يوحي إلي أن الأمر لم ينته بعد، فالأمير لم يشارك في معركة الصباح، لقد بلغني ذلك للتو في مراسلة كنت قد بعثتها إلى العقيد في "تونكاد" الليلة السابقة، ولكن العدو اعترض طريقها عند نقطة ماء في "آزويكه" لقد واجهنا رئيس "إيديشلي" "بكار ولد الشيخ" ومعه فرقة قوية من "أولاد غيلان" وهذه الأخيرة هي التي اعترضت طريق بريدنا وكان "ولد عيده" بالقرب منا في الناحية الشمالية من جبال "إيبي" مع جيشه، وهو ينظر هناك ليهاجمنا، أما "الشيخ حسنه" فقد تصدى للعدو وكان مكلفا بتنظيم المقاومة على طريق "أطار" لقد تمكن حامل بريدي من الإفلات من فرقة "أولاد غيلان" حين تعرضوا لطلقات المدفع الرشاش التي كانت تتخلل غابة النخيل، فقد أفرغهم كثافة وسرعة الرصاص وتركيزه عليهم.

وما أن انتهينا من تناول الغداء وأعدنا كل شيء لملاقاة العدو إن سولت له نفسه القدوم لطرنا من الموقع، التحق بي الطبيب في مكاني وأنا جاثم على الرمل وإذا كنت قد استطعت حتى الآن إخفاء معاناتي عن رجالي، فإن كل لمسة لجسمي تجعلني أصرخ من الألم، وجد الطبيب نفسه مجبرا على نزع أحذيتي بنفسه.

إن علاجي يوجب الكي بالنار في قدمي اليسرى، ولكن يوجد ميسم لإجراء العملية. فاستعملنا قسبة بندقية أحميناها في النار حتى احمرت وزع الطبيب على قدمي سبعا وعشرين كية وسط تصاعد رائحة الدخان المنبعث من اللحم المحترق، فتألمت رأيت النجوم في وضح النهار، ولكن كل ذلك يهون وأتمنى أن ينفعني هذا العلاج.

وما كاد علاجي ينتهي حتى عادت طلقات النار تدوي من جديد إنه العدو يرشقنا من القمم المطلة على سفوح "إبي" على بعد 700 متر، وكانت رصاصاته الموجهة بإحكام تمر قريبة فوق قمة الهضبة بصفة مكثفة ولكن طلقاته القادمة من الجانب الشمالي من موقعنا كانت عمودية ولا تشكل خطرا فلم نرد عليها لنستدرجهم إلى محاولة الهبوط للاستيلاء على الحمير التي ترعى في المنحدر، وعندها أفرغنا حزامين أو ثلاثة من ذخيرة المدفع الرشاش فكان ذلك كافيا لصددهم.

إلا أن طلقات العدو من فوقنا ما لبثت أن أصبحت مزعجة خاصة بالنسبة لفرقة المراقبة المرابطة فوق قمة "أمطليش" قررت إبعاد العدو، فأمرت، الملازم "جيرار" بالزحف في الناحية اليمنى بنصف وحدته من أجل الالتفاف على العدو عند مهبط السفح نحو الوادي ويحول بينه وبين المواشي وبعد انطلاق "جيرار" بقليل أمرت الملازم "اديونيس دوسجور" بالتسلل عبر غابة النخيل معززا بالرقيب "لوران" ومهمة الفرقة هي أن تصعد السفح وحين يتجه العدو لملاقاة "جرار" تتجاوزته وتنقض على جناحه الأيمن، واحتفظت في الموقع بنصف كل واحدة من الفرق المهاجمة، كانت المسافات بين الرجال أوسع مع تمركز في الوسط وفي نفس الوقت كان الجناحان يتحركان للاتقاء كالكماشة من حول العدو كان كل شيء سير كما أريد، فقد تقدمت الفرقتان على جانبي العدو أثناء مشاغلتي له من إطلاق النار بكثافة من موقعي، فلم ينتبه للتحركات المحضرة للهجوم الحقيقي حتى اقتربنا منه وأصبحت مواقعه مكشوفة بين الصخور فلم يجد بدا من الانسحاب على عجل ومع ذلك لم نستطع ملاحقته، فقد تشتت عبر ممرات متعرجة شديدة الوعورة نجهل نحن عنها كل شيء، تمثلت خسائري في الصباح في

الجمال الذي كان في المقدمة وجرح جمل "المحرز" الذي اخترقت ثيابه عدة رصاصات دون أن تصيب جسمه.

لقد كان "المحرز" دليلا ذائع الصيت في "آدرار" وقد ركز العدو على استهدافه مراهنًا على أن موته سيلحق بنا ضررا بالغا وحين أصابوا جملة اعتقدوا أنه هلك فشاعوا الخبر، لم أسأل عن خسائر العدو خلال اشتباكي "آزويكه" إذ كنت أعاني آلاما مبرحة ولم أكن أفكر إلا في نجاح مهمتي.

وما حصل بالتأكيد، على حنفيه، هو أننا انتزعنا موعنا من العدو ثم أجبرناه على الفرار للمرة الأولى وحين عاد دحرناه، سمنا على الموقع المحرر ومن الغد بدأنا الأشغال الضرورية لتحسينه جاعلين منه "جبل طارق" صغبر، وأنا أحرص من وراء ذلك إلى انتظار العقيد في هذا الموقع كما أمرني وقد أخبرته بوجودي عند "آزويكه".

وبعد أن حل الظلام شاهدنا ضوء نار كبير على الجبل تبدو غير بعيدة، فأعداؤنا الساهرون أو النائمون حول هذه النار لم يخطر لهم أن ضوءها يشعرونا بوجودهم بعد يوم من معاناة الآلام، كنت متمددا أحاول الإخلاء إلى النوم جاء الملازم "جيرار" يوقظني قائلاً:

"سيدي الرائد" هناك ضوء نار متواصل يزداد حجمه مما يعني أن حولها من يؤججها، و"المحرز" الذي كنت معه يزعم أن الأمير "ولد عيده" و"ولد سيدي" كانا شخصيا ضمن من واجهناهم هذا المساء وربما يكون معهما "ولد الديد" من أين للعجوز النحيل مثل هذه التفاصيل؟ لا يهم هو يقول أيضا أن النار التي نشاهدها يوجد في مركز قيادة العدو، المهم الآن هو أن هؤلاء الأعداء يوجدون على مشارفنا ويمكن أن يحاولوا ن الغد إعادة المشهد الذي حدث هذا المساء، فلن يقر لنا قرار قبل وصول العقيد، وإن شئتم، سيدي القائد، سأنتقل هذه الليلة بفرقتي مع من أختارهم من المتطوعين لألقن هؤلاء درسا لن يتجاسروا بعده على الاحتكاك بنا..."

لقد كان الملازم "جيرار" قد أبان صباح نفس اليوم عن مهارات عسكرية عالية، لقد كان سلوكه مرضيا في الحياة العادية وفي حياته مع غيره في القافلة، إلا أنه موقفه اليوم جعلني أتذكر تحذيرات كنت قد سمعتها بشأنه وهو قادر على إنجاز المهمة التي يقترحها علي، وقد وعد "المحرز" بأن يرافقه كدليل، وبما أنه تطوع للمهمة من تلقاء نفسه، فقد ألقيت له الحبل على الغارب.

ألزمته فقط باطلاعي كتابيا بأخباره لكي أقوم، عند الحاجة، بإرسال فرقة أو اثنتين على طريق عودته وأوسيته بعدم التمادي إذا لم تتوفر لديه جميع فرص النجاح، وأن يوقف الاشتباك مع العدو في هذه الحالة الأخيرة ويطلعني على مجريات الأمور.

غادر الملازم "جيرار" عند الساعة 2 بعد منتصف الليل على رأس فرقته المكونة من ستين مسلحا بالإضافة إلى ثلاثين من المتطوعين كان قد انتقاهم بنفسه، ولكن الظلام كان حالكا أكثر مما توقع كما اختفى ضوء النار فجأة، كما أن "المحرز" الدليل الماهر عبر السهول، قد تاه بين الدروب الجبلية.

وبعد مسيرة استكشافية ضل الملازم طريقه وبدلا من مباغثة العدو فجرا شعر العدو باقترابه، فتحتمت عليه العودة من حيث جاء، مع أنه قد جاء لخوض المعركة، وكان يريد أن ينال قدر تعب، فهاجم عبر المتاهات الصخرية المجهولة ولكن أفراد العدو كانوا منتشرين في شعاب الجبل فتدفقوا عليه من كل حدب وصوب ولسرعة ضيقوا عليه الخناق لدرجة أنهم أمسكوا بتلابيب أحد المتطوعين اختطفوه حيا أمام عيني الملازم ورغم بسالة فرقة المتطوعين فقد كانت الأمور تسير باتجاه الهزيمة فأدرك الملازم خطورة الموقف وقرر وقف الاشتباك، وفي لحظة ذهول غفل الملازم عن فرقة المتطوعين التي كان قد كلفها بتأمين انسحاب الرماة أثناء تراجعهم على الجانب الآخر وبسبب غياب التأطير ونقص التدريب ظن المتطوعون أن الرماة المتراجعين سيتركونهم في الميدان وبدلا من أن يؤمنوا انسحاب الرماة بغطاء من إطلاق النار تراجعوا هم كذلك منسحبين مما أربك خطة المناورة، وكانت المعارك ضارية لدرجة أنها بدأت عند الساعة الخامسة فجرا ولم تنته إلا بحلول الساعة الواحدة بعد الزوال، وما كاد الملازم "جرار" يخرج من كابوس المعارك في متاهات "إبي" حتى شرع في إحكام تنظيم رجاله واتخذ موقعا متمنا وسط السهل منتظرا أول بادرة ظهور من العدو ليجبره على التراجع بسرعة.

في هذه الأثناء قدمت من الاتجاه المعاكس فرقة من 28 مسلحا تريد الانضمام إلى العدو، لم يكن موقع الملازم "جيرار" يسمح له برويتها، ولكن وحدة "اديونيس دو سبور" المرابطة في الخلف شاهدها لم تطلق عليها النار، فوجد الملازم "جيرار" نفسه وجها لوجه مع القادمين فشتتهم ولكن المعركة أسفرت عن مصرع أحد الرماة السينغاليين وجرح آخر، تكبد الملازم خلال هذه المعركة أربعة قتلى وستة جرحى وعاد بجميع بنادقه وجثامين القتلى وتكبد العدو نفس الخسائر مع عدد أكثر من الجرحى ومن الجدير بالملاحظة أنه منع العدو من النزول

إلى السهل وألحق به من الضرر ما يصده عن معاودة الهجوم علينا وقد مكننا ذلك من الإقامة في هدوء داخل موقعنا المحصن عند "آزويكه" حتى وصول العقيد، وبذلك حققنا هدفنا ولو بثمن باهظ إلى حد ما.

وحين قدم من جابههم "جيرار" في وقت لاحق ليعلنوا الاستسلام أمام العقيد، تنافسوا في الإشادة بما أبداه الملازم "جيرار" من شجاعة منقطعة النظر أثناء معارك "إيبي" وانبهارهم ببسالته.

قضيت الفترة ما بين 27 إلى 30 دجمبر في إحكام التحصينات حول "جبل طارق" المصغر الذي أتمته في "آزويكه" على طريقتي الخاصة: خنادق وحفائر بقامة الرماة، ولكنها صالحة كمخاى جماعية يفصل بينها معابر رملية محمية بحواجز من التراب ثم وزعت القيادة بطريقة تسمح عند الحاجة من تأمين مقاومة عنيدة.

نتوفر على مصادر مائية غزيرة تقع مرمى بناقدنا وتوجد مراعي جيدة ونظريا وحسب ما هو على الورق، لدينا مؤونة ثلاثة أيام فقط من المواد الغذائية.

وفي الواقع لدينا أكثر من ذلك بسبب الذرة التي حصدناها في "غسمرت" وبالنسبة للحم بإمكانني مواصلة تقديم الحصة المضاعفة ولدينا الفاكهة المحلية من التمور التي أخذناها من "اعكيلت احبيب" و"لحجير"، كما نحصل على لبن غزير من النوق التي استولينا عليها من "اركييات" فماذا نريد أكثر من ذلك؟

بإمكاننا أن ننتظر قدوم العقيد مطمئنين وتطبيقا لتوصيته أرسلت له بريدا يوم 28 دجمبر يحمله أربعة جمالة أمرتهم بالبحث عنه في سهل "يغرف" أعطيته وصفا لما حدث وحددت له مكاني، وبدوري تلقيت يوم 30 دجمبر بريدا من العقيد يقول إنه لم يتصل بشيء من عندي حتى الآن ويخبرني فقط أنه يغادر "أماطيل" شمالا جبل "إيبي" متوجها لملاقاتي ومعه قافلة خفيفة تاركا النقيب "بابلون" متحصنا في "أماطيل".

يبدو من قراءة دفتر تقارير القافلة أن العقيد ليس قلقا علي، فلم يتحدث في تقريره ليوم 28 سوى التحرك لملاقة الرائد "افيرجانه".

وجاء في تقرير يوم 29 دجمبر:

"المسيرة التي سنقوم بها لملاقة الرائد "افيرجانه" شاقّة لأن تجمعات هامة معادية ستعترضها، إلا أن من المهم أن تقبل التوقف باستمرار بل نواصل التقدم"

وفي تقرير 31 دجمبر:

"التقت القافلة هذا الصباح بأربعة جمالة تابعين للرائد "افير جان" الذي يوجد على بعد خمسة وعشرين أو ثلاثين كيلومترا من هنا في موقع عسكري جيد، ولكن توجد أمامه مجموعات معادية"

إذا سردت هنا كافة التقارير، فسيتبين أنه فضلا عن الشائعات الغريبة والتافهة التي يتم إطلاقها في السينغال وفرنسا بشأن قافلة "آدرار" (وكانت عمليات تشويش يائسة تطلقها المعارضة في "سان الويس" ضد موريتانيا)⁴⁶⁴ هناك شائعات أخرى كثيرة تطلق ضدي أنا شخصيا فقد عمد بعض الضباط وضباط الصف الأوربيين الموجودين في مراكز بجنوب البلاد وحتى في القافلة نفسها، إلى إطلاق شائعة مفادها أن العقيد وجد نفسه مجبرا على التدخل لإنقاذي، وإنما وصلت هذه الشائعات في وقت متأخر من بعض الضباط المخلصين لي، قد نقلوها إلي من باب التنبيه، لأتمكن من الدفاع عن نفسي مرة أخرى، هذا مثال على الطريقة التي يكتبون بها التاريخ، صحيح أن العدو لم يكن يعتبرني عديم الأهمية والمعلومات التي قدمها رجل الزوايا "ولد إياهي" برهان على ذلك.

أمير "آدرار" الذي كان دائما أمامي في جبل "إيبي" قد كان ينتظر فيه "أولاد غيلان" الذين ما زالوا مقيمين عند "أرشات" مع خمس مائة من "اركيبات" كان ينوي مهاجمة موقعنا بهذه القوات.

ولم يخصص إلا ستمائة رجل لمراقبة القافلة الرئيسية وقد كنت مزهوا للتقدير الذي خصني به حين وجه إلي أكثر من نصف قواته، ولكن جميع من زاروا موقعي الحصين كأنه "جبل طارق" صغير يوم 1 يناير 1909 يدركون أن الهجوم سيكون أمرا صعبا، وعلى كل حال لم يعاود الأمير الاحتكاك بنا.

لنحدد الوقائع: لقد تمكنت قافلتني الصغيرة من لفت انتباه العدو وجذبه نحوها لدرجة أنه خصص لمهاجمتها عددا من رجاله يضاهي على الأقل ما خصصه لترصد القافلة الرئيسية والتي تزيد على قافلتني بخمسة أضعاف وقد تولى رجال "حسنه" حماية "أطار".

⁴⁶⁴ رأينا في ما سبق أن الشائعات ليست قادمة فقط من "سان الويس" وأن الحكومة الفرنسية قد فكرت فعلا في إعادة قافلة "آدرار" إلى السينغال ويوجد انطباع بأن انتصارات فرقة (افيرجان) قد ضايقت أصدقاء "غورو" فقصدوا التقليل من شأن دور "افيرجان".

رغم عددهم، لم يكن الرجال المسلحون المواجهون لي يضاؤون بسالة زملائهم في الفرقة التي تترصد القافلة الرئيسية والذين هاجموا "أماطيل" يومي 30 و 31 ديسمبر 1908، فـ"اركيبات"⁴⁶⁵ بلا قيمة عسكرية و"أولاد غيلان" قد تم سحقهم من قبل عند "آزويكه" نفسه يوم 26 ديسمبر وإذا كنا قد تعرضنا للهجوم فقد حققنا من الانتصار أكثر مما حققه النقيب "بابلون" عند "أماطيل" والحال أن النقيب "بابلون" قد واجه عدواً أكثر شراسة هاجمه بعنف ومع ذلك تمكن من التخلص منه بوسائل دون مستوى وسائلنا حتى من حيث العدد، فلا حاجة لنا إذن على الإطلاق في قدوم من ينفذنا، والحقيقة القسوى هي أنه كان من المقرر منذ زمن طويل نهاية نوفمبر في خطة العقيد أن يسير هذا الأخير للالتقاء بي في المكان الذي سأتوقف فيه بناء على أوامره، صحيح أن الترهات⁴⁶⁶ قد كثرت في ذلك الوقت حول قافلتنا فقد زعم الذين يعتبرون رغباتهم حقائق واقعية أن قافلة "آدرار" قد فشلت فشلاً ذريعاً، وقد قرأنا في الجرائد خبر نقلنا إلى ضفة النهر مع الخسائر أما أنا شخصياً فقد أعطوني دور بطل في مشهد مأساوي كنت فيه الأوروبي الوحيد الذي نجا بعد أن بقي في المعركة صحبة عشرين من الرماة السينغاليين.

لماذا لا يكون مناسف الرائد "لامبيرت" صاحب "الرصاصات الأخيرة"؟⁴⁶⁷ ومهما يكن، فقد انتهت سنة 1908 في هدوء تام وأستطيع التأكيد على أنني لم أفكر قط في القيام بهجوم في آخر السنة.

كنا ننتظر العقيد "غورو" يوم 1 يناير 1909 ومررت الصبيحة دون أن نرى أي شيء، وفي حدود الساعة 11 دوى صوت طلقة مدفع من بعيد .. هل دخل العقيد في معركة، أم هي إشارة لإشهارنا بأنه أصبح قريباً؟

وبعد قليل، ظهر العقيد وسط المضيق: كانت معه ثلاث فرق من الرماة ومدفع ورشاشات وجمالة من الزنوج وفرقة من المتطوعين "البيضان" لقد بدأت حالي الصحية تتحسن بفضل علاج الطبيب، وقد نفعتنا الراحة طيلة خمسة أيام في "آزويكه" إلا أنني لم أصبح بعد نشيطاً كما يجب.

⁴⁶⁵ هذا خطأ وقع فيه "افريرجان" لجهله بـ"اركيبات" ثم إن اركيبات (وهم في الأصل من الزوايا) قد ظهر أنهم مقاتلون أشداء

⁴⁶⁶ ترهات: عبارة عامية تعني الأخبار الكاذبة والشائعات ولم تعد العبارة المقابلة لها بالفرنسية مستعملة، وقد حلت مكانها في الحرب العالمية الثانية عبارة "الأكذوبة".

⁴⁶⁷ إشارة إلى معركة "بازاي" سنة 1870.

تماسكت متقدما أمام العقيد الذي لاحظ علي بعض التعب، وبما أن أحد الزوايا كان قد أخبرني صباح نفس اليوم بمعركة ضارية خاضها النقيب "بابلون" عند "أماطيل" لكنه انتصر فيها، فقد اغتتمت الفرصة وهنأت قائدي برأس السنة الجديدة معلنا له خبر هذا الانتصار، ثم نصب مخيم العقيد إلى القرب من موقعي وقدم هو لتفتيش قافلتني فتكلم مع رجالي من الرماة والمتطوعين وأدرك كل شيء ولسوء الحظ أدرك بعين الماهر أن لدينا جملا من إبل "اركييات" زائدة على العدد فاستحوذ عليها وعلى ما لدي من الثيران، أما حميري لم تقدمهم المراعي الموجودة في الكثيب كما يعانون التعب الشديد والهزال .. فكان بعضهم يموت كل يوم لا بأس فقد أدى الحمير مهمتهم وستبقى أسطورة "غزي لحمير" في ذاكرة: البيضان" ردحا طويلا من الزمن.

يبدو أن الغذاء هو نقطة ضعف قافلة آدرار، ولحسن الحظ ما زالت لدينا بقية من الذرة لقد تأثر الرجال من تقليص حصة اللحم وأصبحوا يحنون إلى أيامهم الجميلة ضمن فرقة "إينشيري: حيث قطع لحم البقر الضخمة والكباش السمان وذرة "غسمرت".

لقد تقرر أن يغادر يوم 3 يناير في اتجاه "أماطيل" و"أطار"، لدي مقابلة مع العقيد فأريته قصاصة الجريدة التي ذكرتها في السابق بشأن دوري في "إينشيري" فهز منكبيه قائلا يبدو أنه يعتبروني متذمرا فوجه لي بعض النصائح لكنني أدركت أنه لا يحمل مطالبتي على محمل الجد، ففاتحت الرائد "اكلودل" في ذلك وقد جددت معرفتي به خلال أحاديثنا الطويلة على الكثيب ليلا، وكنت قد فقدت أخباره منذ سنة 1894، ففتح أمامي آفاقا واسعة لم أكن أعرف عنها شيئا.

مع العقيد "كورو" في "آدرار"

دخلت في دوامة إعادة التنظيم العسكري، فلم تعد توجد وحدات خاصة بي، والفرقة الرابعة من فيلق الرماة السنغاليين سنتسى حتى رقمها (الذي شرفته في إينشيري) فقد استبدل برقم آخر فأصبحت الفرقة رقم 5 ضمن القافلة كما سيغادرني رجال فرقة المتطوعين المحولين إلى النقيب "دوبرت ويس" الذي يتولى قيادة جميع المجندين غير النظاميين المحمولين على الجمال، وسيكون دوري أثناء المسير متغيرا من يوم لآخر فمرة أكون قائد "كتيبة القتال" ومن الغد أصبح قائد فرقة الحراسة المرافقة للقافلة، وسأتناوب في هذه الوظائف مع الرائد "كلودل". لقد تعودت التعامل مع رجالي حتى أصبح من الصعب علي التفكير في أنني سأكون في وظيفة أخرى بالنسبة لهم غير القائد المباشر والوحيد.

رجالي من فرقة المتطوعين متذمرون لأنهم، بعد أن تعهدوا بالعمل معي ولم يقبلوا الالتحاق بكتيبة "المجرية" المكونة من "الحراطين" و"العبيد" الذين يشكلون الأفواج الشرقية، سيحولون للخدمة مع "الجنرال".⁴⁶⁸ أما بالنسبة للرماة السنغاليين فالأمر مخالف لذلك فهم يأسفون على فقدان حصة الغذاء الغنية التي كنت أعطيها لهم، وهكذا قدموا إلي فور وصولهم

⁴⁶⁸ - هذا أحد الأخطاء السيكلوجية التي سببت كثيرا من الضرر، فالبيضان الحاملون للسلاح متعودون على الالتزام لقائدهم أو للرجل الذي أعجبهم أو الذي أعجبته قدراته وفي المقابل يودون الاعتراف بذلك، فعلى القائد أن يقدر ذلك بالنسبة لكل فرد منهم. أما التصرف فيهم كالأشياء دون اختيارهم فذلك يثير اشمئزازهم ويعتبرونه من باب الاحتقار وبالتالي لا يمكن أن يستوعبوا صرامة الإجراءات الإدارية الفرنسية. وعلى العكس من ذلك قد أصبح "افرير جان" متعودا على عقلية "البيضان" ويفهم نفسياتهم بشكل جيد ولذلك كان ميالا إلى ملاءمة القوانين مع أوضاع الرجال بدل تكيف الرجال مع القوانين وهو ما أصبح معمولا به ولكن في فترة لاحقة جدا وفي انتظار ذلك تعاني فرقة "إينشيري" وقائدها من الشعور بالتجريد من شخصيتها.

إلى "أطار" يناشدونني التدخل لتقديم مطالبهم إلى السلطة بهذا الشأن، وطبعا لم ألق آذانا صاغية وحصل نفس الشيء عندما قدمت مطالب فرق المتطوعين.

سيتهمونني بالإصابة بسلوك مرضي، ليكن! ولكن هل ذلك هو سبب اجتهادهم في جعلنا نشعر بأن فرقة "إينشيري" السابقة لم تكن تنتمي إلى نفس القافلة التي تشكلت في "المجرية"؟ هذه المضايقات أتلقاها من أشخاص من مستوى ثانوي وليس من القادة الكبار ولكنها مع ذلك تضايقتني، ألا يمكن أن تكون من فعل المجموعة الهامشية في "أكجوجت"؟

والأدهى والأمر هو أن العقيد قد تصور أنني المسؤول شخصيا عن حدوث مثل هذه الأمور وقد طلب مني في الأيام الأولى لإقامتنا في "أطار" بأن أضع لها حدا. فهو إذن لا يدرك مصدرها، ومن جهة أخرى يبدو أن شكواي من بعض خلصائه لم ترق له ... يبدو أن الذين كانوا يعاملونني بهذه الطريقة كانوا يفعلون ذلك عن غير وعي بما يحدث، ذلك ما أنا متأكد منه، إن الحدس في بعض الظروف يجعلنا ندرك مثل هذه الأمور، ومع ذلك لم تؤثر هذه المضايقات السافلة على إعجابي بالعقيد "كورو" وبما أننا ندرك أن الرجال العظام هم وحدهم الذين يكونون موضوعا لأحاديث الناس، فإنني أقول إن العقيد قد نال إعجابي بشخصه في حد ذاته أكثر مما ناله وهو تحت تأثير المحيطين به والذين كانوا يؤثرون عليه دون أن يشعروا.

كنت أتولى قيادة الجناح الأيمن لفيلق الطليعة يوم 3 يناير 1909 ونحن نغادر "آزويكه" بعد أن أدينا مراسم الشرف لقتلنا في معارك يومي 26 و 27 دجمبر. اقترب مني العقيد أثناء السير مبديا قلقه من هيئة النقيب "دوروي" الذي يتمايل فوق جملة، قلت له إنه بمظهره هذا قد أبدى بسالة لا نظير لها أثناء المعارك الأخيرة. يبدو أن مجموعات العدو متمركزة في الجبال. وعند وصولنا إلى نقطة التوقف عند "أريش" أمسكت فرقة المتطوعين بقوم يسوقون قطيعا من الثيران يلبسون ثياب إحدى دوريات الرماة وهؤلاء الأسرى من تلاميذ "الشيخ ماء العينين" قمنا بشد وثاقهم وأوكلنا حراستهم إلى مركز الشرطة. أقمنا المعسكر فوق السهل الصغير في منحدر جبل "إبي" وتوجهنا إلى نقطة الماء وهي "كلته" وقد اتخذنا إجراءات احترازية مشددة فنحن نخشى الوقوع في فخ كما حدث في "شومات" حين قتل الرقيب الدركي "جيلالي" صحبة خمسة عشر من المتطوعين (من بينهم "أعمر ولد ببكر" قاتل "بكار"

في "بوكادوم" سنة 1905) لأنهم لم يتخذوا إجراءات الحراسة ولم يبعثوا من يستطلع حالة "الكلته" قبل القدوم إليها للشراب.

توقفت القافلة يوم 4 يناير فوق البرك المائية "كلتات" الواقعة في شعب أحد الجبال. لقد تحسن وضعي أثناء الطريق وأصبحت صحتي تتحسن يوم بعد يوم، فكرت في ركوب فرسي "بو أشويمه" ولم يكن ذلك ممكنا ما لم تتحسن تغذية هذا الحيوان المسكين مع أن "سيدي" كان يعتني بعلاجه وتغذيته ولكنني أتهم "محمد ولد أميسه" بأكل جزء من كمية الذرة المخصصة للفرس.

هبطنا يوم 5 يناير 1909 في معبر "تيفوجار" ثم انحدرنا شمالا لنجد أنفسنا على مرتفع يحمل نفس الاسم كانت القافلة قد خاضت فيه معركة يوم 26 ديسمبر وهكذا ففي اليوم الذي كنا فيه نقاتل في "آزويكه" كان رفاقنا يخوضون القتال في هذا المكان، كانت المسافة بين الموقعين أربعين كيلومترا تقريبا. كان الوهد الذي سننزل فيه بعد قليل يذكرني وأنا فوق المعبر بمضيق "فوك" في "تكانت" إلا أنه أقل عمقا واتساعا، نزلت في الوهد مع فرقة الطليعة وفاجأني كوننا لم نتعرض لهجوم فقطعت المسافة بأقصى السرعة وعند الوصول إلى سهل "الوادي الأبيض" تلقيت طلقات نارية قادمة من المرتفعات إلى جهة اليسار، ولكن الرمي كان عموديا، فلم أكن أخشى أن يصيبني ولكن الطلقات النارية زادت على ناحية الشمال، ويبدو أنها ليست موجهة ضدنا تماما، كنت أراقب هذه المرتفعات من مكاني صحبة النقيب "كامي" إنها الفرقة الخامسة تهاجم العدو في هذه المنحدرات الصخرية، وأثناء مشاغلها له تجاوزت القافلة بكاملها وتوقفت المعركة تماما وأقمنا المعسكر وسط الأشجار الشائكة على حافة "الوادي الأبيض" كانت الساعة تقارب السادسة وكان "ماركاني" ما زال يواصل إطلاق النار. تلقيت بعض التفاصيل في المساء عما قامت به الفرق الخامسة على مرتفعات المعبر. يبدو أن الملازم "جيرار" قد تمكن من الاقتراب من العدو وكان مصرا على الانتقام منه لفعلته يوم 27 ديسمبر ويذكر أنه تعرف على أحد مهاجميه يوم ذلك وهو شاب يعتقد أنه "ولد عيده" أما أنا فأظن أن الأمر يتعلق بمجرد تخمينات. أصبح جملي يوم 6 يناير غير صالح للركوب واضطرت إلى استعارة جمل من النقيب "ابلومبيون" الذي أعطاني أفضل ما لديه، هبت عاصفة رملية أثارت التراب من حولنا فلم نعد نرى لأكثر من عشرة أقدام، فاستشاط غضبي وكان جملي مذعورا بسبب العاصفة يحتمي بالأشجار الشائكة فحطمت مجموعة من العصي

على جسمه وكان العقيد يحث الخطى ليصل "أماتيل" من أجل الحصول على أخبار دقيقة حول معارك يومي 30-31 دجمبر فلم يعد يهتم بوضع القافلة التي تمددت بشكل مفرط رغم ما بذلته من جهود مضنية للحفاظ على تماسكها في كتلة موحدة وخاصة على مستوى وحدة الحراسة الخلفية، كنت أزيد وأرعد وأصرخ ولكن كنت أصرخ في واد، فكل ذلك ذهب مع الريح كما يقال... وأخيرا ها نحن في "أماطيل" كان النقيب "بابلون" المصاب بجروح خفيفة في الذراع متمركزا في معسكر محصن بالأشجار الشائكة، ومع ذلك كاد أن يسقط يوم ثلاثين دجمبر. يستفاد مما سمعناه من حكايات أنه لولى بسالة فرقة المتطوعين "البولار" بقيادة الملازم "دوبوك"⁴⁶⁹ والرقيب "راينود" لهلكت الوحدة الثالثة (وحدة "العاجزين" في أكجوجت سابقا) لقد أوشكت على ذلك يومها "إلا خمس" وقد تمكن العدو من اقتحام حصن منيع يحميه مدفع الرشاش. وفي اليوم الموالي، 31 دجمبر تمكن فيلق من 250 رجل من البيضان من الاقتراب لمسافة 800 متر دون إطلاق نار تحت وابل من فوهة المدفع الرشاش ومن ثلاثين بندقية ولم يتوقف حتى شارف السياج والحصن الذي أوشك على السيطرة عليه وصمد بعد ذلك تحت وابل من إطلاق النار عن قرب من المدافع ومن إطلاق الرصاص من جهة أخرى فحاول رغم طوفان الرصاص من تطويق المكان ولكنه أصبح في مرمى مدفع الرشاش الآخر على مسافة قريبة فتوقف وانبطح رجاله أرضا محاولين مرة أخرى أن يتقدموا. ففي هذا اليوم كانت فرقة "البولار" بقيادة "دوبوك" سيدة الموقف رغم انخفاض مستوى تسليحها وتدريبها. ومع ذلك كنت ألاحظ أن أفراد هذه الفرقة المتطوعين لمدة مسيرة القافلة كانوا في الغالب هدفا لمضايقات فرقة "العاجزين" التابعة لأكجوجت سابقا التي لا يمكن أن تضاهي مستواهم بأي مقياس، فبدلا من أن ينظروا إلى هؤلاء "البولار" باعتبارهم رجالا متطوعين للقتال والسير في القافلة فقط، فقد تلقوا بدلا من ذلك المتاعب والمضايقات من الرماة المرافقين لهم لقد كنا نخترق العقود المبرمة لا شيء سوى "متعة" إهانة⁴⁷⁰ الرجال الأحرار يجعلهم يخدمون عبيدا كانوا قد أنقذوهم ولمرتتين من موت محقق، وسنرى مع بقية هذه الحكايات أن ذلك لم يتوقف عند هذا الحد. تحطمت معنويات العدو بسبب الهزيمتين المتتاليتين، ولكن لم يمنعه ذلك من

⁴⁶⁹ - أنهى "دوبوك" مساره المهني برتبة جنرال، وكتب هو الآخر مذكراته عن حقبة البطولات تحت عنوان: "موريتانيا" باريس، "فوريني" سلسلة حبر 1935. "إلا خمس" عبارة أخرى لم تعد مستعملة للتعبير عن الاقتراب من الوقوع في الخطر (والمقصود إلا خمس ثواني).

⁴⁷⁰ - "من أجل المتعة": لا، دون شك ولكن بسبب جهل لا يعترف بتاريخ وتقاليد مختلف الجماعات العرقية.

الاستمرار في مراقبة معسكر "أماطيل" والظهور حول المكان مرتين يوم 2 و 4 يناير، يبدو أن المعارك التي وقعت في نهاية دجمبر قد كبدت العدو أربعين قتيلًا ولكن لم يبق من جنثهم في ساحة الميدان سوى إحدى عشر.

من جانبنا فقدنا ضابطي صف وجرح منا خمسة ضباط وخمسة ضباط صف، وقتل خمسة من السكان المحليين وجرح اثني عشر منهم، تلك هي حصيلة خسائرنا، وكلها وقعت يوم 30 دجمبر، تم استدعاؤنا جميعًا يوم 6 يناير في المساء لتقديم مراسيم الشرف لقتلى أيام "أماطيل"، كانت القافلة بكاملها حاضرة منتظمة في شكل مربع.

سنبداً المسير باتجاه أطار، وبلغنا أن العدو قد تجمع حول "الشيخ حسنه" ينتظرنا بقوة عند مضيق "حمدون". وفي هذه المناطق من مرتفعات آدرار حصلت هزيمة "إيدوعيش" سنة 1894م بقيادة أمريهم "بكار ولد أسويد أحمد". جمعنا العقيد صباح يوم 7 يناير ليطلعنا على الوضعية العامة، فالعدو لا يتمركز فقط وسط المضيق ولكن يمكنه فضلاً عن ذلك أن يهدد جناحنا الأيسر وحتى فرق المؤخرة على مستوى "واد سكيليل" عندما نندفع داخل الممر لشق طريقنا ألح العقيد في خطابه على أن المهم ليس التصرف الإفرادي بوحدها مستقلة وإنما اللازم والضروري هو العمل حسب خطة المناورة العامة، أتمنى أن يكون الجميع قد أقتنع بتوجيهاته.

غادرنا "أماطيل" عند الساعة الثالثة بعد الزوال ولم نقطع سوى مسافة قصيرة حتى توقفنا للاستراحة مشكلين مربع المعسكر على هضبة صخرية فهبت عاصفة ثلجية مسحت الهضبة وفي الليل كان البرد قارساً ونظراً لقربنا من "حمدون" يحظر إشعال النار بتاتا فلم ينم أحد منا من شدة البرد، فكانت الأجسام ترتجف والأسنان تصطك وبطبيعة الحال لم يكن من شأن ذلك تخفيف معاناتي من آلام الروماتيزم.

وليس مثل هذه الظروف باعثاً على مواصلة النوم صباحاً، فاستيقظ الجميع في ساعات الفجر الأولى ولكن كان من المستحيل إنهاض الجمال المتسمر في مباركها ترتجف من البرد، فلا بد من انتظار طلوع الشمس من أجل الانطلاق وبالتالي لم يعد ممكناً القيام بهجوم مباغت على المضيق. ومع ذلك كان من الممكن على الأقل أن ينطلق فيلق القتال للاستيلاء على المعبر، ولكن العقيد لم يكن يريد تجزيء القافلة، فهو لا يعرف أعداد فرق العدو التي يحتمل أن نواجهها خاصة وأن مقاتلي "آدرار" أبانوا في المعارك الأخيرة عن

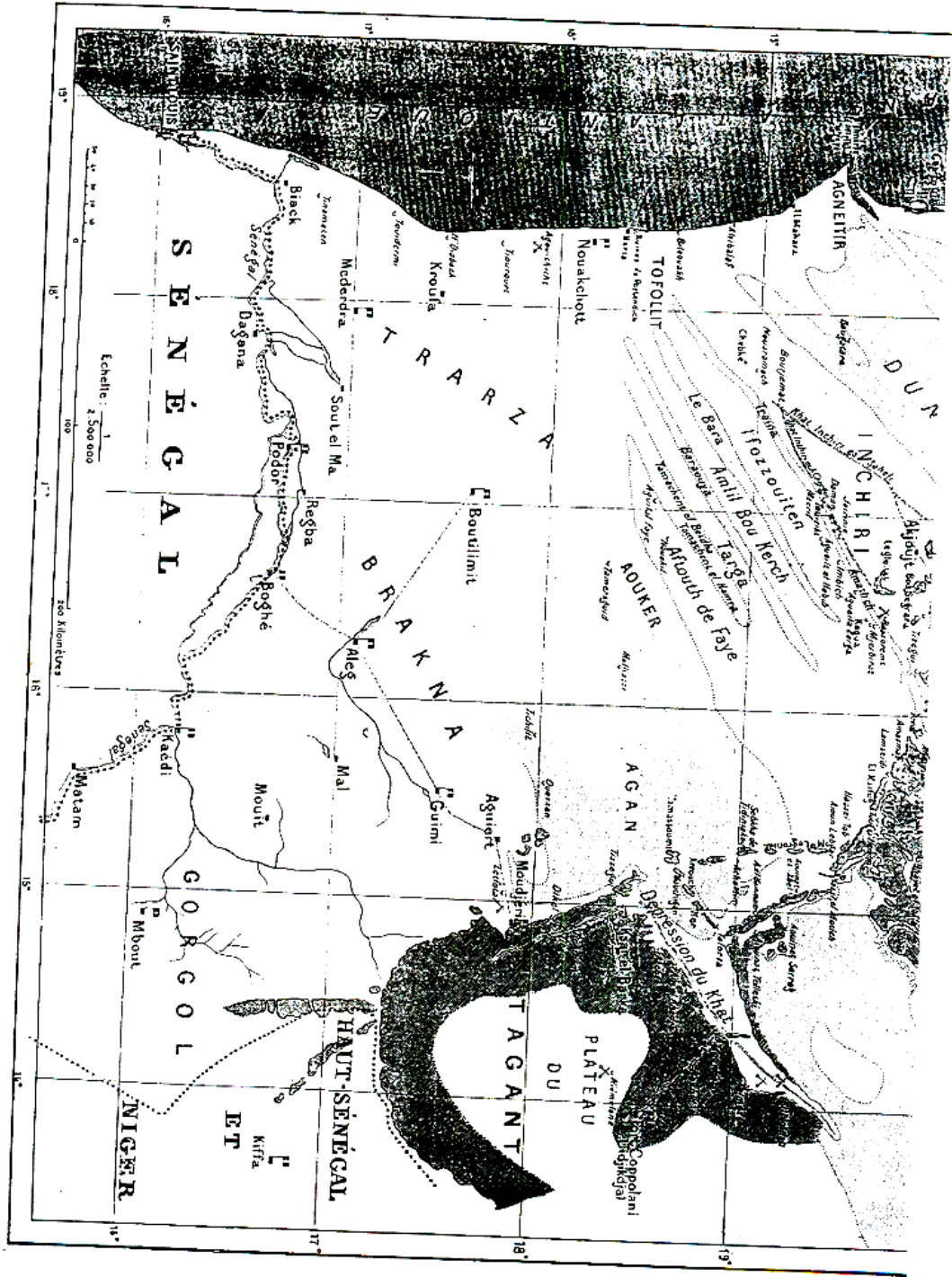
استماتتهم في القتال، ولولى ذلك لأمكننا أن نترك القافلة في المؤخرة على أن تتطلق فيما بعد عندما يكون فيلق الطليعة قد مهد الطريق وتكون الجمال المتسمة قد نهضت من مباركها بعد أن استولى فيلق القتال في الساعات الأولى للنهار على المضيق، لم تطلع الشمس يوم 8 يناير إلا عند الساعة السابعة والنصف، وفي هذا الوقت بدأنا المسير، عجز الكثير من الجمال عن النهوض فتحتم نحرها وحمل لحومها كمئونة للقافلة.

أنا اليوم أتولى قيادة الفيلق المرافق للقافلة، وتحت إمرتي مفرزة الفرسان والفرقة الخامسة وفرقة "بابلون" ونصف المتطوعين بقيادة الملازم الأول "أفيولى" ومعه مدفعان رشاشان، هذا بالإضافة إلى القافلة بكاملها، لقد أجبرتي صعوبة الانطلاق ثم السير على أرضية غير متجانسة ورملية على ترك القافلة تتمدد خطيا إلى ما لا نهاية. وعند الساعة الثامنة سمعنا طلقات نارية أمامنا ولكني لم أضبط فرقتي إلا بعد ذلك بساعة ونصف عندما أصبحنا فوق هضبة "أمراير حمدون" فدفعت القافلة داخل منخفض من الأرض وكانت الفرقة الخامسة تواجه المرتفعات الواقعة على اليسار على طول "وادي سكيليل" وكانت فرقة "بابلون" وفرقة المتطوعين بقيادة "أفيولى" في المواجهة من الخلف. وكانت المعارك مستمرة منذ ساعة ونصف تجري أولا في الجبهة الأمامية وعلى اليمين كانت فرقنا تتقدم شيئا فشيئا، ولكن إطلاق النار يزداد كثافة في وجهنا، فانطلقت فوهات المدافع الرشاشة، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف حدث ما كنا نتوقعه من هجوم للعدو في "وادي سكيليل" ولكن كان موجها ليس إلى القافلة كما كان متوقعا وإنما إلى فيلق اليسار فتمكنا من صد الهجوم. بدأ استعمال المدافع كان العقيد يسير أمامها على ناحية اليسار ومعه معاونوه المقربون أي الضابط المساعد النقيب "جير هرديت" والمترجم.

فأصيب الملازم "لتانك" وهو يتفرج بجروح بالغة في الفخذ، فحملناه إلى القافلة. ومنذ وصوله بقيت فرقة مرافقة القافلة على أهبة الاستعداد فالعدو الذي طرده فيلق القتال من المنخفض الذي كان معترضاً أمامنا قد صعد مسرعا إلى ناحية الشمال، فأتبعناه بقذائف المدفعية، وقد ارتاح "البيضان" لذلك فاستعمل هذه المدافع أمر جديد بالنسبة لهم وتحت هذا الوابل تشتت العدو جماعات في كل اتجاه... واصلت المدافع إطلاق القذائف في اتجاه الجبهة وألقت قذائف حارقة باتجاه الخلف في ممر جبلي يبدو أن العدو قد تجمع فيه من أجل إعادة التنظيم فأجبره طوفان القذائف على الفرار ولم يصمد بالدرجة التي كنا نتوقعها وانتهت

القضية، لقد استولينا على المعبر بالقوة وكانت الساعة تقترب من الثانية بعد الزوال بعد أن استمر القتال ست ساعات كاملة.

رسم "واد سكيل"



ومن باب الحيلة بقيت المدافع وفرقة الرشاشات في مواقعها فوق سهل "امراير حمدون" في حين اجتازت وحدة القتال بطن "وادي سكليل" متخذة شكل رأس الجسر نحو الجانب الآخر من "الغور" وقد لظمت ساعتان كاملتان للنزول عبر هذه الدروب الوعرة. تحت

علينا التوقف في عين المكان وسط "وادي سكيل" لقد كان الرجال يشعرون بجوع شديد فلم يتناولوا طعاما منذ مساء أمس فلا بد إذن من إعداد الوجبات، كما أن العدو قد فر فعلا مبتعدا في اتجاه الشمال لقد أصبح الطريق إلى "أطار" مفتوحا على مصراعيه.

توليت قيادة فيلق القتال يوم 9 يناير ومعى ثلاث فرق من الرماة وفرقة المدفعية وفرقة الرشاشات، ونصف المتطوعين بقيادة النقيب "دوبرتويس". انطلق بي العقيد عند الساعة السادسة صباحا، فالיום لم يعد يخشى ضررا من تجزيء قافلته، فتركنا خلفنا وحدة مرافقة القافلة التي ستنتظر حتى الساعة الثامنة لتتطلق، وكانت فرقة المدفعية في الطليعة سألني العقيد منذ متى لم أشارك في لعبة "التاتا" السودانية فأجبتته بأنني لم أمارس هذه الرياضة قط منذ الهجوم على "جنوه" يوم 12 إبريل 1893. وليس هذا بالتاريخ القريب، لقد كان "كبولاني" قد حاول سابقا في "بوتلميت" في يناير 1905 أن يعرض علي نهب "أطار" عقابا لأهله على معاملتهم لبعثة "أبلانشى" سنة 1900، ويبدو أن العقيد قد أعاد نفس الفكرة فهو يريد ترويع أهل "أطار" كما يقال في بلاد السودان، ثم الهجوم عليهم بعد ذلك ومهما كانت أهمية "أطار"، فإن بعض قذائف متفجرة تكفي لإخضاعه خاصة وأنا ناتي بعيد انتصار قريب، فكنت أرى نفسي وأنا أعيث فسادا في منزل الشيخ حسنه. وبينما كنت غارقا في هذه الخيالات تركني العقيد وعاد أدرجه ليستطلع حالة الفيلق المرافق للقافلة بقيادة قائد الكتيبة "أكلودل" واصلت تقدمي باتجاه أطار وبعد قليل جاءتني فرقة المتطوعين برجلين من "أسماسيد"⁴⁷¹ من أهل القرية، وبما أنهما يطلبان مقابلة العقيد فقد أرسلتهما إليه وواصلت المسير دون توقف.

قدم بعض المتطوعين عدوا من مؤخرة القافلة يحملون إلي الأمر بالتوقف وبعد ذلك بقليل وصل العقيد وخلفه رجلا "أسماسيد" الموفدان عن سكان "أطار" فاستجوبهما فتحدثا بأنه بعد قضية "حمدون" التي وقعت بالأمس لم يتجمع العدو من جديد، فقد وصلت فلولة الهاربة إلى "أطار" يوم 8 يناير معهم "الشيخ حسنه"، نجل "ماء العينين" وهو فار باتجاه الشمال ويقول الموفدان إنه وعد بالعودة على رأس الجيش الكبير الذي سيرسله سلطان المغرب، وحسب هذه المعطيات الجديدة قد قدم رجلا "أسماسيد" بعرض باسم "جماعة سكان القرية" من أجل الخضوع فلم يجبهم العقيد بلا أو بنعم وأرسل أمرا إلى القائد "أكلودل" بإيقاف فرقة القافلة

471- "أسماسيد" زوايا أطار، وقد جاءوا هنا في دور المفاوضات.

عند "التاشوطة" حيث تستطيع الجمال أن تجد المرعى من أشجار "الطرفة" ثم أمرني العقيد بالانطلاق فهو لم يعد يريد التوقف قبل الوصول إلى أطار وعندما وصلناه عند الساعة الثانية بعد الزوال كان العلم الأبيض يرفرف فوق دار "الشيخ حسنه" يبدو أن هؤلاء "أسماسيد" الأندال سيكسبون اللعبة فهؤلاء الزوايا كانوا إما محرضين وإما فاعلين في كافة العمليات الحاصلة ضدنا وبالأمس شاركوا في إطلاق النار عند "أمراير حمدون". بدت القرى الواقعة وسط النخيل في ناحية الجنوب شبه مهجورة فقمنا بتفتيشها لتتأكد من عدم اختفاء بضع القناصة المعادين فألفيناها خالية من أهلها أما "أطار" فقد كانت على العكس من ذلك أهلة بالسكان.

أقمنا المعسكر في ناحية الجنوب الشرقي من "لكصر" على بعد 600 متر فوق الهضبة، وفي هذه الأثناء كان العقيد يتفاوض مع جماعة "أسماسيد" لم أصادف من قبل تجمعاً في مثل هذا العدد من أشباه اللصوص ذوي الهيئة القذرة. وصحيح أنني أحكم عليهم هنا تحت تأثير الغضب من الظروف المحيطة بي.

يبدو أن "أسماسيد" الذين كانوا ضمن أعدائنا بالتأكيد سيتخلصون منا بمجرد دفع غرامة حرب تدفع من التمور ويمكن أن يساعدنا ذلك ونحن نفكر بأن العقيد سيتلقى أوامر من الجهات العليا، فالسياسة شأن عجيب.

توجد عيون الماء في أطار فقمنا بإحصائها واحات النخيل كبيرة ورائعة وفيها زراعة القمح والشعير كما هي الحالة في تجكجة فصادرنا المنازل المهجورة وفتشناها فعثرنا على المسدس الأوتوماتيكي الذي فقده الملازم "أجوينو كامبتا" (وهو اليوم برتبة عقيد). وقد سرق المسدس أثناء فشل بعثة "أبلانشى" كما عثرنا على أشياء مختلفة من ممتلكات النقيب "مانجين" صاحب الحظ العاثر وحتى بعض أشياء الملازم "كوسبي"⁴⁷² الذي كان عضواً في القافلة، كل ذلك عثرنا عليه صباح يوم 10 يناير.

تلقيت أمراً في المساء بإعادة تشكيل فرقة إينشيري السابقة بدون الرشاشات وأن أبعث من يستكشف الوضع في ناحية الشمال الشرقي في الوقت الذي يتوجه فيه النقيب "بابلون" بفرقته بالإضافة إلى أربعين من المتطوعين ليقوم بدورية استكشاف أخرى في ناحية الشمال الغربي يتعلق الأمر بالبحث عن القوات التي يحتمل أن العدو ما زال يحتفظ بها في "واد

⁴⁷² - كان عضواً في قافلة "كوررو" وقد تم ذكره عدة مرات في كتاب الجنرال "كوررو": "موريتانيا آدرار".

أطار" وتلقينا أمرا بالعودة عبر غابة النخيل إن أمكن ذلك على أن تلتقي الدوريتان عند "أكصير الطرشان" القرية الواقعة شمال "أطار".

انطلقنا عند الساعة الواحة صباحا من ليل 10-11 كنت أسير في اتجاه "أمكجار" وفي الصباح وجدت جماعة من الطرشان وسط "أكرارة"⁴⁷³ يتبادلون إطلاق النار مع فرقة المتطوعين المرافقة لي. قتل ثلاثة من الطرشان واستولينا على سلاحهم بينما فر الآخرون في اتجاه معبر "أمكجار".

يتعين أن أتلقى بأكبر قدر من الحذر، وبما أن المنطقة التي نوجد فيها خالية من نقاط الماء فقد قررت العودة بفرقة المتطوعين باتجاه الشمال الغربي، وتوقفنا للمقيل عند الزوال وبعد ذلك بقليل التحق بي رجلان من "أولاد أبييري" مبعوثين من العقيد، وهما عائدان من مقابلة "أوانا ولد محمد الديك" رئيس "جماعة الطرش" يقولان إنه ما زال يعتزل الموقف مع أن "الشيخ سيديا" كان قد أرسل له قبل قليل يدعو إلى الالتزام بموقفه السابق الموالي للفرنسيين، وبالفعل كان "أوانا" قد عرض الدخول تحت سلطة كبولاني سنة 1905م.

عدت إلى أطار مساء 12 يناير (بعد أن مررت بـ"أكصير الطرشان" حيث ذكر لي قوم من المنشقين اترارزة مع "ولد سيد") بعد أن تجولت في غابة النخيل مرورا بساحة المعركة حيث انتصر اترارزة بقيادة الأمير "محمد لحبيب"⁴⁷⁴ على أهل "آدرار" سنة 1849م. حكى لي عجوز من "أولاد دمان" من فرقة المتطوعين تفاصيل هذه المعركة التي قال إن والده قد قصها عليه آنذاك وهو طفل. وجدت معسكر القافلة على مشارف أطار وهو في حالة تحول كامل فقد اتخذ هيئة الحصن الروماني حيث أحاطوه بخنادق وكانت المدفعية والرشاشات منصوبة في أركانها وهو المعسكر الذي سنقيم فيه. منح العقيد رجاله استراحة يوم 13 يناير واستغلها لتصحيح النقص الحاصل في حصص الغذاء المقدمة لأفراد القافلة مستخدما كميات الذرة التي حصدناها في "غسرمت". توافد رجال "أسماسيد" من "لكصر" ليتجولوا بين رجالنا عارضين عليهم التمور بأسعار باهظة فربح مكيال بسعة لتر بثمن أفرنك⁴⁷⁵ واحد، لقد كانوا

⁴⁷³ - أكرارة: سهل غربي صالح للزراعة تنبت فيه الأعشاب والنباتات.

⁴⁷⁴ - محمد لحبيب واحد من أشهر أمراء اترارزة (1827-1860م) هذه الشهادة التي حصل عليها "افيرير جان" مفيدة جدا. كان محمد لحبيب قد هاجم نخيل أمير آدرار عالي ولد عيده ولكن أولاد يحيى بن عثمان قد تابعوه سنة 1856م، فهل يتعلق الأمر بنفس القضية التي يتحدث عنها "افيرير جان" ولكن محدثه قد أرخ لها بسنة 1849؟

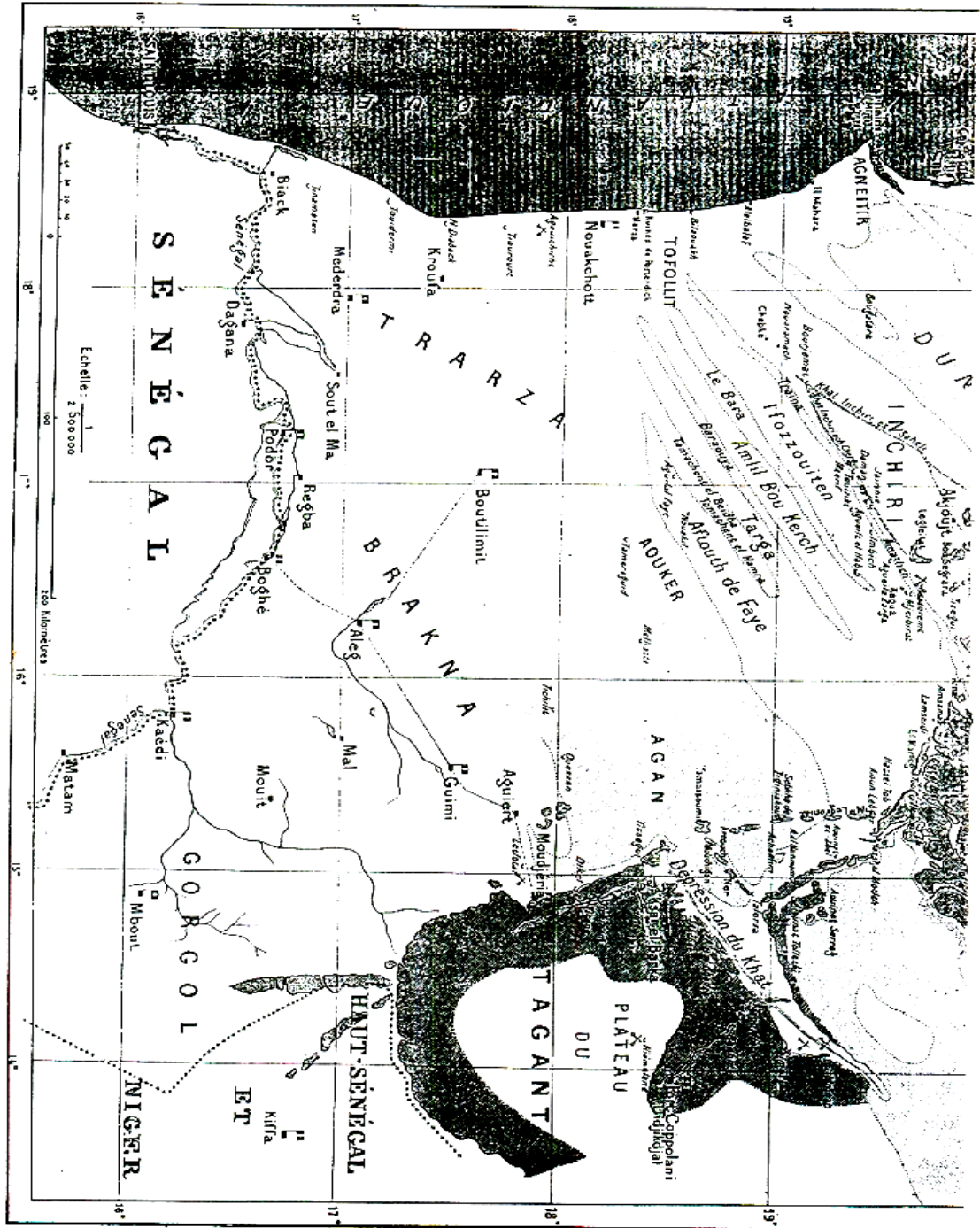
⁴⁷⁵ - يتعلق الأمر بأفرك من الذهب الخالص وهذا ثمن باهظ بطبيعة الحال.

محقين في استغلال شره هؤلاء الزوج فاشترى منهم جميع ما معهم من هذه الفاكهة الحلوة المحنطة مهما كان الثمن، وعندما نفذت نقودهم فعلوا تماما مثل ما فعله أسلافهم في "تتمبكتوا" سنة 1894م وأسلافهم في "أتشاد" كما هي حالهم في كل مكان فقد كانوا يبيعون ما لديهم من ذخيرة قتالية حتى وإن كانت ستعود إليهم فيما بعد من العدو في شكل رصاص يخرق أجسادهم. إن من الخطر المحقق أن نترك هؤلاء الباعة يتجولون داخل المعسكر، فكثيرون منهم يتجسسون لحساب العدو ولم نلبث أن اكتشفنا أن واحدا من تلاميذ "ماء العينين" قد بقي مختفيا في لكصر دون أن نشعر به فوجدنا لديه ما يشبه الوكالة المكلفة بشراء الذخيرة كما وجدنا في العديد من الأكواخ مستودعات حقيقية لتخزين الذخيرة.

عاد النقيب "بابلون" يوم 13 يناير عند الزوال بعد أن بلغ السلسلة الجبلية المحاذية لآدرار من الغرب، وكان أحسن حظا مني فقد تبادل الطلقات النارية مع "إيديشلي" أثناء مرورهم من معبر "أمكجار" وانتزع أمتعتهم واستولى على ثلاث بنادق كما أنه شاهد "أزوكي" حيث مجموعة من الأطلال يزعمون أنها تابعة للبرتغاليين في القرن الخامس عشر، ولم يعد مرئيا منها سوى أسس القصر القديم الذي أصبح الآن في مستوى الأرض. بدأ قادة الجماعات المنشقة يتوافدون من أجل الاستسلام. يبدو أن ذلك أصبح وشيكا ليست عقلية أهل "آدرار" مثل عقلية من عرفتهم سابقا من الأعداء في "تكانت" من "إيدوعيش" قد يكون أهل "آدرار" أكثر جدا وكذا ولكنهم أكثر تواضعا ولكن أشكالهم قبيحة بالمقارنة مع قامات رجال القبائل الحاملة للسلاح في الشرق.

رافقت العقيد صباح 13 يناير لمعاينة ووضع حدود مكان المركز المقبل الذي سيصبح فيما بعد قصرا حصينا من الحجارة. كيف؟ ألم أكن أعتقد، بناء على تصوري لأهداف الحكومة، أننا لن نستقر في هذه المنطقة؟ هذه على كل حال فرصة لشغل وقت النقيب "دورويل" الذي تؤهله مهاراته أثناء إقامتنا عند "بارجيمات" لأن يصبح رئيس الهندسة في القافلة ومن الغد أي يوم 14 يناير انكب النقيب على مهمته وبدأ يشرف تحت أوامر العقيد نفسه على رسم مخطط المركز الذي سيتم بناؤه، سيتم أخذ مواد البناء من صخور وتربة مهياة من حطام المنازل الموجودة في غرب لكصر.

رسم لمركز أطار



كنت مساء يوم 13 يناير أتجول داخل "لكصر" ومن سوء الحظ أن "دبوسي"⁴⁷⁶ كانت بيدي حين اصطدمت في أحد الأزقة يقوم بوجوه شاهبة حاولوا بحركاتهم إجباري على التراجع ليتجاوزوني ولكني رفضت مستخدما هراوتي. فحصل أن ضربت أحدهم تبين فيما بعد أنه "رئيس"⁴⁷⁷ "الشيخ سيديا" في أطار، ذلك ما أخبرني به العقيد الذي توجه إليه هذا الشخص الوقح مباشرة مشتكيا مني.

يعتبر أهل آدرار أنفسهم من ذوي الحظوة لدى السلطة، فلست إذن أول أوربي سيشتكونه لدى السلطات العليا ويبدو أنهم قد حصلوا على مبتغاهم... والحقيقة أنني أضايق بعض أصحاب الامتيازات بحجة أنني لست الوحيد الذي يتعرض للمضايقة، والقائد "أكلودل" يدرك هو الآخر الاتجاه الذي يأتي منه التيار المعاكس. إلا أنه تم إبعاده، أما أنا ففضلوا الاحتفاظ بي. شكلوا لزميلي يوم 15 يناير أول مفرزة متوجهة إلى الجنوب من فرقتين ووحدة ورشاشين وبعض الفرسان وعشرين من المتطوعين وسيأخذ معه قافلة من المسافرين ويتوجه إلى هناك بحثا عن ما نحتاجه من مؤن غذائية، فما لدينا يكفي لغاية 21 فبراير. لقد بدأت القافلة الرئيسية تتجزأ مثلما حصل في زمن "كبولاني".

غادر النقيب "بابلون" يوم 17 يناير ومعه فرقتان وأربعون من المتطوعين في اتجاه مجهول. يبدو أن التجارب الحاصلة من بعثة "كبولاني" لم تفد شيئا، فالمعسكر هنا شبه خال من الحراسة، إلا ما تقدمه الفرقة الخامسة ومجموعة الجمالة بقيادة "بلومبيون" فالعقيد تحت رحمة أية ضربة مشابهة لتلك التي تلقاها "كبولاني" في تجكجة. والمعسكر يعج باستمرار بمجموعات البيضان إما من المنشقين القادمين للدخول في طاعتنا وإما من أهل "لكصر" القادمين من أجل التجارة والسرقة. أخذت على نفسي اتخاذ مبادرة إقامة سياج من الأكياس حول خيمة العقيد فوافق العقيد على هذا الحل.

وباستثناء من هم على اطلاع بمجريات الأمور لأنهم يقضون وقتهم في ترصد الأخبار فلا أحد يعلم شيئا، لقد كان الوقت طويلا لدرجة مملة وكنت مكلفا بالنظام داخل المعسكر وخدمة الأمن المقرب للعقيد، وهي مهمة تماثل مهمة المساعد حين يتولى المناوبة في الثكنة فوظائفي لا تترتب عليها أهمية ولا اعتبار.

⁴⁷⁶ - هي العصا التي استخدمها لتوجيه الجمل.

⁴⁷⁷ - رئيس: أي ممثل.

كنت أشغل وقتي حسب المستطاع، فأقرأ وأسبح في خيالاتي ثم أذهب إلى "لكصر" بحثاً عن بعض "أولاد بالسباع" الذين حصلت لهم من العقيد على إفادات حماية لمنازلهم فبواسطتهم أحاول ربط الاتصال بمجموعة "أولاد بالسبع" المنحدرة من الجنوب والذين بلغني أنهم عند "أركيه" حول "تورين" وهكذا حصلت على أخبار صديقي القديم "سيدي ولد البخاري" الذي ما زال حياً أما "الشريف عبد الرحمن" فقد قتله "أركيبات" في معركة "فشت" حيث سحق "أركيبات" و"أولاد عمي" و"أولاد غيلان" أربعة وثمانين من "أولاد بالسباع" كما أن "عبد الله ولد بويعدل" و"السيد ولد باب ولد لحريطان" قد قتلوا بالرصاص كذلك، كما حصل الكثير من "أولاد بالسبع" المنحدرين من "اترارزة". عثرت على رجل من "أسماسيد" عرض علي استعداده لإيصال أي رسالة إلى "أولاد باسيع" فأذن لي العقيد بالكتابة إليهم، فكتبت إليهم وكلي غبطة بذلك.

عادت قافلة "بابلون" يوم 23 يناير وكانت قد تلقت قبل ذلك بيومين عند "النيجان" في سهل "يغرف" طلقات نارية من "إيديشلي" بقيادة "بوسيف" الذي كان في ذلك الوقت في "أطار" يقدم استسلامه، فردت القافلة مباشرة وكسبت الموقف، فحين لاحظ "إيديشلي" أن الأمور لا تسير في صالحهم، أخرجوا ورقة من العقيد مما اضطر النقيب "بابلون" إلى وقف إطلاق النار وزاد على ذلك بأن أعاد لهم الأسلحة التي كان قد استولى عليها في المعركة.

ويتعلق الأمر بمجموعة المتطوعين القدماء من فرقة "إينشيري" الذين ساروا سابقاً مع النقيب "دوبورتويس" تحت أوامر النقيب "بابلون" وقد عادوا غاضبين يشنون سوء المعاملة الذي تلقوه من الأوربيين. جاءوا يشنون إليه ويطلبون مني إشعار العقيد بأنهم يريدون تسليم بنادقهم والعودة إلى أهلهم. فيكفي حسب ما يقولون أنهم أجبروا على الخدمة على قدم المساواة مع خليط من "لحراطين" و"أزناكه" وحتى "العبيد" وقد فعلوا ذلك ولكن ما لا يمكن أن يقبلوه هو أن يتعرضوا للضرب والشتم أمام هؤلاء. فأقنعتهم أولاً بالتراجع عن مسألة تسليم الأسلحة والمغادرة ثم بعد ذلك أحاول عرض طلباتهم على العقيد. وعلى كل حال فجماعتي من "العلب" و"أولاد دمان" لم ينخرطوا معنا من أجل الخدمة مغمورين ضمن الخليط القادم من "تكانت" وإنما جاءوا للعمل معي شخصياً وهم يحنون إلى حصصي الغذائية وطريقي في معاملتهم.

أدرك العقيد بنفسه صعوبة الاعتناء بالجمال فلا عشب في ضواحي أطار ولا شجر تقضمه هذه الحيوانات المسكينة، فأصبح من اللازم أن تبحث عن المرأى على بعد 20 كلم إلى جهة الشمال تحت حراسة إحدى الفرق، ولم يمنعها ذلك من الذبول والهزال. كانت القافلة الرئيسية

وهي قادمة من النهر باتجاه "تكانت" قد أضاعت قرب "أويرت" شمال "لبراكنة" أربع بنادق رشاشة، كنا نعتبرها مفقودة إلى الأبد. إلا أن جماعة من "إيديشلي أركرود" قادمة لدخولها تحت سلطتنا أعلنت أنها عثرت على البنادق وحملتها إلى مناطقهم الجبلية، ولم يستطيعوا أبدا استعمالها وقد صرحوا باستعدادهم لتسليمها لنا حين نمر عليهم. جاء الدور يوم 28 يناير على النقيب "دوبورتويس" ليجرب حظه، فأخذ ثلاثين من المتطوعين مع فرقة الجمالة التابعة لـ "أبلومبيون" واتجه نحو الشمال حيث يوجد في مكان غير بعيد جماعة من "أركيبات" أصحاب الأكباش ذات الصوف والجمال.

إلا أن النقيب "أبلومبيون" حين بلغ "شار" أخبر أن رجاله (وهم من الزنوج)⁴⁷⁸ لم يعودوا يستطيعون التوغل بعيدا. ورغم اعتراض ضباط الجمالة فقد اضطر النقيب "دوبورتويس" على مضض إلى أن يعود أدراجه يوم 4 فبراير. وفي هذا الوقت كان النقيب بابلون في مهمة استكافية يوم 31 يناير وأعاد الكرة يوم 5 فبراير، وكانت النتائج سلبية دائما، فالحظ لم يبتسم له. تواصلت الوفود القادمة لاستسلام وكان بعضها على درجة من الغرابة كوفد "بكار ولد الشيخ" قائد "إيديشلي" الذي كان يتبجح بأنه قتلني أنا و"المحرز" وها نحن نقف الاثنين عند بوابة المعسكر الذي يدخل فيه، كانت ملامح وجهه دقيقة توحى بالنشاط ولكنه كان مصابا بالغرور.

حدثت استسلامات أخرى ذات طابع مخزي:

- "أولاد سياسي" الذين غدروا بـ"مانجيه" وكانوا قد استسلموا مرة سابقة؛
 - "أولاد التناكي" وهم القتلة الأساسيون "لكبولاني"؛
 - "أغلل شنقيطي" وهم المحرضون على سوء المعاملة الذي تعرض له "أبلانشي" ورفاته.
- لقد تم استقبال هؤلاء جميعا وكان كل يوم يشهد قدوم وفد جديد كأنما أصبح الناس في سباق نحو الاستسلام، وبما أن هذه الاستسلامات لم تكلف كثيرا فقد كنت أخشى عدم إخلاص أصحابها.

سمعنا أن "الحركة"⁴⁷⁹ التي يقودها الأمير قد تكون في الوقت الحالي دخلت "إينشيري" وتوجد في مكان ما غرب أو شمال غرب "أكجوجت" فقد تلقينا أخبارها من صديقنا رئيس "أهل

⁴⁷⁸ - الزنوج يخافون فعلا من الصحراء، فهم يتأثرون بالجفاف أكثر من البيط.

⁴⁷⁹ - الحركة: فرقة كبيرة ممن يركبون الجمال أو الخيل.

باركلل" "محمد ولد احمد مسكه" فقد قدم إلى "أطار" يطالبونها بقضاء ماله من دين علينا، ورجع إلى قبيلته وجيوبه منتفخة ولكنه التقى جماعة الأمير أثناء مروره بأكجوجت، فجردوه تماما مما عنده.

علمنا يوم 8 فبراير أن الشيخ "حسنه" قد عاد إلى الأمير من جديد ويعني هذا وجود جيب للمقاومة. قدمت قافلة الجنوب يوم 11 فبراير بقيادة "أكلودل" وبأمر من حاكم دائرة "تكانت" لم تأتتا هذه القافلة بالمواد الغذائية، مما يحتم علينا إرسال من يأتي بقافلة ثانية من عند المسيو "أكلوزل" حاكم أعالي "السنغال" و"النيجر" ومع هذه القافلة سيقدم إلى آدرار الملازم "باكت" صحبة نصف فرقة الجمالة التي عملت معي سابقا في "كيفة". اغتتم العقيد فرصة تحرك الفرق الضرورية لإرسال النقيب "أبلومبيون" إلى "كوركل" في جولة في الاتجاه الآخر، وراففته أغلبية المتطوعين من "إيدوعيش". وسأقول كلمتين بشأن هؤلاء.

لقد كان اليوم الأول من يناير 1909م الذي التحمت فيه مع قافلة آدرار هو أول يوم أيضا ألتقي فيه جماعة "إيدوعيش" منذ واقعة "بوكادوم".

لقد كانت علاقاتي السابقة معهم غير ودية طبعاً، وهذا هو سبب ما لديهم من تحفظ، ومع ذلك تم تجاوز حرج اللحظات الأولى. وفي أحد الأيام قدم إلي "بوسيف ولد عثمان" أحد رؤساء فرع "اشراتيت" من "إيدوعيش" مع جماعة من قومه وطلب مني أمامهم بنبرة تبجح أن أقول له انطباعاتي عن "إيدوعيش". ولم أجد الوقت لصياغة جواب دبلوماسي فقلت له "إيدوعيش" هم القبيلة الوحيدة من "البيضان" التي تجاسرت على الصمود أمامي على بعد أربع خطوات".

كان ذلك جواباً تلقائياً: ومن الممكن أن أكون قد أحسنت الرد لو فكرت قبل إعطاء الجواب، فمن بين الحاضرين متطوعون من أصول أخرى، ويمكن "إيدوعيش" أن يتبجحوا أمامهم فقد حصلوا على تقدير فخري أمام الملاء وهذا أفضل ما يحلم به حملة السلاح من البيضان. منذ ذلك اليوم أصبح "إيدوعيش" يعاملونني باحترام وتقدير. فقد جمعنا في السابق أيام الجفاء وأصبح كل منا يقدر الآخر. استعداداً لمغادرة الفرقة الوشيكة لاستقبال القافلة القادمة من السودان توجه النقيب "بابلون" إلى "أماطيل" يوم 14 فبراير، وهناك شكل مفرزته من الفرقة الثالثة (فرقة الخاصة) ومن فرقة الجمالة التابعة "الأبلومبيون" ومجموعة المتطوعين القادمين من الشرق والمهيئين للتسفير مع الفرقة السابقة للرشاشات في فرقة "إينشيري"

وستشتمل هذه الفرقة الضخمة على 334 بندقية وستتجمع عند "النيجان" غرب "أماطيل" حيث ستعد معسكرا معزولا لإقامة العقيد. ترك هذا الأخير الرائد "أكلودل" يوم 17 فبراير عند أطار ومعه 250 بندقية ومدفع. كما بقيت معه ثلاث وحدات من فرقة "دوروي" تحرس كمية كبيرة من المؤن، ولدى الرائد "أكلودل" أمر بالإسراع في بناء المركز.

غادر العقيد شخصيا أطار يوم 17 فبراير وكان المتطوعون قد أصبحوا مع النقيب "دوبرتويس" في معسكر "النيجان"، اشتملت فرقة العقيد عند انطلاقها من أطار على الفرقة الرابعة والوحدة التابعة للملازم "أبلور". اقتفيت أثر العقيد الذي أصبحت منذ ذلك الوقت أتتول معه الوجبات. دخلنا معسكر "النيجان" يوم 19 فبراير حيث وجدنا النقيب "دوبرتويس" ومعه الفرقة الثانية ومدفع وأربعة وعشرون من المتطوعين وهكذا ستشمل فرقتنا بعد تشكيلها عند "النيجان" 396 بندقية، ولكن ما نتوفر عليه من المواد الغذائية يكفي فقد لغاية 20 مارس.

كان النقيب "بابلون" قد غادر "النيجان" يوم 17 فبراير متوجها إلى "أماطيل" وأخذ معه كافة الجمال ذات الوضع الجيد وهكذا لم يعد العقيد يستطيع المسير لمهاجمة الأمير "ولد عيده" فتحتم عليه ونحن معه أن ينتظر تحسن وضعية الجمال في منطقة "يغرف" هذا مصدر آخر للمضايقة بالنسبة لي، أنا الذي كنت أتمنى أن أنجز أخيرا عملا مهما خلال هذه القافلة. وما كاد العقيد يصل "النيجان" حتى تراءى له "محمد ول المعيوف" رئيس "أولاد أكشار" وهو أحد رؤساء القبائل كان قد قام أثناء مروري "بأكيلال فاي" بفتح باب الاستسلام في أوساط القبائل، وهو قادم للانضمام إلينا بالفعل، وقد قدم هو وقبيلته دعما حاسما للقافلة، ومنذ ذلك الوقت كان "أولاد أكشار" دائما في المقدمة. تلقيت يوم 21 فبراير أمرا باحتياز مرتفعات "إيبي"⁴⁸⁰ الجبلية من الشمال إلى الجنوب، من أجل إيصال تموينات أصبحت ضرورية لفرقة "بابلون" وأذهب بعد ذلك لاستلام البنادق الرشاشة وتأكيد السيطرة على الجبل الذي لم نتمكن من التغلغل في منطقتة منذ حادثة 27 دجمبر الأخير.

أعاد إلي العقيد فرقة الأربعين متطوعا التي عملت معي في السابق والفرقة الرابعة وربما أنجز المهمة دون إطلاق أية رصاصة وإذا لم احتج إلى القتال فسأكون على الأقل سيد

⁴⁸⁰ - جبل إيبي: مرتفعات جبلية تتجه من الغرب إلى الشرق على طول 70 كلم تقريبا وعرض 20 كلم.

الموقف مدة أيام بعيدا عن هذه المضايقات اليومية كما أنني سأتمتع بمشاهدة مناظر جديدة خلابة.

انطلقت عبر سهل "يغرف" متوجها رأسا عبر المسيل إلى "فوشت" وقد تحتم على حامل البريد أن يسرع خلف النقيب "بابلون" ليبلغه الأمر بانتظاري عند آبار "أمراز". توقفت للاستراحة مساء يوم 21 على السفح الشمالي لجبل "إيبي" في المكان المسمى "أم أزريبه" وهو بالضبط المكان الذي قتل فيه صديقي الشريف عبد الرحمن مع أربعة وثمانين من أولاد بالسبع على يد تحالف "اركيبات" و"أهل آدرار". كانت الألواح الصخرية متناثرة هنا وهناك وسط السهل عليها إشارات قبور القتلى.

أرسلت فرقة المتطوعين صباح 22 فبراير لتستطلع أمر الوادي والمضيق الذي يشكل مسيل "إيبي" ولم تكتشف ما يثير الشك، مع أن المكان يعتبر مهلكة حقيقة، ويسمى "تيفوجار" وهو أكثر طولاً وضيقاً وعمقاً إلا أنه مغطى بالمحار بدل الرمال المتحركة. وبعد استطلاع المكان واتخاذ الإجراءات الاحترازية العسكرية بدأنا نقل الأحمال الستين على الأيدي والواحد تلو الآخر إلى المكان الذي حددته لإقامة معسكر الاستراحة، ثم قاسينا من الثانية بعد الزوال إلى الساعة التاسعة ليلاً دفع الجمال عبر المنحدر لكي نجتاز بها إلى مكان المعسكر، أبرقت السماء وأرعدت عند الساعة الخامسة مساءً، تلت ذلك عاصفة ومطر خفيف ثم أقبل الليل ولفنا الظلام الدامس ولم يكن من شأن ذلك أن يسهل سيرنا إلى الأمام. أمضينا صبيحة 23 فبراير فوق هضبة "إيبي" نجففت أمتعتنا تحت الشمس وانطلقنا في حدود الحادية عشرة عبر منحدر الصخور والحفر مما أجبرنا على الانحراف يمينا وشمالا في خط متعرج لكي نجتاز العراقيل لنصل إلى قمة الهضبة. تراءى لنا "أماطيل" يوم 24 فبراير وشاهدنا في ناحية اليسار الكثبان الرملية الصفراء تتسلق الجبل الأسود الذي يفصلنا عن "تيفوجار"، اجتزنا الكتيب تغوص أقدامنا في رماله الرخوة حتى وصلنا "المداح" في الناحية الغربية من "وادي الحمان".

المداح "أكصر" صغير يقع تحت واحة نخيل ذات منظر خلاب. ولكنها تبدو مهجورة، أقمنا حول البئر للاستراحة، وكانت إلى ناحية الشمال منا واحة نخيل "انيامه" التي يملكها "الشيخ سيديا" يبدو الوادي غنيا بالتمور كما أنه منطقة جميلة، ولم أكن أتصور أن جبال "إيبي" الموحشة يمكن أن تخفي منطقة على هذه الدرجة من الجمال. وصلنا "تتموررت" يوم 25 فبراير كانت المراعي كثيرة ولكن المياه معدومة في الآبار ومن أجل الاحتياط لطريق

العودة قمنا بحفر بعض الآبار القصيرة "العقله" وجدنا فيها ماء غزيرا قررت الإقامة حوله للاستراحة بدل المغادرة فورا. وصلت "أمراز" يوم 27 فبراير عند الزوال، كان النقيب "بابلون" في عين المكان مع جميع رجاله، وقد استلم البنادق الأربع الرشاشة من جماعة "مكروود". قمنا بفحص أنظمتها الميكانيكية فوجدناها سليمة، تناولت الشاي مع رئيس "مكروود" ونجليه، كانت له سحنة أحد ملاك الأراضي الزراعية في "بوركيون" كان يتقن الاحتراف والمعاملة الودية، وهو أول واحد من "البيضان" لاحظت عنده مثل هذا السلوك. قضينا الليل عند "أمراز" ولكن وقتنا كان محدودا بكمية المواد الغذائية المحسوبة بدقة.

غادرت يوم 28 فبراير في المساء في حين ابتعد "بابلون" وفرقته في الاتجاه المعاكس. قررت المرور من جديد عبر "تتمرورت" بدل السير إلى "الواد لبيظ" إذ لا يوجد معي دليل لهذه الطريق. بينما كنا في "تتمرورت" صبيحة اليوم الأول من مارس سمعنا صوت طلقة مدفع من بعيد. ذلك ما شعرنا به جميع: فخطر لنا أن العقيد قد تعرض لهجوم! ولكن معه على الأقل مائتي بندقية، تملكنا قلق شديد فانطلقنا باتجاه معسكر العقيد قرب "الطنطان" ووصلناه صبيحة 4 مارس بعد أن مررنا بمخيم "أولاد أكشار" المتحالفين معنا والذين يشكلون مراكز متقدمة للحماية. لم يطلق العقيد أية رصاصة من مدفع ولم يتعرض لأي هجوم، وحين سألنا "البيضان" من أهل "آدرار" أخبرونا أنهم كثيرا ما سمعوا مثل هذه الانفجارات داخل جبال "إيبي". فهل هي أصوات انفجارات بركانية؟ خاصة وأن الحمم الصخرية توجد في المنطقة أم يتعلق الأمر فقط بجلمود صخر منفجر؟⁴⁸¹

كان معسكر العقيد يتوسط موقعا خلافا في سفح هضبة "الطنطان" الصخرية المعزولة، وكانوا أثناء غيابي قد استقدموا مؤنا غذائية من أطار ليتمكنوا من الصبر حتى تصل القافلة القادمة من السودان، ولكن جمال الفريق كانت تذبل من الهزال يوما بعد يوم. سمعنا أن الأمير يعيش عزلة متزايدة "قالشيخ حسنه" قد انفصل عنه وذهب حسب ما يزعمون في استقبال الجيش المغربي الذي يتحدثون عنه منذ زمن طويل كما أن "أكصور"⁴⁸² "شنقيطي" و"ودان" في ناحية الشرق قد قدمت مستسلمة أمام العقيد. كما أن الشجاع "محمد ولد

⁴⁸¹ - يبدو أن هذا الاحتمال الأخير هو الأصح، فكثيرا ما تنفجر الصخور بفعل الحرارة المرتفعة.

⁴⁸² - (مفردها أكصر): قرى أو تجمع من المباني المشيدة من الحجارة يتقرى فيها السكان. "أولاد أكشار" قبيلة عريقة من قبائل الإمارة في آدرار مثل "أولاد عمري".

المعيوف" قد نظم فور استسلامه مجموعة من "أولاد أكشار" لنهب ممتلكات الأمير وعاد يوم 2 مارس بغنيمة صغيرة.

لابد من خلاصة: لقد وجد العقيد نفسه مجبرا على عدم الحركة بسبب نقل الجمال وهو يحاول بشتى الوسائل إنقاذ ما تبقى منها ولا وجود لأدوية تعالج الجراح فاضطررنا إلى معالجة الجمال بالكي كما هو معروف لدى "البيضان"، وكنت أخفي وصفا لهذه العملية كان النقيب "الابرين"⁴⁸³ قد أرسله إلي سنة 1903م، فأعطيته للعقيد الذي قام بإشاعة أمره بين الحاضرين. اغتطنا فرصة الاستراحة غير المبرمجة في معسكر "الطينطان" لقضاء الوقت في تدريب الضباط وضباط الصف على صيانة وإعداد واستعمال البنادق الرشاشة.

توالت الوفود المستسلمة كل يوم. فقدم فرع كبير من "أولاد غيلان" معلنا توبته وكذا الحال بجزء هام من قبيلة الأمير: "أولاد عمي" فأصبحت لدينا جمال، وسينتهي أمر المنشقين الآخرين بعد فترة وجيزة. ستتأخر قافلة السودان مدة أربعة أيام وهكذا بدأنا تقسيط الوجبات فور يوم 11 مارس لكي نتمكن من الانتظار حتى يوم 24 من نفس الشهر، ولم نعان كثيرا فإذا قلصنا حصة الأرز فسنزيد حصة اللحم.

علمنا فجأة أن "اركيبات" قد اقتربوا من أكجوجت، ولكي لا أفوت فرصة استدراجهم لابد من استغلال وجودهم هناك لكي نتفادي مزيدا من التعب وطول الطريق. شكل النقيب "دوبورتويس" والملازم الأول "أفيولي" فرقة من 95 مسلحا من جماعة "ولد المعيوف" و15 من الرماة على الجمال. انطلق النقيب "دوبورتويس" يوم 14 مارس.

غادرنا معسكر "الطينطان" يوم 16 مارس مجتازين سهل "يغرف" ونحن نقترّب من قافلة المؤن القادمة من "السودان"، قام العقيد يوم 17 مارس باستعراض القافلة فوق ساحة معركة "أعكيلة الخرشبه" حيث سقط الشجاع النقيب "ربوكس" بعد أن نصب صليبا بواسطة قصبتي مدفع على التل الذي قتل فوقه الفقيد. واصلنا المسير على مهل...

اتجه العقيد يوم 19 مارس نحو الجنوب مع قسم من فريقه وتركني مع الفرقة الرابعة عند عين "إيريكي". توجه العقيد إلى "تيزكي" في منحدر "أمطليش" ليلتقي هناك بالنقيب "دوبورتويس" الذي عاد إلى هذا المكان يوم 19 بعد أن قام يوم 17 عند صابون اجريف

⁴⁸³ - منظم الحملات الأولى عبر الصحراء. وقد أصبح جنرالاً في ما بعد.

بمهاجمة مخيم "أولاد عمري" المنشق واستولى منه على 60 جملا و1700 من الكباش. ليست هذه غنيمة كبيرة ولكنها الغارة الأولى التي حققتها فرقة العقيد.

انطلقت فرقة استكشافية من المتطوعين يوم 20 مارس في استقبال قافلة السودان، وكان نصف القافلة من الثيران الحاملة للأثقال وهو ما جعل سير القافلة بطيئا، كان العقيد قلقا جدا بشأنها ولذلك ما يبرره، فمسير القافلة الرئيسية بكاملها مرتبط بقافلة المؤن. تلقى العقيد يوم 22 مارس خبرا مفاده أن القافلة ستكون من الغد عند آبار "أرنا" حيث يوجد هو نفسه، فتبدد قلقه.

لقد اضطرت قافلة السودان إلى التخلص من الكثير من الأثقال أثناء الطريق وقبل شهرين كنا نتخلص من ثقل واحد على الأقل. تلك هي فاتورة القوافل الكبرى.⁴⁸⁴

انطلق النقيب "بابلون" يوم 29 مارس لاستكشاف آبار "تابرنكوت" و"غسمرت"، كما غادر النقيب "دوبورتويس" ليل 29-30 مع ثلاثة ضباط (الملازمون "باكيت" و"أبلور" و"أفيولي") وثمانية ثمانية من الجمالة والمتطوعين البيضان. وخمسة ضباط صف أوريبيين، وستين من الجمالة الرماة السنغاليين وستة وثلاثين من "أولاد أكشار" الحلفاء أي ما مجموعه 191 بندقية ومدفعين رشاشين، يتعلق الأمر بأكبر قوة محمولة على الجمال حركتها القافلة منذ إنشائها، وبما أن الجزء الكبير من الأثر والفرق المشاركة كانت ضمن قافلتني فقد توقعت أن تسند إلي مهمة قيادة هذه الحملة، وكم كانت خيبيتي كبيرة عندما لم يقع ذلك، لقد تذرعو بما يقولونه دائما. من أن الأمر هنا لا يتعلق بقيادة كتيبة. ويمكنني إبداء الملاحظة أن الأمر لو كان يتعلق بإيصال الأغذية إلى النقيب "بابلون" فلن يترددوا في إرسالني في قيادة ذات أهمية أقل...

أبقى هنا في انتظار ذلك. ذهبت لأبدي "امتعاضي" أمام العقيد الذي اعترض علي بشدة محتجا بأنه منذ أن دعاني إلى تناول الطعام معه باستمرار صحبة النقيب الفذ "كرهارت" لم يكن بوسعه إظهار مستوى أعلى من الود اتجاهاً. اعتبر العقيد صادقا وأقدره بدون تحفظ وأنا معجب بالطريقة التي يستطيع بها التخلص من الصعاب التي برزت أمامه الواحدة تلو الأخرى. أما "كرهارت" فقد ازداد إعجابي به كلما عرفته أكثر، وقد اعتقدت بعض الوقت أنه

484- هذا صحيح، لقد تغلبت قافلة "كورو" على المنشقين من "أهل أدرار" وحققت إنجازا عسكريا ولكنها حطمت المنطقة لسنوات طويلة واستنزفت مصادرها بسبب حجم حاجاتها من الجمال والأغذية.

الموجه الخفي للعقيد. وكنت مخطئاً فالعقيد هو فعلاً مسير القافلة ولكن "كرهارت" لوحده يقوم بدور الأركان بكاملها ويقدم عملاً رائعاً فيستطلع كل يوم أخبار أوساط البيضان ولا يمكنني أن أجد ميزة أفضل أقولها لغيره من أصدقاء العقيد.

هل يشعر العقيد بأنني مستاء من أنهم لا يرسلونني إلا في المهمات ذات الأهمية الضئيلة؟ إنه يعاملني كطفل يهدده حتى لا يصرخ مستغلاً في ذلك مشاعري. وبالجملة كانت علاقتي بالقائد تتسم بشيء من الغرابة، فأنا أقدره عالياً وأخلص له كثيراً ولكنني مستاء كالناقمين في الإمبراطورية كما يقال.

في الحقيقة يجب أن لا نبحث لدى العقيد ولا لدى مساعده المباشر عن موقف خفي ضدي لم يتوقف منذ إقامتي في أكجوجت في ديسمبر 1908م، فمثل هذا الحقد غير المعلن الذي نشأ في أكجوجت كان هو أساس كل ما جرى. وباستثناء الملازم "جيرار" هل تلقى واحد ممن عملوا تحت إمرتي في فرقة "إينشيري" مكافأة على ما أسداه من خدمات؟ ماذا حصد الملازم "أبلور" والطبيب "كازانوف"؟ يوجد من هم أكثر استياء مني ضمن القافلة قد يريدون أن أقود حركة المتذمرين من الدعة، والبقاء محكومين بمكيال الوجبات.

لقد أعلنت عدم اتفاقي مع هؤلاء ووبختهم على طلبهم العودة إلى السنغال وأنا متأكد أنهم سيعتبرون هناك أنني المسؤول عن كل ذلك وهذا غير صحيح لدرجة أنني عند العودة إلى الشاطئ حاول جميع المناوؤون للعقيد (وله مناوئين كثيرون ككل الرجال ذوي الشأن) حاولوا الاتصال بي منتظرين أن أتحدث عنه بسوء وقد فاجأهم اشمئزازي وترفعي عن هذه التفاهات حتى أنني هددت أحدهم في "أبودور" في يونيو 1909م حين تحدث بالإساءة إلى العقيد، ومنذ ذلك الوقت كثيرة هي الدسائس التي عرضت علي ورفضتها.

لقد انزوبت عن كل ذلك فباستثناء ساعات تناول الوجبات مع "كيرهارت" والعقيد كنت أبقى منعزلاً في المعسكر. وقد اختلقت ذريعة لذلك بأنني انتظر ساعة التسفير فقد تجرعت الكثير من الإهانات. اجتاح داء "التابوريت" جمال قافلة آدرار وكذا جمال فرقة "إينشيري"، فهل يفهمون في الدوائر العليا هناك أنهم قد ظلموني حين وجهوا إلي اللوم في أكتوبر 1908؟ تلقى الرائد "أكلودل" أمراً بالتوجه إلى "تكانت" عبر "شنقيطي" و"أوجفت"، وانطلقت الفرقة الرابعة باتجاه أطار حيث تحرس المؤن وتكون تحت تصرف القائد. عاد النقيب "بابلون" يوم 3 إبريل من مهمة استكشاف من منطقتي "تابرنكوت" و"غسرننت" وبما أن اليوم يصادف

عيد ميلادي السابع والأربعين فقد أقام العقيد "كورو" حفل عشاء على شرفي. وصل "بويلير" يوم 5 إبريل حاملاً رسالة من النقيب "دوبورتويس" مفادها أنه فاجأ مجموعة من "اركيبات" ومعهم الأمير "ولد عيده" عند "اللبه" فلم تحدث مقاومة في البداية وتم الاستيلاء على خيمة الأمير حيث ترك خنجره وهرب على فرس بدون سرج، تماماً كما فعل "أحمد سالم" حين فر أمام "سيكولي" عند "تكنت". ورغم محاولة العدو لهجومين فقد بقيت الغلبة لفريقنا الذي استولى على ثلاثمائة من الجمال ومائة وأربعين من الضأن ووصلت الغنائم إلى "تيزكي" يوم 7 إبريل وكان "سيدي" من بين حراسها بعد أن قاتل في "اللبه" وهو معجب بشجاعة النقيب "دوبورتويس" ويزعم أن هذا الأخير مرتاح هو الآخر لأدائه أثناء المعركة، سأتيين حقيقة ذلك. وبالجملة كانت واقعة "اللبه" انتصاراً وواصل النقيب "دوبورتويس" جولته بعد أن انضم إليه 15 من "إيديشلي" بقيادة "بوسيف".

قدمت من "بوتلميت" يوم 9 إبريل مجموعة من "اديولا"⁴⁸⁵ مع قافلة "أولاد غيلان" المستسلمين لسلطتنا وارسل "الشيخ سيديا" يعلن عن قدومه قريباً إلى "أطار" باشر العقيد يوم 13 إبريل بناء حصن معزول في "تيزكي" وقمنا يوم 16 بإقامة حظيرت الجمال إلى غرب "تيزكي" في "ازيرية" على بعد 5 كلم. كانت الحياة داخل المعسكر مملة جداً، عاد النقيب "دوبورتويس" يوم 18 إبريل بعد أن توغل حتى "شار" في ناحية الشمال ولكنه لم يستطع إنجاز شيء ذي بال. توجه النقيب "بابلون" يوم 19 إلى "غسرمت" بفرقتة والفرقة الثالثة و60 من المتطوعين صحبة النقيب "دوبورتويس" ونصف ثيران وأكباش القافلة. نصحت النقيب "بابلون" بالتمركز على الهضبة التي كنت قد أقمت عليها في طريق العودة من "أكيلال فاي" والتي كان النقيب "بير جير" قد أقام فوقها كذلك. "واصل ثرثرتك يا عجوز فأنت تفيدني" ذلك هو معنى النظرة التي قابلني بها كرد على كلامي. غادر الرائد "أكلودل" يوم 18 إبريل متوجهاً إلى "شنقيط" على رأس الفرقة الرابعة وترك "أطار" تحت سلطة النقيب "بون تان" وصلتني أخبار من أطار: "تذمر" عام وأسف على عدم المسير بسبب نقص الجمال أسف كذلك على أن العقيد يحمل عمليات استسلام أهل آدرار على محمل الجد مع أنها لم تكلف شيء. كنا نشعر بحر شديد وكان التعب قد استولا على الجميع فطلب كثير من المتطوعين

⁴⁸⁵ - اديولا: تجار متجولون من الزنوج (الإشارة من افرير جان).

العودة إلى أهلهم كما أن حصص الغنائم لم تكن على المستوى الذي يعوض هزال الوجبات خاصة مع غياب العدل في المعاملة بين الاعتبار المفرط للبعض وإهانة البعض الآخر فبعض الضباط يتبنون تماما عقلية الزوج التابعين لهم ويعتبرون المساعدين "البيضان" مصدر مضايقة غير مدركين استحالة القيام بأي شيء في هذا البلد دون الاستعانة "بالبيضان". لقد اتصل بي كثير من المتطوعين البطان معبرين عن اشمعزازهم فهم يقولون يمكن أن نعمل معكم جميعا بشرط أن لا نعتبرونا زوجا وهذا لم يفهمه البعض حتى الآن إذ يعتبرون أن معاملة "البيضان" بمثل ما يعامل به الرماة السنغاليون ستكون مصدر فخر لهم، لا يصدر هذا إلا عن من يجهل عقليتهم تماما. أعطى العقيد الأمر في "بوتلميت" يوم 23 إبريل بإرسال المؤن إلى القافلة فهم يريدون استراحة "المجرية" ولا أفضل من ذلك. ولكن لماذا سمحوا بتراكم هذا الحجم من المؤن في بوتلميت الذي تفصلنا عنه مهامه معطشة كنت قد كتبت في نوفمبر 1908 بعدم تكرار المغامرة باجتيازها؟ هل خطر لهم أن المناخ في نوفمبر حين كتبت ذلك كان باردا على العكس من وضعنا الحالي في الفترة الأشد حرا من السنة؟ وهل فكروا في أن الأمر لم يعد يتعلق باجتياز هذه المنطقة عموديا بأقصر مسافة، وإنما يلزم الآن اجتيازها بصفة أفقية تكون المسافة فيها مضاعفة؟ لا يجد المرء بدا من التساؤل عن السبب وراء عدم تجميع المؤن في انواكشوط بدل بوتلميت، ولكن ما حصل قد حصل بالفعل. غادر الملازم "باكت" يوم 24 إبريل متوجها إلى كيفه بعد أن سلم جماله إلى القافلة وعاد مشيا على الأقدام. وفي نفس اليوم تلقينا أخبارا عن المنشقين، فالأمير "ولد عيده" موجود عند "تورين" مع "أركيبات" "وأولادغيلان" المنشقين أما اللاجئون من "اترارزة" فهم عند "زوك" مع مجموعة أخرى من "أركيبات" حيث مركز "ولد الديد" قائد هذا التجمع. يقال إن الجيش المغربي الذي كثر الحديث عنه يتألف من 1000 رجل بقيادة "الولي" نجل "ماء العينين" وقد اقترب وصوله ولم نكن نتوفر على العدد الكافي من الجمال لإرسال فرقة لاستطلاع لحقيقة هذا الجيش ومع ذلك بلغنا أنه وصل بلدة "شار" ولكنه قد نقص بالنصف. وصلنا خبر من بوتلميت يوم 27 إبريل بأن القافلة المكونة من 400 جمل و300 ثور محملة بالمؤن ستكون عند "أكلال فاي" يوم 7 مايو تحت حراسة فرقة اترارزة من الجمالة بقيادة الملازم "أوبير". تم إخبار فرقة حراسة المراعي والنقيب "بابلون" بخبر الجيش المغربي ولكن لكثرة الحديث عنه منذ زمن طويل لم يعد أحد يصدق ما يشاع من أخبار حوله مع أن الأمر يتعلق هذه المرة بوجود شيء حقيقي.

قمنا يوم 28 صباحا بعد اكتمال حصن "تيزكي" بتجهيز المعسكر الجديد داخله في هذه الأثناء أبلغتنا فرقة حراسة المراعي أنها سمعت عند الفجر إطلاق نار مكث في جهة "غسمرت" فأرسل العقيد من يستطلع الخبر. وعند الساعة الثامنة والنصف قدم الدليل "المحرز" إلى المعسكر شاحب الوجه مرهقا وبدأ يتكلم بدون انقطاع لدرجة أننا ظنناه قد أصيب بمس من الجنون: "لقد رأيت "أتلاميذ" يسيطرون على الرماة السنغاليين وينتزعون أسلحتهم، لقد قتل جميع من في "غسمرت" الله يرحمني"، وتسمر في مكانه. وبعد ذلك بلحظة قدم الجمال "محمد المحكن" من "غسمرت" وعلى الرغم من ما عرف عنه من شجاعة فقد كان في حالة مماثلة لحالة "المحرز، ما ذا جرى إذن؟ يقول الجمال إنه كان نائما في خيمة "المحرز" عندما تعرض معسكر النقيب "بابلون" لهجوم أثناء الليل ويضيف أنه فر مع "المحرز" عند سماع الطلقة الأولى فنحن إذن أمام اثنين من الجبناء لا أكثر ولا أقل وبعد قليل وصل أحد "الرماة" السنغاليين مذهولا ومضطربا قادما من "غسمرت" كذلك، لقد أصبح الأمر خطيرا فالرجال الثلاثة قد قطعوا 35 كلم مشيا على الأقدام في أقل من خمس ساعات، إنها سرعة الهارب، وفي انتظار معلومات جديدة حول ما جرى أمرنا بعودة الجمال وحراسها إلى المعسكر. وعند الزوال وصل "بوبلير" صحبة اثنين من المتطوعين على الجمال يحملون تقريرا مكتوبا من النقيب "دوبورتويس"، لقد قتل النقيب "بابلون"، وهو طبعا لم يمثل نصيحتي بالتمركز في الموقع الذي حددته له بل أقام فوق هضبة صغيرة على شاکلة المواقع التي هو مولع دائما باختيارها تماما مثل ما فعل في "أماطيل" حين أوشك ذلك على أن يكلفه ثمنا باهظا، كما أنه وثق بحراسه من فرقة "أكجوجت" وأوكل أمره إليهم وهي التي عرف عنها سوء التصرف أثناء الحراسة، وكان يرفض معاقبتهم عند ما يتساهلون أثناء الإقامة في أطار. ومن المفارقة أن السنغالي الذي قدم مسرعا من "غسمرت" إلى "تيزكي" هو أحد حراسه. وما حدث هو كالاتي: كان الملازم "دوبور" مع مساعديه الأربعين من "البولار" التابعين للفرقة الثالثة، عائدا من "أكجوجت" حيث كان يقوم برفع "المتاريس" من أجل الإقامة المؤقتة للنقيب "بابلون" وبقي في معسكر "غسمرت" أربعة وستون من "الرماة السنغاليين" وأربعة وثلاثون من "البولار" بقيادة "بايلا بيران" وهو رجل شجاع لكنه لم يتلق التدريب الكافي وكان النقيب "بابلون" والملازم "كوتانس" يقودان الجميع. كان النقيب "دوبورتويس" والملازم "افيولى" قد أقاما بفرقة المتطوعين الستين شمال غرب المعسكر خارج الحظيرة. وكان الظلام دامسا فاقتربت فرقة من أتلاميذ

(نحو مائة وعشرين) صحبة ثلاثين ما بين "أولاد عمي" و"أولاد غيلان" و"اركييات" قادمة من الناحية الشمالية الشرقية وزحفت في صمت بعد أن تركوا جمالهم على بعد خمسمائة متر من معسكر "بابلون" خلف الهضبة التي تحدثت عنها سابقا، وقد سلكوا طريقهم بناء على المعلومات التي قدمها رجالهم الذين كانوا قد دخلوا المعسكر في النهار بذريعة بيع القرب للرماة السنغاليين، ثم تغلغل المهاجمون بين الهضبة والمعسكر، وعند وصولهم إلى الآبار انبطحوا أرضا وواصلوا زحفهم شاهدهم أحد الرماة السنغاليين كان في نقطة حراسة على بعد 60 متر أمام الواجهة الجنوبية للمعسكر وبدلا من أن يطلق عليهم النار ذهب يوقظ الرقيب المكلف بالحراسة، فلم يتمكن من ذلك فحاول العودة إلى مركزه وحين رأى البيضان القادمين بعدد كبير فر هاربا دون أن يطلق رصاصة واحدة وقطع في خمس ساعات مسافة 35 كلم التي تفصله عن "تيزكي" وهكذا تمكن "البيضان" من الزحف دون أن يتم إطلاق الإنذار.

كان الملازم "كوتانس" في نوبة الحراسة، وكان كوخه في الزاوية الجنوبية الشرقية من المعسكر فشعر بحركة أغصان "ازيرية" فاقترب ليرى أجساما تزحف تحت الحظيرة، فصرخ: "خذوا أسلحتكم!" وأطلق النار من مسدسه فتعرض لوابل من مسافة قريبة واندفع البيضان المهاجمون من خلال "ازيرية" يطلقون النار على "البولار" النائمين بمحاذاة سور الحظيرة. فهرب الرماة السنغاليون المتركون في الواجهة الشرقية عند الطلقات الأولى متجهين إلى حظيرة الثيران وتبعهم الملازم والرقيب "جانين" محاولين عبثا أن يقنعوهم بالصمود وكان الذين لم يلقوا أسلحتهم يطلقون النار دون تركيز وحين التقى "بيلا بيرام" بفرقة "البولار" المدعورة وهي تتراجع أجبرها على الصمود ومواجهة العدو على الجهة الجنوبية واستطاع أن يطوقه في الزاوية الجنوبية الشرقية.

كان النقيب "بابلون" نائما في الزاوية الجنوبية الغربية، وفور الطلقات الأولى هب واقفا وهو يرتدي لباسه الأبيض كالعادة، بعد أن نظر بسرعة إلى الواجهتين الشرقية والغربية ثم انطلق نحو الواجهة الشرقية حيث بدأ الرماة السنغاليون يتراجعون، فناداهم فسمعه العدو فأردوه برصاصة في الفخذ، لا نعرف من أين جاءت، هل هي قادمة من فرقة البيضان أو من الرماة المدعورين؟ مع أن أحد اتلاميذ تبجح بأنه هو الذي أطلق عليه الرصاصة الأولى، ثم تلقى رصاصتين بعد ذلك. قد يكون هذا مجرد هراء، فكيف يعرف هذا الرجل الذي يقص علي ما حدث أن النقيب قتل بثلاث رصاصات بالضبط، واحدة في الفخذ وواحدة في البطن والثالثة

في الرأس؟ خلاصة الأمر أن النقيب قد سقط قتيلا وهو حسب ما كتبه لي الرائد "أكلودل" أياما بعد ذلك جندي صلب رغم كل ما حدث.⁴⁸⁶ حدث كل ذلك بين الساعة الثالثة والرابعة صباحا، فقد سمع النقيب "دوبورتويس" ورفاقه الستون من المتطوعين طلقات نارية فاقتربوا في صمت من الزاوية الشمالية الشرقية للمعسكر. حيث ينتظرون عودة الملازم الأول "افيولي" الذي أرسله النقيب لأخذ الأوامر من النقيب "بابلون" وفي بحثه عنه وصل كوخ الملازم "كوتانس" في الزاوية الجنوبية الشرقية، فلاحظ كثيرا من الظلال المتحركة كالأشباح داخل الكوخ، وبما أنه ضابط من فرقة المتطوعين يلبس لباس البيضان فقد سمعهم يقولون من أنت؟ فأجابهم باعتزاز باللغة الفرنسية "ملازم فرقة المتطوعين" فلم يكمل كلمته حتى انطلقت من حوله الرصاصات عن قرب ولم يسمح قرب المسافة من تسديد الطلقات فاستل سيفه وقتل أحد المهاجمين وقطع ذراع الآخر ثم أفلت منه وهو يطلق الرصاص من مسدسه والتحق بالملازم "كوتانس" ثم ذهب ليخبر النقيب بالوضعية المأساوية التي وجد فيها المعسكر. أخبر النقيب "دوبورتويس" الملازم "كوتانس" بأن فرقة المتطوعين ستهاجم "اتلاميد" على طول الواجهة الشرقية من المعسكر في جناحهم الأيسر وطلب منه إن استطاع أن يمنع الرماة السنغاليين من إطلاق الرصاص على فرقة المتطوعين المهاجمة من هذه الناحية.

وفي هذا المعمان زحفوا مدفوعين من ضباطهم وهم يصرخون نحو العدو الذي أفزعه المشهد وانضمت إليهم كافة الوحدات الصامدة داخل المعسكر واندفع الجميع باتجاه المهاجمين فلم يصمدوا أمام الهجوم وعادوا أدرأجهم هارين وطلع النهار فتمكن الملازم أول "افيولي" من دفع فرقته من المتطوعين في مطاردتهم... لقد كان الوضع ساخنا وترك العدو 12 قتيلا على الساحة ومن جانبنا قتل النقيب "بابلون" واثنان من الرماة السنغاليين وجرح أربعة من الرماة وستة من فرقة "البولار" من ضمنهم قائد الفرقة "بيلا بيرام" الذي جرح في يديه منذ البداية برصاصة شطرت بندقيته نصفين وقطعت بعض أصابعه فاخفى إصابته عن رجاله ولم يضمد جراحه إلا في وقت متأخر من صباح ذلك اليوم بعد أن قام بخدمة الترجمة، وهذا عمل رائع.

⁴⁸⁶ - كما كان أيضا صديقا شخصيا للعقيد "كورو" الذي كتب إلى والدة القتيل رسالة مواساة وصف فيها معركة "غسرمت" ومقتل "بابلون" (موريتاني - آدرار، ص: 179-182).

لقد كان عنصر المباغته في هذا الهجوم أقوى منه في الهجوم الذي أودى بحياة "كبولاني" فالحارس هنا لم يطلق أية رصاصة ولولا وجود النقيب "دوبورتويس" وفرقة من المتطوعين لحصلت، رغم مقاومة مجموعة "البولار" مجزرة كما حصل في "دمان" سنة 1908م، لقد تمكنت فرقة "البولار" بمقاومتها المستميتة ومجموعة البيضان بهجومها الجسور المباغت من إنقاذ الموقف وكان النقيب "دوبورتويس" الصانع الحقيقي للانتصار في "غسرمت" بدأ تقويم "مارسوين" لسنة 1911⁴⁸⁷ في تناوله لهذه المعركة وكأنه يلقي مسئولية المباغته على بعض الرماة "البولار" الذين تمكن الملازم "كوتانس" والرقيب "جانين" من ضبطهم؟ وهذا غير صحيح ف"البولار" في "غسرمت" وكذلك في "أماطيل" قد صمدوا أفضل بكثير من الرماة السنغاليين التابعين للفرقة الثالثة. لقد تلقيت التفاصيل الدقيقة من ضباط كانوا حاضرين في عين المكان، فالنقيب "بابلون" قد مات هذه الليلة ميتة الجندي التي يستحقها، كما أن النقيب "دوبورتويس" ومن معه من المتطوعين قد أبلوا بلاء حسنا وصنعوا الانتصار وكذلك الحال بالنسبة للملازم "كوتانس" والملازم الأول "افيولى" وقائد فرقة "البولار" "بايلا بيرام" ورجاله الذين أبانوا عن شجاعة ورباطة جأش لا نظير لهما وبالمقابل يجب أن نعترف بأن "الرماة" التابعين للفرقة الثالثة كانوا دون الجميع، والأسباب قد ذكرتها منذ زمن طويل فهم ضحية التساهل فلم يعيشوا صرامة الالتزام بالأوامر اليومية خاصة فيما يتعلق بخدمة حفظ الأمن. وجملة القول أن وقعة "غسرمت" رغم أنها انتهت بفرار العدو، كانت وقعة مأساوية، ويجمع الحاضرون، صغيروهم وكبيرهم، على أن النقيب "دوبورتويس" قد لعب في "غسرمت" دورا يضاهي دور "دزكس" في "مارانكو" يجب أن نمتن له بذلك، فقد بدأت المعركة خاسرة فحولها إلى انتصار. لقد كان النقيب "بابلون" الذي غاب عنا في هذه المعركة كما قلت الصديق الحميم للعقيد، ويعترف له الجميع بقيمة عسكرية عظيمة على العموم. ويمكن أن نأخذ عليه عدم الاستفادة من ذلك، على كل حال هو لم يكن طموحا مبتذلا بل كان من طراز آخر، لقد كان جنديا لا يخاف ولكنه لا يخلوا من النواقص، حتى في المجال العسكري، ومنها اثنتان أودتا في النهاية بحياته:

- ازدراء الخصم وعدم التعويل على الإجراءات الاحترازية؛

⁴⁸⁷- ظهر من 1894 إلى 1914 دون انقطاع، وقد تحدث الجزء الأول منه عن الوقائع الحربية للجيش الاستعمارية والجزء الثاني كان مخصصا لدليل الفهارس.

- إعجابه برجال فرقته من الروماة رغم أن أداءهم كان رديئاً.

وفي الأخير هل يوجد إنسان بدون مساوئ؟ وبعد إمعان النظر في شخصية الرجل الفقيد ندرك أن الضربة التي تلقاها العقيد بفقد صديقه الحميم، قد طمست بصيرته لبعض الوقت فأظلمت الدنيا في عينيه...

مع ذلك لا وجود لخطر حقيقي محقق بنا فالجيش الذي شاع أمره كل مكان لا يتجاوز تعداد أفراده 150 من ضمنهم 120 من "اتلاميذ" وليس فيه أي مغربي. وصلنا مساء يوم 28 إبريل بريد كنا قد أرسلناه إلى "أولاد بالسباع" ونجا من قبضة "اتلاميذ" علمنا منه أن ماء العينين تنقصه الأسلحة وقد أرسل نجله "الهيبة"⁴⁸⁸ لاقتناء بنادق ذات طلاقات سريعة من المغرب ولا وجود لجيش آخر غير هذا المؤلف من 120 من اتلاميذ. لم ينقطع الأمل في كل شيء، مع أن الوضعية تبقى غامضة. وفجأة تم استدعاء الرائد "اكلودل" وفرقته من شنقيط إلى "تيزكي" بدأ العقيد تجميع قواته مع أن شنقيط لقد خصصت استقبالا رائعا لكتيبة "اكلودل" وتطالب بإقامة حامية.

لقد قام "أولاد بالسباع" المنحدرون من الجنوب بواسطة "مولاي أحمد ولد لعويسي" بإقناع الكثيرين بالدخول تحت سلطتنا أرسل النقيب "بلييون" خبر توفره على 600 جمل واحتمال مغادرته "تكانت" عائدا إلى "آدرار" ومن جهة أخرى تأخرت قافلة بوتلميت بعض الشيء: فلن تكون عند "اكلال فاي" إلا يوم 9 مايو. يستطيع العقيد أن يستريح بعض الوقت و يمعن التفكير في المستقبل وبالفعل تملك نفسه. كان أول إجراء اتخذه هو إرساله لتولي قيادة كتيبة "عسمرت" فغادرت دون تأخير عند العاشرة مساء مصطحبا الطبيب "ماي" وكفرقة للحراسة معي الفيلق الثاني من الفرقة الثانية وقد سلمني العقيد أمر العمليات رقم 27 تمت صياغته على النحو الآتي:

⁴⁸⁸ - نرى ظهور عدة أسماء لأبناء الشيخ ماء العينين (الولي، الهيبة) قد لعبوا في مرحلة لاحقة دورا تاريخيا في موريتانيا والمغرب.

- "ستغادرون هذا المساء لتصلوا "غسرت" غدا صباحا... فور وصولكم تقيمون المعسكر على التل الذي حدثتموني عنه وستخبروني عن المسافة التي تفصله عن الآبار والإجراءات المتخذة لجلب الماء في ظروف آمنة.

- مهمكم هي إحكام السيطرة على موقع "غسرت" ما دتم فيه مع مواصلة عمليات الاستكشاف التي بدأها النقيب "بابلون" والنقيب "دوبرتيس" من أجل التعرف على المراعي ونقاط الماء في "إينشيري" وخاصة تحديد المكان الذي ستطلق منه الفرقة التي ستوجه إلى "اكلال فاي" لتخذ من هناك القافلة التي جاء بها الملازم "أوبير" يوم 7 مايو. وتجدون في المرفق مذكرة تبين المعلومات الحالية بهذا الشأن تلاحظون أن المسألة على درجة من الصعوبة كما أنني أدرك من جانب آخر أن قافلة "أولاد غيلان" التي غادرت نحو بوتلميت في حدود 24 إبريل قد اجتازت "اماطليش" بين "لعكيلة" الزرکه" و"أمبش" وتزودت بالماء من هذين البئرين وأخيرا لديكم تجربتكم في السنة الماضية في ما يتعلق بالمياه وكذلك بالنسبة لوعورة الأرض. سؤال يطرح نفسه: هل يستطيع المشاة أن يسلكوا الطريق مهما كانت نقطة الانطلاق؟ وعليه كم يكفينا يوميا من الماء أم أن الطريق سالك فقط بالنسبة لمن يركبون الجمال؟ نظرا للأجال التي تتطلبها معالجة هذه المسائل والحاجة العسكرية والسياسية لإبراز وجودنا طيلة أيام إضافية في "إينشيري"، رأيت من اللازم إشعار حاكم اترارزة أن القافلة يحتمل أن تقيم أياما أخرى في "اكلال فاي" ولكن لا بد أن تكون الإقامة أقصر ما تكون لكي لا يجد العدو وقتا لخروج من صدمة الخسائر التي تكبدها ويدبر هجوما ضد القافلة الضخمة المؤلفة من 400 جملا. من المهم إذن أن توافوني بمعلومات حول النقاط المشار لها أنفا لكي أتمكن من تحديد تاريخ مغادرتكم. ستجدون في منطقة "غسرت" فرعي "نغموشه" المواليين "سيد حرمة ولد اخطيره" و "ولد امحيمد" اللذين حصلوا على الأمان في "الطنطان" وقد كان سلوك هذين القائدين منضبطا حتى اليوم وخاصة "سيدي حرمة" وهو عجوز كان قد قاد المجموعة التي قررت الدخول إلى آدرار وقد غادر النقيب "بابلون" يوم أمس ووصل هنا صباح اليوم وهو متؤثر جدا من الأخبار الشائعة بين المتطوعين حول مشاركة "أولاد غيلان" في ذلك الهجوم وقد يكون من ضمن الجيش بعض أفراد "أولاد غيلان" المنشقين لأنه حين وصل المغرب كان قد أخذ معه المخيمات المنشقة عند "تورين" ولكن من غير المعقول عندي أن تكون مجموعة "نغموشه"

الخاضعة لنا قد شاركت في مهاجمتنا في الوقت الذي كان فيه أكبر قادتهم سنا في طريقه لمقابلتي وفي الوقت الذي كانت فيه بنادقهم تحرس قافلة الجنوب كما أنهم تركوا مخيماتهم في مرمى مدافعنا. طمأنت "سيدي حرمه" وقلت له إن علاقتنا معه لم تتغير قيد أنملة. أرجو أن تتعاملوا معه ومع غيره من "أولاد غيلان" "إينشري" حسب هذا الموقف سنبقى على اتصال دائم إما عن طريق الحراس المرافقين وإما عن طريق المتطوعين".

وفي الخلاصة، يبدو أن العقيد يستعد لجعلي أوعيد الكرة لاجتاز المنطقة المعطشة كما فعلت سابقا في ظروف أسوأ من تلك التي كانت سائدة في نوفمبر 1908 وذلك رغم أنني أعربت له عن أن من الخطر المجازفة بتكرار تلك المغامرة. لماذا لم يكثرث بهذا الإنذار الجاد ولماذا ترك كميات المؤن تتراكم في توتلميت ودونها هذه المهلكة بدل نقلها إلى انواكشوط إذا كانوا فعلا يريدون إراحة "المجرية"؟ لقد أصبح الوقت يطاردنا ولا مجال للاعتراض فقد وقع المحذور. ولكن من المسؤول؟ أخشى أن أكون أنا المسؤول خاصة وأنا في الفترة الأشد حرا من السنة كل هذا غير مشجع ولو أتيح لي الأمر لكنت قد اخترت خوض المعركة للاستيلاء على موقع شديد التحصين لكنه مهم، بدل تكليفي بمهمة كهذه. وبما أن الأمر يتعلق بمسألة مصيرية حسب زعمهم بالنسبة للقافلة سأجازف بعملية الاجتياز من جديد ولكنني أتوقع وقوع خسائر. إلا أنني كنت أتساءل لماذا يقصدونني الآن حين يوجد خطر كبير في الوقت الذي أبعدونني فيه عن العمليات الكبيرة المجدية. من أجل إصلاح خطأ في التنظيم أو خلل في التقدير يحاولون المراهنة علي بالنسبة، ليس فقط لمصير وحدة بكاملها ولكن بالنسبة لمصيري شخصيا ومستقبل سمعتي. وأخيرا كنت قابلا للتفسير وبتكليفي بكل هذا العمل الشاق أتفادي حرمان القافلة من خدمة ضباط نجباء يمكن استخداهم في أماكن سيحصلون فيها المجد والمكافأة. أنا "أخدم" بكل معنى الكلمة. قام العقيد مساء 28 إبريل بعقد اجتماع في الظلام الدامس لجميع فرق "تيزكي" وكنت إلى جانبه فتحدث إلى الرجال وسرد تفاصيل مقتل النقيب "بابلون" في وقعة "غسرت" بطريقة تثير حماسهم وأعلن لهم أنني ذاهب ليس من أجل الانتقام لهزيمة لم تقع، ولكن من أجل متابعة العمل الذي بدأه النقيب "بابلون" ورفاقه العاملون في "غسرت".

وبالجملة كان يريد إشعار الرماة بأن معركة "غسرت" كانت انتصارا رغم موت "بابلون". وفي نهاية خطابه بدأت المسير صحبة الطبيب "ماي" ومجموعة حراسي، رافقني

العقيد مشيا على الأقدام في الليل على بعد مسافة من المعسكر . كنت متأثرا بعض الشيء لتركه في مثل هذه الظروف وكنت متأسفا بشكل خاص على عدم تمكني من الحديث معه حول النقاط التي لا نشترك فيها أما الآن فلا وجود لشيء بيننا . كنت أعتقد أن العقيد سيتخلص من المؤثرات ويصبح مستقلا لا يستمد أفكاره من أي شخص آخر كنت أعتقد أن الحملة ستسير بسرعة أكثر لتصل إلى حل ملائم كما كنت أعتقد، ومازلت إلى اليوم، أن تاريخ اليوم 28 أغسطس 1909 هو انطلاق أهم مراحل هذه العمليات وهي المرحلة التي تقانى فيها العقيد أكثر من أي وقت آخر .

لم أكن أشك في أنني أسير في اتجاه لعب دور الضحية كنت أفكر في ذلك طوال الليل وأنا أسير باتجاه "غسرت" عبر السهول الرملية والأودية الصخرية أتمايل في راحلتي فوق الجمل وأنا واقع تحت سحر الشعور المرير الذي يمتلك الشخص الذي يسير مخلصا لإنجاز مهمة يوقن بأنها لن تعود عليه بأي تقدير .

من "آدرار" إلى "آوكار"

كنت صباح 29 إبريل عند "غسمرت"، حيث قابلت النقيب "دوبورتويس" وضباط المعسكر وزرت الجرحى وهنأتهم على ما أبدوه من شجاعة وكانت أغليبتهم من "البولار". تجولت في معسكر هذا الشجاع "بابلون" وأخذت عليه اختيار الموقع في "غسمرت" فقد عانيت من نفس الخطأ عند "أماطيل": لقد كان موقعا معقدا ومعزولا يتألف من قمم صغيرة متباعدة جدا، فهي أشبه بمجموعة من المنشآت لا رابطة بينها كما حالة "ليليوت" بدل أن تشكل حصنا بسيطا موحدا. كانت الحامية عند وصولي "غسمرت" قد انتهت للتو من دفن النقيب "بابلون" غرب المعسكر، عرض أمامي النقيب "دوبورتويس" ما تم الاستيلاء عليه من أسلحة العدو: بنادق، وبعض المسدسات مع الذخيرة من عدة أنواع كلها تؤكد المصدر الفرنسي لكل هذه الأسلحة، خطر لي بشأن ذلك نفس التفسير السابق عند "أعكيلة أرفايق" في سبتمبر الماضي. وفيما يخص "أولاد غيلان" الذين حدثني عنهم العقيد في وثيقة الأوامر رقم 27 فقد قدم إلي الملازم "دوبوك" معلومات حول سلوكهم لا تتفق إطلاقا مع ما ذكره العقيد، إذ يبدو أنهم بعد أن قضوا يوم 27 داخل معسكر النقيب "بابلون" لم يهتم رؤسائهم، وليس "سيد حرمه" من بينهم، بالقدوم من أجل المساعدة للملازم عند رجوعه مع فرقته الأربعين من "البولار" من "أكجوجت" حين مر فجرا على مرأى من مخيمهم متوجها إلى "غسمرت".

"البيضان" يعرفون بعضهم البعض: فلا بد أن المتطوعين كانوا على حق في ما قالوه ضد "أولاد غيلان" أما بالنسبة لي، فمنذ أن عرفت هذه القبيلة، وأنا موقن أنها لا تعرف سوى قطع الطريق والغدر. أما "سيدي حرمه" فهو "عجوز البيضان الغر" كما وصفه "أخيارهم" حين

قال لي إنه لم يذهب لاختلاق ذريعة لدى العقيد حين كان يوصل قومه لمساندة "اتلاميد"، كما أن قافلة الجنوب لم تكن معها كافة أسلحة "نغموشه" وسنرى الكثير منها حول "غسمرت" في الأيام الموالية، لاشك أن في الأمر مغامرة وعلى كل حال أنوي أن أطلب من هؤلاء القيام بخدمات، وسأرى ما سينجزونه ومن خلاله أحكم عليهم.

في مساء 29 إبريل غادر النقيب "دوبورتويس" والملازم "أفيولى" والطبيب "ماي" صحبة الجرحى متجهين إلى "تيزيكي" تحت حراسة المتطوعين، وفيلق الفرقة الثانية، وبقي معي عشرة متطوعين بالإضافة إلى "سيدي"، نظمت رجالي فور صباح 30 إبريل وهم الفرقة الثالثة، ومجموعة "البولار" والمتطوعين، وأقامت فوق التل الذي تمركز عليه النقيب "بيرجير" سنة 1907م وتمركزت أنا فوقه في ديسمبر سنة 1908م. وفور استقرارنا فوق "التل" أصبحنا نطل على كافة السهل وخاصة الآبار التي نراقبها على بعد 500 متر تقريبا، كنا فوق قمة هذه المنحدرات الصلبة وهذه الهضبة المعزولة نحس نفس الشعور بالأمان الذي يشعر به من هو في بيته، والذي يشعر به المرء حين ينزل في جزيرة وسط المياه. عكفت طوال اليوم على تحصين الموقع حتى أصبح كعش الصقر، فأحطته من جميع الجهات وفي أعلى نقطة منه بسياج من جذوع وأغصان الأشجار الشائكة، عرضه أربعة أمتار له فتحتان فقط.

وبعد انتهاء إجراءات النزول عكفت على جمع المعلومات حول نقاط الماء انطلاقا من المذكرة التي قدمها لي العقيد حول الموضوع والتي جاء فيها:

- "أمجيرييه" مياه مالحة إلى حد ما: 6 متر⁴⁸⁹.
- "لعكيله الزرقه"، 15 بئرا مالحة إلى حد ما: 3,80 متر، كمية مماثلة لـ"غسمرت" ولا يمكن التوقف حولها لصعوبة الوصول ولا توجد فيها أية مراعي، وموقعها سيئ جدا من الناحية العسكرية.
- "أمجيرييه" مثل "لعكيله" داخله في "أمطليش" ولكن الآبار تنتشر في هضبة واسعة وكثبان تغطيها بعض النباتات كان يوجد عند "امجيرييه" يوم 24 إبريل 1909م ما يكفي من المرعى لمدة 15 يوما.

⁴⁸⁹ - يشير الرقم إلى عمق البئر وبالتالي أهمية الوسائل الضرورية لاستخراج الماء منها.

- لقد قطع النقيب "بابلون" المسافة بين "امجيربيه" و"غسمرت" في ساعة و50 دقيقة منها ساعة وخمس دقائق في الكثبان الصعبة على العكس من المعلومات التي قدمها البيضان حين تحدثوا عن وجود ممر سهل.

- بين "غسمرت" و"لعكيلة الزرقة" أربعة ساعات وثلاثين دقيقة من السير الحثيث منها خمسون دقيقة في الكثبان الوعرة من "لعكيلة الزرقة" إلى "امجيربيه" أربع ساعات وثلاثين دقيقة وسط الكثبان السهلة عموماً على طول المسار.

يجب أن لا يستغرق المسير من "غسمرت" إلى "لعكيلة الزرقة" وصولاً إلى "امجيربيه" سوى مدة تتراوح بين ثمان ساعات وثلاثين دقيقة وثمان ساعات وخمس وأربعين دقيقة من السير خلف دليل ماهر.

حسب المعلومات الواردة اليوم إلى "غسمرت" لا توجد مياه في "دمان" وفي المقابل يوجد في "أتويرجية" ما يكفي من الماء مدة يومين لمائة رجل عندما نقضي ليلة كاملة نسحب الماء حتى صباح الغد، ولكن الكمية لا تتسع لشراب ستين جملاً. ذكرت هذه الوثيقة لأبرز مستوى الدراسة ودقة التفاصيل التي يتطلبها مني الإعداد لمسير قافلة بوتلميت. تلقيت حول الموضوع رسالة من العقيد تحمل تاريخ 29 إبريل رقمها 704 ر.ج:

- "لي الشرف، يقول العقيد، أن أخبركم أنه فيما يخص قافلة "بوتلميت" سأبلغ حاكم اترارزة هذا اليوم بالتدابير التالية:

ستغادر القافلة منطقة "فاي" وتصل "إينشيري" بوسائلها الخاصة تحت حراسة الملازم "أوبير".

انتظر، من أجل إعطاء الأوامر النهائية، أن توافقني بنتائج مهمات الاستكشاف الإضافية التي قمتم بها، وفي الوقت الراهن يبدو أن لا وجود للماء في "دمان"، هل يوجد ماء في "امبش"؟ قد يلزم توجه القافلة إلى "أعكيلة انعاج" و"لعكيلة الزرقة" أو "امجيربيه" أو "غسمرت"، لا أدري! لا يمكن أن أرسل إلى الملازم "أوبير" أمراً بالانطلاق إلا بعد أن أحدد له مكان أولى نقاط الماء والمكان الذي سيعبر منه منطقة "أمطليش". كما أنني سوف أستطلع حالة مختلف نقاط الماء المذكورة أعلاه وكلفت رجالي من المتطوعين بتلك المهمة، أما الآن فقد صار عندي ما يكفي من المعلومات حول الموضوع، وبناء عليها أرى من الأفضل إما أن أسلك طريق "أكليلا فاي" - "أعكيلة انعاج" مروراً بـ "امبش" وإما أن أسلك الطريق المباشر بين

"أكلال فاي" و"أعكيلة انعاج"، اختيار أحد الطريقين يتحكم فيه وجود المراعي. عادت فرقة المتطوعين فأخبرت العقيد بأننا سنذهب من "امبش" إلى "أعكيلة انعاج" مجتازين "أمطليس" من معبر أسهل من معبر "تيزكي". يريد مني العقيد أن أترك معسكر "غسمرت" وأذهب بجميع رجالي لأستطلع حالة الطريق من "غسمرت" إلى "أعكيلة انعاج"... فإذا كانت النتائج مرضية فسيعطي الأوامر للملازم "أوبير" بمغادرة "أكلال فاي".

ولتنفيذ هذه المهمة الاستكشافية لابد من أن أكون آمنا من العدو مع أن بعض الزوايا قد قدموا وأخبروني بقدوم جيش جديد من مائة إلى مائة وعشرين مسلح، وأن أهله قد راقبونا عن قرب ليل ثلاثين إبريل إلى 1 مايو، وبالفعل كانت فرقة المتطوعين قد طاردت رجلين على جملين دون أن تلحق بهما، ويقول هؤلاء الزوايا إن الجيش قد يكون في المراقبة عند "أفوجار" على مسافة شمال "تابرنكوت". كما أن فرقة مرافقة المواشي قد عادت مساء 1 مايو تطلب العون لمواجهة رجلين حاولا سرقة بعض الجمال وأحدهما معروف بأنه جاسوس تقليدي وصديق حميم للأمير "ولد عيده" كل هذا يدل على أننا نخضع للمراقبة عن كثب وأن مؤامرة تحاك ضدنا. أرسلت تقريرا بذلك إلي العقيد. فرد علي أولا بشأن "أولاد غيلان" من جماعة "اعمر ولد سيدي حرمة" و"ولد أمحيمد" زعيمة "نغموشه"، قائلًا إنهم سيتحركون بمخيماتهم في اتجاه الجنوب الشرقي من "أمرماز" و"لمسيدي" من أجل المراعي الجيدة هناك ومن أجل الابتعاد حتى لا يتهموا مرة أخرى بالتآمر في حالة وقوع أحداث في منطقة "غسمرت". تلقيت معلومات بأن جماعة "نغموشه" قد انسحبت إلى "تابرنكوت" وشمال هذا الموقع بالضبط في اتجاه الجيش الجديد المذكور من أجل تفادي القيام بالدوريات التي طلبتها منه في سهل "غسمرت" أثناء استشكاف رجالي من المتطوعين للآبار والممرات في منطقة "أماطيل".

اعتبرني العقيد مخطئا في منع "البيضان" من الأجانب، حتى ولو كانوا رؤساء، من الدخول إلى معسكري. ولو كان النقيب "بابلون" قد اتخذ مثل هذا الاحتياط لما استضاف الجواسيس الذين وجهوا العدو إلى مكانه. وفي هذه الظروف كان دور "أولاد غيلان" أثناء دخول جواسيس "التلاميذ" إلى معسكر "بابلون" يوم 27 إبريل، حاسما جدا. قدم رجلان على جملين يوم 1 مايو يراقبان معسكر العقيد عند "تيزكي" تماما مثلما راقبا معسكري ليلة 30 إبريل إلى 1 مايو. أرسل العقيد يوم 2 مايو ثلاث دوريات منها اثنتان على آثار هذين العدوين والأخرى في اتجاه "تابرنكوت".

- "اعتقد، يكتب إلي العقيد، أننا سنستوضح الأمور بهذه الطريقة، إذ من المهم أن لا نلبث في مكاننا في انتظار هجوم قد لا يكون وشيكا وبالتالي نمح العدو الوقت الكافي لتدبير هجوم ضد الملازم "أوبير" يوجد من حولي مخيم أولاد "أكشار" من جماعة "ولد المعيوف" ومخيمان من "أولاد عمي" قدموا قبل أمس وهذا الصباح من منطقة "عسمرت"، وليست لديهم معلومات حول جيشي في ناحية "تابرنكوت" وبالتالي لم نكتشف بعثة الاستطلاع شيئاً، وإذا لم يكن هناك دليل جاد على وجود هجوم وشيك، أطلب منكم القيام باستطلاع منطقة "امبش" بكتيبتكم حسب ما هو مبين. وأكرر، يكون ذلك فيما يخص الجانب العسكري، وبطريقة تسمح بالاستفادة من ضوء القمر ومن المهم أن لا تلبث قافلة "أوبير" إلا أقل فترة ممكنة عند "أكيلال فاي".

أعلن "مولاي أحمد ولد لعويبي" قرب قدومه إلى العقيد وأكد مشاعر الصداقة التي يكنها "أولاد بالسبع" للفرنسيين، أتمنى أن نتفاهم أخيراً هذه المرة ونستخدم هؤلاء القوم ضد عصابات النهب القادمة من الشمال. كتب إلي العقيد يوم 4 مايو أن "سيد حرمة ولد أخطيره" (عجوز البيضان حسب تعبير "اخيارهم") لا يبدو متأكداً من عودة "اتلاميد" الوشيكة ولا من وجود جيش آخر عند "أفجار" كما ذكر لي زوايا "إيديقب". لا يعني هذا طبعاً، يضيف العقيد، أن الجيش إذا لم يكن موجوداً اليوم بالقرب منا لن يقترب منا بعد الغد، وبالتالي تبقى الاحتياطات العسكرية الصارمة ضرورية أثناء المسير وعند التوقف. وصلتني في هذه الأثناء المعلومات حول الطريق الذي يتعين أن تسلكه قافلة "بوتلميت" وبناء على هذه المعلومات وعلى المذكرات التي كنت قد سلمتها للملازم "أبلور" أثناء سفرنا من "أكلال فاي" إلى "أطار" وبناء على المعلومات التي جمعها أخيراً النقيب "بابلون" نستخلص ما يلي:

- أن "أعكيلة انعاج" نقطة مياه غزيرة فيها مراعي مناسبة وفي المتناول؛
- أن "امبش" لا يوجد فيه الماء إلا بالنسبة للأشخاص؛
- أن الطريق المباشر من "أكيلال فاي" أو من "أنواكل" حتى "أكيلة انعاج" هو الأفضل ويمكن اجتياز "امطليش" من معبر سهل إلى حد ما؛
- أن "امبش" يوجد في الغرب وبالتالي يتطلب الانحراف.

تلك هي المعطيات التي يتعين أن يركز عليها القرار الذي سنتخذه، ومن جهة أخرى يفضل العقيد في الوقت الحالي أن يرسل إلى الجنوب الفرقة الثانية بدل الفرقة الثالثة، وقد كتب إلي قائلًا:

- "وفيما يعنيكم، ستتوجهون إذن إلى "غسمرت" مساء 8 مع الفرقة الثانية تاركين الفرقة الثالثة متحصنة هناك في انتظار القافلة. ستأتي مع الفرقة الثانية مجموعة من المتطوعين ترسلون ثلاثة منهم على الفور حاملين البريد إلى "أكلال فاي" ليوصلوا هناك نسخة من الأوامر رقم 28 التي أرسلتها إليكم من أجل تفادي وقوع البريد الموجه مباشرة إلى الملازم "أوبير" في يد العدو، فمن المهم أن يصل هذا الأمر إلى الملازم "أوبير". وتوقفون تحرك الوحدة الثانية فقط إذا حصلتم على معلومات أكيدة تثبت احتمال وقوع هجوم يتطلب المواجهة بالفرقتين الثانية والثالثة مجتمعتين. لا أحتاج كثيرا إلى أن أقول إن كل هذا إن حدث سيكون مزعجا وفي غير محله، وهناك في المقابل مصلحة أكيدة في ذهاب القافلة في أسرع وقت ممكن. علمت يوم 5 مايو أن "أولاد أكشار" الذين كان جزء منهم يقيم قد غادروا المكان في اتجاه "تيزيكي" أخبرني بذلك بعض الزوايا القادمين إلى الآبار، فكتبت إلى العقيد وأخبرته بأننا لم نعد نتلقي المعلومات إلا من العابرين... ومن أجل التوضيح، أحتاج إلى دوريات تذهب حتى مخيمات "أهل باركلله" غربا وحتى "تابرنكوت" شمالا ولكن ليس عندي من يقوم بذلك نظرا لمستوى المتطوعين الذين بقوا معي عند "غسمرت" فلجأت إلى "سيدي" وأحد حراطين "إيدوعلي" وأحد "البولار" يعرف ركوب الإبل للقيام بأقصى ما يمكن من المراقبة ليلا. فمجموعة المتطوعين الموجودة معي لا تصلح لشيء ومع ذلك فأنا الذي وفرت أربعين من أفضل المتطوعين في القافلة، طبعًا عندي جمالة "أكجوجت" وهم جيدون ولكنهم يتولون الربط بين "غسمرت" و"تيزكي" وهم في حركة دائمة بين النقطتين.

وصلت يوم 6 مايو الأوامر العملية رقم 28، وأنقلها بحذافيرها لأنها تفسر كثيرا من

الأشياء:

- "التحركات موضوع وثيقة الأوامر الحالية تهدف إلى:

(1) تأمين قافلة المؤن القادمة من "بوتلميت" والمنتظرة عند "أكيلال فاي" يوم 9 مايو 1909 حتى تصل منطقة "تيزكي".

2) إقامة محطة في منطقة "أكيلال فاي" يهرب وجودها حركات فرقة النهب التي اعتادت التزود بالماء من هناك والتمكن من الحصول على المرعى في ظروف أفضل مما عليه الحال في "تيزكي" بالنسبة لحيوانات النقل غير الضرورية في الوقت الحالي.

تتخلص هذه التحركات كمايلي:

أ. الفرقة الثانية تغادر "تيزكي" يوم 7 مساءً ومتوجهة إلى "غسرمت" حيث تلقتي بالفرقة الثالثة وتتوجه الفرقتان إلى "أكيلال فاي" تحت قيادة قائد الكتيبة "افير جان" وتستقر الفرقة الثانية عند "أكيلال".

ب. فور وصول فرقة "افير جان" إلى "أكيلال فاي" تتوجه القافلة القادمة من "بوتلميت" إلى تيزكي تحت حراسة الفرقة الثالثة ومفرزة الجمالة القادمة من "اترارزة" تحت قيادة الملازم "أوبير" الذي سيترك في "أكيلال فاي"، تحت حراسة الفرقة الثانية، جميع ما يراه غير ضروري أثناء طريقه.

تعليمات تفصيلية:

وحدات الفرقتين الثانية والثالثة:

- تترك الفرقة الثانية في "تيزكي" ما لديها من العمال ولوازم فرق المدفعية والرشاشات مع الملازم "أبلود" والمجموعة القابلة للتفسير.

- الفرقة الثانية تأخذ من "تيزكي" مدفعا رشاشا مع أحزمة من الذخيرة وكمية احتياطية من ثلاثين خرطوشة لكل رجل أي ستة أكياس من خرطيش نوعية 1886 والأدوية الضرورية أثناء المعركة ولكافة الخدمات طيلة شهر، مئونة يوم من الماء أي 6 لترات لكل رجل وثلاثين لتر لكل فرس أي مائة برميل ومئون خمسة أيام من الأغذية (لغاية 13 مايو بما في ذلك اليوم الأخير) ومئون يومين من اللحم ماشية ليومي 9 و 10 ومئونة ثلاثة أيام من اللحم المجفف لأيام 11 و 12 و 13، سيتم إرسال الأمتعة غير الضرورية إلى "بوتلميت" ويرافق الرقيب "كاك مين" الفرقة الثانية.

الفرقة المرافقة:

- ستنشكل فرقة مرافقة القافلة من جمال الغنيمة بالنسبة للفرقة الثانية.

- الفرقة الثالثة ستأخذ الجمال ذات الوضع الجيد الموجودة معها حاليا أي ما عدده 43.

فرقة المتطوعين:

- تسير فرقة من المتطوعين مع وحدات الفرقتين الثانية والثالثة.

تعليمات خاصة بالفقرة الثانية:

- تموين الوحدة في "أوكار". من حيث المبدأ تأخذ الفرقة الثانية تموينها من "بوتلميت" أثناء الإقامة في "أوكار". يتلقى قائد الفيلق حاكم دائرة "اترارزة" أمرا بإرسال قافلة لهذا الغرض إلى "تمزكيده" حيث ستأتي الفرقة الثانية لاستقبالها، سيغتم الرائد "أفيري جان" المنتهية إقامته فرصة هذه التحركات من أجل السفر، سيتصل النقيب قائد الفرقة الثانية بقائد الكتيبة حاكم دائرة "اترارزة" ليحدد بالتشاور مع هذا الضابط السامي تاريخ الاتصال عند "تمزكيده" بقافلة التموين التي سترسل له، وفي انتظار هذا التموين ستصله مؤن غذائية من كتبية الجمالة خارج الإطار في "اترارزة" على أن يعوض الكميات لاحقا...

جمالة "اترارزة":

- تنتظر الكتبية خارج الإطار عند "أكيلال فاي" وصول الفرقتين الثانية والثالثة في حدود 13 مايو وستتخذ التدابير لمغادرة "أكيلال فاي" نفس المساء أو من الغد عند وصول هاتين الفرتبين. وستترك في مستودع الفرقة الثانية: 150 ثور، والحيوانات واللوازم غير الضرورية بالنسبة لها في تشكيل قافلتها، سيأخذ فيلق الجمالة خارج الإطار عند مغادرته "أكيلال فاي" مؤونة 20 يوما من المواد الغذائية لرجاله ورجال قافلته وبترك الفائض، إن وجد، للفرقة الثانية، يبقى الملازم "أوبير" صاحب الاختيار بين المسارين: إما المسار المباشر بين "أكيلال فاي" و"أكيلة انعاج" أو المسار بين هاتين النقطتين مرورا ب"انواكل".

حسب المعلومات الواردة حتى اليوم والتي كملتها فرقة "أفيري جان" يوجد في "أمطليش" معبر قبالة "أعكيلة انعاج" فيه الماء والمرعى الضروريان أثناء الاجتياز وتوجد في "امبش" كمية كافية من الماء للرجال، ويبدو اجتياز الكثبان عبر المسار الذي يمر ب"انواكل" أكثر سهولة من الطريق المباشر. سيجد الملازم قائد القافلة عند وصوله "غسرمت"، التعليمات المتعلقة بالمكان الذي يجب عليه أن يوجه نحوه القافلة بصفة نهائية".

ذلك هو مضمون الأوامر العملية رقم 28، ومنها تظهر دقة تصور العقيد وحجم العمل التحضيري للتعليمات الذي أنجزه النقيب "جيرهارت"، لقد كنت على حق حين قلت إن هذا الأخير يقوم وحده مقام هيئة أركان بكاملها. سنرى ما ستفعله الظروف بتنفيذ هذه التعليمات الواضحة جدا والكاملة. لنلاحظ أولا أن الأمر لم يعد يتعلق بترك الفرقة الثالثة محصنة في

"غسرت" كما كان قد تقرر يوم 4 مايو. أرسلت خبراً بأن الفرقة الثالثة لم تعد تتوفر إلا على أربعة براميل من 20 لتر اثنان منها فقط في حالة جيدة، وبعملية حسابية دقيقة اعتقد أنه بالنسبة للفرقة الثالثة وحدها يلزم وجود 74 برميل، كما أن براميل "تيزكي" في وضعية سيئة ويرشح منها الماء. والقرب التي تعوض البراميل تعتبر حلاً غير مضمون خاصة تلك التي أعدتها لنا النساء⁴⁹⁰ العاملات لحساب القافلة في "تيزكي" كنا نسير سنتي 1904-1905 في الظروف العادية دون براميل مكتفين فقط "بالقربة"، قد تكون متطلبات الفرق قد كانت أقل في ذلك الوقت.⁴⁹¹

وإذا لم تكن الظروف المناخية غير عادية ولم يكن الحر شديداً خاصة يمكن أن نجتاز الكثبان بكمية أقل من الماء وبالتالي عدد أقل من الأوعية، يكفي فقط أن نقطع مرحلتين طويلتين أثناء الليل.

أشرت إلى أن تسعة عشر جملاً من بين الثلاثة والأربعين التابعة للفرقة الثالثة يجب أن يخصصوا لحمل الأوربيين ويخصص الأربعة والشعرون الباقون لحمل الأمتعة ويبقى فريق الماء أي على الأقل ثمانية جمال والجمال الأخرى الاحتياطية.

يسمح لسبعة وعشرين من المتطوعين والجمالة بمرافقتي وفي حالة ما إذا تسلل أفراد آخرون لمرافقتنا إلى "أوكار" سيتم نزع أسلحتهم وبسرافقوننا مشياً على الأقدام سيرافق الدليل "المحرج" الكتيبة المتجهة إلى "أكلال فاي" على أن يواصل سيره بعد ذلك إلى "آدرار" صحبة قافلة الملائم "أوبير".

لقد أصبحت تفاصيل التنفيذ تتضح شيئاً فشيئاً وقد استعرضت مطالبتي وسيرد العقيد على رسائلي وأصبح شكه متزايداً في وجود الجيش الذي نتحدث عنه معلوماتي وتؤكد عكسا لما يراه العقيد.

وافق على اقتراحاتي المتعلقة بتشكيل احتياطي من الماء فأرسل إلي مع النقيب "كامي" قائد الفرقة الثانية المائة برميل المذكورة في وثيقة الأوامر رقم 28 وهو ما مجموعه 2000 لتر من الماء وأنا أعرف ما تعانيه القافلة من نقص الماء بسبب عدم وجود البراميل مع أنها

⁴⁹⁰ - تكون دباغة الجلود رديئة في الغالب خاصة إذا تمت على عجل. صناعة القربة و"التاسوفة" من اختصاص الصانع التقليديين ونسائهم وهم طبقة سفلى في عين البيضان.

⁴⁹¹ - "القربة": (جلد تيس أو معزاة) ومن مساوئها أن رائحتها تختلط بالماء كما أنها ضعيفة، ولكنها لا تجرح الجمال بخلاف البرميل المعدني الثقيل وغير الملائم، كما أن إغلاقه لا يكون محكما في أغلب الأحيان.

يجب أن تكون محكمة الإغلاق ولكن فني اللحامة الذي تفحصها أخيرا في "تيزكي" لم يستطع أن يصلح سوى الثقوب الكبيرة فالاحتياطي من الماء سيكون محدودا وأنوي تعويض ذلك بطلب موجه إلى الملازم "أوبير" بأن يرسل أمامنا قافلة من الماء وهي فكرة أضفتها شخصيا. سأبقى حرا في اختيار طريقي.

- "كتب العقيد يشير إلى وجود مصلحة أكيدة في التوجه إلى "امبش" لتقليص المرحلة المعطشة من الطريق وبخصوص مواصلة السير باتجاه "انواكل" أو "أكلال فاي" أشرت إلى أن الطريق من "امبش" إلى "انواكل" سيكون أقصر من الطريق من "امبش" إلى "أكلال" ولكن يمكن تعويض هذه الزيادة في المسافة باجتياز الكثبان من أطرافها... بالتأكيد! كما أن منحدرات الكثبان تكون أكثر صلابة عندما نعبرها بصفة رأسية كما هو ممكن إذا سلطنا طريق "امبش" في اتجاه "انواكل" ولا بد من التخفيف على جمالنا سأتجه إلى "أكلال" وبالأخص نظرا لكوني أعرف أن الدليل الذي يرافقنا يعرف هذا الطريق أكثر، كما أننا، أنا والملازم "أبلود" نعرفه إلى حد ما فقد سلكناه من قبل.

يعول علي العقيد في أن أقوم فور الوصول إلى "أكلال فاي" بالحصول من رؤساء المتطوعين القابلين للتفسير على الوفاء بوعدهم بالعودة إلى القافلة في "آدرار في موسم حصاد التمر. ثم عاد إلى موضوع الجيش وكتب:

- "هناك بالتأكيد تجمع عند "اروية" و"تينيلال" و"زوك"، كان هنا سابقا أثناء معركة "غسمرت" وهو جزء من مخيمات "اللبه" التي تراجعت إلى الشمال الغربي في حين كان الجزء الآخر قد توغل إلى الشمال الشرقي وسأرسل دوريات في هذه الناحية عندما تصل القافلة".

لا يتعلق الأمر بالجيش الذي وصلتني أخباره، بل هو جيش "اتلاميد"، ولكن لا يوجد من هو أشد صمما من الذي لا يريد أن يستمع... كتب إلي الرائد "أكلودل" من "تيزكي" يوم 7 مايو مودعا وبما أنه كان يقود كتيبة موريتانيا فقد كنت أوصيته على الفرقة الثانية ونقيبها فرد علي: "يمكن أن تطمئنوا على أنني سأفعل كلما في وسعي من أجله ومن أجل هذه الفرقة وقد لا يعني هذا كثيرا لأن نفوذي محدود كما تعرفون. كم من الأحداث ينتظرنا خلال أيام! طوارئ؟ ليس بالنسبة للجميع ذلك هو رأينا في أطار في أن العدو يتحين الفرصة ويمكن أن يذيقنا شره. مسكين "بابلون"! كانت له عيوب ككل أحد ولكنه كان جنديا صلبا... لقد كان

الرائد "أكلودل" يدرك ببصيرته أن طريق عودتي إلى "أكليلا فاي" قد لا يكون مفروشا بالورود وكان يتمنى لي طريقا أقل تعباً. تغير الوضع فاجأة في "تيزكي" نفس اليوم 7 مايو. فقد كتب إليه العقيد يقول:

- "يشرفني أن أبلغكم أن "ولد المعيوف" قد جاءني للتو (العاشرة مساءً) برجل من "أولاد عمي" الداخلين تحت سلطتنا يقول:

إنه غادر من الشمال الغربي بحثاً عن مجموعة من العبيد وشاهد قرب "تكلت" مجموعة مسلحين على الجمال يبدو أنهم يحرسون تجمعاً وقال إن امرأة أخبرته أن هؤلاء المسلحين من جيش "أهل الشمال"، "أولاد ادليم" و"اركيبات". وأثناء عودته إلى "تيزكي" صادف على مسافة خمس كلم غرب "افجار" آثار جيش يقدر عدده بثلاثمائة جمل، ويقول إن الآثار تعود إلى الصباح وهي قادمة من الجنوب الغربي في اتجاه "غسرمت" أو "إريكي". قد يكون هناك إذن جيشان واحد قادم من منطقة "تتيبال" و"أوريه" وواحد من "زوك" حيث تقيم مخيمات "اركيبات" و"أولاد ادليم" منذ حادثة "اللبه" يوم 1 إبريل وقد يتعلق الأمر بجيش "ولد الديد" الذي يريد النزول مرة أخرى.

لابد أن نتخلص من هذين الجيشين القادمين من أجل ترصد قافلة "بونلميت" الكبير التي يجري الحديث عنها منذ وقت طويل والتي قد يلحقون بها ضرراً بالغاً إذا هاجموا وسط المنطقة المعطشة. سأرسل فرقة الجمالة التابعة لـ"دوبورتويس" والطبيب "ماي" عند الساعة الحادية عشرة وسأشعر النقيب "كامي" بضرورة التقدم بحذر وإذا سمع طلق نار عليه أن يسير محاولاً تطويق العدو من الجانبين ستصلكم غدا صباحاً الوحدة الثانية وفرقة الجمالة المتطوعين وسترسلون فرقا لاستكشاف الآثار في المنطقة المذكورة سابقاً، وسأرسل من جانبي فرقا أخرى لنفس المهمة، فإذا كان العدو في مرمى مدافعنا ستهاجمونه بكل ما لديكم من قوات فحوض معركة بهذه القوات قد يكون أفضل طريقة لإفساح الطريق أمام القافلة، وإذا تأكد من الآثار أن الجيشين قد تجنبنا منطقتكم وتوجها إلى الجنوب فستواصلون مسريكم في اتجاه "أكلال" لتخبروا الملازم "أوبير" في هذا المكان بأقصى السرعة. وإذا لم يكن الجيشان قد توجها إلى الجنوب ولم تتمكنوا من اللحاق بهما فتابعوا اقتفاء الآثار ما أمكنكم ذلك وحاولوا القيام بعمليات توغل جديدة..."

لم أكن واهما إذن فوجود الجيشين الذي كان قبل قليل موضع شك قد تأكد الآن، وهاهم يعترفون أن من الأفضل أن نهجمهم إن أمكن ذلك قبل التوجه إلى "أكلال فاي". ولكن لم أقل أبدا بعكس ذلك! كتب إلي العقيد يوم 8 مايو حول موضوع الجمال:
- "يشرفني أن أخبركم أن الجمال بسبب هذه التحركات المختلفة والخسائر أصبحت تموت بطريقة مقلقة..."

باللهول! تماما مثلما وقع من قبل لفرقة "إينشيري"...

وصلت رسالة جديدة يوم 8 مايو عند الساعة الثانية بعد الزوال.

- "من اللازم أن تكون لديكم منذ هذا الصباح الفرقتان الثانية والثالثة ومجموعة المتطوعين وإذا كان العدو عند "تابرنكوت" فستكون دورياتكم قد أبلغتكم بذلك، لقد قطع النقيب "بابلون" المسافة بين "تابرنكوت" و "غسرمت" في خمس ساعات، وإذا لم يكن العدو قد هاجمتم عند "غسرمت" فسيروا لمهاجمته فقد يكون متجها إما إلى "غسرمت" وإما إلى "تيزكي" وفي هذه الحالة الأخيرة ستوصلكم الآثار إليه من الخلف. وإذا كان الجيشان موجودين فعلا وكانت تشكيلتهم هي كما بلغنا فمن المحتمل أن يكون جيش "اتلاميد" هو الذي هاجم "غسرمت" يوم 28، وغادر من هناك يبحث عن تعزيزات في "زوك" بدل التوجه إلى "تورين". ولا يغيب عنكم في حالة كون العدو يحاول تنسيق عملياته ويستطيع محاكاة مناورة المتطوعين يوم "غسرمت"، فلا بد إذن أكثر من أي وقت مضى من تشكيل فرقة احتياطي..."

وكنتيجة لرسالتي العقيد بشأن الجيش سرت بجميع من معي على طريق "تابرنكوت" - "أفجار" ليلة 8-9 مايو وأبلغته بذلك، وصلت "تابرنكوت" مع الفجر وقبل نهاية اليوم أرسلت دوريات من المتطوعين جابت جميع منطقة "أفجار".

وقبل مغادرتي "غسرمت" أرسلت ثلاثة من المتطوعين على طرق مختلفة في اتجاه الملازم "أوبير" أطلب منه تحضير كميات محمولة من الماء لاشك أننا سنكون في أمس الحاجة إليها أثناء عبور الكثبان، ومن أجل إرسالها عليه أن ينتظر طلبي ولم أخف عنه شكوكي ولكن ما من وسيلة تخلصني من عبور هذه المنطقة المعطشة فعلى ذلك يتوقف مصير القافلة برمتها.

أوصيت الملازم "أوبير" بالحدز واتخاذ الحيطة لأن الجيش يستهدفه. لم يعثر رجالي من المتطوعين على شيء، لا في "تابرنكوت" ولا في "أفجار" ولكن بعض الزوايا أكدوا لي أن جيش "اتلاميد" قد شوهد عند "اعكيلة انعاج" وفي هذه الظروف لا وقت لدينا نضيعه فلا بد من التمرکز بين جيش "اتلاميد" وقافلة "أوبير" وهو ما يتطلب السير دون توقف في اتجاه الجنوب، أرسلت إلى العقيد أشعره بقراري.

جاءني رده يوم 9 مايو:

- "ما لدي من معلومات هو كالاتي: أخبرتني امرأتان من "آزناكه" التابعين "لولد المعيوف" أنهما التقنا بجيشين في منطقة "تكيكت-تفرزاز" يوم 7 مايو صباحا أحدهما من "اتلاميد" والآخر من "اركييات" و"أولاد أدليم". ويبدو أن الثاني قد قدم للتزود بالماء من "تابرنكوت" وهو ينوي متابعة جيش "اتلاميد" الذي يسير أمام القافلة.

الهدف الأساسي هو تأمين عبور القافلة فقراركم إذن بالتوجه فورا إلى "أعكيلت انعاج" و"امبش" هو قرار صائب وله ما يبرره ما دام الجزء الكبير من الجيش قد عبر "أمطليش".
أكلفكم بأن تصدروا عند "أكيلال فاي" الأوامر الضرورية لتأمين عبور قافلة "بوتلميت" وهي تتوفر على قوات هامة ولكنها ستواجه عقبات نظرا لحجمها وعدد الجمال وجفاف المنطقة ووجود العدو، فستكون إشاراتكم مفيدة لها في تحديد مسارها.

عند الساعة الحادية عشرة صباحا عادت دورية "أولاد عمي" التي ذهبت بالأمس إلى "تابرنكوت"، لقد أوقفوا مساء أمس عند الساعة الرابعة أحد الحراطين من أهل "باركلل" قال إن جيشا من نحو مائتي رجل ما بين "اركييات" و"أولاد أدليم" قد مر صباح 8 مايو قرب "تابرنكوت" وأخذ عدة أكباش وتوجه إلى "اعكيلت انعاج" في حين مرت أعداد من المسلحين من ناحية الشرق وهم يسألون عما إذا كانت قوافل الفرنسيين قد هبطت المنطقة أم صدعتها. هذا يؤكد المعلومات السابقة: "فالجيشان المذكوران يستهدفان القافلة قبل كل شيء".

لفتت انتباهي الفقرة التالية من الرسالة: "الهدف الأساسي هو تأمين عبور القافلة"، لقد خسرنا الوقت أثناء عودتنا من "تابرنكوت" أمرت رجالي بالاستراحة وأرسلت إلى العقيد متطوعيه فقد يكون محتاجا إليهم كما أنني لا أتوفر على ما يكفي لتغذيتهم.

لم أنطلق إلا عند الخامسة مساء لأستفيد من برودة الجو ليلا وتوقفت للاستراحة فوق الطريق المؤدي إلى "أعكيلت انعاج" التي وصلتها يوم 10 مايو عن الساعة 9:30 لقد

قلصت خسارة الوقت بأقصى ما يمكن وأنوي الوصول إلى "اكلال فاي" يوم 15 بدل يوم 13 مايو لقد تباطأ الرماة السنغاليون أثناء الطريق خاصة الفرقة الثالثة، وعلى كل حال هذا يكلفنا خمس عشرة ساعة من السير الإضافي لم نكن نتوقعها أو بعبارة أخرى اثنين وستين كلمتر تضاف كمسيرة تدريب إلى الأيام الخمسة من السير مستقبلا في هذه المنطقة المعطشة.

ملأت البراميل والقرب من الماء ولكن إصلاح البراميل في "تيزكي" لم يكن جيدا فنحن إذن بعيدون من الألفي لتر من الماء التي كان العقيد يعول عليها ككمية احتياطية. ولكن وحدات حمل الماء ستجعلنا في مأمن من العطش، لا بد أن أقول إن عطب البراميل لا علاج له وإن عولج فنادرا ما يكون ذلك نافعا إن من المجازفة المأساوية أن يجد المرأ نفسه مجبرا على اقتحام هذه الظروف مجتازا المنطقة التي تحدثت عنها ولكن الأمر لا يتعلق بنا نحن بل يتعلق بمصير قافلة آدرار برمتها فلا بد إذن من عبور القافلة مهما كلف الثمن: المقبلون على الموت يحيونكم.⁴⁹²

بادرت مساء 8 مايو إلى تقدير الخسائر وكتبت بذلك إلى الملازم "أوبير" ولكن لدي أمل إذا كان الوقت عاديا أن أقلصها إلى أقصى ما يمكن بحيث لا تتجاوز العشرة من القتلى أو المختفين أو أقل من ذلك بكثير إذا كان الماء موجودا في "أعكيلة هوك". حياتنا هي الفدية التي ندفعها مقابل حياة القافلة. وبطبيعة الحال لم أتحدث عن ما أفكر فيه إلا إلى العقيد والملازم أوبير، حتى ضباطي لم أحدثهم بشيء.

كان الرماة منهكين ساعة الانطلاق بسبب الاثنين والستين كلمتر التي قطعوها وكانوا مقطبين وتقاعسين عن الذهاب ليلة 11-12 مايو. كنا سبعة ضباط وخمسة عشر من ضباط الصف الأوربيين ومائتين وعشرين من الرماة وثمانية وعشرين من "البولار" وثلاثة وعشرين من المتطوعين معهم "سيدي" وأربعة وثلاثين من الحراس البيضان ولدينا مائة وتسعة عشر جملا. عبرنا منطقة "أمطليش" من المكان المحدد واشتدت الحرارة منذ الصباح ونحن نسير على الرمال والرخوة، كان الرجال متعثرين. كم هم هؤلاء الرماة العاملين معي الآن في موريتانيا دون مستوى أنظارهم الذين عملوا معي في الحملة التي قادتنا من "أكليلا فاي" إلى "آدرار" وكم هم دون مستوى الفرقة الرابعة من الكتيبة الرابعة من السنغاليين التي هي الآن

⁴⁹² - "المقبلون على الموت يحيونكم": صرخة المصارعين في روما أمام محفل الإمبراطور قبل المواجهة.

الكتيبة الخامسة في مسيرتنا الحالية! من حيث طريقة الاكتتاب يمثل هؤلاء حثالة المترشحين فلم يرسل إلى موريتانيا إلا من تبقوا بعد عمليات الاكتتاب الموجهة إلى جميع مستعمرات إفريقيا الأخرى، ومن حيث القيمة العسكرية فهم بالكاد متدربون فالوحدات قد أرسلت إلى الكتيبة دون تدريب ودون أي تمرين عسكري والأخطر من ذلك أن هذه الوحدات منذ أن أنضمت إلى القافلة لم يكن أفرادها يجدون ما يكفيهم من الغذاء، فحوص الغذاء بعيدة جدا من مستوى تلك التي كنت أخصصها لفرقة "إنيشيري" فالرجال منهكون وليست لديهم مقاومة جسمية. في هذه الظروف إذن انطلقت في مسيرة طويلة لأعبر مسافة أربعمئة كلمتر وهي أطول من تلك التي قطعتها في شهر نوفمبر الأخير وأنا أقطعها الآن بفرق أدنى مستوى من تلك التي كانت عندي سابقا، ورغم ذلك وحدتي بمثل تلك الفرق فقد كنت كتبت إلى العقيد ملحا على عدم تكرار مثل هذه المغامرة بأي حال من الأحوال. حتى ولو كانت الظروف المناخية عادية جدا. ولكن قضي الأمر وتمت اللعبة ولا مكان لعمل أي شيء.

بينما كنا نهبط "أمطليس" من الجنوب الغربي قطعنا طريق جيش من "اتلاميد" يتجه نحو الجنوب الشرقي، إذن كلما انحرفنا باتجاه الجنوب الغربي كلما ضعفت إمكانية ملاقات هؤلاء "اتلاميد" الرهيبيين في منقطة معطشة، فاتجاه آثارهم يشير إلى أنهم غير متوجهين لا إلى "أكيلال" ولا إلى "انواكل". وقد جعلتني هذه الملاحظات أصر على قراري بالمسير في اتجاه "أكيلال" بحيث لا أكون مجبرا على مواجهة مصاعب العبور وبحيث أكون في مأمن من هجوم أثناء الطريق.

كنا عند "امبش" في حدود الساعة الثامنة صباحا وكان هناك بعض أصدقائنا من "أولاد بالسباع" وتجمع كبير من "أهل باركلل" كانوا يسحبون الماء من سبع إلى ثمان "عكلات" ولكن الماء مع الأسف لم يكن كثيرا وبما أن اليوم كان شديد الحر فقد قررت المقييل قرب الآبار واغتتمت فرصة التوقف لأملا جميع أوعية الماء الموجودة مع الرجال بالإضافة إلى كميات الاحتياط المقدرة نظريا بألفي لتر، وأقدر أن كل رجل سيحمل معه إما بيده أو على الجمال التي تحمل الأمتعة عشرة لترات من الماء على الأقل وهذا يكفي في الزمن العادي.

أخبرني أهل "باركلل" بأن لا وجود للماء في "أكيلال هوك" كما لا يوجد فيها أي جيش فاستخلصت من ذلك أن الحل الذي أصبح يفرض نفسه في جميع الاحتمالات هو

المسير رأساً من "امبش" في اتجاه "أكيلال فاي"، وليكن ما يكون، انطلقت مساء 11 مايو عند الساعة الثالثة، وصلني بريد من العقيد لحظة الانطلاق وعلى الرسالة تاريخ 10 مايو:

- "لقد مرت فرقة من ستين إلى سبعين من "اتلاميد" بموقع "امجيرييه" ووصلت مساء أمس إلى "أمرماز" وقد تحدث "اتلاميد" مع نساء من المخيم وأخبروهن بأنهم فقدوا عشرة قتلى وعدد من الجرحى في معركة يوم 28، ولكنهم استولوا على مجموعة من الثيران جاءوا بها يوم 7 إلى "عسمرت" ولكنهم لم يجرؤا على القيام بمحاولة هجوم جديد وإنهم في الطريق متجهين ناحية "المجرية" بحثاً عن الأفراد المعزولين أو الفرق.

يتعلق الأمر إذن بنصف جيش 28 إبريل باعتبار النصف الآخر قد رافق الجرحى أو نزل باتجاهكم وستكونون قد لاحظتم عند "عكليت انعاج" ما إذا كان قد مر بها فعلا عدد يبلغ مائتي رجل يوم 7 مايو".

لقد مر مائتا رجل بالفعل عند "عكليت انعاج" يوم 7، ولكنهم لم يَمروا دفعة واحدة فقد قدم في البداية جيش "اتلاميد" المذكور ثم تلاه جيش "أولاد ادليم" و"أركيبات" و"أولاد بالسباع" وهي جيوش قادمة من "أكجوجت" وضواحيه وقد شربوا من "عكليت انعاج" قبل أن يفترقوا في الشمال الغربي وكان هناك بالفعل أكثر من مائتي رجل.

إذن؛ يبدو أن حدسي لم يكن كاذبا فالمؤشرات التي حصلت عليها منذ أول مايو لم تكن عديمة الجدوى كما قيل في البداية، "لا يحتاج عجوز القردة لأن تعلمه التكشير" كما لا يحتاج العجوز الموريتاني مثلي إلى التدريب على شم رائحة العدو، كانت القافلة تسير في سهل "إفوزويتن" الواسع تحت حرارة طاحنة.

ويكون النهار طويلا في مثل هذا الفصل من السنة، كنا نزحف إلى الأمام حتى في وقت الغروب وعند الساعة التاسعة مساء انطلقت عاصفة رعدية مبرقة مرعدة فلنا ظلام دمس تحت سماء ملبدة بالغيوم وتهاطلت بضع قطرات من الماء مع عاصفة قوية فأوقفت القافلة وأخذنا للنوم. استأنفت المسير يوم 12 مايو عند الساعة الثانية صباحا وما دام الوقت ليلا لم يعان الرجال كثيرا ولكن السير في الظلام الحالك لم يكن سريعا كما هو في وضح النهار، فكنا نتقدم ببطء كبير وما كادت الشمس تخرق الأفق حتى اشتدت درجة الحرارة، ربما تكون مرحلة الأمس كانت قاسية أكثر إلا أن الرجال حتى الآن في ظروف مقبولة من حيث مواجهة العطش، يجب أن لا ننسى أن أجسام هؤلاء الرماة قد عانت طويلا من الحرمان منذ

سنة أشهر، ومقاومتهم ضعيفة ليس فقط للعطش ولكن أيضا أمام التعب وشدة الحر... ومرة أخرى قررت التوقف عند الساعة الحادي عشرة صباحا تحت شمس حارقة وفور وصول المعسكر أمرت جميع أفراد فرقة المتطوعين (باستثناء خمسة أو ستة احتفظت بهم للمراسلات المحتملة) بالسير إلى الأمام وأمرتهم بأن يطلبوا من الملازم "أوبير" إرسال قافلة من الماء على أن تصلنا يوم 13 مايو على أن يحضر قوافل ماء أخرى للأيام المقبلة حتى نصل الآبار وكنت أعتقد أن قرب الماء ستكون كافية ليوم 12 مايو، وكنت أنوي أن لا أستخدم براميل الماء الاحتياطية إلا يوم 13. ولكن المناخ كان ثقيلًا وكان الرجال قد شربوا أول النهار جميع ما في صفائحهم من الماء، وأمام شكواهم الملحة مع حلول الليل قمت بتوزيع الماء بواقع لترين من ماء الاحتياطي. لقد كانت معنوياتهم متدهورة لدرجة أن ستة من الرماة قد هربوا ليلا حاملين أسلحتهم وأمتعتهم وجميع ما تمكنوا من سرقة من مياه زملائهم، حين سمعوا باحتمال تقسيط الماء في الأيام المقبلة ولم ير أحد هؤلاء الرجال الستة بعد تلك الليلة. طبعًا كنت أضع براميل الماء تحت حراسة الأوربيين وبما أننا لم نعط للرجال إلا الأرز في "تيزكي" بدلا من "البسكويت" التي لا تحتاج إلى الماء فبدلا من أن يخصصوا ربع لتر لطهي الأرز فضلوا شرب الماء وترك الأكل وهذا سبب آخر لضعفهم ومن أجل أن أجنب القافلة الحر الشديد نهرا انطلقت يوم 13 مايو عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكنا نتقدم ما دام الوقت ليلا ولكن بمجرد طلوع النهار كنا نتوقف عند الساعة التاسعة صباحا وفي ذلك اليوم توقفت وعسكرت فوق كئبان "البراوية".

وكان أربعة من الرماة قد اختفوا أيضا أثناء المسير فأرسلت "سيدي" مع دورية من المتطوعين للبحث عنهم فجاءوني بهم وكان الرجال الأربعة قد ذبحوا جمالا⁴⁹³ وشربوا الماء الموجود في كرش كل واحد منها ودخل كل واحد مهم في بطن أحد الجمال بعد أن أفرغ ما فيه لقد كان منظرهم بشعا حين قدموا ملطخين بالدماء، إنها أولى مراحل الرعب. لم نتحرك طول النهار كنا ننتظر قافلة الماء القادمة من الملازم "أوبير" اشتدت الحرارة بين الزوال والساعة الرابعة مساء لدرجة أن الحراس البيضان رغم تعودهم على اشتداد الحر في شهر مايو قد لجأوا إلى دفن أجسامهم في التراب تحت الأشجار، وقلدهم في ذلك الكثير من الزوج

⁴⁹³ - ذلك ما يفعله البيضان ولكن في اللحظة الأخيرة، لأن الجمل يمكن أن يوصل صاحبه إلى حيث يجد الماء.

المرافقين لنا. وكان البعض منهم قد ضل طريقه وأصبح يهذي ومع ذلك كانت فرقة "البولار" عند الوصول متباهية تسير في انتظام وأفرادها يغنون نشيدهم المعتاد "مايرم مايرم" ومن جهة أخرى كان الأوربيون وهم على علم بأن الماء في طريقه إلينا، يحاولون تصبير الرماة وصل جمالة الملازم "أوبير" عند الساعة السادسة مساء فاستقبلهم الجميع بصياحات الفرح مع أن الذي وصل هو الدورية أما قافلة الماء فتسير في الخلف.

سلمني الرقيب الدركي "دييس بن عيش" قائد الفرقة رسالة من الملازم أوبير: "يشرفني أن أؤكد لكم استلامي لرسالتكم المبعوثة يوم 12 مايو من "أمليل" والتي وصلت هنا عند "أكليلا فاي" هذا الصباح عند الساعة السابعة فقط. لقد قال جمالتكم إن جمالهم كانت منهكة، أرسل لكم خمسة وثلاثين حملا من الماء أي نحو ألف وأربعمائة لتر وأرسلت أمامهم دورية ستوصل لكم هذه الرسالة لكي تنتظروا الماء جاهزين ولكن بما أنني لم أتلق شيئا هذا الصباح فقد أرسلت الجمال إلى المرعى ولهذا السبب لن يغادر الرجال إلا في حدود الساعة الثامنة وإذا لم تصلوا إلا هذا المساء وحتى هذه الليلة ستجدونها جاهزة عند وصولكم إلى مكان المخيم حيث ألفي لتر من الماء جاهزة للتوزيع، سيصل الماء حسب اعتقادي ساعتين بعد وصول رسالتي لأن الجمال تسير ببطء لكي لا تتلف قرب الماء. لم تكن لدي حاجة لأن أخطر بخمسة وثلاثين رجلا من أجل إنقاذ ثلاثمائة ستجدون قنينتي خمر داخل إحدى القرب ضمن قافلة الماء وأصيكم بالمحافظة على القرب فهي الوسيلة الوحيدة الموجودة لدى رجالي".

كان بإمكانني كشف مسؤولية الملازم عبر أمر مكتوب بأنه لم يشأ المخاطرة بعدد صغير لكي يوصل إلينا الماء، وهذا في حالة احتمال تعرض العدو له بأعداد كبيرة. لقد اعتدت التغطية على أخطاء من يعملون تحت إمرتي وتحمل مسؤولية أوامري وأنا أصدر أوامر مكتوبة إذ لا نعرف أبدا من يحيا ومن يموت خاصة في ظروف سيئة كهذه التي نعيشها ومع هذا التوقف الإجباري اليوم لا بد لي من طلب كمية من الماء تكفي على الأقل لغاية 14 مايو دون الأخذ في الحساب أني قد لا أتقدم كثيرا فأنا آمل أن أصل يوم 14 منطقة "تاركة" حيث يمكنني الوصول إلى "أكيلال فاي" بواسطة المسير ليلا.

أخذت "دييس بن عيش" جانبا وأوصيته بأن يصف للملازم سرا ما شاهده في معسكري وأن لا يخفي عنه خطورة الوضع.

تمكنت من توزيع ما يقارب ثمان لترات لكل واحد من رجالي مساء 13 مايو ولكن الحر كان شديدا لدرجة أن الزوج لم يتركوا شيئا من الماء لطهي الأرز فهم يشربون الكمية برمتها في طرفة عين. حاول بعض الأفراد أثناء النهار استغلال الوضعية من أجل التمرد وهم في العادة رجال تابعون لما كان يعرف سابقا بفرقة "بيرجير". وكانوا مصرين على محاولاتهم فوضعتهم تحت رقابة مشددة وبعد أن شرب الرجال ساد الهدوء ولم يعد المشاغبون يريدون التحرك وتمكن الكثير من الرجال من النوم رغم الحر الشديد ولكن لم يرد أحد منهم أن يأكل أي شيء حتى ولو كان لحما مشويا "النوم يعوض العشاء" كما يقولون ولذلك تركت رجالي يخلدون إلى النوم ولم تتطلق القافلة إلا عند الرابعة فجرا.

كنت أزحف يوم 14 مايو كعادتي في الأيام السابقة ما دامت الشمس لم تطلع وصلت جنوب "تاركة" على قمة كثيب "تمشامت البيضة" في المكان الذي كان الملازم "أوبير" يعتقد أن رجاله سيجدون فيه بالأمس، لقد تأخرت يوما كاملا عن سيرتي في الزمن العادي ولكن لم نكن لنخسر شيئا لو كانت درجة الحرارة قد تحسنت ولكنها مع الأسف اشتدت. سقط رجلان (من الذين كانوا يهدون بالأمس وكانوا محمولين فوق الجمال لضعفهم الشديد) ميتين بسبب الشمس أثناء المسير وكان الكثيرون يترنحون مدهولين من هول الحر.

فأمرت بالتوقف على عجل وكانت الساعة الثامنة صباحا فأقمنا المعسكر بسرعة رغم التعب قام الرماة بنصب خيامهم الصغيرة تحت الأشجار احتماء من الشمس الحارقة وعلى هذه الصفة انتظرنا قافلة الماء الثانية. ولكن الرجال قد تحطمت معنوياتهم وتحتم على الأوربيين أن يقوموا بأنفسهم بنوبات الحراسة ولحسن الحظ ما زالت لدينا فرقتان من فرسان الحراسة تدوران حول المعسكر وبعد قليل بدأ الحر يؤثر على بعض الأوربيين، فوجدتني مجبرا على إدخالهم في الظل تحت الخيمة.

حاول المشاغبون من الرماة بالأمس استغلال الوضعية ليعيدوا الكرة داعين بأصوات مرتفعة إلى التمرد، وكان أحدهم وهو متكئ تحت خيمته الصغيرة يصرخ باستمرار: "لقد هلكت القافلة أيها القائد" فغرست حربة البندقية في جسده. ظهرت بوادر الجنون على بعض الرجال وتسلل بعض الرماة حتى وصلوا الجمال وهي ترعى قرب المعسكر ودون سبب ظاهر قاموا بفصد أحد الجمال وحين فاجأهم عريف أوربي وهم يقومون بهذا العمل الخسيس، تمردوا عليه

وحاول أحدهم أن يطعنه بحربة بنقديته ولكن العريف تمكن من نزع سلاحه وأمسك به وشد وثاقه لكي يبعد ضرره.

تراجع أصحاب الرتب المحليين أنفسهم: وساد داخل المعسكر اضطراب عام وداخل الخيام الصغيرة وبدأ الطبيب يوزع كميات من سائل "الإيثير" على الأوربيين وكان الكثير من الزنوج يهذون ويصرخون حتى أن المرأ يظن نفسه في "شارانتون". وأخيرا انتقريت قافلة سخرة الماء وأعلنت فرقة الخيالة عن رؤيتها كانت الساعة الثانية بعد الزوال وفجأة دوى صوت طلقة نارية داخل المعسكر وعند هذه الإشارة اندفع نحوه العشرين من الرماة خارجين من خيامهم يحملون أسلحتهم يبدو أن أحد المتمردين قد أطلق رصاصة وتوجه الرماة الذين استجابوا لإشارة الطلقة النارية إلى قافلة الماء قاصدين الاستحواذ عليها بالقوة وكان مع الملازم "بيرتومي" الذي يقود حراسة القافلة أربعون جمالا ولم يستسلم لمهاجميه وقدم بأكثر من 1500 لتر من الماء تم توزيعها على الفور بين الجميع. وانطلق الملازم "بيرتومي" راجعا من فوره بعد أن لاحظ ما نحن فيه وهو مقتنع أن الملازم "أوبير" سيرسل آخر قوافل الماء كما أنه مقتنع أن القافلة ستترك مرضى الفرقة الثالثة في الموقع الذي توجد فيه حاليا تحت قيادة الرقيب المحلي "موري دامبلي".

كما ستترك هناك كافة الأمتعة على أن يعود الملازم "أوبير" لأخذ الجميع يوم 15 صباحا. قررت أن تستأنف القافلة سيرها بالليل مصطحبة معها الجمال المتبقية ومرضى الفرقة الثانية وتوجهت رأسا إلى "أكيلال فاي" ولكن القافلة ستتوقف بالتأكيد أثناء الليل في المكان الذي ستنام فيه وستشعل نيرانا ضخمة وقد تم إشعار الملازم بذلك وقد يساعده ذلك على القدوم بالماء أثناء الليل لتتمكن القافلة من بلوغ الآبار بأقل جهد.

انطلقنا أثناء الليل معتقدين أن الحر سيكون أقل ولكن درجة الحرارة كانت خانقة وكنا لا نرى شيئا. كان مرضى الفرقة الثانية جاثمين على مؤخرات الجمال لا يفكرون إلا في تحين الفرصة ليلا والفرار بالجمال تحت جناح الظلام مبتعدين ليقفلوها ويشعلوا نيرانا ضخمة منعزلة في كل اتجاه: كما لو كان الاتفاق قد حصل على جعل الملازم "أوبير" يضل طريقه إذ أقدم بسبب هذه النيران. شعرت وأنا أفكر في هذه الأمور أن الرماة الراجلين لم يعودوا يستطيعون المسير أكثر فأوقفت القافلة عند الساعة 11 مساء لتأخذ قسطا من الراحة، لقد كنت منشغلا جدا لدرجة لم أستطع معها النوم، كنت أنتظر قدوم الملازم "أبير" ولكني أفعل مثل الأخت

"آنا"، ما ذا حصل؟ لا شك أن قافلة سخرة الماء قد ضلت الطريق أو حين رأت النيران في كل مكان تراجعت عن التوقف عندها وانطلقت رأساً إلى المكان الذي حددناه لترك الأمتعة والمرضى من الفرقة الثالثة.

وبما أن الماء لم يأت ولم يتبق لنا من المسافة سوى عشرين كلمتراً من الملح أن ننطلق قبل اشتداد الحر ولكن الرجال كانوا ساخطين لعدم وصول سخرة الماء التي كانوا ينتظرونها. وكان المتمردون يعبئونهم خفية... كما أنهم يظنون أنهم ما زالوا على مسافة بعيدة من الآبار ورغم ذلك واصلوا السير حتى طلوع الشمس وبعد ذلك أصبح السير قفزا ووثبا وكان الأوربيون في كل وحدة يجمعون حولهم أكبر عدد ممكن من الرماة ويتنازلون لهم عن آخر قطرات الماء الموجودة بحوزتهم ويحملونهم على الجمال حين يلاحظون تعبهم الشديد ويمشي الأوربيون على الأقدام.

لعبت فرقة الطليعة التي أسير فيها حلقة الوصل مع من استطاعوا السير إلى الأمام ومن بينهم فرقة "البولار" وقد استطاع رقيب محلي من هذه الفرقة أن يتعرف على التضاريس حول "أكلال فاي" وشاهد أحد الحراس قرب البئر وكان الرماة في فرقة الطليعة قد أفرغوا ما في صفائهم وما في صفائنا من الماء منذ وقت طويل وكانوا يتبادلون الأدوار في الاحتماء من الشمس تحت ظل جمال الأوربيين ولم يكن البئر قريبا بالقدر الذي يبعث فيهم النشاط للاسراع في المسير.

وأخيرا برز ثلاثة رجال فوق الجمال، إنه الملازم "موجينيى أبولى" صحبة اثنين من المتطوعين كل واحد منهم يحم قربتين مليئتين بالماء حول راحلته. وكالمسعورين رفع الجمالة الحراب واندفعوا نحوه، لم أجد من الوقت إلا ما يكفي لتسديد ضربة بقضيب حديدي لأحد الرماة كان يسدد نحو الملازم ثم نزعت سلاحه ففعل الأوربيون في فرقة الطليعة نفس الشيء وتمكن المتطوعان من الابتعاد ونفس الشيء فعل الملازم بناء على نصيحتي مع أن الرجال المسعورين قد انتزعوا واحدة من القربتين اللتين معه وبدأوا يتجادبنونها ثم قطعوها إربا إربا بحرايبهم ومع ذلك تمكنت من جمعهم ودفعهم إلى الأمام.

ابتعد الملازم "موجنيى بولى" ومرافقاه من أجل توزيع الماء على الفرق الموجودة في المؤخرة وهنا استقبلوهم بطلقات البنادق فعدل من فوره عن إغاثة هؤلاء المجانين⁴⁹⁴.
كان الأوربيون يسيرون على الأقدام في المؤخرة حيث كثافة القافلة فقد تنازلوا عن مطاياهم للرماة الأكثر تعباً بعد أن استنفد هؤلاء آخر قطرات الماء من صفائحهم وصفائح البيض كذلك. وكان الأوربيون يبذلون قصارى الجهد لدفع هذا القطيع إلى الأمام ولكن المتمردين واصلوا تعبيئة رفاقهم وفجأة توقف أحدهم تحت شجرة وتحلقت حوله مجموعة من المتمردين ورفض الامتثال لأوامر الرقيب الأوربي الذي كان يحاول دفعه إلى الأمام وأطلق عليه النار صائحا: "أطلقوا نيران بنادقكم على البيض" فما كان من رفاقه الذين كانوا متمددين تحت الخيام إلا أن هبوا وأطلقوا نيران بنادقهم من بعد على الأوربيين، فمر البيض من أصحاب الرتب والضباط والصف مواصلين السير دون رد على طلقات النار زاحفين بالرجال الذين بقوا معهم نحو الآبار وهم لحسن الحظ الأكثرية.

وبعد ذلك بقليل ساد إطلاق نار مستمر وعندما لم يعد المتمردون يجدون البيض في مرمى بنادقهم، بدأوا يصوبونها في كل اتجاه لإثارة الفوضى ويلقون بذخيرتهم وثيابهم وتجهيزياتهم لقد بدأت أمارات الجنون تستولي عليهم فعلا.

كنت في ذلك الوقت قد وصلت البئر مع فرقة الطليعة وكان إطلاق النار مستمرا منذ نحو ثلاثة أرباع الساعة. الحراس المرافقون الذين وصلوا بالأمس يحملون قريبا مملوءة بالماء إلى الرماة الموجودين في مؤخرة القافلة ولكن هؤلاء استقبلوا القرب ثائرين وانتزعوها وشتتوها أشلاء بحرابهم وسكاكينهم. وفي هذه الأثناء ظهر الملازم "أوبير" وكان قد اتجه إلى مكان مخيمنا بالأمس وأخذ أمتعة مرضى الفرقة الثالثة ثم عاد مقتفيا آثارنا وأثناء مروره أمام هؤلاء المجانين المسعورين استقبلوه بطلقات البنادق ولكنه امتنع عن الرد كما أنه تراجع عن إغاثتهم بالماء ولكنه جاء بفكرة رائعة فأخذ فرقة الجمالة الزوج وأرسلها إلى المتمردين بصفائح مملوءة بالماء وحين شاهدوا بني جلدتهم بدأوا يهدأون وشيئا فشيئا شربوا والواحد تلو الآخر وقبلوا وضع الأسلحة ثم ساروا مع رفاقهم إلى البئر حتى وإن وجد هؤلاء أنفسهم أكثر من مرة مضطرين إلى ضربهم حتى يدفعوهم إلى الأمام وتقاطروا على البئر ذلك المساء وطيلة الليل

⁴⁹⁴ - تجمع كافة الشهادات على بشاعة مشاهد الجنون التي سببها العطش ومن المعروف أن الزوج أشد حساسية للعطش من البيض لأنهم يتعرقون أكثر وبالتالي تفقد أجسامهم الماء بسرعة، وفي درجات حرارة مرتفعة كذه ومناخ جاف لا بد من خمسة عشر إلى عشرين لتر في اليوم لكل رجل.

ومن صباح الغد. ومن حسن الحظ لم يتخلف أي أوربي عند النداء وكان آخر من وصل الملازم "كوتانس" الذي بقي في المؤخرة حيث كان يعتني بمرافقه من الرماة الذي يمكن أن يفتخر بأن قائده قد أنقذه ولكنه لم يعترف بالجميل. افتقدنا سبعة وعشرين من رماة الفرقة الثانية وأحد عشر من الفرقة الثالثة واثنين من رجال "البولار" واثنين من الحراس وهكذا بلغ عدد المفقودين اثنين وأربعين، قامت جميع الفرق الموجودة في "أكيلا فاي" بدوريات البحث طول الوقت خلال يومين وجاءوا بالعديد من المتأخرين عن الركب ولكن لم يعد هناك أمل في الحصول على شيء يوم 17 رغم كون إحدى دوريات "الشيخ سيدياط قد اقتفت آثارنا من موقع أبعد من مكان المعسكر يوم 13.

لقد تم العثور على إحدى عشرة جثة أما الآخرون فلم نعثر عليهم. من هذا السرد الطويل نتبين الأسباب الكامنة وراء هذه النتائج ولكن يجب أن لا يخفى علينا أن هذه الخسائر كانت أقل ما كان متوقعا وكان من الممكن تقليصها في الزمن العادي بثلاثة أرباع ولكن لا يمكن لمن يصطحب الزوج أن يتفادها تماما بل أوشكت القافلة برمتها أن تهلك.

إن خطورة الظروف التي جرت فيها هذه المسيرة متأتية أولا من ضربات الحر التي واجهناها طيلة عبور المنطقة المعطشة ثم من استحالة إحكام النظام حين يتعلق الأمر برماة الزوج العطاش فلم تكن كمية الماء كافية ولو كانت كذلك لكنا ضاعفنا الحصص الموزعة مرتين أو ثلاثا لأن الزوج أثناء الحرب لا بد لهم من عشرات اللترات للفرد كل يوم بسبب نقص التدريب وضعف المناعة الجسمية الذي عانت منه الفرق منذ زمن جراء تغذية ناقصة ومن جهة أخرى بسبب التعب الإضافي الذي عانوه من المسير الإضافي إلى "تابرنكوت" وأخيرا ومهما قيل بسبب سوء نية بعض المتمردين الذين تسببوا في إثارة إطلاق النار دون ضرر لحسن الحظ بين الزوج والبيض يوم 15 مايو.

لقد تحقق الهدف الرئيسي وستعبر القافلة ومهما كانت الخسائر أليمة فقد تم تحقيق الهدف رغم كل ذلك وستستمر قافلة آدرار.

لقد تحلى الأطر الأوربيون بمستوى من الصبر والإخلاص يفوق كل تقدير فطيلة هذه الأيام اللامتناهية من المعاناة الجسمية لم ييأس أي واحد منهم ولم يفقد رباطة جأشه.

كل من كان من البيض قد أخلص في خدمة هؤلاء الدونيين حتى وإن كان قد تلقى سيء الجزاء، فانصراف الأوربيين دون رد تحت طلقات بنادق الرماة كان عملا رائعا مثيرا

للإعجاب فلكي يصمد المرأ أمام مثل هذه المحن لابد له من عقل يفكر في شيء آخر غير القتال.

ومن بين جميع رجالنا أبان "البولار" عن مقاومة رائعة ونشاط مبرهنيين على الفرق الشاسع بين الأحرار والعبيد في الأوقات الصعبة. وفيما يلي تلخيص العقيد لرأيه حول كل هذه القضية في البرقية الموجه في المكتب في "سانلويس" حيث يقول:
- "أكتب بالشفرة وحول إلى الحاكم العام والجنرال القائد الأعلى:
"تيزكي" بتاريخ 29 مايو 1909، "كورو".

كتيبة "افير جان" التي تضم الوجدتين الثانية والثالثة و 23 متطوعا قد واجهت حادثا خطيرا يومي 14 و 15 مايو بين "أعكيلت أنعاج" و "أكيلال فاي". فبسبب موجة حر غير مسبوقة تشتت جزء من الرماة وخرج عن السيطرة، وعند الوصول إلى "أكيلال فاي" كان عدد المفقودين أربعين تأكد موت أحد عشر منه وقامت بالبحث فرق على الجمال، توجد لدى الكتيبة قرب ماء كثيرة و 1700 لتر من الماء في البراميل ومن جهة أخرى وجدت المساعدة أمامها من مفرزة اترارزة المقيمة في "أكيلال" حيث أرسلت لها أيام 13، 14، 15 دعما قويا من الماء، أخشى أن يكون السبب، بالإضافة إلى الظروف المناخية، راجعا إلى ضعف جسمي ومعنوي حاد تعاني منه فرقة الرماة، وكنت قد أخبرت بالمستوى المتدني جدا لبعض عمليات الاكتتاب في تقرير أرسلته سنة 1908م في مراسلات إلى الملازمين "دوفليكوند"، "لوتانغ"، "لابريير" الذين تولوا في السابق قيادة كتيبة من المجندين الجدد في أغسطس. التقرير يتتابع.

تم إنقاذ الكتيبة بفضل طاقة الرائد "افير جان" والأوربيين وبعض الرجال المحليين، ذكر منهم الرائد بوجه خاص كل من: النقيب "كامي" والملازمين "بلود"، "سيشى"، "كوتانس"، و"دوبوك" والعرفاء: "سارى"، و"ماتيو"، و"جانين"، والمساعد من المحليين "صمبا صال" وكثيرين غيره من المحليين ومن العاملين في القافلة: الرقيب "فورييدوبرات" والطبيب الماجور "ماي" والملازمين "أوبير" و"بيرتومي" و"موجيني بولى" والرقيب الدركي "ديبس" وأتشرف بأن أطلب لهم تهنئة في نفس الوقت الذي أرسل فيه تقرير الرائد.

الفرقة الثانية استقرت كما كان مقررا عند "أكيلال فاي" وانطلقت القافلة يوم 25 مايو من هذا البئر تحت حراسة جمالة اترارزة.

الفرقة الثالثة ومعهم قرب ماء لكل رجل وكمية احتياطية قدرها 1000 لتر، وقد أعلن الملازم "أوبير" عن وصوله إلى "أعكليت" بتاريخ 30 من الشهر. "الشيخ سيديا" يرافق القافلة. وفي برقية بتاريخ 02 يونيو:

"وصلت قافلة "أوبير" بكامل أفرادها وفي وضع جيد إلى "أعكليت أنعاج" صباح يوم 31 مايو تحت حراسة جمالة اترارزة والفقرة الثالثة، وقد أشار الملازم "دوبوك" إلى أن معنويات الرماة مرتفعة جدا. جاء في المعلومات الإضافية التي قدمها الرائد "افرير جان" أن عدد القتلى بلغ 12 وعدد المفقودين 27 بالإضافة إلى ثلاثة مساعدين هو رقم خسائر الكتيبة أثناء مسيرتها إلى "أكيلا فاي". وإلى جانب الأسباب المتمثلة في الضعف الجسمي وهبوط المعنويات لدى بعض الرماة العائد لسبب أساسي هو الحرارة الفائقة التي تعرضوا لها فجأة. الخسائر الجسيمة التي تكبدتها الكتيبة تعود إلى الكارثة المناخية التي يمكن أن نقارنها بما حدث للكتيبة الخارجية حين فقدت الكثير من رجالها بسبب السقوط المفاجئ للثلوج قرب "عين الصفرة" في شتاء 1908م. تأتي هذه الخسائر إلى جانب أسباب أخرى أدت إلى انخفاض العدد الذي كان موضوع الطلب الإضافي الذي أرسلته تحت الرقم 692 ر.ج، ألح فيه على أن يتم اختيار هؤلاء الرجال إن أمكن من "البولار" وأن يتم إرسالهم عبر طريق "المجرية".

وكان العقيد قد كتب إلي يوم 29 مايو يقول: "أتشرف بأن أؤكد لكم أنني استلمت تقريركم حول الرحلة من "أعكليت أنعاج" إلى "أكيلا فاي" ولا أكاد أحتاج إلى التذكير بمدى المفاجأة الأليمة والتأثر العميق الذي أصابني بسبب الحادث المفاجئ الذي تعرضت له الكتيبة وبالنسبة لجيش يتوفر فضلا عن قرب الماء على الكمية الاحتياطية التي وصفتموها بالكافية في رسالتكم ليوم 06 مايو ووجد أمامه أيام 13، 14، 15 أربع قوافل من سخرة الماء، لكي يخلف مثل هذا الجيش الذي يقوده ضابط في مستوى تجربتكم وكفاءتكم، أربعين رجلا على الطريق، فلا بد دون أدنى شك أن يكون من بين أفرادهم من لم تعد تتوفر فيهم الصفات الجسمية والمعنوية المطلوبة في الجندي، وأبعث لكم نسخة من البرقية التي أرسلها إلى دكار بشأن هذا الحادث الأليم، إذ أعتقد أن من واجبي إطلاع السلطة العليا على المستوى المتدني لجزء من الرماة العاملين معنا.

منذ مراسلتكم بتاريخ 17 مايو وصلنتي ثلاث مراسلات من "أكيلا" أو من "بوتلميت" تتعلق بـ"أكيلا" ومن المفاجئ بالنسبة لي أنها لم تتضمن خبرا إضافيا وستقولون لي في

رسالتكم إن أربعين رجلا مفقودون وقد تأكد موت أحد عشر منهم مع فقدان سبع بنادق وأن فرقة بحث يقودها "المحرز" تواصل البحث وهذا يفتح الأمل في العثور على بعض الرجال الأربعين المفقودين. وقد انتظرت وما زلت أنتظر الكلمة الأخيرة بكل قلق. أطلب منكم نقل تهانئي إلى الضباط وضباط الصف والرجال المحليين الذين أشرتم إليهم بصفة خاصة، وأهنؤكم شخصيا على إنقاذ كتيبتيكم من هذه المحنة الرهيبة.

وأمنح مكافأة من عشرين افرنك لكل واحد من الرجال المحليين الواردة أسماؤهم في اللائحة المرفقة وأنبه قائد الكتيبة على أهمية ترقيةهم بسرعة. كما سأطبق العقوبات اللازمة ضد من ارتكبوا سلوكا مشينا".

مع الأسف لم يتم طرد أي واحد من المتمردين بصفة مخجلة (مع أنني طلبت فصلهم بإجراء تأديبي) من كتيبة "موريتانيا".

والأسوء من ذلك أنني لم أكن أستطيع طمأنة العقيد على مصير جزء من الأربعين رجلا المفقودين، لقد اختفى هؤلاء بصفة نهائية. لقد كان من الجيد فعلا أننا حققنا هدفنا بعدد من الخسائر كان من الممكن أن يكون أكبر لولا الإخلاص وحسن السلوك العسكري لضباط وجمالة اترارزة. وإذا كنت، كما يقول العقيد، قد تمكنت من إنقاذ الجزء الأكبر من كتيبتي من هذه المحنة فهو يفكر في أنني قد استتجدت بهم فور مغادرتي "عسرت" وقد التزمت بالواجب. لم يتم بلوغ الهدف فقط وإنما تمكنت الفرقتان 2، 3، من إجراء التحركات والعمليات الواردة في أمر التحرك رقم 28 دون أن تؤثر الخسائر على معنوياتهما، فالأمر لا يعدو نقصا في الأعداد.

كانت الفرقة الثانية متجهة معي إلى "انواكل" يوم 4 يونيو ومن هناك إلى "تمزكيدة" وغادرتها يوم 12 يونيو لأصل بوتلميت. كانت برقيات العقيد تشير إلى وصول قافلة جمالة اترارزة والفرقة الثالثة إلى آدرار بمعنويات مرتفعة جدا وتحت قيادة ضابط معترف له بالقدرة القائدة على ضبط الوحدات الأكثر تمردا إنه الملازم "دوبوك". لقد عادت الأمور في النهاية إلى مجاريها الطبيعية أنا وحدي ما زلت أواجه المحن وقد رأينا ما بذلته من عناية لمعالجة فرسي "بوشويمه" وكان "سيدي" قد أنقذه لي من الموت عطشا. ومع الأسف يبدو أن قدر "بوشويمه" أن يموت الآن. فبعد أن نجا مرتين من الموت عطشا، ها هو يموت بسبب

التيتانوس، فقد أصيب بجرح خفيف على الكلية فسقط يتمرغ في روثة ومن الغد وجدناه ميتا متصلب العنق مرفوع الرأس.

خاتمة

توجهت مبكرا إلى "بودور" التي وصلتها يوم 21 يونيو وفيها التقيت الجنرال "كودرلي" القائد الأعلى للجيش، وكان متوجها إلى "آدرار" مرورا "بالمجرية"، ولم أفوت الفرصة،

فأخبرته بمآخذي على فرقة الرماة العامة ضمن قافلة "آدرار" رغم علمي أن ذلك لن يروق له، ولكن هذه الصراحة قد أضرت بي... تم اقتراحي للترقية إلى الرتبة الأعلى سنة 1909، وحظيت بنفس الاقتراح مرة أخرى سنة 1910 ثم 1911، إنه المصير القاسي، وقد تنجح يا رائد، من يدري؟

غادرت من "أبودور" إلى "سانلويس" مبحرا على مركب شراعي نهري. نزلت من القطار في "دكار" يوم 13 يوليو صحبة رفيقي الوفي "سيدي" وأحد أخواله. استقبلني فيه الحاكم العام استقبال صديق قديم، وأكد علي اقتراح "سيدي" لنيل ميدالية شرف من الذهب مكافأة للجرح الذي أصابه وإخلاصه لفرقة الرماة السنغاليين أثناء الزحف من "بورجيمات" إلى أكلال فاي" في نوفمبر 1908. وغادرت سنة 1912 والمسكين مازال ينتظر "ميدالية الشكر"⁴⁹⁵ صعدت على متن الباخرة "شيلي" يوم 16 يوليو. وكنت في فرنسا يوم 23 منه وهناك تلاحقت علي أخبار الانتصارات الباهرة التي أحرزها العقيد خلال ما سأسميه فترة سلطته الشخصية. وابتهجت لذلك كثيرا وخاصة وأنها المرة الأولى التي أسمعهم يثمنون الانتصارات، وبعد ذلك بوقت وجيز عدت إلى موريتانيا في وضع خارج الإطار مع خلف "غورو" المقدم "باتي" من سلاح المدفعية الاستعمارية.

عدت إلى "دكار" يوم 12 دجمبر 1909 حيث بلغني خبر ترقيتي إلى مرتبة ضابط في كتيبة الشرف. وكان السبب مصدر فخر واعتزاز: "منذ خمس سنوات وهو في موريتانيا، أثبت باستمرار شجاعته وصلابته وصبره في الظروف القاسية، وبرز بوجه خاص أثناء حملة "آدرار" سنة 1909 وبالذات في معركة "حمدون" يوم 8 يناير 1909 حيث برهن على تجربة راسخة وشجاعة فائقة". كان هذا التوشيح مكافأة للخدمات التي قدمتها في موريتانيا طيلة خدمتي فيها... مع أنني خدمت فيها سبع سنوات لا خمسا فقط (لغاية 1911). وباستثناء وسام للملازم "جبرار" (معركة جبال "إيبي" يوم 27 دجمبر 1908)، لم أحصل على أي شيء لأي واحد من أفراد فرقة "إينشيري" السابقة. سأبقى أتعذب لذلك أمدا طويلا.

عشت حياة رتيبة منذ عودتي إلى موريتانيا، لقد تغيرت الأزمنة لقد سافرت كثيرا على كل حال، فرأيت "غيدماغا" و"كوركل" و"كيهيدي" و"أمبود" وهي مناطق لم أكن أعرفها كما

⁴⁹⁵ - "ميدالية الشكر": يطلقها السكان المحليون على الميدالية التي لا يترتب عليها الحصول على مبلغ مالي (إشارة من أفرير جان).

أعرف "مال" و"بوكي" وشاهدت من جديد "تجكجة" و"كيفة" و"موبت" و"الأك" و"غيمي" و"أكجرت" و"بوتلميت" و"المذرذرة".⁴⁹⁶

تجولت في "تكانت" ووفرت الحماية لحصاد التمور سنة 1910 في الرشيد و"تجكجة". وأقمت بوجه خاص في "المجرية"، وأحتفظ بذكرى مقبلة لمقامي فيها كالمنفى داخل أحد الحصون المنيعه.⁴⁹⁷

أردت سنة 1910 أن أغير على "تيشيت" لأحطم "عش الزنابير" اللاجئين فيها مع الأمير "ولد عيده" بعد طردهم من "آدرار" ولكن صدتني عن ذلك أوامر قائدي المقدم "اباتي" واردة الحاكم العام.

وكلل عسكري منضبط، امتثلت للأوامر. وبعد ذلك بأقل من عام، دفع أحد ضباط فرقة جمالة "كيفة" حياته⁴⁹⁸ ثمنا للحصانة التي كانت تتمتع بها هذه العصابة.

ولقد كان ذلك كافيا دون شك لحسم أمر هؤلاء. كما أن القبض على "ولد عيده" في "تيشيت" قد قضى على ضرر المتبقين من أنصاره.⁴⁹⁹

وبعد رجوعي من مناطق "تكانت" الشرقية التي جبتها حتى وصلت "غانب" انزويت في "المجرية" متفرغا للدراسات التاريخية والسياسية⁵⁰⁰. حول قبائل "البيضان" في منطقة موريتانيا الشرقية. وانهيت إقامتي بجولة تفتيش للشؤون المحلية جعلتني أجوب المناطق الجنوبية من البلاد من الشرق إلى الغرب عبر "كيفة-الجاكو".

اعتقد، بصدق، أن حقبة الغز وقد ولت في موريتانيا. فلدى "البيضان" إفراط في الذكاء، وحب المنفعة ولكن. كما هي الحال مع كل احتلال استعماري، من المحتمل أن توجد فترات ثورة. فلنحذر حتى لا تكون ثورة الزاويا هذه المرة.

لقد شارك العديد من الأشخاص في ما أوردته هنا من أحداث. وبإمكاني إعطاء معلومات عن الكثيرين منهم. وسأتحدث بوجه خاص عن من غادروا هذه الحياة ولن أتكلم عن

⁴⁹⁶ - المذرذرة: منطقة أو تجمع في جنوب الإقليم الساحلي من موريتانيا.

⁴⁹⁷ - هذه مبالغة من "افيرير جان" فموقع "المجرية" بعينه المائيه وبيئته الجبلية ليس خلابا لكن ليس لذجة تجعله يشبه السجن.

⁴⁹⁸ - هو الملازم "ديما سيز"، قتله العدو يوم 12 مايو 1912.

⁴⁹⁹ - مع الأسف، لا، "فولد عيده" الذي اعتقدوا إمكانية جره للتحالف، تمكن لاحقا من قتل الملازم "موسات" في مارس 1932 وبعد ذلك قبضت عليه الحركة التي يقودها النقيب "لوكوك" وقتلته. أنظر حول الموضوع "الجمال العظيم" تأليف "غوي لو رومير" منشورات "بيرجير"، لوفرولة 1955.

⁵⁰⁰ - "إيدوعيش": لم ينشر ولكن ورد الإعلان عن نشره في محضر مجلس "لجنة الدراسات التاريخية والعلمية لإفريقيا الغربية الفرنسية" ليوم 1 ديسمبر

الأوروبيين الأحياء لأن ذلك يتطلب حيزا كبيرا كما أن حديثي عن الأحياء سيجعلني أبدو حاسدا لبعضهم أو ناقما لحرمان البعض الآخر من امتيازات قد استحقها بجدارة.

يمكن أن أتكلم رغم ذلك عن الملازم "افيولي"، "مورات" القافلة، الذي مات ميتة مشرفة عند "الكصير الطرشان" على رأس فرقته من المتطوعين الذي اعتاد لبس زيهم وكان يبدو فيه رائعا. وكانوا يلقبونه "بوعوينه" وقد نال شعبية واسعة تحت خيام القبائل الحسانية في جنوب موريتانيا.

- ومن بين ضباط القافلة، أثار فقده حزنا كبيرا،⁵⁰¹ هناك فقيده آخار، أنه الشجاع "سيكولي" المعروف بولعه المفرط بمواجهة الأخطار والذي مات بنوبة حمى مستعرة.
- الشجاع "رافين" أحيل إلى التقاعد برتبة مساعد في سلاح الفرسان وحاز وسام فارس من كتيبة الشرف.
- ماريني "مساعد وحاز على ميدالية هو الآخر وقد دقت ساعة تقاعده.
- الطبيب "شيروي" أصبح إداريا بعد أن حكم طويلا كعسكري في "البراكه" وعمل في هذه الدائرة كما لم يعمل أي واحد.
- الملازم المسكين "مولني" مات غرقا في "تولون" وذلك لعمره مصير غريب على رجل موريتاني.
- الرقيب "افياب" قتل مرفوع الرأس في معركة "نيملان" سنة 1906.
- جميع الجزائريين تقريبا قد شقوا طريقهم مثل "عكلي على" و"كروم" و"البشير الهواري" الذين أصبحوا ضباطا محليين و"سعيد مجيكان بن كاسي" الذي خدم، حائز على ميدالية عسكرية وكذلك "ديبس بن عيش".
- "اخيارهم" العجوز ذو اللحية الزرقاء، قد رحل عن هذا العالم سنة 1907، بعد أن عاد للالتحاق بالأمرء ولطالما شارك في السابق في تدبير اغتيالهم.
- "ولد إبراهيم السالم" أصبح أميرا لآترارزه بينما لجأ "ولد سيدي" إلى المغرب وهو يقيم في ضواحي "تيزنيت"، وقد طلب دون جدوى أن يعود إلى بلده الذي أصبح مستقرا الآن، ولكن عودته قد تثير الاضطرابات. أما ما لعينين فقد مات سنة 1910 وخلفه نجله "الهيبة" وهو

⁵⁰¹ - أنظر كتاب الجنرال "غورو" (موريتانيا-آدرار)، ص: 215 و 216.

أكثر تقبلا للتعامل مع الفرنسيين. وقد يكون بعض "اتلاميذ" قد خضعوا للسلطة ولكني لا اعتقد أن استسلامهم يستحق ثقة كبيرة... بل أشك في اخلاصهم.⁵⁰²

- أمير "لبراكه" السابق "أحمدو ولد سيدي اعلي" مات في منفاه بالمغرب في "تيزنيت" ومازال باب خلافته مفتوحا حسب علمي.
- "محمد المختار ولد الحامد" اللاجئ هو الآخر في "وادنون" ما زال يتأمر ضدنا، وبما أن أنصاره، بعد العفو عنهم، قد عادوا إلى "تكانت" منذ ربيع 1910، فهو يتحين الفرص لتدبير حيلة خبيثة بمساعدة "كنته" فهل نحن يقظون من هذه الناحية؟
- "ولد الديد" استسلم سنة 1909، وهو يبدو مذاك مطيعا للأوامر.
- الأمير السابق "ولد عبده"، تم القبض عليه أخيرا في "تيشيت"، وهو آخر القادة المنشقين الكبار وهو في نفس الوقت أصغرهم سنا.
- "إدوعيش" استسلموا جميعا منذ قبراير 1910م ونجل "محمد ولد اسويد أحمد" الذي تأخر قد قدم في مايو الأخير إلى "سانلويس" مستسلما للمقدم المفوض للحكومة العامة.
- لقد تلاشت، حسب اعتقادي، كل مقاومة أبطال استقلال "البيضان" السابقين بني حسان.

ومع ذلك يجب أن لا نبالغ في إغضاب حلفائنا، فيجب مثلا أن لا نضحى بـ"العلب" الذين خدمونا بإخلاص منذ خمس سنواتفي مقابل أتباعهم "لمزاركه" الذين لم يفعلوا قط سوى نهب الجميع.

قد يكون من الحكمة أن نجعل قبائل حسان ترتبط بنا شيئا فشيئا، ليس فقط من أجل أن نختار فرق جمالنتنا من بين أبنائها، ولكن من أجل تعويد القبيلة بكاملها على السير في خدمتنا من خلال رجالها.

وعلينا، من جانب آخر، أن نحذر الزوايا، إما بعدم الغفلة عما يحكيونه من مؤامرات خفية وإما بمراقبة تحركاتهم الإسلامية وإما، وهذا ضروري، بعدم ترك زمامنا في أيدي المترجمين، فجميعهم مسلمون متعصبون ويعملون على توجيه صراعنا مع القبائل الحسانية بتحريك من قبائل الزوايا، أو بما يحقق تفوقا وبيلا علينا للأخيرة على الأولى، والحال أن

⁵⁰² - لقد استسلم ابناء وأتباع ماء العينين الذين لديهم أملاك أو نخيل في المناطق الخاضعة للسلطة الفرنسية، ولكن شكوك "افير جان" لها ما يبررها ويتبين ذلك لاحقا في محاولات "الهيبة" وامريه ربو "انطلاقا من المغرب.

جميع الزوايا كانوا، حين مغادرتي موريتانيا، قد اعتمدوا، بواسطة المترجمين، سياسة المجارة لاستغلال العمل معنا بهدف التشويش علينا وخطط أوراننا إذا لم يحصلوا منا على وضع يجعلهم فوق بني حسان، وذلك هدف قديم لديهم منذ حرب "شريبه".⁵⁰³ وبكلمة واحدة، أكبر خطر في الوقت الراهن هو أن نسلم زمامنا للزوايا، فسيقودونا حتما إلى باب الخروج.

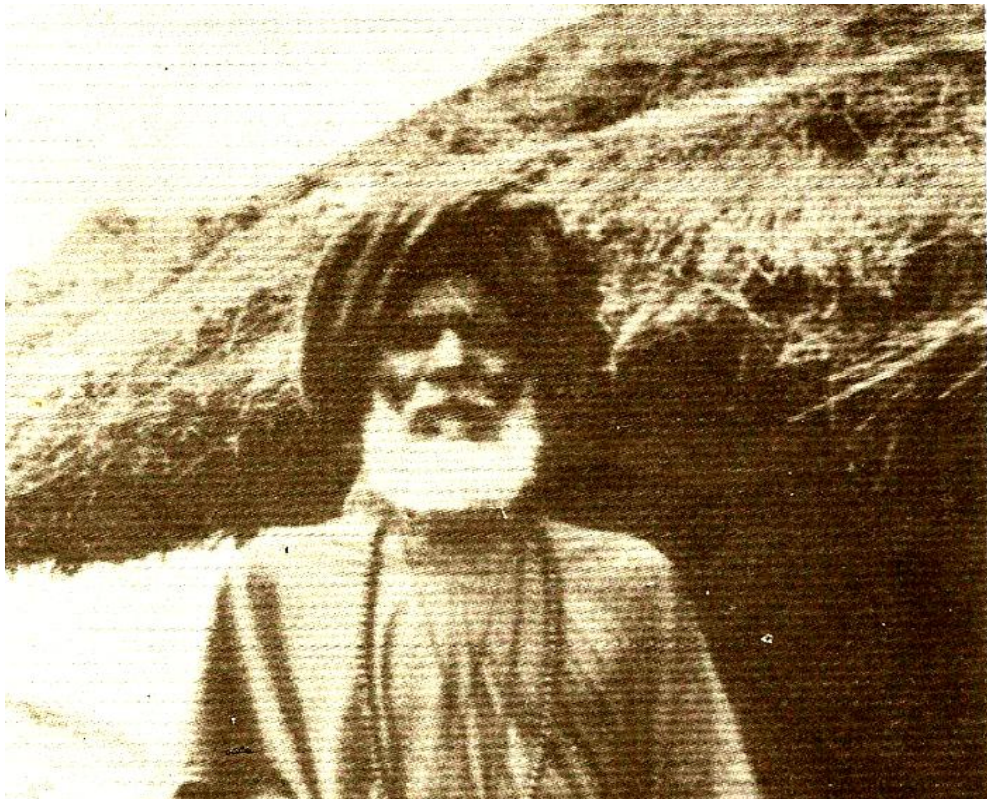
ولن يكتمل الأمر دون أن أعطيكم، قبل الختام، أخبار "سيدي" كان قد شارك أواخر سنة 1909م، بوصفه أحد المتطوعين، في العديد من الغارات ضد أعدادنا وكعادته أبلى بلاء حسنا خلال المعارك وفور علمه بعودتي بادر بالقدوم إلي في "المجرية" وخدم رئيسا للفرقة الدائمة للمتطوعين في "تكانت" طيلة تسعة أشهر، وحين بلغه أن "لعلب الكحل" قد سرقوا ممتلكاته وأسأوا معاملته، استأذني في العودة إلى "اترارزه" وقد لقيته هناك في إبريل 1911م، وهو لم يحصل بعد حينها على الحكم بإعادة ما فقده، ومن كل ما حصل عليه من خدمتنا لم يبق له سوى ميداليته الاستعمارية، ولكي يضمن لنفسه الحماية المباشرة في غيابي، انضم بتاريخ 12 مايو 1911 إلى فرقة الخيالة السنغالية، ولدي تقارير جيدة حول سلوكه، ولكن الحياة في "سانلويس" باظهة التكاليف بالنسبة لخيال يعيل زوجة وطفلا وأما، كما أنه يواجه حسدا شديدا من رفاقه الزوج وهو، إن صح التعبير، في وسط أدنى من مستواه ولن يتردد في الخروج منه فور حصوله على رتبة ليذهب للخدمة ضمن فرق الجمالة "البيضان" في بلاده. وأتمنى أن أمد له يد المساعدة إذ لا أظنني أفاجئ أحدا إذا بحثت برغبتني في الخدمة من جديد في بلاد "البيضان".

وعند هذا الحد أوقف سرد رحلاتي، أود فقط من خلال هذا الوصف الدقيق، أن أكون قد قدمت للقارئ صورة صادقة لأفراحنا وأتراحنا وأعمالنا ومعاركنا أي لحياتنا على الأراضي الموريتانية. وأرجو أن ينال كل ذلك إعجاب القارئ وألتمس المعذرة، ولو متأخرا، في كوني تحدثت عن نفسي طوال هذا السرد، ومع ذلك كلي أمل، عند ضم آخر صفحات هذا الكتاب، أن لن يعتبرني أحد مترفا أسعى لبذخ في غير محله وما أنا إلا رجل صدق جدية مأموريته، فقاسى واجتهد عن حسن نية.

⁵⁰³ - حرب وقعت آخر القرن السابع عشر الميلادي انتصر فيها "حسان" على "الزوايا" وجردهم من السلاح (الإشارة من "فيرر جان") وأقام "حسان" إثر هذه الحرب مجتمعا يحتلون فيه الصدارة ولكن هذا لا يصدق إلا على المناطق الجنوبية وخاصة "اترارزه" و"لبراكته".



ولد سيدي وأخيارهم
موريتانيا / اترارزه 1903



أخبارهم المشهور الملقب بصاحب "الحيمة الزرقاء"

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
4	الرائد افيرجان 1869 – 1917
5	مقدمة المترجم والناشر
32 – 6	تقديم
33	موريتانيا سنة 1903 – 1911
40 – 34	تمهيد
41	الجزء الأول: في اترارزة
61 – 45	تحت قيادة كوبولاني

68 – 62	تأسيس انواكشوط
80 – 69	قائد الدائرة
104 – 81	العملية الأولى في اترارزة
105	والآن نظرة إلى الوراء
106	في السياسة مع البيضان
138 – 107	جولة في الجنوب
149 – 139	في الطريق إلى سان الويس
159 – 150	في سان الويس
168 – 160	تطورات في موريتانيا
177 – 169	في اخروفه
186 – 178	ولد ابراهيم السالم على مسرح الأحداث اضطرابات ومكائد ويؤس
195 – 187	حصيلة اترارزة في 1904
203 – 196	عبر الدروب الضيقة
213 – 204	لقد قضي الأمر نهاية حملة اترارزة
214	الجزء الثاني: في تكانت
243 – 215	من انواكشوط إلى تكانت
251 – 244	حول قصر البركة
282 – 252	معارك ضد إدوعيش وقعة تشيبيه
305 – 283	معركة بوكادوم ضد إدوعيش
322 – 306	في تجكجة
323	مخطط مركز تجكجة
359 – 324	موت كوبولاني وما ترتب عليها
417 – 360	الدفاع عن تجكجة هجوم أمير آدرار
418	الجزء الثالث: قافلة آدرار على تخوم موريتانيا
439 – 419	عند خاي حيثص يعود الحديث عن أمير آدرار
449 – 440	أوبة إلى موريتانيا

472 – 450	قافلة أکجوجت معركة أکلال فاي
486 – 473	فرقة إينشيري المتنقلة
503 – 487	قافلة الحمير
504	رسم لخريطة المخيم
510 – 505	مع العقيد كورو في آدرار
511	رسم واد سكيليل
517	رسم لمركز أطار
565 – 539	من آدرار إلى أوكار
571 – 567	خاتمة
572	صورة لأخيارهم وولد سيدي موريتانيا – اترارزة 1903
573	صورة لأخيارهم صاحب اللحية الزرقاء
575 – 574	الفهرس